مختارات من كتـاب

رحلة إلى الشرق

ألفونس دي لامــارتين

ترجمة

د. جمال شحيّد

مـــاري طـــوق

مراجعة واختيـار

د. علي عقلة عرسان

د. إلـــهـــام كــــلاّب

الكويــت

2006

راجع هذا الكتاب وأشرف على طباعته

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محمد العلي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

910 رحلة إلى الشرق: **Voyage En Orient** / ترجمة جمال شحيد، ماري طوق غوش ؛ مراجعة
واختيار علي عقلة عرسان ، إلهام كلاّب . – ط1 . – الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري، 2006
715 ص ؛ 24 سم.
في رأس العنوان: مختارات من كتابات الفونس دي لامارتين (2)
1 . لبنان – وصف ورحلات. 2 . سوريا – وصف ورحلات.
3 . فلسطين – وصف ورحلات 4 . تركيا – وصف ورحلات
أ . علي عقلة عرسان (مراجع) ب . إلهام كلاّب (مراجع)
ج – مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. الكويت (ناشر)

رقم الإيداع : **Depository Number: 2006 / 439**

العنوان الأصلي للكتاب Voyage En Orient

من منشورات: **باريس دار نشر هاشيت وشركائها – فورن، جوفيه وشركائهما- باغنير**

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـر...

كتاب «رحلة إلى الشرق» عبارة عن وصف حي لما شاهده لامارتين في رحلته التي زار خلالها لبنان وسورية وفلسطين وتركيا، وقد تميز الكتاب بالأسلوب الأدبي الرومانسي الرائع الذي عرف به لامارتين ولا يخفى على فطنة القارئ أن لامارتين وصف ما رآه حقيقةً، فكتب ما شاهد وما رأى دائمًا، لكن كتاباته لم تخل من تضمين ما سمعه في أحايين كثيرة.

والمشاهدة – وإن كانت في جوهرها لا تنبئ عن كل شيء – تبقى أصدق من السماع بالضرورة، وقد لعب اختلاف المصادر وقلّتها – في ذلك العصر – مقارنة بالعصر الحالي، وتعدد الأهواء، وبعض الآراء والكتابات التي لا تخلو من ميل مؤلفيها باختلاف انتماءاتهم، لعب هذا الاختلاف دورًا في تشويه بعض الحقائق.

كما أن الأقطار التي زارها لامارتين كانت تعج – كغيرها من الأقطار – بالكثير من التعقيدات الاجتماعية وكثرة الأقليات العرقية والدينية، والتخلف الذي هو أساس لمعظم المشكلات. وقد انعكس هذا الصراع بين الدولة العثمانية والشعوب التي كانت خاضعة لها آنذاك على جزء كبير من «رحلة إلى الشرق» فصور الصراع بين الدولة العثمانية وما تحكمه من شعوب من ناحية وبين الدولة العثمانية أو (الرجل المريض) والدول الأوروبية المتأهبة للانقضاض على تركتها.

إن المطلع على هذا الكتاب المهم، سيرى إعجابًا كبيرًا بالشرق وطبيعته الخلابة وشعوبه وأقلياته وتاريخه، وتقديرًا كبيرًا من لامارتين – مقارنة بغيره من الرحالة والمستشرقين – لنبي الإسلام وللدين الإسلامي، مما أثار عليه الأوساط المسيحية

المغالية والمحافظة في أوروبا، كما أثار عليه أوساطًا إسلامية عديدة، فاتهم بالمروق والكفر في أوروبا، بينما اتهم بالجهل والتجني عند المسلمين.

أما الآن وقد مرَّ على رحيل لامارتين ما يقارب الأربعة عشر عقدًا (١٣٧ سنة) فإننا نأمل أن يكون الطرفان قد ازدادا إدراكًا لأهمية تسامح الحضارات وتحاورها بديلاً لتصارعها وتصادمها.

أقدم بالغ شكري لمترجمي هذا الكتاب الدكتور جمال شحيد والأستاذة ماري طوق غوش، والشكر موصول لمراجعي هذا الكتاب الدكتور علي عقلة عرسان والدكتورة إلهام كلاّب، وللباحثين في المؤسسة الذين قدموا جهودًا طيبة في إخراج مختارات هذا الكتاب التي قررها مجلس الأمناء، على هذه الصورة.

والله ولي التوفيـــق،،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويـت للثالث والعشرين من شعبان 1427هـ

الموافـق للسابع عشر من سبتمبر 2006م

****

الجـــزء الأول

ترجمة: **د. جمال شحيّد**

مفتتـــح

في القرن الثامن عشر احتلّ الشرق مكان الصدارة في الأدب الأوروبي بعامة، وفي الأدب الفرنسي بخاصة. ولكن الشرق الذي يتجلّى في الروايات والمسرحيات والقصائد التي كتبت آنذاك، هو الشرق المتخيّل المتأثر بألف ليلة وليلة، الشرق السري والغامض الذي تسيطر عليه القدرية والاستيهامات الجنسية والمغامرات السحرية، وبدأت الصورة تتغيّر مع الرحالة الأوروبيين الذين شاهدوا الشرق على الواقع، ولكن دون أن يتخلصوا جميعهم من تلك النظرة الخيالية.

ومن الكتّاب الفرنسيين الذين زاروا المشرق العربي وبلاد الشام، لا بد من ذكر ڤولني (١٧٥٧ – ١٨٢٠) الذي ترك لنا كتابًا مهمًا عنوانه «رحلة إلى سوريا ومصر» (١٧٨٦)، وفرانسوا دي شاتوبريان (١٧٦٨ – ١٨٤٨) الذي أتى في رحلة حج إلى الديار المقدسة في فلسطين وترك لنا أثرًا نفيسًا هو «جولة من باريس إلى القدس» (١٨١١)، وجيرار دي نيرڤال (١٨٠٨ – ١٨٥٥) الذي دوّن مذكراته عن رحلة شاعرية عنوانها «رحلة إلى الشرق» (١٨٥١)، وإرنست رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢) الذي أرسله الامبراطور نابوليون الثالث في رحلة علمية إلى الشرق، فاستقر في عمشيت (لبنان) وقام بأعمال تنقيب أثري في بيبلوس وصور، وكتب كتابًا مهمًا «جذور المسيحية» (١٨٦٦) من وجهة نظر علمانية، بعد أن زار فلسطين، وشارل رينو (١٨٢١ – ١٨٥٣) الذي كتب «من أثينا إلى بعلبك» (١٨٤٦)، وباتيستان پوجولا (١٨٠٩ – ١٨٦٤) الذي كتب «رحلة إلى آسيا الصغرى وبلاد الرافدين وتدمر» (١٨٤٠)؛ وجوزيف ميشو

(١٧٦٧ – ١٨٣٩) الذي ترك لنا كتابًا ضخمًا بسبعة أجزاء عنوانه «مراسلات من الشرق، ١٨٣٠ – ١٨٣١» (١٨٣٥)، والفيكونت دي مارسيلوس (١٧٩٥ – ١٨٦١) حيث كتب «ذكريات من الشرق» (١٨٣٩)، والرحالة الكبير پيير لوتي (١٨٥٠ – ١٩٢٣) الذي كتب أكثر من عشرة كتب من الشرق الذي عاش فيه وتزيّا بأزيائه لا بل عاش شرقيّاً في بلاده فرنسا، وأذكر منها تمثيلاً لا حصرًا «أزياديه» (١٨٧٩)، «الصحراء» (١٨٩٥)، «القدس» (١٨٩٥)، «الجيل» (١٨٩٦)، «المحبطات» (١٩٠٦)، «موت فيليا» (١٩٠٨)، والكاتب السياسي موريس بارّيس (١٨٦٢ – ١٩٢٣) الذي سجل لنا مشاهداته عام ١٩١٤ عن بيروت وجبال لبنان ودمشق وحلب وأنطاكيا، ونشرها في كتاب «تحقيق في بلدان المشرق» (١٩٢٣) و«روض نهر العاصي» (١٩٢٣).

ولكن الرحلة الأهم في نظري تبقى الرحلة التي قام بها ألفونس دي لامارتين (١٧٩٠ – ١٨٦٩) عام ١٨٣٢، بسبب المقاصد المتنوعة التي توخاها من ورائها، فبعد أن كتب هذا الشاعر مجموعة من الدواوين الشعرية، لا سيما منها ديوان «تأملات» (١٨٢٠) الذي أودع فيه أجمل قصائده وأشجاها مثل «الوحدة» و«البحيرة» و«الخريف» و«الغابة» وديوانه «أنغام شعرية ودينية» (١٨٣٠)، انخرط في عالم السياسة، فكان على رأس الثوار في ما عرف بـ«الأيام الثلاثة المجيدة» عام ١٨٣٠، وأوشك أن يفوز في الانتخابات النيابية عام ١٩٣١، وبعد هذا الفشل، قرر أن يبتعد عن القارة العجوز وأن يعود إلى المنابع، فذهب إلى مارسيليا واستأجر باخرة على متنها خمسة عشر بحارًا، ودعا عددًا من أصدقائه لمشاركته في الرحلة، ونقل إلى الباخرة مكتبته العامرة، وبدأت الرحلة في العاشرة من تموز/ يوليو من عام ١٨٣٢، وتزامنت مع سقوط الجمهورية اليونانية ومع الحرب المصرية التركية بين محمد علي والسلطان العثماني. وبعد توقف قصير في نوبلي وأثينا وصلت الباخرة إلى بيروت في ٦ أيلول/ سبتمبر وبدأت جولات لامارتين في جبال لبنان، حيث زار الليدي الانكليزية ستانهوب (ساحرة جون) والأمير بشير الشهابي في قصر بيت الدين، وفي ١ تشرين الأول/ أكتوبر بدأ برحلة قادته إلى

القدس. وبسبب الطاعون المتفشي آنذاك، زار بسرعة المدينة المقدسة في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر، ثم عاد إلى بيروت في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر. وأمضت العائلة شتاء مأساويًا بسبب مرض جوليا ابنة لامارتين ثم وفاتها بالسل الرئوي في ٧ كانون الأول/ ديسمبر عن عمر ناهز الحادية عشرة فقط. في شهر آذار/ مارس ١٨٣٣، زار بعلبك ثم دمشق ثم عاد إلى ربوع لبنان فزار أرزه الخالد، وما بين ٢٢ و٢٦ نيسان/ أبريل زارت زوجته القدس، بعد أن زالت جائحة الطاعون، وفي تلك الأثناء كتب الشاعر قصيدته الطويلة الرائعة التي يرثي فيها ابنته جوليا، وعنوانها «جيتسماني». وبدأت رحلة العودة مرورًا بجزيرة رودس ثم أزمير ثم اسطنبول حيث أقام ما بين ٧ و٢٥ تموز/ يوليو، ثم اندرينوبوليس ثم بلغراد ثم فيينا ثم سترازبورغ ثم باريس.

وبعد عودته إلى بلاده، رشح نفسه ثانية للانتخابات البرلمانية وفاز فيها (تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٣). وبدأت مرحلة لامارتين الخطيب البليغ، وعام ١٨٤٨ أصبح رئيسًا مؤقتًا للجمهورية، ولكن حزب المحافظين فاز في النهاية فسقط لامارتين عن كرسي الرئاسة. وعاد للكتابة، ولا سيما الصوفية منها، الكتابة التي بدأها بملحمة «جوسلين» (١٨٣٦)، وهي كناية عن (٨٠٠٠) بيت، ثم بملحمة «سقوط ملاك» (١٨٣٨) التي ضمت ١٢٠٠٠ بيت، ولكن التزامه السياسي دفعه إلى الكتابة التاريخية، فكتب «تاريخ الجيرونديين» (١٨٤٧) عن الثورة الفرنسية، ثم «تاريخ ثورة ١٨٤٨» و«تاريخ تركيا» (١٨٥٤ – ١٨٥٥) بثمانية أجزاء، و«تاريخ روسيا» (١٨٥٦).

يغطي كتاب «رحلة إلى الشرق» (١٨٣٥) أحداث ١٦ شهرًا تجول فيها لامارتين في مختلف بقاع البلدان الواقعة في الضفة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، وفيه روى تفاصيل رحلته بكثير من الدقة والرومانسية، فوصف ذكرياته وانطباعاته عن الشرق وسكانه وأديانه وعاداته وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبعد صدور الكتاب، منعته الرقابة الفرنسية، لأن الكاتب قال فيه إن «فرنسا أمّة أصيبت بالملل» ويتعين عليها أن تنفتح أكثر على العالم.

وفي الكتاب عبر لامارتين عن قناعاته الدينية والثقافية والسياسية التي يجب وضعها في إطار القرن التاسع عشر. إنه كاثوليكي متدين ولكنه منفتح على الإسلام الذي صادفه في الشرق وتعامل معه باحترام جم، ونظر إليه كدين متسامح وإنساني، ولكن لامارتين يبقى ابن الحضارة الأوروبية المقتحمة في القرن التاسع عشر، والتي كانت تعتبر أن لها رسالة كونية، ألا وهي تمدين العالم المتخلف، ولو عن طريق الاستعمار، بشتى أشكاله، وهنا تكمن إشكالية هذه الإيديولوجيا القائلة بالمركزية الأوروبية.

ومن جهة أخرى، عشق لامارتين الشرق، فرأى أنه أرض المعجزات (Terre des Prodiges) والرسالات السماوية. ولم ينظر إلى الشرق من خلال «ألف ليلة وليلة»، وإنما من خلال تاريخه العريق وحضاراته المتعاقبة التي شكّلت الحضارة العربية فيها منعطفًا رئيسيّاً، وكثيرًا ما ربط لامارتين رموز الحضارة الأوروبية بمنابعها الشرقية والعربية، ألم يقل: «ولدت شرقيّاً وسأموت شرقيّاً»؟

د. جمال شحيّد

دمشق ٢٠٠٦/٩/١٦

****

تنبيه يتعلق بالطبعة الأولى

هذا المؤلَّف ليس كتاباً ولا رحلة؛ لم أفكر يوماً في كتابة أي منهما. إنه كتاب أو بالأحرى قصيدة عن الشرق، هذا ما فعله السيد «دي شاتوبريان»[1] في كتابه «مسار رحلة» (Itinéraire)؛ إن هذا الكاتب الكبير والشاعر العظيم لم يفعل سوى المرور بأرض المعجزات هذه، لكنه طبع وإلى الأبد أثر العبقرية فوق هذا الغبار الذي حركته القرون المتعاقبة العديدة. لقد ذهب إلى القدس حاجّاً وفارساً، وهو يحمل بين يديه الكتاب المقدس والإنجيل والحروب الصليبية. أما أنا فقد مررت بها فقط كشاعر وفيلسوف؛ وعدت منها وأنا أحمل الكثير من الانطباعات العميقة في قلبي، والتعاليم الرفيعة والرهيبة في فكري. إن الدراسات التي قمت بها عن الأديان والتاريخ والأخلاق والتقاليد والمراحل الإنسانية لم تذهب سدى بالنسبة لي. فهذه الدراسات التي توسع أفق الفكر الضيق، والتي تطرح أمام العقل المسائل الدينية والتاريخية الكبيرة، تجبر الإنسان على التراجع وعلى التمعن في قناعاته البديهية، وعلى صياغة قناعات جديدة؛ إن تثقيف الفكر بهذه الأفكار الكبيرة والحميمية، وبهذه الأماكن وهذه الوقائع وهذه المقارنات بين الأزمنة المختلفة، والطبائع المختلفة، والمعتقدات المختلفة، كل هذه المعارف لا تضيع بالنسبة إلى المسافر والشاعر أو الفيلسوف؛ بل إنها تشكّل عناصر شعره

١ - فرانسوا رينيه دي وشاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤١) Chateaubriand تنقل بين بلاط الملك لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٩٢)، والإمبراطور نابليون الأول (١٨٠٤-١٨١٥) الذي غضب عليه وأبعده. كان سفيراً لبلاده في لندن وبرلين وروما، ووزيراً للخارجية الفرنسية من ١٨٢٢ إلى ١٨٢٤ . من أهم كتبه «مقالة حول الثورات» و «عبقرية المسيحية» و «مذكرات ما وراء القبر». وهو ممن تحاملوا على الإسلام مثل فولتير ومونتسكيو وفولناي، ودعا إلى احتلال الشرق. نشر شاتوبريان كتابه «عبقرية المسيحية» في عام ١٨٠٢، وفيه كراهية للإسلام والمسلمين. ويحاول لامارتين «١٧٩٠ - ١٨٦٩» أن يصحح بعض نظرات شاتوبريان أو يعارضها، وربما كان من حوافزه على الرحلة ما لقيته رحلة شاتوبريان من اهتمام، وهو يُكْبِر شاتوبريان شاعراً.

وفلسفته المستقبلية. فإذا ما جمع وصنّف ورتّب ووضّح ولخّص هذا الكمّ الكبير والمتعدد من الانطباعات والصور والأفكار التي تقولها الأرض ويقولها الإنسان للأشخاص الذين يسألونهم، وإذا ما نضجت روحه وقناعاته، يتكلم بدوره، ويعطي فكره لأبناء جيله، سواء كان هذا الفكر صائباً أو خاطئاً، يعطيه على شكل قصيدة أو فلسفة. فيقول كلمته، هذه الكلمة التي يتوجب على كل إنسان عاقل أن يقولها. ربما سوف تأتي هذه اللحظة بالنسبة إليّ أيضاً؛ لكنها لم تأت بعد.

أما بالنسبة إلى الرحلة، أقصد بذلك إعطاء وصف كامل ودقيق للبلدان التي اجتازها المسافر، وللأحداث الخاصة التي تعرّض لها، ولمجمل الانطباعات والأماكن والأشخاص والعادات وتأثيرها على الناس، فإنني في الواقع لم أفكر فيها كثيراً. لقد تمت هذه الدراسة عن الشرق، جرت في إنكلترا، وهي تجري الآن في فرنسا بوعي وموهبة ونجاح لا أدعي أنه بإمكاني التفوق عليها. إن السيد دي لابورد (de Laborde) يكتب ويرسم بموهبة المسافر في إسبانيا وبريشة فنّانينا الأوائل؛ والسيد فونتانييه (Fontanier)، القنصل في تريبيزوند[1] (Trébisonde)، يعطينا بشكل متتال صوراً دقيقة وحيّة عن الأجزاء التي لم يتم اكتشافها من الإمبراطورية العثمانية؛ «ورسائل الشرق» (Correspondance dOrient) التي كتبها السيد ميشو (Michaud) من الأكاديمية الفرنسية، ومساعده الشاب اللامع، السيد بوجولا (Poujoulat)، ترضي تماماً كل فضول تاريخي وأخلاقي وتثلج صدر الباحث عن الطرافة والراغب في معرفة الشرق. إن السيد ميشو وهو كاتب محنّك، ورجل ناضج، ومؤرّخ كلاسيكيّ، قد أغنى وصف الأماكن التي مرّ فيها، بإضافته كل الذكريات الواقعية التي اختبرها عن الحروب الصليبية؛ إنه يقوم بنقد الأماكن بواسطة التاريخ، وينتقد التاريخ عن طريق الأمكنة؛ ويتضح تفكيره الناضج والتحليلي من خلال الماضي ومن خلال عادات

١ - هي طرابزون.

الشعوب التي زارها، وينشر طرفة حكمته اللاذعة والأنيقة عن الأخلاقيات والعادات والحضارات التي مرّ بها؛ إنه الرجل المتقدم في الذكاء وفي العمر، الذي يقود الشاب من يده ويدلّه على المشاهد الجديدة بالنسبة إليه، كل ذلك وهو يحتفظ بابتسامة العقل والسخرية. إن السيد بوجولا هو شاعر ورسام؛ ويعكس أسلوبه الموسوم بانطباعات وألوان الأمكنة، يعكسها ناصعة وحارة تحت تأثير النور المحليّ. نشعر أن شمس الشرق تلمع وتُدفِئ أيضاً في عقله الشاب والخصب، عندما كان يكتب إلى صديقه؛ كانت صفحاته عبارة عن كتل من البلد نفسه، يحملها لنا متلألئة ببهائها الفطريّ. إن اختلاف هاتين الموهبتين التي تفضي إحداهما إلى الأخرى، تجعلان من «رسائل الشرق» المجموعة الأكمل التي يمكننا أن نتخيلها عن هذه البلاد الرائعة؛ وتجعل القراءة أيضاً أكثر تنوعاً وإثارة.

أما في مجال الجغرافية فإننا لا نزال نملك الشيء الكثير؛ لكن أعمال السيد «كاييه» (Caillet)، وهو ضابط شاب في الأركان العامة التقيت به في سوريا، سوف تُنشرُ عمّا قريب، وتُكمل بالنسبة إلينا لوحة هذه المنطقة من العالم. لقد قضى السيد كاييه ثلاث سنوات وهو يستكشف جزيرة قبرص، وكارامانيا (Caramanie)، وأجزاء مختلفة من سوريا، بكل هذا الحماس والجرأة التي تميّز الضباط المثقفين في الجيش الفرنسي. لقد عاد إلى موطنه منذ فترة قليلة، حاملاً إليه مفاهيم مفيدة جداً لحملة بونابارت، ويمكن كذلك أن تحضّر لحملات أخرى.

إن الملاحظات التي رضيت إعطاءها للقراء لا تملك أيّا من هذه الفضائل. لقد أعطيتها على مضض؛ وهي لا تصلح لشيء إلا لذكرياتي؛ ولم تكن موجّهة إلا لنفسي. لا يوجد فيها علم أو تاريخ أو جغرافية أو عادات، لقد كان القراء بعيدين جدّاً عن تفكيري عندما كنت أكتبها: وكيف كتبتها؟ أحياناً في الظهيرة، خلال فترة راحة منتصف النهار، في ظل شجرة نخيل أو تحت أطلال صرح من صروح الصحراء؛ وفي

أغلب الأحيان مساءً، تحت خيمة تضربها الريح أو المطر، على ضوء مشعل من الصمغ؛ ومرّة في صومعة دير ماروني في لبنان، ومرة أخرى على اهتزاز مركب عربي، أو على جسر قلعة شراعية وسط صيحات البحارة، وصهيل الخيل، مع الانقطاعات والتسالي المختلفة التي تحدث خلال رحلة برية أو بحرية؛ أحياناً كنت أتوقف عن الكتابة مدة ثمانية أيام؛ وأحياناً أفقد بعض الصفحات المتفرقة من ألبوم مزقته بنات آوى، أو بلله زبد البحر.

عندما عدت إلى أوروبا، كان بإمكاني ولا شك مراجعة هذه المقتطفات، وجمعها، وتنظيمها وإعادة سبكها والقيام برحلة أخرى كما فعلت. لكني سبق أن قلت إن كتابة الرحلة لم تكن واردة في ذهني. كنتُ بحاجة إلى الوقت وحرية التفكير والانتباه والعمل؛ ولم أكن أمتلك أيّاً من تلك المقومات لكي أعطيها. كان قلبي محطماً، وفكري شريداً، وانتباهي مشتّتاً، ولا أملك أي وقت فراغ؛ لذلك كان عليّ أن أحرق هذه الملاحظات أو أن أتركها على حالها. ثم مررت بظروف لا داعي لشرحها هنا، ألزمتني بانتقاء الخيار الثاني، وأنا نادم على ذلك، لكن الأوان قد فات.

فليغلقها القارئ قبل أن يقرأها، إذا كان يبحث عن أشياء أخرى غير الانطباعات الهاربة والسطحية لمسافر يسير دون توقف. إذ لا يمكنه أن يجد إلا القليل من الاهتمام بالرسامين: إن هذه الملاحظات تتعلق في مجملها بما هو تصويريّ؛ إنها النظرة المكتوبة، نظرة مسافر يجلس فوق جمل أو فوق جسر باخرة، ويرى المناظر تهرب أمامه، ولكي يتذكرها في الغد، يرسم بعض ضربات قلم غير مُلوّن على دفتر مذكراته. وقد ينسى المسافر أحياناً المشهد المحيط، فينطوي على نفسه، ويستمع إلى نفسه وهو يفكّر، وهو يستمتع أو وهو يتألم؛ فيحفر عندئذٍ كلمة من انطباعاته البعيدة، لكي لا تحمل رياح المحيط أو الصحراء حياته بأكملها، ولكي يبقى لديه أثر من زمن آخر، حين يعود وحيداً إلى منزله، ويحاول بعث ماض ميّت، ونشر الدفء في ذكريات باردة، ويعيد ربط حلقات حياة سحقتها الأحداث في مواضع عدّة. ها هي ملاحظاتي: إنها دون فائدة؛ ولا تطمح إلى النجاح؛ ولكنها بالمقابل تمتلك الحق في طلب الكثير من التسامح.

****

ذكريات وانطباعات

أفكار ومشاهد

مرسيليا في ٢٠ أيار ١٨٣٢

تلقت أمي من والدتها وهي على فراش الموت نسخة من الكتاب المقدس الذي طُبع في مدينة «روايومون» (Royaumont)، وعلمتني فيه القراءة وأنا طفل صغير. وكان في هذا الكتاب صور قديسين في كل الصفحات. فها هي سارة (Sara)، وها هو طوبيا (Tobie) وملاكه، ويوسف (Joseph) أو صموئيل (Samuel)، وكانت بالأخص مشاهد جميلة من مجتمع أبويّ اختلطت فيها الطبيعة العلنية والبسيطة للشرق بكل مشاهد الحياة البسيطة والرائعة للبشر الأوائل. وعندما كنتُ أنجح في تلاوة درسي وفي قراءة نصف صفحة من التاريخ المقدس تقريباً دون أخطاء، كانت أمي تكافئني فتكشفُ الرسم وتُبقي الكتاب مفتوحاً على ركبتيها، وتسمح لي بتأمله وهي تشرحه لي. لقد حبتها الطبيعة روحاً تقية وحنونة، وخيالاً مرهفاً وغنياً؛ كل أفكارها كانت مشاعرَ، وكل مشاعرها كانت صوراً؛ وكان وجهها النبيل والعذب يعكس في محيّاه المشرق كل ما كان يعتلج في قلبها، وما كان يرتسم في مخيلتها؛ وكانت نبرة صوتها الفضية والحنونة والوقورة والشغوفة تضفي على كل أقوالها نبرة من القوة والسحر والحبّ لا تزال تدوي في أذني حتى هذه الساعة، ولكن يا للأسف! بعد ست سنوات من الصمت! إن رؤية تلك الصور والشروحات والتعليقات الشعرية التي كانت تقوم بها أمي، كانت تمنحني منذ نعومة أظفاري ميولاً ونزعات إنجيلية. وللانتقال من حب الأشياء إلى الرغبة في رؤية الأماكن التي حدثت فيها، لم يكن هناك إلا خطوة واحدة. كنت أتحرق

منذ أن كنت في الثامنة من عمري إلى زيارة تلك الجبال التي تجلى فيها الرب؛ وتلك الصحارى حيث جاءت الملائكة لترشد هاجر (Agar) إلى مكان النبع الخفي، الذي أنعش ابنها المسكين المنبوذ والذي كاد يقتله العطش؛ يا لها من أنهر تتدفق من الجنة الأرضية، ويا لها من سماء تُرى فيها الملائكة وهي تصعد وتهبط فوق سُلّم يعقوب. إن هذه الرغبة لم تنطفئ قط في داخلي: بدأت أحلم منذ ذلك الوقت بالقيام برحلة إلى الشرق، وكنت في قرارة نفسي أقوم بعمل كبير: كنت أبني في عقلي وبصورة مستمرة، ملحمة دينية كبيرة تكوّن أماكنُها الجميلة المشهدَ الرئيسي؛ وكان يبدو لي أيضاً أن العقول التي تشك، والتي تشعر بالارتباك الديني، سوف تجد في هذه الملحمة هنا الحلول والسكينة المناسبة لها. وفي النهاية كان عليّ أن أستلهم منها ألوان قصيدتي؛ لأن الحياة كانت بالنسبة إليّ قصيدة كبيرة، تماماً كما كان الحب بالنسبة إلى قلبي. الله، والحب والشعر هي الكلمات الثلاث والوحيدة التي أريد أن أحفرها على شاهدة قبري، هذا إذا استحققت في يوم من الأيام هذه الشاهدة.

هنا تكمن منبع الفكرة التي تدفعني الآن نحو شواطئ آسيا. ولهذا السبب بالذات أنا الآن في مرسيليا أتحمل الكثير من المشاق لكي أغادر البلد الذي أحب، حيث يعيش أصدقائي، وحيث توجد بعض الأفكار الأخوية التي سوف تبكي عليّ وسوف تتبعني.

مرسيليا في ٢٢ أيار

استأجرت سفينة تتسع لـ٢٥٠ برميلاً، و٤٦ بحاراً. وكان الربان رجلاً ممتازاً. أعجبتني هيئته. وكان في صوته تلك النبرة الخفيضة والصادقة التي تميّز الاستقامة الحازمة والضمير الجليّ؛ وكان الوقار جليّاً في تعابير شكله، وفي نظرته هذا الشعاع المستقيم والصريح والحيّ الذي يُنبئ بتصميم سريع وحيوية وذكاء. وكان فوق ذلك كله رجلاً عذباً، ومهذباً وذا تربية حسنة. لقد تفحصته بالعناية اللازمة لاختيار رجل لن أضع بين يديه ثروتي وحياتي فقط، وإنما حياة زوجتي وطفلتي الوحيدة أيضاً؛ وتركزت عليه حياة أشخاص ثلاثة في شخص واحد. ليحفظنا الله وليعدنا سالمين.

كان المركب يدعى «السيست» (Alceste). والربان هو السيد بلان (Blanc)، وهو من سيوتا (Ciotat) .وكان معمِّر السفينة أحد تجار مرسيليا الأفاضل وهو السيد برونو روستان (Bruneau Rostand) .وكان يسبغ علينا رعايته وطيبته. لقد سكن هو نفسه في الشرق مدة طويلة. وكان رجلاً مثقفاً وجديراً بتقلد المناصب البارزة في مسقط رأسه، وسمحت له استقامته ومواهبه أن يكتسب تقديراً يعادل ثروته. وكان يتمتع بذلك كله دون تفاخر، وتحيط به عائلة رائعة، ولم يكن يهتم إلا بنشر تقاليد البر والفضيلة بين أولاده. أي بلد هذا الذي نجد فيه مثل تلك الأسر بين مختلف فئات المجتمع! وأية مؤسسة جميلة، مؤسسة العائلة التي تحمي وتحفظ وتُخلد قداسة الأخلاق نفسها، ونُبل المشاعر نفسه، والخصائل التقليدية نفسها تلك الموجودة في المنازل الفقيرة، وفي المتاجر أو في القصور!

٢٥ أيار

تستقبلنا مرسيليا كما لو كنا أبناء سمائها الجميلة؛ إنها بلد كرم، وشجاعة وروح شاعرية؛ إنهم يستقبلون الشعراء كإخوة لهم؛ لأنهم هم أنفسهم شعراء، ووجدت بين العامة من الشعب، وبين رجال الأكاديمية، وبين الشبان الذين دخلوا الحياة الإجتماعية للتو، وجدت مجموعة من الخصائص والمواهب التي لا تشرِّف بلدهم فحسب، وإنما تشرِّف فرنسا بأسرها. تبدو لي منطقة الـ «ميدي» (le midi) وشمال فرنسا، في هذا الصدد، أرفع بكثير من المقاطعات الواقعة في الوسط. إن الخيال ينضب في المناطق المتوسطة، وفي المناخات الكثيرة الاعتدال؛ لأن الخيال بحاجة إلى الحرارة المتطرفة. إن القصيدة هي ابنة الشمس أو الصقيع الأزلي: هوميروس (Homère) أو أوسيان (Ossian)، تاسو (Tasse) أو ميلتون (Milton) .

سوف أحمل في قلبي ذاكرة أبدية عن حفاوة أهل مرسيليا. يبدو أنهم كانوا يريدون زيادة القلق التي تعتصر القلب عندما نهمّ بترك الوطن دون أن نعرف إذا كنا سنراه ثانية في يوم من الأيام. سوف أحمل أيضاً أسماء هؤلاء الرجال الذين

استقبلوني بشكل خاص، والذين سوف تبقى ذكراهم كآخر انطباع عذب عن أرض الوطن: السيد «ج. فريسينيه» (J. Freyssinet)، والسيد دي مونغران (de Mongrand)، والسادة دي فيلنوف (de Villeneuve)، والسيد فانغافير (Vangaver)، والسيد اوتران (Autran)، والسيد دوفو (Dufeu)، والسيد جوفري (Jauffret)، إلخ، إلخ، كل هؤلاء الرجال الذين يتمتعون بميزة جلية في القلب وفي الفكر، إنهم علماء ومدراء وكتّاب أو شعراء. أتُراني أحظى يوماً بلقائهم من جديد، وبتسديد ما عليّ من جميل العرفان والصداقة التي يعذب أن نحملها وأن نسدّدها!

هذه هي الأبيات التي كتبتها هذا الصباح وأنا أتنزه في البحر، بين جزر بوميغ (Pomègue) وساحل البروفانس (Provence)؛ إنها وداع لمرسيليا، التي سأتركها مع الكثير من المشاعر البنوية. وهناك مقاطع تذهب أيضاً بشكل أعمق وأبعد في قلبي.

وداع... تكريم لأكاديمية مرسيليا

إذا أسلمتُ طياتِ الشراع السريع
ما منحتني السماء من سلام وسعادة؛
إذا استودعتُ أمواج الطبيعة الغادرة
امرأة وطفلاً، وهما فلذتا قلبي؛
إذا رميت إلى البحر، وإلى الرمال والغيوم،
كل تلك المصائر العذبة، والقلوب الخافقة،
بعودة غير أكيدة، دون أن أمتلك ضمانات أخرى
سوى سارية طوتها الرياح العاتية؛

ليس بالذهب وحده يشتعل العطش المتأجج
في قلب صنع لنفسه كنوزًا أنبل،
ولا أفنى بشعلة المجد وحدها

ولا بالتعطش الزائف لشهرة زائلة أيضًا؛
وثروة «دانتي» لا تجعلني في يومنا هذا
آكل ملح المنفى المرير،
ولا سورات الغضب المتقلب
تحطّم لديّ عتبة الأبوة:

لا، إني أترك باكيًا، في سفوح الوادي،
شجرًا محملاً بالظل، وحقلاً، وبيتًا
وذا ذكريات دافئة لا تزال مليئة،
تحيّيها النظرات الحانية عبر الأفق.
لي في ظل الغابات الوادعة ملاذات آمنة
لا تُسمع فيها ضجة الكتائب،
ولا أسمع، عوضًا عن العواصف المدنية،
سوى الأفراح والبركات.

أب كهل، تحيط به الصور العذبة،
يرتجف لصوت الريح الأصم في الشرفات،
فينهض ويدعو إله العواصف
أن يقيس عتو ريح على جناح السفن؛
وفلاحون أتقياء، وخدام بلا سيّد
يبحثون بأقدامهم عن خطواتنا الغائبة فوق العشب،
وكلابي في الشمس، ترقد تحت نافذتي،
وتصرخ اسمي بحنان.

لي أخوات رضعن من الثدي نفسه ،
أغصان هدهدتها الريح في الجذع ذاته؛

ولي أصدقاء روحهم من دم روحي عينه،
يقرؤون في عيني ويسمعون تفكيري؛
عندي قلوب مجهولة، تسمعني فيها إلَهَةُ الوحي،
أصدقاء غامضون تخاطبهم أبياتي،
أصداء لا مرئية تنتشر على دربي
لكي ترسل إليّ الحفلات الموسيقية.

لكن للروح ميولاً تجهلها الطبيعة،
تشبه نزعات تلك الطيور الجريئة
التي تندفع لتبحث عن طعام آخر،
لتحلّق وتجتاز الهاوية ذات المياه السحيقة،
ماذا ستطلب من مناخات الشفق؟
ألا توجد تحت سقوفها الطحالب والأعشاش؟
وباقات الحقل التي ذهّبتها الشمس
والسنبلة التي سقطت لصغار الطيور؟

وأنا مثلها أسعى لخبزي اليومي،
أسعى للهضبة والنهر المزبد؛
وعطشي لا يتجاوز رغباتي المتواضعة،
ومع ذلك أمضي وأعود مثلها؛
مثل تلك الطيور، تجذبني قوة نحو الفجر،
لكني لم ألمس بعيني أو بيدي
أرض الشام، امبراطوريتنا الأولى،
حيث عجن الله قلب الإنسان.
لم أبحر يومًا فوق محيط الرمل،

على اهتزازات مركب الصحراء المُنعِس؛
لم أرْوِ عطشي الذي لا ينضب،
في المساء، في الخليل، من بئر النخلات الثلاث المغطى؛
لم أفرش معطفي تحت الخيام،
ولم أنم في التراب حيث امتحن الله أيوب،
وفي الليل، على صوت النجوم المتلألئة العذب،
لم أحلم أحلام يعقوب.

بقيت لي من صفحات العالم السبع، صفحة لأقْرأها:
لا أعرف كيف ترتجف النجمة في السموات،
وتحت أي عدمٍ ثقيل يتنفس الصدر،
وكيف يرتجف القلب إذ يقترب من الآلهة!
ولا أعرف كيف، في أسفل عمود،
ينزل منه ظل الأيام القديمة على الشاعر الملحمي،
لا أعرف كيف يخاطب العشبُ الأذنَ، أو كيف تئز الأرض،
أو تبكي النسمة حين تمرّ.

لم أسمع في الأرز العتيق
صرخات أمم تعلو وتدوّي،
ولم أر في أعالي لبنان النسور النبوية
تنقض بإشارة من إصبع الرب فوق قصور صور؛
لم أرح رأسي على الأرض
حيث لا تملك تدمر إلا صدى اسمها،

ولم أجلجل في البعيد، تحت وطأة خطواتي الوحيدة،
إمبراطورية «ممنون» الفارغة.

لم أسمع، من جروفه السحيقة،
نهرَ الأردن الشاكي وهو يرفع نشيجه
باكياً مع دموع وصرخات أكثر رفعة
من التي أرعب بها «أرميا» أمواجه فيما مضى؛
لم أسمع روحي تغني في داخلي
في المغارة الرنانة التي أحسّ فيها شاعر الملوك،
في قلب الليالي، الأنشودة ذات اليد الملتهبة
تنتزع القيثارة من بين أصابعه.

ولم أقتف الآثار الإلهية
في الحقل الذي بكى فيه المسيح تحت شجرة الزيتون؛
ولم أبحث عن دموعه فوق الجذور
حيث لم تتمكن الملائكة الغيورة من تجفيفها!
ولم أسهر في الليالي الرائعات
في البستان الذي ينضح بالعرق،
صدى آلامنا الدامي، وصدى جرائمنا
يدويّان في قلب واحد!

ولم يتوسد جبيني التراب
الذي انطبعت فيه قدم المخلص وهو يرحل؛
ولم أُذِبْ الصخر تحت شفاهي
حيث أودعته أمه بدموعها العطرة!
ولم أدق على صدري العميق

في الأمكنة التي فيها، من بموته فتح المستقبل،
وفتح ذراعيه ليقبّل العالم،
ثم انحنى ليباركه!

من أجل هذا أمضي، من أجل هذا ألعب
بالأيام العبثية التي بقيت لي على الأرض هنا.
لا أحفل على أي شاطئ ستعصف ريح الشتاء
الشجرة العقيمة اليابسة التي لا تظلل أحدًا!
«يا للأخرق!» يقول الناس عني. إنهم هم الخرقاء!
لا نجد جميعنا خبزنا في كل مكان؛
فخبز الشاعر المسافر هو الفكر،
وقلبه يحيا من أعمال الرب!

وداعاً إذن، يا والدي العجوز؛ وداعاً يا أخواتي العزيزات؛
وداعًا يا بيتي الأبيض الرابض في ظل شجرة الجوز؛
وداعًا يا جيادي الخاملة في مروجي؛
وداعًا يا كلبي المخلص! الذي بقي في البيت وحيدًا!
صورتك تؤرقني وتتبعني كظلّ
سعادتي الماضية التي تحاول الإمساك بي:
فَلْتبد أقلَّ ريبة وأقل قتامة
الساعةُ التي سوف تجمعنا!

وأنت أيتها الأرض المُستسلمة للكثير من الرياح والأمواج
أكثر مما يستسلم مركبي الضعيف الذي يخفق فيه قَدَري!
أيتها الأرض التي تحملين في داخلك ثروة العالم!

وداعًا، لقد هرب شاطئك من أفق نظري الزائغ.
هل من شعاع سماوي ليمزّق الغيوم
التي تغطي العرش والمعبد، والشعب والحريّة،
ويُشعِل بنقاء أكثر شاطئَك المقدس
ومنارتك الخالدة!

وأنت يا مرسيليا، الجالسة على ثغور فرنسا
كما لو أنك تستقبلين ضيوفك في مياهك،
ومرفأك فوق بحارك يتألق أملاً
وينفتح كعش صقر أمام أجنحة السفن؛
حيث ضغطت يدي بشدة أكبر على يد حبيبة،
وحيث بقيت قدمي المرفوعة تتعلق بحب،
فلتتقبلي أمنياتي الأخيرة وأنا أغادر الوطن،
وتحيتي الأولى حين أعود!

١٣ حزيران

لقد قمنا بزيارة سفينتنا التي أصبحت بيتنا لأشهُر عديدة! إنها مقسمة إلى مقصورات صغيرة يمكننا أن نضع فيها سريراً معلقاً وحقيبة. لقد أحدث القبطان نوافذ صغيرة لكي يدخل الهواء وقليلاً من النور إلى المقصورات، ويمكننا فتحها عندما لا يكون الموج عالياً وحين لا تميل السفينة بشدّة. وقد حُجزت الغرفة الكبيرة للسيدة «دي لامارتين» ولِـ«جوليا». أما خادمات الغرف فقد كنّ ينمن في غرفة القبطان الذي رضي أن يتركها لنا. وبما أن الفصل كان جميلاً فقد كنا نأكل على سطح السفينة، تحت خيمة منصوبة عند أسفل الساري الكبير، وكانت سفينتنا الشراعية مليئة بالأطعمة المختلفة واللازمة للقيام برحلة تستغرق عامين إلى بلاد لا موارد فيها. ومكتبة تضم خمسمائة مؤلَّف، جميعها مختارة من كتب التاريخ والشعر وأدب الرحلات،

وتشكل أجمل زينة لأكبر غرفة. وقد جمعت حزم الأسلحة في الزوايا، واشتريت بالإضافة إليها مجموعة خاصة من البنادق والمسدسات والخناجر لكي نتسلح ونسلح رجالنا. فقد كان القراصنة اليونانيون يعيثون فساداً في مياه الأرخبيل؛ وصممنا على القتال إلى أبعد مدى وعلى منعهم من الاقتراب منًّا إلا بعد أن نكون قد فارقنا الحياة. كان عليّ الدفاع عن روحين أغلى من حياتي ذاتها. وكان على جسر السفينة أربعة مدافع، أمّا الطاقم المسؤول عنها والذي كان يدرك المصير الذي ينتظر البحارة الذين يهاجمهم اليونانيون، فقد كانوا يفضلون الموت على الاستسلام.

١٧ حزيران ١٨٣٢

اصطحبت معي ثلاثة أصدقاء. الأول كان أحد أولئك الأشخاص الذين تضعهم العناية الإلهية على طريقنا حين ترى أننا قد نحتاج إلى العون، وهو رجل لا ينهار أمام المصائب أو الأخطار، واسمه: «أميديه دي بارسوفال» (Amédée de Parceval). وكانت تجمعنا منذ أيام الطفولة مودة لم تتغير في أية مرحلة من مراحل حياتنا. وكانت والدتي تحبه كابن لها؛ وأنا أحببته كشقيق لي. وفي كل مرّة كنت أتلقى فيها ضربة من القدر كنتُ أجده قربي، وقد أتى ليأخذ نصيبه، الحصة الكبيرة، بل المصيبة بأكملها إن استطاع. إنه قلب لا يحيا إلا بفرح الآخرين، ولا يشقى إلا بشقائهم. عندما كنت في باريس منذ خمسة عشر عاماً، وحيداً ومريضاً ومفلساً ويائساً ومحتضراً، كان يمضي الليل يسهر قرب مصباح احتضاري. وحين فقدت بعض الأشخاص الذين كنت أعبدهم، كان هو دائماً الذي يأتي ليساعدني على تحمّل المصيبة لكي تخف وطأتها عليّ. عندما توفيت والدتي جاء إليّ ما إن انتشر النبأ المشؤوم وقادني مسافة مئتي فرسخ لكي أصل إلى القبر حيث بحثت، بغير جدوى، عن الوداع الذي خصتني به والذي لم أتمكن من سماعه! وبعد ذلك... لكن آلامي لم تنته، وسوف أجد صداقته طالما هناك يأس في قلبي يحتاج إلى أن يرتوي، ودموع أحتاج لأن تختلط بدموعي.

ورجلان طيبان، طريفان، ومثقفان، رجلان من النخبة، جاءا أيضاً لمرافقتنا في هذا الحج. أحدهما السيد دي كابماس (de Capmas)، وهو نائب محافظ فقد وظيفته بسبب ثورة تموز، وفضل القبول بفرص العمل المؤقتة لمستقبل غير مضمون، على أن يحافظ على وظيفته. إن قَسَم اليمين لا يتماشى مع استقامته، ولا يثير اهتمامه. إنه أحد أولئك الرجال الذين لا يحسبون أي حساب أمام أية استرابة تتعلق بأمور الشرف، والمشاعر السياسية بالنسبة إليه تتمتع جميعها بحرارة العاطفة وبكارتها.

ورفيقنا الآخر هو طبيب من هوندشوت (Hondschoote) يدعى السيد دي لا ريويير (de la Royère) .تعرفت إليه في بيت أختي، في الفترة التي كنت أنوي فيها القيام بهذه الرحلة. لقد شدّني نقاء روحه، وكياسة عقله الأصلية والعفوية، ورفعة مشاعره السياسية والدينية. فرغبت في أن أصطحبه معي، على اعتباره مصدراً أخلاقياً أكثر من كونه عناية طبية. وقد هنأت نفسي فيما بعد على هذا القرار. إني أثمّن طباعه وفكره أكثر أيضاً من مواهبه، علماً بأنه يمتلك الكثير من المواهب الجليّة. وكنا نتحدث معاً في أمور السياسة أكثر مما نتحدث في الطب. إن آراءه وأفكاره حول حاضر ومستقبل فرنسا واسعة لا تقيّدها المشاعر أو الكراهيات الشخصية. وهو يعرف أن العناية الإلهية لا تحابي في عملها أي حزب، ويرى الأفكار مثلي في السياسة الإنسانية ولا يقيم وزناً لأسماء الأشخاص. إن فكره يذهب مباشرة إلى الهدف، لا يهتم بالقنوات التي يجب أن يمرّ عبرها؛ بواسطة من، ومن أين، وليس في عقله أية أحكام مسبقة، أو أية محاذير، حتى تلك المتعلقة بإيمانه الديني، الذي هو إيمان صادق وحارّ.

واكتمل طاقمنا بوجود ستة خدم، أغلبهم من الخدّام القدامى أو الذين ولدوا في بيت أبي. وكلهم ذهبوا بفرح واعتبروا في هذه الرحلة شأناً شخصياً. كل واحد فيهم يحسب أنه يسافر من أجل نفسه شخصياً، ويتغلب بفرح على التعب والمخاطر التي لم أخْفِها عنه.

في المرسى، مبللاً أمام الخليج الصغير في «مونترودون» (Montredon)، في ١٠ تموز ١٨٣٢.

انطلقت: وتركنا للأمواج الآن مصيرنا بأكمله. لا يربطني الآن في مسقط رأسي إلا فكرة الأحبة الذين تركتهم هناك، وعلى الأخص ذكرى أبي وأخواتي.

لكي أشرح لنفسي كيف، وأنا على مشارف نهاية فترة الشباب، في تلك المرحلة التي ينسحب فيها الرجل من الحياة المثالية ليدخل في عالم المصالح المادية، كيف تركت حياتي الجميلة والوادعة في «سان بوان» (Saint-Point)، والمتع البريئة لبيت منزلي تسحره امرأة، وتزينه طفلة؛ كنت أقول لأشرح لنفسي كيف أجذف الآن فوق البحر الرحب نحو سواحل مجهولة ومستقبل غامض، فأراني مضطراً إلى العودة إلى مَنبع أفكاري جميعها لأبحث فيه عن أسباب حبّي وميولي للسفر. ذلك أن للخيال أيضاً حاجاته وأهواءه! لقد ولدت شاعراً، أي أنني ذكي إلى حدّ ما لامتلاكي تلك اللغة الجميلة التي يخاطب فيها الله البشر جميعاً، ولكن يخاطب بشكل أوضح بعض الأشخاص عن طريق أعماله. في شبابي سمعت كلمة الطبيعة، تلك الكلمة المصنوعة من الصور وليس من الأصوات، في الجبال وفي الغابات وعلى البحيرات وعلى ضفاف المهاوي والسيول في بلدي وفي جبال الألب؛ حتى أنني عبّرت باللغة المكتوبة عن بعض تلك النبرات التي حرّكت مشاعري؛ والتي بدورها حرّكت أرواح أناس آخرين؛ لكن تلك النبرات لم تعد تكفيني؛ لقد استهلكت هذه الكلمات الإلهية القليلة التي رمتها أرضنا الأوربية للإنسان؛ كنت أتعطش لسماع كلمات أخرى على شواطئ أكثر تجلجلاً وأكثر إشراقاً. كان خيالي عاشقاً للبحر وللصحارى وللجبال وللأخلاق وللآثار التي تركها الله في الشرق. طوال عمري كان الشرق حلم أيامي المظلمة في غيوم الخريف والشتاء في الوادي الذي ولدت فيه. إن جسدي، مثله مثل روحي، كان ابن الشمس يحتاج إلى النور؛ يحتاج إلى شعاع الحياة هذا، الذي يبعث به هذا الكوكب، ولا يحتاج هذا القلب الممزق إلى غيومنا في الغرب، وإنما إلى أعماق تلك السماء القانية التي تشبه فوهة الأتون؛ هذه الأشعة ليست ضياء فحسب، بل إنها تمطر حرارة، وتحرق، حين تسقط،

الصخورَ البيضاء، وأسنان قمم الجبال اللامعة، ثم تأتي لتصبغ المحيط باللون الأحمر، كحريق يخفق فوق أنصاله! كنت بحاجة لأن أحرّك، وأعجن بيديّ القليل من تلك التربة التي كانت أرض عائلتنا الأولى، أرض المعجزات؛ وكنت بحاجة لأن أرى وأجتاز ذلك المشهد الإنجيلي الذي جرت فيه المأساة الإلهية الكبرى التي صارعت مع الخطأ والانحراف الإنساني؛ وفيها استشهدت الحقيقة الأخلاقية لكي تُخصب بدمها حضارة أكمل! ثم إنني مكثت، وكنت دائماً، مسيحياً بقلبي وخيالي؛ لقد جعلتني أمي هكذا؛ كنت أحياناً أتوقف عن ذلك، في أيام شبابي الأولى الأقل حظاً ونقاءً؛ إن البؤس والحب، الحب الكامل الذي يطهّر كل الذي يحرقه، قد دفعاني أيضاً بعد ذلك إلى ملاذ أفكاري الأول؛ وفي تعزيات القلب هذه نستدعي ذكرياتنا وآمالنا، عندما تسقط ضجة القلب في أعماقنا، عندما يظهر لنا كل خواء الحياة بعد شغف مات، أو بعد موت يفقدنا القدرة على الحب! إن مسيحية المشاعر هذه عادت من جديد لتغدو عادة عذبة لأفكاري؛ غالباً ما كنت أقول لنفسي: أين الفضيلة الكاملة، والجليّة، والتي لا تقبل الجدل؟ إذا وُجِدتْ في مكان ما، فهي لا شك في القلب، إنها الوضوح الذي نحسّه والذي لا يعادله أي تفكير منطقي. لكن حقيقة العقل ليست كاملة في أي مكان من العالم؛ إنها مع الله وليست معنا؛ فعيوننا أضيق من أن تستوعب شعاعاً واحداً؛ كل حقيقة هي نسبية بالنسبة لنا؛ وما هو أكثر فائدة للإنسان هو الأكثر صحة أيضاً؛ والمذهب الأكثر غنى بالفضائل الإلهية هو المذهب الذي يضم أكبر عدد من الحقائق الإلهية، لأن ما هو جيد هو حقيقي أيضاً. كل منطقي الديني كان يتركّز هنا، ولم تكن فلسفتي ترتفع عنه؛ كان هذا المنطق يمنعني من الشك، ويبعدني عن حوارات العقل التي لا تنتهي مع ذاته؛ ويترك لي دين القلب هذا، الذي يتماهى بشكل جيد مع كل العواطف الأزلية لحياة الروح، إنه لا يحلّ أية معضلة ولكنه يمنح السكينة والراحة.

١٠ تموز، الساعة السابعة مساءً

قلت لنفسي: «هذا الحج المسيحي، أو على الأقل حج الإنسان والشاعر، كان ليُعجب أمي! كانت روحها متقدّة تتلون بسرعة وبشكل كامل بانطباعات الأماكن

والأشياء! هي التي كانت روحها ستتحمس أمام هذا المسرح الفارغ والمقدس الذي جرت فيه مأساة الإنجيل الكبرى، هذه المأساة الكبرى حيث يلعب الشق الإنساني والشق الإلهي للإنسانية، كل منهما دوره، الأول يَصْلُب، والثاني يُصلَب! إن سفر الابن الذي كانت تحبه كثيراً سوف يروق لها أيضاً في إقامتها السماوية حيث أتخيّلها: إنها تسهر علينا؛ وتضع نفسها كعناية ربانية أخرى بيننا وبين العواصف، بيننا وبين رياح السموم، بيننا وبين بدو الصحراء! سوف تحمي ولدها من جميع الأخطار، وتحمي التي غدت ابنتها بالتبني، وكذلك حفيدتها التي هي ملاك قدرنا المرئي، الذي نصحبه أينما ذهبنا. كانت تحبها حباً جماً! كانت تلقي نظرتها بحنان لا يوصف، وبشغف مؤثر، على وجه هذه الطفلة الرائع، آخر وأجمل أمل بين أجيالها المتعددة! وإذا لم أكن حذراً كفاية في هذا المشروع الذي طالما حلمنا فيه سويّة، فإنها سوف تسامحني في السماء بسبب نبل الدوافع التي هي: الحب والشعر والدين».

في مساء اليوم ذاته

لقد جاءت السياسة لتنقضّ علينا هنا: من الجميل أن نرى فرنسا في المستقبل القريب؛ هناك جيل يكبر، وبسبب ميزة العمر، سينفصل هذا الجيل بشكل كامل عن أحقادنا ومهاتراتنا نحن الذين بلغنا الأربعين من العمر. لا يهمه إذا كنّا ننتمي لهذه التسمية الحقودة أو تلك من مسمّيات أحزابنا القديمة؛ إذ لم يكن لهذا الجيل أية علاقة بالصراعات؛ ولا تجول في عقله أية أحكام مسبقة أو رغبات في الثأر. سيبدو هذا الجيل نقياً ومليئاً بالقوة وهو يبدأ مهنة جديدة ويتحمّس لفكرة من الأفكار، لكننا لا نزال نملأ هذه المهنة بأحقادنا وشغفنا وخلافاتنا القديمة. فلنفسح له مكاناً. كم وددت لو أنني دخلت هذا المكان باسمه؛ ومزجت صوتي بصوته على هذا المنبر الذي لا تُسمع فيه حتى الآن إلا الأقوال المكرورة التي ليس لها أي صدى في المستقبل، وحيث نتصارع بسبب الأسماء الشخصية! لقد جاءت الساعة لكي نوقد منارة العقل والأخلاق فوق عواصفنا السياسية، وأن نصوغ الرمز الاجتماعي الجديد الذي بدأ العالم يحسّه

ويفهمه: رمز الحب والإحسان بين الناس، أي السياسة الإنجيلية! على أية حال، أنا لا ألوم نفسي على ارتكاب أي عمل أناني بهذا الخصوص؛ بل كنت لأضحي في سبيل ذلك الواجب برحلتي ذاتها، وبحلم خيالي عندما كنت في السادسة عشرة من العمر! فلتبعث السماء الرجال، لأن سياستنا تُخجِل الإنسان وتُبكي الملائكة! إن القدر يمنح الإنسانية ساعة في كل قرن لكي تُجدّد نفسها؛ إن هذه الساعة هي ثورة، ويضيّعها البشر بنهشهم بعضهم بعضاً؛ ويعطون للانتقام الساعةَ التي منحهم الله إياها لكي يتجدّدوا ويتقدّموا!

في اليوم ذاته، وفي المرسى

إن ثورة تموز، التي أحزنتني بشدة إذ كنت أحب سلالة عائلة الـ «بوربون» (Bourbons) القديمة والعريقة، لأنها حظيت بحب ودم أبي، وجدّي، وكل أقاربي، ولأنه كان بمقدورها امتلاك دمي لو أرادت ذلك، غير أن هذه الثورة لم تشعرني بالسخط لأنها لم تفاجئني. لقد استشعرت قدومها عن بعد؛ وذلك قبل تسعة أشهر من اليوم المحتوم، إن سقوط المَلَكيّة الجديدة كان مكتوباً بالنسبة إلي ضمن أسماء الرجال المكلفين بقيادة هذه المَلَكيّة. لقد كان هؤلاء الرجال متفانين ومخلصين، لكنهم كانوا ينتمون إلى قرن آخر، وفكر آخر: وبينما كان فكر التاريخ يسير في اتجاه ما، كانوا هم يسيرون في الاتجاه المعاكس؛ لقد تم هذا الانفصال على صعيد الفكر، وكان على وشك البروز على صعيد الوقائع؛ لقد كانت مسألة أيّام وساعات. نعم بكيتُ هذه العائلة التي كانت محكومة بقَدَر أوديب (OEdipe) وبعماه! لقد أسفت بخاصة على هذا الانفصال، الذي لا مبرّر له، بين الماضي والمستقبل! كان بإمكان الواحد أن يكون بغاية النفع للآخر! كان بإمكان الحرية والتقدم الاجتماعي أن يستمدا الكثير من القوة في تبنّي المنازل المَلَكية القديمة والعائلات العريقة، والفضائل الأصيلة لهما! لقد كان من السياسة والكياسة ألا نقسم فرنسا إلى فريقين وعاطفتين؛ بل أن نسيّرهما معاً، فإذا أسرع أحدهما الخطى، أبطأ الآخر في مساره لكي لا يفترقا في منتصف الطريق! كل

ذلك لم يعد سوى حلم! يجب أن نأسف لذلك، ولكن يجب ألا نضيّع يومنا في التأسف بغير جدوى، يجب أن نتصرّف وأن نمضي؛ إنه قانون الأشياء، إنه قانون الله! إني آسف لأن ما ندعوه بالحزب الملكي، والذي يتمتع بالكثير من المؤهلات والنفوذ والفضائل، يريد أن يتوقف في ما يتعلق بقضية ثورة تموز. إنه لم يكن متورطاً في هذه المسألة، مسألة القصر، والمؤامرات، والطغمات، التي لم يكن فيها للأغلبية الملكية أي دور. من المقبول و المشرّف دائماً، أن نأخذ قسطاً من مآسي الآخرين، ولكن يجب ألا نتحمل بلا فائدة وزر خطيئة لم نرتكبها. يجب أن نترك للمسؤولين عن أخطاء الانقلابات والإدارة المتخلفة، مهمة التفجّع والبكاء على ضحايا الخطأ المميت العظيمة، وعدم التنكّر للمشاعر المشرّفة التي يحملونها لهم، وعدم التخلي عن الآمال البعيدة التي هي آمال شرعيّة؛ أما بخصوص ما تبقى، فيجب العودة إلى صفوف المواطنين، والتفكير والقول والعمل، والمحاربة إلى جانب عائلة العائلات، ومع البلاد! ولكن لندع ذلك كله جانباً! سوف نعود لرؤية فرنسا بعد عامين. فليحمها الله، وليحمِ كل عزيز ورائع تركناه في جميع تلك الأحزاب!

١١ تموز ١٨٣٢، أثناء الإبحار

لقد نشرنا أشرعتنا هذا الصباح في الساعة الخامسة والنصف. بعض الأصدقاء الذين تعرّفنا إليهم منذ بضعة أيام فقط، والذين نحمل لهم مع ذلك الكثير من المودة، قد نهضوا قبل الشمس لكي يرافقونا عدة أميال في البحر، ويودعونا بشكل أطول أيضاً. كانت سفينتنا تنزلق فوق بحر أملس، صاف وأزرق، مثل ماء نبع ظليل داخل فجوة صخرة. وكان ثقل العوارض، تلك الأذرع الطويلة المحملة بالأشرعة، يجعل القارب ينحني بشكل خفيف تارة إلى هنا، وتارة إلى هناك. وكان شاب من مرسيليا (وهو السيد «أُوتران» Autran) يلقي علينا قصائد رائعة، يستودع فيها أمنياته لنا، وللرياح والأمواج: لقد تأثرنا بسبب ابتعادنا عن الأرض اليابسة، وبسبب تلك الأفكار التي كانت تطير نحو الشواطئ، وتجتاز أرض البروفانس، لتذهب باتجاه والدي، وأخواتي،

وأصدقائي؛ بسبب تلك الوداعات، وتلك القصائد، وبسبب ظلّ مرسيليا الذي كان يبتعد ويتناقص تحت أعيننا؛ في هذا البحر اللامحدود الذي سيغدو لفترة طويلة وطننا الوحيد.

آه يا مرسيليا! آه يا فرنسا! إنك تستحقين أفضل من ذلك: إن هذا البلد، وهؤلاء الشبان، كانوا يستحقون رؤية شاعر حقيقي، أحد أولئك الرجال الذين يحفرون عالماً وعصراً في ذاكرة الجنس البشري المتناغمة! أما أنا، وهذا ما كنت أشعر به بشكل عميق، أنا لست سوى واحد من بين أولئك الرجال الذين لا صورة لهم، وينتمون إلى عصر انتقاليّ وممحيّ، الذين لاقت بعض تنهداتهم صدىً، لأن الصدى أكثر شاعرية من الشاعر. ومع ذلك كنت أنتمي إلى زمن آخر بسبب رغباتي؛ لقد شعرت دوماً أن في داخلي رجلاً آخر: كانت آفاق شاسعة، لا متناهية ومضيئة بالشعر الفلسفي والملحمي والديني والجديد، تتمزّق أمامي، ولكنْ عقاباً لي على فترة الشباب اللاهية والضائعة! كانت هذه الآفاق سرعان ما تنغلق. كنت أشعر بأنها كثيرة الاتساع بالنسبة إلى قواي البدنية؛ فكنت أغمض عيني لكي لا تجرفني الرغبة في أن أزجّ نفسي فيها. الوداع إذن لأحلام العبقرية تلك، وللمتعة الثقافية! لقد تأخر الوقت كثيراً. قد أقوم ببعض الرسومات الأولية لبعض المشاهد، وأرنّم بعض الأغاني، وهذا كل شيء. سأنتقل لغيرها! وإني أراها بفرح، سوف تأتي مشاهد أخرى. لم تكن الطبيعة أكثر خصوبة بوعود العبقرية أكثر من هذه اللحظات. كم سيصبح عدد الرجال بعد عشرين عاماً، إذا غدا الجميع رجالاً.

ومع ذلك، إذا سمح الله بتحقيق دعواتي فهذا ما سوف أطلبه منه: قصيدة بحسب قلبي وقلبه! صورة لا مرئية، وحيّة وحيويّة وملونة لخلائقه المرئية واللامرئية؛ يا له من إرث جميل نتركه في عالم الظلمات والشك والحزن! طعام يغذيه ويعيد إليه شبابه لمدة قرن! آه، ما الذي لن أمنحه إياه؛ أو على الأقل أمنحه لنفسي، عندما لن يسمع أي شخص، ما عداي أنا، أحد تلك الأبيات!

الساعة الثالثة من اليوم نفسه، في عرض البحر

إن ريح الشرق التي تنازعنا الدرب، قد هبّت بقوة أكبر؛ لقد ارتفع البحر وأزبد؛ وأعلن قائد السفينة أنه علينا أن نعود إلى الشاطئ، وأن نرسو في خليج يبعد ساعتين عن مرسيليا. ها نحن فيه؛ يؤرجحنا الموج برفق؛ إن البحر يتكلم كما يقول بعض البحارة: إننا نسمع من البعيد همهمة تشبه الضجة الصادرة عن المدن الكبيرة. كلمات البحر المُتوعدة تلك، الأولى التي نسمعها، تدوي بقوة في أذن وفي قلب أولئك الرجال الذين يريدون التحدث إليه عن كثب ولمدة طويلة.

نرى الآن على يسارنا جزر الـ «بوميغ» (Pomègue) وقصر ايف (If)، تلك القلعة ذات الأبراج الدائرية والرمادية التي تتوّج صخرة عارية ورمادية اللون؛ وفي المقابل على الضفة العالية التي تقطعها الصخور المائلة إلى البياض، نرى العديد من المنازل الريفية التي لا تسمح حدائقها المحاطة بالجدران، إلا برؤية قمم الشجيرات ورؤوس القناطر الخضر للعرائش؛ وعلى بعد ميل في الأراضي تقريباً، وفوق هضبة منفردة وعارية يرتفع حصن كنيسة سيدة لاغارد (Notre-Dame de la Garde)، مَحَجّة بحارة منطقة البروفانس قبل رحيلهم أو بعد عودتهم من أسفارهم. هذا الصباح ودون أن ندري، في نفس الساعة التي عصفت الريح فيها الأشرعة، سبقت امرأة من مرسيليا الفجر، يصحبها أطفالها، ذهبت لتصلي من أجلنا في قمة هذا الجبل، حيث كان بصرها الصديق يرى بلا شك سفينتنا مثل نقطة بيضاء فوق البحر.

أي عالم، عالم الصلاة هذا! أي رابط غير مرئي، ولكنه شديد القوة، أن يعرف بعضنا بعضاً أو يجهله، ولكن أن نصلي معاً مجتمعين أو كل على حدة، أن نصلي من أجل بعضنا البعض! لقد بدا لي دائماً أن الصلاة، هذه الغريزة الحقيقية التي تمتلكها طبيعتنا العاجزة، هي القوة الحقيقية الوحيدة، أو على الأقل أكبر قوة للإنسان! إن الإنسان لا يتخيّل تأثيرها؛ ولكن ماذا يتخيّل؟ إن الحاجة التي تدفع الإنسان إلى التنفس تثبت له فقط أن الهواء ضروري لحياته! وغريزة الصلاة تثبت للروح أيضاً

فعالية الصلاة: لنصلّ إذن! وأنت الذي أوحيت بهذا التواصل الرائع معك، ومع الكائنات، ومع العوالم اللامرئية، أنت يا إلهي، استجب لنا! استجب لنا إلى درجة تفوق رغباتنا!

اليوم نفسه، الساعة الحادية عشرة مساء

قمر رائع بدا وكأنه يتأرجح بين سواري، وعارضات، وحبال بارجتين حربيتين راسيتين على مقربة منّا، بين مرسانا وجبال الـ «فار» (Var) السوداء؛ كل حبل في هاتين البارجتين كان يرتسم للعين فوق الخلفية الزرقاء والقانية لسماء الليل مثل ألياف هيكل عظمي عملاق وهزيل يلوح من بعيد، تحت أنوار مصابيح ويستمنستر (Westminster) أو سان دوني (Saint-Denis) الشاحبة التي لا تتحرك. وفي الغد سوف تعود الحياة لهذه الهياكل العظمية، فتنشر أشرعتها التي طوتها مثلما فعلنا نحن، وتحلّق مثل طيور المحيط، لتحط على شواطئ أخرى. كنّا نسمع من فوق الجسر الذي أقف عليه، صافرة قائد الرحلة الحادة والمتناغمة وهو يأمر ببدء المناورة، وقرع الطبول، وصوت ضابط المناوبة. انزلقت الرايات من السواري؛ واعتلت زوارق الإنقاذ والقوارب السطح بحركة حيّة وسريعة تشبه حركة الكائن الحيّ. وغمر الصمت كل شيء على سطح مركبهم ومركبنا.

لم يكن الإنسان ينام في الماضي فوق سرير البحر العميق والغادر هذا، دون أن يرفع روحه وصوته لله، ودون أن يمجّد خالقه العظيم وسط كل تلك الكواكب، والجزر، وقمم الجبال؛ ووسط سحر الليل وأخطاره كان الناس يقيمون صلاة المساء على سطح مراكبهم! لقد انتهى كل هذا مع ثورة تموز، لقد ماتت الصلاة على شفاه الليبرالية العتيقة التي أوجدها القرن الثامن عشر، الذي لم يكن هو نفسه يمتلك أي شيء حيّ ما عدا كرهه البارد للمسائل الروحية. إن نَفَس الإنسان المقدس الذي حمله أبناء آدم إلينا بكل أفراحهم وأحزانهم، قد خبا في فرنسا في غمرة النزاع والكبرياء اللذين نشهدهما؛ لقد أدخلنا الله في صراعاتنا. إن ظل الله يخيف بعض الناس. فهذه الحشرات التي

وُلِدت للتو، والتي سوف تموت غداً، والتي سوف تحمل الريحُ بعد عدة أيام غبارها العقيم، وتلقي الأمواج الأزلية عظامها البيضاء فوق بعض الأرصفة الصخرية، ترفض الاعتراف ولو عبر كلمة أو حركة، بالكائن الأزلي الذي تعترف به السماوات والبحار؛ إنها تأبى أن تسمّي هذا الذي لم يتوانَ عن خلقها، ولماذا كل ذلك؟ لأن تلك الكائنات ترتدي الزيّ العسكري، وتستطيع حساب عدد محدّد من الأرقام، وتُدعى بفرنسيي القرن التاسع عشر! لحسن الحظ لقد بدأ القرن التاسع عشر يمضي، وأنا أرى اقتراب عصر أفضل منه، عصر دينيّ بحقّ، لا يعترف البشر فيه بالله عبر اللغة نفسها والرموز ذاتها، ولكنهم يعترفون به على الأقل بكل أشكال الرموز وبجميع اللغات!

الليلة ذاتها

تنزهت ساعة من الزمن على سطح السفينة، وحيداً تراودني تلك الأفكار الحزينة أو المؤسية؛ تمتمت في قلبي وبشفتيّ كل الصلوات التي علمتني إياها أمي عندما كنت طفلاً؛ كل الآيات ومقاطع المزامير التي طالما سمعتها وهي تهمس بها في صوت خافت وهي تتنزه مساء في ممرّ حديقة «ميلي» (Milly)، عادت إلى ذاكرتي، وشعرت بلذة حميمة وعميقة في أن ألقيها بدوري إلى الموج والريح، إلى تلك الأذن المفتوحة دائماً، التي لا يغيب عنها أي صوت صادر عن القلب أو الشفاه! إن الصلاة التي سمعنا شخصاً نحبّه يتلفظ بها، ثم رأيناه وهو يموت، إنها صلاة مقدسة بشكل مضاعف. من منا لايفضّل الكلمات القليلة التي علمته أمه إياها على كل الأناشيد التي يمكن أن يؤلفها بنفسه! لهذا السبب، ومهما كان الدين الذي يدفعنا العقل إلى اعتناقه في سن الرشد، فإن الصلاة المسيحية تبقى دائماً صلاة الجنس البشري، وهكذا تلوت وحدي صلاة المساء والبحر، من أجل هذه المرأة التي لا تحسب أي حساب للخطر في سبيل أن تتحد بمصيري، ومن أجل تلك الطفلة الجميلة التي تلعب الآن على سطح السفينة مع العنزة التي يجب أن تعطيها الحليب، ومع الكلاب السلوقية الجميلة والعذبة التي تلعق كفّيها البيضاوين، والتي تعض بلطف شعرها الطويل الأشقر.

في ١٢، صباحاً، خلال الإبحار

لقد تغيّر الهواء خلال الليل وازداد قوة؛ وسمعت وأنا في مقصورتي الواقعة ما بين سطحي المركب، سمعت خطوات وأصوات وغناء البحارة الشاكي يدوّي في رأسي طويلاً مع ضربات سلسلة المرساة المعلقة في مقدمة السفينة. لقد أعادوا وضع الشراع؛ إننا نبحر. ثم نمت. عندما صحوت وفتحت الكوّة لأنظر إلى شواطئ فرنسا التي حاذيناها البارحة، لم أر إلا البحر الشاسع الخالي، والعاري والهادر مع شراعين فقط، شراعين عاليين يرتفعان مثل تُخمين، مثل هرمين في الصحراء، في هذا المدى الذي لا أفق فيه.

كان الموج يداعب برفق خاصرتي السفينة السميكتين والمستديرتين، ويثرثر بأناقة تحت شبّاكي الضيّق، حيث كان الزبد يرتفع في بعض الأحيان على شكل حبال خفيفة من الزينة: كان يشبه الضجيج غير المتجانس والمنوّع والمبهم الناتج عن زقزقة طيور السنونو فوق أحد الجبال، حين تشرق الشمس فوق حقل قمح. هناك انسجام وتجانس بين مختلف العناصر، تماماً كما هناك انسجام عام بين الطبيعة المادية والطبيعة الفكرية. كل فكرة لها انعكاس في أداة مرئية تكررها مثل صدى، وتعكسها مثل مرآة، وتجعلها محسوسة بطريقتين: للحواس عن طريق الصورة، وللفكر عن طريق الفكر؛ إنها الشعر اللامتناهي للخلق المزدوج! ويسمي الناس ذلك مقارنةً: إن المقارنة هي العبقرية. إن الخلق ليس إلا فكرة كامنة تحت ألف شكل. المقارنة هي فن أو غريزة اكتشاف كلمات أكثر في لغة التماثل الشمولي الإلهية، التي يمتلكها الله وحده، ولكنه يسمح لبعض الناس اكتشاف شيء منها. ولهذا السبب كان يُنظَرُ إلى النبي الشاعر المقدس، والشاعر النبي الدنيوي، على أنهما كائنات إلهية. أما اليوم فينظر إليهما باعتبارهما كائنات غير عاقلة، أو على الأقل لا فائدة منها: هذا منطقي. إذا أعطيتَ كل الأهمية للعالم المادي والمحسوس، هذا الجانب من الطبيعة الذي يُحَلّ على طريق الأرقام والمدى والأموال والمتع الحسّية، فإنك عندئذ سوف تحتقر هؤلاء الرجال الذين لا يُبْقون إلا على

عبادة الجمال الأخلاقي، وعلى فكرة الله، ولغة الصور هذه والعلاقات الغامضة بين اللامرئي والمرئي! ماذا تثبت هذه اللغة؟ الله والخلود! وهذا لا يُشكّل شيئاً بالنسبة لكَ!

١٤ تموز، ونحن راسون في خليج «سيوتا» (Ciotat) الصغير

إن الريح المؤاتية التي هبّت منذ حين، تلاشت سريعاً في أشرعتنا. فهبطت الأشرعة على طول السواري، وجعلتها تتأرجح بحسب رغبة أضعف موجة. صورة جميلة للطباع التي تفتقر إلى الإدارة، ريح النفس الإنسانية هذه، والطباع المتأرجحة التي تُتعِب أصحابها: إن هذه الطباع تستنفد قوة المرء بسبب الضعف، أكثر مما تفعله الجهود الشجاعة التي تفرضها الإرادة الصلبة على الذين يتمتعون بالحيوية والقدرة على الفعل، وكذلك هو حال المراكب التي إذا ما تواجدت في بحر هادئ وبدون ريح، فإنها تتعب أكثر مما لو كانت تحت تأثير ريح باردة تدفعها وتسندها فوق زبد الأمواج.

هل هو بسبب الصدفة، أم بسبب مناورة سرّية قام بها ضباطنا، وجدنا أنفسنا مضطرين بسبب الريح إلى دخول خليج «سيوتا» الضاحك في الساعة الثالثة، و«سيوتا» هي مدينة صغيرة على ساحل الـ «بروفانس»، حيث يقع بيت قبطاننا وكذلك بيوت معظم بحّارتنا ونسائهم وأطفالهم. في ظل حاجز (رصيف) بحري صغير منفصل عن هضبة جميلة مكسوّة بأشجار الكرمة، والتين والزيتون، مثل يد صديقة يمدّها الساحل إلى البحارة، تركنا مرساتنا تنزل في البحر. كانت المياه خالية من أي تغضّن، لدرجة أننا كنا نرى على عمق عشرين قدماً، لمعان الحصى والقواقع، وتموّج الأعشاب البحرية الطويلة، وتراكض الآلاف من الأسماك ذات الحراشف المتلألئة، وهي كنوز مخبأة في باطن البحر، غنية ووفيرة بقدر غنى الأرض بالنباتات وبالسكان. الحياة في كل مكان كما الذكاء: الطبيعة كلها تتحرّك، وكلها تشعر وتفكّر! إن الذي لا يدرك هذا الأمر لم يفكّر مطلقاً بخصوبة الفكر الخلاق الذي لا ينضب. لم يتوجب على هذا الفكر، لا بل لم يستطع أن يتوقف: إن اللانهائي مأهول؛ وحيث توجد الحياة، توجد العاطفة

كذلك؛ والفكر بدرجة متفاوتة بلا شك، لكن الفراغ غير موجود. هل تريدون دليلاً حسيّاً على ذلك؟ انظروا إلى قطرة ماء تحت المجهر الشمسي، تجدون أن آلاف العوالم تدور فيها! عوالم في دمعة حشرة؛ وإذا استطعتم كذلك تفكيك كل عالم من آلاف العوالم تلك، لظهرت لكم أيضاً ملايين العوالم الأخرى! أجل، من هذه العوالم اللامحدودة والمتناهية الصغر ترتفعون فجأة إلى أفلاك القباب السماوية الكبيرة والتي لا تحصى؛ وإذا غصتم في المجرّات، وغبار الشموس التي لا تعد ولا تحصى والتي تتحكم كل شمس فيها بنظام أفلاك أوسع أيضاً من الأرض والقمر، فإن العقل يبقى مسحوقاً تحت ثقل هذه الحسابات؛ لكن الروح تتحملها وتُعظِّم نفسها لأن لها مكاناً ضمن هذا العمل، ولأنها تمتلك القوة على فهمها، والعاطفة لكي تُمجّد خالقها وتعبده! يا إلهي، كم الطبيعة هي صلاة وقور للذي يبحث عنك فيها، والذي يكتشفك فيها بكل أشكالها، والذي يفهم بعض مقاطع من لغتها الصامتة، التي مع ذلك تقول كل شيء!

خليج «سيوتا»، ١٤ مساء

لقد ماتت الريح، ولا شيء يوحي بأنها ستعود. ليس في سطح الخليج أي تغضن: والبحر مسطّح لدرجة أننا ميّزنا هنا وهناك أثر أجنحة البعوض الشفافة التي تطفو فوق هذه المرآة، والتي هي وحدها من يعكّرها في هذه الساعة. انظر إلى أية درجة من الهدوء والوداعة يمكن أن يصل هذا العامل الذي يرفع السفن الثلاثية السطوح دون أن يأبه لوزنها، والذي يقضم فراسخ من الشاطئ، ويخرّب الهضاب ويشق الصخور، ويسحق الجبال تحت وطأة أمواجه المزمجرة! لا شيء أكثر عذوبة من القوة.

نزلنا اليابسة تحت إلحاح قبطاننا الذي أراد أن يعرفنا إلى زوجته ويدلنا على بيته. هذه المدينة تشبه مدن مملكة «نابولي» (Naples) الجميلة على شاطئ «غابييت» (Gaëte). كل شيء مشرق، وفرح، وهادئ؛ والوجود هو عيد مستمر في مناخات منطقة

الميدي. سعيد هو الرجل الذي يولد ويموت تحت الشمس! سعيد بالأخص من يملك منزله، منزلَ وحديقة أهله، على سواحل هذا البحر الذي كل موجة فيه هي شرارة تقذف نورها وإشراقها على الأرض! باستثناء الجبال الشاهقة التي تستمد صفاء قممها وآفاقها من الثلوج التي تغطّيها ، ومن السماء التي تغوص فيها، لا يستطيع أي موقع على الأرض اليابسة، ومهما كانت الهضاب والأشجار والأنهار ضاحكة وجميلة، أن ينافس جمال المواقع التي تغمرها بحار الميدي. إن البحر بالنسبة إلى مشاهد الطبيعة، يعادل العين بالنسبة إلى الوجه الجميل؛ إنه يضيئها، ويعطيها هذا الألق، وهذا المظهر الذي يجعلها تعيش، وتتحدث، وتسحر، وتأسر النظر الذي يتأملها.

في اليوم ذاته

لقد هبط الليل، أي ما نسميه ليلاً في هذه المناخات. ما أكثر ما أحصيت من نهارات أقل إشراقاً على سفوح هضاب «ريشموند» (Richmond) الخملية في «انكلترا»، وفي ضباب نهر «التايمز» (Tamise) و«السين» (Seine) والسون (Saône) أو بحيرة جنيف! وصعد قمر دائري في قبة السماء، تاركاً في الظل سفينتنا السوداء التي ترتاح على مقربة من رصيف المرفأ. وترك القمر في تقدمه ما يشبه ذيلاً من الرمل الأحمر الذي بدا وكأنه يغطي نصف السماء؛ وما تبقى منها كان أزرق اللون ويميل إلى البياض كلما ازداد القمر اقتراباً. على مسافة ميلين تقريباً، بين جزيرتين صغيرتين، تمتلك إحداهما منحدرات صخرية صفراء مثل مدرّج الكولوزيوم (Colisée) في «روما»، والثانية بنفسجية مثل أزهار الليلك، ونرى على سطح البحر سراب مدينة كبيرة؛ تنخدع فيها العين: نرى القباب تلمع، والقصور ذات الواجهات الخلابة، وأرصفة كبيرة مغمورة بنور عذب وهادئ؛ وتبيّض الأمواج وتبدو وكأنها تغلفها من اليمين ومن اليسار: كما لو أنها «البندقية» أو «مالطا» نائمة في وسط الأمواج. إنها ليست جزيرة ولا مدينة، إنها القمر في النقطة التي يسقط فيها قرصه بشكل عمودي على البحر؛ وبالقرب منا امتد

هذا الانعكاس واستطال، وانساب نهر من الذهب والفضة بين ضفّتين من اللازورد. وعلى يسارنا، كان الخليج يبسط هضابه المتفاوتة الأحجام والمخرمة كالدنتيلا، والتي تشكّل سلسلة طويلة ومعتمة، كان يبسطها حتى تصل إلى رأس عالٍ؛ وعلى اليمين، امتد واد ضيق ومغلق يجري فيه نبع في ظل بعض الشجيرات؛ وفي الخلف، كانت هضبة أكثر ارتفاعاً، مغطاة حتى قمتها بأشجار الزيتون التي جعلها الليل تبدو بلون أسود؛ ومن قمة هذه الهضبة حتى البحر، كانت الأبراج الرمادية والبيوت الصغيرة البيضاء تشق هنا وهناك عتمة أشجار الزيتون الرتيبة، وتجذب العين والفكر إلى مسكن الإنسان. وفي البعيد أيضاً، في نهاية الخليج، ارتفعت ثلاث صخرات لا قاعدة لها فوق الأمواج؛ أشكال غريبة ومدوّرة كالحصى، وقد صقلتها الأمواج والعواصف، تلك الحصى هي جبال؛ ألعاب عملاقة لمحيط بدائي، لا شك في أن بِحارَنا هي مجرد صورة ضعيفة عنها.

١٥ تموز

لقد زرنا منزل القبطان «بريك» (Brick) .منزل جميل ومتواضع ولكنه مُزيّن. استقبلتنا المرأة الشابة المتألمة والحزينة لرحيل زوجها السريع. عرضتُ عليها أن أصحبها على متن السفينة لترافقنا في رحلتنا، التي هي أطول من الرحلات التجارية المعتادة. لكن صحتها كانت تحول دون ذلك: لقد كانت وحيدة، بلا أطفال ومريضة، سوف تنقضي أيام طويلة، وربما سنوات طويلة، خلال غياب زوجها. لقد كان وجهها العذب والحساس يحمل بصمات هذا الحزن على مستقبلها وعلى وحدة قلبها هذه. كان البيت يشبه بيتاً فلمنكياً: جدرانه مغطاة بصور مراكب كان القبطان قد تولى قيادتها. ثم قادنا، إلى مكان ليس ببعيد، لرؤية منزل في الريف كان يُعِدّ نفسه فيه، على الرغم من صغر سنّه، إنه ملجأ يحتمي فيه من الريح والموج. أسعدتني رؤية هذا البناء الريفي حيث كان هذا الرجل يتأمل بشكل مسبق، راحته وسعادته في شيخوخته. لقد

أحببت دائماً التعرف إلى المنزل، والظروف العائلية للأشخاص الذين يتوجب عليّ التعامل معهم في هذه العالم. إنه جزء من أنفسهم، إنه مظهر خارجي آخر يعطي مفتاح شخصيتهم وقدرهم.

كان معظم بحارتنا أيضاً من هذه القرى. رجال لطفاء وأتقياء ومرحون ومجتهدون، ويتعاطون مع الريح والعاصفة والموج بطريقة منتظمة وهادئة وصامتة كما يتعامل حصّادونا في «سان بوان» (Saint-Point) مع المِسلفة أو المحراث؛ إنهم حصّادو البحر، هادئون ويغنون مثل رجال سهولنا، وهم يتبعون، تحت أشعة شمس الصباح، أثلامهم الطويلة المدخنة على سفوح هضابهم.

١٦ تموز

استيقظت في ساعة مبكرة، سمعتُ هذا الصباح على جسر السفينة الذي لا يتحرك، سمعت أصوات البحارة مع صياح الديك وثغاء العنزة وخرافنا. وساهمت بعض أصوات النساء والأطفال باستكمال الوهم؛ كدت أحسب نفسي مستلقياً في كوخ فلاح خشبي، على ضفاف بحيرة «زوريخ» أو «لوسيرن» (Lucerne) .صعدت إلى السطح: كانوا أولاد بعض بحارتنا الذين أتت بهم أمهاتهم لرؤية آبائهم. وكان أولئك يُجلسونهم فوق المدافع، ويُوقفونهم فوق (درابزون) السفينة، ويضجعوهم في الزورق، ويهدهدونهم في الأرجوحة المعلقة، مع ذلك الحنان في النبرة والدمعة في العين التي قد تعرفها الأمهات أو المرضعات. رجال شجعان قلوبهم برونزية في مواجهة الخطر، ومثل قلوب النساء تجاه أحبائهم، قساة وودعاء مثل عنصر الطبيعة الذي يتعاملون معه! سواء كان راعياً أو بحاراً، فإن الرجل رب الأسرة يمتلك قلباً معجوناً بالعواطف الإنسانية والشريفة. إن روح العائلة هي الروح الثانية للإنسانية؛لقد نسي المشرّعون الجدد ذلك؛ فهم لا يفكرون إلا في الدول وفي الشخصيات الفردية؛ متناسين العائلة، المصدر الوحيد للشعوب القوية والنقية، ومعبد التقاليد والأخلاق، حيث تتجدّد كل الفضائل الاجتماعية. إن التشريع، حتى بعد المسيحية، كان همجياً في هذه الناحية،

فهو ينبذ الرجل الذي يمتلك روح العائلة بدلاً من دعوته. وهو يحرّم على نصف الرجال والنساء والأطفال حق امتلاك بيت وحقل، ويتوجب عليه تأمين هذه الملكيات للجميع بمجرد بلوغهم سنّ الرشد؛ ولا تُمنع هذه الحقوق إلا عن المذنبين. إن العائلة هي المجتمع بشكل مختصر؛ ولكنها المجتمع الذي تكون فيه القوانين طبيعية، لأنها مصنوعة من العواطف. إن الحرمان من العائلة يمكن أن يكون الاستنكار الأكبر، وآخر ذبول للقانون؛ كان يمكن أن يكون إعداماً للتشريع المسيحي والإنساني: فالموت العنيف كان يجب أن يُمحى منذ قرون عديدة.

في اليوم ذاته، وكانت تبللنا باستمرار ريح معاكسة

على بعد ميل إلى الغرب، على طول الشاطئ، تبدو الجبال وكأنها مكسورة كأنها ضربت بهراوة؛ وقد وقعت القطع الضخمة هنا وهناك، على أسفل الجبال أو تحت أمواج البحر الزرقاء أو المخضرّة التي تغمرها. ينكسر البحر هنا بلا توقف؛ ومن الموجة التي تصل بصوتها المتناوب والأصم لارتطامها بالصخور، تنطلق مثل ألسنة من الزبد الأبيض الذي يلعق الحواف المالحة. إن هذه الأجزاء المتراكمة من الجبال (لأنها أكبر من أن ندعوها بالصخور) ترتمي وتتكدّس بشكل فوضوي الواحدة فوق الأخرى، فتشكل كمية لا تحصى من الجونات الصغيرة، والقباب العميقة، والمغارات الرنانة، والتجاويف المظلمة، التي يعرف طرقها وتعرجاتها ومخارجها، أطفال كوخين فقط أو ثلاثة من أكواخ الصيادين الذين يقطنون في الجوار. إحدى تلك المغاور التي وصلنا إليها عبر قنطرة منخفضة تحت جسر طبيعي مغطى بلوح ضخم من الغرانيت، كانت تؤدي إلى البحر، ثم تنفتح بعد ذلك على واد ضيق ومعتم يملؤه البحر بالكامل بأمواجه الشفافة والمسطحة كقبة السماء في ليلة جميلة. إنها جُونة صغيرة يعرفها الصيادون، وعندما يزبد الموج ويرغي في الخارج مزعزعاً بضربته جوانب الهضبة، تكون المراكب الصغيرة فيها آمنة؛ وبالكاد لاحظنا الغليان الخفيف لنبع يسقط في سطح مائي. ويحافظ البحر فيه على هذا اللون الجميل الأصفر المخضّر والمتموّج، الذي تراه جيداً

عين رسّامي البحر، ولكن دون أن يتمكنوا من إظهاره بشكل كامل لأن العين ترى أكثر مما تستطيع اليد محاكاته.

وعلى جانبيْ هذا السهل البحري ارتفع أبعد من مدّ البصر حائطان من الصخور العمودية تقريباً، من الصخور القاتمة الملونة بلون واحد يشبه لون خَبَث الحديد بعد سقوطه في النار بمدة قصيرة. ولا يمكن لأي نبتة أو طحلب أن تجد فيه شقّاً لكي تتعلق فيه وتتجذر، أو لكي تخفق فيه حبال العرائش والورود التي نراها تتموّج في كثير من الأحيان على سطوح الصخور في منطقة الـ «سافوا» (Savoie)، وعلى ارتفاعات شاهقة، صخور عارية، ومستقيمة، وسوداء تنفّر العين، إنها هنا لتحمي فقط من رياح البحر هضابَ الكروم والزيتون التي تعيش في ظلها: كصور هؤلاء الرجال الذين هيمنوا على حقبة أو على أمة، متعرضين لضيم الزمن كله وللعواصف من أجل حماية رجال أضعف وأسعد. وفي عمق الجُونات، يتسع البحر قليلاً ويتعرّج ويصبح لونه أفتح فأفتح بقدر مساحة السماء التي تنكشف، وينتهي بسطح مائي يغفو فوق سرير من الحصيات البنفسجية الصغيرة والمتكسّرة والمرصوصة كحبات الرمل. إذا وضعتَ قدمك خارج الزورق الذي قادك إلى هنا، سوف تجد إلى اليسار في جوف واد صغير، نبع ماء عذب وبارد ونقي؛ ثم إذا استدرت إلى اليمين، تجد درباً تسلكه الماعز، درباً حجرياً وسريعاً وغير متساوٍ، تظلله أشجار التين البرّي والزعرور، وهو ينحدر من الأراضي المزروعة ليصل إلى هذه الأمواج المستوحدة. قليلة هي المواقع التي صادفتها في أسفاري والتي فاجأتني وأغرتني إلى هذه الدرجة. إنه هذا المزيج الكامل من البهاء والقوة الذي يشكّل الجمال المكتمل في التجانس بين عناصر الطبيعة، أو في الكائن الحيّ والعاقل. إنه عرس غامض بين الأرض والبحر، وقد فوجئ باتحادهما الشديد الحميمية والغموض. إنها صورة الهدوء والوحدة الأصعب منالاً، إلى جانب مسرح العواصف الهائج والصاخب، وبالقرب من اندفاع الأمواج. إنه أحد روائع الطبيعة العديدة التي نشرها الله في كل مكان، كما لو أنه أراد أن يتلاعب بالأضداد، ولكنه آثر أن يخبئها غالب

الأحيان في قمم الجبال الشديدة الانحدار التي لا يمكن تسلقها، وفي قاع الأودية التي لا يمكن الوصول إليها، وفي أرصفة المحيط الصخرية التي لا يمكن الاقتراب منها، مثل كنوز الطبيعة التي لا تكشفها إلا نادراً للرجال البسطاء، وللرعاة والصيّادين والمسافرين والشعراء أو لتأمل المستوحدين الأتقياء.

في اليوم ذاته

هبت في الساعة العاشرة ريح من الغرب؛ ورفعنا المرساة في الساعة الثالثة؛ لم نعد نرى سوى السماء والأمواج؛ البحر المتلألئ ، حركة القارب اللطيفة والإيقاعية، همس الموجة المنتظم كتنفس صدر الإنسان. إن تناوب الموج والريح المنتظم في الشراع، يتواجد في كل الضجيج الذي تصدره الطبيعة: ألا تتنفس هي أيضاً؟ أجل، إنها تتنفس بلا شك، وتعيش وتفكر وتتألم وتتمتَّع، إنها تشعر وتعبد خالقها الإلهي. إنه لم يخلق الموت؛ إن الحياة هي دليل على كل أعماله.

في ذات اليوم، في عرض البحر، في الساعة الثامنة مساء

لقد رأينا آخر قمم جبال سواحل فرنسا وإيطاليا الرمادية وهي تنخفض، ثم رأينا خط البحر الأزرق القاتم في الأفق وهو يغمر كل شيء: إن العين، في هذه اللحظة التي يختفي فيها كل أفق معروف، تجوب الفضاء والفراغ الذي يخفق ويحيط بها، مثل منكوب أضاع على التوالي كل عناصر عواطفه وعاداته، وهو يبحث عبثاً عن مكان يريح فيه قلبه.

وتغدو السماء المشهد الأكبر والأوحد للتأمل؛ ثم يسقط النظر على هذه النقطة غير المرئية الغارقة في الفضاء، على هذه السفينة الضيقة التي غدت العالم الوحيد لكل الذين تحملهم على متنها.

رئيس الطاقم أمام الدفة: وجهه ذكوري وجامد، نظره ثابت ويقظ، يركّزه تارة على

علبة البوصلة ليبحث عن الإبرة فيها، وتارة أخرى على مقدمة السفينة ليكتشف من خلال حبال شراع الميزان طريقه عبر الأمواج؛ ذراعه الأيمن فوق الدفة، بحركة تُخضع كتلة السفينة الكبيرة لإرادته، كل شيء فيه يدل على خطورة عمله؛ إن قَدَر السفينة، وحياة ثلاثين شخصاً تمر الآن في جبينه العريض وتُثقل يده الجبارة.

وفي مقدمة الجسر يتواجد البحارة على شكل مجموعات، جالسين أو واقفين أو نائمين فوق ألواح الصنوبر اللامعة، أو فوق حبال الأسلاك الملفوفة بأشكال لولبية عريضة؛ بعضهم يصلح الأشرعة العتيقة بواسطة مسلات حديدية ضخمة، كشابات صغيرات يطرّزن طرحة عرسهن أو غلالة سرير عذريتهن؛ وبعضهم ينحني فوق (الدرابزون) لكي ينظروا إلى الأمواج المزبدة دون أن يروها، كما نفعل حين ننظر إلى حجارة الطريق التي سلكناها مئات المرات، وهم يقذفون إلى الهواء بلا مبالاة دخان غلايينهم المصنوعة من الفخار الأحمر. هؤلاء يقدمون الماء للدجاج في (جرونهم) الطويلة؛ وأولئك يمسكون في يدهم حفنة من العلف ويطعمون العنزة وهم يمسكون قرنيها بأيديهم الأخرى؛ وهؤلاء يلعبون مع الخراف الجميلة الجاثمة بين الساريتين الكبيرتين في الزورق الكبير المعلق: إن هذه الحيوانات المسكينة ترفع رؤوسها القلقة فوق الحافة، وحين لا ترى إلا السهل المتموج المبيض بفعل الزبد، تبدأ بالثغاء بحثاً عن صخور وطحالب جبالها القاحلة.

وفي طرف السفينة، وفي أفق هذا العالم العائم، توجد مقدمة السفينة الحادة يتبعها الساري المنحني فوق الماء؛ وينتصب هذا الساري في مقدمة المركب مثل لسان وحش بحري. إن تموج البحر الذي نلحظه بالكاد في مركز الجاذبية، في وسط المركب، يجعل مقدمة السفينة تهتز اهتزازات بطيئة وهائلة. فتبدو حيناً وكأنها توجه طريق السفينة نحو نجمة ما في السماء، وحيناً آخر وكأنها تغوص به نحو واد عميق في المحيط؛ لأن البحر يبدو لنا إذا كنا في طرف السفينة وكأنه يصعد ويهبط بل يتوقف،

ذلك لأن كتلة المركب وطوله يضاعفان من تأثير الأمواج المتموجة.

أما نحن، فيفصلنا هذا الساري الكبير عن مسرح الطبائع والعادات البحرية، إننا نجلس على المقاعد المخصصة للمناوبة، أو نتنزه مع الضباط على جسر السفينة، نراقب نزول الشمس وصعود الأمواج.

وفي وسط كل هذه الوجوه الذكورية والقاسية والقلقة، توجد طفلة، ينسدل شعرها ويخفق فوق ثوبها الأبيض، وجهها الجميل الوردي سعيد وفرح، وتحيط به قبعة بحّار مصنوعة من القش ومعقودة حول ذقنها، وهي تلعب مع قطة القبطان البيضاء، أو مع أفراخ حمام بحري حصلنا عليه بالأمس، وهي تنام تحت عربة المدفع، ولإطعام هذه الحمائم تفتت خبز عصرونيتها.

وفي هذه الأثناء يعلن قبطان المركب وهو يحمل بيده ساعته البحرية، وهو يراقب بصمت من جهة الغرب، اللحظة الدقيقة التي يبدو فيها قرص الشمس وكأنه قد انكسر في منتصفه وبدا وكأنه يلامس الموج ويطفو لبرهة قبل أن يغرق فيه بالكامل، يرفع القبطان صوته ويعلن قائلاً: أيها السادة لقد حان موعد الصلاة! فتتوقف كل المحادثات وتنتهي كل الألعاب، ويرمي البحارة بسجائرهم، التي لا تزال مشتعلة، إلى البحر، وينزعون عن رؤوسهم قبعاتهم اليونانية المصنوعة من الصوف الأحمر، فيمسكونها بأيديهم ويجثون على ركبهم بين الساريين. ويفتح أصغرهم كتاب صلاة ويغني «السلام عليكِ يا نجمة البحر» (Ave, maris stella)، ويتلو الصلوات بطريقة رقيقة وضارعة وعميقة، تبدو وكأنها من وحي أعماق البحر، من هذا الحزن القلق لساعات النهار الأخيرة، الذي تصعد فيه كل ذكريات اليابسة والأكواخ والبيوت من القلب في أفكار هؤلاء الرجال البسطاء. سوف تهبط الظلمات فوق الأمواج وتبتلع في عتمتها المخيفة حتى الصباح طريق الملاحين وحياة الكثير من الناس الذين لا يملكون منارة أخرى غير العناية الإلهية، ولا ملجأ سوى اليد الخفية التي تحفظهم فوق الأمواج. إذا لم تولد الصلاة مع الإنسان نفسه، فلا شك أنها قد خُلقَت هنا على يد رجال كانوا وحدهم مع

أفكارهم وضعفهم، بحضور هوّة السماء حيث يضيع بصرهم، وهوّة البحار حيث تفصلهم خشبة واهية عن هدير المحيط الذي يصفر ويصرخ ويجأر مثل أصوات آلاف الحيوانات الضارية؛ وضربات الريح التي تجعل كل حبل يصدر صوتاً حاداً، واقتراب الليل الذي يضخّم كل المخاطر ويضاعف كل أشكال الذعر. لكن الصلاة لم تُخترع أبداً؛ بل ولدت من التنهيدة الأولى، والفرحة الأولى، وأول حزن للقلب البشري، أو بالأحرى إن الإنسان لم يولد إلا من أجل الصلاة: تمجيد الله أو استعطافه، هي المهمة الوحيدة في هذا العالم الدنيوي؛ كل ما عدا ذلك يفنى قبله أو معه؛ لكن صرخة المجد أو الإعجاب أو الحب التي ترتفع نحو خالقه عندما تمرّ على الأرض لا تفنى؛ بل ترتفع وتتردّد من جيل إلى جيل في سمع الله، مثل صدى صوته الخاص، مثل انعكاس لعظمته؛ إنه الشيء الإلهي الخالص الوحيد في الإنسان، والذي يستطيع نشره بفرح وفخر، لأن هذا الفخر هو تكريم للجدير الأوحد بالتكريم، للكائن اللامتناهي.

بالكاد فرغنا من استرجاع هذه الأفكار أو أفكار أخرى مشابهة، كلّ في صمته، حتى دوت صرخة «جوليا» على سطح السفينة وهي تنظر إلى الشرق. حريق فوق البحر! سفينة تحترق! هرعنا لرؤية هذه النار البعيدة فوق الأمواج. وبالفعل كانت هناك جمرة كبيرة من النار تطفو في الشرق في نهاية أفق البحر؛ ثم ارتفعت واستدارت خلال دقائق قليلة، وعرفنا البدر المكتمل وهو يشتعل ببخار ريح الغرب، ويخرج ببطء من الأمواج مثل قرص حديدي أحمر أخرجه الحدّاد بكماشاته من النار وعلقه فوق الموج ليطفئه. وفي الجهة المقابلة من السماء، كان قرص الشمس الذي نزل للتو قد ترك في الغرب مثل شط من الرمال الذهبية، يشبه شاطئ أرض مجهولة. كان نظرنا يطفو من ضفة إلى أخرى بين رائعتي السماء. وشيئاً فشيئاً انطفأت أنوار هذا المغيب المزدوج؛ فولدت آلاف النجوم فوق رؤوسنا، كما لو أنها ترسم الطريق لسوارينا التي تمر من إحداهما إلى الأخرى؛ وتم استدعاء أول نوبة للحراسة الليلية، وجاء البحارة الواحد تلو الآخر ليقولوا للقبطان: «ليكن الله معنا!».

تابعت نزهتي بصمت لبعض الوقت على جسر السفينة؛ ثم نزلت، وأنا أمجد الله

في قلبي لأنه أتاح لي أن أرى هذا الجانب المجهول من طبيعته. يا إلهي، يا إلهي، إن رؤية عملك بكل وجوهه، وتأمل عظمتك فوق الجبال و على البحار، وعبادة وتقديس اسمك الذي لا يمكن لأي حرف أن يحتويه، إنه هنا الحياة بأكملها! ضاعف حياتنا، لكي يتضاعف الحب والإعجاب في قلوبنا! ثم اقلب الصفحة واجعلنا نقرأ في عالمٍ آخرَ الروائعَ اللامتناهية لعظمتك وطيبتك!

١٦ تموز ١٨٣٢، في عرض البحر

لقد حصلنا طوال الليل والنهار على بحر جميل ولكنه قوي. وفي المساء، برد الهواء، وتشكل الموج وبدأ يتدحرج بثقل على جوانب السفينة. قمر ناصع يخلق سيولاً طويلة من الضياء الأبيض المتموج في أودية عريضة سائلة، محفورة بين الأمواج الكبيرة. إن أنوار القمر العائمة تشبه سواقي من المياه الجارية، وشلالات من مياه الثلج في مجاري الأودية الخضراء في منطقة الـ «جورا» (Jura) أو في «سويسرا». كان المركب ينزل ويصعد بتثاقل في كل سيلٍ من هذه السيول العميقة. وللمرة الأولى خلال هذه الرحلة سمعنا أنين وتأوه الخشب؛ كانت جوانب المركب المسحوقة تحت وطأة ضربات كل موجة، تصدر صوتاً لا يمكن تشبيهه إلا بالخوار الأخير لثور ضربته فأس فاستلقى على جنبه وهو يعاني من اختلاجات النزاع الأخير. هذا الصوت الممتزج في الليل بهدير مئة ألف موجة، وبقفزات المركب الهائلة، وبطقطقة السواري، وبصفير العاصفة، وبرذاذ الزبد الذي تلقيه والذي نسمع انهماره فوق الجسر وهو يصفر، وبخطى رجال الحراسة الثقيلة والمسرعة وهم يركضون باتجاه قيادة السفينة، وبكلمات الضابط النادرة والحازمة والمقتضبة وهو يعطي أوامره؛ كل هذا كان يشكل كمّاً من الأصوات المعبّرة والرهيبة؛ التي تهزّ الروح بشكل أعمق مما تفعله ضربة مدفع في ساحة المعركة. يجب أن نحضر مشاهد مماثلة لنكتشف الجانب الشاق من حياة البحّارة، ولنقدّر حساسيتنا الأخلاقية والجسدية الخاصة!

وهكذا مرّ الليل بطوله من غير نوم. وعند بزوغ الفجر هدأت الريح قليلاً، ولم تعد

الأمواج تتلاطم، أي أنها لم تعد متوجة بالزبد؛ كل شيء كان يبشر بنهار جيد؛ وأبصرنا من خلال الضباب الملون للأفق سلسلة جبال «سردينيا» (Sardaigne) العالية والطويلة. وأنبأنا القبطان ببحر هادئ ومسطح مثل بحيرة، من هذه الجزيرة وحتى جزيرة «صقلية» (Sicile) .كنا نقطع ثماني عقد، وأحياناً تسع عقد، كل ربع ساعة، وكانت الشواطئ المضيئة التي تدفعنا الريح باتجاهها ترتسم بوضوح أكبر؛ فتزداد الخلجان عمقاً والرؤوس تقدماً، وتنتصب الصخور البيضاء فوق الأمواج، أي المنازل. وبدأنا نميّز الحقول المزروعة على جوانب الجزيرة. وعند الظهر لامسنا مدخل خليج سان بيير (Saint-Pierre)؛ ولكن في اللحظة التي شرعنا فيها بتجاوز الرصيف الصخري الذي يسدّه، ضرب إعصار مفاجئ من الريح الشمالية أشرعتنا؛ وبدأت الموجة التي كانت كبيرة في الليل تسلّم نفسها إلى الريح وتتكوّم على شكل هضاب حقيقية متحرّكة؛ وغدا الأفق بأكمله مفرشاً من الزبد؛ وكانت السفينة تتأرجح تباعاً على رأس كل موجة، ثم تهبط بشكل عمودي تقريباً في الأعماق التي تفصل بينها: حاولنا بغير طائل أن نجد لنا مأوى في الخليج. وفي اللحظة التي تجاوزنا فيها الرأس لندخل فيه، هبت ريح غاضبة وصافرة كما لو أنها مجموعة من السهام تنطلق من كل وهدة، ومن كل جُونة على الساحل، فرمت السفينة على جنبها؛ وتمكنا بالكاد من جمع الأشرعة؛ ولم نبقِ إلا على الأشرعة المنخفضة التي كانت تجمع الريح: وأسرع القبطان بنفسه إلى دفة السفينة. وبدت السفينة عندها وكأنها حصان تلجمه يد قوية وتحافظ على لجامه قصيراً، فبدت وكأنها تضرب الأرض برجليها فوق زبد الخليج؛ كانت الأمواج تلامس حواف الجسر، من جهة ميلان السفينة، أما الجانب الأيسر وحتى الأرينة فكان محمياً من المياه. واستمر إبحارنا لمدة عشرين دقيقة على أمل أن نصل مرسى مدينة «سان بيير» الصغير؛ كنا نرى أشجار الكرمة والمنازل الصغيرة البيضاء على مرمى قذيفة مدفع؛ لكن العاصفة كانت في ازدياد، وكانت الريح تصفعنا مثل قذيفة؛ كنا مجبرين على الاستسلام والابتعاد تحت الخطر عن الشاطئ، تحت وطأة العاصفة الأشد. نجحنا في مسعانا وتمكنا من مغادرة الخليج بنفس المناورة التي

رمتنا إليه؛ ووجدنا أنفسنا في عرض البحر الرهيب. كان تعب الليل والنهار يدفعنا بشدة لإيجاد مأوى نحتمي فيه قبل هبوط ليلة أخرى يُتوقع أن تكون أشد من التي سبقتها. وقرّر القبطان أن يتحدى كل شيء، حتى لو تمزقت سواريه، من أجل إيجاد مرسى على سواحل «سردينيا». وعلى بعد فراسخ من المكان الذي نحن فيه، كان خليج «بالما» (Palma) يَعدُ بمكان ملائم. فناضلنا لدخوله ضد هيجان الريح نفسه الذي طردنا من خليج «سان بيير». وانتصرنا بعد ساعتين من الصراع، ودخلنا مثل طائر بحري مهيض الجناح حتى وصلنا إلى قلب خليج «بالما». ولم تهدأ العاصفة؛ كنا نسمع هدير البحر الذي لا يتوقف على بعد ثلاثة فراسخ خلفنا؛ كانت الريح تصفر باستمرار في حبالنا؛ لكن في هذا الحوض المحاط بالجبال العالية لم يكن بإمكان الريح إلا رفع نفثات من الزبد تسقي الجسر فيها وتبرّده، وأخيراً رسونا على مسافة ثلاث أطوال كَبْلية من ساحل «سردينيا»، فوق قاع من الأعشاب البحرية والمياه الهادئة المتغضنة بالكاد. إنه شعور عذب، شعور الملاح الذي نجا من العاصفة بفضل عمله وجهده، حين يسمع صوت جرّ سلسلة المرساة الحديدية التي سوف تربطه إلى شاطئ مضياف. وبمجرد أن علقت المرساة، حتى انفرجت كل أسارير البحارة المتجهمة؛ كان من الواضح أن أفكارهم كلها بدأت ترتاح أيضاً: نزلوا إلى ما بين سطحي المركب ليبدلوا ملابسهم المبتلة؛ ثم صعدوا سريعاً وهم يرتدون ثياب أيام الآحاد، واستعادوا كل عادات حياتهم الهانئة على سطح اليابسة. كانوا بلا عمل، سعداء، يتحدثون، جالسين، وقد شبكوا أذرعهم، أو وقفوا أمام درابزون السفينة، أو دخنوا غلايينهم بهدوء، وهم ينظرون بعدم اكتراث إلى المناظر الطبيعية وإلى منازل الساحل.

١٧ تموز ١٨٣٢

رسونا في هذا الخليج الوادع، بعد ليلة من النوم الهانئ، وتناولنا إفطارنا فوق السطح في ظل شراع كان بمثابة خيمة بالنسبة لنا؛ كان ساحل «ساردينيا» المحروق، والرائع مع ذلك، يمتد أمامنا. ثم ابتعد مركب مزوّد بمدفعين عن جزيرة «سان انتيوش»

(Saint-Antioche) على بعد فرسخين، وبدا أنه يقترب منّا. بدأنا الآن نميّزه بشكل أوضح؛ كان يحمل بحارة وجنوداً؛ وبقليل من الوقت أصبح على مرمى الصوت؛ وبدأوا بطرح الأسئلة وأمرونا بالتوجّه إلى اليابسة؛ فتناقشنا بالأمر، وقررت مرافقة قبطان المركب. تسلحنا ببعض البنادق والمسدسات للمقاومة إذا ما قرروا استخدام العنف للاحتفاظ بنا. وركبنا الزورق الشراعي الصغير، وعندما اقتربنا من المركب «السرديني» الذي كان يلحق بنا، نزلنا على شاطئ في عمق الخليج. كان هذا الشاطئ يحاذي سهلاً مهملاً وسبخياً. رمل أبيض، وأشواك طويلة ولفيف من أشجار الصبار المتفرقة، ورأينا هنا وهناك بعض النباتات وبعض الشجيرات ذات اللحى الباهتة والرمادية التي تشبه أوراقها بعض الشيء أوراق أشجار الأرز، وكانت هناك مجموعة من الأحصنة البرّية ترعى بحرية بين نباتات الخليج، عَدَتْ باتجاهنا لتتعرف إلينا وتشم رائحتنا، ثم ابتعدت وهي تصهل، كمجموعة من الغربان؛ وعلى بعد ميل منّا كانت الجبال الرمادية والعارية باستثناء بعض البقع على سفوحها، والتي تغطيها نباتات هزيلة؛ سماء إفريقية فوق قمم محروقة؛ وصمت واسع فوق كل الأرياف؛ مشهد الحزن والوحدة الذي تظهر به السواحل ذات الهواء الفاسد في «رومانييه» (Romagne)، وفي «كالابريا» (Calabre) أو على طول مستنقعات بونتان (Pontins)، هذا هو المشهد الذي رأيناه؛ سبعة أو ثمانية رجال بهيو الطلعة، جباههم عالية، وعيونهم جريئة ومتوحشة، ونصف عراة، ونصفهم مغطى بأجزاء من بدلات عسكرية، كانوا مسلحين ببنادق طويلة، ويمسكون بأيديهم الأخرى عصياً من القصب ليأخذوا رسائلنا أو ليقدموا إلينا ما يرغبون في تقديمه، ها هم أبطال حدثنا. أجبت بركاكة على أسئلتهم بلهجة أهل نابولي؛ وذكرت بعض أسماء مواطنيهم الذين ربطتني بهم صداقة في شبابي عندما كنت في إيطاليا؛ فغدا هؤلاء الرجال مهذبين ولطيفين بعد أن كانوا وقحين ومتعجرفين. اشتريت لهم خروفاً فذبحوه على الشاطئ. فكتبنا، ثم أخذوا رسائلنا بالفتحة التي صنعوها في نهاية عود القصب الطويل، ثم ضربوا القداحة، ونزعوا بعض أغصان الشجيرات التي تغطي الساحل، وأشعلوا النار ومرروا رسائلنا التي بللها ماء البحر فوق دخان النار قبل أن يلمسوها.

ووعدونا أن يطلقوا رصاصة بندقية هذا المساء لإخطارنا بالعودة إلى الساحل عندما تصبح مؤونتنا من الخضار والماء العذب جاهزة. ثم سحبوا من سفينتهم سلة ضخمة مليئة بالمحار (frutti di mare)، فقدموها لنا ورفضوا أن يتقاضوا ثمنها.

عدنا إلى متن السفينة. ساعات من الفراغ والتأمل اللذيذ، قضيناها على مؤخرة السفينة الراسية، بينما كان دوي العاصفة لا يزال يُسمع في الطرف الآخر للرأسين اللذين يغطياننا، وكنا لا نزال ننظر إلى زبد البحر وهو يرتفع مسافة ثلاثين أو أربعين قدماً إزاء سفوح الرؤوس الذهبية.

١٨ تموز ١٨٣٢

خرجنا من خليج «بالما» مع بحر متلألئ ومسطّح؛ وكانت ريح خفيفة آتية من الغرب بالكاد تكفي لتجفيف ندى الليل الذي يلمع فوق أغصان المصطكى المقطوعة، وهي الخضرة الوحيدة الموجودة على السواحل الإفريقية؛ نهار صامت في عرض البحر، وريح عذبة تدفعنا بسرعة ست أو سبع عقد في الساعة؛ أمسية جميلة؛ وليل متلألئ؛ إن البحر ينام أيضاً.

١٩ تموز ١٨٣٢

استيقظنا على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من الحدود الإفريقية. أعدت قراءة قصة حياة القديس «لويس» (Saint Louis)، لأتذكر ظروف موته على ساحل تونس، بالقرب من رأس «قرطاجة»، الذي سوف نراه هذا المساء أو في الغد.

لا أعرف لماذا في شبابي كانت بعض الشعوب تثير في نفسي كرهاً غريزياً، بينما كانت شعوب أخرى تجذبني وتغريني لقراءة تاريخها بجاذب غير واع. إني أشعر تجاه خيالات الماضي العبثية، تجاه ذكريات الأمم الميتة، نفس الشعور القاهر الذي يجذبني أو ينفّرني من أشكال الأشخاص الذين أعيش معهم أو أمرّ بهم. أحب أو أكره، بالمعنى المادي للكلمة؛ من النظرة الأولى، وبطرفة عين، أحكم على رجل أو امرأة بشكل نهائي.

العقل، والتفكير، وحتى العنف الذي استخدمته أحياناً لمحاربة هذا الانطباع الأول لم تُجْدِ نفعاً. عندما تنحفر في معدن البرونز بصمة رقاص الساعة، مهما حاولت بعد ذلك تقليبه بين أصابعك فإنه يحافظ دوماً على هذا الأثر؛ وهذا هو حال روحي، وكذلك فكري إنه حال الأشخاص الذين يتمتعون بغريزة سريعة وقوية وفورية لا تنثني. قد نتساءل: ما هي الغريزة؟ ونعترف بأنها العقل الأسمى، ولكنها العقل الذي يولد مع الإنسان، العقل الذي لا يَعقِل، العقل كما خلقه الله وليس كما وجده الإنسان. إنه يضربنا كالبرق دون أن تتمكن العين من البحث عنه. إنه ينير كل شيء من الرمية الأولى. إن الإلهام في مجال الفنون، وكذلك في ساحة القتال، هو هذه الغريزة أيضاً، وهذا الفكر الذي نكتشف وجوده. والعبقرية هي غريزة أيضاً، وليست منطقاً وعملاً حثيثاً. كلما فكرنا أكثر، كلما رأينا أن الإنسان لا يملك أي شيء كبير وجميل حصل عليه من قوته أو من إرادته، وإنما كل ما هو جميل بشكل مطلق يأتي مباشرة من الطبيعة أو من الله. إن المسيحية التي تعرف كل شيء قد فهمت ذلك منذ اليوم الأول. لقد شعر الرسل الأوائل في أعماقهم فعل الألوهة المباشر، وهتفوا من اللحظة الأولى: كل عطية كاملة تأتي من لدن الله.

لنعد إلى الشعوب. لم أحب يومًا الرومان؛ ولم أشعر بأية عاطفة تجاه «قرطاجة»، على الرغم من مآسيها ومن عظمتها. ولم يبد لي «هنيبعل» إلا مجرد قائد في «شركة الهند» (la Compagnie des Indes)، قام بحملة صناعية، وبعملية تجارية ناجحة في سهول «تراسيمين» (Trasimène). وهذا الشعب الجاحد مثل كل الشعوب الأنانية، كافأه بالنفي ثم بالموت! لقد كان موته جميلاً ولكنه مؤثرٌ، فصالحني مع انتصاراته؛ لقد أثرت فيّ هذه القصة منذ طفولتي. وُجدَ بالنسبة إلي، كما بالنسبة إلى الإنسانية بكاملها، تناغم سام وبطولي بين المجد المطلق والعبقرية المطلقة والنحس المطلق. هذه إحدى علامات القدر التي لا تفقد تأثيرها أبداً، ولا تموجاتها المغرية، على القلب الإنساني! لا توجد في الواقع عظمة لطيفة، أو فضيلة كاملة، من غير الجحود

والاضطهاد والموت. لقد كان المسيح المثال الإلهي على ذلك، وشرحت حياته وعقيدته لغز حياة الرجال العظماء الغامض، بواسطة قدر الإنسان الإلهي! لقد اكتشفت ذلك في ما بعد: إن سر الحب أو الكره لذكرى بعض الشعوب، يكمن في طبيعة مؤسسات وأعمال هذه الشعوب. إن بعض الشعوب كالفينيقيين مثلاً، و«صور» (Tyr)، و«صيدون» (Sidon)، و«قرطاجة»، كلها مجتمعات تجارة استغلّت الأرض لصالحها ولا تقدّر عظمة أعمالها إلا بحسب المنفعة المادية والنتيجة الآنية؛ – أنا بالنسبة لهم مثل «دانتي» (Dante)، أنظر ثم أمرّ. «Non ragionar di lor, ma guarda e passa» «يجب ألا تفكّر فيهم، بل أن تنظر وتمرّ!». لننه الحديث. لقد كانوا أغنياء ومزدهرين، هذا كل ما في الأمر. لم يعملوا إلا من أجل الوقت؛ ليس على المستقبل أن ينشغل بهم. سيقبضون أجرهم Receperunt mercedem.

ولكن أولئك الذين لم يهتموا كثيراً بالحاضر إذ شعروا أنه يهرب منهم، قد رفعوا، بسبب غريزة الخلود السامية، والعطش الذي لا يرتوي من المستقبل، رفعوا الفكر الوطني فوق الحاضر، والشعور الإنساني فوق البحبوحة والغنى والمنفعة المادية؛ أولئك الذين استنفدوا الأجيال والقرون لكي يتركوا على الطريق خلفهم أثراً جميلاً وخالداً لمرورهم؛ هذه الأمم اللانفعية والكريمة التي حركت كل أفكار العقل الإنساني الكبيرة والثقيلة، لكي تبني منها الحِكَم والتشريعات ودراسة سلالات الآلهة والفنون والأنظمة؛ تلك التي حرّكت كتل الرخام أو الغرانيت لتبني منها المسلات أو الأهرامات، التي تحدت بها العصور والأزمان، إنها الصوت الصامت الذي يتكلم إلى الأبد مع النفوس الكبيرة والكريمة؛ أمم الشعراء مثل المصريين واليهود والهنود. إن الشعب اليوناني الذي جعل السياسة مثالية، وجعل المبدأ الإلهي والروح يتفوقان، في حياته كشعب، على المبدأ الإنساني وعلى المنفعة؛ هؤلاء أحبهم وأبجلهم، أبحث عن آثارهم وأعبدها، وعن ذكراهم وأعمالهم المكتوبة أو المبنية أو المنحوتة؛ أعيش بحياتهم، وأحضر كمشاهد متأثر

ومتحيز مأساة قدرهم المؤثرة أو البطولية، وأجتاز البحار طواعية لأذهب وأحلم بعض الوقت على غبارهم، ولكي أقول لذكراهم كيف يذكرهم المستقبل؛ هذه الأمم استحقت الرجال لأنها رفعت فكرها فوق عالم الطين وفوق النهار الهارب. شعرت هذه الأمم أنها وُجدت من أجل قدر أسمى وأوسع، وبما أنها لا تستطيع أن تعطي نفسها الخلود الذي يصبو إليه كل قلب نبيل وكبير، قالت لأعمالها: «خلدينا، واستمري من أجلنا، وتحدثي عنّا إلى عابري الصحراء، أو لعابري أمواج البحر الـ «أيوني» (la mer Ionienne)، أمام رأس «سيجيه» (Sygée) أو أمام رأس «سونيوم» (Sunium) الشامخ، حيث غنّى «افلاطون» الحكمة التي سوف تغدو حكمة المستقبل».

هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أستمع إلى جؤجؤ السفينة التي كنت جالساً فوقها، وهي تشق أمواج بحر إفريقيا، وأنا أنظر في كل لحظة، تحت ضباب الأفق الزهري، متسائلاً إن كنت قد لمحت رأس «قرطاجة».

توقفت الريح، وهدأ البحر، ومرّ النهار ونحن ننظر إلى البعيد، بلا جدوى، إلى شاطئ إفريقيا الضبابي، وفي المساء هبت ريح قوية؛ كان المركب يتأرجح من جانب إلى آخر، مسحوقاً تحت أشرعة تشبه أجنحة طائر بحري كسّرتها الطلقات، فكان المركب يهزنا بين جانبيه مصدراً هديراً رهيباً يشبه صوت مبنى ينهار. قضيت الليل على الجسر، وذراعي ملتفة حول أحد الحبال؛ وكان البرق يتدفق، وضربات الرعد البعيدة تخرج من الغيوم البيضاء التي تتدافع كجبل عالٍ في خليج تونس العميق. وبدت لي إفريقيا كما تخيلتها دائماً، سفوحاً ممزقة بنيران السماء، وقمماً متفحمة تختبئ تحت الغيوم. وبقدر ما كنا نقترب من رأس «بيزرت» – بنزرت – (Byserte)، ثم من رأس «قرطاجة»، بقدر ما كانت كل الصور الكبيرة، وكل الأسماء الأسطورية أو البطولية التي دَوّت في هذا الشاطئ، تخرج من الظلمة وكأنها تأتي لملاقاتنا، وتخرج كذلك من ذاكرتي وتعيد إليّ الدراما الشعرية أو التاريخية التي كانت هذه الأرض مسرحاً لها.

«فيرجيل» (Virgile)، مثله مثل كل الشعراء الذين أرادوا أن يقدموا ما هو أفضل من الحقيقة ومن التاريخ ومن الطبيعة، قد أفسد صورة «ديدون» (Didon) بدلاً من أن يجمّلها. إن «ديدون» التاريخية، أرملة «سيشيه» (Sychée)، المخلصة لروح زوجها الأول، نصبت محرقتها على رأس «قرطاجة» وصعدت إليها، ضحية سامية وطوعية للحب الطاهر، ومخلصة حتى في الموت! إن هذا أجمل بقليل، وأقدس، وأكثر تأثيراً من التودّد البارد الذي أسبغه الشاعر عليها بشخصية «اينيه» (Enée) المضحكة والتقية، وعشقه اليائس الذي لا يستطيع القارئ أن يتعاطف معه.

لكن الـ «آنّا الأخت» (Anna soror)، والوداع الرائع، واللعنة الأبدية التي تلته، تجعلنا نغفر لـ «فيرجيل» دائماً.

إن الجزء التاريخي لـ «قرطاجة» هو أكثر شاعرية من الشعر. إن موت «سان-لويس» السماوي ودفنه؛ والأعمى «بيليزير» (Bélisaire)؛ و«ماريوس» (Marius) وهو يقضي بين الوحوش الكاسرة فوق أنقاض «قرطاجة»، وهو بحد ذاته وحش كاسر، وجرائم «روما»؛ والنهار البائس الذي يشبه عقرباً طوقته النار فعض نفسه بسمّه القاتل، «قرطاجة» يحاصرها «شيبيون» (Scipion) و«ماسينيسا» (Massinissa)، أحرقت بنفسها أبنيتها ونفائسها، زوجة «اسدروبال» (Asdrubal) مسجونة مع أطفالها في معبد «جوبيتير» (Jupiter)، تلوم زوجها لأنه لم يعرف كيف يموت، فأضرمت بنفسها المشعل الذي سوف يحرقها مع أطفالها وكل ما بقي من وطنها، لكي لا تترك للرومان سوى الرماد! «كاتون الأوتيكي» (Caton dUtique)، والاثنان «شيبيون» و«هنيبعل»، كل هذه الأسماء العظيمة لا تزال مرتفعة فوق الرأس المهجور، مثل الأعمدة الواقفة أمام معبد متهدم. فلا ترى العين إلا رأساً يرتفع فوق بحر مهجور، بعض الصهاريج الفارغة أو المملوءة بأنقاضها، بعض القناطر المتهدمة، بعض الأرصفة البحرية التي اجتاحها البحر وغطتها الأمواج، وبالقرب مدينة متوحشة تجهل حتى هذه الأسماء، مثل أولئك الرجال الذين عاشوا طويلاً وهرموا حتى غدوا غرباء في أوطانهم.

لكن الماضي يكفي هنا إذ يلتمع بالعديد من الذكريات. ما أدراني إذا ما كنت أحبه وهو وحيد ومعزول وسط هذا الخراب، أكثر مما لو دنّسته وأزعجته الضجة وحشود الأجيال الجديدة؟ حال الأطلال مثل حال القبور: إنها وسط ضجيج المدينة الكبيرة ووحل الشوارع، تُحْزن العين وتؤلها، وتشوب كل هذه الحياة الصاخبة والقلقة؛ ولكن في الوحدة، على شاطئ البحر، فوق رأس مهجور، فوق شاطئ رملي بدائي، تنتصب ثلاثة أحجار مصفرّة بفعل الزمن ومكسورة بفعل الصواعق، فتجعلنا نفكر ونحلم أو نبكي.

الوحدة والموت، الوحدة والماضي، التي هي موت الأشياء، يجتمعان حكماً في الفكر الإنساني. توافُقهما هو انسجام غامض. أفضّل أن أضع مشاهدَ الزمن المنصرم في مقدمة رأس «قرطاجة» العاري، ورأس «سينيوم» الحزين، وشاطئ «باستوم» (Paestum) القذر والعاري، أكثر من وضعها في معابد وأقواس ومدرّجات «روما» الميتة، والتي تسحقها الأقدام في «روما» الحيّة، بلامبالاة الاعتياد وانتهاك النسيان.

٢٠ تموز ١٨٣٢

خفت الريح في الساعة العاشرة، وتمكنا من الصعود إلى سطح السفينة، كنا نبحر بسرعة سبع عقد في الساعة، وسوف نصل قريباً على ارتفاع جزيرة «بانتيليريا» (Pantelleria) المنعزلة، التي كانت تدعى قديماً جزيرة «كاليبسو» (Calypso)، ولا تزال جزيرة لطيفة بنباتاتها الإفريقية ورطوبة أوديتها ومياهها. هنا كان الأباطرة ينفون المحكومين السياسيين.

وهي تظهر فقط على شكل مخروط أسود يخرج من الماء، ومغطاة إلى ثلثي قمتها بضباب أبيض ألقته عليها الريح والليل. لا يمكن لأية باخرة أن تقترب من ساحلها؛ فليس لها مرفأ إلا للزوارق الصغيرة التي تحمل المنفيين من «نابولي» و«صقلية» إليها، إنهم يتعذبون هنا منذ عشر سنوات، وهم يكفّرون جريمة ارتكابهم

بعض أحلام الحرية المبكرة.

تعساء هم الرجال الذين يسبقون عصرهم، مهما كان نوعهم! لأن زمنهم يسحقهم. هذا قدرنا نحن الرجال الذين لا يقبلون بأنصاف الحلول، رجال فرنسا السياسيين والعقلانيين. لا تزال فرنسا على بُعْدِ قرن ونصف من أفكارنا. إنها تريد رجال نِحَل وأحزاب يحملون أفكارها: ما الذي يعنيها في الوطنية والعقل؟ يلزمها لجهلها الكره والحقد والتعذيب بالتناوب! وسوف تنال كل ذلك حتى تجرحها الأسلحة الميتة التي طالما أرادت استخدامها، فتسقط أو تلقي بها بعيداً عنها، وتلتفت إلى الأمل الوحيد للتطور السياسي: الله، وقانونه، والعقل، عقلها الذي وُجِدَ معها.

٢١ تموز ١٨٣٢

كان البحر، عندما استيقظت بعد ليلة عاصفة، يبدو وكأنه يلعب مع ما تبقّى من ريح الأمس؛ ما زال الزبد يغطيه كندف الثلج التي لم تمسح كلها والتي لا تزال تشكل بقعاً على خاصرتي الحصان المتعب بعد سباق طويل، أو كتلك التي يحرّكها لجامه حين يخفض رأسه ويرفعه ثانية، وهو يتلهف إلى سبق جديد. تركض الأمواج مسرعة بشكل غير منتظم، لكنها خفيفة، وقليلة العمق وشفافة: هذا البحر يشبه حقل شعير جميل يتمايل بسبب ريح صباح ربيعي، بعد ليلة ممطرة؛ إننا نرى جزر «غوزو» (Gozzo) و«مالطا» تبرز فوق الضباب، على بعد خمسة أو ستة فراسخ في الأفق.

٢٢ تموز، الوصول إلى مالطا

كلما ازددنا اقتراباً من «مالطا»، كلما كان الشاطئ المنخفض يرتفع ويظهر بوضوح؛ لكن مظهره كان حزيناً وعقيماً. سوف نرى عمّا قريب التحصينات والخلجان التي شكّلها المرفأ؛ خرجت من هذه الخلجان مجموعة من المراكب الصغيرة، على متن كل منها شخصان للتجديف، وأسرعت إلى مقدمة سفينتنا؛ كان البحر هائجاً وكان الموج يدفعها أحياناً إلى الأخدود العميق الذي حفرناه في البحر؛ وبدا وكأنها سوف تغرق فيه؛ ثم كان الموج يرفعها، لقد سارعت المراكب في إثرنا، وبدت وكأنها ترقص

على جانبي السفينة، وألقت إلينا بحبال صغيرة لكي تجرنا إلى المرسى.

وأعلمنا الملاحون بأننا سوف نخضع لحجْر صحي لمدّة عشرة أيام، ثم قادونا إلى المرفأ المخصص تحت أسوار مدينة «فاليت» (Valette) العالية. وأخطر السيد «مييج» (M. Miége)، قنصل فرنسا، الحاكمَ «السير فريديريك» (sir Frédérick) بقدومنا؛ فجمع مجلس الصحة، وخفض مدة الحجر إلى ثلاثة أيام.

حصلنا على الإذن بالصعود إلى قارب والتنزه مساء على طول الأقنية المحاذية لمرفأ الحجر. كان ذلك اليوم يوم الأحد. وقد غربت شمس النهار المحرقة في قلب جُونة هادئة وضيقة في الخليج الواقع خلف مقدمة سفينتنا، كان البحر هنا مسطحاً ولامعاً، رصاصياً قليلاً، يشبه القصدير المطلي حديثاً. السماء فوقنا كانت برتقالية اللون، وفيها لون زهري خفيف. وكان اللون يختفي كلما ازداد ارتفاعه فوق رؤوسنا وابتعد باتجاه الغرب: وفي الشرق كان لونها أزرق يميل إلى الرمادي وشاحباً، ولا تشبه أبداً زرقة سماء خليج «نابولي» الساطعة، أو حتى العمق الأسود للقبة السماوية فوق جبال «الألب» في منطقة الـ «سافوا» (Savoie). إن لون السماء الإفريقية يتأثر (يتطبّع) بالمناخ المشتعل وبخشونة هذه القارة الحادة؛ يصيب انعكاس الضوء في هذه الجبال العارية السماءَ بالجفاف والحرّ، ويبدو الغبار المشتعل لصحارى الرمل القاحلة هذه وكأنه يمتزج في الهواء الذي يحيط بها، ويعطي سماءَ هذه الأرض لوناً داكناً. وقادنا مجذفو مركبنا ببطء بعيداً قليلاً عن الشاطئ. ينتهي الساحل الرملي المنخفض والمتجانس على بعد عدة بوصات فوق البحر، ويغطيه على مسافة نصف ميل، هناك صف من المنازل المتلاصقة، وتبدو وكأنها تقترب إلى أكبر قدر ممكن من البحر لكي تتنفس رطوبته وتستمع إلى همسه. ها هو أحد المنازل، وأحد المشاهد التي نراها تتكرّر على كل عتبة وفوق كل مصطبة، وفي كل شرفة. فإذا ضربنا هذا المشهد وهذا المنظر الذي رأيناه بخمس أو بست مائة منزل مشابه، حصلنا على ذكرى محددة عن هذا المشهد الفريد بالنسبة إلى أوروبي لا يعرف «إشبيلية» (Séville)، أو «قرطبة» (Cordoue)، أو

«غرناطة» (Grenade) : إنها تذكار يجب حفره بالكامل، بتفاصيل السلوك المرافق، لكي نستعيده بعد ذلك في التجانس المعتم والقاتم لمدننا في الغرب. عندما نستعيد تلك الذكريات في أيام وأشهر الثلج والضباب والمطر، تكون بمثابة هروب نحو السماء الهادئة خلال عاصفة طويلة. قليل من الشمس في العين، قليل من الحب في القلب، وشعاع إيمان أو حقيقة في الروح، إنه الشيء نفسه. لا يمكنني العيش لولا هذه التعزيات الثلاث في المنفى الأرضيّ. عيناي من بلاد الشرق، وقلبي حبّ، وفكري من أولئك الذين يحملون في داخلهم غريزة النور، أمر بديهي عفوي ولا يمكن إثباته، ولكنه لا يخدع بل يواسي. هذا هو المشهد إذن:

نور مذهّب، ناعم وهادئ، مثل الذي ينبعث من ملامح شابة صغيرة قبل أن يأتي الحب ويحفر تجعيدة على جبينها، ويلقي بظل على عينيها. هذا النور المنتشر أيضاً فوق الماء، وعلى الأرض، وفي السماء، يضرب حجر المنازل الأبيض والأصفر، ويترك كل رسومات الأفارين، وكل زوايا الأضلاع البارزة، وكل (درابزونات) المصاطب، وكل نقوش الشرفات، يتركها تظهر مجوفة وواضحة في الأفق الأزرق، تحت هذا الارتعاش الهوائي، بهذا الغموض الضبابي الذي جعل منه الغرب مقياس جمال في الفن، إذ لم يكن بمقدوره إصلاح عيوب مناخه. نوع الهواء، ولون الحجارة الأبيض والأصفر والمُذهّب، ومتانة الحواف، كل هذه الأشياء تسبغ على أبسط بيت في منطقة الـ «ميدي» صلابة ووضوحاً يطمئنان ويؤثران في النظر بقوة. ويبدو كل بيت وكأنه لم يُبْنَ حجراً حجراً مع الملاط والرمل، وإنما نُحِتَ حيّاً وواقفاً في صخر حيّ، ثم أُجلس على الأرض ككتلة خرجت من بطن الأرض، وسوف تبقى بقاء الأرض ذاتها. دعامتان عريضتان وأنيقتان ترتفعان على زاويتي الواجهة؛ ترتفعان بطول طابق ونصف الطابق، بعد ذلك يبدأ إفريز أنيق ومنحوت في الحجر اللامع فيشكّل الأقواس، التي ستكون بدورها الأساس الذي سيرتفع فوقه (درابزون) غني وضخم يمتد على طول السطح، ويحلّ محلّ المسطحات الثلاثة غير المنتظمة والحادة والغريبة والتي تُهين كل عمارة، وتكسر

كل خط منسجم مع الأفق، والتي نستخدمها في مجمعات الأبنية الغريبة التي ندعوها مدناً في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا. وبين هاتين العارضتين، تبرز فوق الواجهة، مقدار عدة بوصات فقط، ثلاث فتحات رسمها المعماري، إنها باب ونافذتان. الباب عالٍ، وعريض ومؤطر، وليس له عتبة على الطريق؛ ينفتح على درج مدخل خارجي، يحتل من الرصيف مسافة سبعة أو ثمانية أقدام. والمدخل الخارجي محاط بـ (درابزون) من الحجر المنحوت، وهو بمثابة صالون خارجي كما هو مدخل للبيت. إذا وصفنا أحد تلك المداخل الخارجية، نكون قد وصفناها كلها. رجل أو اثنان في سترة بيضاء، وجهها أسود، وعيونهما إفريقية، يحمل كل منهما غليونه بيده، متمددان بكسل على ديوان من الخيزران بجانب الباب؛ وأمامهما تتكئ بجمال ثلاث نساء على (الدرابزون)، في وضعيات مختلفة، وينظرن بصمت إلى مركبنا أثناء مروره، أو يتضاحكن فيما بينهن بسبب شكلنا الغريب. ثوب أسود يصل إلى منتصف الساق فقط، وصدرية بيضاء ذات أردان عريضة فيها ثنيات واسعة، تسريحة من الشعر الفاحم، وفوق الرأس والكتفين نصف معطف من الحرير الأسود شبيه بالثوب، يغطي نصف الوجه، ويقوم أحد الكتفين وإحدى الذراعين بتثبيت المعطف؛ هذا المعطف المصنوع من قماش خفيف والذي نفخته الريح قليلاً، بدا على شكل شراع منفوخ فوق قارب، وفي ثنياته المتقلبة يختفي أحياناً، ويظهر أحياناً أخرى الوجه الغامض الذي يغطيه، والذي يبدو أنه يهرب منه بمتعة. بعض الفتيات يرفعن رؤوسهن بجمال ليتحدثن مع فتيات أخريات ينحنين فوق شرفاتهن العالية، ويلقين لهن بالرمان أو بالبرتقال؛ والأخريات يتحدثن مع شبان ذوي شوارب طويلة، وشعر أسود كثيف، ويرتدون سترات قصيرة ومزمومة، وسراويل بيضاء وأحزمة حمراء. وعلى حافة المدخل الخارجي جلس كاهنان شابان بثوبيهما الأسودين وأحذيتهما ذات العقَد الفضية، وهما يتحدثان ببساطة ويهزان مروحتين واسعتين خضراوين، بينما وقف في أسفل الدرج راهب متسوّل جميل، حافي القدمين، شاحب الجبين، أصلع الرأس وأبيض البشرة، حاسر الرأس، وقد غطى جسمه بثوب بني له ثنيات ثقيلة، وهو يتكئ مثل تمثال للتسول على عتبة الرجل الثري والسعيد،

ويلقي الراهب نظرة ترفّع وعدم اكتراث على مشهد الترف والسعادة هذا. وفي الطابق العلوي، رأينا عائلة إنكليزية فوق شرفة عريضة تستند على ثماثيل حاملة (كارياتيد) جميلة، تغطيها شرفة هندية جميلة ومزينة بستائر وبشراريب. إن الإنكليز هم الفاتحون الحاليون لمالطا، إنهم سعداء وباردو الأعصاب. رأينا هنا بعض المرضعات العربيات بعيونهن اللامعة وببشراتهن الرمادية والسوداء، وهن يحملن بين أذرعهن أطفال إنكلترا العظمى الجميلين، شعرهم أشقر ومتموّج وبشرتهم البيضاء والوردية تقاوم شمس «كلكوتا» (Calcutta) كما تقاوم شمس «مالطا» أو شمس «كورفو» (Corfou). عندما لمحنا هؤلاء الأطفال تحت المعاطف السوداء وتحت النظر الثاقب لأولئك النسوة، نصف الإفريقيات، خيّل لنا أننا نرى حملاناً جميلة بيضاء معلقة بأثداء نَمِرات الصحراء. ورأينا على المصطبة مشهداً آخر؛ يتقاسمه الإنكليز وأبناء مالطا. رأينا في إحدى الجهات فتيات الجزيرة يتأبطن القيثارات ويعزفن بعض ألحان نشيد وطني قديم وبدائي مثل هذا المناخ؛ وفي الجهة الأخرى شابة إنكليزية جميلة تتكئ بحزن على مرفقها، وهي تتأمل بلا اهتمام مشهد الحياة الذي يمرّ تحت أبصارها، وتقلّب صفحات شعراء بلدها الخالدين.

ونضيف إلى هذه الصورة مشهد الخيول العربية التي يمتطيها الضباط الإنكليز، وهي تعدو، بعروفها المبعثرة، فوق رمل الرصيف؛ والسيارات المالطية التي هي نوع من المقاعد ذات الحوامل المثبتة على عجلتين، والمربوطة إلى حصان إفريقي يتبعها السائق ركضاً على قدميه، وقد عقد فوق خصره زناراً أحمر له شراريب طويلة، جبينه مغطى بشبيكة الخوذة، أو بالقلنسوة الحمراء التي تتدلى حتى خصره التي يرتديها «البغّالون» الإسبان؛ صرخات الأطفال المتوحشة، الذين يرتمون عراة في البحر ويسبحون تحت مركبنا، وغناء اليونانيين أو الصقليين الدامع في المرفأ المجاور، والذي يتردد كغناء جوقة من جسر سفينة إلى آخر، وألحان القيثارة الرتيبة والراقصة، تشكّل هديراً ناعماً في هواء المساء فوق كل هذه الأصوات الحادة؛ وهكذا تكوّنون فكرة عن رصيف الـ

«امبسيدا» (Empsida) في مساء يوم الأحد.

٢٤ تموز ١٨٣٢

دخلنا بشكل حرّ إلى مرفأ مدينة «فاليت»؛ ورجع السير «فريديريك بونسونبي» (Frédérick Ponsonby) من الريف لملاقاتنا، واستقبلنا في قصر «السيّد الكبير» (Grand-Maître) في الساعة الثانية. إنه صورة ممتازة للرجل الإنكليزي النبيل؛ وتبدو النزاهة هي السمة التي على وجوه هؤلاء الرجال؛ الرفعة والجدّية والنبل، هذا هو نمط السيد الإنكليزي الحقيقي. تأملنا القصر بإعجاب؛ بساطة رائعة ووقور؛ جمال في الكتلة وغياب الزينة الفارغة في الداخل والخارج؛ قاعات فسيحة؛ أروقة طويلة؛ لوحات صارمة؛ درج عريض، ناعم ورنان؛ قاعة أسلحة بطول مئتي قدم، تحتوي على أسلحة من مختلف مراحل تاريخ نظام «سان -جان دي جيروزاليم» (Saint-Jean de Jérusa-lem)؛ مكتبة تضم أربعين ألف مجلّد وهنا استقبلنا المدير، الأب «بولانتي» (Bollanti)، وهو رجل دين مالطي شاب، يشبه تماماً آباء روما في المدرسة القديمة: عين ثاقبة وعذبة، فم متأمل وباسم، جبين شاحب وبارز، لغة أنيقة ومتناغمة، تهذيب بسيط وطبيعي وناعم. تحدثنا طويلاً لأنه من نمط الرجال الجديرين بحديث طويل وقويّ ومليء. في داخله شيء حزين وغير مكترث وقانع، مثل ما لاحظت عند جميع رجال الدين الذين التقيت بهم في إيطاليا، وهذا يعود إلى نبل وانصياع للنظام الذي سقط. لقد تربوا فوق الأنقاض، فوق أنقاض مبنىً انهار؛ فأصيبوا بالحزن وبعدم المبالاة بالحاضر. قلت له، كيف يمكن لرجل مثله أن يتحمّل النفي الأدبي والعزلة اللذين يعيشهما في هذا القصر المقفر وسط غبار هذه الكتب؟ فأجاب، صحيح أني أعيش وحيداً وأنني حزين؛ إن أفق هذه الجزيرة محدود جداً؛ والضجة التي قد أسببها في كتاباتي لا تصل إلى البعيد، وكذلك فإن الضجة التي يسببها رجال آخرون في أماكن أخرى، تُسْمَعُ هنا بالكاد. لكن روحي تُبصر في البعيد أفقاً أكثر حرّية وأرحَب، تصبو روحي للانتقال إليه؛ لدينا سماء جميلة فوق رؤوسنا، وهواء دافئ حولنا، وبحر واسع وأزرق تحت أبصارنا؛ وهذا يكفي

لحياة الحواس. أما بالنسبة إلى حياة الفكر، فإنها ليست أكثر كثافة في أي مكان، مما هي عليه في الصمت وفي الوحدة. إن هذه الحياة تصعد مباشرة إلى المنبع الذي خرجت منه، إلى الله، دون أن تضيع أو تتشوّه بالاحتكاك بأشياء البشر وهمومهم. عندما ذهب القديس «بولس» (Saint-Paul) ليحمل كلمة المسيح الخصبة للأمم، غرق مركبه في «مالطا» وبقي فيها ثلاثة أشهر ليزرع بذور الخردل الأسود، لم يشتك من غرقه ومن منفاه، اللذين جعلا هذه الجزيرة تكتشف بشكل مبكّر الكلمة والأخلاق الإلهية: فهل عليّ أن أشتكيَ، وأنا الذي ولدتُ فوق هذه الصخور الجرداء، إذا كان الإله قد تركني هنا، وأوكل إليّ مهمة الحفاظ على الحقيقة المسيحية في القلوب التي توجد فيها الكثير من الحقائق المهدّدة بالزوال؟ ثم أضاف، لهذه الحياة شاعريتها؛ عندما أفرغ من تصنيفاتي ومن فهارسي، سوف أكتب ربما شعراً يمجّد الوحدة والصلاة. غادرته بحزن وبالرغبة في لقائه ثانية.

كنيسة «القديس بولس» (Saint-Paul)، كاتدرائية الجزيرة، تمتلك كل الجدّية التي ننتظرها من صرح مماثل في مكان مماثل؛ عظمة ونبل وغنى. مفاتيح «رودس» (Rhodes) التي جلبها الفرسان بعد هزيمتهم، معلقين على جانبي المذبح، رمز للندم الأزلي أو للآمال المخدوعة إلى الأبد. قبة رائعة، رسمها بكاملها الفنان «كالابريز» (Calabrèse)؛ عمل يليق بروما الحديثة في أجمل عصور الرسم التي عرفتها.

أدهشتني لوحة وحيدة في كنيسة «الانتخاب» (Election)؛ من صنع «ميكل–انج دي كارافاجيو» (Michel-Ange de Caravaggio)، الذي استدعاه الفرسان في الماضي إلى الجزيرة ليرسم قبة «سان – جان». فباشر بالعمل، لكن حماس وتوتر طبعه البرّي تغلبا عليه؛ وخاف من الالتزام بعمل طويل الأمد، فرحل. وترك رائعته في «مالطا»، «ضرب عنق القديس يوحنا المعمدان» (Décollation de saint Jean-Baptiste) .لو أن رسامينا المعاصرين يبحثون عن الرومانسية في المنهج عوضاً عن البحث عنها في الطبيعة، رأوا هذه اللوحة الرائعة، لوجدوا ما ادعوا اختراعه، وقد

اخترعه آخرون قبلهم. ها هي الثمرة التي ولدت فوق الشجرة، وليست الثمرة الاصطناعية التي قولبت بالشمع وطُليت بالألوان الكاذبة؛ وضعيات تصويرية، وحيوية في اللوحة، وعمق في العاطفة، وحقيقة وكرامة كلها مجتمعة معاً؛ قوة في التضاد، ومع ذلك وحدة وانسجام، رعب وجمال معاً، ها هي مكونات هذه اللوحة. إنها من أجمل اللوحات التي رأيتها في حياتي. إنها اللوحة التي يبحث عنها رسامو المدرسة المعاصرة. هذه هي، لقد وُجِدتْ. فليتوقفوا عن البحث. وهكذا نرى أنه لا شيء جديد في الطبيعة وفي الفنون. كل ما نفعله قد تمّ فعله؛ وكل ما نقوله قد قِيل سابقاً؛ وكل ما نحلم به حلم به أحدهم من قبل. كل قرن يقلّد القرن الذي سبقه: لأننا باعتبارنا فنانين أو مفكرين، فانين أو هاربين، إننا ننسخ بأشكال مختلفة نموذجاً ثابتاً وأزلياً، إنه الطبيعة، وهي فكرة الخالق الوحيدة والمختلفة!.

٢٥ تمّوز ١٨٣٢

من قمة المرصد الذي يعلو قصر «السيد الكبير»، يمكننا رؤية مشهد هام لمدن، وموانئ وأرياف «مالطا»؛ أرياف جرداء، لا شكل لها ولا ألوان فيها، قاحلة مثل الصحراء؛ مدينة تشبه ترس سلحفاة انتهى بها الأمر فوق صخرة؛ تبدو وكأنها منحوتة من كتلة صخرية حيّة واحدة؛ مشاهد سطوح تتحول إلى مصاطب مع اقتراب الليل؛ نساء جالسات على المصاطب. هكذا رأى الرسام «دافيد» (David) «بتسابيه» (Bethsabée) . لا شيء جميل أو مغر باستثناء تلك الوجوه البيضاء أو السوداء، التي تشبه الظلال، عندما تبدو هكذا تحت أشعة القمر، على سطوح المنازل الكثيرة. لا نرى النساء إلا هنا، أو في الكنيسة، أو على شرفاتهن؛ كل اللغة تمرّ عبر العيون؛ كل قصة حب هي لغز لا تفسده الكلمات؛ وقد تنسج مأساة وتنتهي أيضاً بدون كلام. هذا الصمت، وهذا الظهور في أوقات محددة؛ هذه اللقاءات في الأماكن ذاتها، هذه الحميمية عن بعد، وهذه التعابير الصامتة، إنها أول لغة وأسمى لغة للحب، هذا

الشعور الذي يسمو على الكلمات، وهو كما تفعل الموسيقى، يقول بلغة أخرى ما تعجز أية لغة أخرى عن قوله.

هذه المظاهر وهذه الأفكار تعيد الشباب للروح؛ وتجعلنا نشعر بالسحر الوحيد الذي لا ينضب والذي خلقه الله ونشره على الأرض، وتجعلنا نأسف لأن ساعات الحياة سريعة ومختلطة جداً. يكفي الإنسان أن يشعر بإحساسين اثنين، حتى ولو بلغ عمر الصخور؛ التأمل بالله والحب. الحب والدين هما الفكرتان أو بالأحرى الفكر الأوحد لشعوب منطقة الـ «ميدي»؛ وهكذا تراهم لا يبحثون عن شيء آخر، وهذا يكفيهم. إننا نشفق عليهم، ولكن علينا أن نحسدهم. ما هو القاسم المشترك بين أهوائنا الوهمية، وبلبلة أفكارنا العبثية المهتاجة، وبين الفكرتين الوحيدتين الحقيقيتين اللتين تشغلان حياة أبناء الشمس هؤلاء: الدين والحب؛ الفكرة الأولى تسحر الحاضر، وهل الأخرى تسحر المستقبل؟ هكذا كنت مُعجباً دائماً، على الرغم من الأفكار المسبقة المعارضة، بالهدوء العميق الذي لا يتعكر في وجوه أهل الـ «ميدي»، وبهذه الكتلة من الراحة والسكينة والسعادة التي تنتشر في عادات وعلى وجوه هذا الحشد الصامت الذي يتنفس ويحيا ويحب ويغني تحت أنظارنا؛ الغناء، هذا الفائض من السعادة ومن الانطباعات في روح ملأى! يغني الناس في «روما» و«نابولي» و«جنوا» (Gênes) و«مالطا» و«صقلية» و«اليونان» و«ايونيا» (Ionie)، على الشاطئ، وفوق الأمواج، وأسطح المنازل؛ لا نسمع إلا ترنيمة الصيّاد البطيئة، وترنيمة البحار والراعي، أو الدندنة البعيدة لقيثارة في الليالي الهادئة. إنها السعادة مهما قيل عنها. أتقولون إنهم عبيد؟ ماذا يعرفون؟ العبودية أم الحرية! البؤس أم السعادة المتفق عليها! إن البؤس والسعادة أشد قرباً منّا. ما همّ هذه الجموع التي تتنفس هواء البحر أو تنام في أشعة شمس «صقلية» الدافئة، أو شمس «مالطا» أو الـ «بوسفور» (Bosphore)، أصنعَ القانون على يد كاهن أو باشا أو البرلمان؟ هل سيغير هذا من علاقاتهم مع الطبيعة التي هي شغلهم الشاغل؟ لا، بلا شك: إن كل مجتمع حرّ أو ذو نظام مطلق، يتحول في النهاية إلى عبودية

ملموسة إلى حدّ ما. إننا عبيد القوانين المتغيرة والمزاجية التي نصنعها، وهي بدورها عبد لقانون القوة الذي لا يتغيّر الذي أعطاه الله لها؛ لكن كل ذلك سواء بالنسبة إلى السعادة أو إلى الحزن: بالنسبة إلى الكرامة الإنسانية أو تقدّم ذكاء وأخلاق الإنسان، لا، لا. هل يجب علينا أن ندقق أكثر قبل أن نقول «لا»؟ خذوا بشكل عشوائي مئة رجل من بين شعوب العبيد هذه، ومئة رجل من شعوبنا التي ندعي أنها حرّة، ووازنوا بينها. أين يوجد الكمّ الأكبر من الأخلاق والفضيلة؟ أنا أعرف الجواب جيداً ولكنني أرتجف من قوله. إذا قرأ أحدهم ما كتبتُ قد يتّهمني بالتحيّز للاستبداد واحتقار الحرية. إنه مخطئ! أحب الحرية كجهد صعب يزيد الإنسانية نبلاً، كما أحب الفضيلة من أجل ما تستحق وليس من أجل المكافأة التي تنالها، لكن الأمر يتعلق بالسعادة؛ وفي مجال الفلسفة أنا أراقب وأقول كما قال «مونتيني» (Montaigne) : ما أدراني؟ الموضوع هو أن مسائلنا السياسية المهمة جداً في مدارسنا، أو في مقاهينا، أو نوادينا، تغدو صغيرة جداً إذا ما نظرنا إليها من بعيد، في وسط المحيط، أو في أعالي جبال «الألب»، على ارتفاع التأمل الفلسفي أو الديني. هذه المسائل لا تعني إلا بعض الناس الذين يملكون الخبز والوقت الفائض؛ لا تكترث الجموع إلا بالطبيعة؛ إنها دين جيد وجميل وإلهي، هذه هي السياسة التي يستعملها العامة. إن مبدأنا يفتقر إلى مبدأ الحياة هذا، ومن أجل هذا السبب نتعثّر، ونقع، ونقع من جديد، إننا لا نسير؛ إننا نفتقر إلى أنفاس الحياة؛ إننا نخلق أشكالاً، دون أن تنزل الروح فيها. يا إلهي! أعد إلينا أنفاسنا، وإلا سوف نهلك.

مالطا، ٢٨، ٢٩ و٣٠ تموز ١٨٣٢

إقامة جبرية في «مالطا» بسبب مرض «جوليا». لقد تحسنت صحتها الآن؛ فقررنا الذهاب إلى «أزمير» (Smyrne) مروراً بالقرب من «أثينا» (Athènes). هنا سأترك زوجتي وطفلتي وأذهب وحيداً عبر آسيا الصغرى لزيارة أجزاء أخرى من الشرق. رفعنا المرساة؛ سوف نترك المرفأ؛ ثم جاء شراع من جهة الأرخبيل معلناً أن القراصنة

اليونان قد استولوا على عدة سفن وقتلوا طاقمها. فنصحنا قنصل فرنسا السيد «مييج» بالانتظار عدة أيام؛ وعرض علينا القبطان «ليونز»، قائد الفرقاطة الإنكليزية المسماة «مدغشقر» (Madagascar)، عرض علينا مواكبة سفينتنا حتى نصل إلى «نوبلي» (Nauplie) في «موريه» (Morée)، لا بل عرض أن يقطرنا إذا كان مسار سفينتنا أبطأ من سرعة الفرقاطة؛ وأضاف إلى عرضه هذا كل أساليب اللطف والتكرم التي رفعت أيضاً من قيمته: فقبلنا العرض؛ وانطلقنا يوم الأربعاء في ٤ آب، في الساعة الثامنة صباحاً. وما إنْ وصلنا البحر، حتى عمد القبطان الذي كان مركبه يطير ويسبقنا إلى طيّ أشرعته والبدء بانتظارنا. ثم ألقى لنا في البحر برميلاً وقد علق فيه حبلاً؛ فالتقطنا البرميل والسلك، وبتنا كحصان سباق قد شُدّ رسنه، نتبع الكتلة العائمة التي تشق الموج دون أن تحفل بوزننا.

لم أكن أعرف القبطان «ليونز»، الذي عُيّن قائداً منذ ست سنوات على إحدى المحطات الإنكليزية في المشرق؛ ولم يكن يعرف حتى اسمي؛ ولم ألتق به في بيت أي شخص في «مالطا» لأنه كان في الحجر الصحي: ورغم ذلك ها هو ضابط من أمة أخرى، أمة منافسة ومعادية في أغلب الأحيان، ورضي بمجرد إشارة منا، أن يُبطئ سيره يومين أو ثلاثة، وأن يُخضع مركبه وطاقمه إلى عملية خطيرة في أغلب الأحيان (القَطْر)، وأن يسمع ربما بعض بحارته يتهامسون حول هذا التنازل الذي قدّمه لفرنسي مجهول، كل ذلك بسبب عاطفة روح نبيلة، وبسبب التعاطف مع قلق امرأة، والخوف على صحة طفلة تتألم. إنه الضابط الإنكليزي بكل كرمه الشخصي؛ والرجل بكل كرامة طبعه ووقار مهمته. لن أنسى ما حييت هذه الشيم ولا هذا الرجل. إنه الرجل الذي كان يأتي في بعض الأحيان إلى سطح سفينتنا ليطمئن على أوضاعنا، ويؤكد لنا السعادة التي يشعر بها لأنه يحمينا، بدا لي من أكثر الرجال الذين عرفتهم إخلاصاً وانفتاحاً. لا شيء فيه يؤكد هذه الخشونة المزعومة التي تُنسبُ للبحارة؛ لكن صلابة الرجل المعتاد على مجابهة أقسى عناصر الطبيعة كانت تظهر على وجهه الشاب والجميل، وتمتزج

بشكل رائع مع عذوبة روحه وسمو فكره وبهاء طبعه.

وصلنا إلى «مالطا» أشخاصاً مجهولين، ولكننا الآن لا نستطيع منع أنفسنا من النظر بأسف إلى هذه الجدران البيضاء التي تغوص بعيداً في الأمواج. هذه البيوت التي نظرنا إليها بغير اكتراث منذ أيام قليلة، تمتلك الآن شكلاً ومعنىً بالنسبة لنا. نعرف ساكنيها، والنظرات الودية التي تتابع من أعلى المصاطب أشرعة مركبينا البعيدة.

إن الإنكليز هم شعب أخلاقي وسياسي؛ ولكنهم ليسوا اجتماعيين بشكل عام. يركّزون على حميمية المنزل العائلي العذبة والمقدسة، وحين يخرجون منه، فإن ما يقودهم ليس الرغبة أو الحاجة إلى إيصال روحهم أو نشر تعاطفهم، إن ما يقودهم هو العادة والاعتزاز. والاعتزاز هو روح كل مجتمع إنكليزي؛ وهو الذي بنى هذا الشكل من المجتمع البارد، والمتصنع، والمُصنّف؛ وهو الذي خلق التصنيفات بحسب الطبقات والألقاب والاستحقاقات والغنى، هذه الأمور التي باتت علامة لتمييز الناس، وهي في الحقيقة تغض النظر تماماً عن الرجل ولا تأخذ بعين الاعتبار إلا اسمه، وثيابه ووضعه الاجتماعي. فهل يختلف الإنكليز عندما يكونون في مستعمراتهم؟ أميل إلى هذا الاعتقاد بعد الذي اختبرناه في «مالطا». فبمجرد وصولنا تلقينا من جميع أهالي هذه المستعمرة كل دلائل الاهتمام واللطف النزيهة والودّية. لم تكن إقامتنا إلا استضافة لامعة ومستمرة. إن السير «فريديريك بونسونبي» وزوجته الليدي «ايميلي بونسونبي» (Emilie Ponsonby) هما زوجان قد صُنعا ليقوما بدورهما بجدارة في كل مكان، الأول منهما، يمثل البساطة الفاضلة والنبيلة لكبار سادة الإنكليز، والثاني لتمثيل تواضع نساء الطبقة العليا في وطنهن، هذا التواضع العذب والجميل. لقد استقبلتنا عائلة السير «فريديريك هانكي» (Frédérick Hankey)، والسيد والسيدة «نوجانت» (Nugent)، والسيد «غريغ» (Greig)، والسيد «فرير» (Freyre) السفير السابق في إسبانيا، وكأننا أصدقاء لهم وليس كمسافرين. رأيناهم لمدة ثمانية أيام، وربما لن نراهم

ثانية؛ لكننا سنحمل عن لطفهم الودّي انطباعاً يذهب إلى أعماق القلب. لقد كانت «مالطا» بالنسبة لنا مستعمرة الضيافة؛ ففيها شيء من الفروسية ومن حسن الضيافة، يذكّر بمالكيها القدامى، وهو موجود الآن في هذه القصور التي تملكها الآن أمة تستحق هذا المقام الرفيع الذي تشغله الآن في سلم الحضارة. قد لا نحب الإنكليز، لكن من المستحيل ألا نحترمهم ونقدّرهم.

إن حكومة «مالطا» قاسية ومحدودة؛ ومن غير اللائق بالإنكليز الذين علموا الحرية للعالم، أن يخلقوا في إحدى ممتلكاتهم طبقتين من الناس، المواطنين والعبيد المحررين.

إن حكومة المقاطعات والبرلمانات المحلية تتشارك بسهولة في المستعمرات الإنكليزية، في التمثيل الأعلى للوطن الأم. إن بذور الحرية والوطنية التي احترموها لدى الشعوب التي استعمروها، هي بالنسبة للمستقبل بذور فضيلة وقوة وكرامة للإنسانية جمعاء. إن ظل العلم الإنكليزي يجب ألا يظلل إلا الرجال الأحرار.

١ آب ١٨٣٢، في منتصف الليل

أبحرنا هذا الصباح وسط بحر هائج، ثم فاجأنا هدوء كامل على بعد اثني عشر فرسخاً في البحر؛ وما زال هذا الهدوء مستمراً. لا توجد أية ريح في السماء، باستثناء بعض النسمات التي تأتي بين حين وآخر لتجعّد أشرعة المركبين؛ وتجعلها تخفق بصوت مسموع، خفقات غير منظمة، تشبه الخفقات المتشنجة لأجنحة طير يوشك أن يموت؛ البحر مسطح ومصقول مثل نصل السيف؛ لا أثر فيه لأية تجعيدة، وكلما نظرنا إلى البعيد رأينا تموجات واسعة ودائرية تنزلق تحت السفينة فتهزها كما تفعل هزة في باطن الأرض. فتطقطق عندها وترتجف كل كتلة السواري وعارضاتها وحبالها والأشرعة، كما لو أنها تحت تأثير ريح ثقيلة جداً. لم نقطع خطاً واحداً في ساعة من الزمن؛ ولا تزال قشور البرتقال التي رمتها «جوليا» في البحر تطفو حول السفينة دون

أن تنحرف عنها، ونوتي الإشارة ينظر بتكاسل إلى النجوم، دون أن تحرف الدفة يده الغافلة. أرخينا حبل القطر الذي يربطنا بالفرقاطة الإنكليزية، لأن السفينتين اللتين أصبحتا من غير قيادة، قد تتعرضان لخطر الاصطدام ببعضهما في الظلمة.

إننا نبعد الآن مسافة خمس مئة قدم عن الفرقاطة تقريباً. المصابيح المشتعلة تلمع في كوات السفينة، وسط غرف الضباط الواسعة والجميلة، والتي تزيّن مؤخرة السفينة. فانوس، يمكن للعين أن تحسبه أحد أنوار السماء، يعلو ويرتفع فوق رأس الدَوْقَل (السارية الكبيرة الموجودة في مؤخرة السفينة)، لكي يحافظ على اتصالنا أثناء الليل. وبينما كانت أنظارنا متجهة نحو تلك المنارة التي عليها أن تقودنا، خرجت فجأة من جوانب الفرقاطة المزينة، موسيقى عذبة وترددت تحت غيم الأشرعة كما لو أنها تحت القباب الكنائسية الرنانة.

وتنوعت الأنغام وتتابعت لمدة ساعات، ونشرتْ إلى البعيد فوق هذا البحر المسحور النائم، كل الألحان التي سمعناها في أجمل ساعات حياتنا. كل ذكريات مدننا ومسارحنا الشجية، كل ألحاننا الريفية عادت لتحمل أفكارنا إلى أزمنة لم تعد موجودة، نحو أشخاص افترقنا الآن عنهم بسبب الموت أو بسبب الزمن!

غداً، ربما بعد ساعات فقط، سوف تحلّ أصوات العاصفة الرهيبة التي تجعل السواري تصرخ، وصوت ضربات الموج المتزايدة على جانبي السفينة، ومدفع الاستغاثة، وصوت الرعد، والأصوات المتشجنة لعنصري الطبيعة المتحاربين، وصوت الإنسان الذي يقاوم جنونها مجتمعة، ربما قدْ تحلّ غداً محلّ هذه الموسيقى الهادئة والجليلة!

لقد صعدت هذه الأفكار إلى جميع القلوب، وساد صمت كامل فوق الجسرين. كل واحد يتذكر بعض الألحان التي تعني له أشياء والتي بقيت محفورة في الذاكرة نتيجة انطباع قوي، سواء سمعها فيما مضى في ظروف سعيدة أو قاتمة في حياة قلبه؛ كل واحد منّا كان يفكر بحنان أكبر بكل ما ترك وراءه. قلقنا من هذا التحدي الذي يبدو

وكأن الإنسان قد ألقاه في وجه العواصف. إنها بعض تلك اللحظات التي يجب على الإنسان كتابتها في فكره إلى الأبد؛ إنها تضم في عدّة دقائق فقط، انطباعات أكثر، وألواناً أكثر، وحياة أكثر مما ضمّته السنين الكاملة التي مضت في صروف الحياة العامة المملة. القلب ملآن ويتمنى أن يفيض. وهكذا يحسّ أكثر الناس سوقية بأنه شاعر بكل أعصابه؛ وهكذا يدخل النهائي واللانهائي في جميع المسام؛ وبهذه الصورة يرغب الإنسان في الانفجار أمام الله، أو بالإقرار أمام قلب طيّب، أو أمام كل الناس بلغة الأفكار، ما يجول في فكرنا؛ وهكذا نرتجل الأناشيد التي تليق بالأرض وبالسماء؛ آه، لو أننا نملك لغة! ولكن لا توجد لغة، وبالأخص بالنسبة لنا نحن الفرنسيين؛ لا، لا توجد لغة للفلسفة والحب والدين والشعر؛ إن الرياضيات هي لغة هذا الشعب؛ كلماتها جافة، محدّدة، لا لون لها كالأرقام. لنذهب للنوم.

التاريخ نفسه، الساعة الثانية صباحاً

لم أتمكن من النوم؛ فقد حركتني مشاعر عديدة؛ صعدت إلى السطح: لنرسم. لقد اختفى القمر تحت الضباب البرتقالي الذي يغطي الأفق بدون أية حدود أخرى. إنه الليل، لكنها ليلة في البحر، أي فوق عنصر شفاف يعكس أصغر نور في السماء، ويبدو أنه يحتفظ بانطباع مضيء عن النهار. هذا الليل ليس أسودَ، وإنما شاحب ومتلألئ مثل لون مرآة إذا سحبنا مشعلاً إلى جانبها أو وضعناه خلفها. حتى الهواء بدا وكأنه قد مات ونام فوق هده الطبقة الناعمة من الأمواج. لا ضجة، ولا تنفّس، ولا حتى شراع يخفق مقابل عارضة الساري، ولا زبد يخشخش ويرسم أثر السفينة على جانبيها اللذين يبدوان نائمين أيضاً.

كنت أنظر إلى مشهد الراحة الأبكم، مشهد الفراغ، والصمت والسكينة: وأتنفس هذا الهواء الدافئ والخفيف الذي لا يشعر الصدر بحرارته أو ببرودته أو بثقله، وكنت أقول في نفسي: لا بد أنه الهواء الذي نتنفسه في موطن الأرواح، في بلاد الخلود، في هذا المناخ الإلهي حيث كل شيء ثابت، ومغرٍ وكامل.

وجه آخر للسماء. لقد نسيت الفرقاطة الإنكليزية؛ نظرت إلى الجهة المقابلة: كانت هناك، في البحر، على بعد عدّة أطوال حبلية منّا. التفت صدفة؛ فوقعت عيناي على هذا العملاق المهيب والضخم الذي يرتاح بلا حراك، ليس هناك أي اهتزاز في صالب قاعدته، كما لو أنه يرتكز على منصّة من الرخام المصقول.

إن كتلة جسم السفينة الضخمة والسوداء، تتمايز بسبب لونها الغامق عن قاعدتها الفضّية، وترتسم في عمق السماء الزرقاء، وفي عمق الهواء، وعمق البحر؛ لا تصدر عن هذا المبنى المهيب أية تنهيدة تدل على الحياة؛ لا يمكن للعين أو للأذن أو لأية حاسة أخرى أن تدرك أنه ينبض بالذكاء والحياة، وأنه مأهول بأشخاص عاقلين وفاعلين. يمكن أن يحسبه المرء إحدى قطع الحطام الضخمة التي خلفتها العاصفة وهي تطفو دون قيادة، والتي يصادفها الملاح برعب في وحدة بحار الجنوب، حيث لم يبق أي صوت ليخبر كيف غرقت السفينة؛ إنها سجل وفيات بلا أسماء ولا تواريخ تركه البحر يطفو لعدة أيام قبل أن يعود ويبتلعه بالكامل.

وفوق جسد السفينة القاتم، تجمعت بجمال كل غيوم أشرعته وشكلت هرماً حول سواريه. وارتفعت الأشرعة من طابق إلى طابق، ومن عارضة إلى عارضة، وهي تتوزع إلى ألف شكل غريب، وتلتف بثنيات عريضة وعميقة، تشبه الأبراج الكثيرة والعالية في قصر غوطي وقد تجمعت كلها حول البرج الرئيسي؛ لم تكن تمتلك لا حركة ولا لون الأشرعة الذهبية الساطعة التي نراها في البعيد فوق الأمواج خلال النهار؛ كانت ثابتة، قاتمة وقد أعطاها الليل لوناً رمادياً داكناً، فبدت كأنها سرب من الخفافيش العملاقة، أو الطيور البحرية غير المعروفة، والمنهكة والمضغوطة والملتصقة ببعضها فوق شجرة عملاقة، والمعلقة على جذع هذه الشجرة العاري تحت ضوء القمر في ليلة شتائية. وكان ظل غيمة الأشرعة هذه يسقط من الأعلى فوقنا ويحجب عنا نصف الأفق. لم يرد على بال «أوسيان» (Ossian) في الحلم، مشهدٌ للبحر أكبر أو أغرب من هذا المشهد: كل شعر الأمواج كان موجوداً هنا. كان خط الأفق الأزرق يمتزج مع خط السماء؛ كل ما

كان يرتاح في الأعلى أو في الأسفل اتخذ مظهراً سائلاً وأثيرياً واحداً، فتسبحنا في داخله. كل هذا الغموض الذي لم يكن له جسد ولا حدود، كان يزيد من تأثير منظر الفرقاطة الهائلة فوق العباب، ويلقي العين والروح في الوهم ذاته. بدا لي أن الفرقاطة، وهرم أشرعتها الهوائية، ونحن أيضاً، قد ارتفعنا جميعاً، وحُملنا مثل الأجسام السماوية، في الهوّة السائلة للأثير، دون أن نرتكز على أي شيء، بل كنّا نطفو بدفع قوة داخلية في الفراغ الأزرق السماوي الشامل.

ومرت عدّة نهارات وعدّة ليال مشابهة قضيناها في عرض بحر هادئ ومسطّح، وسماء من نار؛ كانت الأمواج تتدحرج هائلة من الخليج الأدرياتيكي صوب بحر إفريقيا: إنها اسطوانات واسعة، مضلعة قليلاً وذهبية في النهار، أما في الليل فهي أعمدة معبد «روما» أو «باستوم» (Paestum).

كنت أقضي أياماً كاملة على سطح السفينة؛ وكتبت بعض الأبيات للسيد «مونتيرو» (Montherot) ابن حميّي:

أفكار في السفر

صديقي، يا أكثر من صديقي، يا أخي بالدم والروح،
الذي تبعتني نظرته الرطبة فوق الموج،
من خلال الأمواج الكثيرة التي رميتها خلفي،
وعبر سموات ورياح كثيرة، أفكر فيك؛
أفكر في أوقات الفراغ التي قضيناها معًا،
على ضفاف سواقينا، تحت الصفصاف أو الحور الرجراج:
أفكرّ في خطواتنا المعلّقة، وفي أحاديثنا الهادئة،
التي غالباً ما كانت تمتزج بأشعارك أو بأشعاري؛
أبياتك، أبناء البرق، أبياتك المولودة من ابتسامة،
أنت لا تنتزعها خافقة من قيثارتك،
وإنما يوماً بعد يوم، يدك المهملة

تترك لكل ريح فكرًا تمرُّ بك في الطريق،
مثل لآلئ الماء التي تبكي عند كل فجر،
فَيُلوِّن بها الصباح الريف بأكمله،
وتشكل نهراً حين تجتمع،
ولكنها ترتمي بلا صوت تحت قدميْ العابِر،
لكن شمس النهار تستقي منها المطر المتواضع،
فتحوّلها الريح التي تجففها إلى عطور!
أزمنة أخرى، واهتمامات أخرى؛ لكل ثمرة فصلها.
قبل أن يبلغ فكري سنّ الرشد،
حين كنت الطفل المتواضع الذي يلعب مع أمه،
والذي كان يخاف أو يَسحره شبح وهمي،
كنت أقلد الأطفال، أترابي، في ألعابهم؛
كنت أحكي لغتهم وأفعل مثلهم!
كنت أمضي، في الأشهر الأولى التي ترتفع البراعم فيها،
حين يبدو لحاء الشجر وكأنه يتعرّق نسغًا،
نحو السيل الذي يجري أمام دسكرتي الصغيرة،
ومن الصفصاف المنحني أقطع الغصن النديّ؛
وأدفئ بأنفاسي النسغ الطري،
وأسحب الخشب من اللحاء دون أن أشقه،
وأحييه بنفحةٍ واحدة، فيخرج من تحت أصابعي
صوتاً متأوهاً وعذباً وينتشر في الغابة.
صوت لم يضبط إيقاعه أي فنٍ،
ولم يكن إلا ضجة فارغة، همهمة مبهمة وناعمة.
تشبه صوت الموج والرياح المرتعشة
التي نحب صوتها دون أن نبحث عن معناها؛

مطلع لفكر استيقظ مبكرًا،
فغنى قبل أن يغني وبكى قبل أن يبكي!

ولكن فات الوقت لذلك، لقد قاربتْ ساعة ظُهري!
تألمتُ، وفي داخلي كَبُر فكري!
وهذا القصب الهش، لعبة طفولتي،
لم يعد بإمكانه أن يحتوي النفَس الذي يعصر صدري:
لم تعد هناك لغة أو إيقاع قاتل،
أو بوق حرب، أو قيثارة في مذبح،
لم تسحق ألف مرّة نَفَسَ روحي؛
إنه يُضعِفُ كل ما يصطدم به، ويصهر في شعلته كل شيء!
لقد امتنع عن نشر إيقاعاته الساطعة
في كلمات الأرض الفانية منذ مدة طويلة؛
إنه يفجّر الرموز الهشة،
ويصادم صواعق الكلمات،
وقد يقول الأطفال وهم يهزون جباههم:
«يا إلهي! ليتكلمْ بصوتٍ أخفض وإلا سنموت».

لم يعد يتحدث إليهم؛ بل يحدث نفسه
بلغة من غير كلمات، بالكلمة الأسمى
التي لم تكتبها يد بشرية يوماً،
والتي تقولها الروح للروح، ويقولها الفكر للفكر!
لقد فقدت عادةَ استخدام اللغات الإنسانية،
وحدها تواسي هكذا وحدتها الحزينة!
وتهدر في داخلي بلا توقف،

كبحر من الضجة دائم الحركة؛
وتجعل صدغيّ ينبضان بقوة في رأسي
مع صوت اندياح العاصفة الزعزع؛
ويهدر في داخلي مثل إعصار ليلي،
كل موجة فيه تحمل الجلبة وتعيدها،
مثل ارتداد الصواعق في الجبال،
الذي يردده ألف صدى هادر في الأرياف؛
مثل صوت النحاس الذي تبعثه رياح الشتاء الثقيلة،
التي تسقط من علياء جبل «لبنان» إلى البحر،
أو مثل هذه الضربات الكبيرة، التي في خليج ضبابي
ترتفع مثل هضبة وتسقط مثل الزبد:
إنها الأصوات الوحيدة، والنبرات الوحيدة
التي تستطيع اليوم أن تغني ما أحسّ به!

لا تنتظرْ مني إذن هذه الأبيات التي يكون فيها الفكر
مثل سهم رنان رُميَ بأناقة،
ومثل كلمتين متشابهتين ترتجفان باتّساق،
يرقص السهم مجاملاً نزوات الصوت!
تستهجن أذني صدى هذه الأشعار البارد؛
وإذا أيقظتني ذكرى الأيام الخوالي،
وإذا من قلب صحراء الشرق الصامتة والمضيئة
التفتَ وجهي نحوك مبتسمًا؛
وإذا فكرّت روحي في الرفاق الذين سوف يرون هذا الشفق،
وأرادت أن تمتزج أيضًا بروحهم مع هذا الضياء؛
قلبي الحنون يصيح بهم بصوت آخر

ويطلب منهم تذكارًا غاليًا.
الصلاة، نبرة قوية، لغة مجنّحة رفيعة،
فهي بتنهيدة واحدة تجمع كل المُحبّين،
وتظهر للقلب، وتستحضر أمام الله
آلاف الأشخاص الذين نحبهم والذين تفرقوا في كل مكان،
وتخلق بينهم، بواسطة النِّعَم التي تسبغها الفضيلة علينا،
أثمن أعاطي السماء، التجارة التي لا تُرى،
لغة عالمية تنتشر لتصل السماء،
وترتفع أعلى فأعلى لكي تُسمَع جيدًا،
بخور لا يُطفأ فيحترق ويُعطّر
من يتلقاه ومن يُشعله!

هكذا يتخاطب قلبي معك:
كل كلمات الأرض هي لا شيء أمامي.
وإذا أردت أن تعرف لماذا أحتقرها،
اتبعْ شراعي الذي ينتفخ ويهرب تحت الريح،
وتعال إلى المسرح الذي مرّ العالم فيه،
حيث تزهر الصحراء فوق الإمبراطورية المندثرة،
على أضرحة الآلهة، والأبطال والحكماء،
تعال وشاهد ثلاث ليال وانظر ثلاثة مشاهد!

لقد تركت لتوي الأرض وضجيجها
الذي يلاحقك إلى البعيد، فوق الأمواج، ويعذبك؛
تركتُ أوروبا التي ينهار كل شيء فيها، ويتكسّر، ويتصارع فيها كل شيء،
وتنتظر كل ساعة من الزمن سقوطَ بعض الأنقاض،

ويتقاذف فكران مختلفان، في معاركهما الأزلية،
يتقاذفان المعبد والقوانين والعرش والأخلاق التي تشظت،
فيسويان الأرضَ التي تلتهمها، ويجعلان منها
مكانًا لفكر الله الذي لم يروه بعد!

كانت سفينتي التي تدفعها اليد الخفية،
تنزلق رافعة زَبَد الطريق؛
اثنتا عشرة مرة أرخت الشمس، مثل إله ينام،
أرخت فوقها أفق غروبها،
ثم ارتفعت ووثبت في الهواء،
مثل نسر ناري، هبّ من قمم البحار:
تنام سواريّ، وتطوي أجنحتها تحت فروعها؛
فتعض مرساتي الرمل، وأجد نفسي في أثينا!

إنها الساعة الصامتة، في هذه المدينة التي كانت تصخب منذ قليل،
الساعة التي قضت فيها بعض الوقت تحت إصبع الليل،
واستيقظت تارة وهي تشعر بالفخر، وبالخجل تارة أخرى،
ودحرجت أمواجَها الحيّة مثل بحر يرتفع؛
كل ريح تدفع بالناس نحو أهدافهم،
بعضهم باتجاه الفضيلة، والآخرين نحو التحزّب،
تدفع «بيريكليس» (Périclès) إلى الميدان، و«ثيميستوكل»
(Thémistocle) إلى السواحل،
تدفع الأبطال لحمل السلاح، والحكماء إلى الرواق،
تدفع «اريستيد» (Aristide) إلى المنفى، و«سقراط» إلى الموت،
والشعب إلى الصدْفة، والجريمة إلى الندم!

وأمام الـ «بارثينون» (Parthénon) الذي يحرسه رجل ذو عمامة،
أنتظر مجيء النهار، وأمشي، وأراقب.

ويختفي الشعاع من قمة الـ «سيثيرون» (Cythéron) : ضوء النهار
سيضرب حواف مئات القمم العارية،
من رؤوسها إلى أقدامها، من الحقول إلى بحار «أوليس» (Ulysse)،
دون أن يلونه أو يعكسه شيء،
لا مدن تلتمع ناراً في البعيد،
ولا دخان يموج مع أنفاس الصباح،
ولا قرى صغيرة على منحدرات الجبال، تعلّق
ولا أشرعة فوق المياه، ولا أبراج في الأرياف،
ويمر النور على أرض الموت هذه،
فيسقط صريعًا على الأرض ولا ينبعث منها من جديد:
وحده فقط، أعلى شعاع في الشفق،
يلامس فوق جبيني الـ «بارثينون» الذي يذهّبه،
ثم ينزل متأسفًا فوق الشرفات المسودّة
حيث ينام الإنكشاري الجالس وغليونه في يده،
اذهبْ كأنك تبكي الإفريز المكسور،
أذهب للموت فوق واجهة معبد «تيزيه» (Thésée) المزخرفة!
يتراقص شعاعان فوق حُطامين، ها هو
كل ما زال يلمع، يقول: «أثينا» موجودة هنا!

٦ آب ١٨٣٢، في عرض البحر

في السادس من آب ظهراً بدأنا نرى تحت الغيوم البيضاء في الأفق، قمم جبال

«اليونان» المتفاوتة الارتفاع: كانت السماء شاحبة ورمادية مثل السماء فوق نهر «التايمز» أو نهر «السين» في شهر تشرين الأول؛ ومزقت عاصفة في المغيب سترة الضباب السوداء التي تنسحب فوق البحر؛ ودوى الرعد، وهزم البرق، وحملت إلينا ريح قوية جنوبية شرقية، برودةَ ورطوبة رياحنا الخريفية الماطرة.

ورمانا الإعصار بعيداً عن مسارنا، ووجدنا أنفسنا بالقرب من ساحل «نافاران» (Navarin)؛ ميزنا الجزيرتين اللتين تشكلان مدخل المرفأ، والجبل الجميل الذي يكلل «نافاران» ومرتفعيه. هنا صاح مدفع أوروبا فيما مضى منادياً «اليونان» التي بُعِثت من جديد: ولم تحسن «اليونان» الإجابة؛ بعد أن تحررت من الأتراك ببطولة أبنائها ومساعدة أوروبا، ها هي الآن تقع فريسة خرابها الداخلي؛ لقد سكَبَت دم «كابو دي استريا» (Capo dIstria) الذي وهب حياته لقضيتها. إن قتل أحد مواطنيها الأوائل يفتتح بشكل سيئ عصر الانبعاث والفضيلة. من المؤلم أن تكون فكرة جريمة كبيرة، من أول الأفكار التي ترتفع فوق صورة هذه الأرض، التي نقصدها بحثاً عن صور الوطنية والمجد.

وكلما اقترب المركب من خليج «مودون» (Modon)، كلّما كانت سواحل بيلوبونيز (Péloponèse) تنفصل وتتوضح؛ وتخرج من ضباب البحر الذي يغطيها. إن هذه السواحل التي يتحدث عنها المسافرون باحتقار، بدت لي، على العكس، وكأن الطبيعة قد رسمتها بشكل جيد: مقاطع كبيرة من الجبال وتموّج جميل للخيوط. كان من الصعب أن أشيح بنظري عنها. المشهد فارغ، لكنه مليء بالماضي: تملأ الذاكرة كل شيء! إن هذه المجموعة السوداء من التلال، والرؤوس، والأودية التي تراها العين بأكملها من هنا، مثل جزيرة صغيرة فوق المحيط؛ وما هي إلا نقطة على الخارطة، قد تسببت وحدها بضجة أكبر وبمجد تالد وبهاء ساطع وفضائل وجرائم أكبر، مما فعلته قارات بأكملها. إن كومة الجزر والجبال هذه، التي خرج منها دفعة واحدة ميلتياد (Miltiade)، وذيموستين (Démosthène)، وألسيبياد (Alcibiade)، وبيريكليس

(Périclès)، وأفلاطون (Platon)، وأرسطو (Aristote)، وسقراط (Socrate)، وفيدياس (Phidias)؛ هذه الأرض التي التهمت جيش كسرى (Xerxès) المؤلف من مليوني رجل، وأرست مستعمراتها في بيزنطة (Bysance) و في آسيا، وإفريقية، والتي خلقت أو جددت الفنون والأفكار والحرف اليدوية، ودفعت بها قرناً ونصف إلى الأمام، حتى بلغت هذه النقطة من الكمال وغدت أنماطاً لم يعد من الممكن تجاوزها؛ هذه الأرض التي تاريخها هو تاريخنا، والتي سماء الأولب (Olympe) فيها هي سماء خيالنا؛ هذه الأرض التي انطلقت الفلسفة والشعر منها إلى باقي أرجاء المعمورة، والتي تعود إليها دائماً مثلما يعود الأطفال إلى مهادهم: ها هي! كل موجة تحملني باتجاهها؛ إنني ألامسها. لقد تأثرت كثيراً حينما ظهرت لي، ولكن بصورة أقل مما لو أن ذكرياتي كلها لم تكن ذابلة في فكري، لكثرة ما استعدتها في ذاكرتي قبل أن يفهمها عقلي. إن اليونان بالنسبة إليّ مثل كتاب بهتت روائعه، لأنهم جعلونا نقرأه قبل أن تكون لدينا القدرة على استيعابه.

ومع ذلك لم يفقد كل شيء سحره. لقد بقي لكل تلك الأسماء العظيمة صدىً في قلبي؛ هناك شيء ما مقدّس؛ وناعم، وعَطِر، يصعد في روحي مع كل تلك الآفاق. إني أشكر الله لأنني رأيت، عندما مررت في هذه الأرض، بلد صانعي الأشياء العظيمة، كما كان يدعو «إيبامينونداس» (Epaminondas) وطنَه.

خلال فترة شبابي كلها، كنت أحلم أن أفعل ما أفعله الآن، وأن أرى ما أراه الآن. إن تحقيق الرغبة في النهاية هو سعادة. إني أشعر، إذ أرى كل تلك الآفاق التي طالما حلمت بها، بما كنت أشعر به طوال حياتي حين كنت أنال ما تمنيته بشدّة: أشعر بمتعة هادئة ومتأملة تنكفئ على نفسها، وراحة الفكر والروح اللذين يتوقفان برهة ويقولان: لنتوقف برهة هنا ونستمتع! ولكن في الواقع إن أفراح العقل والخيال هذه، باردة جداً. إنها ليست سعادة الروح؛ لأن هذه السعادة توجد فقط في الحب الإنساني أو الإلهي، ولكنها في الحب دائماً.

مساء اليوم نفسه

كنا نبحر بلذة في ريح ملائمة كانت تدفعنا بين رأس «ماتابان» (Matapan) وجزيرة «سيريغو» (Cérigo).

اقترب منّا قرصان يوناني عندما كانت الفرقاطة على بعد أميال في البحر تلاحق سفينة مشبوهة. كان المركب اليوناني يبعد عنّا طولاً كبلياً واحداً. صعدنا جميعاً إلى السطح: وتهيأنا للقتال، مدافعنا معبأة بالذخيرة؛ والجسر مملوء بالبنادق والمسدسات. وأمر قبطاننا قائد المركب بالانسحاب. وحين رأى هذا الأخير على الجسر خمساً وعشرين رجلاً مسلحين بشكل كامل، قرّر إلا يغامر بالهجوم. ابتعد، ثم عاد مرّة أخرى، بحيث كاد يلامس سفينتنا. أوشكنا على إطلاق النار. فانسحب واعتذر أيضاً، وبقي لمدة ربع ساعة على مرمى مسدساتنا. ادعى أن سفينته كسفينتنا، سفينة تجارية تدخل مياه الأرخبيل. راقبت طاقمه. لم أر في حياتي وجوها قد كُتبت فوقها الجريمة والقتل والسلب بأحرف أكثر قبحاً. رأينا خمسة عشر أو عشرين قاطع طريق، بعضهم يرتدي الزي الألباني، والآخرون يرتدون مزقاً من ملابس أوروبية، وهم جالسون أو نائمون أو يعملون على سطح السفينة. كلهم يحملون مسدسات وخناجر تلتمع مقابضها بزخارف ونقوش من الفضة. وكانت هناك نار على السطح، وامرأتان مسنتان تطبخان السمك. وبين حين وآخر كنّا نلمح بين هؤلاء الأشرار، فتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر: وجه سماوي، وظهور ملائكي بين هذه الوجوه الجهنمية. دفعتها إحدى العجوزتين عدّة مرات إلى ما بين الجسرين؛ فنزلت وهي تبكي. ونشب على ما يبدو شجار بين بعض رجال الطاقم بهذا الخصوص: فاستل لصان خنجريهما ولوّحا بهما. أما القبطان الذي كان يدخّن غليونه بكسل، وهو يستند على الدفة، فقد ألقى بنفسه بينهما، وألقى أحدهما على الجسر؛ فهدأ كل شيء؛ وصعدت الشابة اليونانية وهي تمسح دموعها بجديلتيها الطويلتين؛ وجلست تحت الساري الكبير.

وكانت إحدى العجوزين راكعة خلفها وهي تسرّح شعر الصبية الطويل. بدأ الهواء يبرد. فاتجه القبطان اليوناني نحو جزيرة «سيريغو»، وغطى مركبه بالأشرعة بلمحة عين، وبعد لحظات سوف يصبح مجرّد نقطة بيضاء في الأفق.

أوقفنا مركبنا بانتظار الفرقاطة، التي أطلقت مدفعاً لإخطارنا. ثم انضمت إلينا بعد ساعات قليلة. لقد هرب القرصان اليوناني الذي كانت تلاحقه، إذ دخل إلى أحد الخلجان التي لا يمكن الوصول إليها من الساحل، والتي اعتاد اللجوء إليها في الظروف المماثلة.

في اليوم ذاته، الساعة الحادية عشرة

في كل مرّة يهزّ نفسي انطباع قوي، أشعر بالحاجة إلى القول، والكتابة إلى أحدهم لأخبره بما يعتلج في صدري، ولأجد في مكان ما فرحاً يتماشى مع فرحي، وصدى للحدث الذي أثّر فيّ. إن الإحساس المنفرد لا يكتمل: لقد خُلق الإنسان مزدوجاً.

للأسف! عندما أنظر الآن حولي، أرى فراغاً كبيراً، «جوليا» و«ماريان» يملآنه بمفردهما؛ لكن «جوليا» ما زالت صغيرة، فلا أخبرها إلا بما يتناسب مع سنّها وإدراكها. ها هو المستقبل بأكمله؛ وسيصبح قريباً كل الحاضر بالنسبة إلينا؛ لكن أين أصبح الماضي؟

إن الإنسانة التي كانت ستفرح أكثر من الجميع لفرحي، هي أمي. يتجه تفكيري بشكل لا إرادي نحوها عندما يلمّ بي فرح أو حزن. يخيل لي أني أراها، وأسمعها، وأتحدث إليها وأكتب لها. إن الإنسان الذي نتذكره إلى هذا الحد، ليس غائباً؛ والذي يعيش بشكل كامل وقوي في داخلنا، لم يمت أبداً بالنسبة لنا. إني أخصّها دائماً، كما كنت أفعل في حياتها، أخصّها بكل انطباعاتي التي تغدو بسرعة وبشكل كامل

انطباعاتها هي؛ فتزداد جمالاً، وتتلون، وتنتعش في خيالها الساطع، خيالها الذي ما زال دائماً في العام السادس عشر! إني أبحث عنها بالفكر في وحدة «ميلي» (Milly) المتواضعة والتقية، حيث ربتنا، وحيث كانت تفكر فينا حين فصلت صروف الدهر بيننا. أراها وهي تنتظر رسائلي، وتستقبلها، وتقرأها، وتُعلّق عليها. حلم كاذب! إنها لم تعد موجودة، إنها تسكن عالم الحقائق؛ وأحلامنا الهاربة لا تعني لها شيئاً: لكن روحها معنا، تزورنا وتتبعنا، وتحمينا؛ إن حوارنا معها يتمّ في الأقاليم الأبدية.

وهكذا فقدت قبل أن أبلغ سن الرشد القسم الأكبر من الأشخاص الذين أحببتهم أكثر من الجميع، والذين أحبوني أكثر من أي شيء على هذه الأرض الفانية. فتركّزت حياتي على الحبّ، ولم يعد لقلبي إلا بضعة قلوب لكي يلتجئ إليها: ولم تعد لذكرياتي إلا بعض القبور لكي تحطّ على الأرض؛ إني أعيش مع الموتى أكثر مما أعيش مع الأحياء. لو أن الإله يضرب أيضاً ضربتين أو ثلاثاً من هذه الضربات حولي، لشعرت بأنني سوف أنفصل بشكل كامل عن ذاتي؛ لأنني عندها لن أتمكن من الشعور بالاكتفاء، ولن أقوى على حبّ نفسي في الآخرين؛ إذ هنا فقط أستطيع أن أحب ذاتي.

في صغري كنت أحبُ ذاتي في ذاتي: فالطفولة أنانية. وكان هذا جيداً في سن السادسة أو الثامنة عشرة، إذ لم أكن أعرفُ نفسي بعد، وكنت أعرف الحياة بشكل أقل؛ لكنّي الآن قد عشتُ طويلاً، وتعلمت كثيراً لكي أتمسّك بهذا الشكل من الوجود الذي ندعوه الأنا الإنساني. ما هو الإنسان يا إلهي! وما أتفه أن تُعطى أية أهمية لما أحسُ به، ولما أفكّرُ فيه، ولما أكتبُهُ! وما هو المكان الذي أشغلهُ بين الأشياء؟ وأي فراغ سوف أتركهُ في هذا العالم؟ فراغ يدوم عدة أيام في قلب أو قلبين؛ مكان تحت الشمس؛ كلبي الذي سوف يبحث عني؛ الأشجار التي أحببتها، والتي سوف تُفاجأ لأنني لم أعد آتي للجلوس تحت ظلالها: هذا هو كل شيء. لا نبدأ بالشعور بخواء الوجود إلا عندما نصبح عديمي الفائدة بالنسبة إلى الآخرين، في الوقت الذي نصبح فيه غير محبوبين. إن الحقيقة الوحيدة، التي شعرت فيها دائماً في هذه الحياة، هي الحب، الحب بجميع أشكاله.

٧ آب، السادسة مساءً

ها هي سواحل «لاكونيا» (Laconie) العالية على بعد مرمى مدفع عن أنظارنا. لقد حاذيناها والهواء جميل؛ إنها تنزلق بعظمة أمامنا. كنت أستند بمرفقيّ إلى حاجز المركب، وعيناي تلتقطان هذه الأشكال الكلاسيكية لجبال اليونان، محاولة أن تتذكرها؛ كانت هذه الأشكال تتدحرج أيضاً مثل أمواج من الحجارة والتراب: كانت ترتفع، وتنخفض، وتتجمع أمامي كما تتجمع غيوم وطن روح «اوسيان» أمام فكره. قضيت ساعة أو اثنتين وأنا أستعيد بصمت مشهد هذه التلال والأسماء الرنانة لهذه الأرض الميتة. جبال «كروميوس» (Chromius) التي ينبع منها نهر «اوروتاس» (Eurotas)، تلقي بقممها المستديرة في الهواء؛ كوكب الشمس ينزل فيها ويضربها، مثل قباب من النحاس المُذهّب؛ فيشعل طبقة الغيوم التي تحيط به: وتغدو هذه القمم شفافة مثل الهواء الذي يحيط بها، حتى أننا نتبينها بصعوبة؛ وقد نُقْسِم أننا نرى من خلال ضياء شمس أخرى غاربة، أو من خلال انعكاسات حريق بعيد.

ومن بين هذه الجبال، كان جبل يبدو لنا على شكل هلال مقلوب؛ ويبدو أنه يزداد تقعّراً لكي يفتح ثلماً هوائياً لقرص النهار الذي يتدحرج في الغبار الذهبي للبخار الذي يصعد إليه. والقمم الأكثر تقاربًا التي اجتازتها الشمس، تتلون الآن باللون البنفسجي المُحمر أو بلون الليلك الشاحب؛ وهي تسبح في جو يشبه بغناه لوحة مزج ألوان الرسّام؛ وكانت هناك تلال أكثر قرباً منّا أيضاً، بدت وكأنها مغطاة بغابات سوداء؛ وأخيراً تلك التي كانت تشكّل المستوى الأول، والتي نحاذيها الآن، والتي يغسل زبدها المنحدرات الصخرية، وقد كانت جميعها غارقة في الليل؛ ولم تكن العين تميّز إلا بعض الخلجان الصغيرة التي يلتجئ اليها العديد من قراصنة هذه السواحل، وكذلك بعض الرؤوس المتقدمة التي تحمل مثل «نابولي دي مالفواز» (Napoli de Malvoise)، مدناً أو حصوناً فوق قممها الشديدة الانحدار. إن رؤية تلك الجبال من على سطح السفينة، في هذه الساعة التي يغلفها فيه الليل بآلاف الألوان الوهمية، هي ربما أجمل الأشكال

الأرضية التي تأملتْها عيناي؛ وكان عندها المركب يطفو بهدوء، ويميل مثل شرفة متحركة فوق البحر الذي يهمهم وهو يداعب عارضة الجسر! كان الهواء دافئاً جداً وعطراً للغاية! والأشرعة تُصدر أصواتاً جميلة كلما هبّت نسمة مسائية! كل ما أحبه تقريباً موجود هنا، هادئ، وسعيد وآمن، ينظر ويستمتع معي. كانت «جوليا» ووالدتها مستندتين على طُنْب الساري بالقرب مني. وكان وجه الطفلة يتألق أمام كل تلك المشاهد، والأسماء، والحوادث التاريخية التي كانت ترويها لها أمها تباعاً؛ كانت عيناها تخفقان مع أعيننا فوق كل المشاهد التي باتت تعرف الآن المآسي الرائعة التي عرفتها. كانت هناك عبقرية في نظرتها؛ فيها التفكير العميق، الحيّ، الحارّ، السريع لروح تتفتح تحت روح أمها الملتهبة والمُحبّة؛ كانت تستمتع مثلنا، وخاصة لأنها كانت ترانا مهتمين وسعداء: لأن روح تلك الطفلة تحيا من روحنا؛ تدمع عيناها إذا رأتني حزيناً أو ساهماً؛ ملامحها هي انعكاس فوري لملامحي، وابتسامة فرحنا لا تنتظر أبداً ابتسامة مماثلة من شفتيها. ما أجملها هكذا!

لقد رأيت مطولاً جبال «روما» وجبال «سابين» (Sabine)، بكل أشكالها؛ لكن هذه الجبال تتجاوزها بتنوع مجموعاتها، وعظمة أشكالها، وروعة تدرجات ألوانها البهية؛ خطوطها لا تنتهي؛ ويلزمنا كتاب كامل لوصف ما تستطيع اللوحة أن تقوله بنظرة: ولكن لكي نراها بكل جمالها المُتَخَيّل، يجب مشاهدتها في ساعة الغروب؛ فنراها عندئذٍ وقد اكتست، كما في شبابها، بالغابات والمراعي الخضراء، والأكواخ الجميلة، والقطعان، والرعيان؛ تكسوها الظلال؛ ولا رداء لها غيرها، شأنها شأن تاريخ الرجال الذين أكسبوها شهرتها والذي يحتاج إلى غيوم الماضي وعظمة المسافة لكي يشدّ ويسحر أفكارنا. يجب ألا ننظر إلى الأشياء في وضح النهار، وعلى ضوء الحاضر؛ في هذا العالم الحزين لا يوجد جمال مطلق إلا جمال المثل الأعلى؛ إن الوهم هو عنصر الجمال في كل شيء، إلا في الفضيلة وفي الحب.

في نفس التاريخ، الساعة الثامنة مساء

لقد أصبح الهواء أكثر برودة؛ نحن نعوم فوق بحر جميل أمام فتحة خلجان مختلفة؛ لقد اقتربنا من رأس «سان انجيلو» (San Angelo)، وهو رأس «ماليا» (Malia) القديم: وسوف نلامسه عمّا قريب.

٨ آب، صباحاً

لقد افتقدنا إلى الريح؛ وقضينا الليل دون أن نتقدّم، ونحن على بعد مسافة قليلة من رأس «ماليا».

في نفس التاريخ، ظهراً

الهواء لطيف وقد قَذَفنا نحو الرأس. الفرقاطة التي تسحبنا، تحفر أمامنا طريقاً مسطحة وهامسة، نسبح فيها على إثرها بين قطع الزبد، التي تثيرها السفينة وراءها وهي تهرب. لقد أراد القبطان «ليونز»، الذي يعرف هذه الأنحاء جيداً، أن نستمتع برؤية الرأس والأراضي وهو يمر على بعد مئة مقياس طولي عن الشاطئ على أبعد تقدير.

وفي نهاية رأس «سان انجيلو» أو «ماليا»، الذي يتقدم كثيراً في البحر، يبدأ الممر الضيق الذي يتجنبه البحارة الخجولون وهم يتركون جزيرة «سيريغو» (Cérigo) على يسارهم. إن هذا الرأس هو رأس العواصف بالنسبة إلى البحارة اليونانيين. وحدهم القراصنة يجابهونه، لأنهم يدركون أن لا أحد يلحق بهم إليه. إن الهواء يسقط من هذا الرأس، بشدة وعنفوان كبيرين، في البحر، وغالباً ما يلقي بأحجار الجبال المتدحرجة حتى تبلغ جسور السفن.

وعلى الحافة الوعرة المنحدرة التي يتعذر الوصول إليها، والتي تشكل سنّ الرأس، وهي سنّ شحذتها الأعاصير وزبد الأمواج، قد علّقت الصُدْفة ثلاث صخور منفصلة عن القمة، وقد توقفت في منتصف المنحدر أثناء سقوطها. إنها هنا مثل عش طائر بحري منحن على الهوة المزبدة للبحار. بعض التراب المحمر قد توقف أيضاً بسبب تلك الصخور، وسمح لخمس أو ست أشجار من التين بالتجذر، أشجار هزيلة

تتدلى مع أغصانها المتشعبة وأوراقها الرمادية العريضة، فوق الهوة الصاخبة التي تدور تحت أقدامها. لا تستطيع العين تمييز أي درب، أو أي منحدر يمكن السير فوقه للوصول إلى هضبة النباتات هذه. غير أننا لمحنا بيتاً منخفضاً تحت أشجار التين، بيتاً رمادياً وقاتماً مثل الصخر الذي يرتكز فوقه، ويمتزج فيه للوهلة الأولى. وفوق سقف المنزل المسطّح يرتفع قوس قوطي فارغ، مثل الذي نراه فوق الأديار الإيطالية التي عُلّقت فيها أجراس؛ وعلى اليمين رأينا بقايا منزل متهدّم، مصنوع من آجر أحمر، بنيت فيه ثلاثة أقواس مفتوحة تقود إلى مصطبة صغيرة تمتد أمام المنزل. إن النسر يخشى أن يبني وكره في مكان مماثل، لأنه افتقر إلى جذع شجرة، أو إلى دغل يحتمي فيه من الريح التي تزمجر بلا توقف، من ضجيج البحر الساحق وزبده الذي يلعق باستمرار الصخر الأملس، تحت سماء مُلتهبة على الدوام. إذن! لقد صنع رجل ما لا يكاد العصفور يجد الجرأة على فعله: لقد اختار هذا الملجأ. إنه يعيش هنا، ولمحناه؛ إنه ناسك. لقد تجاوزنا الرأس من مسافة قريبة جدّاً، لدرجة أننا لمحنا لحيته الطويلة البيضاء، وعصاه، ومسبحته، وقلنسوته المصنوعة من اللباد البني، التي تشبه القلنسوة التي يضعها البحارة في الشتاء. ركع على ركبتيه أثناء مرورنا، ووجهه متجه صوب البحر، كما لو كان يتضرّع إلى السماء لتهبّ لنجدة هؤلاء الغرباء المجهولين في مرورهم المحفوف بالأخطار. إن الهواء الذي خرج بقوة من حنجرة «لاكونيا» بمجرد أن اجتزنا صخرة الرأس، بدأ يعصف في أشرعتنا، ويهزّ السفينتين ويجعلهما تدوران، وغطى البحر بالزبد على مدّ البصر. وانفتح بحر جديد أمام أعيننا. صعد الناسك على قمة إحدى الصخور الثلاث ليتمكّن من رؤيتنا إلى مسافة أبعد؛ وبقينا نراه هنا، جاثياً على ركبتيه بلا حراك، على طول المسافة التي كنا فيها نُرى من الرأس.

من هو هذا الرجل؟ يلزمه قلب صُهِر ثلاث مرات كالفولاذ لكي يختار هذا السكن

المُرعِب، وتلزمه حواس متعطشة للمشاعر القوية والأزلية لكي يعيش في عش هذا الطائر الجارح، بمفرده مع هذا الأفق غير المحدود، والعواصف وزئير البحر: مشهده الوحيد، هو مركب عابر من حين لآخر، وطقطقة السواري، وتمزق الأشرعة، ومدفع الاستغاثة، وصراخ البحارة الضائعين.

هذه التينات الثلاث، وهذا الحقل الصغير الذي لا يمكن الوصول إليه، ومشهد الصراع المتشنج لعناصر الطبيعة، وانطباعات النفس المريرة والقاسية والمُتأملة، كانت أحد أحلام طفولتي وشبابي. بسبب غريزة أكدتها بعد أن عرفت الرجال، لم أضع السعادة يوماً إلا في هذه العزلة؛ وفيها فقط وضعت مكانة للحب فقط: أما الآن فإني أضع فيها الحب والله والفكر. هذه الصحراء المعلقة بين السماء والبحر، المُهتزة تحت وطأة ضربات الرياح والأمواج التي لا تتوقف، لا تزال حتى الآن أحد الأشياء التي تسحر قلبي. إنها حالة طائر الجبال الذي لا يزال يلامس برجله قمة الصخرة الحادة، ويخفق بجناحيه استعداداً للانطلاق إلى أماكن أكثر علواً في بيادر الضياء. لا يمكن لأي رجل سليم العقل، ألا يصبح، بعد إقامة من هذا النوع، قديساً أو شاعراً كبيراً؛ أو ربما الإثنين معاً. ولكن أية هزة حياة عنيفة استلزمتني لكي أحس بأفكار ورغبات مماثلة، ولكي ترمي بهؤلاء الرجال الذين أراهم في هذا المكان؟ وحده الله يعلم ذلك. مهما يكن، لا يمكن أن يكون رجلاً عاديّاً هذا الذي أحس بمتعة وحاجة التشبث، مثل عريشة متسلقة بحواف هاوية مماثلة، وهذا الذي تأرجح طوال حياته بصخب عناصر الطبيعة، وبتناغم العواصف الرهيب، وحيداً مع فكره أمام الطبيعة وأمام الله.

في التاريخ نفسه

عاد البحر أكثر جمالاً بعد أن ابتعدنا عدّة فراسخ عن الرأس. كانت مراكب يونانية خفيفة، بلا جسر، ومكسوة بالأشرعة، تمرّ بالقرب منّا في أودية الأمواج العميقة: كانت مليئة بالنساء والأطفال الذاهبين لبيع سلال البطيخ الأصفر والعنب في

«هيدرا» (Hydra) .وكانت أقل نسمة تجعلهم يميلون فوق البحر لدرجة أن أشرعتهم كانت تبتل. ولم يكونوا يملكون للدفاع عن أنفسهم من الأمواج، إلا قطعة قماش مشدودة ترفع حافة المركب المعرضة للموج مقدار عدّة بوصات؛ غالباً ما كانت المراكب تختفي عن أنظارنا بسبب الموج والزبد؛ ثم تعود وتصعد مثل فلين عائم فوق سطح الماء. يا لها من حياة! إنها حياة كل اليونانيين تقريباً: إنهم مجبولون بالبحر؛ يلعبون فيه كما يلعب أطفال قرانا الصغيرة فوق نباتات الخلنج التي تكسو جبالنا. لقد كتبت الطبيعة قدر هذا البلد: إنه البحر.

في نفس التاريخ

ها هي قمم جزيرة «كريت» (Crète) البعيدة ترتفع عن يميننا؛ وها هي «ايدا» (Ida) مغطاة بالثلج، وهي تبدو من هنا مثل أشرعة مركب عالية فوق البحر.

دخلنا إلى خليج كبير، خليج «ارغوس» (Argos)؛ كانت الريح تدفعنا من الخلف بسرعة طيران زُمَّج الماء؛ وكانت الصخور والجبال والجزر من الجانبين، تهرب أمامنا بسرعة مثل الغيوم الداكنة. وهبط الليل، ورأينا عمق الخليج الذي يبلغ قاعه عشرة فراسخ؛ وارتسمت ثلاثة سواري سفن تابعة لقوة بحرية وهي ترسو أمام «نوبلي» (Nauplie)، مثل غابة شتائية في قلب سماء «ارغوس» وسهله. سيعمّ الظلام عمّا قريب؛ بدأت الأنوار تشتعل على منحدرات الجبال وفي الغابات، حيث يحرس الرعاة اليونانيون قطعانهم؛ وأطلقت السفن مدفع المساء. ولمحنا كوات المراكب الستين الراسية وهي تلتمع تباعاً، مثل شوارع مدينة كبيرة مضاءة بالفوانيس؛ ودخلنا وسط متاهة السفن هذه، ورسونا في قلب الليل على مقربة من حصن صغير يحمي مرسى «نوبلي» مقابل المدينة، وفي ظل قصر «بالاميد» (Palamide).

٩ آب

نهضت مع الشمس، لكي أرى أخيراً عن كثب خليج «ارغوس»، ومدينتي

«ارغوس» و«نوبلي»، العاصمة الحالية لليونان. إنها خيبة أمل كاملة: إن «نوبلي» هي مجرد قرية بائسة مبنية على ضفة خليج عميق وضيق، على هامش تراب وقع من أعالي الجبال التي تغطي الشاطئ بأكمله؛ لا تمتلك بيوتها أي طابع غريب؛ إنها مبنية على نسق أكثر البيوت تواضعاً في قرى فرنسا أو في منطقة الـ «سافوا». معظمها متهدّم، وأجزاء الجدران التي أسقطتها مدافع الحرب الأخيرة، لا تزال مكوّمة على الأرض وسط الشوارع. بيتان أو ثلاثة بيوت جديدة، مطلية بألوان صارخة، ترتفع فوق الرصيف، وبعض المقاهي ومتاجر الخشب تتقدم فوق أوتاد زرعت في البحر: وقد امتلأت هذه المقاهي والشرفات بعدة مئات من اليونانيين الذين يرتدون أفضل ما عندهم من ثياب، ولكنها الثياب الأكثر قذارة؛ وهم جالسون أو مضطجعون فوق ألواح الخشب أو على الرمال، مشكلين ألف مجموعة غريبة. كل الوجوه جميلة، ولكنها حزينة ومتوحشة؛ إن ثقل البطالة يؤثر على تصرفاتهم. كسل أهل «نابولي» لطيف، وهادئ ومرح: إنه لا مبالاة سعيدة؛ أما كسل هؤلاء اليونانيين فهو ثقيل وحزين وقاتم: إنه رذيلة تُعاقِب نفسها بنفسها. أشحنا بنظرنا عن «نوبلي»، وتأملنا قلعة «بالاميد» الجميلة، التي تسيطر على الجبل الذي تعود له هذه المدينة الراضخة؛ إن الأسوار ذات الشرفات تشبه حواف صخرة طبيعية.

ولكن أين هي «ارغوس»؟ سهل واسع عقيم وعار، تتخلله المستنقعات، ويمتد ويستدير في عمق الخليج؛ وهي محاطة من كل الجهات بسلسلة من الجبال الرمادية. وفي نهاية هذا السهل، على بعد فرسخين، لمحنا هضبة صغيرة تحمل بعض الجدران المحصنة فوق قمّتها، وتحمي في ظلها قرية مهدمة: هذه هي «ارغوس». وبالقرب من هنا قبر «اغاممنون» (Agamemnon) . ولكن ما شأني الآن بـ «اغاممنون» وإمبراطوريته؟ هذه القصص العتيقة التاريخية والسياسية قد فقدت اهتمام الشباب والحقيقة. أردت فقط أن أرى أحد سهول «أركاديا» (Arcadie)؛ فأنا أفضل رؤية شجرة، أونبع ماء، أو دفلة على ضفة نهر، تحت قوس جسر مهدّم كسته العرائش المتسلقة، على رؤية أحد

أبنية تلك الممالك القديمة التي لا تثير في فكري إلا السأم الذي سببته لي في طفولتي.

١٠ آب

قضينا يومين في «نوبلي»؛ عادت «جوليا» تقلقني من جديد. سأنتظر بضعة أيام أخرى لأتأكد من شفائها تماماً. نحن على الأرض اليابسة في غرفة نُزل سيئ، مقابل ثكنة لفرقة عسكرية يونانية. يقضي الجنود يومهم بطوله وهم نائمون في ظل قطع الجدران المهدمة، وسط شوارع وساحات المدينة؛ بزاتهم غنية وغريبة؛ وملامحهم تحمل علامات البؤس واليأس، وكلَ الأهواء المتوحشة التي تشعلها الحرب الأهلية وتثيرها في هذه النفوس المتوحشة. إن الفوضى العارمة تسود الآن في «موريه» (Morée) .في كل يوم ينتصر فصيل على فصيل آخر، وسمعنا طلقات بنادق الـ «كليفت» (Klephtes) والـ «كولوكوتروني» (Colocotroni) التي تتصارع في الجهة الأخرى من الخليج مع بنادق الفرق الحكومية. وعرفنا مع كل بريد وارد من الجبال، خبر احتراق مدينة، ونهب سهل، وقتل مجموعة من السكان، بواسطة إحدى الفرق التي تعيث الفساد في وطنها بالذات. لا يمكننا الخروج من أبواب «نوبلي» دون أن نتعرّض لطلقات البنادق. لقد عرض عليّ الأمير «كارادجا» (Karadja) بلطف أن يرافقني حرس من جنوده (الذين كانوا يقاتلون الأتراك)، لكي أذهب لزيارة قبر «اغاممنون»، وأراد الجنرال «كوربيه» (Corbet) الذي يترأس الجيوش الفرنسية أن يرسل بالإضافة إليهم، مفرزة من جنوده، فرفضت؛ لأني لا أريد أن أعرض حياة بعض الرجال للخطر بسبب فضول زائف، ما كنت لأسامح نفسي أبداً لو وقع المكروه.

١٢ آب ١٨٣٢

لقد حضرت هذا الصباح جلسة في البرلمان اليوناني. القاعة كانت عبارة عن عنبر من الخشب؛ تتألف جدرانه وسقفه من ألواح من أشجار الصنوبر الموصولة بشكل

سيئ وقد جلس النواب على مقاعد مرتفعة حول باحة رملية: وكانوا يتحدثون من أماكنهم.

جلسنا، كي نراهم عند وصولهم، فوق كومة من الحجارة عند مدخل القاعة. وصلوا تباعاً فوق أحصنتهم، خلف كل واحد منهم ثلّة من الحرس، كبيرة إلى حدّ ما، يتراوح عدد أفرادها بحسب أهمية رئيسها. وكان النائب يترجل عن حصانه مع جنوده المحمّلين بأسلحة رائعة، ثم يتجمعون على مسافة قريبة في السهل الصغير الذي يحيط بالقاعة. ويوحي هذا السهل بمخيّم أو بقافلة.

كان النواب يتصرفون بشكل عسكري وفخور؛ يتحدثون بلا ارتباك، ولا انقطاع، بنبرة صوت متأثر، لكنه حازم ومدروس ومتناغم. فهم ليسوا هذه الوجوه المتوحشة والمنفرة التي نراها في شوارع «نوبلي»؛ إنهم رؤساء شعب بطل لا يزالون يحملون في أيديهم البنادق أو السيوف التي حملوها لخلاص بلدهم، وها هم يناقشون معاً الوسائل التي تضمن انتصار حريتهم. إن برلمانهم هو مجلس حرب.

لا يمكننا أن نتخيل ما هو أشد بساطة، وفي ذات الوقت، أكثر هيبة من مشهد هذه الأمة المسلحة، التي تناقش فوق خرائب وطنها، وتحت قبة من الخشب مرتفعة وسط الحقول، في حين كان الجنود يصقلون أسلحتهم أمام مدخل المجلس، والخيول تصهل بنفاذ صبر تريد سلوك طريق الجبال من جديد. ومن بين هؤلاء القادة، هناك رؤوس ملفتة للنظر بجمالها، وذكائها، وبطولتها: إنهم قادة جبليون. أما اليونانيون الذين هم من تجار الجزر، فيمكن التعرف عليهم ببساطة من ملامحهم المخنثة، وطريقة تعبيرهم الذكية. إن التجارة والكسل السائد في مدنهم قد سحب من ملامح وجوههم النبل والقوة، وطبع مكانها علائم الشطارة السوقية والحيلة التي باتت تميزهم.

١٣ آب ١٨٣٢

لقد أقام الأميرال «هوتهام» (Hotham) قائد الفرقة الإنكليزية المتواجدة في خليج «نوبلي»، أقام حفلة رائعة على سطح السفينة. ودعانا لزيارة باخرته «لو سان فانسان»

(Le Saint-Vincent) ذات الجسور الثلاثة، وعرض من أجلنا عملية محاكاة لقتال بحري. إن رؤية هذه الباخرة التي تحمل على متنها ١٦٠٠ رجل، وهي في وضعية القتال، تعبّر عن رائعة من روائع الذكاء الإنساني.

رجل ممتاز، يجمع وجهه وتصرفاته هذا الخليط النادر من نبل المحارب القديم ولطف الفيلسوف المُحبب، وهما الطابع المشترك في وجوه رجال الأرستقراطية الإنكليزية. لقد عرض علينا أن ترافقنا إحدى مراكبه الحربية حتى نصل إلى «أزمير» (Smyrne) . رفضتُ، وطلبتُ هذه الخدمة من الأميرال «هوغون» (Hugon) قائد الأسطول الفرنسي. وقَبِلَ أن يعطينا سفينته «لو جيني» (Le Génie)، التي يقودها القبطان «كونيو دورنانو» (Cuneo dOrnano)؛ لكنها لن ترافقنا إلا إلى «رودس» (Rhodes).

تناولت العشاء في بيت السيد «روان» (Rouen)، وزير فرنسا في اليونان؛ كان يجب أن أشغُلَ، أنا نفسي، هذا المنصب في «عصر إعادة الملكية» (La Restauration). هنأني لأنني لم أحصل عليه. إن السيد «روان» الذي قضى كل أيام عهد الفوضى السيئة في «نوبلي»، بدأ يتنفس الصعداء بعد تخلصه منها. وهو يتعزى عن نفيه، باستقبال مواطنيه وبتقديم حماية فرنسا الرفيعة بجمال وود كاملين، إلى بلد يتوجب علينا أن نحبّه في ماضيه وفي مستقبله.

١٥ آب ١٨٣٢

توقفت عن الكتابة. روحي ذابلة وحزينة مثل هذا البلد المريع الذي يحيط بي: صخور عارية، أرض محمرة أو سوداء، شجيرات زاحفة أو مغْبرّة، سهول سبخية تنفخ فيها ريح الشمال المتجمدة، حتى في شهر آب، فوق مواسم حصاد القصب: هذا كل شيء. إن أرض اليونان الحالية هي كَفَنُ شعب؛ إنها تشبه ضريحاً قديماً أفرغت منه رفاته، وتشتّتت أحجاره واسودّت مع الزمن. أين هو جمال اليونان الذي طالما تفاخرنا به؟ أين هي سماؤها الذهبية والشفافة؟ كل شيء باهت وغائم كما هو حال شِعاب الـ «سافوا» أو الـ

«اوفيرني» (Auvergne) الضيقة في آخر أيام الخريف. إن عنف ريح الشمال التي تدخل في الأمواج الهادرة حتى عمق الخليج الذي رسونا فيه، منعتنا من الرحيل.

١٨ آب ١٨٣٢، ونحن راسون قرب حدائق «هيدرا»

غادرنا أخيراً في ليل شتائي تحت ريح جنوبية شرقية جميلة؛ ونمنا في أسرّتنا المعلقة. وفي الساعة السابعة كنّا خارج الخليج؛ كان البحر جميلاً وهو يضرب بتناغم جوانب السفينة. نحن الآن في القناة التي تمتد بين الأرض اليابسة وجزر «هيدرا» (Hydra) و«سبيزيا» (Spezzia).

ارتمينا قرابة الظهر على ساحل القارة مقابل «هيدرا». كانت ضربات الريح الرهيبة، والتي تنطلق من كل نقاط البوصلة، تجعل المناورة شديدة الخطورة. لقد تمزقت أشرعتنا؛ وكادت سوارينا تنكسر؛ قاومنا لمدة ثلاث ساعات بلا توقف في وجه الأعاصير الغاضبة؛ لقد انهار البحارة من شدّة التعب؛ وبدا القبطان قلقاً على مصير السفينة: ونجح في النهاية إلى الوصول إلى ملاذ على شاطئ مرتفع وهو مرسى يعرفه البحارة، يقع مقابل هضبة رائعة تُدعى «حدائق هيدرا». ألقينا مرساتنا على بعد ميل من الساحل، وفي مكان لا يبعد عن السفينة الحربية «لوجيني»، التي سلكت الطريق نفسه.

وقضينا نهار راحة فوق بحر لا يزال هائجاً، وضربات الريح تصفر في سوارينا. نزلنا إلى الشاطئ؛ إنه أجمل موقع زرناه في اليونان حتى هذه الساعة: جبال عالية تسيطر على المشهد بأكمله؛ وهي لا تزال تحتفظ ببعض طبقات التربة، وبعض العشب الأخضر الباهت، فوق سفوحها المستديرة؛ وهي تنحدر ببطء، وتخفي قسمها الأسفل وسط بعض أشجار الزيتون؛ ثم تمتد بعيداً على شكل منحدرات ناعمة حتى تصل إلى قناة «هيدرا»، التي تجري تحت أقدامها كنهر واسع وليس كبحر. هنا يرتاح البصر فوق بيت ريفي أو بيتين محاطين بحقول وبساتين الأشجار المثمرة: حقول مزروعة،

ومجموعة من أشجار الكستناء والسنديان الخضراء، بعض القطعان، وبعض الفلاحين اليونانيين وهم يشتغلون في الأرض. أطلقنا كلابنا، واصطدنا النهار بطوله على الجبل؛ وعدنا مع طرائدنا.

إن مدينة «هيدرا» التي تشغل كل الجزيرة الصغيرة التي تحمل الاسم ذاته، تلمع على الضفة الأخرى للقناة، مدينة بيضاء، رائعة ولامعة مثل صخرة مصقولة حديثاً. إن هذه الجزيرة لا تُظهر للعين أي شبر من التراب: كل ما فيها حجر: المدينة تغطي كل شيء؛ وتنتصب البيوت عمودية، البيت فوق الآخر؛ لقد كانت ملجأ التجارة الحرة، والرخاء اليوناني أثناء الهيمنة التركية. يمكننا أن نقيس الحضارة المتزايدة أو المتقهقرة لأمة ما، من خلال موقع مدنها وقراها: عندما يزداد الأمان والاستقلال، تنزل المدن من الجبال إلى السهول؛ وعندما يعاود الطغيان والفوضى الظهور، تتسلق المدن الصخور، أو تلتجئ إلى رصيف البحر الصخري. في العصور الوسطى كانت المدن في إيطاليا وعلى ضفاف نهر «الرين» (Rhin)، وفي فرنسا، تشبه أعشاش الصقور فوق رؤوس الصخور المنيعة.

في التاريخ نفسه

الليل هادئ. قضينا أمسية عذبة على السطح. وسوف نبحر في الغد إذا لم تهب ريح الشمال بالقوة نفسها.

«أثينا» (Athènes) ١٨ **آب ١٨٣٢، في عرض البحر**

رفعنا المرساة في الساعة الثالثة صباحاً. وسمحت لنا ريح طيّعة بالاقتراب من رأس القارة الذي يتقدم في بحر «أثينا»؛ لكن عاصفة أخرى حاصرتنا هنا، أقوى من سابقتها أيضاً؛ وانفصلنا لبرهة من الزمن عن المركبين اللذين كانا يبحران في رفقتنا. لقد غدا البحر هائلاً، كنا نتدحرج من هوة إلى أخرى، عوارض السواري مبللة في الموج والزبد ينبعث فوق الجسر. وأصر القبطان على الالتفاف حول الرأس؛ ونجح في

النهاية بعد عدة ساعات من المناورات اليائسة: ها نحن في عرض البحر، لكن البحر كان على درجة من الشدة جعلت السفينة تنحرف بشكل كبير، فاضطررنا إلى التوجه نحو الجبال التي كانت ترتسم في الضفة الأخرى لبحر «أثينا». تقدمنا مسافة عشر عقد، داخل غيمة من الغبار الرطب، وتحت قطع الزبد التي ترتفع من مقدمة السفينة ومن جانبيها. كان الأفق ينقشع من حين لآخر ويسمح لنا برؤية رأس «كولونا» (Colonne) الذي يظهر بلون أبيض أمامنا. كنا نأمل أن نرسو هذا المساء تحت أقدام أعمدته، وأن نحيّي ذكرى «أفلاطون» الإلهي الذي كان يأتي قبل ألفي عام لكي يتأمل هنا عند رأس «سونيوم» (Sunium) نفسه. لم يفارق بصري أفق جبال «أثينا» التي كانت الريح تدفعنا باتجاهها. وأخيراً خفت الريح عند غياب الشمس؛ فسرنا بجانب جزيرة «ايجين» (Egine) .ونزلنا تقريباً بهدوء في ملجأ الجزيرة وساحل القارة، ودخلنا في نهاية النهار إلى خليج آخر شكلته الجزيرة وضفاف «كورنثوس» (Corinthe) الجميلة. كان البحر مثل المرآة، وخُيل إلينا أننا نبحر فوق نهر بلا أمواج، يحملنا مجراه إلى المرسى. ألقينا مرساتنا لحظة هبوط الظلام، في بحيرة واسعة ومسحورة، تغطيها الجبال القاتمة، ويرتفع القمر فوقها ويضرب ببياضه «اكروبول كورنثوس» وأعمدة معبد «ايجين». إننا على بعد مئات الخطوات عن الجزيرة؛ ورأينا في الجهة المقابلة حدائق تظللها أشجار الدلب الجميلة، وبعض المنازل البيضاء تلمع وسط الخضرة. استراحة وعشاء هادئ فوق الجسر، بعد نهار مليء بالأخطار والمشاق؛ إنها حياة المسافرين وحياة الإنسان على الأرض.

وعلى يميننا، جزيرة «ايجين» التي خففت من شدة منحدراتها السوداء والسريعة، مدّت فوق الخليج لساناً من التربة المزروعة ببعض أشجار السرو والكرمة والتين؛ وفي نهايتها المدينة؛ وهي مرتبة بشكل أقل غرابة من باقي المدن اليونانية القليلة التي رأيناها حتى الآن؛ «صالة الرياضة» التي ترتفع بسبب «كابو ديستريا» (Capo dIstria) تظهر بيضاء في الوسط: متحفها الذي لن أذهب إليه... لقد مللت المتاحف، مقبرة الفنون؛ قطع

منفصلة عن الساحة، وعن وظيفتها وعن الكتلة بأكملها تبدو ميتة؛ غبار الرخام الذي فارق الحياة. نزلتُ وحدي إلى اليابسة، وقضيت ساعتين عذبتين في بستان من السرو وأشجار البرتقال يملكه «جيرجيو بك» (Gergio-Bey)، في «هيدرا». عدت إلى المركب عند الساعة العاشرة؛ وأنا أنزل الدرج وجدت نصف جسر السفينة وقد غطته بالكامل أكوام من البطيخ الأحمر ومن الشمّام، وسلال كبيرة مليئة بالعنب من جميع الأشكال والألوان، يزن بعضها من ثلاثة إلى أربعة أرطال، وسلال تين منطقة الـ «اتيك» (Attique)، وكل أزهار الموسم التي يسمح المناخ بتفتّحها. قالوا لي إن حاكم «ايجين» الذي علم البارحة بمروري في الخليج، عن طريق ملاحي اليوناني، جاء لزيارتي مع مركب محمّل بهذه الهدية من أراضيه. لقد رأى في اسمي صديقاً لليونان، وأتى إليّ بأول عربون لهذا الازدهار الذي تتمناه لليونان الكثير من القلوب الكريمة. وأعلن أنه سيعود في المساء. طلبت زورقاً صغيراً من القبطان «كونيو دي اورنانو» وذهبت إلى «ايجين» لأبلغ الحاكم شكري؛ فالتقيت به في عرض البحر. عدنا معاً إلى سفينتي. إنه رجل متميّز، يتحدث بذكاء؛ تكلمنا عن اليونان، وعن وضعه المستقبلي وعن محنته الحالية: إني أرى بحزن أن الفكر الديني قد انطفأ في اليونان؛ فرجال الدين جاهلون ومُحتقرون؛ والفكر التجاري لا يملك ما يكفي من الفضيلة لاستنهاض الشعب؛ وأخشى أن يتفكك هذا الشعب من جديد عند أول صعوبة تواجهها أوروبا. إنه مثل حال إيطاليا: هناك الرجال الأكثر ذكاء والأكثر شجاعة، إنهم أفراد وشخصيات فردية لامعة، ولكن لا يوجد بينهم قاسم مشترك؛ هناك يونانيون، ولكن لا توجد أمّة!

غادرنا «ايجين» يوم ١٨ ظهراً، كنا نرى الشمس وهي تنطفئ في الوهدة المُذهّبة التي تنحفر فوق برزخ «كورنثوس»، بين «اكرو كورنثوس» (Acro-Corinthe) وجبال الـ «اتيك»؛ كانت الشمس تضيء كل هذا الجزء من السماء؛ وهنا في هذا المكان، رأينا للمرة الأولى روعة السماء التي تعطي الشرق عظمته وسحره. «سالامين» (Salamine)، مقبرة أسطول «كسرى» على بضع خطوات أمامنا: شاطئ رمادي؛ أرض مسودّة، ليس

فيها ما يثير إلا اسمها؛ معركتها البحرية وذكرى «ثيميستوكل» (Thémistocle) يجعلان الملاح يحيّيها بكل احترام. جبال الـ «اتيك» ترفع قممها السوداء فوق «سالامين»، وعلى اليمين، على إحدى قمم «ايجين» الأقل ارتفاعاً، يقع معبد «جوبيتير جامع كل اليونانيين» (Jupiter Panhellénien) وقد ذهبتّه آخر أشعة النهار، وهو يرتفع فوق أحد أجمل مشاهد الطبيعة التاريخية، ويلقي بذكراه المقدسة فوق ذاكرة الأماكن والعصور. إن فكر الإنسانية الديني يمتزج في كل شيء ويحفظ كل شيء؛ لكن دين اليونانيين، الذي هو دين العقل والخيال، وليس دين القلب، لا يترك في نفسي أي أثر: إننا نعرف أن آلهة الشعب هذه لم تكن سوى لعبة للشعر والفن، إنها آلهة مصطنعة ومُتخيّلة؛ لم يكن فيها أي شيء خطير، أو حقيقي، أو نابع من أعماق الطبيعة والنفس البشرية، قبل مجيء سقراط وأفلاطون! عندئذٍ بدأ دين العقل! ثم جاءت المسيحية، التي أخذت من مؤسسها الإلهي مفتاح القدر الإنساني!.. إن عهود الهمجية التي توجب عليها اجتيازها قبل أن تصل إلينا قد غيّرتها وشوهتها في أغلب الأحيان؛ ولكنها لو نزلت على أشخاص من أمثال «أفلاطون» و«فيثاغوروس» (Pythagore)، إلى أي حدّ كان يمكن ألا نصل؟ لقد وصلنا بفضلها وعبرها ومعها.

عمّ الهدوء، وسبحنا بلا حركة ست ساعات فوق بحر شفاف وفي الأبخرة الملونة لبحر «أثينا». كانت الـ «أكروبوليس» (Acropolis) والـ «بارثينون» (Parthénon) اللتان تشبهان الهياكل، ترتفعان على بعد ثلاثة فراسخ منّا، وقد انفصلتا وتميّزتا عن جبال «بانتيليك» (Penthélique) و«هيميت» (Hymette) و«أنكيمسوس» (Anchesmus)؛ في الحقيقة «أثينا» هي معبد للآلهة، وهي أجمل قاعدة وضعت عليها الأجيال المتعاقبة تمثال الإنسانية! إن المشهد الحالي قاتم، وحزين، وأسود، وقاحل، ومقفر؛ إنه ثقل فوق القلب؛ لا شيء حيّ، أو أخضر، أو جميل، أو متحرّك؛ طبيعة متعبة لا أحد يستطيع إحياءها غير الله: الحرية وحدها لا تكفي لذلك. أما بالنسبة إلى الشاعر والرسام، فقد كُتِبَ فوق هذه الجبال العقيمة، ورؤوس المعابد البيضاء والمتهدّمة، وهذه الأراضي

السبخية أو الصخرية التي لم تعد تملك غير أسمائها الرنانة، لقد كُتِبَ: «كل شيء انتهى!» أرض تشبه نهاية العالم، وكأنها أصيبت بلعنة إلهية، أو بلعنة أحد الأنبياء؛ إنها «أورشليم» (Jérusalem) الأمم، خلت حتى من قبورها؛ هذا هو الانطباع الذي نأخذه عن «أثينا» وعن كل سواحل الـ «اتيك»، وعن الجزر وعن الـ «بيلوبونيز» (Péloponèse).

وصلنا إلى «بيريه» (Pirée) في الساعة الثامنة صباحاً، وألقينا المرساة في ١٩ آب. كانت الأحصنة بانتظارنا على شاطئ «بيريه»؛ فامتطينا الجياد. وجدت حماراً وضع فوقه سرج نسائي لكي تركبه «جوليا»؛ ومضينا. وعلى مسافة نصف فرسخ كان السهل، ومع أنه من تربة خفيفة وطيّعة وخصبة، كان مهملاً بأكمله وبوراً. لقد أحرق الأتراك أثناء الحرب أشجار الزيتون التي كانت تشكّل غابة تمتد حتى البحر؛ ولم تزل هناك بعض جذوع الأشجار السوداء. ثم دخلنا غابة الزيتون والتين التي تحيط بمجموعة تلال «أثينا» الأمامية، والتي تشبه حزاماً أخضر. وسرنا بمحاذاة بعض أساسات السور الطويل الذي يضمّ مدينة «بيريه»، والذي بناه «ثيميستوكل» (Thémistocle)، تلك الأساسات التي ما زالت واضحة للعيان. وعلى مسافات ثابتة، بُنيت بعض الأسبلة التركية التي تشبه الآبار، وأحيطت بأجران ريفية الطراز مصنوعة من أحجار غير مصقولة. ورأينا بعض الفلاحين اليونان والجنود الأتراك مضطجعين بالقرب من هذه البحرات، ويُسقون بعضهم بعضاً. ومررنا أخيراً تحت الأسوار العالية والصخور السوداء التي تشكل قاعدة الـ «بارثينون» (Parthénon). إن الـ «بارثينون» نفسه لم يكن يكبر بالنسبة لنا، وإنما كان على العكس، يزداد صغراً كلما ازددنا منه اقتراباً. إن تأثير هذا الصرح، الذي هو أجمل ما شيدته يد الإنسان على وجه الأرض بحسب تقييم كل العصور، حين نراه على هذا الشكل، لا يتناسب بشيء مع تطلعاتنا؛ عندها تسقط بحزن فوق قلبك كل العبارات الرنانة التي قالها عنه المسافرون أو الرسامون أو الشعراء، حين تبصر هذه الحقيقة بعيداً عن الصور التي رسموها. فهو ليس ذهبياً تحت أشعة شمس اليونان الجامدة؛ ولا يحلّق فوق الهواء مثل جزيرة فضائية تحمل صرحاً إلهياً؛ ولا يلمع من بعيد فوق البحر والبر مثل منارة تقول: «هنا

توجد أثينا! من هنا نهل الإنسان عبقريته وتحدى المستقبل!» لا، لا شيء من هذا. ترى فوق رأسك الجدران القديمة المسودّة ترتفع بشكل متفاوت وقد تخللتها بعض البقع البيضاء. هذه البقع البيضاء هي من الرخام، إنها بقايا الأبنية التي كانت تحيط بـ «اكروبوليس» قبل أن يرممها «بيريكليس» (Périclès) و«فيدياس» (Phidias). وهذه الجدران التي تسندها على بعد مسافات منتظمة جدران داعمة أخرى، قد زينت رؤوسها ببرج بيزنطي مربّع، وبحزّيات على نمط مدينة «البندقية». وهي تحيط بتلة واسعة تضم تقريباً كل أبنية مدينة «تيزيه» (Thésée) المقدّسة. وفي نهاية التلة، من جهة بحر «إيجة» (Egée)، يظهر الـ «بارثينون» أو معبد «مينيرفا» (Minerve) العذراء التي خرجت من رأس «جوبيتير». وتظهر على أعمدة هذا المعبد المسودّة، بقع بيضاء ناصعة هنا وهناك: إنها الندوب التي خلفتها مدافع الأتراك، أو مطارق محطمي الإيقونات. وهو على شكل مربع طويل، ويبدو منخفضاً وصغيراً جداً بالنسبة إلى مكانته العظيمة. ولا يقول هو نفسه: «هذا أنا؛ إني البارثينون، ولا يمكنني أن أكون شيئاً آخر». بل يجب أن نسأل عنه الدليل الذي يرافقنا، وحتى عندما سألناه وأجاب، بقيت لدينا شكوكنا. وعلى مسافة قريبة، وتحت أقدام الـ «بارثينون»، تمرّ بباب معتم ومنخفض ينام تحته بعض الأتراك، بملابسهم الرثة، إلى جانب أسلحتهم الغنية والجميلة، وها أنت قد وصلت إلى «أثينا». وأول بناء جدير بالمشاهدة هو معبد «جوبيتير الأولبي»، الذي ترتفع أعمدته وحدها فوق ساحة خالية وعارية، إلى يمين «أثينا» القديمة، إنه مدخل مهيب لمدينة الأطلال! ودخلنا المدينة على بعد خطوات من هنا، أي أننا دخلنا إلى متاهة لا مخرج لها، متاهة من الأزقة الضيقة المزروعة بأجزاء من الجدران المتداعية، ومن الآجر المهشّم، ومن الحجارة ومن الرخام المكوم كيفما اتفق؛ بعضها ينحدر إلى باحة منزل مهدّم، وبعضها يتسلق الدرج أو يفضي إلى سقف بيت آخر؛ في هذه المساكن الحقيرة، الصغيرة، والبيضاء، والتافهة، التي هي خرائب الخرائب، لمحنا بعض المعالم القذرة والموبوءة، تكدست وغاصت فيها بعض عائلات الفلاحين اليونانيين. رأينا هنا وهناك بعض نساء «أثينا» بأعينهن السوداء وشفاههن الجميلة المميزة، وقد خرجن على إثر الضجة التي سببها وقع خطوات أحصنتنا، خرجن إلى عتبات الأبواب، وهنّ يبتسمن

بترحاب وبدهشة، ويلقين تحية الـ «اتيك» الجميلة: «أهلاً بالسادة الغرباء في أثينا!» وصلنا بعد ربع ساعة من المسير، عبر نفس مشاهد الدمار وأكوام الجدران والأسقف المتداعية، وصلنا إلى دارة السيد «غاسباري» (Gaspari) المتواضعة، وهو وكيل قنصليتنا في «أثينا». وكنت قد أرسلت له في الصباح رسالة التوصية التي تلتمس الاهتمام بي. لكني لم أكن بحاجة لها: فالكرم هو ميزة كل وكلائنا في الخارج. لقد استقبلنا السيد «غاسباري» كما لو كنا أصدقاء لا يعرفهم؛ وبينما أرسل ابنه ليبحث لنا عن بيت بين خرائب «أثينا» التي لا تزال واقفة، كانت إحدى بناته، بقوامها الأثيني الجميل والرشيق تمثل جمال النساء المتوارث في بلده، وقدمت لنا بحماس وتواضع عصير البرتقال المثلج في آنية من الفخار، ذات الأشكال القديمة. وبعد أن تمتعنا بالرطوبة لبرهة من الزمن في هذا الملجأ المتواضع وهذه الضيافة البسيطة والوديّة، التي من الجميل أن نصادفها تحت سماء ملتهبة، على بعد مئات الفراسخ عن الوطن، قادنا السيد «غاسباري»، في نهاية النهار العاصف والمشمس والمغبر، إلى أسفل المدينة، عبر الخرائب ذاتها، إلى بيت أبيض، ونظيف بُني حديثاً، هو عبارة عن نزل شيدّه رجل إيطالي، كانت هناك بعض الغرف التي بُيضت جدرانها بالكلس وفرشت بالأثاث بشكل لائق، وباحة يرطبها نبع وبعض الظلال، وفي أسفل الدرج لبوءة جميلة من الرخام الأبيض، والكثير من الفواكه والخضار، ومن عسل «هيميت» الذي افترى عليه السيد «دى شاتوبريان» (M. de Chateaubriand)، وكان هناك خدام يونانيون يفهمون اللغة الإيطالية، وهم متحمسون وأذكياء، كل ذلك جعلنا نثمن غالياً هذا المكان الموجود وسط حزن وعري «أثينا» المطلقين.

لا يمكن أن نجد أفضل منه في كل من إيطاليا أو إنكلترا أو سويسرا. عسى أن يستمر هذا النزل ويزدهر لكي يواسي المسافرين المقبلين ويرفه عنهم! ولكن للأسف! لم يتجاوز أي مسافر عتبته أو يزعج صمته، منذ ثمانية وأربعين يوماً.

وفي المساء وضع السيد «غروبيوس» (Gropius) بكرم نفسه تحت تصرفنا لكي يرينا «أثينا» ويشرح لنا معالمها. ومثلما استمتع السيد «دى شاتوبريان» في الماضي

بصحبة السيد «فوفيل» (Fauvel) الذي قاده عبر خرائب «أثينا»، كذلك وجدنا في السيد «غروبيوس» الذي أصبح أثينياً منذ اثنين وثلاثين عاماً، وجدنا فيه «فوفيلاً» آخر؛ وقد بنى، مثل أستاذه، منزل شيخوخته وسط حطام مدينة قضى شبابه فيها، وهو يفعل ما بوسعه لاستنهاضها للمرة المئة من غبارها الشعري. إنه قنصل النمسا في اليونان، وهو رجل علم وفكر؛ لقد جمع السيد «غروبيوس» ما بين المعرفة الأكثر إخلاصاً والأكثر عمقاً بالزمن القديم، وهذا الطابع البريء والطيب والجمال غير المؤذي الذي يميّز أبناء ألمانيا العالمة، أبناءها الحقيقيين والشرفاء. وعلى الرغم من تحامل اللورد «بايرون» (lord Byron) عليه في ملاحظاته اللاذعة التي كتبها عن «أثينا»، فإن السيد «غروبيوس» لم يردّ الإهانة بالإهانة تخليداً لذكرى هذا الشاعر الكبير؛ ولكنه تأسف فقط لأن اسمه قد انتقل بسببه من طبعة إلى طبعة، وسُلّم إلى حقد المتعصبين والجاهلين للتاريخ القديم؛ لكنه رفض أن يبرّر نفسه، وحين كنّا في الأمكنة التاريخية، رأينا دليلاً على الجهود المستمرّة التي بذلها هذا الرجل المتميّز ليعيد كلمة إلى لوحة مكتوبة، أو جزءاً مفقوداً من تمثال، أو شكلاً من الأشكال أو تاريخ صرح من الصروح، وتأكدنا مسبقاً من أن السيد «غروبيوس» لم يدنس مطلقاً ما كان يعبده، ولم يجعل من أنبل وأنزه الدراسات، دراسة التاريخ القديم، ولم يجعل منها تجارة رخيصة.

إن الأيام بصحبة رجل مثله، تضاهي السنوات بالنسبة إلى مسافر جاهل مثلي. طلبت منه أن يعفيني من كل التفاصيل القديمة المشكوك فيها، ومن كل الشخصيات التي نالت الإجماع، وكل أشكال الجمال النمطيّ. إني أكره الكذب والجهد في كل شيء، وبشكل خاص في مجال الإعجاب والتأمل. لا أريد أن أرى إلا ما جعله الله أو الإنسان جميلاً، أن أرى الجمال الحالي، والحقيقي، والملموس، الذي يخاطب العين والروح، وليس جمال المكان أو العصر: الجمال التاريخي أو النقدي. لندع هذا النوع من الجمال للعلماء. أما بالنسبة لنا، نحن الشعراء، فإننا نريد الجمال الواضح والحسيّ؛ إننا لسنا رجال تجريد، وإنما رجال طبيعة وغريزة: وهكذا سرت عبر «روما» مئات المرات؛ وهكذا زرت البحار والجبال؛ وهكذا قرأت الحكماء، والمؤرخين والشعراء؛ وهكذا زرت «أثينا».

كانت أمسيةً جميلة وصافية: الشمس اللاظية تنزل غارقة في ضباب بنفسجي فوق الحاجز الأسود والضيق الذي يشكّل برزخ «كورنثوس»، وتضرب آخرُ حزمها اللامعة فتحاتِ الـ «اكروبوليس»، التي تستدير مثل تاج من الأبراج، فوق سهل عريض ومتموج ينام فيه بصمت ظلّ «أثينا». خرجنا عبر أزقة لا اسم ولا أثر لها، مجتازين في كل مرة فتحات في جدران حدائق متهدمة، أو منازل بلا أسقف، أو خرائب مكدّسة فوق غبار أرض الـ «اتيك» الأبيض. وبقدر ما كنّا نهبط باتجاه قاع الوادي العميق الخالي الذي يظلله معبد «تيزيه» (Thésée)، الـ «بنيكس» (Pnyx)، والـ «اريوباج» (Aréopage)، وهضبة «الحوريات» (Nymphes)، كنّا نكتشف مساحة أكبر من المدينة الحديثة التي تنتشر على يميننا، والتي تشبه في كل شيء ما رأيناه في أماكن أخرى. أطلال مبهمة، واسعة وحزينة، وفوضوية، مؤلفة من الأكواخ المنهارة، وأجزاء من الجدران لا تزال قائمة، وأسقف متداعية، وحدائق وباحات مُخرّبة، أكوام من الحجارة المكومة التي تسدّ الطرقات وتتدحرج تحت الأرجل؛ وكل ذلك بلون الخرائب الحديثة، هذا الرمادي الكامد، والرخو، الذي بَهُتَ لونه، حتى أنه لا يذكّر العين بقدسية الزمن الغابر، ولا بجمال الآثار. ولم يبق أثر لأي نباتات باستثناء ثلاث أو أربع شجرات من النخيل تشبه المآذن التركية التي بقيت واقفة في المدينة المُهدَّمة؛ وهنا وهناك بعض المنازل القبيحة الشكل والحديثة، التي بناها مؤخراً بعض الأوربيين أو اليونانيين من سكان القسطنطينية (Constantinople) .منازل من نمط قرانا في فرنسا أو إنكلترا، أسقف مرتفعة بغير جمال، نوافذ عديدة وضيقة؛ بلا شرفات، ولا خطوط معمارية، أو زخارف؛ نُزلٌ بُنيت للسكن بانتظار خراب جديد؛ ولا شيء من هذه القصور التي كان يشيّدها بثقة، شعب متحضر، يشيّدها لنفسه وللأجيال القادمة. وفي وسط هذا الخواء، رأينا بعض أجزاء الملعب الرياضي، وبعض أعمدة قوس «أدريان» (Adrien) أو «لازورا» (Lazora) السوداء، وقبة «برج الريح» أو قبة «مصباح ديوجين» (la lanterne de Diogène)، التي تستدعي العين ولكنها لا تستوقفها. أمامنا كان معبد «تيزيه» يكبر وينفصل عن الأرض الرمادية التي وُضع فيها، يقف وحيداً عارياً من كل الجوانب، منتصباً بأكمله فوق قاعدته الصخرية؛ إن هذا المعبد، يُصنّف بحسب العلم، من بعد الـ «بارثينون»، كأجمل

المعابد التي بنتها اليونان لآلهتها أو لأبطالها.

كنّا نقترب ونحن مقتنعون بما قرأناه عن جمال هذا الصرح، لكنني دُهشت حين شعرت بأنني مقرود وعقيم؛ كان قلبي يبحث عن التأثر، وعيناي تبحثان عن شيء تتأملانه. لا شيء. شعرت فقط بالذي نحسّه إزاء عمل خال من العيوب، شعرت بمتعة سلبية؛ لكنه إحساس حقيقي وقوي، ومتعة جديدة وقوية ولا إرادية؛ نقطة وانتهى كل شيء. كان المعبد صغيراً جداً؛ إنه لعبة فنّ رائعة! وليس صرحاً للآلهة، وللإنسان، وللأزمنة. لم أحس إلا بلحظة شغف واحدة: عندما كنت جالساً في الزاوية الغربية للمعبد، على الدرجات الأخيرة، وبصري يعانق في آن واحد تناغم الأشكال الرائع وأناقة الأعمدة المهيبة، وفضاء الرواق المعتم والخالي، والمنحوتات المقعّرة الرائعة على إفريزه الداخلي، والتي تمثل قتال الـ «سانتور» (Centaures) والـ «لابيت» (Lapithes)؛ وفي الأعلى برزت السماء الزرقاء الرائعة، من الفتحة الموجودة في الوسط، وهي تنشر نهارها الصوفي والهادئ فوق الأفاريز والأشكال الناتئة لصور المنحوتات البارزة: لقد كانت تبدو حيّة ومتحرّكة. إن كبار الفنانين فقط، وعلى اختلاف مجالاتهم، وحدهم يملكون ميزة إضفاء الحياة هذه، ولكن للأسف على حسابهم! لم يبق في الـ «بارثينون» إلا رسمان، «مارس» (Mars) و«فينوس» (Vénus)، مسحوقان تقريباً تحت ثقل قطعتين ضخمتين انزلقتا من الإفريز فوق رأسيهما؛ لكن هذين الرأسين يعادلان بالنسبة لي جميع المنحوتات التي رأيتها في حياتي: إنهما يعيشان كما لم تعش أبداً أية لوحة أو منحوتة رخامية. أسفنا الثقل الذي يسحقهما؛ وتمنينا لو أرحنا أعضاءهما التي تبدو مثنية ومتصلبة تحت هذه الكتلة؛ وشعرنا بأن إزميل «فيدياس» يرتجف ويحترق في يده، عندما ولدت هذه الصور الرائعة تحت أصابعه. وشعرنا (وهذا ليس وهماً، إنها الحقيقة، الحقيقة المؤلمة!) وكأن الفنان قد نفخ في أشكال وفي عروق الكائنات التي خلقها، قد نفخ شيئاً من شخصيته، ومن دمه، شعرنا كأننا لا نزال نبصر جزءاً من روحه وهو ينبض داخل هذه الأشكال الحيّة، وفي هذه الأعضاء الرائعة التي توشك أن تتحرك، وفوق هذه الشفاه التي تكاد تنطق.

لا، إن معبد «تيزيه» غير جدير بشهرته، ولا يعيش كصرح، ولا يقول ما يتوجب عليه قوله: إنه الجمال بلا شك، لكنه جمال بارد وميت، يتوجب على الفنان وحده أن ينفض كفنه ويمسح الغبار عنه. أما أنا، فقد أعجبت به، ولكنني مضيت دون الشعور بالرغبة في زيارته مجدداً. إن الحجارة الجميلة التي بنيت منها أعمدة «الفاتيكان»، والظلال المهيبة والضخمة لكنيسة «القديس بطرس» (Saint-Pierre) في «روما»، لم تدعني يوماً أفارقها دون غصة، ودون الأمل بالعودة إليها في يوم من الأيام!

وإذا تسلقتَ قليلاً هضبة سوداء مغطاة بالفحم وبالحجارة الحمراء، فإنك تصل إلى «بنيكس»، وهو مكان التقاء مجالس الشعب اليوناني الصاخبة، والهتافات المتقلبة لخطبائه أو أعيانه. كتل ضخمة من الحجارة السوداء، تصل بعضها إلى اثني أو ثلاثة عشر قدماً مكعباً، يرتكز بعضها على بعضها الآخر، ويحمل الشرفة التي يجتمع الشعب فوقها. وفي الأعلى بقليل، وعلى مسافة خمسين خطوة تقريباً، رأينا كتلة مربعة هائلة، حفرت فيها بعض الدرجات لكي يصعد الخطيب فوقها ويصل إلى المنبر الذي يهيمن فوق الشعب والمدينة والبحر. إن هذا البناء لا يملك أية خصائص جمالية لشعب «بيريكليس«؛ إنه يشبه النمط الروماني؛ وهنا أيضاً الذكريات الجميلة. من هنا تكلّم «ذيموستينوس» (Démosthène)، وأثار أو هدّأ هذا البحر الشعبي الأكثر هياجاً من بحر «ايجة»، والذي كان يسمعه أيضاً وهو يزأر خلفه. جلست هنا، وحيداً متأملاً، وبقيت هنا حتى أطبق الليل تقريباً، وأنا أستعيد بغير جهد، أجمل وأسرع وأكثر قصص التاريخ الإنساني تأججاً، والقصص التي استعملت السيف أو الكلمة. أية أزمان للعبقرية! وأية عبقرية، وعظمة، وحكمة، ونور، وفضيلة حتى (لأن سقراط توفي على مقربة من هنا) بالنسبة لذاك الزمان! إن هذا الزمن يشبه الآن ما تعيشه أوروبا، وفرنسا بشكل خاص، زمن «أثينا» السوقية، «أثينا» العصور الحديثة. إن النخبة في فرنسا وأوروبا فقط هي «أثينا»، أما سواد الشعب فما زال همجياً! لنفرض أن «ذيموستينوس» كان يتحدث بلغته المحرقة، والرنانة، والملونة في اجتماع شعبي انعقد في إحدى مدننا الحالية: من يستطيع فهمه؟ إن التفاوت في التعليم والتنوير هو العقبة الكبرى في وجه حضارتنا الكاملة والعصرية. فالشعب هو السيد، ولكنه غير جدير

بهذه السيادة؛ ومن أجل هذا فهو يدمّر في كل مكان، ولا يشيّد في أيّ مكان شيئاً جميلاً، وخالداً، أو عظيماً! كل الأثينيين كانوا يفهمون «ذيموستينوس»، ويعرفون لغتهم، ويناقشون تشريعاتهم وفنونهم. كانوا شعباً من النخبة؛ كانوا يمتلكون أهواء الشعب، دون أن يمتلكوا جهله؛ كانوا يرتكبون الجرائم وليس الحماقات. ولم يعد الأمر هكذا: ولهذا السبب تبدو الديمقراطية الضرورية مستحيلة في أوساط الشعوب الكبيرة والحديثة. وحده الزمن كفيل بجعل هذه الشعوب جديرة بأن تحكم نفسها بنفسها. إن ثقافة تلك الشعوب تُصنع بواسطة ثوراتها.

إن مصير خطيب مثل «ذيموستينوس» أو «ميرابو» (Mirabeau) وهما الخطيبان الوحيدان الجديران بهذا الاسم، يبدو أكثر إغراءً من مصير الفيلسوف أو الشاعر؛ إن الخطيب يتطبّع بعظمة الكاتب وقوة الجماهير التي يؤثر فيها ومن خلالها: إنه الفيلسوف الملك، إن كان فيلسوفاً بالفعل؛ لكن سلاحه الرهيب، الذي هو الشعب، ينكسر بين يديه، فيجرحه أو يقتله؛ ثم إن ما يقوله، أو يفعله، أو ما يحرّكه في الإنسانية من أهواء ومبادئ ومصالح عابرة، كل ذلك لا يدوم، وهو ليس خالداً بطبيعته. أما الشاعر فعلى العكس من ذلك، وأقصد بالشاعر كل من يخلق أفكاراً من معدن البرونز، أو من الحجر، أو من النثر، أو من الكلمات أو الإيقاعات؛ إن الشاعر لا يحرك ما هو فانٍ في الطبيعة أو في القلب الإنساني؛ تمرّ الأزمان، وتُستَهْلك اللغات؛ لكنه يحيا دائماً وبكلّيته، فيبقى هو ذاته، بنفس عظمته، وحداثته، وبقوة تأثيره ذاتها في نفوس قرائه؛ قدره أقل إنسانية، ولكنه أكثر ألوهية! إنه يسمو فوق الخطيب.

الأجمل هو أن نجمع القدرين: هذا ما لم يفعله رجل قط؛ ومع ذلك ليس هناك تعارض بين الفعل وبين الفكر داخل مفهوم الذكاء الكامل. إن الفعل هو ابن الفكر؛ لكن البشر الغيورين من التفوّق، يرفضون إعطاء سلطتين للكائن الواحد؛أما الطبيعة فهي أكثر ليبرالية منهم! إنهم يُبعدون عن مجال الفعل كل من يُبدع في مجال الذكاء والكلمة؛ إنهم يرفضون أن يضع «أفلاطون» قوانين حقيقية، وألا يحكم «سقراط» قرية أو دسكرة.

كتبتُ إلى البك التركي «يوسف بك» رسالة أطلب فيها إعطائي الإذن في الصعود

إلى القلعة مع أصدقائي، وزيارة الـ «بارثينون». فأرسل إنكشارياً لمرافقتي. غادرنا يوم ٢٠ في الساعة الخامسة صباحاً، وبصحبتنا السيد «غروبيوس». صمت الجميع أمام الانطباع الفريد الذي يخلّفه الـ «بارثينون»، إنه معبد المعابد وقد بناه «سيتينوس» (Setinus) بأمر من «بيريكليس» (Périclès)، وزيّنه «فيدياس» (Phidias)؛ إنه نمط فريد وحصري للجمال، في فنون العمارة والنحت؛ نوع من الكشف الإلهي عن الجمال المثالي الذي عرفه الشعب يوماً وهو الفنان بامتياز ثم نقله هذا الشعب إلى الأجيال القادمة على شكل كتل من الرخام الذي لا يفنى، والتماثيل والمنحوتات التي سوف تعيش إلى الأبد. إن هذا الصرح على ما هو عليه، مع موقعه، وقاعدته الطبيعية، ومدرّجاته المزخرفة بتماثيله التي لا تضاهى، وبأشكاله العظيمة، وتنفيذه المكتمل في أدق تفاصيله، وفي مادّته، ولونه الذي هو نور مُتحجّر؛ إن هذا الصرح يستحق منذ قرون الإعجاب دون أن يُشبِعه؛ حين ترى ما رأيتُ منه فقط، بأشلائه التي خلفتها المدافع النمساوية، وانفجار مخزن البارود في عهد «موروسيني» (Morosini)، وبمطرقة «تيودور» (Théodore)، ومدافع الأتراك واليونانيين؛ وكتل أعمدته الشاهقة التي تلامس أرضيته، وتيجان أعمدته المنهارة، وزخارفه الثلاثية الأخاديد التي كسّرها رجال اللورد «إلجين» (Elgin)، وتماثيله التي حملتها المراكب الإنكليزية. إن ما بقي منه كان كافياً لكي يجعلني أحسّ أنه أكمل قصيدة كتبت بحجر على وجه الأرض؛ ومع ذلك شعرت أنه صغير جداً؛ لقد ضاع تأثره أو تهدّم. قضيت ساعات عذبة وأنا مضطجع في ظل مدخل المعبد (Propylées)، وعيناي مسمّرتان على واجهة الـ «بارثينون» المنهارة؛ شعرت بوجود التاريخ القديم بأكمله وبكل ما أبدعه من عمل إلهي؛ أما ما تبقى فلا يستحق العبارة التي تصفه! إن هيئة الـ «بارثينون» لا تُظهر التاريخ فقط، بل أيضاً عظمة شعب هائل. يجب ألاّ يموت «بيريكليس»! يا لها من حضارة خارقة تلك التي أوجدت رجلاً عظيماً لكي يأمر، ومعمارياً لكي يصمم، ونحاتاً لكي يزخرف، وصُناعاً لكي يُنفذوا، وعمالاً لكي يقطعوا الحجر، وشعباً لكي يُسدّد التكاليف، وعيوناً لكي تفهم وتتأمل صرحاً مماثلاً! أين نجد عصراً وشعباً مماثلين؟ لا شيء يُنبئ بذلك. كلما تقدّم الإنسان في العمر، كلما فقد الرحيق والحيوية والتجرّد الذي لا بدّ منه من أجل الفنون!

إن الـ «بروليبيه»، ومعبد «ايريكتيه» (Erechthée) أو الـ «كارياتيد» (Cariatides) موجودة بجانب الـ «بارثينون». وهي روائع فنية بحد ذاتها، ولكنها جزء من تلك الرائعة؛ إن الروح حين تُصعق لرؤية أول هذه المباني، تفقد القدرة على تأمل المباني الأخرى؛ يجب أن نرى وأن نمضي بعد ذلك، باكين بشكل أقل من تخريب واجتياح هذا العمل الإنساني الخارق، أكثر من بكائنا لاستحالة أن يضاهي الإنسان هذه الروعة وهذا التجانس. إنها نوع من الكشف الذي لا تعطيه السماء مرتين إلى الأرض: مثل قصيدة «أيوب»، أو «نشيد الإنشاد»، مثل قصيدة «هوميروس»، أو موسيقى «موزارت»! إنه عمل يُصنع، ويُرى، ويُسمع، ثم لا يُصنع بعد ذلك، ولا يُرى، ولا يُسمع حتى نهاية الأزمان. طوبى للرجال الذين تمرّ من خلالهم هذه النفحات الإلهية! إنهم يموتون، ولكن بعد أن يبرهنوا للإنسان ما يمكن أن يكون الإنسان؛ فيدعوهم الله إليه لكي يمجدوه في مكان آخر، وبلغة أبلغ أيضاً! تسكعت طيلة النهار وأنا صامت بين هذه الخرائب، وعدت وعيناي مبهورتان بالأشكال والألوان، وقلبي مليء بالذكريات والإعجاب! إن الفن القوطي جميل؛ ولكن ينقصه النظام والنور؛ النظام والنور، هما مبدأ كل خلق أزلي! وداعاً، وإلى الأبد للفن القوطي!.

إن أصعب كتاب يكتب في رأيي، هو كتاب الترجمة. والحال أن السَفَر يعني الترجمة؛ أن نترجم لعين القارئ وفكره وروحه، الأماكنَ والألوان والانطباعات والمشاعر التي تعطيها الطبيعة أو الصروح الإنسانية للمسافر. يجب أن نُحسن في ذات الوقت النظر والشعور والتعبير: ولكن كيف نُعبّر؟ ليس بواسطة الخطوط والألوان كما يفعل الرسّام – وهذا أمر سهل وبسيط – ولا بواسطة الأنغام كما يفعل الموسيقيّ، وإنما بواسطة الكلمات، والأفكار التي لا تسجن الأنغام ولا الخطوط ولا الألوان. هذه هي الأفكار التي كانت تراودني وأنا جالس على درج الـ «بارثينون»، وأمام ناظري تمتد «أثينا» وغابة زيتون الـ «بيريه»، وبحر «إيجة»، وفوق رأسي الظل المهيب لإفريز معبد المعابد. أردت أن أحتفظ لنفسي بتذكار حيّ، تذكار مكتوب عن هذه اللحظة من حياتي! شعرت أن هذه الفوضى من الرخام الرائع والبديع في عيني، تمّحي من ذاكرتي، وأردت أن أستعيدها حين أعود إلى حياتي التافهة في المستقبل. لنكتب إذن: لن يكون

ما أكتبه هو الـ «بارثينون»، ولكنه على الأقل ظل من هذا الظل الكبير الذي يحلق فوقي.

من وسط الخراب الذي كان «أثينا» فيما مضى، والذي نثرته مدافع اليونانيين والأتراك وزرعته فوق الوادي والهضبتين حيث تمتدّ مدينة «مينيرفا»، يرتفع جبل ينحدر بشدّة من جميع الجهات. تحيط به أسوار ضخمة؛ وقد زرعت عند قاعدتها أجزاء من الرخام الأبيض، ثم ترتفع قليلاً مع ركام الأفاريز الأعمدةُ القديمة لتنتهي في بعض الأماكن بحزّيات على نمط مدينة «البندقية». إن هذا الجبل يشبه قاعدة رائعة نحتتها الآلهة شخصياً لكي تقيم معابدها فوقها. وقاعدته التي تسطحت لكي تستقبل فناء تلك المعابد لا تتجاوز مساحتها خمسمائة قدم في الطول وثلاثمائة قدم في العرض. وهو يهيمن على كل التلال التي تشكّل أرض «أثينا» القديمة وسهول الـ «بانتيليك» (Pentélique)، ومجرى نهر الـ «هيسوس» (Hissus)، وسهل الـ «بيريه»، وسلسلة من الهضاب والقمم تستدير وتمتد حتى تصل إلى «كورنثوس»، وأخيراً البحر المزروع بجزر «سالامين» و«ايجين» التي تلمع فوق قممها واجهات معبد «جوبيتير جامع كل اليونانيين». لا يزال هذا الأفق رائعاً حتى اليوم بكل تلاله العارية والتي تعكس مثل معدن البرونز المصقول، أشعة شمس «اتيك» المرتدّة. ولكن أي أفق كان يرى «أفلاطون» أمام عينيه، حين كانت «أثينا» حيّة ومغطاة بمعابدها التي لا تحصى، وهي تهدر تحت قدميه مثل خلية تعجّ بالنحل؛ عندما كان سور الـ «بيريه» الكبير يرسم حتى البحر، درباً من الحجارة والرخام المليء بالحركة، عندما كان سكان «أثينا» يذهبون ويأتون مثل أمواج البحر؛ عندما كانت مناطق الـ «بيريه»، ومرفأ «فالير» (Phalère)، وبحر «أثينا»، وخليج «كورنثوس»، مغطاة بغابات من السواري والأشرعة اللامعة؛ عندما كانت كل سفوح الجبال، بدءاً من الجبال التي تُخفي الـ «ماراتون» (Marathon) وحتى «اكروبوليس» «كورنثوس»، التي هي مدرّج مؤلف من أربعين فرسخاً من أنصاف الدوائر، موزعة بين الغابات والمراعي وأشجار الزيتون والكرمة، وعندما كانت القرى والمدن تزيّن من جميع الجهات هذا الحزام الرائع من الجبال!

إني أرى من هنا آلاف الدروب التي تنحدر من هذه الجبال، وترتسم على سفوح الـ «هيميت» (Hymette)، وفي كل تعرجات الأخاديد والأودية التي تأتي جميعها لتصب

في «أثينا» مثلما تفعل مجاري السيول. إني أسمع الضجيج الذي يتصاعد منها، وضربات مطارق مستخرجي الأحجار من مقالع الرخام في جبل «بانتيليك»، وتدحرج الكتل التي تسقط على طول حواف منحدرات الجبل، وكل الأصوات التي تملأ بالحياة والضجيج ضواحي عاصمة كبيرة. وعلى جانب المدينة أرى شعب «أثينا» المتديّن، وهو يصعد عبر الطريق المقدسة المحفورة في سفح الـ «اكروبوليس» لكي يبتهل إلى «مينيرفا» وينشر عبق بخور كل آلهته اليومية، هنا تماماً في نفس المكان الذي أجلس فيه وأتنشق فيه غبار هذه المعابد.

لنُعِدْ بناء الـ «بارثينون»: إنه أمر سهل فهو لم يفقد إلا إفريزه ومقصوراته الداخلية. إن الجدران الخارجية التي نمّقها «فيدياس»، والأعمدة أو بقايا الأعمدة ما زالت موجودة. لقد بُني الـ «بارثينون» بكامله من الرخام الأبيض الذي يدعى رخام «البانتيليك»، نسبة إلى اسم الجبل الذي يستخرج منه. وهو عبارة عن مربّع طويل يحيط به رواق مؤلف من أربعة وستين عموداً من النمط «الدوري» (dorique). كل عمود محيط قاعدته ستة أقدام، وارتفاعه ثلاثة وأربعون قدماً. وترتكز الأعمدة مباشرة على أرض المعبد، ولا قاعدة لها. وفي كل طرف من أطراف المعبد يوجد رواق مؤلف من ستة أعمدة. وتبلغ أبعاد المبنى الإجمالية مئتين وثمانية وعشرين قدماً طولاً، ومئتي قدم عرضاً. وهو لا يُظهر للعين إلا عظمة بساطة خطوطه المعمارية. إنه فكرة واحدة من الحجر، فكرة نظرة واحدة ومفهومة، مثل فكرة التاريخ القديم. يجب أن نقترب لكي نتأمل غنى العناصر والمواد، والكمال الفريد للزخارف والتفاصيل. لقد أراد «بيريكليس» أن يجعل منه محصلة كل الروائع التي أبدعتها عبقرية الإنسان اليدوية ومهارته، وفي ذات الوقت تكريماً للآلهة: أو بالأحرى العبقرية اليونانية بأكملها، وهي تقدّم ذاتها تحت هذا الشعار، كتكريم للألوهية. لقد أصبح اسم كل من نحت حجراً، أو شكّل تمثالاً في الـ «بارثينون»، اسماً خالداً.

لننس الماضي، ولننظر الآن حولنا، في حين أن العصور والحرب والأديان الهمجية والشعوب الغبية تطأه بأقدامها منذ أكثر من ألفي عام.

لا ينقص إلا بعض الأعمدة من غابة الأعمدة البيضاء: لقد وقعت، بكتلها الكاملة وألوانها الناصعة، على الأرض أو فوق معابد مجاورة: بعضها مثل أشجار السنديان في غابة «فونتينبلو» (Fontainebleau)، بقيت منحنية على أعمدة أخرى؛ وبعضها انزلق من فوق الحاجز الذي يحيط بالـ «اكروبوليس»، وهي ترقد الآن على شكل أطلال ضخمة مكسّرة، ومتراكمة، مثل حتاتة كتل الرخام التي ألقاها المعماري في المقلع. جوانبها مذهبة بقشرة الشمس التي تبسطها القرون فوق الرخام: أثلامها بيضاء ناصعة كالعاج الذي صُقل بالأمس. وهي تشكل في زاوية المعبد تلك، فوضى متلألئة من الرخام بكل أشكاله، وكل ألوانه، وقد رُميت وتكوّمت بلا ترتيب وبشكل غريب ومهيب: نَخالها عن بعد زبد الأمواج الهائلة التي جاءت لتتكسّر وتصبغ باللون الأبيض خليجاً تضربه البحار. لا تستطيع العين أن تشيح بصرها عنها؛ فننظر إليها، ونتابعها، ونتأملها ونرثي لحالها بهذا الشعور الذي نحسّه تجاه الأشخاص الذين عرفوا أو لا يزالون يعرفون الشعور بالحياة. إنه أروع تأثير للخرائب التي خلّفها الإنسان في يوم من الأيام، لأنها خرائب أجمل شيء صنعوه على الإطلاق!

إذا مررنا تحت أعمدة الواجهة وتحت الرواق، يخيل لنا أننا في المرحلة التي تمّ فيها تشييد البناء؛ فالجدران الداخلية محافظ عليها بدرجة كبيرة، وسطح الرخام لامع ومصقول بشكل كبير، والأعمدة سامقة منتصبة، والأجزاء المحفوظة من الصرح تبدو وكأنها لم تُمسّ، كل شيء يبدو وكأنه قد خرج للتو من يد الصانع: لكن السماء الساطعة هي التي تشكل الآن سقف الـ «بارثينون» الوحيد، ومن خلال شقوق قاعدة الجدران يغوص البصر في أفق الـ «اتيك» الواسع والضخم. وكل الأرض المحيطة مزروعة بقطع من منحوتات، أو بأجزاء معمارية تبدو وكأنها تنتظر اليد التي يجب أن ترفعها وتعيدها إلى مكانها في الصرح الذي ينتظرها. تتعثّر الأرجل بشكل دائم بروائع الإزميل اليوناني: فنلتقطها، ثم نلقي بها، لنلتقط قطعة أخرى أشد غرابة أيضاً، ونتعب في النهاية من هذا العمل غير المجدي، كل ما يحيط بنا هو روائع متشظية. وتنطبع الخطوات على غبار الرخام؛ وينتهي بنا الأمر إلى النظر إليها بغير اكتراث، ونبقى متحجّرين وصامتين، ومستغرقين في تأمل المشهد العام، وآلاف الأفكار التي

تخرج من كل قطعة في هذا الحطام. إن هذه الأفكار هي من طبيعة المشهد نفسه الذي نتنفس منه؛ إنها محفورة مثل تلك الآثار في الزمن الذي انقضى، مثل هذه الشواهد الجليلة التي تدل على خواء الإنسانية؛ لكنها هادئة مثل السماء التي فوق رؤوسنا، يغمرها نور متجانس ونقي، وترتفع مثل قاعدة الـ «اكروبوليس»، التي تبدو وكأنها تحلّق فوق الأرض، وهي خانعة ومتدينة مثل هذا الصرح المشيد بفكرّة دينية؛ لكن الله تركه ينهار ليفسح المجال لأفكار أكثر إلهية! لا أشعر بالحزن هنا؛ فالروح خفيفة، مع أنها متأملة؛ فكري يعانق نظام الإرادة الإلهية، والأقدار الإنسانية؛ ويُعجب لأن الإنسان قد أعطي فرصة ليسمو ويرتفع إلى هذا الحدّ في الفنون وفي الحضارة المادية؛ ويفهم كيف أن الله قد كسر بعد ذلك هذا القالب البديع لفكر غير مكتمل؛ وأن وحدة الله قد اكتشفها «سقراط» هنا وفي هذا المكان بالذات، فسحبت الحياة من كل تلك الأديان التي خلفتّها تخيّلات الأزمنة الأولى؛ فلتتداعَ هذه المعابد فوق آلهتها: إن فكرة الإله الواحد التي ألقيت في فكر الإنسان هي أفضل من هذه المساكن الرخامية التي لا نعبد فيها إلا ظلّنا. إن هذا الفكر لا يحتاج إلى معابد بنتها يد الإنسان: فالطبيعة بأكملها هي المعبد الذي يتعبد فيه. كلما ازدادت الأديان روحانية كلما ذهبت المعابد: إن المسيحية نفسها التي بنت النمط القوطي لكي تحييه بنفحتها، تترك كنائسها الرائعة تتداعى شيئاً فشيئاً؛ إن آلاف التماثيل لأنصاف الآلهة تنزل بالتدريج عن قواعدها الأثيرية حول هذه الكاتدرائيات؛ وتتغير المسيحية كذلك وتزداد معابدها تجريداً وبساطة كلما تخلت هي نفسها عن خرافات عصورها المظلمة، فتلخّص بشكل أفضل الفكر العظيم الذي نشرته في الأرض، فكرة الله الواحد الذي أثبته العقل وعبدته الفضيلة.

****

زيارة الباشا

في ٢٠ آب مساء، ذهبت لأشكر «يوسف»، وهو بك «نيغروبون» (Négrepont) و«أثينا»؛ دخلت إلى باحة عربية؛ كان رواقا الطابقين الواسعين محمولين على أعمدة صغيرة من الرخام الأسود. وكانت بحرة فارغة تتوسط البهو؛ وتحيط به الإسطبلات من كل جانب. صعدت درجاً خشبيّاً اصطفت في أسفله عدة فرق من الفرسان، ثم أدخلوني غرفة البك. كان البك يتربع على الطريقة التركية، في زاوية ديوان عريض مغطى بالأقمشة الهندية، وفي صدر قاعة واسعة وغنية ومزخرفة بخشبيات مقسمة إلى مربعات (حجيرات) صغيرة رسمت عليها ورود ورقوش مذهبة: وكان رأسه بين يدي حلاقه، وهو شاب جميل يرتدي بزة عسكرية غنية للغاية، ويحمل على خصره أسلحة رائعة؛ وقد توزع ثمانية أو تسعة عبيد في وضعيات مختلفة في أرجاء الغرفة. واعتذر البك لأنني فاجأته في وقت حلاقته وطلب إلي الجلوس على الديوان على مقربة منه. جلست وبدأ الحديث. تحدثنا عن سبب رحلتي، وعن حالة اليونان، وعن الشروط الجديدة التي حددها مؤتمر «لندن»، وعن مفاوضات السيد «ستراتفورد كانينغ» (Stratford-Canning) التي انتهت، وكلها موضوعات يبدو أن البك كان يجهلها تماماً، وقد سألني عنها باهتمام بالغ. وبعد قليل اقترب عبد مني بخطوات مدروسة وهو ينظر إلى الأرض، وقد حمل أركيلة عالية مبسمها مصنوع من الكهرمان الأصفر وقصبتها مغطاة بالحرير المُجعّد. وعندما حسب بدقة في ذهنه، المسافة الدقيقة للنقطة التي يجب أن يضع فيها الأركيلة فوق الأرضية لتكون في وضعية تناسب فمي، تركها هناك؛ ثم سار بشكل دائري لكي لا يزعج توازنه، وجاء إلي بنصف استدارة، ووضع في يديّ

وهو ينحني، مبسم الكهرمان الذي أصبح في متناول فمي. انحنيت بدوري باتجاه الباشا الذي ردّ هو الآخر على تحيتي، وبدأنا التدخين. كان كلب سلوقي أبيض ذنبه وقوائمه صفراء اللون ينام تحت قدمي البك. أثنيت أمامه على جمال هذا الحيوان وسألته إذا كان كلب صيد. فأجاب بالنفي ولكنه قال إن ابنه الموجود حالياً في «نيغروبون» يحب هذه الرياضة بشغف؛ وأضاف أنه رآني أثناء مروري في شوارع «أثينا» مع كلب مماثل أبيض، ولكنه من فصيلة أصغر، وقد وجده جميلاً للغاية؛ وسألني إذا ما كنت أملك بضعة كلاب مثله، وقال إنه سيكون سعيداً لامتلاك حيوان مثله. فوعدته أن أرسل له واحداً بعد عودتي إلى وطني، عرفاناً مني بلطفه وكياسته التي أظهرها لي في «أثينا». ثم أحضر عبد آخر القهوة في كؤوس صغيرة جداً مصنوعة من الخزف الصيني، وموضوعة بدورها في شبكة دقيقة من خيوط الفضة المُذهّبة.

لقد حمل وجه هذا التركي الخصائص التي عرفتها فيما بعد عن كل وجوه المسلمين الذين قابلتهم في سوريا وفي تركيا: أي النبل، والعذوبة، وهذا الاستسلام الهادئ والمطمئن الذي يضفيه مبدأ القَدَرية على هؤلاء الرجال، والذي يمنحه الإيمانُ بالعناية الإلهية للمسيحيين الحقيقيين؛ إنها نفس العبادة تجاه الإرادة الإلهية: الأولى وقد ذهبت إلى حدّ العبثية والخطأ؛ والأخرى تعبير حزين وصادق عن شمولية ورحمة الحكمة التي ترأس كل مصير ارتأت أن تخلقه. إذا كان بوسع القناعة أن تصبح فضيلة، فإن القدرية أو بالأحرى الإيمان بالعناية الإلهية ستكون هي فضيلتي! إني أومن بالفعل الكامل، والفاعل دوماً، والحاضر أبداً، للإرادة الإلهية؛ وحده الشر يتعارض في داخلنا مع ما تعطيه الإرادة الإلهية دائماً من خير. ما إن ننظر جيداً حين يسوء قدرنا، أو يفسُد، أو ينحرف، حتى نرى أن ذلك ينتج دائماً بفعل إرادتنا، وهي إرادة بشرية، أي أنها فاسدة ومنحرفة؛ لو أننا تركنا الإرادة الطيبة الدائمة تتصرف وحدها لكنا جيدين دائماً وسعداء في أعماقنا: ولما وُجد الشر بيننا! إن تعاليم القرآن ما هي إلا

تعاليم المسيحية التي تغيرّت، ولكن هذا التغيير لم يفسدها. إن هذه العبادة مليئة بالفضائل؛ أحب هذا الشعب، لأنه شعب الصلاة!

٢٢ آب ١٨٣٢

قلق شديد على صحة ابنتي؛ زيارة حزينة لمعبد «جوبيتير الأولمبي» وللملعب الرياضي القديم. شربت من مياه نهر الـ «هيسوس» (Hissus) الموحل والملوث. وجدت فيه ماء لا يكاد يكفي لأبلل إصبعي: التصحّر، والجفاف، ولون الحديد الأحمر تسيطر على كل هذا الريف الأثيني. أين أنت يا ريف «روما»، ويا قبور عائلة الـ «سيبيون» (Scipions) المذهبة، ويا منهل «ايجيري» (Egérie) الأخضر القاتم! شتان، شتان! إن السماء في «روما» تتفوق على سماء الـ «اتيك» المشهورة!

٢٣ آب ١٨٣٢

رحلنا في الليل. شفق جميل تحت غابة الزيتون في منطقة الـ «بيريه»، ونحن في طريقنا إلى البحر.

كانت البارجة الحربية «لوجيني»، والقبطان «كونيو دورنانو» في انتظارنا، ثم رفعنا المرساة. ألقت بنا ريح شمالية جميلة بعد ثلاث ساعات أمام خليج «سونيوم» فرأينا الأعمدة الصفراء للمدينة ترسم في الأفق الأثر الحيّ الأزلي لكلمة الحكمة اليونانية، لأفلاطون الذي ربما أصبحت تلميذه لو أن المسيح لم يتكلم، ولم يحيا، ولم يتعذب، ولم يسامح وهو يلفظ أنفاسه.

يا لها من ليلة رهيبة قضيناها وسط الأنواء (les Cyclades). لقد خفّ الهواء في منتصف النهار؛ كان الإبحار جميلاً وهادئاً حتى المساء. وفي الليل، ثارت ريح هائجة بين جزيرة «ارماغوس» (Armagos) وجزيرة «ستامباليا» (Stampalia) .فأنّت السفينة أنيناً مؤلماً؛ وانهالت ضربات الموج الصماء على مؤخرة السفينة. فتمايلت وقذفت بنا تارة صوب موجة، وطوراً صوب موجة أخرى. قضيت الليل وأنا أعتني بالطفلة وأتنزه

على جسر السفينة. ليلة مؤلمة! كم من مرّة ارتجفت وأنا أفكر في أني راهنت بحيوات كثيرة على أمل أن أربح شيئاً واحداً! كم كنت سأفرح لو أن روحاً سماوية تحمل «جوليا» إلى تحت ظلال «سان بوان» (Saint-Point) الوادعة! إن حياتي التي انقضى نصفها قد ضاع نصف ثمنها بالنسبة إليّ؛ لكن هذه الحياة، التي هي حياتي أيضاً، والتي تلمع في عينيها الجميلتين، وتخفق في صدرها الجميل، هي أغلى عندي بمئة مرة من حياتي! ومن أجلها بشكل خاص أصلي بورع للروح التي ترفع الأمواج كي تحمي هذا المهد الذي سلمتها إياه بطيش. فاستجاب لصلواتي؛ وهدأت الأمواج، وانبلج الصبح، وبدأت الجزر تهرب خلفنا: ظهرت جزيرة «رودس» إلى اليمين، في أفق «آسيا» البعيد الضبابي؛ وظهرت أيضاً قمم ساحل «كارامانيا» (Caramanie) العالية والبيضاء كثلج جبال «الألب»، وكانت ترتفع بروعة فوق غيوم الليل الخافقة. ها هي «آسيا» إذن!

إن الانطباع الذي تتركه يفوق الانطباع الذي تخلفه آفاق اليونان: إذ شعرنا بهواء أشد عذوبة؛ ورأينا البحر والسماء يتلونان بزرقة أكثر هدوءاً وشحوباً؛ وارتسمت الطبيعة على شكل كتلة أشدّ مهابة؛ تنفست، وشعرت بدخولي منطقة أوسع وأكثر ارتفاعاً! إن «اليونان» بلد صغير، معذّب، ومسلوب؛ إنه هيكل قزم: وهذا هو هيكل عملاق! غابات سوداء كانت تلطّخ جوانب جبال «مارموريزا» (Marmoriza)، ورأينا في البعيد سيولاً بيضاء من الزبد وهي تسقط في أودية «كارامانيا» العميقة.

إن «رودس» تشبه باقة من الخضرة وسط الأمواج؛ وتنتصب مآذنها الخفيفة والرشيقة فوق غابات النخيل، والجمّيز، والدلب والتين؛ وهي تشد من بعيد بصر البحار إلى خلوات المقابر التركية العذبة، فرأينا المسلمين كل مساء ينامون فوق عشب قبور أصدقائهم، ويدخنون أو يتحادثون بهدوء، مثل الخفر الذين ينتظرون استبدال نوبتهم، ومثل الرجال المتراخين الذين يحبون الاستلقاء فوق أسرّتهم ويحاولون النوم قبل ساعة الراحة الأخيرة. وفي الساعة العاشرة صباحاً وجدت سفينتنا نفسها فجأة محاطة بخمس أو ست فرقاطات تركية تجول بأقصى سرعة أمام «رودس»: اقتربت إحداها

لتصل إلى مجال الصوت، وخاطبتنا بالفرنسية؛ لقد حيّونا بأدب، وألقينا المرساة بعد فترة قصيرة في خليج «رودس»، وسط ست وثلاثين بارجة حربية تابعة للقبطان الباشا، خالد باشا. كانت هناك بارجتان حربيتان فرنسيتان راسيتان على مقربة منّا، إحداهما بخارية تدعى «أبوالهول» (Sphinx) يقودها القبطان «سارلا» (Sarlat)، والأخرى حرّاقة تدعى «اكتيون» (Actéon) يقودها القبطان «فايان» (Vaillant) .جاء الضباط إلى سطح السفينة ليسألونا عن أخبار «أوروبا». وفي المساء شكرنا السيد «اورنانو» قائد سفينة «لوجيني»؛ لقد رحل مع الـ «اكتيون». وتابعنا إبحارنا وحيدين باتجاه «قبرص» و«سوريا».

قضينا يومين في «رودس» ونحن نستكشف هذه المدينة التركية الأولى: طابع الأسواق شرقي، الحوانيت العربية مزخرفة بالخشب المنحوت؛ منازل الفرسان، لا يزال كل بيت فيها يحتفظ فوق بابه بشعارات المنازل القديمة الفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية وهي لا تزال سليمة وبحالة جيدة تقريباً. تمتلك «رودس» حتى الآن بقايا تحصيناتها القديمة الجميلة: ونباتات آسيا الغنية تتوجها وتغطيها وتمنحها أناقة وجمالاً أكثر من تحصينات «مالطا»؛ إن النظام الذي قَبِل أن يُطرد من هذه المِلْكية الرائعة قد تلقى ضربة مميتة! يبدو أن السماء قد جعلت من هذه الجزيرة مركزاً متقدماً أمام آسيا: لو أن قوةً أوروبية سيطرت على هذه الجزيرة لجعلتها تصبح في آن واحد مفتاح الأرخبيل، و«اليونان»، و«ازمير»، والـ «دردانيل» (Dardanelles)، وبحر«مصر» وبحر «سوريا». لا أعرف في العالم كله موقعاً عسكرياً بحرياً أجمل من هذا الموقع، أو سماء أجمل من هذه السماء، أو أرضاً أكثر مرحاً أو أكثر خصوبة. لقد طبعها الأتراك بهذا الطابع الخامل والمتراخي الذي يحملونه في كل مكان: كل شيء موجود في نوع من الجمود ومن البؤس. لكن هذا الشعب الذي لا يخلق شيئاً، ولا يجدّد شيئاً، لا يكسر شيئاً بالمقابل ولا يهدم أي شيء: إنه على الأقل يترك الطبيعة تتصرف بحرية حوله؛ يحترم الأشجار حتى الموجودة منها في وسط الشوارع والمنازل التي يسكنها؛ أما حاجاته الأساسية والأولية فهي الماء والظل، والخرير الذي يدعو إلى النعاس، والرطوبة التي تثير الرغبات. وهكذا بمجرّد اقترابك، في أوروبا أو آسيا، من أرض يمتلكها

مسلمون، فإنك تعرفها من بعيد بسبب غطاء الخضرة الغني والمعتم الذي يخفق بأناقة فوقها. هناك أشجار لتجلس في ظلها، وبحرات متدفقة لتحلم وأنت تستمع لخريرها؛ وهناك صمت، ومساجد ذات مآذن خفيفة ترتفع في كل خطوة من قلب أرض مؤمنة: هذا كل ما يحتاجه هذا الشعب؛ إنه لا يخرج من هذا الخمول العذب والفلسفي إلا ليمتطي أحصنته في الصحراء، التي هي أول من خدم الإنسان، أو ليطير نحو الموت بلا وجل في سبيل نبيّه أو إلهه. لقد جعل مبدأُ القدرية هذا الشعبَ أشجع شعب في العالم؛ وعلى الرغم من أن الحياة خفيفة وجميلة بالنسبة إليه، إلا أن الحياة التي يعده بها القرآن، إذا ما قدّم حياته للدفاع عنه، هي مشتهاة أكثر أيضاً، وما عليه إلا القيام بجهد صغير ليندفع من هذا العالم إلى العالم السماوي الذي يراه أمامه مشرقاً بالجمال والراحة والحب! إنه دين الأبطال؛ لكن هذا الدين يخفت في إيمان المسلم، وتنطفئ البطولة مع الإيمان الذي هو مبدأها: كلما قلّ إيمان الشعوب بعقيدة أو بفكرة، كلما ماتت بشكل أقل طواعية وأقل نبلاً. ونتساءل في أوروبا: لماذا نموت إذا كانت الحياة أفضل من الموت، وإذا لم يكن هناك خلود لنكسبه حين نموت في سبيل واجب ما؟ وهكذا فإن الحروب سوف تقلّ وتنطفئ في أوروبا، إلى أن يشعلها إيمان بعقيدة ما، ينطق في قلب الإنسان بصوت أقوى من صوت غريزة الحياة الدنيئة.

وفي المساء رأينا وجوه نساء رائعات يجلسن على الشرفات في ضوء القمر. لهن عيون النساء الإيطاليات ولكنها أكثر عذوبة، وأكثر خجلاً، وفيها قدر أكبر من الحنان والحب؛ ولهن قامات النساء اليونانيات، ولكنها أكثر استدارة وليونة وحركاتها أكثر عذوبة ورشاقة. جباههن عريضة، متجانسة، بيضاء، مصقولة مثل أجمل نساء إنكلترا أو سويسرا؛ لكن خط الأنف المنتظم والمستقيم والعريض يضفي على ملامحهن عظمة أكبر ونبلاً أعرق. كان بمقدور النحاتين اليونانيين أن يكونوا أكثر كمالاً أيضاً لو أنهم أخذوا نماذجهم من وجوه نساء آسيا! كذلك من الممتع للرجل الأوروبي الذي اعتاد ملامح نساء أوروبا المتعبات وأشكالهن المرهقة والمتشنجة، وبالأخص نساء الصالونات، أن يرى أخيراً وجوهاً بسيطة إلى هذا الحدّ، ونقية إلى هذا الحدّ، وهادئة هدوء الرخام الذي يخرج من مقالعه، وجوهاً لا تعرف إلا تعبيراً واحداً، ألا وهو الراحة والحنو،

وتستطيع العين أن تقرأ فيها بسرعة وسهولة مثلما تقرأ الأحرف الكبيرة في طبعة كتاب رائعة وفخمة!

لا شك أن المجتمع والحضارة هما عدوّا الجمال الخارجي. فهما يضاعفان بشدة الانطباعات والعواطف؛ وبما أن الملامح تستقبل آثار كل ذلك وتحتفظ بها رغماً عنها، فإنها بدورها تتعقّد وتتبدّل؛ إذ تمتلك شيئاً مبهماً وغير واضح يُتْلف بساطتها وسحرها؛ إنها لغة تمتلك الكثير من المفردات التي لا تُسمعُ لأنها غنية جداً.

٢٧ آب ١٨٣٢

وعند الظهر أقلعنا من «رودس» ووصلنا إلى «قبرص» في أمسية رائعة. عيناي تلتفتان صوب «رودس» التي غاصت في البحر أخيراً. أتأسف على تلك الجزيرة الجميلة كما نأسف على تجلٍّ مضى ونريد أن نبعث فيه الحياة؛ كان بودي أن أبقى فيها، لو أنها كانت أقل بعداً عن العالم الحيّ الذي يجبرنا القدر والواجب على العيش فيه. يا للخلوة اللذيذة في سفوح الجبال العالية، وعلى تلك المدرّجات التي تظلّلها كل أنواع الأشجار الآسيوية! لقد عرضوا عليّ منزلاً رائعاً يمتلكه الباشا السابق، منزلاً تحيط به ثلاث حدائق واسعة وغنية تسبح في مناهل غزيرة، وتزدان بمظلات بهيجة. يطلبون ٤٦,٠٠٠ قرشاً ثمناً له، أي ما يعادل أربعة آلاف فرنك. يا لها من سعادة رخيصة الثمن!

٢٨ آب ١٨٣٢

البحر جميل، ولكنه ثقيل؛ لا توجد أية ريح؛ تأتي الأمواج الضخمة من الغرب وتتدحرج بعظمة تحت مؤخرة السفينة، وظلت طوال ثلاثة أيام وليال، تلقي بنا تارة على جنب وطوراً على الجنب الآخر. عذاب لا يحتمل لحركة لا فائدة منها! إنها تشبه دحرجة برميل الجحيم! وفي اليوم الرابع أبصرنا الرأس الشرقي لجزيرة «قبرص»؛ ومضينا

اليوم ونحن نحاذي سواحل الجزيرة؛ ثم ألقينا المرساة في خليج «لارنكا» (Larnaca) في صباح اليوم السادس.

لقد تعرّف السيد «بوتو» (Bottu)، وهو قنصل فرنسا في «قبرص»، على السفينة التي كان يعلم أننا على متنها. فأرسل إلينا أحد الأشخاص الذين يعملون في قنصليته ليدعونا للنزول عنده وقبول ضيافته التي لا يلزمه بها إلا تكرّمه ولطفه. قبلت الدعوة؛ ونزلنا عنده. كان استقبال السيد والسيدة «بوتو» ممتازاً وودّياً: وقد غمرنا السيدان «بيرتييه» (Perthier) و«غيلوا» (Guillois)، وهما ملحقان في القنصلية، بالرعاية نفسها؛ وقمنا بردّ الزيارات وبالاستقبالات، والهدايا، والقهوة، ونبيذ «قبرص»، وكلها أرسلها السيد «ماتيي» (Mathéi)، أحد أعيان قبرص.

٣١ آب

قضينا يومين في «قبرص» واستمتعنا بسحر الراحة بعد إبحار طويل وبرعاية الضيافة اللطيفة وغير المتوقعة؛ هذا ما كنت أفكر فيه وأنا في «قبرص»؛ ولكن هذا كل شيء. هذا البلد الذي وصفوه لي وكأنه واحة جزر البحر الأبيض المتوسط، يشبه تماماً كل جزر الأرخبيل الجرداء، والقاتمة والعارية؛ إنها هيكل إحدى الجزر المسحورة التي وضع فيها التاريخ القديم مشهد إحدى عباداته الأكثر شاعرية. صحيح أني لاستعجالي الوصول إلى آسيا، لم أزر إلا ببصري المشاهد البعيدة والجميلة التي يقال إن هذه الجزيرة تمتلئ بها؛ يجب علي في طريق العودة أن أقضي شهراً هنا لأجوب بعمق في جبال «قبرص».

الجزيرة خصبة في كل أجزائها: برتقال وزيتون وعنب وتين وكروم وقطن، كل شيء تنجح زراعته هنا حتى قصب السّكر. هذه الأرض الموعودة، هذه المملكة الجميلة بالنسبة إلى فارس صليبي أو إلى رفيق ل«بونابارت» (Bonaparte)، التي كانت تطعم مليوني نسمة، لم يبق فيها الآن إلا ثلاثون ألف يوناني وبعض الأتراك. لا شيء أسهل

من الاستيلاء على هذه المملَكة، يستطيع أي مغامر أن ينجح بذلك من غير جهد بواسطة حفنة من الجنود وبضعة آلاف من القروش: إن ذلك يستحق العناء، إذا كان هناك أمل بالمحافظة عليها. ولكن أوروبا التي تحتاج إلى المستعمرات بشدة تعارض فكرة الاستيلاء عليها؛ لأن غيرة القوى العظمى ستأتي لنجدة الأتراك، زارعة الشقاق في المستعمرة الجديدة، وهكذا يحظى المُستعمر بمصير يشبه مصير الملك «ثيودور» (Théodore). يا للأسف! إنه حلم جميل؛ ويحتاج إلى ثمانية أيام ليتحول إلى حقيقة.

في عرض البحر، بعد مغادرتنا جزيرة «قبرص»، في ٢ أيلول ١٨٣٢

أبحرنا بالأمس في منتصف الليل. صديقانا القبرصيان السيدان «بوتو» و«بيرتيه» أمضيا السهرة معنا على سطح السفينة، ولم يفارقانا حتى منتصف الليل. لقد حملنا معنا أقوى مشاعر العرفان للاستقبال الذي خصّنا به السيد والسيدة «بوتو». يا لقدر المسافر الفريد: إنه يزرع المشاعر والذكريات والأسف في كل مكان؛ ولا يترك شاطئاً بدون رغبة أو أملٍ بالعودة إليه وبدون أن يلتقي بأولئك الذين لم يتعرّف إليهم إلا منذ بضعة أيام فقط. عندما يصل يكون لا مبالياً بالأشياء التي يراها على الأرض وينقّل بصره فوقها؛ وعندما يرحل، يشعر أن عيوناً وقلوباً تتبعه من هذا الشاطئ الذي يهرب ويتباعد. فيثبت نظره فيه، ويترك فيه شيئاً من قلبه؛ ثم تحمله الريح باتجاه آفاق أخرى، حيث تتكرّر نفس المشاهد ونفس الانطباعات بالنسبة إليه. أن نسافر يعني أن نضاعف، بسبب الوصول والرحيل، وبسبب المتعة والوداع، الانطباعاتِ التي لا تمنحها أحداث الحياة المستقرّة إلا نادراً؛ ويعني أيضاً أننا نشعر مئة مرّة في العام بما نشعر به في الحياة العادية، أن نعرف وأن نحب ونفقد أشخاصاً رمتهم العناية الإلهية في طريقنا. إن الرحيل يشبه الموت، حين نترك تلك البلاد البعيدة التي لا يقود القدر إليها المسافرَ مرتين. أن نسافر، يعني أننا نختصر حياة طويلة إلى بضع سنين؛ إنه أحد أقوى التمارين التي يستطيع الإنسان أن يخضع قلبه وفكره لها. يجب أن يسافر الفيلسوف، ورجل السياسة، والشاعر كثيراً. إن تغيير الأفق الأخلاقي يعني تجديد الأفكار.

٣ أيلول ١٨٣٢ .

استيقظنا في عرض البحر. لم نعد نرى سواحل هذه الجزيرة البيضاء، ولا قمة جبل الـ «الأولمب» المستديرة. البحر هادئ مثل نهر كبير؛ وضباب كثيف وفضّي يغطي الأفق من كل صوب. كانت ريح كسولة ومتفاوتة الشدّة تأتي من حين لآخر لكي تموت في أشرعتنا العريضة. شمس حارقة تُشعل ألواح سطح الجسر، الذي كنّا نسقيه بالماء لكي نرطّبه. الكل مضطجع بصمت وبغير حراك على الحواجز أو فوق الحبال، وقد نضحت الجباه بالعرق. لقد أصبح الهواء نادراً حتى للتنفس؛ إنها ريح سموم حقيقية فوق البحر. يبدو أننا نستنشق مسبقاً انعكاسات رمل الصحراء الرطب والحارق، الذي ما زلنا نبعد عنه مسافة مئة وخمسين فرسخاً. هكذا كان النهار يمضي. لا نجد في أنفسنا القدرة على الكلام أو حتى على القراءة. كنت أفتح أحياناً الكتاب المقدس لأبحث فيه عن أشياء تتعلق بجبال «لبنان»، وهي القمم الأولى التي يجب أن تلفت أنظارنا. وقرأت قصة «هيرودوس» (Hérode) للمؤرخ «يوسيفوس» (Josèphe) .

٤ أيلول ١٨٣٢

غياب الريح هو هو، وحريق السماء لم يتوقف. إن البخار يتصاعد من البحر لشدة الحرارة، ومياه البحر الميتة مغطاة بضباب لا ترفعه أية رياح. كنّا نرقب على مدّ البصر التغضنات القليلة التي ترسمها بعض النسمات التائهة على السطح: رأينا إحداها تقترب من السفينة ببطء، وتعيد للبحر بعضاً من لونه الصارخ، وتنفخ أشرعتنا الكبيرة قليلاً: فطقطقت السفينة ورفعت بعض الزبد في مقدمتها. استرخت الصدور: إننا نقترب من الساحل الذي جاءت منه الريح. شعرنا ببعض الرطوبة تنزلق فوق جباهنا، وتحت خصل شعورنا الرطبة؛ ثم عاد كل شيء إلى الهدوء السابق والأتون المعتاد. إن الماء الذي نشربه فاتر؛ ولا أحد يشتهي الأكل. ليس بمقدور الإنسان أن يعيش طويلاً إذا استمرت الأوضاع على هذه الحال. لحسن الحظ ليس أمامنا إلا ستة أسابيع من هذا الحر الذي سوف ينتهي في منتصف تشرين الأول (أكتوبر).

٤ أيلول، في المساء

بين الساعة الخامسة والساعة الثامنة، هبت ريح باردة آتية من خليج «اسكندرون» (Alexandrette)، فجعلتنا نتقدم عدة فراسخ. لا بد أننا في منتصف الطريق بين «قبرص» وسواحل «سوريا»؛ قد نلمح السواحل غداً لدى استيقاظنا.

٥ أيلول ١٨٣٢

لقد سمعت عند استيقاظي الهمهمة الخفيفة التي تصدرها السفينة حين تتقدّم. أسرعت بالصعود إلى السطح لأرى السواحل: لكن لم نستطع بعد رؤية أي شيء. إن التيارات الكثيرة التي نصادفها في هذه الشواطئ يمكنها أن تُبعدنا عن توقعاتنا؛ ربما كنّا بمحاذاة شواطئ «ايدومي» (Idumée) المنخفضة أو شواطئ «مصر». لقد نفذ صبرنا جميعاً.

في التاريخ ذاته، في الساعة الثانية

لقد تعرّف قبطان السفينة إلى قمم جبال «لبنان». فناداني ليريني إياها؛ بحثت عنها بغير جدوى بين الضباب المشتعل الذي كان يشير إليه بإصبعه. لم أرَ إلا الضباب الشفيف الذي كانت الحرارة ترفعه إلى الأعلى، وفوقه بعض طبقات الغيوم ذات اللون الأبيض الكامد. لكنه أصرّ، فنظرت مرّة ثانية ولكن دون جدوى. ودلني جميع البحارة على لبنان وهم يبتسمون؛ ولم يفهم القبطان كيف أني لا أراه مثله. فقال لي «ولكن في أي مكان تبحث عنه فيه؟ إنك تنظر بعيداً جداً. إنه هنا قريب فوق رؤوسنا». وبالفعل رفعت رأسي إلى السماء ورأيت عندها قمة «صنين» (Sanin) البيضاء المذهبة وهي تحلق فوقنا في السماء. كان الضباب البحري يحجب عني قاعدته وجوانبه. فبدا رأسه وحده مشرقاً وهادئاً في زرقة السماء. إنها من أجمل وأعذب الانطباعات التي شعرت بها خلال أسفاري الطويلة. إنها الأرض التي كانت جميع أفكاري تتوق إليها في هذه اللحظة كرجل أو كمسافر؛ إنها الأرض المقدسة، إنها الأرض التي ذهبت بعيداً للبحث

فيها عن ذكريات الإنسانية البدائية؛ وهي أخيراً الأرض التي سأريح فيها، مع مناخ عذب، وتحت ظل أشجار البرتقال والنخيل، وعلى ضفاف سيول الثلج، وفوق قمم باردة وخضراء، أريح أغلى ما أملك في هذا العالم: زوجتي و«جوليا». لا أشك بأن قضاء عام أو عامين تحت هذه السماء الجميلة سوف يقوّي صحة «جوليا» التي باتت تشعرني بهواجس مشؤومة منذ ستة أشهر. إني أحيّي جبال آسيا هذه باعتبارها ملجأ قادها الله إليها لكي يشفيها؛ لقد ملأ قلبي فرحٌ سرّي وعميق؛ ولم يعد باستطاعتي أن أحوّل بصري عن جبال «لبنان».

تعشينا في ظل الخيمة المبسوطة فوق جسر السفينة. واستمرت الريح وازدادت شدتها بالتزامن مع غروب الشمس. كنا في كل لحظة نسرع إلى مقدمة السفينة لكي نقيس سرعتها عن طريق الضجة التي تصدرها وهي تمخر البحر؛ وفي النهاية أصبح الهواء بارداً، وارتفعت الأمواج، وبتنا نبحر بسرعة خمس عقد في الساعة؛ كانت سفوح الجبال تشق الضباب وتتقدّم أمامنا مثل رؤوس هوائية. وبدأنا نميّز الأودية العميقة والسوداء التي تنفتح على السواحل؛ كانت الأودية تبيضّ، ورؤوس الصخور تنتصب وتتمايز؛ وبدأت التلال الأولى، التي تنطلق من المناطق القريبة من البحر، بدأت بالاستدارة؛ ورحنا شيئاً فشيئاً نتعرّف على القرى المتناثرة على منحدرات التلال، وعلى بعض الأديار الكبيرة التي تكلّل مثل قصور قوطية، رؤوسَ الجبال القائمة بينها. كل شيء كنا نتعرف عليه بالنظر كان بمثابة فرح للقلب؛ لقد صعد الجميع إلى السطح. كل يدلّ جاره على أمر فاته ولم يلحظ وجوده؛ أحدهم قد رأى أرز «لبنان» مثل بقعة سوداء على جوانب الجبل، ورأى الآخر ما يشبه برج قلعة فوق قمم جبال «طرابلس» (Tripoli)؛ واعتقد البعض أنه رأى زبد الشلالات فوق منحدرات الأودية. وددنا لو كان باستطاعتنا ملامسة هذا الساحل المُنتظر والمُشتهى، قبل حلول الليل؛ وارتجفنا عندما فكرنا في أنّ الريح إذا هدت قبل وصولنا، ستجبر السفينة على النوم لعدّة أيام أخرى فوق هذه الأمواج التي عيل صبرنا فيها، أو أن ريحاً معاكسة قد تأتينا من

الساحل وتدفع بنا بعيداً إلى بحر «كاندي» (Candie) . بحر «سوريا» الذي هو خليج شاسع تحيط به جبال «لبنان» وجبال «طوروس»، هو خليج مخادع بالنسبة إلى البحارة؛ كل ما هو ليس عاصفة، هو هدوء أو تيّار؛ إن هذه التيارات تنتصر على السفن وتحرفها بعيداً عن مسارها؛ كذلك لا يوجد مرفأ على هذه الشواطئ؛ ويجب أن نرسو في خلجان خطيرة على مسافة بعيدة من الساحل؛ فهناك أمواج شبه مستمرة تحرث هذه الخلجان وتقطّع سلاسل المراسي: لا يمكننا أن نهدأ ونطمئنّ ونتأكد من وصولنا إلا بعد أن نطأ الأرض اليابسة. وهبط الليل سريعاً ونحن نستعيد تلك الأفكار، ونتأرجح بين الأمل والخوف، لقد هبط فجأة وليس ببطء الغسق وتدرجه كما يحصل عادة في مناخاتنا، وإنما على شكل ستارة نسدلها فوق السماء وفوق الأرض. وانطفأ كل شيء، وانطمس كل شيء على سفوح «لبنان» المعتمة، ولم نعد نرى إلا النجوم التي كانت تتأرجح بينها سواري مركبنا. وهدأت الريح أيضاً؛ ونام البحر؛ ونزل كل منّا إلى قمرته، متوجساً من الغد.

لم أنم؛ كانت أفكاري متوترة: كنت أسمع عبر ألواح الخشب غير الموصولة بشكل صحيح، والتي تفصلني عن غرفة «جوليا»، كنت أسمع نَفَس طفلتي النائمة، كان قلبي بأكمله يرتاح عندها. وفكرت أنني ربما في الغد سأنام بدوري وأنا أكثر اطمئناناً على تلك الحياة الغالية، والتي أشعر بالندم لأنني غامرت بها في البحر على هذا الشكل، وكان بإمكان عاصفة أن تقتلعها وهي في مقتبل العمر. ورجوت الله في قلبي أن يسامحني على طيشي هذا، وبألا يعاقبني لأني استسلمت له بشكل مبالغ فيه، وطلبت منه ما لم يكن لي الحق في طلبه. كنت أطمئن نفسي وأقول: إنها ملاك مرئي يحمي قدره الخاص وأقدارَنا في ذات الوقت. سوف تقبل السماء براءتها ونقاءها كفدية لنا، وسوف تقودنا، وتعيدنا سالمين بفضلها. وهكذا تكون قد رأت، وهي في أجمل مراحل الحياة، في هذا العمر الذي تمتزج فيه الانطباعات بنا حتى تغدو عناصر وجودنا بحدّ ذاته، رأت أجمل ما في الطبيعة، وما في الخلق؛ وستصبح ذكرياتُ طفولتها الأبنيةَ المدهشة، وروائع الفنون في «إيطاليا»، وستنطبع «أثينا» والـ «بارثينون» في مخيلتها

وكأنها مواقع من وطنها، وستصبح جزر الأرخبيل الجميلة، وجبل «طوروس»، وجبال «لبنان»، و«القدس»، والأهرامات، والصحراء، وخيام البدو، ونخيل «بلاد الرافدين» (Mésopotamie)، ستصبح كلها القصص التي سوف ترويها عندما يتقدم بها العمر. لقد منحها الله الجمال والبراءة والعبقرية وقلباً يتحول كل شيء فيه إلى عواطف كريمة وسامية؛ وقد أعطيتها أنا ما استطعت إضافته إلى تلك الهبات السماوية: منظر المشاهد الأكثر روعة وسحراً على وجه الأرض. أي كائن سوف تصبح وهي في سن العشرين! كل شيء في حياتها سوف يغدو سعادة وتُقىً وحباً وروائع! آه! من هو الجدير بأن يكمّلها بواسطة الحبّ! إني أبكي، وأصلي بحرارة وثقة، لأنه ليس بإمكاني أن أعرف شعوراً قوياً ومماثلاً في قلبي دون أن يمتد إلى اللانهاية، ويتحوّل إلى نشيد أو دعاء لما هو منتهى كل عواطفنا: إلى الله الذي يمنحنا العواطف ويمتصها كلها!

وعندما أوشكت على النوم، سمعت بعض الخطوات الحثيثة على السطح، وكأنها مناورة ما: اندهشت لأن الصمت كان يطبق منذ فترة طويلة، ولأن البحر لم يكن يعطي إلا ارتعاشات الأمواج التي تدل على أن السفينة لا زالت تسير. وبعد قليل سمعت صليل حلقات سلسلة المرساة وهي تنفصل بهدوء عن اسطوانتها؛ ثم أحسست بضربة قوية جعلت السفينة تهتز بأكملها عندما وصلت المرساة إلى قاع صلب، وعلقت أخيراً بالرمل أو بالعشب البحري. نهضت وفتحت نافذتي الضيقة. كنا قد وصلنا، ورسونا أمام «بيروت» (Bayruth)؛ ولمحت بعض الأنوار المنثورة فوق الساحل البعيد؛ وسمعت عواء الكلاب على الشاطئ. كانت هذه هي الضجة الأولى التي وصلتني من ساحل آسيا، وأسعدت قلبي. كنّا في منتصف الليل. مجّدت الله وغـرقت في نوم عميق وهادئ. لم يستيقظ أحد غيري على سطح المركب.

بيروت ٦ أيلول ١٨٣٢، الساعة التاسعة صباحاً

كنّا أمام بيروت، إحدى أكثر المدن كثافة على ساحل «سوريا»، كانت في الماضي تدعى «بيريت» (Beryte)، ثم أصبحت مستعمرة رومانية في عهد الإمبراطور «اوغسطوس» (Auguste) الذي لقبّها بـ«جوليا السعيدة» (Felix Julia). لقد أعطيت لها

صفة السعيدة بسبب خصوبة أرجائها، ومناخها الذي لا شبيه له، وعظمة موقعها. وتمتد المدينة فوق هضبة جميلة تنحدر بشكل لطيف باتجاه البحر؛ في حين تتقدم بعض الرؤوس وبعض الصخور داخل الأمواج لتحمل بعض التحصينات التركية التي تترك انطباعاً جميلاً؛ ويغلق الخليجَ لسانٌ من الأرض يحمي البحر من الرياح الشرقية. وتغطي هذا اللسان الترابي وكل الهضاب المجاورة نباتاتٌ غنية؛ وقد زرعت أشجار توت الحرير في كل مكان، وارتفعت فوق الجلول الاصطناعية، في حين كانت أشجار الخرّوب ذات الخضرة الداكنة والاستدارة المهيبة، وأشجار التين، والدلب والبرتقال والرمان والعديد من الأشجار أو الشجيرات الغريبة التي لا تنبت في مناخاتنا، كانت تنشر الشراع المتجانس لأوراقها المتنوعة، فوق كل أجزاء الساحل المجاور للبحر؛ وفي البعيد، على أول المنحدرات الجبلية رأينا غابات الزيتون وهي تلامس المشهد بأوراقها الرمادية المفضضة؛ وعلى بعد فرسخ تقريباً من المدينة، تمكنا من مشاهدة سلسلة جبال «لبنان» الشاهقة وهي تنتصب وتفتح شعابها العميقة التي يضيع فيها البصر وينأى في الظلمات البعيدة، لتصبّ فيها سيولها الواسعة التي غدت أنهراً؛ وتمضي في اتجاهات عديدة، يذهب بعضها باتجاه «صور» (Tyr) و«صيدا» (Sidon)، وبعضها الآخر باتجاه «طرابلس» و«اللاذقية» (Latakie)، وتشبه قممها المتفاوتة التي ضاعت بين الغيوم أو ابيضت بسبب انعكاس الشمس، تشبه جبال «الألب» في بلادنا التي يغطيها الثلج الأزلي.

وكان رصيف بحر «بيروت» الذي يغسله الموج بلا انقطاع ويغمره بالزبد في بعض الأحيان، كان مليئاً بجمهرة من العرب المزدانين ببهاء ثيابهم الساطعة وأسلحتهم. ورأينا هنا حركة ناشطة تشبه حركة الأرصفة في مدننا البحرية الكبرى؛ كانت عدة سفن أوروبية راسية في الخليج على مقربة منّا، والزوارق المحمّلة ببضائع «دمشق» و«بغداد» تذهب وتعود بلا توقف بين الساحل والسفن؛ وكانت منازل المدينة ترتفع وتتجمع بشكل فوضوي، وأسطح بعضها قد غدا بمثابة شرفات لبعضها الآخر. هذه

المنازل ذات السقوف المسطّحة، لبعضها درابزونات محزّزة، وهذه النوافذ المتعدّدة الأقواس، وهذه الدرفات المصنوعة من الخشب المطلي التي تُغلق بإحكام مثل حجاب للغيرة الشرقية، ورؤوس أشجار النخيل هذه التي تبدو وكأنها نبتت وسط الأحجار، والتي تعلو وترتفع فوق أسطح المنازل لتحمل بعض الخضرة لعيون النساء المسجونات في الحرملك، كل هذا كان يخطف بصرنا ويُنبئنا بالشرق: وسمعنا صرخات بدو الصحراء[1] الحادة وهم يتنازعون على الأرصفة، وأنين الجمال الحاد والحزين التي كانت تصرخ من الألم عندما تُثنى ركبها لكي يحمّل فوقها المزيد من الأثقال. لقد شغلنا هذا المشهد الجديد والآسر للعيون، حتى أننا لم نفكر بالنزول في وطننا الجديد. بينما كانت راية «فرنسا» تخفق» فوق قمة سارية موضوعة على سطح أحد منازل المدينة الأكثر ارتفاعاً، وبدت وكأنها تدعونا للذهاب وللاستراحة في ظلها، بعد إبحارنا الطويل والشاق.

لكن عددنا كان كبيراً ولدينا متاع كثير، لذلك لم نغامر بالذهاب قبل أن نتعرف على البلد وأن نختار منزلاً، إنْ استطعنا إيجاد منزل. تركت زوجتي و«جوليا» واثنين من أصحابي على ظهر السفينة، وطلبت أن يوضع الزورق في البحر لكي أذهب للاستكشاف.

وخلال دقائق معدودة قذفت بي إلى الرمل موجة جميلة مسطّحة وفضيّة، وحملني بعض الأعراب الذين كانت سيقانهم عارية، على أذرعهم إلى مدخل شارع معتم وسريع يقود إلى قنصلية «فرنسا». ولم يكن القنصل «غي» (Guys) الذي كنت أحمل له بعض الرسائل، والذي تعرّفت إليه سابقاً في «مرسيليا»، لم يكن قد وصل بعد. ووجدت مكانه السيد «جوريل» (Jorelle)، مدير القنصلية وترجمان «فرنسا» في «سورية»، وكان شاباً يُنبئ محيّاه الجميل والعطوف بحسن خصاله، وقد برّرتْ أفضالُه الكثيرة علينا خلال إقامتنا الطويلة في «سوريا» الانطباعَ الأول الذي تركه في نفوسنا. قدّم لنا جزءاً من بيت القنصلية لنسكن فيه مؤقتاً، ووعدنا أن يبحث لنا عن منزل في الضواحي لكي

١ - يطلق المؤلف اسم « الصحراء » في رحلته على أماكن هي قفار وبوادٍ وأماكن جرداء قاحلة، وينسب الناس إليها، ولكن اسم الصحراء بالمعنى الدقيق للكلمة لا ينطبق على كل ما يطلق هذا الاسم عليه. وليس في بلاد الشام صحراء سوى في سيناء وتدمر وهو لم يزرهما في رحلته هذه التي يتكلم عنها في هذا الجزء من كتابه « رحلة إلى الشرق». إن الحماد الصحراوي صفة ملائمة لبعض الأماكن التي يصفها.

نحط فيه رحالنا. وخلال ساعات قليلة، انتهت زوارق سفن عدّة وحمّالو «بيروت»، تحت إشراف عساكر القنصلية، من تفريغ عالمنا بأكمله ومؤننا المختلفة، وقبل حلول الظلام كنّا جميعاً على اليابسة، في مسكننا المؤقت، ننعم بفضل وعناية السيد والسيدة «جوريل». يا لها من لحظة ممتعة، فما إن تصل إلى بلد غريب بعد رحلة طويلة وعاصفة، حتى تنظر من فوق شرفة معطرة وضاحكة إلى البحر الذي تركته أخيراً لمدة طويلة، وإلى السفينة التي حملتك عبر العواصف، والتي ما زالت ترقص في الخليج الهائج، وإلى الريف الظليل والهادئ الذي يحيط بك، وإلى كل مشاهد الحياة فوق اليابسة التي تبدو جميلة جداً بعد أن حُرِمْتَ منها لمدة طويلة: إن في انطباعات الساعات الأولى والأيام الأولى التي تقضيها على اليابسة بعد الإبحار ما يشبه الشعور بالنقاهة والتعافي بعد مرض طويل. لقد استمتعنا بسهرتنا كلها. إن السيدة «جوريل» هي شابة صغيرة وامرأة رائعة ولدت في «حلب» (Alep)، واحتفظت بزيّ النساء العربيات الغنيّ والنبيل، أي العِجار، والسترة المطرزة، والخنجر في الخصر. لم نتوقف عن تأمل زيّها الرائع الذي كان يُظهر بشكل أكبر أيضاً جمالها الشرقي.

وفي المساء قدموا لنا عشاء على الطريقة الأوروبية، ونحن نجلس في صالة تطل نوافذها العريضة والمشبّكة على المرفأ، إذ كان فيها هواء المساء المنعش يُداعب لهبَ الشموع. فتحت صندوقاً من نبيذ فرنسا وأضفته إلى وليمة الضيافة هذه، وقضينا الأمسية بالحديث عن البلدين؛ البلد الذي تركناه والبلد الذي نسعى إليه: وسؤال عن «فرنسا» كان يجيب على سؤال عن «آسيا». كانت «جوليا» تلعب بضفائر بعض النساء العربيات الطويلة، أو بضفائر بعض الإماء الزنجيات، اللواتي جئن لزيارتنا؛ كانت تتأمل هذه الملابس الجديدة بالنسبة لها؛ وكانت أمها تضفر خصل شعرها الطويلة الشقراء وهي تقلّد طريقة نساء «بيروت»، أو تلف شالها فوق رأسها على شكل عِجار. لم أر في حياتي وجهاً أكثر روعة، من بين كل وجوه النساء اللاتي اختزنتهن ذاكرتي، من وجه «جوليا» وهي تعتمر العِجار الحلبي، مع القلنسوة المطرزة بالذهب التي تتدلى منها

حبال اللؤلؤ وقطع النقود الذهبية، وضفائر شعرها المتدلية على كتفيها، وهذه النظرة المندهشة التي تحطها على أمها وعليّ، وهذه الابتسامة التي كأنها تقول لنا: «استمتعوا، وانظروا كم أنا جميلة أيضاً»

بعد أن تحدثنا مئة مرة عن الوطن، وذكرنا أسماء كل الأماكن والأشخاص التي تجمعنا بهم ذكريات مشتركة، وبعد أن أعطونا كل المعلومات التي يمكننا الإفادة منها، بدأنا بالحديث عن الشعر: رجتني السيدة «جوريل» أن أسمعها بعض مقاطع من الشعر الفرنسي، وترجمت لنا بدورها بعض قصائد من الشعر الحلبي. قلت لها إن الطبيعة تكون دائماً أكثر شعرية من الشعراء، وإنها الآن في هذه اللحظة، وفي هذه الساعة، وفي هذا الموقع الجميل، وفي ضوء القمر هذا، وهي ترتدي هذا الزيّ الغريب، وتمسك هذا الغليون الشرقي بيد والخنجر ذا القبضة المرصّعة بالألماس في خصرها، إنها أجمل من كل المواضيع الشعرية التي استعرضناها في ذاكرتنا. وبما أنها أجابتني بأنه يسعدها الحصول على تذكار من رحلتنا لترسله إلى والدها في «حلب»، في بضعة أبيات مكتوبة من أجلها، انسحبت لبرهة من الزمن وعدتُ إليها بالأبيات التالية التي لا قيمة لها إلا بسبب المكان الذي كُتبتْ فيه وشعور العرفان الذي ألهمني إياها:

يا أنت التي تطلبين مني بخور الشعر!
أنتِ، فتاة الشرق، التي ولدت في هواء الصحراء!
زهرة حدائق حلب التي اختارها البلبل
لكي يضنَى ويصدح فوق كأسه المفتوح!

أنعطي الرائحة للعطر الذي تفوح منه؟
أنعلق الثمار على أغصان أشجار البرتقال؟
هل نعير الفجر الشرقي أنواره،
أو النجوم الذهبية لسماء الليالي اللامعة؟

لا، لم يعد شِعر هنا! ولكن إذا أحبّ بصرُكِ
أعظم السحر الذي يتخلله الشِّعر،
فانحني فوق ماء البحرة وتأملي نفسك:
لا يملك الشِّعر صورة تضاهي جمالك!

حين يسمح المساء، في القاعة ذات الأقواس المشبكة،
لنور القمر ونسيم البحر بالدخول،
تجلسين على الحصيرة التدمرية المزخرفة،
حيث تتصاعد الأمواج الـمُرّة من القهوة الساخنة ؛

عندما تقرّب يدُك من شفتيك نصف المطبقتين
عودَ الياسمين المغطى بخيوط الذهب،
فإن فمك عندما يمتص عطر الزهور الناعم،
يجعل الماء الدافئ يقرقر في قاع النرجيلة؛

عندما تخفق الغيمة الـمُجنّحة وتُداعبك
تبدأ الأبخرة المعطرة تُسْكِرك،
لتسبح من أجلنا، أحلام الحب والشباب البعيدة
في الهواء الذي نتنفسه من بعدك

عندما تصفين هرولة البدوي التائه
الخاضع لحاجز الزبد بين يديك الطفوليتين،
وعندما يضاهي برقُ نظرةِ عينيك المائل،
البرقَ الحارق والعذب بعينه المنتصرة

عندما يسند ذراعُك المستديرُ مثل مقبض الجرة
جبينَك الرائع المستوي فوق مرفقك،
وعندما ينعكس فجأة من مصباحك الليلي شعاعًا
يروح خنجرك يلمع بأنوارِ ماساتِه؛

لا يوجد في الأصوات التي تهمس بها اللغة،
ولا في الجبين الحالم لشاعر مثلي،
ولا في التنهدات الناعمة لروح نضرة وصافية،
لا يوجد شيء أكثر شاعرية ونضارة منك!

لقد اجتزت العمر السعيد الذي تتفتح فيه زهرة الحياة،
زهرة الحب، التي تعطّر القلب؛
ولم يعد الإعجاب بالجمال في روحي المفتونة،
إلا شعاعًا بلا حرارة.

إن قلبي الفاتر لم يعد يحب إلا القيثارة.
ولكن كم من الأبيات كنت سأكتب وأنا في السادسة عشرة من العمر
من أجل إحدى قوارير الأبخرة العطرة
التي تنشرها في الهواء شفتك اللاهية؛

أو لكي أثبّت بإصبعي الشكلَ الساحر
الذي رسمته يد خفية بحواف قاتمة،
عندما ألقى شعاع الليل الذي داعبك نهارُه،
ألقى بظلك على الجدار وهو يرسمه!

لم نستطع الانسحاب من أول مشاهد هذه الحياة العربية. سنرتاح أخيراً، وللمرة الأولى بعد ثلاثة أشهر، في أسرّة، وسوف ننام دون أن نخاف الأمواج. كانت ريح عنيفة تجأر فوق البحر، وتهزّ جدران الشرفة العالية التي ننام تحتها، وتجعلنا نستمتع بشكل أكبر أيضاً بقيمة هذه الإقامة الهادئة بعد ذلك الاهتزاز الطويل. فكرت في أن «جوليا» وزوجتي أصبحتا أخيراً، ولمدة طويلة، بمنأى عن الأخطار، وكنت في سهري أعدّ كل السبل لتأمين إقامة مريحة لهما، بينما أتابع بنفسي مسار رحلتي في هذه الأماكن التي وطأتها قدمي أخيراً.

٧ أيلول ١٨٣٢

استيقظت مع طلوع النهار، وفتحت المصراع المصنوع من خشب الأرز، وهو الوسيلة الوحيدة لإغلاق الغرفة التي كنّا ننام فيها في هذا المناخ الجميل. ألقيت نظرتي الأولى على البحر وعلى سلسلة الشواطئ اللامعة التي تمتد وتستدير من «بيروت» إلى رأس الـ «بترون» (Batroun)، في منتصف الطريق إلى «طرابلس».

لم أعرف شعوراً مماثلاً وأنا أنظر إلى مشهد الجبال. إن لجبال «لبنان» طابعاً مميزاً لم أره لا في جبال «الألب» ولا في جبال «طوروس»: إنه مزيج من سموّ الخطوط والقمم المهيب، بالإضافة إلى جمال التفاصيل وتنوّع الألوان؛ إنها جبال وقورة مثل اسمها، إنها جبال «الألب» تحت سماء «آسيا»، جبال تغوص قممها الهوائية في السكينة العميقة للروعة الأبدية. يبدو وكأن الشمس ترتاح إلى الأبد فوق زوايا قممها المذهّبة؛ و يمتزج البياض الناصع الذي تطبعها به، بالثلوج التي تستمر، حتى منتصف الصيف، فوق القمم الأكثر ارتفاعاً. وتمتد الجبال أمام العين مسافة ستين فرسخاً على الأقل، ابتداءً من رأس «صيدا» (Saïde) التي كانت تدعى «صيدون» (Sidon) في الماضي، وحتى «اللاذقية» تقريباً، حيث تبدأ عندها بالانحدار لتسمح لجبل «طوروس» أن يلقي بجذوره في سهول «الإسكندرون».

وأحياناً ترتفع سلسلة جبال «لبنان» بشكل عمودي تقريباً فوق البحر، مع قراها وأديارها الكبيرة المعلّقة فوق مهاويها؛ وتبعد أحياناً أخرى عن الساحل فتشكّل خلجاناً كبيرة، تترك آثاراً خضراء أو حدوداً من الرمل الذهبي الذي يفصلها عن الأمواج. وتجتاز الأشرعة تلك الخلجان وتنزل في المراسي الكثيرة التي تزيّن الشاطئ. ويتراوح لون البحر فيها من الأشد زرقة إلى الأشد قتامة؛ وعلى الرغم من وجود الرياح الشديدة، فإن الموجة الكبيرة والعريضة تتدحرج في ثنيات واسعة فوق الرمال وتعكس صورة الجبال مثل مرآة صافية. وتلقي هذه الأمواج في كل أنحاء الشاطئ، همهمة صمّاء، ومتجانسة، ومبهمة ترتفع حتى تصل إلى ظلال الكروم وأشجار الخرنوب، وتملأ الريف حياة وأصواتاً. وينخفض ساحل «بيروت» على يساري؛ وهو عبارة عن سلسلة من الألسنة الترابية المغطاة بالخضرة والتي يفصلها عن الموج خط من الصخور ومن الأرصفة الصخرية التي تغطي أغلبها أوابد قديمة. وعلى بعد مسافة قريبة، رأينا تلالاً من الرمل الأحمر الذي يشبه رمل صحراء «مصر»، تتقدّم مثل رأس، وهي نقطة علام بالنسبة إلى البحارة؛ وفي أعلى الرأس شاهدنا قمماً عريضة على شكل مظلة مؤلفة من أشجار الصنوبر الإيطالي، ينزلق البصر بين جذوعها المبعثرة ويذهب ليرتاح على سفوح سلسلة جبلية أخرى من جبال «لبنان»، حتى يصل إلى رأس عالٍ متقدّم في البحر يحمل فوقه مدينة «صور» (Tyr).

وعندما نظرت إلى الجهة المقابلة للبحر، رأيت مآذن المساجد العالية مثل أعمدة متفرّقة، وهي تنتصب في هواء الصباح الأزرق والمتموج؛ ورأيت الحصون العربية التي تسيطر على المدينة، والتي تسمح جدرانها المتشققة بنمو غابة من النباتات المتسلقة، والتين البرّي، والمنثور؛ ثم رأيت حزّيات الدفاع البيضوية في الأسوار؛ ثم قمم الأرياف المسطحة والمزروعة بأشجار التوت؛ ورأيت هنا وهناك السطوح المستوية وجدران منازل الريف البيضاء أو أكواخ الفلاحين السوريين؛ وأخيراً في الأفق البعيد، رأيت مروج هضاب «بيروت» المستديرة التي تحمل كل المباني الجميلة، والأديار اليونانية، والأديار

المارونية، والمساجد أو مزارات الأولياء، وكانت مغطاة بالأوراق الخضراء وبالمزروعات مثل أكثر هضاب «غرونوبل» (Grenoble) أو «شامبيري» (Chambéry) خصوبةً. وكان «لبنان» خلفية لكل هذه المشاهد: «لبنان» الذي يأخذ ألف استدارة، ويتجمع في كتل هائلة، ويلقي بظلاله الكبيرة أو يغطي بثلوجه اللامعة العالية مشاهد هذا الأفق بأكملها.

التاريخ نفسه

قضيت النهار بأكمله وأنا أتجول في ضواحي «بيروت»، للبحث عن مكان مريح أتخذ منه منزلاً لي.

استأجرت خمسة منازل تشكل مجموعة واحدة، وتتصل في ما بينها بأدراج خشبية وأروقة وفتحات. ويتألف كل منزل هنا من قبو يستخدم كمطبخ، ومن غرفة تنام فيها العائلة بأكملها مهما كان عدد أفرادها. إن المنزل الحقيقي في مناخ كهذا، هو السطح الذي يُبنى ليكون شرفة. وهنا تقضي النساء والأطفال معظم أيامهم، ولياليهم في أغلب الأحيان. ويبني العربي أمام المنزل، بين جذوع بعض أشجار التوت، موقداً بثلاثة أحجار؛ وهنا تحضّر له زوجته الطعام. ويلقون بحصيرة من القش فوق عصا تمتد من الجدار حتى أغصان الشجرة. وتحت هذا الملجأ تجري الحياة المنزلية بأكملها. تقضي النساء والفتيات نهارهن وهن جالسات القرفصاء ومنهمكات في تسريح وتجديل شعورهن الطويلة، وتنظيف مناديلهن، ونسج حريرهن، وإطعام دجاجاتهن، أو في اللعب والحديث مع بعضهن، كما تفعل الفتيات صباح الأحد في قرانا في وسط «فرنسا»، حيث يتجمّعن أمام أبواب الأكواخ.

التاريخ نفسه، مساءً

مرّ النهار بأكمله في تفريغ السفينة وحمل متاع مخيمنا من المدينة إلى منزلنا الريفي. سيحصل كل واحد منّا على غرفته الخاصة. بينما يمتد حول المنازل الخمسة المجتمعة، حقل واسع من أشجار البرتقال والتوت، فيسمح لكل منّا بالسير قليلاً أمام

بابه، ويعطيه بعض الظلّ ليتنفّس. اشتريت حصراً مصرية وبسطاً دمشقية لكي تكون لنا بمثابة أسرة وأرائك. ووجدت نجارين عربا نشيطين وأذكياء جداً وقد بدأوا بالعمل ليصنعوا لنا النوافذ والأبواب؛ وسنذهب هذا المساء للنوم في مسكننا الجديد.

٨ أيلول ١٨٣٢

لا أجمل من الاستيقاظ بعد ليلتنا الأولى في منزلنا. طلبنا إحضار الفطور إلى أوسع شرفاتنا، وتعرفنا بأبصارنا على كل المناطق المحيطة بنا.

كان المنزل على بعد عشر دقائق من المدينة. ولنصل إليه علينا المرور في دروب تظللها أشجار الصبار العملاقة التي تصل ثمارها الشائكة إلى رؤوس المارّين. ثم نسير بمحاذاة بعض القناطر القديمة وبرج مربع عملاق بناه «فخر الدين» (Fakardin) أمير الطائفة الدرزية: وهو يستخدم اليوم كبرج مراقبة لعدة كتائب من جيش «ابراهيم باشا» (Ibrahim Pacha)، ومن هنا تتم مراقبة الريف بأكمله. نمرّ بعد ذلك من بين جذوع أشجار التوت لنصل إلى مجموعة من البيوت المنخفضة التي يحيط بها بستان ليمون وبرتقال. إن هذه البيوت غير منتظمة، والبيت الذي في الوسط يرتفع مثل برج مربّع، ويرتفع على شكل هرم جميل فوق البيوت الأخرى. وتتصل كل سطوح هذه البيوت بواسطة بعض الدرجات الخشبية، وتشكّل مجموعة ملائمة جداً للضيوف الذين قضوا أياماً عديدة بين سطحي سفينة تجارية.

و يتقدّم البحر في الأرض على بعد مئة خطوة منّا، وعندما نراه من هنا، من فوق رؤوس أشجار الليمون الخضراء وأشجار الصبّار، يبدو لنا مثل بحيرة داخلية جميلة، أو نهراً واسعاً لا نبصر إلا جزءاً منه. وترسو فيه بعض المراكب العربية، وتتأرجح بتراخ فوق الأمواج الخفيفة. وإذا صعدنا إلى الشرفة العلوية تتحوّل هذه البحيرة الجميلة إلى خليج واسع، يسدّ أحد أطرافه قصر «بيروت» العربي، بينما تُغلق طرفه الآخر سلسلة الجبال التي تنحدر باتجاه «طرابلس» مشكّلة جداراً هائلاً وقاتماً. لكن

الأفق يتسع أمامنا بشكل أكبر: فيبدأ بالركض فوق حقل من الحقول المزروعة بشكل رائع وجميل والمحفوفة بالأشجار التي تحجب التراب تماماً، وتتوزع هنا وهناك بعض المنازل التي تشبه منزلنا، وترتفع أسطحها مثل أشرعة بيضاء فوق محيط من الخضرة؛ ثم يعود الأفق فيضيق بين هضبة مرتفعة وجميلة تحمل فوق قمّتها ديراً يونانياً يظهر بجدرانه البيضاء وقبابه الزرقاء؛ وعلى ارتفاع أكبر، تحلق بعض قمم أشجار الصفصاف فوق قباب الدير نفسه. وتنحدر الهضبة بواسطة جلول تدعمها جدران من الأحجار، وتحمل على سفوحها غابات من أشجار الزيتون والتوت. ويأتي البحر ليبلل آخر المدرجات السفلية؛ ويبتعد بعد ذلك، ليبدأ في البعيد سهل آخر بالاستدارة، ثم ينحفر ليسمح لنهر قد جرى طويلاً بين غابات البلوط الخضراء، بأن يصب في الخليج الذي اصفرّت مياهه على الجوانب. ولا ينتهي هذا السهل إلا على سفوح الجبال الذهبية. إن هذه الجبال لا ترتفع دفعة واحدة؛ بل تبدأ بهضاب كبيرة تشبه كتلاً ضخمة، بعضها مستدير وبعضها مربّع تقريباً؛ وتغطي بعض النباتات قمم هذه الهضاب، وكل واحدة منها تحمل ديراً أو قرية تعكس ضوء الشمس وتشدّ إليها الأبصار. ويلمع القسم الأسفل من الهضاب مثل الذهب: إنها جدار من الحجر الرملي الأصفر الذي كسّرته الزلازل، وكل قطعة منه تعكس النور وتُرسله. وفوق هذه الجبال الأولى تمتد مرتفعات «لبنان»؛ هناك هضاب تبلغ فرسخاً أو فرسخين: هضاب متفاوتة، محفورة، مثلومة، تتخللها السيول، ومجاري السيول العميقة، والشعاب المعتمة التي يضيع البصر فيها. ثم تعود الجبال العالية للانتصاب بشكل عمودي تقريباً بعد هذه الهضاب؛ ورأينا أحياناً بعض الخمائل السوداء الجميلة المكونة من أشجار الأرز والصنوبر، وبعض القرى المجهولة التي تبدو وكأنها تميل فوق الهاوية. وفوق أكثر قمم السلسلة الثانية حدّة، لمحنا أشجاراً باسقة شكّلت ضفيرة نادرة فوق رأس أصلع. وشاهدنا من هنا قممها المسننة والمتفاوتة الارتفاع، والتي تشبه الحزّيات الموجودة على رؤوس القلاع.

ويرتفع «لبنان» الحقيقي أخيراً خلف هذه السلسـلة الثانية؛ ونستطيع أن نميّز إذا ما كانت السفوح شديدة أو خفيفة الانحدار، وإذا ما كانت عارية أو مغطاة بالنباتات: لكن المسافة كبيرة جداً. وتمتزج هذه السفوح، لشفافية الهواء، بالهواء نفسه التي يبدو وكأنها جزء منه: فلا نرى في الجو إلا انعكاسات نور الشمس الذي يلفّها، وقممها المشتعلة التي تمتزج بغيوم الصباح القانية، والتي تحوم مثل جزر نائية في أمواج السماء.

فإذا نزلت أبصارنا من أفق الجبال المهيب، فإنها لا تجد محطاً لها إلا فوق باقات النخيل العظيمة التي زرعت هنا وهناك في الريف وبالقرب من المنازل العربية، وفوق التموجات الخضراء لرؤوس أشجار الصنوبر التي زرعت على شكل باقات صغيرة في السهل أو على سفوح الهضاب، أو على سياج التين الهندي، أو بعض النباتات اللحمية الأخرى التي تتدلى أوراقها مثل زخرفات حجرية، وفوق الجدران الاستنادية التي تحمل الشرفات. إن هذه الجدران نفسها بنبات الحزار المُزهر، وباللبلاب الأرضي، والكرمة البرّية، والنباتات البصلية ذات الأزهار المتنوعة الألوان، والعناقيد المتنوعة الأشكال والتي نكاد لا نميزها عن الحجارة التي بُنيت منها هذه الجدران، ما هي إلا أسوار من الخضرة والورود.

وأخيراً على مقربة منّا منزلان أو ثلاثة منازل شبيهة بمنزلنا، مغطاة تقريباً بقبة من أشجار البرتقال المزهرة والمثمرة، والتي تمنحنا المشاهد الحيّة والبديعة التي هي حياة كل المشاهد الطبيعية. كان بعض الرجال العرب يدخنون وهم جالسون فوق الحصر على أسطح المنازل. وتنحني بعض النسوة من النوافذ لرؤيتنا أثناء مرورنا، ثم يختبئن عندما يرين أننا ننظر إليهن. وتحت شرفتنا نفسها، عائلتان عربيتان؛ الآباء والإخوة والنساء والأطفال، يتناولون الطعام تحت شجرة دلب صغيرة أمام عتبة منزلهم؛ وعلى بعد خطوات من هنا، تحت شجرة أخرى فتاتان سوريتان فائقتا الجمال، ترتديان ملابسهما في الهواء الطلق، وتزينان شعورهما بالأزهار البيضاء والحمراء. وكان

لإحداهما شعرٌ طويل وكثيف يغطي جسمها بالكامل، مثلما تغطي أغصان شجرة الصفصاف جذع الشجرة من كل النواحي: وعندما كانت تحرك شعرها الغزير كنّا نرى فقط جبهتها الجميلة وعينيها المشرقتين بالسعادة البسيطة واللتين كانتا تخترقان للحظة هذا الحجاب الطبيعي. وبدا أنها تستمتع بإعجابنا بها؛ فألقيت لها بحفنة من الغوازي، وهي قطع نقدية صغيرة من الذهب تصنع منها النساء السوريات الأطواق والأساور بعد أن يجمعنها بواسطة خيط من الحرير. جمعت الفتاة راحتيها ورفعتهما فوق رأسها لتشكرني ثم دخلت إلى الغرفة المنخفضة لتري الغوازي لأمها وأختها.

١٢ أيلول ١٨٣٢

كان «حبيب بربارة» (Habib-Barbara)، وهو رومي سوري يسكن في «بيروت»، ويقيم بالقرب منّا، يتولى مهمة الترجمة بالنسبة لنا. لقد عمل كترجمان في قنصليات فرنسية عدة، وهو يتكلم الفرنسية والإيطالية؛ إنه من أشد الرجال الذين التقيتهم في أسفاري لطفاً وذكاءً: ولولا مساعدته ومساعدة السيد «جوريل» لعانينا الكثير من المشاق في إقامتنا في «سوريا». لقد زودنا بالعديد من الخدم، بعضهم من الروم وبعضهم من العرب؛ اشتريت في البداية ستة خيول عربية غير أصيلة، ووضعتها كما يفعل أهل البلد في الهواء الطلق، في حقل أمام الباب، وقد رُبطت أقدامها في حلقات حديدية، وثُبتت في وتد مزروع في الأرض. ثم نصبت خيمة بالقرب من الخيول من أجل السائسين. وهؤلاء الرجال هم لطفاء وأذكياء؛ أما بالنسبة إلى الحيوانات فقد باتت بعد يومين تعرفنا وتشم رائحتنا مثل الكلاب. لقد قدّمنا «حبيب بربارة» إلى زوجته وابنته التي سوف تتزوج بعد ذلك بعدّة أيام ودعانا إلى عرسها. كنا نتشوق لمشاهدة عرس سوري، فقبلنا الدعوة وبدأت «جوليا» بتحضير هداياها إلى الخطيبة. أعطيتها ساعة ذهبية أحضرتها على سبيل الاحتياط من أجل مناسبات كهذه؛ وأضافت إليها سلسلة من اللؤلؤ. امتطينا الخيول لنتعرف على أنحاء «بيروت»: كان حصان السيّدة «جوريل» حصاناً عربياً رائعاً؛ سرجه من المخمل الأزرق المزيّن بالفضة؛ مع حزام من نفس

المعدن المنقوش، يخفق مثل الضفائر ويجلجل فوق صدر هذا الحيوان الجميل. لقد باعني السيد «جوريل» أحد أحصنته كي تركبه زوجتي؛ وأوصيت أن تُصنع لي سروج وألجمة من أجل أربعة عشر حصاناً.

على بعد نصف فرسخ من المدينة، من جهة الشرق، زرع الأمير «فخر الدين» غابة من الصنوبر فوق هضبة رملية تمتد من البحر إلى سهل «بغداد»، وهي قرية عربية جميلة في سفح «لبنان»؛ ويقال إن الأمير قد زرع هذه الغابة ليصنع سوراً يقابل تلال الرمل الأحمر الهائلة التي ترتفع بالقرب من هنا والتي تهدّد بابتلاع «بيروت» ومزروعاتها الغنية. لقد غدت الغابة بديعة: وتراوحت جذوع الأشجار من ستين إلى ثمانين قدماً دفعة واحدة، وهي تمد من شجرة إلى أخرى رؤوسها العريضة والثابتة، وتغمر بالظل منطقة واسعة؛ وتنزلق تحت جذوع أشجار الصنوبر دروبٌ رملية، وتقدّم المسار الأكثر نعومة أمام أقدام الخيل. ورأينا من بين أعمدة جذوع الصنوبر كثبان الرمال البيضاء والحمراء التي تحجب البحر من جهة؛ ومن الجهة الأخرى رأينا سهل «بغداد» ومجرى النهر في هذا السهل، وشاهدنا جزءاً من الخليج يشبه بحيرة صغيرة، لأنه محاط بالحقول بشكل كامل، ولمحنا الاثنتي عشرة أو الخمس عشرة قرية عربية المتناثرة فوق آخر سفوح «لبنان»، وأخيراً رأينا مجموعات «لبنان» نفسه التي تصنع ستار هذا المشهد. إن النور واضح جداً، والهواء نقي لدرجة أننا على ارتفاع عدّة فراسخ، ميّزنا أشكال أشجار الأرز والخرّوب فوق الجبال، أو أجنحة النسور الكبيرة التي تسبح في محيط الأثير دون أن تحرّك أجنحتها. لا شك في أن غابة الصنوبر هذه هي أجمل موقع رأيته في حياتي. السماء، والجبال، والثلوج، وأفق البحر الأزرق، وأفق صحراء الرمل الأحمر والجنائزي؛ ومجاري الأنهار المتعرّجة؛ ورؤوس السرو المعزولة؛ وعناقيد النخيل المتفرقة في الأرياف؛ وجمال منظر الأكواخ المغطاة بأشجار البرتقال والكرمة التي تسقط فوق أسطحها؛ وأشكال الأديار المارونية العالية والقاسية، وهي تشكّل بقعاً من الظل أو من الضوء فوق سفوح «لبنان» المتعرّجة؛ وقوافل الجمال

المحملة ببضائع «دمشق» وهي تمرّ بصمت بين جذوع الأشجار؛ وثلة من اليهود الفقراء الذين يركبون الحمير وكل واحد منهم يحمل طفلين في كل ذراع؛ ونساء مجلّلات بمناديل بيضاء يمتطين أحصنة تسير على وقع الطبل والزمر وحولهن جمهرة من الأطفال الذين يرتدون الأقمشة الحمراء المطرزة بالذهب ويرقصون أمام الأحصنة؛ وبعض الفرسان العرب وهم يؤدون سباق الجريد من حولنا على صهوات خيول تكاد عروفها تلامس الأرض؛ ومجموعات من الأتراك أمام قهوة مبنية من أوراق الأشجار وهم يدخنون الغلايين أو يؤدون الصلاة، وعلى مسافة ليست ببعيدة تمتد هضاب الصحراء الرملية إلى ما لا نهاية، وتتشح بالذهب تحت أشعة شمس المساء، حيث يرفع الهواء غيوماً من الغبار المشتعل؛ وأخيراً، همهمة البحر الصماء التي تمتزج بأصوات الريح الموسيقية في رؤوس أشجار الصنوبر، وغناء آلاف العصافير المجهولة؛ كل هذا يقدّم لعين وفكر الشخص المارّ أعظم وألطف وأتعس مزيج استطاع أن يُسْكِرَ روحه في يوم من الأيام: إنه موقع أحلامي، وسوف أعود إليه كل يوم.

١٦ أيلول ١٨٣٢

لقد قضينا كل هذه الأيام في متعة المعرفة العامة التي يجب أن نتحلى بها في ما يخص الناس والعادات والأماكن والتفاصيل الطريفة التي نصادفها أثناء إقامتنا في بلد غريب تماماً عنّا. لقد أصبحت منازلنا الخمسة بمساعدة أصدقائنا والعمال العرب، أصبحت تشبه فيلا إيطالية، مثل تلك التي سكنّاها بمتعة في جبال «لوك» (Lucques) أو على سواحل «ليفورنو» (Livourne)، في الأزمنة الماضية. كان لكل منّا غرفته الخاصة، وغرفة استقبال تليها شرفة مزينة بالأزهار وهي مركز الاجتماع. وضعنا فيها أرائك (دواوين)؛ ورتبنا مكتبتنا التي كانت على ظهر السفينة فوق بعض الألواح: لقد دهنت زوجتي و«جوليا» الجدران المزينة باللوحات، ووضعتا فوق طاولة مصنوعة من خشب الأرز كتبهما وحاجاتهما الضرورية، وكل تلك الأشياء الصغيرة التي تزين بها النساء، في «لندن» و«باريس»، طاولات المرمر والزان؛ وهنا كنّا نجتمع في ساعات

النهار المحرقة، لأن صالوننا في المساء كان في الهواء الطلق، على الشرفة، وهنا كنّا نستقبل جميع الأوروبيين الذين يحملون تجارتهم إلى «دمشق» والذين كانت «بيروت» بالنسبة إليهم بمثابة مكتب ثابت في هذا البلد الجميل. لقد جاء الحاكم المصري الذي يمثّل «إبراهيم باشا» لزيارتنا وقدم لنا بلطف ومودّة، تفوقان ما نراه في أوروبا، حمايته ومساعدته أثناء إقامتنا وخلال الرحلات التي نزمع القيام بها.(١) فدعوته لتناول العشاء معنا هذا المساء: إنه رجل لا يسيء إلى أي اجتماع مهما كان نوعه وفي أي مكان كان. لقد كان جندياً قديماً لدى باشا «مصر»، ولقد احتفظ لمعلمه ولـ «إبراهيم» بشكل خاص، بهذا التفاني الأعمى والمؤمن بالقدر الذي أتذكر أني رأيت مثيله لدى جنرالات الإمبراطور؛ لكنْ كان لهذا الإخلاص التركي شيء مؤثر وأكثر نبلاً، لأنه يتعلق بمشاعر دينية، وليس بمصلحة شخصية. إن «إبراهيم باشا»، هو القدر، وهو كل شيء بالنسبة إلى ضباطه، أما «نابوليون» فلم يكن يمثّل إلا المجد والطموح بالنسبة لرجاله. لقد شرب بمتعة نبيذ منطقة الـ «شامبانيا»، وشاركنا في كل تصرفاتنا كما لو أنه لم يعرف غيرها في يوم من الأيام، وقضينا الوقت بعد العشاء في التدخين وتناول القهوة التي قدمت مرات عديدة. وسلمته رسالة إلى «إبراهيم باشا» أعلمه فيها بوصول مسافر أوروبي إلى البلد الخاضع لإمرته، وأطلب فيها الحماية التي نتوقعها من رجل يحارب في سبيل الحضارة الأوروبية. لقد مرّ «إبراهيم» من هنا مع جنوده قبل ذلك بوقت قليل، وهو الآن قرب «حمص» (Homs)، وهي مدينة كبيرة تقع بين «حلب» و«دمشق»، في الصحراء؛ لقد ترك بعض فرق جيشه في «سوريا»؛ إن المدن الكبيرة مثل «بيروت» و«صيدا» و«يافا» (Jaffa) و«عكا» (Acre) و«طرابلس» يحتلها، بالاتفاق مع «إبراهيم»، الأمير «بشير» (Beschir)، أو أمير الدروز الأكبر، الذي يحكم «لبنان». إن هذا الأمير لم يقاوم

---

١ - كانت فرنسا تساعد محمد علي باشا ضد الباب العالي في ما عرف بالمسألة المصرية، وقد جاءت رحلة لامارتين متزامنة مع تقدم جيوش إبراهيم باشا بن محمد علي في سورية وهجومها على جيش السلطان محمود الثاني، وحقق إبراهيم نصراً في معركة قونية «١٢ ديسمبر ١٨٣٢» وفتح ذلك النصر الطريق أمامه إلى استانبول.

«إبراهيم»؛ لقد تخلى عن الدفاع عن الأتراك ظاهرياً على الأقل، بعد احتلال «إبراهيم» لمدينة «عكا»، وقد دمج قواته مع قوات الباشا. ولو خسر «إبراهيم باشا» في «حمص» لاستطاع الأمير «بشير» أن يحول دون انسحابه وأن يقضي على الفلول المصرية. إن هذا الأمير الذكي المحارب يحكم جبل «لبنان» منذ أربعين عاماً. لقد جمع في شعب واحد الدروز والمتاولة والموارنة والسوريين والبدو العرب[1] الذين يعيشون جميعاً تحت إمرته: وله أبناء محاربون مثله، أرسلهم ليحكموا المدن التي عهد إليه «إبراهيم» بها؛ ويعسكر أحد أبنائه على بعد ربع ميل من هنا، في السهل المجاور لجبال «لبنان»، مع خمسمائة أو ستمائة فارس عربي. يجب أن نزوره: لقد أرسل خبراً يعبّر عن ترحيبه بنا.

لقد حكى لي رجل عربي اليوم قصة دخول «إبراهيم» إلى مدينة «بيروت». كان «إبراهيم» على بعد مسافة قريبة من الباب، وكان عليه أن يجتاز طريقاً محفوراً على شكل خندق ومغطى بالجذور المتسلقة والشجيرات المتشابكة، وإذ بثعبان هائل يخرج من بين الأدغال ويتقدّم ببطء وهو يزحف فوق الرمل حتى وصل أمام قدمي حصان «إبراهيم»؛ فخاف الحصان وشبّ؛ فأسرع بعض العبيد الذين كانوا يتبعون الباشا سيراً على الأقدام، ليقتلوا الثعبان: لكن «إبراهيم» أبعدهم بحركة من يده، واستل سيفه وقطع رأس الحيوان الزاحف المنتصب أمامه، ثم داس على أجزائه بقدمي حصانه: فشهقت الجموع بصرخة إعجاب، وتابع إبراهيم طريقه وقد ارتسمت البسمة فوق شفتيه مبتهجاً بهذه المناسبة التي هي بشير النصر المحتوم بالنسبة للعرب. إن هذا الشعب لا ينظر إلى أية حادثة من حوادث الحياة، أو إلى أية ظاهرة طبيعية دون أن يربطها بتأويل نبوي أو أخلاقي: هل هو التأثير الغامض لهذه اللغة الأولى التي هي أكثر كمالاً مما يطمح إليه الناس، تلك اللغة التي تتحدث الطبيعة فيها بكل عناصرها؟ أم هو خيال خصب يبحث بين الأشياء عن صلة ما لا يستطيع الإنسان استيعابها؟ لست أدري، لكنني أميل للتفسير الأول: لا تمتلك الإنسانية غرائز لا مبرر لها، ولا هدف

١ - كل من أشار إليهم هم عرب، سوريون من بلاد الشام أو سورية الطبيعية.

لها ولا سبب؛ إن غريزة التنبؤ قد أقلقت كل العصور وكل الشعوب، وخاصة لدى الشعوب البدائية؛ لقد وُجدت العرافة إذن، أو بإمكانها أن تُوجد؛ لكنها لغة أضاع الإنسان مفتاحها عندما خرج من مكانته العالية، من جنة عدن التي احتفظت جميع الشعوب بإرث مبهم عنها: ها هي الطبيعة إذن تخاطب فكر الإنسان بصوت أعلى وأوضح؛ ويتصور الإنسان العلاقة الخفية لكل الظواهر الطبيعية، ويتصور ترابطها الذي يمكن أن يقوده إلى إدراك الحقائق أو الأحداث المستقبلية، لأن الحاضر هو دائماً البزرة المولدة والصائبة للمستقبل؛ ينبغي علينا فقط أن نراه وأن نفهمه.

١٧ أيلول ١٨٣٢

يتكرر نمط الحياة نفسه. يمضي النهار بزيارة واستقبال العرب والفرنسيين، وباكتشاف الأنحاء الجميلة القريبة من مكان خلوتنا. لقد وجدنا الكثير من اللطف والطيبة لدى القناصلة الأوروبيين الموجودين في «سوريا»، والذين دفعتهم ظروف الحرب إلى التجمع في «بيروت». لقد ساعدنا قنصل «سردينيا» (Sardaigne)، السيد «بيانكو» (Bianco)؛ وقنصل «النمسا»، السيد «لوريلا» (Laurella)؛ وقنصلا «إنكلترا» السيدان «فارن» (Farren) و «ابوست» (Abost) على الاحتكاك بشكل سريع بكل العرب الذين باستطاعتهم مساعدتنا في مشاريع سفرنا في المناطق الداخلية. من المستحيل أن يجد المرء استقبالاً وحسن ضيافة أفضل مما وجدنا هنا. لقد سكن بعض هؤلاء السادة في «سورية» لسنوات عديدة، ولهم علاقات مع العائلات العربية في «دمشق»، و«القدس» و«حلب»، وهم بدورهم على علاقة مع شيوخ العرب البدو في الصحارى التي سوف نجتازها. وهكذا شكّلنا مسبقاً سلسلة من التوصيات، وعلاقات الضيافة على مختلف الخطوط التي يمكن أن تقودنا إلى «بغداد».

لقد زوّدني السيد «جوريل» بترجمان ممتاز وهو السيد «مازويير» (Mazoyer)، وهو شاب من أصل فرنسي، وُلد ونشأ في «سورية»، وهو ضليع جداً باللغة الفصحى وبمختلف اللهجات المحلية للمناطق التي سوف نجتازها. إنه يسكن الآن

في بيتي، وقد أوكلت إليه مهمة الإشراف على كل الجزء العربي في بيتي. إن هذا الجزء العربي من البيت يتألف من طبّاخ حلبيّ اسمه «أبوالياس» (Aboulias)، ومن شاب سوريّ من أهل البلد يدعى «الياس» كان في خدمة القناصلة، وهو يفهم بعض الشيء اللغة الإيطالية واللغة الفرنسية؛ ومن شابة سورية تتكلم الفرنسية أيضاً ومهمتها أن تقوم بدور المترجمة للنساء: وأخيراً من خمسة أو ستة سائسين يونانيين وعرب وسوريين من مختلف مناطق «سوريا»، ومهمتهم العناية بخيولنا، ونصب الخيام، ومواكبتنا في رحلاتنا.

إن حكاية طباخنا العربي فريدة للغاية ولا يمكن نسيانها أبداً.

لقد كان مسيحياً شاباً وذكياً؛ وقد أقام في «حلب» تجارة صغيرة للأقمشة المحلية التي كان يبيعها بنفسه، على ظهر حماره، لقبائل البدو الرُحّل الذين كانوا يحطون رحالهم في الشتاء في السهول المحيطة بـ «أنطاكية» (Antioche) . لقد كانت تجارته مزدهرة ولكنه كان قلقاً لأنه كان يعتبر كافراً، لذلك قرّر أن يشارك مسلماً من سكان «حلب». فتحسنت أحوال تجارته ووجد نفسه بعد عدة سنوات أحد التجار الأكثر مصداقية في البلاد. لكنه وقع في عشق صبية يونانية – سورية؛ ورفضوا إعطاءه إياها إلا بشرط أن يغادر «حلب» ويأتي ليستقر في ضواحي «صيدا»، حيث تسكن عائلة خطيبته الجميلة. كان عليه إذن أن ينهي ثروته: ونشب نزاع بين الشريكين حول اقتسام الأرباح المشتركة. فنصب التاجر المسلم فخاً لـ «أبوالياس» المسكين: فوضع له بالمرصاد شهوداً مجهولين سمعوه في إحدى مشاحناته مع شريكه وهو يجدّف على «النبي محمد» وهي جريمة تستوجب الموت بالنسبة إلى غير المسلم. فاقتيد «أبوالياس» إلى الباشا، وحُكم عليه بالشنق. وتم تنفيذ الحكم، لكن الحبل انقطع وسقط «أبوالياس» المسكين على قاعدة المشنقة، وترك في ساحة الإعدام بعدما ظن الجميع أنه مات. إلا أن أهل خطيبته الذين حصلوا على أمر من الباشا يسمح لهم بأخذ جثته ودفنها بحسب عادات دينهم، لاحظوا حين أخذوا الجثة إلى منزلهم أن «أبوالياس» لا يزال على قيد

الحياة، فأنعشوه وأخفوه في قبو لعدة أيام، ودفنوا تابوتاً فارغاً لكي لا يثيروا شبهة الأتراك. لكن هؤلاء علموا بأمر الخدعة بطريقة ما، فأوقف «أبوالياس» من جديد بينما كان يحاول الهرب ليلاً من أحد أبواب المدينة. فقادوه إلى الباشا، وقصّ عليه حكاية إنقاذه التي لم يكن له يد فيها. فخيّره الباشا، بحسب نص قرآني كان في مصلحة المتهم، خيّره بين الشنق مرّة ثانية وبين أن يصبح تركياً مسلماً. فاختار الحل الثاني، ومارس شعائر الإسلام لفترة من الزمن. وبعد أن أصبحت مغامرته في طيّ النسيان، وتمّ التأكد تماماً من تغيير دينه، استطاع أن يجد طريقة للهروب من «حلب» وأبحر إلى جزيرة «قبرص» وهناك عاد مسيحيّاً مرة أخرى. وتزوج من المرأة التي يحب، وأصبح في حماية الفرنسيين، وعاد للظهور، دون خوف، في «سورية» من جديد، وعاود عمله كتاجر جوال بين الدروز والموارنة والعرب. إنه الرجل المناسب لتجوالنا بين الأصقاع. كانت موهبته كطباخ تنحصر في إشعال الموقد وسط الحقول بواسطة الشجيرات الشائكة أو روث الجمال الجاف، وفي تعليق قِدْر من النحاس فوق قضيبين خشبيين متصالبين في نهايتيهما، ويغلي بعض الأرز مع الدجاج أو بعض قطع لحم الضأن الموضوعة في هذا القِدر. وكان أيضاً يسخّن بعض قطع الحصى المستديرة في نار الموقد، فإذا سخنت وأصبحت حمراء تقريباً، كان يغلفها بعجينة قد حضرّها من طحين الشعير، وكان هذا هو خبزنا.

١٩ أيلول ١٨٣٢

لقد دُعيت اليوم زوجتي و«جوليا»، إلى بيت زوجة وابنة زعيم عربي من الجوار، لقضاء النهار في الحمّام: إنها تسلية نساء الشرق فيما بينهن. ويُعلن مسبقاً عن يوم الحمّام قبل أسبوعين من تاريخه، كما يعلن في أوروبا موعد حفلة راقصة. وإليكم وصف هذه الاحتفالية، كما أخبرتنا بها زوجتي في المساء.

إن الحمامات هي أماكن عامة يُحظَر على الرجال الاقتراب منها حتى ساعة معينة، لكي تستعملها النساء، ويمكن أن تستخدم النهار بطوله عندما يتعلق الأمر

بحمّام العروس، كما كان هو الحال في ذلك اليوم. تُنار قاعات الحمام بضوء خفيف يأتي من قبب ذات زجاج ملوّن: وهي مرصوفة بالرخام المضلّع والمختلف الألوان والمشغول بفن كبير. وقد غطيت الجدران كذلك بالرخام والفسيفساء، أو نُحتت على شكل زخارف ناتئة أو أعمدة عربية صغيرة. وتتدرج هذه القاعات بحسب درجة الحرارة: فتكون القاعات الأولى بدرجة الحرارة المحيطة، وتكون التي تليها فاترة، ثم تزداد الحرارة ارتفاعاً حتى نصل إلى الأخيرة، حيث يمتلئ الهواء ببخار الماء المغلي تقريباً، والمتصاعد من الأحواض والذي يملأ الجو بحرارته الخانقة. وبشكل عام لا يوجد حوض محفور في وسط القاعة، وإنما صنابير تظل مفتوحة وتسكب فوق الأرضية الرخامية نصف بوصة من الماء تقريباً. ثم تذهب هذه المياه عبر المصارف وتُجدّد باستمرار. إن ما ندعوه حماماً في الشرق لا يعني التغطيس بشكل كامل، وإنما رشّ متتابع بالمياه الساخنة إلى حدّ ما، والشعور بالبخار على سطح الجلد.

لقد دعيتْ إلى الحمام في ذلك اليوم مئتا امرأة من المدينة ومن الضواحي؛ وجاءت كل منهن وهي متلفعة بقطعة القماش الأبيض الواسع التي تغطي بشكل كامل الزي الرائع الذي ترتديه النساء عندما يخرجن. وكنّ جميعهن برفقة إمائهن السود أو خادماتهن الحرّات؛ وحسب وصولهن تجمعن في مجموعات، وجلسن فوق الحصر والوسائد المجهزة في البهو الأول؛ وكانت المرافقات ينزعن عنهن غطاءهن فيظهرن في كل جمال ترف ثيابهن وحليهن. إن هذه الثياب متنوعة جداً في ألوان القماش وعدد وبريق المجوهرات، ولكنها لا شكل لها من حيث تفصيل الملابس.

إنها عبارة عن بنطال فيه ثنيات عريضة مصنوع من الساتان المقلّم، ومربوط على الخصر بحزام من القماش الحريري الأحمر، ويغلق على مستوى الكاحل بخلخال من الذهب أو الفضة؛ وفوقه ثوب مقصّب، مفتوح من الأمام، ومعقود تحت الصدر، وهو يكشف عنه؛ والأكمام مزمومة تحت الإبط ثم تنفتح من المرفق إلى المعصم؛ وهي تسمح بمرور قميص من الحرير الشفاف الذي يغطي الصدر. وكن يرتدين فوق هذا الثوب

سترة من المخمل ذي الألوان الفاقعة، والمبطنة بفرو القاقوم أو السمّور، ومطرزة بالذهب فوق كل علامات الخياطة فيها؛ والأكمام مفتوحة كذلك.

وينقسم الشعر فوق الرأس، وينسدل قسم منه فوق الرقبة، ويجدل الباقي في ضفائر تصل حتى الأقدام، وتزداد استطالته بضفائر من الحرير الأسود التي تشبه الشعر. ويتدلى من نهاية هذه الضفائر جدائل صغيرة من الذهب أو من الفضة، وبسبب ثقلها تتمايل الضفائر على طول القامة. وبالإضافة إلى ذلك تتزين رؤوس النساء بسلاسل صغيرة من اللؤلؤ وقطع العملة الذهبية المنظومة بواسطة ورود طبيعية، وكل ذلك ممزوج وموزّع بسخاء غير معقول: كما لو أننا سكبنا بشكل عشوائي علبة حلي فوق هذه الشعور اللامعة والعبقة بالحلي والورود. إن هذا البذخ البدائي ذو تأثير بديع على وجوه أولئك الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين عاماً. وترتدي بعض النساء أيضاً فوق قمة رؤوسهن قبعة من الذهب المضلّع على شكل كأس مقلوب؛ تخرج من وسطها بلوطة من الذهب تعلق عليها خصلة من اللآلئ التي تخفق خلف الرأس.

السيقان عارية وتنتعل الأقدام بوابيج من الجلد الأصفر تجرها النساء أثناء سيرهن.

الأذرع مغطاة بأساور من الذهب والفضة واللآلئ، والصدور مكسوة بعدة عقود تشكل جديلة من الذهب أو اللؤلؤ فوق الثديين المكشوفين.

وعندما اجتمعت النساء بالكامل، عُزفت موسيقى صاخبة: وبدأت نساء لا يغطي القسم الأعلى من أجسادهن سوى قطعة من القماش الأحمر الشفاف، بدأن بإصدار زغاريد عالية وشرعن في العزف على المزمار والطبل. ولم تتوقف هذه الموسيقى طوال النهار، وكانت تضفي على مشهد المتعة والعيد هذا طابعاً من الفوضى والهياج.

وعندما ظهرت الخطيبة بصحبة والدتها وصديقاتها الشابات، وهي ترتدي زيّاً رائعاً بحيث إن رقبتها وذراعيها وصدرها قد اختفت بالكامل تحت حبال من النقود الذهبية واللآلئ، انقضّت عليها المستحمات وجردنها من ملابسها قطعة قطعة. وفي هذه

الأثناء كانت النساء قد تعرّت بالكامل بمساعدة إمائهن، وابتدأت حينها مختلف طقوس الحمام. وكان الانتقال من قاعة إلى أخرى يتم دائماً على أنغام الموسيقا ذاتها، مصحوبة على الدوام بالطقوس والعبارات الغريبة؛ وكان الاستحمام بالبخار، ثم استحمام الوضوء، ثم صُب الماء المعطر والصابونيّ على أجساد النساء، وفي النهاية بدأت الألعاب، وقامت النساء جميعاً بالحركات والصيحات المختلفة التي تقوم بها عادة زمرة من الطلبة الذين يقادون للاستحمام في ماء النهر، فكن يتراشقن بالمياه، ويضعن رؤوس بعضهن تحت الماء، ويرمين بالماء على الوجوه، وكانت الموسيقى تزداد حدة وصراخاً في كل مرة تثير فيها هذه الألعاب الطفولية قهقهة تلك الشابات العربيات. وخرجن أخيراً من الحمام؛ وبدأت الإماء والوصيفات من جديد بجدل شعور سيداتهن المبللة، وعقدن القلادات والأساور، وساعدن في ارتداء الأثواب الحريرية والسترات المخملية، وفرشن الوسائد والحصر في الحمامات التي جففت أرضيتها، وأخرجن من السلال ومن صرر الحرير الأطعمة التي تم تحضيرها: إنها أنواع مختلفة من الحلويات والمربيات التي يشتهر بها العرب والأتراك؛ والمثلجات بالفاكهة، وماء الزهر، وكل الأشربة المثلجة التي يتناولها الشرقيّون في كل أوقات النهار. وتم كذلك تقديم الغلايين والنراجيل للنساء الأكبر سناً؛ وملأت غيمة من الدخان عطرت الجوّ وجعلته ضبابياً؛ وكانت القهوة تقدم باستمرار في فناجين صغيرة موضوعة داخل آنية مفرّغة مصنوعة من خيوط الذهب والفضة، وانتعشت الأحاديث؛ ثم جاءت الراقصات وأدّين على وقع هذه الأنغام ذاتها، الرقصات المصرية، وحركات الدوران الشرقية الرتيبة. ومرّ النهار بطوله على هذا النحو، وحين هبط الليل قاد موكب النساء العروسَ إلى بيت والدتها. وتقام احتفالية الحمام هذه عادة قبل الزواج بعدة أيام[1].

٢٠ أيلول ١٨٣٢

بعد أن انتهت مرحلة التحضيرات بدأتُ بتجهيز قافلة من أجل السفر داخل «سوريا» و«فلسطين». فاشتريت أربعة عشر حصاناً عربياً، بعضها من «لبنان» والبعض

١ - واضح أن المؤلف استقى هذا الوصف من إحدى النساء، قد تكون المكلفة بالترجمة أو تكون إحدى النساء الأجنبيات المقيمات في الشرق.

الآخر من «حلب» ومن الصحراء؛ وأوصيت بصنع خروج وألجمة على طريقة أهل البلد: غنية ومزخرفة بذؤابات من الحرير ومن خيوط الذهب والفضة. إن العرب يكنون لك الاحترام بسبب مظاهر الترف التي تبديها: يجب أن تبهرهم لكي تثير مخيلتهم ولكي تسافر بكل أمان بين قبائلهم. طلبت أن تجهّز أسلحتنا، واشتريت أسلحة جميلة لكي يتسلح عساكرنا الـ «كافاس» (Cavas) .والـ «كافاس» هم الرجال الأتراك الذين حلّوا محل الإنكشارية الذين كان الباب العالي فيما مضى يخصصهم للسفراء وللمسافرين الذين يود حمايتهم: إنهم ضباط وقضاة في ذات الوقت؛ وهم يعادلون فرق الدرك الموجودة في الدول الأوروبية. وكل قنصل يتبعه واحد أو اثنان منهم، ويسافرون معه على ظهور الخيل، ويعلنون عن وصوله في المدن التي يجتازونها؛ ويذهبون لإخطار الشيخ، أو الباشا، أو الحاكم؛ فيفرغون ويهيئون منزلاً له في المدينة أو القرية التي يطيب له الإقامة فيها؛ وهم يحرسون بحضورهم وبسلطتهم كل قافلة يوكلون بها؛ إنهم يرتدون بزات رائعة إلى حدّ ما، بحسب ثروة أو أهمية الشخص الذي يوظفهم. إن السفراء والقناصلة الأجانب هم الوحيدون الذين لهم الحق بهم؛ لكن بفضل تكرّم السيد «جوريل» وأفضال حاكم «بيروت» المصري، مُنحتُ عدّة عناصر منهم. سأترك بعضهم في البيت لخدمة زوجتي و«جوليا»، ولحمايتهما حين تريدان الخروج، وسأصطحب أصغرهم سناً وأكثرهم ذكاء وشجاعة ليسير على رأس موكبنا. إن هؤلاء الرجال هم لطفاء وخدومون ويقظون ولا يطلبون أكثر من الحصول على أسلحة جميلة وخيول أصيلة وبزات أنيقة؛ وهم يعيشون مثل بقية العرب، على خبز الشعير والفواكه؛ وينامون في العراء؛ تحت أشجار التوت في البساتين، أو في خيمة أنصبها لهم بالقرب من أماكن تواجد الخيول.

إن قنصل «سردينيا»، السيد «بيانكو»، الذي كنّا نراه يومياً وكأنه صديق قديم، قد سهّل لنا كل الترتيبات الداخلية التي سوف تضمن حماية زوجتي وطفلتي أثناء غيابي، وتساهم كذلك في ضمان أمننا أثناء السفر. اشتريت عدّة خيام، وأعارني هو أجمل خيمة عنده.

٢٢ أيلول ١٨٣٢

لقد أخّرت حرارة أيلول الخانقة رحيلنا بضعة أيام. فكنا نقضي الأيام باستقبال وبزيارة كل جيراننا، اليونانيين، والعرب، والموارنة، وبإقامة العلاقات التي سوف تجعل إقامتنا طيبة وممتعة. لا يمكن أن نجد في أي مكان في أوروبا الحفاوة التي لقيناها هنا:إن هذه الشعوب التي اعتادت رؤية الأجانب الوافدين إلى بلدهم، والذين يأتون بغرض التجارة ويقيمون علاقات هدفها المنفعة والمصلحة، لا تستطيع أن تفهم أننا أتينا لنسكن بينهم ونسافر في بلدانهم فقط لنتعرّف عليهم، ونتأمل جمال طبيعتهم، وآثارهم وأوابدهم؛ فتبدأ بالشك في نوايا المسافر؛ وبما أن الأعراف جعلتهم يعتقدون بأنه توجد كنوز مخبأة في أنقاض الآثار، يظنون أننا نملك سرّ استخراج هذه الكنوز وأن هذا هو الهدف من وراء التكاليف الباهظة والمشاق التي نتكبّدها، ولكن عندما نقنعهم بأننا لا نسافر من أجل هذا الغرض، وأننا أتينا فقط لنتأمل فعل الله في أجمل أصقاع الأرض، ودراسة العادات، ورؤية الناس والتودد لهم، وعندما نقدم إليهم الهدايا دون أن نطلب في المقابل إلا صداقتهم، وعندما يكون بصحبتنا، كما هو الحال الآن، طبيب وصيدلية، ونوزع عليهم مجاناً الوصفات والاستشارات الطبية والأدوية، وعندما يرون أن الأجنبي الذي وصل إلى ديارهم قد احتفى به الفرنسيون الآخرون وأحسنوا استقباله، وأنه يمتلك سفينة جميلة ينقلها من مرفأ إلى آخر بحسب رغبته، وأنه يرفض تحميلها بأية بضائع تجارية، فإن مخيلتهم تفاجأ بفكرة القوة والعظمة والتجرّد الذي يقلب كل أنماطهم، فينتقلون سريعاً من الحذر إلى الإعجاب، ومن الإعجاب إلى الإخلاص.

هذه كانت تصرفاتهم بالنسبة إلينا. لقد كان فناء دارنا مليئاً باستمرار بعرب الجبال، والرهبان الموارنة، والشيوخ الدروز، والنساء والأطفال، والمرضى الذين يأتون من مسافة خمسة عشر أو عشرين فرسخاً لرؤيتنا ولطلب الاستشارة، ولدعوتنا لزيارتهم إذا مررنا في ديارهم؛ وكانت تسبقهم في أغلب الأحيان هداياهم من النبيذ أو من فاكهة البلد. كنّا نحسن استقبالهم، ونقدم لهم القهوة والتبغ والمثلجات الباردة؛

وكنت أعطيهم مقابل هداياهم بعض الأقمشة الأوروبية وبعض الأسلحة، وبعض الهدايا كالساعات أو الحلي القليلة الثمن التي أحضرتها معي بكميات كبيرة؛ فيعودون مسرورين من استقبالنا ويحملون صيت الأمير الأجنبي وأمير الفرنسيين ، كما كانوا يلقبونني، وينشرونه في الأماكن البعيدة. ولم يكن يطلق عليّ اسم آخر في جميع ضواحي «بيروت» وفي المدينة نفسها؛ وكم هو مفيد هذا التقدير لنا من أجل أسفارنا ومغامراتنا في جميع أنحاء البلاد. وكان السيد «جوريل» والسادة القناصلة بغاية اللطف ولم يحاولوا تصويب خطأ هؤلاء الرجال، بل جعلوهم يحسبون ذلك الشاعر المتواضع رجلاً من رجال أوروبا المتنفذين.

لا يمكننا أن نتصور سرعة انتقال الأخبار من فم إلى آخر في بلاد العرب:لقد بدأ الناس يعرفون في دمشق، وحلب، واللاذقية، وصيدا، والقدس، أن أجنبياً قد وصل إلى سوريا، وأنه سوف يسافر في أنحاء البلاد. في بلد تتحرك فيه الأشياء والعقول بشكل قليل، يغدو أصغر حدث غير مألوف موضوع الأحاديث سريعاً؛ وتنتقل الكلمة بسرعة من قبيلة إلى أخرى؛ إن مخيلة العرب الحساسة والمتوقدة تضخم وتلوّن كل شيء، وسمعة الإنسان تُبنى في خمسة عشر يوماً وعلى بعد مئة فرسخ. إن أحوال هذا البلد، التي اختبرتها في السابق «الليدي ستانهوب» (Lady Stanhope)، في ظروف تشبه ظروفي تقريباً، تبدو لي ملائمة تماماً ولا يسعني أن أشتكي منها. فتركنا الأشياء تجري، والألسنة تتحدث، وقبلت دون اعتراض الألقاب والثروات والفضائل التي أسبغتها عليّ المخيلة العربية، لكي أضعها حين أعود بتواضع، وحسب الحجم الحقيقي لنسب ولادتي المتواضع.

٢٧ أيلول ١٨٣٢، برج فخر الدين

لقد قضينا النهار بطوله في عرس الشابة السورية – اليونانية. بدأ الاحتفال بموكب النساء اليونانيات والعربيات والسوريات الطويل، اللواتي أتى بعضهن على ظهور الخيل والبعض الآخر سيراً على الأقدام عبر طرقات أشجار الصبار والتوت، لمساعدة العروس في هذا اليوم الشاق. إن بعض هؤلاء النسوة لم يغادرن منزل

«حبيب» (Habib) منذ عدة أيام وليال، ولم تتوقف في هذه الأثناء الصيحات والأغاني العالية والطويلة التي تشبه الصيحات التي يطلقها قاطفو العنب والثمار في موسم الحصاد في تلال «فرنسا». ومن شأن هذه الصيحات،، والدموع والأفراح المتعارف عليها، أن تمنع العروس من النوم لليال متتالية قبل العرس. وكذلك يفعل من طرفهم شيوخ وشباب أهل العريس، فيمنعونه من الراحة لمدة ثمانية أيام. ولا نعرف شيئاً عن سبب هذه العادات.

وبعد أن دخلنا حدائق منزل «حبيب»، أدْخِلت النساء إلى قلب القاعة لتهنئة الشابة وتأمل زينتها ومشاهدة الاحتفال. أما بالنسبة لنا، فقد تركونا في الباحة، أو بالأحرى أدخلونا إلى قاعة منخفضة. وهنا وضعت طاولة جميلة، معدّة على الطريقة الأوروبية، محملة بأصناف الفواكه المجففة، والحلويات المصنوعة بالعسل، والمشروبات والمثلجات؛ وطوال السهرة كانوا يجددون الأطعمة بحسب استهلاك الضيوف الكثيرين. استطعت أن أدخل بشكل استثنائي إلى قاعة النساء في اللحظة التي كان الأسقف اليوناني يعطي فيها البركة الزوجية. كانت الشابة واقفة بجانب زوجها، مغطاة من رأسها إلى قدميها بخمار شفاف أحمر مطرّز بالذهب. وأزاح الكاهن لبرهة الخمار عن وجه العروس واستطاع الشاب للمرة الأولى رؤية الفتاة التي سوف يربط فيها حياته: لقد كانت رائعة الجمال. كان شحوب التعب والانفعال يغطي وجنتيها، هذا الشحوب الذي بدا أكثر وضوحاً بسبب انعكاسات الخمار الأحمر وقطع الزينة الكثيرة المصنوعة من الذهب والفضة واللؤلؤ والماس التي كانت تغطيها، وبسبب ضفائرها الطويلة السوداء التي تنسدل حول خصرها؛ كانت رموشها مرسومة باللون الأسود وكذلك حاجباها وحواف عينيها؛ وكانت نهايات يديها وأظافرها ملونة بالحنة الحمراء، وعليها رسوم وأشكال عربية؛ كل هذا كان يضفي على جمالها الأخاذ طابعاً جديداً ورسميّاً بالنسبة إلينا، وقد أثّر فينا بشدة. لقد أتيحت لزوجها بالكاد فرصة النظر إليها. وبدا لإرهاقه كأنه يتهاوى من شدة السهر والتعب الناجم عن تلك العادات الغريبة التي تستهلك طاقة

الحب بحدّ ذاته. وأخذ الأسقف من يد أحد كهنته إكليلاً من الورود الطبيعية ووضعه على رأس الشابة، ثم استرجعه ليضعه فوق شعر الشاب، ثم مرة أخرى فوق خمار العروس، ومرره هكذا عدّة مرات من رأس هذا لتلك. ثم وضعت خواتم الزواج في إصبع كل منهما بدوره. وقسما بعد ذلك قطعة خبز واحدة، وشربا النبيذ المقدس من نفس الكأس. وبعد ذلك اقتيدت العروس إلى جناح لا يسمح بدخوله إلا للنساء فقط، لكي تتمكن من تغيير زينتها مرة أخرى. بينما اقتاد والد العريس وأصدقاؤه الزوج إلى الزاوية المخصصة لهم في الحديقة، وأجلسوه تحت شجرة وقد أحاط به كل رجال عائلته. وعندها وصل الموسيقيون والراقصون واستمروا بعزف سمفونياتهم البسيطة حتى مغيب الشمس، وانطلقت صيحاتهم العالية وحركاتهم الالتفافية بالقرب من الشاب الذي نام تحت الشجرة والذي كان أصدقاؤه يحاولون إيقاظه من حين لآخر من غير جدوى.

وعندما جاء الليل اقتادوه وحده في موكب حتى منزل أبيه. إذ لا يسمح للعريس إلا بعد ثمانية أيام من أن يأتي ويصطحب زوجته إلى بيته.

وبعد وقت قصير خرجت النساء اللواتي كن يملأن بيت «حبيب» بصياحهن. لا شيء أجمل من هذا الموكب المؤلف من النساء والشابات الصغيرات وهن يرتدين أكثر ملابسهن غرابة وروعة، وهن مغطيات بالحلي ذات الأحجار البراقة، وتحيط بكل منهن وصيفاتهن وخادماتهن اللواتي يحملن المشاعل المصنوعة من الصنوبر البخوري لإنارة الطريق أثناء سيرهن، وكن يزدن من مسافة طريقهن المضيء فيسلكن الدروب الطويلة والضيقة التي تظللها أشجار الصبار والبرتقال على شاطئ البحر، يمشين بصمت أحياناً، وبصيحات عالية، أحياناً أخرى، وتصل صرخاتهن حتى أمواج البحر أو إلى أسفل أشجار الدلب في جبل «لبنان». عدنا إلى بيتنا المجاور لمنزل «حبيب» الريفي، وما زلنا نسمع أصوات أحاديث نساء العائلة؛ فصعدنا إلى شرفتنا، وتبعنا بأبصارنا طويلاً مشهد النيران التائهة التي كانت تمر في كل الاتجاهات عبر أشجار السهل.

٢٩ أيلول ١٨٣٢

بدأ الناس بالحديث عن هزيمة «إبراهيم». إذا تعرضت القوات المصرية للهزيمة، فإنه يخشى من انتقام الأتراك الخاضعين الآن لسلطة مسيحيي «لبنان»، ويخشى من حصول تجاوزات في الأرياف المعزولة مثل الريف الذي نسكن فيه الآن. لذلك قررت من أجل الحيطة استئجار منزل في المدينة: ووجدت هذا الصباح منزلاً يمكن أن يتّسع لنا جميعاً. ويتألف المنزل من ثلاثة قصور عربية وممر صغير معتم يفضي إلى الطريق عبر باب منخفض؛ كان هذا الممر يوصل إلى باحة، وهي المكان الذي يتجمع فيه العرب لاستقبال ضيوفهم؛ وهناك نافورة ماء جارية تهمس وسط الباحة: وحين لا يكون هناك ماء جارية في الباحة، يوجد على الأقل بئر مغلق في أحد جوانبها. ونمر من هذه الباحة إلى عدّة غرف كبيرة مبلطة بالفسيفساء أو بأحجار الرخام، ومزينة إلى مستوى الاستناد، أو من الرخام المنحوت المجزّع، أو دعائم بارزة، أو نوافير، أو خشبيات مصنوعة من الأرز المشغول بمهارة فائقة: إن القسم الأول من هذه القاعات ينخفض مقدار درجة واحدة عن القسم الثاني؛ وهناك درابزون من الخشب المنحوت يمنع الدخول إلى هذا القسم الثاني. ويقف العبيد والخدم في القسم الأول وهم يحملون بأيديهم فناجين القهوة أو المثلجات أو الغلايين؛ بينما يجلس السادة فوق السجاد وهم يستندون إلى الأرائك في القسم الثاني من القاعة. وعادة ما نرى في نهاية القاعة درجاً خشبياً صغيراً مخبأ ضمن التزاويق الخشبية، وهو يؤدي إلى ما يشبه المنابر المرتفعة التي تشغل صدر القاعة: وينفتح هذا المنبر على الشارع من جهة عبر فتحات صغيرة مزينة بشبكة، في حين يكون المنبر مخفياً من جهة القاعة بواسطة شبكة خشبية وضع فيها نجّارو البلد كل فنهم وبراعتهم في حرفتهم. وتكون هذه المنابر ضيقة جداً ولا تتسع إلا لديوان واحد مغطى بفراش وبوسائد من الحرير: وهنا يقضي الأغنياء من الأتراك والعرب ليلتهم؛ في حين يكتفي الآخرون بفرش الوسائد على الأرض

وينامون هكذا وهم بكامل ملابسهم لا تغطيهم سوى الفروات الثقيلة والجميلة التي يرتدونها عادة.

هناك خمس أو ست غرف مماثلة في الطابق الأول من بيتي الذي استأجرته في المدينة، وعدد مماثل منها في الطابق الثاني، بالإضافة إلى عدد من الغرف الصغيرة العالية والمنفصلة من أجل الخدم الأوروبيين؛ أما الإنكشاريون، وسائسو الخيل، والخدام العرب فإنهم ينامون أمام الباب المؤدي إلى الشارع، أو تحت الرواق، أو في الباحة؛ ولا يهتم أحد مطلقاً بإيجاد مكان لهم أو سرير. لا يملك الشعب هنا أسرّة بل يفترشون الأرض فوق حصيرة مصرية من القش. إن جمال المناخ هنا قد دبّر كل الأمور، ونحن نشعر كذلك بأنه لا يوجد سقف سرير أجمل من هذه السماء المليئة بالنجوم، إذ تحمل نسائم البحر الخفيفة شيئاً من الرطوبة يبعث على النوم؛ لا يوجد إلا القليل من الندى أو ليس هناك ندى على الإطلاق، ويكفي أن تغطي عينيك بمحرمة من الحرير لتنام في الهواء الطلق بدون أي إزعاج أو مشكلة.

إن هذا المنزل ليس إلا ضماناً لسلامة زوجتي وطفلتي في حال انسحاب «إبراهيم باشا»: اكتفيت بأخذ المفاتيح، ولن نشغله إلا في حال تعذر السكن في بقية البلاد. ليس هناك خطر يحدق بحياة المسافرين تحت حماية القناصل الأوروبيين، في مدينة محاطة بالأسوار، وبالقرب من مرفأ ترسو فيه بلا انقطاع سفن تابعة لجميع الأمم. لقد استأجرت منزلي في المدينة بمبلغ ألف قرش في السنة، أي ثلاث مئة فرنك تقريباً للحصول على ست منازل، في حين يكلف منزل المدينة وحده ما يقارب أربعة أو خمسة آلاف فرنك في أوروبا.

توجد فوق لسان من الأرض على يسار المدينة، بعض المنازل الرائعة التي لا يمكننا أن نحلم بها على وجه الأرض: إنها تعود لمقاول تركي غني؛ وطلبت منه أن يؤجرني إياها، لكنه رفض، وعرض علي شراءها بقيمة ثلاثين ألف قرش، أي ما يعادل

عشرة آلاف فرنك تقريباً. إنها ترتفع وسط حديقة واسعة مزروعة بالأرز وأشجار البرتقال والكرمة والتين، ويرويها نبع ماء جميل يخرج من الصخور؛ ويحيط بها البحر من جهتين، ويأتي الزبد ليغسل أسفل الجدران. ويمتد أمام ناظريك كل خليج «بيروت» الجميل مع مراكبه الراسية، وكنا نسمع من هنا صوت الريح وهي تنفخ في حبالها؛ وينتهي المشهد بقصر عربي قديم يتقدم في البحر، ويتصل بمروج جميلة عبر عدد من الجسور التي ترتسم شرفاتها العالية بشكل معتم فوق خلفية ثلوج «صنين»، وتسمح المسافات التي بينها برؤية حرّاس «إبراهيم» الذين يتنزهون وهم ينظرون إلى البحر.

إن هذا المنزل أجمل بكثير من المنزل الذي استأجرته. كل جدرانه مغطاة بالرخام المنحوت بشكل رائع، أو بالتزاويق الخشبية المصنوعة من الأرز المشغول بشكل غني؛ وتهمس نوافير ماء أزلية في غرف الطابق الأرضي؛ وهناك شرفات مشبكة أو ناتئة تحيط بالطوابق العلوية، وتسمح للنساء بقضاء الأيام والليالي في الهواء الطلق، وبإمتاع أبصارهن من مشهد البحر الرائع، والجبال وحركة المرفأ، وكل ذلك دون أن يتمكن أحد من رؤيتهن. لقد استقبلني هذا التركي استقبالاً حسناً وقدّم لي المثلجات والتبغ والقهوة، وقادني بنفسه إلى كل غرف منزله. كان قد أرسل مسبقاً أحد عبيده من الخصيان لإخطار النساء بأن عليهن الانسحاب إلى جناح خاص في الحديقة، ولكن حين وصلنا إلى قسم الحريم لم يكن الأمر قد نُفّذ بعد، ورأينا خمس أو ست شابات ، بعضهن يبلغ الخامسة أو السادسة عشرة على أبعد تقدير، وتتراوح أعمار الأخريات بين العشرين والثلاثين عاماً، وهن يرتدين زي النساء العربيات الجميل والأنيق، وكن منهمكات بزينتهن الداخلية، فنهضن بسرعة عن الحصر والدواوين وركضن بسيقان وأقدام عارية، وحاول بعضهن إلقاء خمار على وجوههن، وفرّت كذلك النساء اللواتي كنّ يحملن أطفالاً رضعاً فوق صدورهن، وسط كل هذا الخجل والارتباك الطبيعي الناجم عن مفاجأة مماثلة: انسحبن عبر ممر معتم، ووقف العبد الخصي على بابه. ولم يبد على المقاول العربي الارتباك أو الحزن من جراء هذه الحادثة، وتابعنا زيارة جميع غرف الحرملك الداخلية كما لو أننا كنا نزور منزلاً في أوروبا.

زيارة الليدي «استير ستانهوب» (Lady Esther Stanhope)

إن الليدي «استير ستانهوب» هي ابنة أخت السيد «بيت» (Pitt)، تركت «إنكلترا» بعد وفاة عمّها وسافرت إلى جميع أنحاء أوروبا. إنها شابة جميلة وغنية، واستقبلت في كل مكان بالترحاب والاهتمام الذي يليق بمكانتها وثروتها وذكائها وجمالها؛ لكنها رفضت على الدوام أن تربط مصيرها بمصير أنبل معجبيها، وبعد عدة أعوام قضتها في العواصم الأوروبية الرئيسية، سافرت مع حاشية كبيرة إلى «القسطنطينية» (Constantinople). لم يعرف أحداً سبب هذا التغرّب: عزاه البعض إلى وفاة الجنرال الإنكليزي الشاب الذي قتل في «إسبانيا» في تلك الفترة، وإلى الحسرة الأبدية التي سوف تبقى مطبوعة في قلب الليدي «استير»؛ وعزاه البعض الآخر بكل بساطة إلى حبّ المغامرة الذي يُفترض أن يولّده طبع هذه الشابة الـمُبادرة والجريئة. مهما يكن من أمر، فإنها رحلت؛ وقضت عدة سنوات في «القسطنطينية»، وأبحرت في النهاية إلى «سوريا» على متن باخرة إنكليزية حملت أيضاً القسم الأكبر من كنوزها القيّمة والحلي النفيسة والهدايا من مختلف الأنواع.

حاصرت العاصفة الباخرة في خليج «ماكري» (Macri)، على طريق «كرمانيا» (Caramanie)، مقابل جزيرة «رودس» (Rhodes)؛ فغرقت فوق رصيف صخري على بعد عدة آلاف من الأميال عن الشاطئ[1] لقد تحطمت السفينة في وقت قليل وابتلعت الأمواج كنوز الليدي «ستانهوب»، ونجت هي بصعوبة من الموت، وحملتها قطعة من حطام السفينة إلى جزيرة صغيرة حيث قضت أربعاً وعشرين ساعة بلا طعام ولا نجدة. وفي النهاية وجدها بعض صيادي «مارموريزا» (Marmoriza) الذين كانوا يبحثون عن أنقاض السفينة، فاقتادوها إلى «رودس» حيث تعرّف عليها القنصل الإنكليزي. لكن هذا الحدث المؤسف لم يثبط عزيمتها. فسافرت إلى «مالطا» ومنها إلى «إنكلترا». وجمعت بقايا ثروتها، وباعت بخسارة جزءاً من ممتلكاتها؛ وحمّلت سفينة

---

١ - يبدو أن القول بعدة آلاف من الأميال من الشاطئ مبالغ فيه أو أن هناك خطأ ما.

ثانية بالثروات والهدايا من أجل البلدان التي سوف تجتازها. وكانت رحلتها هذه المرة آمنة، فوصلت إلى «اللاذقية» التي كانت تدعى قديماً «لاوديسيه» (Laodicée)، وهي مدينة على الساحل السوري بين «طرابلس» وخليج «اسكندرون». استقرّت في الضواحي، وتعلمت اللغة العربية، وأحاطت نفسها بجميع الأشخاص الذين يمكن أن يسهّلوا علاقاتها مع مختلف السكان العرب، والدروز، والموارنة الذين يقطنون البلاد، وجهزت نفسها، كما فعلت أنا، لرحلات اكتشاف للأجزاء البعيدة والصعبة من البادية وبلاد ما بين النهرين والصحراء.

وبعد أن تأقلمت بشكل كاف مع اللغة واللباس وأخلاق وعادات البلاد، حمّلت الجمال بالهدايا القيمة من أجل العرب، وجابت في كل أنحاء «سوريا». سكنت في «القدس»، وفي «دمشق» و«حلب» و«حمص» و«بعلبك» و«تدمر»؛ وفي هذه المحطة الأخيرة اجتمع ما يقارب الأربعين أو الخمسين ألفاً من رجال قبائل البدو الرحّل الذين سهلوا وصولها إلى منطقة الآثار، اجتمعوا حول خيمتها وقد سحرهم جمالها ولطفها وغناها وأعلنوها ملكة على «تدمر» وأعطوها «الفرمانات» التي تنصّ على أن كل أوروبي يستطيع إن كان تحت حمايتها أن يأتي بكل أمان لزيارة الصحراء وآثار «بعلبك» و«تدمر»، بشرط أن يدفع ألف قرش كضريبة. إن هذه المعاهدة لا تزال موجودة، وكان البدو يلتزمون بها بكل أمانة شرط أن نعطيهم دلائل إيجابية تشير إلى حماية الليدي «ستانهوب».

ولكن بعد عودتها من «تدمر» أوشكت أن تختطفها قبيلة كبيرة معادية لقبائل «تدمر». لكن أحد أتباعها أنذرها في الوقت المناسب، وهي تدين بسلامتها إلى قافلتها التي سارت طوال الليل، وإلى سرعة أحصنتها التي اجتازت مسافة لا تُصدق في الصحراء خلال أربع وعشرين ساعة. فعادت إلى دمشق، حيث أقامت عدة أشهر تحت حماية الباشا التركي الذي أوصاه بها الباب العالي بإلحاح.

بعد أن عاشت حياة متنقلة في جميع بلدان المشرق، استقرت الليدي «استير ستانهوب» أخيراً في وحدة مطبقة، فوق أحد جبال «لبنان» المجاورة لـ «صيدا» أي

«صيدون» القديمة. لقد منحها «عبدالله باشا»، وهو باشا «عكا»، الذي كان يكنّ لها الكثير من الاحترام والإخلاص المطلق، منحها بقايا دير وقرية «جون» التي سكانها من الدروز. فبنت فيها عدة منازل وأحاطتها بسور يشبه تحصيناتنا في القرون الوسطى: وأقامت فيها حديقة اصطناعية جميلة على الطريقة التركية، حديقة للورود والفواكه وعرائش العنب، ومظلات مزينة بالمنحوتات والرسومات العربية، ومياهاً جارية في قنوات من الرخام، ونوافير مياه أجرتها تحت بلاط المظلات، وكذلك أقامت قباباً من أشجار البرتقال والتين والليمون. عاشت هنا الليدي «ستانهوب» عدة سنوات في بذخ شرقي محاطة بعدد كبير من المترجمين الأوروبيين والعرب، وبحاشية كبيرة من النساء، والعبيد السود، وعقدت علاقات صداقة وسياسة يدعمها الباب العالي، مع «عبدالله باشا» و الأمير «بشير» (Béchir)، حاكم «لبنان»، وبشكل خاص مع مشايخ العرب في صحراء «سوريا» و«بغداد».

لكن ثروتها التي كانت لا تزال كبيرة، بدأت بالتناقص بسبب الفوضى في إدارة أعمالها وذلك لغيابها وبعدها عنها، فوجدت نفسها مضطرة للعيش بعائدات تقدّر بثلاثين أو بأربعين ألف فرنك، وهو مبلغ كاف في هذا البلد لكي تتمكن الليدي «ستانهوب» من الاستمرار بطريقة الحياة التي اضطرت إلى اتباعها. لكن في هذه الأثناء توفي عدد من الأشخاص الذين أتوا معها من أوروبا، أو ابتعدوا عنها؛ وفترت الصداقة مع العرب، تلك الصداقة التي يجب المحافظة عليها باستمرار بواسطة الهدايا والأبهة: فأصبحت العلاقات أكثر تباعداً، وسقطت الليدي «ستانهوب» في عزلة تامة، وكان هذا هو حالها حين وجدتها. ولكنها في هذه المرحلة بالذات أظهرت صلابة طبعها البطولي، وأبدت روحها حيوية وتصميماً منقطعي النظير. فلم تفكر في التراجع؛ ولم تظهر أسفها على العالم وعلى الماضي، ولم تنحنِ بسبب الإهمال وسوء الحظ، وبسبب التفكير في الشيخوخة وهجر الناس لها؛ فبقيت وحدها حيث لا تزال إلى الآن، من غير كتب أو مجلات أو رسائل من أوروبا، وبلا أصدقاء وخدم حتى لخدمتها الشخصية، عاشت محاطة فقط بعدة إماء وأطفال للعبيد السود، وعدد من الفلاحين العرب الذين

كانوا يعتنون بحديقتها، وبخيولها، ويسهرون على حراستها الشخصية. ويعتقد الناس في هذا البلد، وعلاقتي معها تدفعني أنا نفسي إلى الاعتقاد أيضاً، بأنها لم تجد القوة الخارقة لروحها وعزيمتها في طبعها فقط، بل في أفكارها الدينية المتأججة أيضاً، حيث اختلط الفكر التنويري الأوروبي عندها ببعض المعتقدات الشرقية، وعلى الأخص بعجائب علم التنجيم. ومهما يكن من أمر، فإن الليدي «ستانهوب» هي اسم كبير في الشرق وعلامة استفهام كبيرة في أوروبا.[1] وبما أنني كنت بالقرب منها فقد رغبت في رؤيتها: إن فكرها في الوحدة والتأمل يتقارب بشكل واضح من طريقتي الخاصة في التفكير، ويسعدني أن أكتشف بعض النقاط المشتركة التي تجمعنا. ولكن لا شيء أصعب على أوروبي من أن يغدو صديقاً لها؛ فهي ترفض أي اتصال مع المسافرين الإنكليز، أو مع النساء، أو حتى مع أفراد أسرتها. أي أنه لم يكن لدي أمل كبير في التعرف إليها، ولم يكن معي أية رسالة توصية لها: ولكنني كنت أعرف أنها لا تزال تحافظ على علاقات بعيدة مع عرب «فلسطين» وبلاد ما بين النهرين، وأعرف أن توصية من يدها إلى هذه القبائل يمكن أن تكون ذات فائدة عظيمة في رحلاتي المستقبلية، لذلك قررت أن أرسل لها عربياً وحملته الرسالة التالية:

«يا سيدتي إني مسافر مثلك، وغريب مثلك في هذا الشرق الذي أتيت إليه على غرارك، فقط للبحث عن مناظره الطبيعية، وعن آثاره وعمل الله فيه، ولقد وصلت مؤخراً إلى «سوريا» مع عائلتي. وسوف أعتبر هذا اليوم الذي ألتقي فيه بامرأة مثلك، تُعد بحد ذاتها روعة من روائع هذا الشرق الذي أزوره، سوف أعتبره من أهم أيام رحلتي.

---

١ - الليدي استير ستانهوب ابنة الكونت شارل ستانهوب وابنة أخت وليم بيت رئيس وزراء انكلترا. زارت بلاد الشام عام ١٨١٠ وكانت أول أوربية تدخل تدمر وتشبهت بزنوبيا ملكة الشرق وكان لها نفوذ لدى البدو. أقامت في جون شرقي صيدا لبنان سنة ١٨١٨، وأعدّت في دهاليز قصرها قبواً وغرفة للمحاكمة ولتنفيذ الأحكام بالسجن والشنق(❖) واستعملتها مخبأ للهاربين الذين كانت تؤويهم، واختلفت مع الأمير بشير الشهابي الثاني فحرّضت الناس ضدّه وضد إبراهيم باشا المصري. توفيت في ٢٣ حزيران ١٨٣٩م بعد أن أصيبت بداء السل.

(❖) ذكرت «السجن والشنق» مجلةُ الجيش اللبناني، في مادة « جون»، معتمدة مرجعاً هو «المعالم الأثرية والتاريخية في إقليم الخروب - د. حمد عبد الحليم يونس».

فإذا تفضلت باستقبالي، أرجو أن تحددي لي اليوم المناسب لذلك، وإذا ما كان عليّ المجيء وحدي أو إذا كان بإمكاني اصطحاب بعض الأصدقاء الذين يرافقونني والذين يثمّنون غالياً شرف التعرّف عليك.

أرجو يا سيدتي ألا تحرج رسالتي هذه لطفَكِ، وأرجو ألاّ أزعج بتصرفي عاداتك في الوحدة المطلقة. إني أفهم تماماً ثمن الحرية وروعة الوحدة، لذلك لا يمكن إلا أن أتفهم تماماً رفضك وأحترمه.

وتفضلي بقبول، إلخ»

ولم أنتظر الجواب طويلاً: ففي يوم ٣٠، في الساعة الثالثة بعد الظهر، جاءني سائس الليدي «استانهوب» والذي هو طبيبها في ذات الوقت، وأمرتْه أن يصطحبني إلى «جون»، حيث تقيم هذه المرأة الرائعة.

انطلقنا في الساعة الرابعة. وكان برفقتي الدكتور «ليوناردي» (Léonardi)، والسيد «بارسوفال» (Parseval)، وخادم ودليل: وكنا جميعاً نمتطي خيولنا. وعلى بعد نصف ساعة من «بيروت» اجتزت غابة صنوبر رائعة زرعها أصلاً الأمير «فخر الدين» فوق مرتفع يمتد البصر من فوقه حتى بحر «الشام» العاصف من جهة اليمين، ويمتد من اليسار فوق وادي «لبنان» الرائع؛ إنه منظر فتان تمتزج فيه نباتات الغرب الغنية، كأشجار الكرمة والتين والتوت والحور الهرمي، ببعض أعمدة شجر النخيل الشرقي، الذي كانت الريح تهز أوراقه الخضراء العريضة مثل زينة من الريش فوق خلفية السماء الزرقاء. ثم دخلنا بعد عدة خطوات إلى صحراء من الرمل الأحمر الذي تجمّع في موجات هائلة ومتحركة مثل أمواج المحيط. كانت أمسية ريح قوية، إذ مرّ الهواء في الرمال وثناها وخدّدها كما يثني أمواج البحر ويجعلها ترتجف. كان هذا المشهد جديداً وحزيناً مثل رؤية الصحراء الحقيقية والواسعة التي علي اجتيازها قريباً. لا يوجد أثر للإنسان أو للحيوان فوق هذه الحلبة المتموّجة؛ لم يكن يقودنا إلا صوت الموج الهادر من

جهة، وقمم جبال «لبنان» الشفافة من جهة أخرى. ووجدنا سريعاً ما يشبه الطريق أو الدرب المزروع بكتل كبيرة من الحجارة المضلّعة. إن هذا الطريق الذي يتبع البحر وصولاً إلى «مصر»، قادنا إلى بيت مهدّم، وإلى بقايا برج محصّن، حيث قضينا ساعات الليل المظلمة نائمين فوق حصيرة من الخيش ومتلفّعين بمعاطفنا. وعدنا إلى امتطاء جيادنا بمجرد أن ظهر القمر. كانت ليلة إلتمعت فيها السماء بالنجوم، وكانت سكينة مطلقة تبدو وكأنها تحكم هذه الأعماق الأثيرية التي نتأملها من هنا من الأسفل، ولكن الطبيعة من حولنا بدت وكأنها تتأوه وتتعذب وتتلوى بتشنجات مشؤومة. وكان منظر الشاطئ الحزين وعلى بعد فراسخ عدة، يزيد من هذا الانطباع المؤلم. لقد تركنا خلفنا بعد المغيب المنحدرات الجميلة والظليلة، وأودية «لبنان» المخضوضرة. وارتفعت بالقرب منّا تلال وعرة مزروعة من رأسها إلى أسفلها بحجارة سوداء وبيضاء ورمادية، وهي بقايا خلفتها الزلازل؛ أما البحر الذي اهتاج منذ الصباح بسبب إحدى العواصف الهوجاء، فقد كان على يميننا ويسارنا، وراح يمدّ أمواجاً ثقيلة وخطيرة، كنا نراها تأتي من البعيد بسبب الظل الذي تلقيه أمامها، ثم تضرب بعد ذلك الساحل وتلقي كل موجة منها ضربتها الراعدة، وتطيل أخيراً زبدها العريض والجياش فيصل إلى محاذاة الرمل الرطب الذي نسير فوقه، فيغمر في كل مرّة أقدام خيولنا ويهدّد بسَحْبنا إليه؛ وكان القمر يلمع كالشمس، وينشر فوق البحر القدر الكافي من أشعته لكي نكتشف هياجه، ولكن ليس القدر الكافي من الضياء لكي تطمئن أعيننا من سلامة الطريق وتتجنب المخاطر.

وبعد قليل ذاب نور يشبه الحريق فوق قمم جبال «لبنان» مع ضباب الصباح الأبيض أو القاتم، وبسط فوق المشهد بأكمله مسحة مزيفة وشاحبة، ليست بالنهار أو بالليل، إذ لا تملك ضياء الأول ولا سكون الآخر؛ إنها ساعة مؤلمة للعين وللفكر، صراع بين مبدأين متناقضين تعطي عنهما الطبيعة في بعض الأحيان صورة محزنة، وهذه الصورة غالباً ما نجدها داخل قلوبنا. غادرنا «صيدا»، (صيدون القديمة)، في السابعة صباحاً تحت شمس قوية منذ تلك الساعة، وكانت المدينة تتقدّم فوق الأمواج كتذكار

مجيد لهيمنة قديمة، ثم بدأنا بتسلق هضاب طبشورية، عارية وممزقة، ترتفع بشكل واضح من منسوب إلى منسوب آخر، وتقودنا إلى الخلوة التي كانت أعيننا تبحث عنها من غير جدوى. كل رأس اجتزناه كان يكشف عن رأس آخر أشد ارتفاعاً منه، يتوجب علينا الالتفاف حوله أو تسلقه: كانت الجبال تتصل بالجبال مثل حلقات سلسلة سريعة، لا تترك بينها إلا أودية عميقة لا ماء فيها، أودية بيضاء مزروعة بقطع الصخور الرمادية. إن هذه الجبال جرداء وقاحلة تماماً. إنها هياكل عظمية لتلال نخرتها المياه والريح منذ قرون وقرون. لم أتوقع أن أجد هنا مسكن سيدة جابت العالم، وكان الكون بأكمله أمامها لكي تختار. وفي النهاية، ومن قمة إحدى الصخور، وقعت عيناي على واد عميق، أكثر اتساعاً، تحيط به من جميع الجهات جبال أشد عظمة ولكنها أقل قحطاً. وفي قلب هذا السهل، ومثل قاعدة برج عريضة، بدأ جبل «جون» يظهر ويستدير على شكل مناضد من الصخور المستديرة التي يتناقص عرضها كلما اقتربت من قمتها، وتشكّل في النهاية منصةّ يبلغ عرضها عدّة مئات من الأقدام وتتوج بإكليل من النباتات الخضراء الجميلة. وهناك جدار أبيض، تجانبه مظلة على أحد أضلاعه تحيط بها هذه الكتلة الخضراء. هذا هو مكان إقامة الليدي «استير». بلغناه عند الظهيرة. إن هذا المنزل لا يشبه ما ندعوه بالمنزل في أوروبا، ولا حتى في الشرق؛ إنه تجمع غريب لعشر أو اثني عشر منزلاً صغيراً، ليس في كل واحد منها سوى غرفة أو غرفتين في الطابق الأرضي، من غير نوافذ، وتفصل المنزل عن الآخر باحات أو حدائق صغيرة، وهو تجمعٌ يشبه إلى حدّ كبير الأديرة الفقيرة التي نراها في أعالي جبال «إيطاليا» و«إسبانيا» والتي تعود ملكيتها إلى رهبانيات المتسوّلين.

وبحسب عادات الليدي «ستانهوب» لم يكن بالإمكان رؤيتها قبل الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر. اقتادوا كل واحد منّا إلى نوع من الحجرات الضيقة، التي لا يدخلها ضوء النهار، ولا يوجد أثاث فيها. قدموا إلينا طعام الغداء ثم استلقينا فوق الدواوين بانتظار استيقاظ مضيفة هذه الإقامة الرومانسية اللامرئية. كنت مستغرقاً في النوم؛ حين قُرع بابي في الساعة الثالثة وأخبروني أنها بانتظاري. اجتزت باحة، ثم حديقة، ثم مظلة مخرّمة تزينها ستارة من الياسمين، ثم رواقين أو ثلاثة أروقة معتمة، أدخلني بعدها عبد صغير، في السادسة أو الثامنة من العمر، إلى مقصورة الليدي

«استير». كان الظلام العميق يخيّم على المكان، واستطعت بالكاد أن أميّز الملامح النبيلة والجدّية والناعمة والمهيبة لهذا الوجه الأبيض، كانت ترتدي زيّاً شرقياً، ونهضت من فوق ديوانها وتقدمت نحوي ومدت يدها إليّ. كانت الليدي «استير» تبدو وكأنها في الخمسين من العمر؛ إنها تمتلك تلك الملامح التي ليس بإمكان الزمن أن يؤثر فيها: إن النضارة، واللون، والجمال تذهب كلها مع انقضاء الشباب؛ ولكن حين يكون الجمال في الشكل نفسه، وفي نقاء القسمات، وفي الكرامة والجلال، وفي فكر الرجل أو المرأة، فإن الجمال يتغيّر بتغيّر فترات الحياة، ولكنه لا يذهب أبداً. هكذا كانت الليدي «ستانهوب». كانت تضع على رأسها عمامة بيضاء، وعلى جبينها تخريمة من الصوف الأحمر القاني تتدلى على جانبي الرأس وتصل إلى الكتفين. وكان شال من الكشمير الأصفر، وثوب تركي فضفاض من الحرير الأبيض واسع الأكمام، يغطي جسدها بالكامل في ثنياته البسيطة والفخمة، ومن خلال الفتحة التي خلفها هذا الثوب الأول فوق صدرها، لمحتُ ثوباً آخر من القماش الفارسي الموشى بآلاف الأزهار، يصعد حتى مستوى عنقها وينعقد بواسطة مشبك من اللؤلؤ. ويكتمل هذا الزي الشرقي الجميل بحذاء تركي من الجلد الأصفر المطرّز بالحرير، وكانت تنتعله بحرية وأناقة شخص لم يلبس في حياته حذاء آخر.

قالت لي: «لقد أتيت من بعيد جداً، لكي تقابل ناسكة، أهلاً وسهلاً بك. إني أستقبل القليل من الأجانب، واحداً أو اثنين في العام؛ لكن رسالتك أعجبتني، ورغبت في لقاء شخص مثلي يحب الله، والطبيعة والوحدة. على أية حال كان هناك شيء ينبئني بأن نجومنا متقاربة، وأننا نناسب بعضنا. وأنا أرى بسعادة أن حدسي لم يخنّي، وملامحك التي أراها الآن، ووقع خطواتك حين كنت تجتاز الرواق، أخبرني كل شيء عنك فلم أندم على رغبتي في لقائك. فلنجلس ونتحدّث. إننا قد أصبحنا أصدقاء منذ الآن». فقلت لها: «كيف شرّفت يا سيدتي بسرعة رجلاً تجهلين اسمه وحياته بلقب صديق؟ إنك لا تعرفين من أنا». أجابتني، «أجل لا أعرف من أنت بحسب مقاييس العالم، ولا ما فعلت في حياتك بين الناس؛ ولكني أعرف من تكون أمام الله. لا تعتبرني مجنونة، كما يظنني الكثيرون في أغلب الأحيان؛ لكني لم أستطع مقاومة حاجتي إلى أن

أتكلم معك بكل صراحة. هناك علم افتقدته أوروبا في هذا العصر، علم نشأ في الشرق، ولم يفنَ أبداً، وهو لا يزال موجوداً. وأنا أمتلكه. إني أقرأ في النجوم. إننا جميعاً أبناء إحدى تلك النيران السماوية التي كانت موجودة لحظة ولادتنا، والتي انطبع تأثيرها الصالح أو الطالح في أعيننا، وعلى جباهنا، وفي ملامحنا، وفي خطوط أيدينا، وفي شكل أقدامنا، وفي حركاتنا، وفي مشيتنا. إني لم أرك إلا منذ بضع لحظات، ولكن كما لو أنني عشت قرناً معك. أتريدني أن أكشفك لذاتك؟ هل تريد أن أقرأ لك قدرك؟» فأجبتها مبتسماً: «لا، أرجوك يا سيدتي! إني لا أنكر ما أجهل؛ ولا أؤكد كذلك، بأن في الطبيعة المرئية والمخفية التي يتماسك كل شيء فيها ويترابط، كائناتٍ أقل مستوى كالإنسان مثلاً تقع تحت تأثير كائنات علوية مثل النجوم أو الملائكة؛ ولكني لست بحاجة إلى كشفها لكي أعرف نفسي، فساد، عجز وبؤس! أما بالنسبة إلى أسرار قدري المستقبلي، فإني أعتقد بأنني أدنّس العناية الإلهية التي تخفيها عنّي، إذا طلبت من الخلائق أن تكشفها لي. في الحقيقة أنا لا أومن إلا بالله وبالحرية والفضيلة، في ما يخص المستقبل». أجابتني: «لا بأس، آمن بما تشاء. أما بالنسبة لي فإني أرى بوضوح أنك ولدت تحت تأثير ثلاث نجوم سعيدة، قوية وطيبة، أعطتك خصائص مشابهة، وقادتك إلى هدف أستطيع إذا شئت أن أطلعك عليه اليوم. إن الله هو الذي قادك إلى هذا المكان لكي ينير روحك؛ إنك أحد أولئك الرجال الذين يتمتعون بالرغبة والإرادة الطيبة التي يريدها الله كأداة لتحقيق الأعمال الرائعة بين بني البشر. هل تؤمن بحكم المسيح المنتظر؟» فأجبتها: «لقد ولدت مسيحياً». «مسيحي!» أجابت بنوع من المزاح الخفيف: «أنا مسيحية أيضاً؛ ولكن هذا الذي تدعونه المسيح ألم يقل: «أتحدث إليكم أيضاً بالرموز؛ لكن الذي سوف يأتي بعدي سوف يحدثكم بالعقل وبالحقيقة». إنه هو الذي ننتظره! إنه المسيح الذي لم يأت بعد، والذي هو ليس ببعيد، وسوف نعاينه بأبصارنا، من أجل كل الذي يتحضر الآن في العالم! بماذا تجيب الآن، وكيف تستطيع إنكار أو دحض الكلمات التي وردت في إنجيلكم والتي ذكرتها الآن؟ وما هي دوافعك للإيمان بالمسيح؟» فأردفت: اسمحي لي يا سيدتي بألا أدخل في نقاشات مماثلة: لا

أدخل فيها حتى مع نفسي. هناك نوران للإنسان: أحدهما ينير العقل، وهو قابل للنقاش والشك وهو لا يقود في أغلب الأحيان إلا إلى الخطأ وإلى الضياع؛ والآخر، ينير القلب ولا يخدع مطلقاً، لأنه في ذات الوقت وضوح واقتناع؛ وبالنسبة لنا نحن الزائلون البؤساء فإن الحقيقة ليست سوى اقتناع. وحده الله هو من يمتلك بشكل مختلف وكحقيقة؛ ونحن لا نملكها إلا كإيمان. إني أومن بالمسيح، لأنه حمل إلى الأرض المذهب الأكثر قداسة، والأكثر خصباً والأكثر ألوهية، وهو المذهب الذي سطع فوق الذكاء الإنساني. إن مذهباً سماوياً بهذه الدرجة لا يمكن أن يكون ثمرة الخيبة والخداع. لقد قال المسيح ذلك كما قاله العقل كذلك. إن المذاهب تُعرف بأخلاقياتها، كما تُعرف الشجرة من ثمارها؛ إن ثمار المسيحية لا متناهية، وكاملة وإلهية (وأنا أتحدث الآن عن ثمارها الآتية أكثر من حديثي عن ثمارها التي قطفت وفَسدت)؛ إذن فالمبدأ إلهي بحدّ ذاته؛ إذن فصانعه هو كلمة إلهية، كما سبق أن دعى نفسه. وأنا مسيحي من أجل هذا السبب، وهذا هو جدالي الديني بيني وبين ذاتي؛ بينما لا أتجادل فيه مع الآخرين: إننا لا نُثبت للإنسان إلا ما هو مؤمن به. فأجابت: ولكن في النهاية، هل ترى أن العالم الاجتماعي والسياسي والديني منظم بشكل جيد؟ ألا تشعر بأن العالم بأكمله يشعر بالحاجة، بل بضرورة وجود كاشف ومخلص، هو المسيح الذي ننتظره والذي نراه في رغباتنا؟ فقلت لها: «آه، هذه مسألة أخرى. لا أحد أكثر مني يتألم ويتأوه لعذاب الطبيعة الشمولي، ولعذاب الناس والمجتمعات. لا أحد يجهر بصوت أعلى مني بالتجاوزات الاجتماعية والسياسية والدينية الرهيبة. ولا أحد يرغب أو يأمل أكثر مني بوجود مُصلْح لشرور الإنسانية التي لا تُحتمل. ولا أحد أكثر اقتناعاً مني أن هذا المصلْح لا يمكن أن يكون إلا إلهيّاً؛ فإذا كنت تطلقين على هذا اسم المسيح المنتظر، فأنا أنتظره مثلك، بل أتوق أكثر منك أيضاً لظهوره الوشيك؛ ومثلك، بل أكثر منك أيضاً، أرى في كل معتقدات الإنسان المتزعزعة، وفي كل اضطراب أفكاره، وفي فراغ قلبه، وفي انحطاط حالته الاجتماعية، وفي الهزات المتكررة للمؤسسات السياسية، أرى فيها كل أعراض الانقلاب، وبالتالي أعراض التغير المرتقب والأكيد. أعتقد أن الله يظهر

دائماً في اللحظة المحددة التي يغدو فيها كل ما هو إنساني غير كاف، ويعترف الإنسان فيها بأنه لا يستطيع فعل شيء لنفسه. لقد وصل العالم إلى هذه المرحلة. إذن أنا أؤمن بمسيح قريب من عصرنا؛ ولكني لا أرى فيه يسوع المسيح الذي أعطانا كل ما لديه من الحكمة والفضيلة والحقيقة؛ إني أرى هذا الذي أنبأنا يسوع المسيح بمجيئه بعده. إن هذا الروح المقدس هو الفاعل دوماً، وهو الذي يساعد الإنسان على الدوام، ويكشف له في كل الأوقات ما يجب أن يعرفه وأن يفعله، بحسب الزمان والاحتياجات. وأن هذا الروح الإلهي هو الذي يتجسّد في رجل أو في مبدأ، في حدث أو في فكرة، لا يهم، لأنه هو نفسه دائماً: الرجل أو المذهب أو الحدث أو الفكرة، أنا أؤمن به، وأضع أملي فيه، وأنتظره أكثر منك يا سيدتي، وأتضرّع إليه! ألا ترين إذن أنه بإمكاننا أن نتفق، وأن نجومنا ليست متباعدة كما جعلتك هذه المحادثة تظنين.» ابتسمت؛ وأضاءت عيناها اللتان اكتستا بنوع من السوداوية حين كنت أعترف لها بعقلانيتي المسيحية، أضاءتا بنظرة حانية ونور شبه عجائبي. قالت لي: «اعتقد بما تشاء، فما أنت إلا أحد أولئك الرجال الذين كنتُ بانتظارهم، والذين ترسلهم لي العناية الإلهية، والذين يقع على عاتقهم نصيب كبير من العمل الذي يتحضر الآن. سوف تعود إلى «أوروبا» عمّا قريب: لكن «أوروبا» انتهت، وحدها «فرنسا» بقي عليها إنجاز مهمة كبيرة؛ سوف تساهم فيها، لا أعرف الآن بأية طريقة؛ لكنني أستطيع أن أخبرك بها إذا شئت هذا المساء بعد أن أستشير نجومك. إني لا أعرف الآن أسماءها كلها: إني أميّز أربعًا وربما خمساً، من يدري؟ ربما أكثر. أحدها بالتأكيد هو كوكب عطارد الذي يعطي الوضوح واللون للذكاء وللحديث. لا بد أنك شاعر: هذا ما أقرأه في عينيك وفي القسم العلوي من وجهك؛ وإلى الأسفل، أرى أنك تحت تأثير نجوم مختلفة، وحتى متعارضة تقريباً. هناك تأثير للحيوية والفعل؛ ثم قالت فجأة، وهناك الشمس أيضاً في وضعية رأسك وفي الطريقة التي تلقي بها رأسك فوق كتفك اليسرى. اشكر الله: هناك القليل من الرجال الذين ولدوا تحت تأثير أكثر من نجمة، والقليل منهم نجمته سعيدة، والأقل أيضاً من كانت نجمته مناسبة، ولا يعارضها التأثير السلبي السيئ لنجمة معاكسة. أنت على العكس لديك

عدة نجوم؛ وكلها في تناغم لكي تخدمك، وكلها تتساعد لصالحك. ما هو اسمك؟ فقلته لها. قالت لي بنبرة صادقة: لم أسمع به من قبل! أترين، هذا هو المجد يا سيدتي. لقد نظمتُ في حياتي عدة أبيات جعلت اسمي يتكرر مليون مرّة في الأصداء الأدبية الأوروبية؛ لكن هذا الصدى ضعيف لدرجة أنه لا يقوى على اجتياز بحرك وجبالك، وأنا هنا رجل جديد، رجل مجهول تماماً، واسم لم يتلفظ به أحد! وهذا ما يجعلني أشد زهواً بالترحاب الذي أسبغتيه عليّ: إذ لا يعود الفضل فيه إلا لي ولك. نعم، قالت لي: شاعر أو غير شاعر، أنا أحبك وأضع أملاً فيك؛ لكننا لن نتقابل ثانية، فلتكن متأكداً من ذلك! سوف تعود للغرب، لكنك لن تلبث للعودة إلى الشرق: إنه وطنك. قلت لها: إنه على الأقل موطن خيالاتي. فأردفت قائلة: لا تهزأ؛ إنه وطنك الحقيقي، إنه وطن آبائك. إني متأكدة الآن، انظر إلى قدميك! قلت لها: إني لا أرى عليهما إلا غبار الدروب الذي يغطيهما، والذي يجعلني أحمرّ خجلاً في صالون من صالونات «أوروبا» القديمة. فأضافت: «هذا لا شيء، ليس هذا ما قصدته؛ انظر إلى قدميك. أنا نفسي لم أنتبه لهما قبل ذلك. أترى: إن عنق القدم مرتفع جداً، وحين تكون قدمك على الأرض، هناك مسافة كافية بين عقبك وأصابع قدميك، بحيث تسمح للماء بالمرور منها دون أن تبتل. إنها قدم العربي، إنها قدم الشرق؛ إنك أحد أبناء تلك المناخات، ونحن نقترب من اليوم الذي سوف يدخل فيه كل شخص إلى أرض آبائه. سوف نلتقي مجدداً.»[1]

عندها دخل عبد أسود، وانحنى أمامها، جبينه فوق السجادة ويداه فوق رأسه، وقال لها عدة كلمات باللغة العربية. قالت لي: «اذهب، لقد جهزوا لك طعام العشاء، تناوله سريعاً ثم عد. سوف أهتم بك، وأرى بوضوح أكثر في أفكاري المشوشة حول شخصك ومستقبلك. أنا لا أتناول الطعام مع أحد؛ إني أعيش بتقشّف شديد، ويكفيني

---

١ - هل تبشر الليدي استير ستانهوب بالعودة إلى أرض الميعاد؟ لقد قالت للامارتين «إنجيلك» فهل هي يهودية تسير على هدي مشروع استعماري أصبح حقيقة في وقت لاحق بجهود بريطانية بالدرجة الأولى بدأت بوعد بلفور ١٩١٧؟ أم أن قولها ذاك مجرد رأي داخل دائرة الانتماء؟.

أن آكل الخبز والفواكه في الساعة التي أشعر فيها بالجوع؛ ويجب ألا أُخضع ضيوفي لنظامي الغذائي.» فاقتادوني تحت مهد من الياسمين والدفلى إلى باب حدائقها. لقد جهزوا الطاولة للسيد «بارسوفال» ولي أنا: تعشينا بسرعة، ولكنها لم تنتظر حتى خروجنا من وراء الطاولة، فأرسلت «ليوناردي» (Léonardi) ليقول لي إنها بانتظاري. فهرعت إليها فوجدتها تدخّن غليوناً شرقياً طويلاً: وطلبت أن يحضروا لي غليوناً مثله. كنت قد اعتدت على رؤية أجمل نساء الشرق وأكثرهن أناقة وهن يدخّن؛ ولم أجد ما يثير الصدمة في هذه الوضعية الجميلة والمسترخية، ولا في هذه الرائحة المعطّرة التي تخرج على شكل أعمدة رقيقة من شفتي امرأة جميلة، فتقطع المحادثة دون أن تجعلها تفتر. وتحدثنا طويلاً ونحن في هذه الوضعية، ودائماً حول الموضوع المفضل والوحيد والغامض لهذه المرأة الخارقة، الساحرة المعاصرة، التي تذكّر تماماً بساحرات العهد القديم المشهورات؛ إنها «سيرسيه» (Circé) الصحراء. يبدو لي أن مذاهب الليدي «استير» الدينية هي مزيج ذكي، ولكنه مبهم، بين الأديان المختلفة التي كُتبَ عليها أن تعيش بينها؛ إنها غامضة مثل الدروز، وربما تكون هي الوحيدة في العالم التي تعرف سرهم الصوفي؛ ومستسلمة مثل المسلمين وقدرية مثلهم أيضاً؛ ومثل اليهود تنتظر مجيء المسيح، وتبشر بعبادة المسيح وبممارسة الأخلاق الرحيمة مثل المسيحيين. أضف إلى ذلك الألوان الخلابة والأحلام الخارقة لخيال صبغه الشرق وحفّزته الوحدة والتأمل، وربما أيضاً بعض تنبؤات المنجمين العرب؛ فإذا أخذتَ كل ذلك بعين الاعتبار تشكلتْ لديك فكرة عن هذا الخليط السامي والغريب الذي من السهل تسميته بالجنون عوضاً عن تحليله وفهمه. لا، ليست هذه المرأة مجنونة على الإطلاق. إن الجنون الذي يكتب بوضوح في العيون، لا يُقرأ أبداً في هذه النظرة الجميلة والصريحة؛ والجنون الذي تكشف عنه الأحاديث التي تقطع تسلسلها باستمرار، وبشكل لا إرادي، سلسلة من التداعيات المباغتة والفوضوية والغريبة، لا تُلاحظ مطلقاً في حديث الليدي «استير» السامي والصوفي والغائم، والذي يبقى دائماً مهذباً ومترابطاً وقوياً. إذا كان عليّ أن أبدي رأيي قلت إن هذا الجنون، على الأغلب، إرادي ومدروس ويعرف نفسه وله أسبابه

الخاصة لكي يبدو على شكل جنون. إن قوة الإعجاب بعبقريتها التي أثّرت ولا تزال تؤثر في سكان الجبال من العرب، تدلّ بشكل أكيد على أن هذا الجنون المزعوم ليس إلا وسيلة. إذ تلزم لرجال أرض العجائب هذه، لرجال الصخور والصحارى، الذين يمتلكون خيالاً أشد تلوناً وأكثر ضبابية من آفاق رمالهم وبحارهم، تلزمهم كلمة النبي محمد، أو كلمة الليدي «ستانهوب»! يحتاجون إلى تجارة النجوم، والنبوءات، والعجائب ووجهة نظر العبقرية الأخرى! لقد فهمت الليدي «استانهوب» ذلك، بدايةً بسبب اتساع أفق ذكائها المتفوّق؛ ثم ربما لأنها مثل جميع الكائنات التي أعطيت قدرات عقلية فائقة، انتهى بها الأمر إلى أن تُعجَبَ بذاتها، وبأن تغدو أول مريد لهذا الرمز الذي خلقته من أجل الآخرين. هذا هو التأثير الذي تركته هذه السيدة في نفسي. لا يمكن محاكمتها أو وصفها بكلمة؛ إنها تمثال ذو أبعاد هائلة؛ لا يمكن أن نحكم عليها إلا من وجهة نظرها. لن أندهش إذا تحقق في يوم من الأيام جزء من القدر الذي وعدت نفسها به: إمبراطورية في بلاد العرب وعرش في «أورشليم»! إن أية هزة سياسية في منطقة الشرق التي تسكنها، يمكن أن ترقى بها إلى هذه المنزلة!

قلت لها: «لا أملك في هذا الصدد إلا لوماً واحداً أوجهه لعبقريتك، وهو أنك تصرفت بخجل زائد مع الأحداث، وأنك لم تدفعي بعد بقَدَرك إلى حيث يمكن أن يقودك.» قالت لي: «إنك تتكلم مثل رجل لا يزال يؤمن كثيراً بالإرادة الإنسانية، ولا يؤمن بشكل كاف بسطوة القدر الذي لا يُقاوم. إن قوتي هي في هذا القدر. إني أنتظره، ولا أدعوه. إني أتقدّم في السن، وقد قلّت ثروتي بشكل كبير؛ فأنا الآن وحيدة ومتروكة لذاتي فوق هذه الصخرة المقفرة، فريسة لأول مغامر يريد أن يقتحم أبوابي، تحيط بي عصبة من الخدم غير الأوفياء، والعبيد الجاحدين الذين ينهبونني كل يوم ويهددون حياتي في بعض الأحيان. إني أدين بحياتي إلى هذا الخنجر الذي اضطررت لاستخدامه مؤخراً لحماية صدري من عبد أسود قمت بتربيته. إذن! إني سعيدة وسط

كل هذه المحن؛ وأجيب على كل شيء بعبارة المسلمين المقدسة: « الله كريم!»، وأنتظر بثقة المستقبل الذي حدثتك عنه، والذي أرغب في أن ألهمك أنت الثقة التي يجب أن تمتلكها بشأنه».

بعد أن دخنّا عدة غلايين، وشربنا عدة فناجين من القهوة كان العبيد يأتون بها كل ربع ساعة، قالت لي: «تعال، سوف أقودك إلى معبدي الخاص الذي لا أسمح لأي جاهل بدخوله، إنه حديقتي.» فنزلنا عدة درجات، ثم سرت معها، وأنا في حالة سحر كاملة، في أجمل الحدائق التركية التي رأيتها حتى الآن في هذا الشرق. عرائش معتمة تحمل قبتها المخضرّة عنب أرض الميعاد المتلألئ، مثل آلاف الثريات؛ مظلات تتعانق فيها زخارف الأرابيسك المنحوتة مع أشجار الياسمين والنباتات المتسلقة، عرائش الشرق؛ أحواض تأتي لتصب فيها مياه اصطناعية، في الواقع، نسمعها تهمس من على بعد فرسخ، ثم تنبثق من نوافير الرخام؛ وممرات مميزة بكل أشجار «إنكلترا» و«أوروبا» المثمرة، وبكل الأشجار المثمرة التي تنبت في هذه المناخات الجميلة؛ مروج من العشب الأخضر تتخللها شجيرات مزهرة، ومقصورات من الرخام تحيط بباقات من الورود الجديدة التي لم أر مثلها من قبل: هذه هي الحديقة. ارتحنا عدّة مرات في بعض من المظلات التي تزين الحديقة، ولم يفقد قط حديث الليدي «استير» الذي لا ينضب، طابعَه الصوفي ومواضيعه السامية التي تحدثت بها هذا الصباح. قالت لي في النهاية: «بما أن القدر قد أرسلك إلى هنا، وبما أن الاستلطاف المدهش بين نجومنا سمح لي بأن أسرّ إليك ما خبأته عن الكثير من الجهلة، تعال، أريد أن ترى بأم عينك أعجوبة من عجائب الطبيعة لا يعرف وجهتها إلا أنا وأتباعي؛ لقد حكت عنها نبوءات الشرق منذ قرون عديدة، وأريدك أن تحكم بنفسك إذا ما تحققت هذه النبوءات.»

فتحت أحد أبواب الحديقة التي تفضي إلى باحة داخلية رأيت فيها فرسين عربيين أصيلين، تتمتعان بكمال شكل نادر. قالت لي: «اقترب وانظر إلى هذه الفرس الكُمَيْت؛ انظر إذا لم يتحقق فيها كل ما كُتِب عن الفرس التي سوف تحمل المسيح المنتظر: إنها

سوف تولد مسرجة بالكامل». لقد رأيت بالفعل فوق هذا الحيوان الجميل تحفة طبيعية نادرة تهدف إلى إعطاء مصداقية سوقية للوهم لدى الشعوب نصف المتحضّرة: لقد كان في الفرس عوضاً عن الكتفين، تقعّر عريض وعميق، يحاكي في مظهره السرج التركي، حتى يمكن أن نقول حقيقة إنها ولدت مسرّجة، مع ركابين متقاربين يسمحان بامتطائها دون الحاجة إلى سرج اصطناعي. فيما تبقى، كانت هذه الفرس رائعة، وتبدو معتادة على مظاهر الإعجاب والاحترام الذي تبديه لها الليدي «ستانهوب» وعبيدها، وتحس بكرامة مهمتها المستقبلية؛ لم يركبها أحد من قبل، ويقوم على خدمتها ومراقبتها باستمرار، سائسان عربيان لا يدعانها تغيب لحظة واحدة عن أعينهما. وكانت هناك فرس بيضاء، برأيي أشد جمالاً منها، تتقاسم مع فرس المسيح، احترام وعناية الليدي «ستانهوب»؛ ولم يمتطها أحد أيضاً. ولم تقل لي الليدي «استير» ذلك، وإنما جعلتني أحزر بأنه على الرغم من قدر الفرس البيضاء الأقل قدسية، فقد كانت تمتلك هي أيضاً قدراً صوفيّاً مهمّاً؛ وفهمت بأن الليدي «ستانهوب» تحتفظ بها لكي تمتطيها في اليوم الذي سوف تدخل فيه «أورشليم» المحرّرة إلى جانب المسيح المنتظر[1].

وبعد أن نزّهنا هذين الحيوانين الجميلين فوق العشب خارج سور القلعة، واستمتعنا بليونتهما ورشاقتهما، عدنا أدراجنا، وجدّدت طلبي إليها لكي تسمح لي بتقديم صديقي ورفيق سفري السيد «بارسوفال»، الذي تبعني رغماً عني، والذي لا يزال يأمل منذ الصباح بغير طائل أن تتكرّم عليه بمعروف تضن عليه به. فقبلت في نهاية الأمر، ودخلنا نحن الاثنان أو الثلاثة لقضاء السهرة أو الليل في الصالون الصغير الذي وصفته سابقاً. وعادت القهوة والتبغ إلى الظهور بوفرة شرقية؛ وامتلأت القاعة سريعاً بغيمة من الدخان، حتى أن وجه الليدي «ستانهوب» كان يبدو لنا من خلال مناخ يشبه مناخ استحضار الأرواح السحري. لقد تحدثتْ بنفس القوة والجمال والوفرة، ولكن كان في حديثها قدرٌ أقل من العجائبية في ما يخص المواضيع المقدّسة

١ - هذا المقطع من كلام لامارتين يشير بوضوح إلى تعلق ستانهوب بالمشروع الاستعماري تعلقاً أكثر من صوفي، تصبغه بما يسميه من يجهلون مشروعها جنوناً.

بالنسبة لها، من القدر الذي تحدثت إلي به خلال النهار. قالت لي فجأة: « آمل أن تكون أرستقراطياً. إني لا أشك في ذلك عندما أنظر إليك. فأجبتها: «أنت مخطئة يا سيدتي، أنا لست أرستقراطياً ولا ديمقراطياً، لقد عشت بما يكفي لكي أرى وجهي العملة الإنسانية، ولكي أعرف أنهما فارغان كلاهما. أنا لست أرستقراطياً ولا ديمقراطياً، أنا إنسان ومؤيد حصري لما يمكن أن يحسّن ويطوّر الإنسان بأكمله، سواء وُلد في قمة السلّم الاجتماعي أو في أسفله! إني لست مع الشعب ولا مع العظماء، وإنما مع الإنسانية جمعاء؛ وأنا لا أؤمن لا بالمؤسسات الأرستقراطية ولا بالمؤسسات الديمقراطية، بل بالفضيلة الوحيدة لتطوير الإنسانية وجعلها كاملة؛ هذه الفضيلة ليست إلا الأخلاق الإلهية، ثمرة الدين الكامل: إن حضارة الشعوب هي إيمانها! أجابتني: «كل هذا صحيح. ولكني مع ذلك أرستقراطية رغماً عني، ولا شك أنك توافقني الرأي بأنه حتى لو كان للأرستقراطية عيوبها، فإن فيها على الأقل إلى جانب ذلك ، فضائل سامية تفتديها وتعوّض عن نقصها؛ أما في الديموقراطية فإنني أرى كثيراً من الرذائل والعيوب الشنيعة التي تثير الحسد، لكني أبحث فيها عبثاً عن الفضائل السامية». فقلت لها: «الأمر ليس كذلك يا سيدتي؛ هناك طرفان: الرذائل والفضائل، ولكن الرذائل في الطبقات الاجتماعية العليا تبدو وكأن لها جانباً براقاً؛ أما في الطبقات الدنيا فإن الأمر هو عكس ذلك، إذ تبدو العيوب بكل عريها، فتجرح بشكل أكبر الحسَ الأخلاقي للناظر الذي يتأملها: إن الاختلاف هو في الظاهر وليس في الواقع؛ لكن الحقيقة هي أن نفس الرذيلة تكون أشد قذارة عند الرجل الغني المترفع والمتعلم، منها عند الرجل المحروم من النور ومن الخبز؛ لأن الرذيلة اختيارية لدى الأول وضرورة بالنسبة إلى الآخر. فاحتقريها إذن أينما وجدتْ، واحتقريها أكثر عندما تكون وسط الأرستقراطية الفاسدة؛ يجب ألا نحكم على الإنسانية بحسب الطبقة الاجتماعية، وإنما بحسب الإنسان: فالكبار سيمتلكون ربما رذائل الشعب لو أنهم كانوا من أفراد الشعب، والصغار سيمتلكون ربما مثالب الكبار لو أنهم كانوا من السادة. الميزان متعادل؛ يجب أن نكفّ عن المقايسة». قالت لي: «حسناً! لنتجاوز هذا الموضوع؛ ولكن دعني أعتقد أنك أرستقراطي مثلي: إذ يعزّ علي أن أراك مثل العديد من الشبان الفرنسيين الذين يثيرون

الهياج الشعبي ضد كل الأعيان الذين صنعهم الله والطبيعة والمجتمع، والشبان الذين يهدمون الصرح لكي يجعلوا من أنقاضه منبراً لوضاعتهم الحاسدة!» قلت لها: «لا! اطمأني، أنا لست من هؤلاء الرجال؛ إني فقط من أولئك الذين لا يحتقرون من هم أدنى منهم شأناً اجتماعياً، مع احترامهم لكل ما هو أعلى منهم، ولكن رغبتهم وحلمهم هو في دعوة كل الناس، بغض النظر عن رتبتهم السياسية الاعتباطية، للوصول إلى نفس الاستنارة، ونفس الحرية، ونفس الكمال الأخلاقي. وبما أنك متدينة، وتؤمنين بأن الله يحب جميع أبنائه، وتنتظرين مجيء المسيح المنتظر لكي يقوّم جميع الأشياء، فإنك بلا شك تفكّرين مثلي ومثلهم». أجابت: «نعم، ولكني لا أهتم بالسياسة الإنسانية، فقد عيل صبري منها؛ لقد رأيت أشياء كثيرة خلال الأعوام العشرة التي قضيتها في ديوان خالي السيد «بيت» (Pitt)، فقد جاءت كل دسائس «أوروبا» لكي تدوّي من حولي. لقد احتقرت الإنسانية جمعاء عندما كنت شابة، ولم أعد أرغب في سماع شيء عنها؛ كل ما يفعله الإنسان للإنسان هو بدون ثمرة: إن الأشكال سيان بالنسبة لي». فقلت لها: «وبالنسبة لي أنا أيضاً». فتابعت قائلة: «إن جوهر الأشياء هو الله والفضيلة!» فأجبتها: «إني أفكر بنفس الطريقة. لذلك دعينا لا نتحدث عن الأمر، فنحن متفقان.»

ثم تطرقنا إلى مواضيع أقل أهمية، وطريفة عن أنواع التكهّن التي تجعلها تفهم الرجل بكامله من النظرة الأولى، وبمجرد معاينة نجمته، فأردت أن أضع حكمتها موضع الاختبار، وسألتها عن مسافر أو مسافرين من معارفي، مروا تحت أنظارها منذ خمسة عشر عاماً. فصُعقتُ من سلامة حكمها على هؤلاء الرجال. كما أنها حللت فضلاً عن ذلك ببصيرة وذكاء خارق طبع أحد هؤلاء الرجال الذي كنت أعرفه تمام المعرفة؛ كان من الصعب فهم طبعه من النظرة الأولى، إنه كبير ولكنه يختبئ تحت ستار من مظاهر السذاجة الأكثر بساطة وجاذبية. والذي أدهشني إلى أقصى الحدود، وجعلني أعجب أكثر بذاكرة هذه المرأة الصلبة، هو أن هذا المسافر لم يقض إلا ساعتين في حضرتها، وأن ستة عشر عاماً قد انقضت بين زيارة الرجل وطلبي إليها أن تحدثني عن انطباعاتها عنه. إن الوحدة تكثّف وتمتّن كل خصائص النفس. لقد فهم الأنبياء، والقديسون، والرجال العظماء والشعراء ذلك بشكل رائع؛ ودفعتهم طبيعتهم

كلهم للبحث عن الصحراء، أو التوحّد بعيداً بين البشر.

وسقط اسم «بونابارت» كالعادة في معرض الحديث. قلت لها: «اعتقدت أن تعصبك تجاه هذا الرجل قد وضع حاجزاً بيننا». قالت لي: «لم أكن متعصبة إلا بسبب مآسيه، وأنا أرثي لحاله». فأجبتها: «وأنا كذلك؛ وهنا نحن متفقان أيضاً.»

لم أستطع أن أفسّر كيف أن امرأة متدينة وأخلاقية تعبد القوة وحدها من غير دين ولا أخلاق ولا حرية! لقد كان «بونابارت» مشيداً عظيماً بلا شك؛ لقد أعاد بناء العالم الاجتماعي، ولكنه لم ينظر كفاية إلى العناصر التي شكّلته؛ لقد عجن تمثاله من الوحل ومن المنفعة الشخصية، بدلاً من أن ينحته من العواطف الإلهية والأخلاقية، أي من الفضيلة والحرية!

وهكذا انقضى الليل ونحن نتحدث بحرية، وبدون تصنع من قبل الليدي «ستانهوب»، ونخوض في كل المواضيع التي كانت تأتي وتذهب بسبب كلمة قيلت بالصدفة. شعرت أنه لا ينقص أي حبل في هذا الذكاء السامي والحازم، وأن كل مفاتيح الملامس الموسيقية تصدر صوتاً صحيحاً وقوياً ومليئاً، ربما باستثناء الوتر الميتافيزيقي، الذي شوهه التوتر الشديد والوحدة، أو رفعه إلى درجة عالية جداً بالنسبة إلى الذكاء الفاني. افترقنا بأسف صادق من ناحيتي، وبأسف مهذب من جهتها.

قالت لي: «لا أريد وداعاً، سوف نلتقي غالباً في رحلات أخرى لم تخطط لها بعد. اذهب واسترح، وتذكر أنك تترك صديقة لك في وحدة جبال لبنان». مدت لي يدها؛ ووضعتُ يدي على قلبي بحسب عادات العرب، ثم خرجنا.

زيارة الأمير بشير

وفي الساعة الرابعة من صباح الغد، كنّا أنا والسيد «بارسوفال» على ظهر جيادنا فوق المنحدر الشديد الذي ينزل من صومعتها ليصل إلى وادي «بيلوس» (Belus) العميق؛ اجتزنا معبر المياه الضحلة التي أستنضبها الصيف، وبدأنا بتسلق جبال «لبنان» التي تفصل «جون» عن «دير القمر»، حيث يوجد قصر الأمير «بشير»،

أمير دروز كل جبال «لبنان». لقد أعطتنا الليدي «استير» طبيبها لكي يرافقنا كترجمان، وأحد سائسيها العرب ليكون لنا دليلاً. وصلنا بعد ساعتين من السير تقريباً، إلى وادٍ أكثر عمقاً، وأشد ضيقاً، ويفوق جمالاً كل ما اجتزناه حتى الآن. وتبرز من اليمين ومن اليسار سلسلتان من الجبال التي يبلغ ارتفاعها من ثلاثمائة إلى أربعمائة قدم، على شكل سورين عموديين، وتبدو هاتان السلسلتان وكأنهما انفصلتا عن بعضهما للتو بواسطة مطرقة صانع الأكوان، أو بسبب الهزة الأرضية التي ضربت «لبنان» من أساساته، عندما أسلم «ابن الإنسان» روحه للخالق، على مقربة من هذه الجبال نفسها، مطلقاً تنهيدته الأخيرة التي حجبت روح الخطيئة، والقمع، والكذب، ونفخت الحقيقة، والحرية، والحياة في عالم متجدّد. إن هذه الكتل العملاقة التي انفصلت عن جانبي الجبال والمزروعة مثل حصى زرعتها يد طفل صغير في مجرى النهر، تشكل مجرىً رهيباً، وعميقاً، وهائلاً، وشائكاً لهذا السيل الجاف؛ وكانت بعض هذه الحجارة تشكل كتلاً أشد ارتفاعاً وأكثر طولاً من سقوف المنازل العالية. كان بعضها يتوضّع بشكل شاقولي مثل مكعبات صلبة وأزلية؛ وكان بعضها معلّقاً فوق زواياه ويسنده ضغط صخور أخرى غير مرئية، تبدو وكأنها ما زالت تسقط وتتدحرج وتعطي صورة خرائب ناشطة، وسقوط مستمر، وفوضى من الأحجار، وانهيار صخري لا يتوقف؛ صخور ذات ألوان جنائزية، ورمادية، وسوداء ومجزعة بلون النار وباللون الأبيض، صخور كثيفة ومعتمة؛ أمواج مجبولة بنهر من الغرانيت؛ لا توجد نقطة ماء واحدة في ثغرات هذا المجرى المتفحم بفعل شمس «سوريا» المحرقة؛ ولا غرسة عشب، أو عود أخضر، أو نبتة متسلقة، لا في السيل ولا في المنحدرات المتكسّرة والوعرة على ضفتي الهاوية: إنه محيط من الأحجار، شلال من الصخور، خلق تنوعاً في أشكالها، واختلافاً في وضعيّاتها، وغرابة في سقوطها، إنه لعبة الظل والنور فوق جوانبها أو سطوحها، ويبدو كالحركة الانسيابية. لو شاء «دانتي» (Dante) أن يرسم في إحدى حلقات جحيمه، جحيم الأحجار، وجحيم اليباب، والخراب، وسقوط الأشياء، وتدهور العوالم، وهرم

الأعمار، فهذا هو المشهد الذي كان عليه أن ينقله بكل بساطة: إنه نهر الساعات الأخيرة للعالم عندما تكون النار قد أتت على كل شيء، وعندما تصبح الأرض التي كشفت عن أحشائها، مجرد كتلة مبتورة من الحجارة المتفحّمة، تحت وقع أقدام القاضي الرهيب الذي سوف يأتي لزيارتها. تبعنا لمدة ساعتين وادي الدموع هذا، دون أن يتغيّر المشهد إلا بحسب المسارات المختلفة التي يسلكها السيل بين الجبال، وبالطريقة الرهيبة المتفاوتة، والتي تتخذها الصخور حين تتجمّع في قاعها الصخري الذي يغلي بالحجارة. لا يمكن أن أنسى ما حييت مشهد هذا الوادي. لا شك أن هذه الأرض كانت الأرض الأولى، أرض الشعر الرهيب والتأوهات الإنسانية: إن النبرة المؤثرة والمهيبة للنبوءات يمكن أن تُسمع في طبيعة هذه الأرض المتوحشة والمؤثرة والعظيمة. كل صور الشعر الموجودة في كتاب العهد القديم محفورة بأحرف كبيرة فوق وجه جبال «لبنان» المُخددة وقممها المذهبة، وأوديتها الجارية، وأوديتها الخرساء والميتة. إن الفكر الإلهي والإلهام الخارق الذي نفخ في أرواح وفي قيثارات هذا الشعب الشاعري الذي كلّمه الله بالرموز والصور، يلفت هنا بشكل أقوى نظر الشعراء الملحميين المقدسين منذ طفولتهم، ويغذيهم بحليب أقوى منّا، إنهم ورثة القيثارة القديمة الطاعنون في السن والشاحبون؛ أما نحن فلا نملك إلا طبيعة جميلة، ناعمة ومصقولة، طبيعة متحضرة فاقدة ألوانها على غرارنا.

وعند الظهيرة وصلنا إلى الجبال العالية التي يجب علينا اجتيازها. بدأنا بالنزول فوق الدروب الأشد انحداراً، حيث كانت أقدام خيولنا ترتجف فوق الحجر المتدحرج الذي يفصلنا وحده عن الهاوية. وبعد ساعة من الانحدار، لمحنا بعد المنعطف الذي يلي الصخرة، قصر «بيت الدين» الرائع، القريب من «دير القمر». شهقنا شهقة المفاجأة والإعجاب، وبحركة لا إرادية أوقفنا جيادنا لنتأمل المشهد الجديد والرائع الذي ينفتح أمام أعيننا.

وعلى بعد خطوات منّا، كان حوض ضخم من المياه المزبدة يخرج من سد الطاحون ويسقط من ارتفاع خمسين أو ستين قدماً، فوق الصخور التي كان يسحقها إلى قطع صغيرة طافية؛ إن صوت هذا الشلال والرطوبة التي يبعثها في الهواء، كان يهيئ حواسنا بشكل عذب للإعجاب الذي يطيب لها أن تستمتع به. وفوق هذا الشلال الذي يضيع في المهاوي التي نستطيع من هنا رؤية أعماقها، ينفتح واد عميق وواسع على شكل قمع، وهو مزروع من أسفله إلى قمته، بأشجار التوت والكرمة والتين؛ وكانت الأرض هناك تكتسي في كل مكان بالخُضْرة الأشد رطوبةً وخفّة؛ وكانت بعض القرى الجميلة معلقة على شكل شرفات فوق منحدرات كل الجبال التي تحيط بوادي «دير القمر». وانفتح الأفق من جهة واحدة مما سمح برؤية بحر «سوريا» من فوق قمم جبال «لبنان» الأقل ارتفاعاً. قال النبي «داود» (David) : هذا هو البحر الكبير» (Ecce mare magnum!)! ها هو البحر الكبير الأزرق بأمواجه وهديره وزواحفه الضخمة! ربما كان داوود واقفاً هنا حين أطلق عبارة التعجب الشاعرية هذه. في الحقيقة كنا نرى بحر «مصر» الملون بزرقة أغمق من زرقة السماء، والذي يمتزج مع الأفق البعيد بضبابه البخاري والبنفسجي الذي يغطي كل سواحل هذه المنطقة من «آسيا». ومن قلب هذا الوادي العميق تبدأ رابية «بيت الدين» التي تحمل قصر الأمير، ثم ترتفع مثل برج هائل، تحيط به صخور مغطاة باللبلاب، ويسمح بظهور باقات خضراء عائمة من شقوقه وفتحاته. كانت هذه الرابية ترتفع إلى مستوى الطريق المطلّ على الهوة، والذي كنّا معلّقين فوقه؛ ويفصلنا عنها هَور ضيق وهادر. وفوق قمته، على بعد عدة خطوات منّا، كان قصر الأمير ذو الطابع العربي يمتد بعظمة فوق هضبة «بيت الدين» بأكملها، بأبراجه المربعة المسننة الرؤوس والتي تتخللها الأقواس القوطية؛ وكانت الأروقة الطويلة ترتفع الواحدة فوق الأخرى، وتَظهر على شكل خيوط طويلة من القناطر الباسقة والخفيفة مثل أغصان النخيل التي كانت تتوجها بزينتها الهوائية؛ وكانت الباحات الكبيرة تهبط بدرجة كبيرة بدءاً من قمة الجبل حتى السور المحيط بالحصن. وفي نهاية أكبر تلك الباحات التي غاصت فيها أبصارنا من فوق المرتفع الذي كنّا فوقه، بدت لنا

واجهة الحرملك المتباينة الأبعاد، والمزخرفة بأعمدة صغيرة وخفيفة ورشيقة، وكانت جذوعها الرقيقة والمستدقة، ذات الأشكال المختلفة وغير المتساوية، ترتفع حتى مستوى السقف، وتحمل على شكل مظلة سدائل الخشب الملوّن الذي يشكّل رواق هذا القصر. وهناك درج من الرخام المزيّن بدرابزين منحوت بالرقوش، يؤدي من هذا الرواق إلى باب الحرملك: وكان هذا الباب منحوتاً من الخشب الكثير الألوان، ومؤطراً بالرخام وتعلوه كتابات عربية. وكان محاطاً بالعبيد السود الذين يرتدون الملابس الفخمة، والمسلحين بمسدسات مفضضة، وسيوف دمشقية لامعة بذهبها وزخارفها. أما الباحات الواسعة المواجهة القصر فقد كانت ممتلئة بجمع من الخدم، ورجال البلاط، والكهنة والعساكر، بكل الثياب المتنوعة والجميلة التي تتميّز بها الفئات الست التي يشكلها سكان «لبنان»: الدروز، والمسيحيون، والأرمن، واليونان، والموارنة والمتاولة. وكان هناك خمسمائة أو ستمائة حصان، مربوطة من قوائمها ورؤوسها بواسطة حبال ممدودة تجتاز الباحات، وكانت مسرّجة وملجومة ومغطاة بأردية براقة متعددة الألوان؛ وبعض مجموعات من الجمال، بعضها نائخ والآخر واقف، وبعضها على ركبتيه لكي يتم تحميله أو إنزال الحمل عنه. وفوق شرفة الباحة الداخلية الأكثر ارتفاعاً، كان بعض الخدم يتراكضون وهم على ظهور الجياد، ويمارسون سبق «الجريد» ويحاول أحدهم تفادي الآخر بالانبطاح فوق حصانه، ثم يعود للانقضاض على خصمه الأعزل بأقصى سرعة، وكانوا يؤدون كل الحركات السريعة التي تتطلبها هذه اللعبة العسكرية، برشاقة وقوة تثيران الإعجاب.

بعد أن تأملنا للحظات هذا المشهد الشرقي الجديد بالنسبة لنا، اقتربنا من الباب الواسع والضخم لأول باحة في القصر، وكان حراسه من العرب المسلحين ببنادق وحراب طويلة وخفيفة، تشبه عيدان نبات القصب الطويل. وهنا أرسلنا إلى الأمير الرسائل التي كنّا نحملها له. فأرسل إلينا بعد عدة لحظات، كبير أطبائه السيد «برتران» (Bertrand)، الذي ولد في «سوريا» من عائلة فرنسية، وهو لا يزال يحافظ على لغته وعلى ذكرى وطنه. فقادنا إلى الجناح الذي خصنا به حسن ضيافة الأمير، ثم

قاد العبيدُ حاشيتَنا وجيادنا إلى قسم آخر من القصر. كان جناحنا عبارة عن باحة جميلة ومزينة بأعمدة مزخرفة بالرقوش، مع نافورة ماء تتدفق في الوسط وتجري في بحرة رخامية واسعة؛ ويحيط بالباحة ثلاث غرف وإيوان، أي أنه جناح أكبر من الأجنحة الباقية، مؤلف من قوس يطل على باحة داخلية، وليست له أبواب ولا ستائر لإغلاقه: إنه مرحلة انتقالية بين المنزل والشارع، وهو بمثابة حديقة للمسلمين الكسالى الذين استعاضوا بهذه الظلال الثابتة عن ظل الأشجار التي لا يحسنون زراعتها، والتي لا يملكون الشجاعة للذهاب إلى الأماكن الطبيعية التي تتواجد فيها مثل هذه الأشجار. ربما بدت غرفنا، على الرغم من كونها داخل القصر، بائسةً حتى لأفقر فلاحينا الذين يسكنون الأكواخ؛ كانت النوافذ من غير زجاج، فهو ترف لا يعرفه الشرق، وذلك على الرغم من قساوة الشتاء في هذه الجبال؛ لا أسرّة، ولا أثاث، ولا مقاعد؛ لا شيء إلا جدران عارية، هرمة، ثقبتها الجرذان والعظاءات؛ أما الأرضية فقد كانت من الطوب غير المستوي والممزوج بالقش المفروم. ثم أحضر بعض العبيد حصراً من الخيش وفرشوها فوق الأرضية، ثم غطوها بسجاجيد دمشقية؛ وأحضروا بعد ذلك طاولة صغيرة صنعت في «بيت لحم»، وهي من الخشب المعشّق بأصداف اللؤلؤ: ولا يتجاوز قطر هذه الطاولات نصف قدم، ولا يزيد ارتفاعها عن ذلك أيضاً؛ وهي تشبه مقطع عمود مكسور، ولا تستطيع أن تحمل إلا صينية واحدة، يضع فوقها المسلمون الأطباق الخمسة أو الستة التي تتألف منها وجبتهم.

ووضعوا طعامنا فوق هذه الطاولة وكان يتألف من أرز مفلفل باللحم، ومن طبق من اللبن الحامض الذي يُمزج بالزيت، ومن بعض قطع لحم الخروف المطحونة التي يسحقونها مع الأرز المسلوق، ويحشون بها بعض أنواع اليقطين الذي يشبه الخيار في بلادنا. إنه الطبق الأفخم والأطيب الذي يمكن تناوله في الشرق بأكمله. أما الشراب، فكان الماء العذب الذي نشربه في أباريق فخارية ذات عنق طويل، نمررها من يد إلى أخرى ونجعل الماء ينزل في الفم المفتوح دون أن تلامس الشفاه طرف الإناء. لا سكاكين، ولا ملاعق، ولا شوك: أكلنا بأيدينا، ولكن طقوس الاغتسال الكثيرة التي يقوم بها المسلمون قبل الأكل، تجعل هذه العادة أقل استهجاناً.

ولم نكد ننهي طعامنا حتى أرسل الأمير بطلبنا وقال إنه بانتظارنا. فاجتزنا باحة واسعة مزينة بالنوافير ورواقاً مؤلفاً من أعمدة طويلة أتلفها البَرَد، وتنطلق قاعدتها من الأرض وهي تحمل سقف القصر. وأدخلونا بعد ذلك إلى قاعة جميلة جداً، أرضيتها من الرخام، وقد طلى سقفها وجدرانها فنانون من «أنطاكية»، بألوان صارخة وبرقوش أنيقة. وكانت نوافير من الماء تهمس في زوايا الغرفة؛ وفي القاع، وخلف مجموعة من الأعمدة، كانت المسافة بين كل عمودين منها مشبّكة ومزودة بالألواح الزجاجية، رأينا نمراً ضخماً ينام وقد أسند رأسه فوق قائميته المعقودتين. كان نصف القاعة مملوءاً بكتبة يرتدون الأثواب الطويلة، وقد ظهرت ألواحهم المفضضة على أحزمة خصورهم وكأنها خناجر، وبرجال عرب يرتدون الثياب الفخمة ويحملون الأسلحة، وبعبيد وبخلاسيين ينتظرون أوامر سيدهم، وببعض الجنود المصريين الذي يرتدون الملابس الأوروبية ويعتمرون القبعات اليونانية ذات الغطاء الأحمر، مع خصل طويلة تتدلى حتى مستوى الكتفين. ويرتفع الجزء الآخر من القاعة نحو قدم، وتحيط به من جميع الجوانب أريكة من المخمل الأحمر. وكان الأمير يجلس القرفصاء في زاوية هذه الأريكة. كان شيخاً بهياً نظرته حية وثاقبة، ولون وجهه نضر وحيّ، ولحيته رمادية ومتموجة؛ وهو يرتدي ثوباً أبيض اللون، معقوداً بحزام من الكشمير، يغطي جسده بالكامل، ويخرج من طيات الثوب على مستوى الصدر، مقبض خنجر ناصع وطويل وعريض، ومزين بباقة من الماس بحجم البرتقالة. حييناه على طريقة أهل البلد، واضعين أيدينا على جباهنا أولاً ثم على قلوبنا؛ فرد تحيتنا بشكل جميل وبابتسامة، وأشار إلينا لكي نقترب ونجلس فوق الديوان إلى جانبه. وكان هناك ترجمان جاثياً على ركبتيه بيننا وبينه. بدأت الحديث معبراً له عن فرحتي بزيارة البلد الهام والجميل الذي يحكمه بحزم وحكمة، وقلت له من بين عدة أشياء أخرى، إن المديح الذي يمكن أن أقوله للتعبير عن إعجابي به، هو زيارتي له ووجودي في هذا المكان؛ وإن سلامة الطرقات، وغنى الزراعة، واستتباب النظام والسلم في المدن، هي كلها شواهد تنطق بفضيلة الأمير وحنكته. فشكرني وسألني عن بعض الأمور المتعلقة خصوصاً بسياسة أوروبا في القتال الناشب بين الأتراك والمصريين، مما يدل على أهمية

هذه المسألة بالنسبة إليه، وعلى معرفته وخبرته بالمسائل التي لا تعني عادة أمراء الشرق. ثم أحضروا القهوة والغلايين الطويلة، التي كانوا يجددونها من حين إلى آخر، واستمر الحديث لمدة ساعة تقريباً.

سررت من الحكمة والذكاء والسلوك النبيل والمحترم لهذا الأمير الكهل، ونهضت بعد حديث طويل، وسرت معه إلى حمّاماته التي أراد أن يريني إياها بنفسه. كانت هذه الحمّامات مؤلفة من خمس أو ست صالات أرضيتها من الرخام المقسّم إلى مربعات، وقد طُليت قبابها وجدرانها بالكلس ورسم فوقها بالألوان المائية فنانون من دمشق، بكثير من الذوق ومن الأناقة. وكانت نوافير من الماء الساخن والبارد أو الفاتر، تخرج من الأرض المبلّطة وتنشر حرارتها في الصالات. وآخر تلك الصالات كانت قاعة البخار، واستطعنا أن نبقى فيها لمدة دقيقة. وكان هناك في الصالات عدة عبيد من ذوي البشرة البيضاء، وجوههم جميلة، وجذوعهم عارية، ولفوا مآزر من الحرير الخام حول سيقانهم، وهم على أهبة الاستعداد لممارسة مهامهم كمساعدين في الحمام. عرض الأمير علينا أن نستحم معه: لكننا رفضنا وتركناه بين أيدي عبيده الذين كانوا يتحضرون لنزع ثيابه عنه.

وذهبنا من هنا مع أحد سائسي خيله لكي نزور الإسطبلات حيث رُبطت خيول عربية رائعة. يجب أن تزور إسطبلات «دمشق» أو إسطبلات الأمير «بشير» لكي تأخذ فكرة عن الحصان العربي. إن هذا الحيوان الرائع والجميل يفقد جزءاً من بهائه، ومن عذوبته، ومن شكله الجميل عندما ننقله من موطنه الأصلي ومن عاداته اليومية، إلى مناخنا البارد، وإلى الظل والوحدة الموجودين في حظائرنا. يجب أن تراه على باب خيام البدو في الصحراء، رأسه بين قائمتيه، وهو ينظف جانبيه المصقولين مثل النحاس أو الفضة، بضربات من سوط ذيله الدوّار، الذي تزدان نهايته بالحنة دائماً: يجب أن تراه وهو يلبس سرجه الباهر والمطعم بالذهب وبطريز من اللؤلؤ، وقد غطت رأسه شبكة من الحرير الأزرق أو الأحمر المزخرف بخيوط الذهب أو الفضة، بالإضافة إلى ضفائر

رنانة وخفّاقة تتدلى من جبينه إلى خيشوميه وهو يخفيها تارة ويظهرها تارة أخرى، بحسب حركات عنقه؛ مقلتاه مشتعلتان، وواسعتان، وذكيتان، وهو وديع وفخور بعينيه المحملقتين: يجب أن تراه على الأخص ضمن مجموعة من الأحصنة، كما رأيته هنا، مئتان أو ثلاثمائة حصان، بعضها ينام فوق تراب الباحة، وبعضها مربوط بحلقات معدنية وُصلت بها حبال طويلة تجتاز الباحات بأكملها، وبعضها قد هرب إلى الرمال واجتاز بقفزةٍ طابورَ الجمال التي تعيق مساره؛ وهذه الخيول كانت بين أيدي عبيد سود يافعين، يرتدون سترات فاقعة الألوان، وكانت تريح رؤوسها الحنونة فوق أكتاف صغارها التي تلعب حرّة وطليقة مثل المهور في مرج، ينتصب أحدها في وجه الآخر، ويفرك جبينه مقابل جبين الآخر، أو يلعق الواحد جلد الآخر اللامع والفضي؛ نظرتْ الخيول إلينا بانتباه حذر وفضولي، بسبب ملابسنا الأوروبية ولغتنا الغريبة، ولكنها استأنست سريعاً ومدت أعناقها بجمال لمداعباتنا ولأصوات الاستحسان الصادرة عن أيدينا. إنه لشيء رائع أن ترى حركة وشفافية محيّا هذه الخيول عندما لا تكون قد شاهدتَ مثلها من قبل. إن جميع أفكارها ترتسم في أعينها وفي اختلاجات خدودها، وشفاهها وخياشيمها، بنفس الوضوح والخصوصية والحركة التي تتركها انطباعات الروح فوق وجه طفل. عندما اقتربنا منها للمرّة الأولى كانت تبرطم وتكشّر بنفور وفضول كما يفعل رجل شديد الحساسية أمام مشهد أداة غير متوقعة ومُقلقة. كانت لغتنا على الأخص تثير انتباهها وتدهشها بشدة، وكانت حركات أذنيها المنتصبة والمقلوبة إلى الخلف أو الممدودة إلى الأمام، تدل على دهشتها وقلقها: تأملت بشكل خاص بعض الأفراس التي لا تقدّر بثمن، والمخصصة للأمير نفسه. طلبت من ترجماني أن يعرض مبلغ عشرة آلاف درهم ثمناً لواحدة من أجملها؛ ولكن لا يمكن إقناع عربي بأي مبلغ كان، للتخلي عن فرس أصيلة، ولم أستطع شراء أي شيء هذه المرّة.

عدنا إلى جناحنا في آخر النهار، وأتونا بعشاء شبيه بطعام الغداء. وجاء عدّة ضباط من جنود الأمير لزيارتنا بأمر منه. وقضى السيد «بيرتران»، كبير أطبائه،

السهرة معنا. واستطعنا أن نتحدث بواسطة القليل من الإيطالية ومن الفرنسية التي احتفظ بها من ذكرياته العائلية. أعطانا معلومات هامة عن حياة أمير الدروز الداخلية. إن هذا الأمير قد تزوج حديثاً للمرة الثانية على الرغم من أنه يبلغ الثانية والسبعين من العمر، وأنه فقد منذ وقت قليل زوجته الأولى، التي تعود إليها ثروته بالكامل. تأسفنا لأننا لم نستطع رؤية زوجته الجديدة: يقال إنها فائقة الجمال. وتبلغ الخامسة عشرة من العمر؛ وهي عبدة شركسية طلب الأمير شراءها من «القسطنطينية»، وجعلها تتنصر قبل أن يتزوجها؛ لأن الأمير «بشير» هو نفسه مسيحي، لا بل كاثوليكي، أو بالأحرى يمثل قانون التسامح السائد في كل هذه البلاد، إنه ينتمي إلى كل العبادات الرسمية المنتشرة في بلاده: إنه مسلم للمسلمين، ودرزي للدروز، ومسيحي للمسيحيين. في بلده عدة جوامع وكنيسة؛ لكن دين أسرته ودين قلبه هو الكاثوليكية منذ بضع سنوات. إن سياسته معروفة، والرعب الذي ينشره اسمه منتشر لدرجة أن إيمانه المسيحي لا يثير الحساسية أو الكره في نفوس العرب المسلمين، أو الدروز، أو المتاولة الذين يعيشون تحت حكمه. إنه ينصف الجميع، والجميع يحبونه كذلك.

وفي المساء، بعد العشاء، أرسل لنا الأمير بعض موسيقييه ومغنّيه الذين ارتجلوا على شرفنا بعض الأبيات باللغة العربية. ومن بين خدمه هناك بعض العرب المختصين بهذا النوع من الاحتفالات: إنهم تماماً كما كان الـ «تروبادور» (Troubadours)، الشعراء الجوالون، في قصور القرون الوسطى، أو كما كان الشعراء الشعبيون في «اسكتلاندا» (Ecosse) .إنهم يقفون خلف أريكة الأمير أو أحد أبنائه أثناء تناولهم الطعام، فينشدون الأشعار في مديح السادة الذين يخدمونهم، أو الضيوف الذين يرغب الأمير في تكريمهم. جعلنا السيد «برتران» يترجم لنا بعض تلك الأبيات الشعرية: فإما كانت في غالبيتها لا معنى لها، أو أن أفكارها عميقة لدرجة يصعب ترجمتها والتعبير عنها بصور مستقاة من لغاتنا الأوروبية.

هذه هي الفكرة الواضحة الوحيدة التي سجلتها في دفتري:

«لمركبك أجنحة، ولكن للحصان العربي أجنحة كذلك. إن خياشيمه حين يطير فوق جبالنا، تصدر صوت الهواء الذي ينفخ في أشرعة السفينة. إن حركة عدوه السريع هي مثل أمواج البحر بالنسبة إلى القلوب الضعيفة؛ لكنه يُبهج قلب العربي. ليكن ظهره سدّة شرف لك، وليحملك في أغلب الأوقات إلى ديوان الأمير.»

وكان من بين مساعدي الأمير أحد أكبر شعراء العرب. لم أكن أعرف ذلك، وإنما عرفته فيما بعد. عندما علم من بعض عرب «سوريا» أنني أحد شعراء «أوروبا»، كتب إلي أبياتاً من الشعر يغلب عليها التكلف والتلاعب اللفظي الذي يميّز لغات تلك الحضارات العتيقة، ولكننا نرى في هذا الشعر سمات موهبة عالية وترتيباً في الأفكار أرفع بكثير من الذي نصوّره في «أوروبا».

نمنا فوق أرائك الديوان، متمددين فوق الحصر، على صوت نوافير المياه التي تهمس في كل أنحاء الحدائق، وفي باحات وصالات هذا الجزء من القصر. وعندما طلع الصبح رأيت من خلال الحاجز المشبك بعض المسلمين الذين يؤدون الصلاة في باحة القصر الكبيرة. لقد بسطوا سجادة فوق الأرض لكي لا يلامسوا التراب؛ فكانوا يقفون لبرهة من الزمن، ثم ينحنون دفعة واحدة ويلمسون السجادة بجباههم عدة مرات، ووجوههم مصوبة باتجاه الجامع؛ ثم كانوا ينبطحون تماماً فوق السجادة؛ فيضربون الأرض بجباههم؛ ثم ينهضون ويعاودون الشعائر نفسها مرات عديدة، ويتخذون الوضعيات ذاتها ويتمتمون بالصلوات. لم أجد في يوم من الأيام أي أمر مضحك في هذه الوضعيات وفي هذه الشعائر، مهما بدت غريبة بالنسبة إلى جهلنا. إن وجوه المسلمين قد تشربت الشعور الديني إلى أبعد حدّ، وهي تعبّر عنه بهذه الحركات، لدرجة أنني كنت أحترم صلاتهم دائماً وبشكل عميق: إن الدافع يقدّس كل شيء. وأينما نزلت الفكرة الإلهية وأثرت في الإنسان، فإنها تمنحه وقاراً يفوق الطبيعة. ويمكننا أن نقول:

«أنا لا أصلي مثلك، ولكني أصلي معك للرب المشترك، الرب الذي تؤمن به وتريد الاعتراف به وتسبيحه، كما أريد الاعتراف به وتسبيحه ولكن بشكل آخر. ليس علي أن أسخر منك، وإنما على الله أن يحاكمنا جميعاً.»

قضينا فترة الصباح في زيارة قصور أبناء الأمير، التي تبعد قليلاً عن قصره؛ ورأينا كنيسة كاثوليكية صغيرة تشبه تماماً الكنائس الحديثة الموجودة في أرياف «فرنسا» أو «إيطاليا»، وزرنا حدائق القصر كذلك. لقد بنى الأمير «بشير» قصراً ريفياً آخر يبعد ميلاً تقريباً عن «بيت الدين»، ويقصده في جولاته على ظهر حصانه، وهو تقريباً الطريق الوحيد الذي يستطيع حصان، وحتى حصان عربي، تسلقه دون خطر؛ في حين كانت جميع الدروب الأخرى التي تؤدي إلى «بيت الدين» شديدة الانحدار ومعلقة على شفير مثل تلك المهاوي، بحيث لم نجرؤ على التقدم خطوة قربها دون أن نشعر بالقشعريرة.

وقبل أن نغادر «بيت الدين» و«دير القمر»، كتبت بعض الملاحظات الحقيقية والغريبة، التي جمعتها من أهل المكان، بخصوص الشيخ الذكي والمحارب الذي تعرفنا إليه للتو.

ملاحظات حول الأمير بشير

بعد وفاة آخر أبناء الأمير «فخر الدين»، انتقلت رئاسة الجبل إلى أيدي أسرة «شهاب». ولم تكن هذه العائلة قد استقرت في «لبنان» إلا منذ مئة وعشر سنوات تقريباً. وهذا ما روته الأخبار القديمة التي تحدث عنها عرب صحراء «دمشق»:

في بدايات القرن الأول الهجري، في الفترة التي اجتاح فيها جيش «أبوبكر» «بلاد الشام»، كان هناك رجل شجاع اسمه «عبدالله»، وكان يسكن قرية صغيرة اسمها «بيت شهابي»، تقع في بادية الشام، وقد اشتهر هذا الرجل أثناء حصار المدينة، وقُتل عند أسوارها. فأجزل القائد المسلم العطاء لأسرته التي تركت بعدها «بيت شهابي»

وذهبت لتستقر في «حاصبيا»، التي تقع في سلسلة جبال «لبنان» الشرقية. وما زلنا نجد هناك الأصول الأولى لهذه العائلة التي خرج منها الفرع الذي يحكم «لبنان» حالياً.

إن الأمير «بشير» هو أحد أحفاد «عبدالله»، وقد أصبح يتيماً وهو في سن صغيرة. وكان والده الأمير «حسن» قد لبس «رداء الإمارة»، وتسلم خاتم القيادة، وحين انسحب عمّه الأمير «ملحم» من الأمور، لكي ينهي أيامه بهدوء ويتقاعد، تسلم «حسام»[1] زمام الأمور ولكن إدارته كانت خرقاء وتنقصها الحيوية اللازمة، فاضطر «ملحم» إلى تسلم القيادة مرّة أخرى، واضطر كذلك لتصحيح أخطاء ابن أخيه وتهدئة القلاقل التي سبّبها عجزه وقلة كفاءته.

هذا ما رواه «ڤولني» (Volney)، ثم انتقل الحكم تباعاً من «منصور» إلى «يوسف»، كان الأول والد «ملحم» والثاني ولده. عندما تسلّم يوسف الحكم للمرة الأولى كان الأمير «بشير» في السابعة من العمر. فألحقه «يوسف» بعائلته، واعتنى بتربيته. وبعد عدة سنوات، وعندما رأى فيه رجاحة العقل والشجاعة، أدخله في أعمال حكومته.

وفي هذه الأثناء كان «الجزار» باشا «عكا»، الذي خلف «ظاهر العمر»، يُتْعب الأمير «يوسف» منذ عدة سنوات، بسبب المعارك المتكررة والضرائب الفاحشة. ثم اندلعت الحرب؛ لكن «بشير» لم يتمكن من اللحاق بعمه في هذه الحملة: ولم يشارك إلا في الحملة الثانية التي حصلت عام ١٧٨٤ ضد «جزار باشا»[2]. وكان «بشير» شاباً في الحادية والعشرين من عمره، وتعرّض لخطر كبير في مدينة «ريض» (Ryde)، التي كان الدروز قد استولوا عليها. فلاحقته فرقة من جنود الباشا، واضطر إلى الجلاء عن المدينة، وأثناء انسحابه حاصره العدو. وكان الوضع حرجاً: فدفع «بشير» حصانه باتجاه أحد أسوار المدينة، وقفز من فوقه وسط وابل من الرصاص؛ ولحسن الحظ لم يصب بأي أذى؛ لكن حصانه مات من جراء السقطة.

---

١ - المقصود هو حسن، وحسام مجرد تصحيف. على الأرجح.

٢ - هو أحمد باشا الجزار والي عكا الذي هزم نابليون بونابرت (Napole'on Bonaparte) عند أسوارها عام ١٧٩٩ م

وعند عودته إلى «لبنان» تفرّغ الأمير «بشير» لإدارة الأعمال بشكل كامل، وأراد أن يعيد النظام إلى إدارة الأمير «يوسف». ولم يلبث الطموح أن استيقظ في نفسه؛ فتذكر أنه ابن فلان، وعلى الرغم من فقره، بدأ يطمع بالحكم. فربط أواصر الصداقة مع عدة عائلات متنفذة، بسبب تصرفاته وشجاعته؛ واجتهد لكسب ثقة عائلات أخرى تشعر بالنفور من سوء إدارة الأمير «يوسف»، واستطاع أن يكسب إلى صفه عائلة كبيرة وشديدة النفوذ، وهي عائلة «قنطار»، التي كان زعيمها أذكى رجل في «لبنان» في ذلك الوقت، وكان شديد الغنى، ويحمل لقب «الشيخ بشير»، أي أنه كان كبيراً وشهيراً. ولم تكن تنقص الأمير «بشير» إلا الفرصة السانحة؛ وتهيأت له.

بعد أن أعاد «الجزار باشا» الحكم إلى «يوسف» في عام ١٧٨٥، الذي حرم منه لعام كامل، انتهت العداوات بين هذين الأميرين بشكل نهائي. وكان الأمير «يوسف» يرسل كل عام ضباطه إلى «عكا» الذين كانوا يُلبسونه «رداء الإمارة» والمجاملات المعهودة؛ لكنه كان يخشى على الدوام وقوع سوء تفاهم بينه وبين الباشا، وهذا ما حصل بعد فترة من الزمن.

وحصلت قطيعة كبيرة بين الأميرين عام ١٧٨٩؛ وبما أنه لم يكن باستطاعة الأمير «يوسف» أن يقاوم، فقد اضطر إلى التنحي. وكان «بشير» يمتلك رصيداً جيداً؛ و«يوسف» يحبه: فاستدعاه للمثول أمامه، ونصحه بالذهاب إلى «عكا» وبالمطالبة بخاتم القيادة. فرفض «بشير» في بادئ الأمر، وقال لعمه إن ذلك يستدعي إبعاده عن ولاياته، لأن الباشا سوف يفرض ذلك، كما أن وجود «الجزار» في «لبنان» سوف يصبح مصدراً دائماً لزرع التفرقة والشقاق. عندما عرض «يوسف» الأمر على قريبه كان على حق لسببين اثنين: لمنع خروج الحكم من نطاق عائلته، ولإعادة استلام مقاليده عندما ينجح «بشير» في تذليل كل العقبات، سواء عن طريق المصالحة أو عن طريق السلاح.

فألح إذن على طلبه؛ ووافق الأمير «بشير» الشاب على السفر إلى «عكا» بعد أن وعده الأمير بترك البلاد بمجرد أن يتسلم هو القيادة. واستقبله «الجزار باشا»

بترحاب، وعهد إليه بحكم «لبنان»، وأعطاه ثمانية آلاف رجل لكي يثبّت حكمه ويلقي القبض على الأمير «يوسف». وعندما وصل «بشير» إلى جسر «القاضي»، كتب إلى عمه سراً، وأخبره بالأوامر التي تلقاها من الباشا، وشجعه على الانسحاب. فانسحب الأمير «يوسف» إلى «جبيل»، في منطقة «كسروان»، حيث بدأ بتجميع مؤيديه. وضم «بشير» إلى جنوده الرجالَ الذين أتى بهم من «عكا»، ومشى للقاء «يوسف» في «كسروان»: فحاربه وجعله يخسر الكثير من رجاله؛ ولكن مرّت عدة أشهر على المعركة دون أن تحسم الأمور بشكل نهائي.

ولإنهاء هذا الخلاف، أرسل «يوسف» إلى «عكا» برقية يعد فيها الباشا بجزية أكبر من التي يدفعها له «بشير» إذا ما تعهد الباشا بإعادة القيادة له[1]. فوافق «الجزار» واستدعاه إلى «عكا»، وأعاد إليه «رداء الإمارة»، وأعطاه الثمانية آلاف رجل الذين حاربوا ضده، لكي يتمكن من طرد «بشير». فانسحب الأمير «بشير» إلى مقاطعة «بيت مري»، حيث بدأ يعمل على إسقاط خصمه، وعرض مبلغاً أكبر من المبلغ الذي قدمه الأمير «يوسف»: فقبل الباشا، واضطر «يوسف» عندها إلى التنحي. وعاد إلى «عكا» في محاولة لحبك مؤامرات أخرى؛ لكن «بشير» عرض على الباشا أربعة آلاف صرّة من النقود (مؤلفة من خمسمائة قطعة، كل واحدة منها من فئة الأربعين قرشاً)، في حال قبل الباشا بقتل «يوسف» وكان هدفه من وراء ذلك أن يضع حداً نهائيّاً للقلاقل التي كانت تجتاح الجبل في ذلك الحين.

وكان «الجزار» آنذاك في «دمشق». وقام وزيره (وهو رجل يوناني حائز على ثقته التامة، ومخول بإدارة «عكا» مثل الباشا في حال غياب هذا الأخير)، ببحث المسألة باسمه، وأخبر سيده بالاتفاق الذي أبرمه. فلاقى هذا العرض استحسان الباشا في بادئ الأمر، فصدّق على الاتفاق وأمر بالقبض على «يوسف» وعلى وزيره «غندور».

لكن الباشا ما لبث أن ندم بعد أن أعطى أوامره: وبدا له أن صحبة الأميرين ضرورية لمصالحه، فأرسل أمراً ثانياً ينقض فيه الأمر الأول؛ ولكن إما لأن الأمر وصل

١ - لا يمكن أن يكون هذا التحول من دون أسباب، لا سيما أنه تم بعد اتفاق. وهو ما لم يشر إليه لامارتين.

متأخراً، وإما لأن «بشير» قد نجح في كسب الوزير إلى صفه، فقد تم شنق الأمير «يوسف». لقد أثار هذا الإعدام غضب الباشا؛ فعاد إلى «عكا»؛ واطّلع على ملابسات القضية، وادعى بأن وزيره قد ضلله، فأمر بإغراق وزيره هو وجميع أفراد عائلته، بالإضافة إلى العديد من الأشخاص الذي اتهموا بضلوعهم في هذه القضية.

استولى «الجزار» على ممتلكات وزيره الهائلة، وكتب رسالة لوم للأمير «بشير». لقد أنذرت لهجة الرسالة الأمير الشاب بأنه كان متهماً ومتورطاً. فحاول أن يبرر نفسه أمام الباشا، الذي أخفى كل شيء حتى موعد إعادة انتخاب الحاكم: فدعا «الجزار» عندها الأمير للمجيء إلى «عكا» لاستلام أمر تنصيبه.

فذهب بدون أي توجس مع وزيره «الشيخ بشير»؛ ولكن ما إن وصلا حتى رمي بهما في زنزانة، حيث ذاقا كل أصناف التعذيب خلال ثمانية عشر أو عشرين يوماً من الأسر. كان هدف «الجزار» من معاملتهما على هذا النحو أن يجبرهما على دفع فدية كبيرة؛ لكن الأمير لم يكن يملك أي شيء؛ فقد حدّد الباشا وقتاً قصيراً جداً لا يكفي لجمع ثروات كبيرة. لكن وزيره وجد حلاً للمسألة. فأرسل إلى الباشا بشكل سرّي أرملة أمير درزي اسمها «الست حبّوس»، وكان على علاقة حميمة معها؛ وأوكل إليها مهمة إعطاء الباشا المبلغ المطلوب، وأن تدعي بأنها قد رهنت حليها الشخصية لكي تكمل مبلغ الفدية. فذهبت إليه. وكانت امرأة لبقة وشجاعة وشديدة المهارة. فوجدت باشا «عكا» وكسبت ودّه بجمال شخصها وذكائها، فأنقص الباشا بشكل كبير قيمة الفدية التي طلبها. وأعيد المنصب إلى الأمير «بشير»، الذي عاد بعد أن نال حظوة في عيني الباشا.

ولكن أثناء فترة الأسر تلك، استولى شقيق الأمير «يوسف» وابن عمّه الأمير «حيدر» في «بعبدا» على الحكم، واتخذا الإجراءات الضرورية لمنع الأمير «بشير» من العودة إلى ولاياته في حال أعاد له «الجزار» حريته. بعد خروج الأمير «بشير» من السجن، وجد أنه من باب الحيطة، ألا يظهر الآن بين ذويه، فأرسل وزيره «الشيخ بشير»

ليسبر أفكار العامة، أما هو فقد انسحب إلى قرية «حمص» وبقي فيها بانتظار نتائج المفاوضات. وفي هذه الأثناء بدأ يعمل لكسب ودّ الأمير «عباس»، وهو الأمير الدرزي الذي كان يحكم «سلمية»، والذي كان قد اختار البقاء على الحياد حتى تلك اللحظة، وكان يتمتع باحترام كبير في الأوساط الدرزية والمسيحية، وخاصة في بلدة «مرستي».

ورأى الأمير «عباس» بأن مطالب الأمير «بشير» عادلة، فانحاز إلى صفّه وشجعه على المجيء إليه. وبما أن وسائل الاتصال كانت صعبة للغاية، فقد أرسل إليه برقية بواسطة رجل إيطالي، وهو راهب أخ في دير « سلمية». وذهب الأمير «بشير» إلى أوساط مؤيديه، الذين زاد عددَهم «الشيخُ بشير» بسبب عطاياه وحنكته، وأغار بقوة على جيش أعدائه وفرّقهم، وقبض على الأميرين وأمر بخنقهما، واكتفى بذلك.

وبعد أن استولى الأمير «بشير» على السلطة، تزوج من أرملة أمير تركي، وكانت مثله من عائلة «شهاب»، وكان قد أمر بقتل زوجها قبل عامين. وجعله هذا الزواج يمتلك ثروة هائلة. وقبل أن يتزوج هذه الأميرة التي كانت فائقة الجمال، جعلها تتنصر وكان هذا الزواج من أجمل الزيجات. وحين بلغت الأميرة الثامنة والستين من العمر كانت قد أصيبت بعجز كبير وبشلل حرمها القدرة على تحريك رجليها. ومع ذلك كانا مثالاً للعاطفة الحية والزواج الرائع.

عندما توفي الأمير «يوسف»، ترك خلفه ثلاثة أطفال صغار في السن. فقام «جورجيوس بك» (Giorgios-Bey)، وأخوه «عبدالله» بالسهر على تربيتهم، على أمل أن يعيدوا إحياء حزب «يوسف» في يوم من الأيام، وأن يقلبوا حكم الأمير «بشير»؛ لكن هذا الأخير نجح في التغلب على كل العقبات وظل يتمتع بالحكم بهدوء حتى عام ١٨٤٠ .

حصلت في هذه الأثناء أحداث في غاية الأهمية في «مصر»: كان «بونابارت» قد دخل «سوريا» على رأس جيشه، ووصل إلى أبواب «عكا» التي كان يجب أن تفتح أمامه أبواب الشرق. فشجع الجنرال الفرنسي أمير جبل «لبنان» على الانضمام إلى صفه،

وعلى مساعدته ليصبح سيّد المنطقة، وذلك عن طريق الرسائل الملحة والمبعوثين الكثر. فأجاب الأمير «بشير» بأنه جاهز للانضمام إليه ولكن بعد أن تسقط «عكا». لقد لام رجل فرنسي في أحد الأيام الأمير «بشير» لأنه لم يهبّ بحماس لمساعدة الجيش الفرنسي، وأنه ربما لهذا السبب قد حال دون انبعاث الحياة في الشرق، فأجابه الأمير قائلاً: «لم أستطع الانضمام إلى الجيش الفرنسي، وذلك على الرغم من رغبتي الكبيرة في الانضمام إلى جانب الجنرال «بونابارت»، وعلى الرغم من كرهي الشديد للباشا. لم يكن بمقدور الخمسة عشر أو العشرين ألف رجل الذين كنت سوف أرسلهم من الجبال أن يفعلوا شيئاً لإنجاح الحصار. ولو أن «بونابارت» استطاع احتلال «عكا» دون مساعدة منّي، لكان اجتاح الجبل دون مقاومة، لأن الدروز والمسيحيين كانوا يريدونه بشدة؛ أي أنني كنت سأفقد حكمي. أما لو أنني ساعدت الجنرال «بونابارت» ولم نتمكن من الانتصار (وهذا ما كان سيحصل)، لكان باشا «عكا» أمر بشنقي أو بإلقائي في زنزانة. فمن سينجدني عندئذٍ؟ وأية حماية أرجو؟ هل أطلب حماية «فرنسا»... البعيدة جداً، والمشغولة بمشاكلها مع «إنكلترا» وأوروبا، والممزقة من جراء الحرب الأهلية والانقسامات؟...»

لقد تفهّم الجنرال «بونابارت» موقف الأمير «بشير»، وأرسل له بندقية رائعة كعربون صداقة، واحتفظ الأمير «بشير» بها كتذكار من القائد الكبير.

وقبل أن أكمل قصة الأحداث التي تلت انهيار حزب الأمير «يوسف»، قد يكون من المناسب أن أسرد مغامرة ربما هي التي جعلت «الجزار» باشا متوحشاً وضارياً.

كان في بداية سنوات حكمه الأولى، يذهب، كما تقتضي العادة، لملاقاة قافلة الحج العائدة من «مكة». (ولاحقاً كلف والي «دمشق» بهذا الاحتفال، ولم يعد باشا «عكا» ملزماً إلا بسداد نفقات القافلة ودفع الأتاوة لبدو الصحراء). لكن المماليك الذين أوكل إليهم الباشا حماية بيت حريمه أثناء غيابه، اقتحموا الأبواب واستباحوا النساء بكل وحشية. وبدلاً من يتواروا حين عاد الباشا، استولى المماليك على كنوزه، وأقفلوا

أبواب المدينة وقرروا الرد على القوة بالقوة. ولم يكن باستطاعة الباشا مواجهتهم بفرقة الحرس القليلة العدد التي كانت تواكبه: إلا أن المماليك أخبروه بأنه إذا سمح لهم بالانسحاب مع أسلحتهم وخيولهم، فإنهم سوف يفتحون له أبواب المدينة، وإلا فإنهم سيحاربون ويفضلون الموت رافعين أسلحتهم بدلاً من الاستسلام.

لم يكن على «الجزار باشا» أن يفكر طويلاً: كان يعرف أن الأتراك يكرهونه، وكذلك المسيحيون بسبب تجاوزاته المفرطة؛ ولم يكن يجهل أنه إذا عرف الأمير «يوسف» بموقفه فإنه سوف يتحالف مع المماليك، وسوف يشنون عليه حرباً قد تكون القاضية.

فلبى مطالب المماليك الذين انسحبوا سريعاً بينما كان الباشا يدخل المدينة. وبمجرد وصول الباشا إلى قصره، أرسل فرق الخيالة لمطاردة الفارّين ولكن بدون جدوى: لقد وصل المماليك سالمين إلى أرض «مصر». فانتقم «الجزار عندها من نسائه: أمر بجلدهن جميعاً ووضعهن في حفرة وغمرهن بالكلس الحيّ، واستثنى من هذا الإجراء محظيته المفضلة التي جعلها تتزين بمصاغها وبأجمل ثيابها، ثم وضعها في صندوق وألقاه في البحر.

لقد فاقمت هذه الحادثة من سوء طباع «الجزار». كان بخيلاً ونهّاباً؛ فغدا متوحشاً وضارياً: ولم يعد يتحدث إلا عن جدع الأنوف، وقطع الآذان، وسمل العيون. وأثناء احتضاره، لم يكن بمقدوره الكلام أو إصدار أوامر بالإعدام ، فكان يشير للمحيطين به مؤكداً على رأس سريره. ولكن لحسن الحظ لم يفهم أحد مراده. وبعد وفاته وجدوا قائمة طويلة بأسماء الأشخاص الذين كان سينفذ بهم حكم الإعدام بعد أن يسترد عافيته. لقد تبعته وحشيته إلى عتبة قبره.

لنعد الآن إلى الأمير «بشير». بمجرد أن أصبح أبناء «يوسف» في سن مناسبة تسمح لهم بمنازعته على السلطة، اتخذ «جيورجيوس بك» و«عبدالله» القرار بوضع مخططاتهم موضع التنفيذ. واستفادا من فترة فتور في العلاقات بين «الجزار» وبين الأمير «بشير»، فعمدا إلى إثارة الحزب الموالي لأيتامهما. واضطر الأمير «بشير» الذي أذهلته

المباغتة، إلى الانسحاب إلى «حوران»، وطلب وساطة الباشا بعد أن امتدح بخله وطمعه. فتدخل «الجزار»، وفرض معاهدة تقيم الصلح بين الطرفين، ولكنها تنحاز إلى طرف «بشير» بشكل كبير، فأعطاه بلاد الدروز، في حين أعطى أبناء «يوسف» جبل «كسروان».

وتم الالتزام بهذه المعاهدة عدّة سنوات. لكن أبناء «يوسف» كانوا يبحثون عن السبل التي تمكنهم من قلب حكم عدوّهم. وبما أنهم كانوا أكثر قوة منه فقد تغلبوا عليه؛ ولم يعد «الجزار» يستمع إلى وجهات نظر «بشير»، فحرم من الحكم. ولم يعد أمامه إلا أن يلقي بنفسه بين ذراعي خديوي «مصر».

وفي هذه الأثناء كان الأميرال الإنكليزي «سيدني سميث» (Sidney-Smith) مع بعض سفنه، على مقربة من سواحل «سوريا». فرجاه «بشير» أن يستقبله على سطح سفينته، وأن يحمله إلى «مصر». وبعد أن قضى عدّة أشهر في البحر، وحاذى شواطئ «قبرص» و«إزمير» و«كريت» (Candie) و«مالطا»، وصل إلى «الإسكندرية»، حيث ذهب لمقابلة والي مصر مع بعض الأصدقاء الذين بقوا مخلصين له.

واستقبله الوالي بحفاوة بالغة، وعامله بكل اللياقة المناسبة لمركزه، وغمره بالهدايا وأعاده إلى «سوريا» على متن إحدى سفن الأميرال «سيدني سميث»، مع رسالة إلى «الجزار» مليئة باللوم وبالتهديد، أمره فيها بإعادة الأمير «بشير» إلى حكمه.

كان الوالي صاحب نفوذ: فسارع باشا «الجزار» إلى طاعته، لأن لهجة البرقية جعلته يشعر بأن عليه أن يبذل المستطاع لاسترضاء الأمير «بشير». فأمر أبناء «يوسف» بالالتزام بالمعاهدة، ولم تكن لديهم الجرأة على إبداء أية مقاومة، واستتب السلام المطلق بين الحزبين حتى تاريخ وفاته.

لكن الأمير «بشير» لم يعتمد فقط على حماية «محمد علي» بشكل كامل؛ لأنه كان يرى حزب الأمراء الثلاثة وهو يزداد يوماً بعد يوم، وخاف أن يسقط ضحية إحدى المؤامرات، لأنه كان يعرف عطش الانتقام المستعر الذي يشعرون به تجاهه. وكانت حنكة وزيريهم «جورجيوس بك» و«عبدالله» تزيد من قلقه ومن مخاوفه. فقرر الانتهاء منهم

بضربة قاضية، جديرة بزرع الرعب في قلب أعدائه. ولإتمام مخططاته، استفاد من تولي «سليمان باشا» الحكم خلفاً «للجزار». لقد بدا كل شيء هادئاً في تلك الفترة في «لبنان»: وكان الأمراء الثلاثة يحكمون مقاطعاتهم بهدوء، ويظهرون انصياعهم لبنود المعاهدة التي تعطي الأولوية لأعدائهم، وذلك دون أية نيّة مبيتة، في حين كان وزيراهم يحضّران بشكل سرّي لهجوم آخر.

فقرر الأمير «بشير» استباق الأمور. علم من ثقاته التوقيت المناسب، فاستدعى «جيورجوس بك» إلى «دير القمر» بحجة مناقشة بعض الأعمال؛ وأثناء ذلك أغار أخوه الأمير «حسن» على «جبيل»، وقبض على الأمراء وأمر بشنق «عبدالله». واقتيد الإخوة الثلاثة إلى «ذوق مكايل»، حيث فقأت أعينهم، وصودرت أملاكهم لصالح الأمير «بشير». وعند سماع «جورجيوس بك» هذه الأنباء ألقى بنفسه من نافذة سجنه ومات، ولكن هذا لم يمنع الأمير من شنقه بعد ذلك ليكون عبرة لأعدائه. وأعدم كذلك خمسة قادة من «دير القمر» وأحد إخوة «الشيخ بشير»، وجميعهم من بلدة «بتغرين» قرب «بسكنتا»، بعد أن اتهموا بمساعدة الأمراء المهزومين، وصودرت جميع أملاكهم.

بعد إجراء هذه الإعدامات تمتع الأمير «بشير» بالحكم المطلق على كل أجزاء «لبنان»، وأعطى أخاه «حسام» حكم «كسروان» التي كانت «غزير» عاصمة إقليمها؛ ولكن بما أنه توفي بعد ذلك بفترة قصيرة، اتهم الأمير «بشير» بتسميمه لأنه كان يشك في مخططاته الطموحة. ولكن هذا الاتهام كان باطلاً، وقام الرأي العام بإنصافه.

ونحو عام ١٨١٩ ثارت مناطق «لحفد»، و«انطلياس»، و«كسروان» بسبب فرض ضريبة أثارت السخط العام. وقرّر المتمردون، بحسب رأي الأسقف «يوسف»، مهاجمة الأمير «بشير» في بلاد الدروز التي كان يتواجد فيها آنذاك. ولكن الأمير لم يمهل المتمردين لجمع قواهم، بل ذهب لملاقاتهم على رأس فرقة عسكرية بعد أن أمر قائده العام «الشيخ بشير» بأن يتبعه على رأس ثلاثة آلاف رجل تم جمعهم على عجل. دخل الأمير بلاد «انطلياس» وخيّم في أحد الأودية في منطقة «غوسطا»، تقع بين «جونيه»

وأرض «غزير». ولكنه تعرّض في الليلة التالية وفي صباح الغد إلى إطلاق نار كثيف من عدة فصائل معادية كانت متمركزة في المرتفعات. لقد انهمر الرصاص على خيمته، ولكنه رفض تغيير موقعه على الرغم من إلحاح ابنه «خليل». وبعد أن تقدّم النهار بدأ إطلاق الرصاص يزداد كثافة، فظن الأمير «بشير» أن المتمرّدين قد زادوا عدد قواتهم وأنهم يريدون أن يقطعوا الطريق عليه. فنهض عن السجادة التي كان يجلس فوقها طوال مدة إطلاق الرصاص، وركب حصانه ومشى مباشرة باتجاه أعدائه بمواكبة فرقة صغيرة. ولكن المتمردين تفرقوا دون مقاومة بمجرد اقترابه، فدخل إلى «انطلياس» حيث اتخذ إجراءات جذرية لمنعهم من تجميع قواتهم.

أما قائده «الشيخ بشير»، الذي كان يتبعه على مسافة يوم واحد، فقد عبر نهر «الكلب» واستولى مع رجاله الثلاثة آلاف على أول قريتين في «كسروان» كانتا في طريقه، وهما «ذوق مكايل» و«ذوق مصبح». وفي أول أيام هذا الاحتلال أوقفت القوات الأمامية كاهنا كان يحمل رسائل للأسقف «يوسف»؛ وبعد أن قرأها «الشيخ بشير» قدم خنجره لحامل الرسالة، وأمره بقتل الكاهن ودفنه في المنطقة التي أوقف فيها.

وبعد ذلك بساعات لقي رسول آخر المصير نفسه.

وفي اليوم التالي، عاود «الشيخ بشير» سيره، واجتاح «كسروان» دون مقاومة وأمر بخنق كل الأشخاص الذين أرسل له الأمير «بشير» قائمة بأسمائهم. ووصل بعد ذلك إلى «جبل بسكارة»، حيث انضم إلى الأمير «بشير» الذي جاء من «انطلياس». وبقي الأمير «بشير» تسعة أيام في هذه المقاطعة، عمد خلالها إلى وأد التمرد وشنق وخنق جميع المتمردين المعروفين في مقاطعات «انطلياس» و«كسروان» و«جبل بسكارة»؛ وضرب بالعصي متمردين آخرين بعد أن فرض عليهم جزية باهظة.

ومن بين هؤلاء كان هناك شيخ فقير يبلغ الخامسة والسبعين، وقد حكم عليه بدفع سبعين صرة نقود، فلم يتمكن من دفعها؛ فكتب إليه ابنه يخبره بأنه سوف يستدين المبلغ وطلب إليه أن يسمح له بذلك؛ فرفض الكهل وأجاب بأنه لن يدفع شيئاً، وكتب

عبارات غير ملائمة بحق الأمير. وتم احتجاز الرسالة وحكم على الكهل بعقوبة الجلد بسوط خاص ينتهي بسيور علقت في أطرافها قطع صغيرة من عظام الخرفان. لكن هذا التعيس الذي أتعبه تقدم العمر، لم يحتمل كل هذا الألم، وحين تمتّ إعادته إلى بيته بأمر من الأمير «بشير»، لم يصمد طويلاً ومات بعد عشرين يوماً من العذاب. وورث الابن الحكم الصادر بحق أبيه: فصودرت جميع أملاكه لصالح الأمير «بشير» الذي لم يترك له إلا ألف قرش فقط.

ثم صعد الأمير «بشير» إلى «اهدن»، ماراً بغابات الأرز أثناء نزوله إلى «بعلبك» من الناحية الأخرى للجبل، في حين كان «الشيخ بشير» يسيطر على المقاطعة المتمرّدة. وبعد وصوله إلى «بعلبك» أمر الأمير «بشير» قائده الأعلى بالعودة من الطريق ذاته وبفرض جزية قدرها ٤٠٠ صرة نقود تحتوي كل واحدة منها على ٥٠٠ قطعة، على المقاطعات الثلاث.

إنه لأمر عجائبي أن يتمكن أمير «لبنان»، بثلاثة آلاف رجل فقط، أن يخنق العصيان في المقاطعات الثلاث، لكن علينا أن نتذكر أن حركات التمرد كانت جزئية، وأن الفئات الموالية لـ «بشير» في هذه المقاطعات ساعدته كثيراً على إحراز النصر.

وفي هذه الأثناء أرسل باشا «دمشق» إلى منطقة «البقاع» كما جرت العادة، آغا مكلفاً بجمع محاصيل الأراضي الواقعة تحت إمرته. فدخل هذا الضابط قرية «لالا» التابعة لإمارة «لبنان» وفرض جزية من الحيوانات والأموال. لكن السكان الذين رفضوا الانصياع للأوامر، قاموا بإخطار الأمير «بشير» الذي كتب للآغا ليعبر له عن استيائه؛ إلا أن هذا الأخير لم يأخذ بعين الاعتبار هذا التنبيه، واقترف أقصى التجاوزات وعاد إلى بلاده. ولكن الأمير «بشير» الذي أغضبه هذا الأمر، أرسل إشعاراً لباشا «عكا» عبّر فيه عن استيائه بلهجة حادة. فأرسل «عبدالله» تهديداً إلى والي «دمشق» يقضي بتأديبه، وهدّده إما احتراماً للأمير «بشير»، وإما لرغبته الشخصية في الانتقام من

الآغا. إلا أن باشا «دمشق» حاول التملص، وتعجب كيف أن باشا «عكا» يولي اهتمامه لقضية تخص المسيحيين؛ فنقل «عبدالله» هذه الإجابة للأمير «بشير» وشجعه على الانتقام شخصياً من والي «دمشق». فجمع أمير «لبنان» عشرة آلاف من الرجال على عجل، وسار بهم باتجاه دمشق. فخرج الباشا لملاقاته، فتعارك الجيشان مرات عديدة، لكن الغلبة كانت دائماً للأمير «بشير».

وفي هذه الأثناء أصدر «عبدالله» فرماناً كاذباً يعلن فيه تجريد باشا «دمشق» من باشويته التي كانت تابعة لباشوية «عكا». إلا أن باشا «دمشق» توجه إلى الباشوات الآخرين وإلى بلاط «أنطاكية»، الذي حكم على باشا «عكا» بالموت وعلى الأمير «بشير» بالخلع من الحكم. كان الأمير في هذه الأثناء على أبواب «دمشق» عندما وصل الفرمان، فرأى عندئذٍ أن فرمان «عبدالله» كان منحولاً، ووجد أنه من الحذر الآن الانسحاب إلى مقاطعة «دير القمر»، إذ عرف أنه سيلاقي نفس مصير «عبدالله»، وذهب والتجأ إلى منطقة في ضواحي «بيروت» وطلب من حاكمها أن يستقبله مع موكبه. فرفض الحاكم ذلك، مدعياً أن وجود الأمير في المدينة سوف يشجع على العصيان. فكتب الأمير إلى أخيه الأمير «عباس» الذي كان قد أوكل إليه إدارة شؤون الجبل، وأخبره أنه يرغب في العودة إلى ولاياته ويشهر السلاح في وجه الباشوات الذين أرسلهم الباب العالي، فردّ أخوه عليه قائلاً إن الجبل بلا مؤن وبلا نقود، ونصحه نصحاً شديداً بالعدول عن مشروعه الخطير.

وفي هذه الأوضاع التعيسة يمم الأمير وجهه ثانية نحو «مصر» وتوجه إلى رجل فرنسي ليرجوه أن يسهل له أمر مغادرة «سوريا». فنقله السيد «أوبين» (Aubin) من «بيروت» إلى «صيدا» على متن سفينة كانت تبحر باتجاه «الإسكندرية». وبعد رحيله تحالف «الشيخ بشير» والأمير «عباس» مع حلف الباشوات المتحدين، وسعيا إلى تولي حكم الجبل وكان هذا مصدر الأحداث التي مزقت الجبل عام ١٨٢٣ .

حاصرت القوات المشتركة «عكا» في تموز عام ١٨٢٢ واستمر الحصار بغير

نجاح حتى شهر نيسان ١٨٢٣ إذ تم رفعه أخيراً. فوجد عندها باشا «عكا» الشاب الذي كان شديد البخل، وجد طريقة ليتخلص من دفع الجزية المتوجبة عليه للباب العالي. لذلك أمر بقتل الضباط الذين حملوا الجزية، بالقرب من «اللاذقية»، وطلب من القتلة إعادة المال إليه. ثم اشتكى بعد ذلك للباب العالي بسبب الجريمة المرتكبة بحق موظفيه وسرقة عائدات السلطان. كان باشا «عكا» يأمل من جراء هذا السلوك المستهجن، أن يتخلص من الجزية أولاً، ومن توريط باشا «اللاذقية» الذي كان السلطان يرفع من مرتبته، بتوحيد باشويته مع باشوية «عكا»؛ لكن «عبدالله» كان على خطأ.

عندما علم السلطان بخداع باشا «عكا»، طلب رأسه للمرة الثانية. ولكن ماذا كان باستطاعة باشوات «دمشق» و«حلب» و«أضنة» أن يفعلوا ضد «عكا»، مع جيشهم المؤلف من اثني عشر ألف رجل بأسلحتهم المختلفة، وغير منضبطين، ولا يمتلكون المدفعية التي يمكن أن تدك الأسوار، إذ كانوا يملكون بعض الأسلحة الكبيرة التي لا تتوافق مع حجم القذائف التي كانت بحوزتهم، ومن ثلاثة أو أربعة آلاف خيَّال بغير عتاد، وفرقة مشاة تقضي الوقت بالتدخين تحت الخيام؟ وهكذا فإن «عبدالله» الذي كان يمتلك أول موقع منيع في الشرق، بدأ الاستعداد بلا خوف لدفاع قوي.

وتبرعت حراقة إنكليزية كانت راسية في الخليج، بإرسال أحد ضباطها لقيادة مدفعية المحاصِرين. فقبل الباشوات ووضعوا أفواه النار تلك تحت تصرّفه. لكن الضابط رأى بعد ثلاثة أيام أنه لن يستولي أبداً على المكان بمساعدة الأتراك الذين رفضوا الاقتراب بمدفعيتهم من الأسوار، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإحداث خرق فيها.

وعلى الرغم من جيوش الباشوات، بقي «عبدالله» مطمئناً. لم يكن هناك أي خطر يخشاه براً من قبل هذه الجيوش العديمة التنظيم، وكان يرد على ضربات مدافعهم بطلقات البنادق، ليخبرهم إلى أي حدّ كان يحتقر هجومهم. كان يمتلك ضباطاً جيدين يتقاضون رواتب جيدة؛ وكانت المؤن والذخائر ترد إليه بوفرة عن طريق السفن الأوروبية

أو الآسيوية؛ حتى أن بعضهم كان يعتقد بأنه على علاقة مع يونانيي الـ «موريا».

كان الأمير «بشير» في هذه الأثناء تحت حماية والي «مصر» وكان يتبادل مراسلات منتظمة مع «عبدالله»، الذي طلب عن طريق «محمد علي» إقامة السلم مع الباب العالي والصفح منه. إذا كان الباشا لا يخشى أي خطر من جهة البرّ، فقد كان عليه أن يخشى من أن يسدّ ديوان «القسطنطينية» المكان من جهة البحر، فيقطع الطريق على اتصالاته مع الخارج، مما يؤدي إلى تجويع شعبه، وتمرد ضباطه، ويجبره على تسليم عنقه لأنشوطة الباب العالي. فسامحه الديوان على فعلته، لعلمه أن «عبدالله» كان يستطيع أن يخلي المكان لمتمرّدي «موريا»؛ ولكنه حكم عليه بجزية قدرها ٣٠٠٠ صرّة، وبتسديد نفقات الحرب.

بعد أن حصل والي مصر على العفو عن «عبدالله باشا»، طلب أيضاً العفو عن الأمير «بشير» فحصل عليه واستعاد الأمير «بشير» الحكم. وحاول الاستفادة من هذا الظرف لكي يظهر مصداقيته نحو الديوان، وليحصل على الهيمنة المباشرة على إمارة «لبنان»، وأصبحت مصالحه عندئذ مرتبطة بمصالح «محمد علي».

وفي نهاية عام ١٨٢٣، سافر الأمير «بشير» إلى «عكا» لكي يبحث معه مسألة تكاليف الحصار ويحدد معه المبلغ الذي يتوجب عليه من الدَين.

وعند عودته إلى «لبنان» فرض ضريبة قدرها ١٠٠٠ صرة نقدية، لأن وضعه المادي لم يكن مريحاً بعد نفيه والتكاليف التي سببتها إقامته في «مصر». ولكن شعبه كان فقيراً أيضاً، ولم يشأ إثارته ضده بسبب هذه الضريبة المرتفعة، فقرر أن يدفعها قائده الأعلى السابق «الشيخ بشير»، وهكذا تمكن من الانتقام من المؤامرات التي حاكها مع أخيه الأمير «عباس» لكي ينتزعا منه قيادة الجبل. فرفض «الشيخ بشير» دفع المبلغ، وانسحب إلى منطقة «حوران»، وهي مقاطعة لبنانية؛[١] ثم عاد بعد ذلك إلى

---

١ - لم تكن حوران مقاطعة لبنانية.

قصره في الـ «مختارة»، واتفق مع الأمير «عباس» على خلع الأمير «بشير»؛ لا بل استطاع أن يشرك في المؤامرة ثلاث أخوة شباب للأمير، كانوا قد مكثوا هادئين في مقاطعاتهم حتى ذلك الحين.

وكان من الممكن أن تكون هذه المؤامرة قاضية بالنسبة إلى الأمير «بشير» لولا نجدة «عبدالله باشا».

فلوحق «الشيخ بشير» وتم إيقافه في سهول «دمشق»، مع موكب مؤلف من مئتي رجل؛ وكان بإمكانه أن يهرب بسهولة، لولا التأكيد الذي أعطاه إياه الضابط التركي على اسم باشا «دمشق»، بأن أمير «لبنان» قد صفح عنه، فوضع نفسه بين يدي الضابط الذي اقتاده إلى «دمشق». وهناك نزعوا ملابسه عنه، وأوثقوا يديه الأولى فوق صدره والثانية خلف ظهره، وزجوه في السجن الذي بقي فيه عدة شهور. وتمت محاكمته في «القسطنطينية» وحكم عليه بالموت. وعندما قربوا الحبل منه لم يخف، وطلب فقط أن يُسمح له بالتحدث إلى الباشا وإلى الأمير: فأجابوه بأن هذا لا يجديه نفعاً؛ وأن أيّاً منهما لا يملك أن يفعل أي شيء، لأن حكم الإعدام صادر عن «القسطنطينية». فاستسلم «الشيخ بشير» إلى قدره، وتم خنقه، ثم قطع رأسه وقطّعت جثته إلى أجزاء ورميت للكلاب.

لقد نفذ هذا الإعدام في بداية عام ١٨٢٤ . وأوقف كذلك إخوة الأمير الثلاثة؛ وقطعت ألسنتهم وفقئت أعينهم، وتم نفيهم مع عائلاتهم، كل واحد منهم إلى قرية بعيدة عن الأخرى. ومنذ ذلك الحين ساد السلام في «لبنان»، وتمتعت أسرة «شهاب» بالحكم بكل سلام، بفضل قوى الشرطة النشيطة التي أسسها الأمير في حكومته، وبفضل صداقة «عبدالله باشا» الذي لم يكن يجهل مع ذلك العلاقة الحميمة التي تربط الأمير الكبير بـ «محمد علي».

هذه هي السياسة التي اتبعها الأمير «بشير» حتى ذلك اليوم، وكل شيء دل على أنه انتهجها بنجاح في الأزمة الجديدة التي وضعه فيها صراع «محمد علي» مع

الإمبراطورية العثمانية. لم ينحز الأمير في الحرب إلى أية جهة حتى اللحظة التي انتصر فيها «إبراهيم باشا» في «عكا» وأرسل «عبدالله باشا» مهزوماً وسجيناً، إلى والده في «مصر» ثم عاد إلى «سوريا»: فأعلن عندها أمير «لبنان»، بحسب عادة الشرقيين، أنه رأى يد الله في هذا الانتصار، وانحاز إلى جانب المنتصر. إلا أنه فعل ذلك على مضض، وبدا تجاه الباب العالي أنه اضطر إلى ذلك. ويمكن الاعتقاد أن «إبراهيم باشا»، لو خسر فإن الأمير «بشير» سوف يميل مع الأتراك ويساعدهم لسحق العرب. إن «إبراهيم» الذي كان يشك في هذه السياسة ذات الحدّين، حاول أن يورّط الأمير قدر استطاعته؛ فأجبره على إعطائه أحد أبنائه وبعضاً من أمهر فرسانه، لكي يسيروا معه باتجاه «حمص»؛ أما أبناؤه الآخرون فإنهم سوف ينزلون من الجبل ويحكمون عسكرياً، باسم المصريين، مدن «سوريا» الرئيسية.

ارتبط مصير الأمير «بشير» بانتصار «إبراهيم» في «حمص»؛ لأن هذا الأخير لو خسر، فإن ردّة فعل الأتراك تجاه مسيحيي «لبنان» وتجاه الأمير نفسه، سوف تكون رهيبة؛ ومن جهة أخرى إذا بقي «إبراهيم» سيداً على «سوريا»، فإنه لن ينظر طويلاً بعين الرضى إلى سلطة مستقلة عن سلطته، وسيحاول أن يهدمها إما عن طريق السياسة، وإما بقلب حكمها وإنهاء عائلة «شهاب» إلى الأبد. لو أن الأمير «بشير» كان أصغر سناً وأكثر حيوية لاستطاع مقاومة هذين الاعتداءين، وإرساء حكمه وحكم أبنائه، لمدة طويلة، وربما إلى الأبد، على هذه المنطقة المنيعة والمزدحمة بالسكان والغنية أكثر من جميع مناطق «سوريا». إن الجبليين الذين كان يحكمهم هم رجال شجعان، وأذكياء، ومنظّمون؛ والطرق المؤدية إلى وسط جبل «لبنان» هي وعرة ويصعب سلوكها؛ والموارنة الذين ازداد عددهم في «لبنان» كانوا مخلصين للأمير بسبب الشعور المسيحي المشترك، والكره الذي يحملونه للسيطرة التركية المريعة. وكانت العقبة الوحيدة ضد تشكيل قوة وحيدة جديدة في هذه البلاد، هو اختلاف الدين بين الموارنة والدروز والمتاولة الذين كانوا يعيشون بأعداد متساوية في الجبال الخاضعة لسلطة

الأمير؛ إن أقوى رابط للقومية هو رابطة الأفكار الدينية، أو هذا ما كان عليه الحال حتى الآن. عندما تقدمت الحضارة، قلصت الفكر الديني وجعلته مسألة فردية، وبدأت مصالح أخرى مشتركة في تكوين القومية: لأن هذه المصالح أقل خطراً من المصلحة الدينية، كانت القوميات قد بدأت تضعف؛ أهناك شيء أشد قوة في نفوس الناس من شعورهم الديني، وعقيدتهم وإيمانهم الخاص؟ إنه صوت ذكائهم، وإنه الفكر الذي يلخّص كل الأفكار الأخرى: الأخلاق، والقوانين، والوطن؛ كل شيء بالنسبة للشعب هو موجود في دينه؛ وهذا برأيي ما يمنع الشرق من تكوين أمة واحدة وكبيرة: وهذا أيضاً ما جعل الإمبراطورية التركية تنهار. إنك لا ترى دلائل على وجود مشترك، وعلى ظواهر قومية محتملة، إلا في أجزاء الإمبراطورية التي تتجمع فيها القبائل ذات العبادة المشتركة، بين الأرمن مثلاً، وبين البلغار، وبين الصرب؛ وما عدا ذلك ترى رجالاً في كل مكان ولكنك لا ترى أمة.

****

الدروز

٢ تشرين الأول ١٨٣٢

لقد نزلت اليوم منحدرات جبل «لبنان» المنخفضة التي تنحدر من «دير القمر» باتجاه البحر الأبيض المتوسط، وذهبت للنوم في خان منعزل في أحد تلك الجبال.

وفي الخامسة صباحاً امتطينا الجياد في باحة قصر الأمير «بشير». عندما خرجنا من باب القصر بدأنا مباشرة بالنزول في درب محفور في الصخر ويلتفّ حول تلة «بيت الدين». وعلى يمين هذه الدروب ويسارها، توجد بعض المناطق الزراعية التي تتجمع في جلول اصطناعية، وهي مشجرّة بالتوت ومزروعة بشكل رائع. كان ظل الأشجار والكروم يغطي الأرض في كل مكان، والسواقي العديدة التي يوجهها المزارعون العرب، تنحدر من أعلى الجبال ثم تتوزع في جداول وتسقي أقدام الأشجار والبساتين. وكان ظل قصر وشرفات «بيت الدين» الهائل، يسيطر على هذا المشهد بأكمله، ويلاحقك حتى أسفل الهضبة، حيث تبدأ بتسلق جبل آخر يحمل فوق قمته مدينة «دير القمر». وصلنا إلى المدينة بعد مسير ربع ساعة. و«دير القمر» هي عاصمة الأمير «بشير» وعاصمة الدروز؛ وتضم المدينة عشرة آلاف أو أحد عشر ألف نسمة. لكن «دير القمر» لا تشبه المدينة وتشبه أيضاً العاصمة بصورة أقل، وهي لا تملك إلا مبنى واحداً تزينه منحوتات عربية، وشرفات عالية تشبه تماماً بقايا أحد قصورنا في القرون الوسطى؛ هي أشبه بقرية في منطقة «السافوا» (Savoie) أو «الاوفيرني» (Auvergne)، كأنها قرية كبيرة في مقاطعة فرنسية نائية. كان الصبح يبزغ حين اجتزناها؛ كانت قطعان الأفراس والجمال تخرج من باحات المنازل وتنتشر في ساحات المدينة وشوارعها غير المرصوفة: وقد نُصبت فوق ساحة أكبر بقليل من الساحات

الأخرى، بعض الخيام السود أو خيام الغجر؛ وهناك رجال وأطفال ونساء نصف عراة، أو متلفعون بأغطية كبيرة من الصوف الأبيض تشكّل ألبستهم الوحيدة، يجلسون القرفصاء بالقرب من النار، وهم يسرّحون شعورهم أو يبحثون عن الحشرات التي تلتهمهم. لقد مرّ بعض الفرسان العرب الذين يعملون في خدمة الأمير، وهم يمتطون الجياد بزيّهم الرائع، وأسلحتهم البراقة حول خصورهم، وفي أيديهم حراب طويلة يتراوح طولها بين اثني عشر إلى خمسة عشر قدماً. بعضهم يحمل للأمير أنباء جيش إبراهيم، والبعض الآخر ينزل باتجاه البحر لكي يحمل أوامر الأمير إلى القطعات التي هي تحت إمرة أبنائه والتي تخيّم في السهل. لا شيء أجمل أو أكثر هيبة من ثياب وأسلحة هؤلاء المحاربين الدروز. كانت شالات فاقعة الألوان تلتف بشكل دائري فوق العمامة التي يضعونها فوق رؤوسهم، والتي كانت تعكس فوق وجوههم السمراء وعيونهم السوداء، ظلالاً تزيد أيضاً من مهابة أشكالهم وحيويتها الوحشية؛ وكانت شواربهم الطويلة تغطي شفاههم وتسقط على طرفي أفواههم؛ وهم يرتدون جلابيب حمراء قصيرة، أي الزيّ الموحّد بالنسبة إلى الدروز وإلى جميع سكان الجبل: وهذا الجلباب يختلف بحسب مكانة وثراء الشخص الذي يرتديه؛ فقد يكون قطنياً ومقصباً، أو قطنياً وحريرياً فقط؛ وتزينه رسوم جميلة يتنافر اختلاف ألوانها الذهبية والفضية مع ألوان القماش، وهي تلمع على الصدر أو فوق الظهر. ويرتدون سراويل واسعة جداً من آلاف الثنيات تغطي أرجلهم؛ وينتعلون جزمات مصنوعة من الجلد الأحمر يلبسون فوقها بوابيج من الجلد الأصفر؛ وقد رموا فوق أكتافهم ستراتهم المبطنة بالفرو، ذات الأكمام المتدلية. وحول خصورهم أحزمة من الحرير أو الجلد وتشبه الأحزمة الألبانية، وتغطي الأجسام بثنياتها الكثيرة ويستخدمها الفرسان لحمل أسلحتهم. ونرى دائماً مقابض خنجرين أو ثلاثة، أو مقابض يطقانين أو أكثر (واليَطَقان هو سيف تركي محدب)، وبعض الأمواس أو السيوف الشرقية القصيرة التي تخرج من هذا الحزام وتلمع فوق الصدر؛ وغالباً ما تكتمل هذه الترسانة المحمولة بوجود أعقاب مسدسين أو ثلاثة مطعمة بالفضة. ويحمل العربي بالإضافة إلى ذلك رمحاً قبضته من الخشب

الرقيق، وهو مرن وصلب، ويشبه قصبة طويلة. وهذا هو سلاحهم الرئيسي، المزين بذؤابة خفاقة وخيوط من الحرير؛ وغالباً ما يحملونه باليد اليمنى ، نصله للأعلى وعصاه تكاد تلامس الأرض تقريباً؛ ولكنهم حين يتسابقون على ظهور خيولهم يرفعون رماحهم فوق رؤوسهم بشكل أفقي؛ أما في ألعابهم العسكرية فهم يقذفون برماحهم إلى مسافات بعيدة ويذهبون لالتقاطها وهم ينحنون حتى يكادوا يلامسون الأرض. وقبل أن يلقوا الرماح يقومون طويلاً بحركات تؤرجحها وتزيد من قوة الرمية وتجعلها تصل إلى الهدف الذي حدّدوه. لقد التقينا خلال النهار بعدد لا بأس به من هؤلاء الفرسان. وأعطانا الأمير «بشير» كذلك بعض هؤلاء الفرسان لكي يكونوا أدلاء ويقوموا بواجبنا؛ فكان الجميع يلقي علينا التحية بأدب جمّ، ويوقفون خيولهم ليفسحوا لنا الدرب.

وعلى بعد ميلين من «دير القمر» بوسعك أن ترى أحد أجمل مناظر «لبنان» التي يمكن تخيلها. من جهة، انفتحت فجأة تحت أقدامنا أوديته العميقة التي سنهبط إليها. ومن الناحية الأخرى، قصر «بيت الدين» الهرمي فوق قمة تلته، التي اكتست بالخضرة واجتازتها المياه المزبدة؛ وأمامك الجبال التي تنخفض تدريجياً حتى تصل إلى البحر، بعضها أسود والبعض الآخر ضربته أشعة الشمس، وهي تمر أمامك مثل شلال من التلال، التي تمضي لتخبئ أقدامها في شريط غابات أشجار الزيتون الأخضر في سهل «صيدا»، أو في الجروف ذات الرمل البني الموجودة على طول شواطئ «بيروت». كانت ألوان سفوح الجبال، والخطوط المتنوعة لأفقها الفسيح المنحدر، تنقطع هنا وهناك بنواصي الأرز أو أشجار التنّوب والصنوبر ذات الرؤوس الواسعة؛ في حين يلتمع العديد من القرى في أسفلها أو فوق قممها. وينهي البحر هذا الأفق؛ وتتبع العين، كما لو أنها تنظر إلى خريطة واسعة أو مخطّط ناتئ، تتبع التضاريس، وفتحات الشواطئ، والرؤوس والصخور البارزة والخلجان الممتدة على الساحل، من جبل «الكرمل» (Carmel) حتى رأس «بيروت» على مسافة خمسين فرسخاً. إن الهواء نقي لدرجة أننا نتخيل أننا لمسنا، بعد عدّة ساعات من النزول، مناطق لا نصلها بثلاثة أو أربعة أيام من

السير. على هذه المسافة يمتزج البحر لأول وهلة بالسماء التي يلامسها في الأفق، لدرجة أننا لا نستطيع التمييز أولاً بين هذين العنصرين، وتبدو الأرض وكأنها تسبح في محيط هائل ومزدوج. ولا يمكننا أن نتأكد من ماهية المشهد الذي نراه، إلا إذا أمعنّا النظر في البحر، ورأينا الأشرعة الصغيرة البيضاء التي تلمع فوق سطحه الأزرق. ضباب خفيف وذهبي إلى حدّ ما يخفق في نهاية الأمواج، ويفصل السماء عن الماء. وفي بعض الأحيان ينفصل الضباب الخفيف الذي قشعته ريح الصباح عن منحدرات الجبال، مثل ريش أبيض خلّفه طائر في الهواء، فحملته الريح فوق البحر، أو تبخّر في أشعة الشمس التي بدأت تحرقنا.

تركنا على مضض هذا المشهد الرائع وبدأنا بالنزول في درب لم أر درباً أخطر منه في جبال «الألب». كان المنحدر ينزل بشكل عمودي، ولا يتجاوز عرض الدرب مسافة قدمين؛ والمهاوي التي لا نرى قاعها تحفّ به من هذه الجهة، وجدار من الصخور من الجهة الأخرى؛ وكان قاعه مرصوفاً بالصخور المتحركة، أو بالأحجار التي صقلتها بشدة المياه وسنابك الخيل المعدنية وأخفاف الإبل، إن هذه الحيوانات مضطرة إلى أن تختار بعناية موطئاً لأقدامها؛ وبما أنها تضعها دائماً في الموضع نفسه، فقد انتهى بها الأمر إلى حفر تجاويف في الحجر تتثبت فيها الحوافر على عمق عدّة بوصات؛ وهي تشكل نقطة ارتكاز بالنسبة إلى حوافر الحيوان وتمنحه بعض الثبات. ومن حين لآخر وجدنا بعض الدرجات المحفورة في الصخر على ارتفاع قدمين، وكتلاً مستديرة من الغرانيت لا يمكن عبورها، و يجب الالتفاف حولها مروراً بثغرات تبلغ بالكاد مساحة حوافر الدابة: هذا هو حال جميع الطرق الموجودة في هذه المنطقة من جبل «لبنان». وتنفرج من حين لآخر سفوح أو تتسطّح، ومشينا عندها بيسر فوق طبقات من التراب الأصفر، أو الحجر الرملي أو الأرض المغطاة بالنباتات. لا يمكننا أن نتخيل كيف أن بلداً كهذا يمتلئ بالأحصنة، وكيف يكون استخدامها شائعاً لهذه الدرجة. إن أي عربي مهما تعذر الوصول إلى قريته أو إلى بيته، لا يخرج إلا على

حصانه؛ ورأيناهم يتسلقون أو يهبطون لا مبالين، وغلايينهم في أفواههم، عبر منحدرات تستطيع الأيائل بالكاد أن تتسلقها في جبالنا.

بعد ساعة ونصف من الانحدار، بدأنا نلمح قاع الوادي الذي علينا اجتيازه والسير فيه. وكان نهر يهدر في أعماقه التي لا تزال مغطاة بالضباب المنبعث من مياهه، وبرؤوس أشجار الجوز، والخروب، والدلب، والحور الفارسي، التي تنمو فوق آخر منحدرات الوادي. وكانت هناك ينابيع جميلة، وعلى يمين الطريق رأينا مغاور محفورة في الصخر ومكسوة بآلاف النباتات المتسلقة المجهولة، أو العشب المخضوضر الموشّى بأزهار الخريف. وبعد قليل لمحنا بيتاً على ضفة النهر بين الأشجار، ثم خضنا بعد ذلك في هذا النهر أو السيل. وعندها توقفنا لنريح جيادنا، ولنستمتع برهة بأحد أروع المواقع التي صادفناها أثناء سيرنا.

إن الشِّعْبَ الذي نزلنا إلى أعماقه كان مليئاً بكامله بمياه النهر الهادرة حول بعض الكتل الصخرية التي انهارت واستقرّت في مجراه. وهنا وهناك بعض الجزر الترابية المكسوة بالنباتات، والتي تسمح بنمو أشجار حور عملاقة ترتفع بشكل هائل، وتلقي ظلها الهرمي باتجاه سفوح الجبل حيث كنّا جالسين. كانت مياه النهر تتجمع في اليسار بين جدارين من الغرانيت يبدو أنها قد شقتهما لتغور بينهما؛ وكان الجداران يرتفعان إلى علو أربعة أو خمسة أقدام، ويقتربان من جهة حافتهما العلوية، فيشكلان قنطرة هائلة قد يجعلها الزمن تنهار في يوم من الأيام. في هذا المكان كانت قمم أشجار الصنوبر الإيطالي متناثرة مثل باقات من المنثور فوق بقايا جدران قديمة، وتتميز بخضارها الداكن فوق زرقة السماء الحادة والفجّة. ومن جهة اليمين كان الشِعْب يلتوي مسافة ربع ميل تقريباً بين ضفاف أقل ضيقاً وانحداراً؛ كانت مياه النهر تمتد بحرية، ملامسة العديد من الجزر الصغيرة أو الرؤوس المخضوضرة؛ كل هذه الجزر، وكل ألسنة البر هذه كانت مغطاة بأغنى وأجمل غطاء نباتي. وللمرة الأولى رأيت هناك أشجار الحور منذ أن فارقت ضفاف نهر «الرون» (Rhône) و«السون» (Saône). كانت

تلقي بظلالها الشاحبة والمتحركة على طول وادي النهر؛ ولكن بما أنها لم تكن مقلّمة أو مزروعة بيد الإنسان، فقد نمت على شكل كتل، وانتشرت أغصانها بحرية وبمهابة وتنوع وجمال لا نراه في بلداننا. ولمحنا بين كتل هذه الأشجار وكتل أخرى من نباتات الخيزران والقصب الكبير التي تغطي الجزيرة، لمحنا الأقواس المكسورة لجسر قديم بناه أمراء «لبنان» القدامى، وقد انهار منذ قرون عديدة. ومن خلف أقواس الجسر المتهدّم، انفتح الشّعْب بأكمله على مشهد داخلي للأودية، وللسهول، والهضاب المزروعة بالقرى التي يسكنها الدروز. وكل شيء كان مغلفاً، مثل مدرج روماني، بسلسلة مستديرة من الجبال العالية: لقد كانت هذه الهضاب خضراء بالكامل تقريباً، ومغطاة كلها بغابات من أشجار الصنوبر. وكانت القرى المعلقة الواحدة فوق الأخرى، تبدو للعين وكأنها تتلامس؛ ولكن حين نجتاز بعضها، نلاحظ أن المسافة كانت كبيرة بين القرية والأخرى، بسبب صعوبة الطرقات، والحاجة إلى نزول وصعود الشعاب العميقة التي تفصل بينها. هناك بعض القرى التي يسهل فيها سماع صوت رجل يتكلم في القرية الأخرى، ومع ذلك تلزم ساعة من الزمن للوصول من هذه القرية إلى القرية الثانية. ومما يزيد من جمال هذا المشهد، ديران كبيران مغروسان كقلعة فوق قمتي هضبتين واقعتين خلف النهر، ويشبهان كتلتين من الغرانيت اللتين اسودتا بسبب مرور الزمن: الأول يسكنه الموارنة المتفرغون لتعليم الشباب العرب الذين يرغبون في دخول سلك الكهنوت. والثاني مهجور: كان فيما مضى ملكاً للآباء اللعازريّين في «لبنان»؛ وهو الآن مكان عزلة وملجأ لشابين يسوعيين أرسلتهما رهبانيتهما إلى هذا المكان بناء على طلب الأسقف الماروني، لكي يعلما الأصول والنماذج للأساتذة العرب؛ وهما يعيشان في عزلة تامة، وفقر، وقداسة مثالية. (لقد تعرفت إليهما فيما بعد). أحدهما يتعلم العربية ويسعى بجهد لتنصير بعض دروز القرى المجاورة: إنه رجل يتمتع بالكثير من الذكاء والمعرفة؛ والثاني يهتم بالطب، ويقطع البلاد ليوزع الأدوية مجاناً؛ وكلاهما يحبه الدروز وحتى المتاولة يحترمونه. ولكن ليس بإمكانهما أن يجنيا أية ثمرة من إقامتهما في «سوريا»: إن رجال الدين الموارنة متمسكون جداً بالكنيسة الرومانية؛ لكن لهم

تقاليدهم في الوقت ذاته، واستقلاليتهم، ونظامهم، ولن يسمحوا بأن يجتاحهم الفكر اليسوعي؛ إنهم السلطة الروحية الحقيقية، وحكام الفكر في كل أنحاء جبل «لبنان»؛ ومن الممكن أن يجدوا منافسين في الجمعيات الدينية الأوروبية الفاعلة والمتحركة، وهذه المنافسة تقلقهم حقاً.

بعد أن ارتحنا مدة نصف ساعة في هذا الموقع الساحر، امتطينا جيادنا وبدأنا بالهبوط إلى الساحل المنحدر القائم أمامنا. وبدت الطريق أشد وعورة كلما ارتفعنا فوق آخر سلسلة من جبال «لبنان» التي تفصلنا عن الساحل السوري. وكلما تقدمنا في السير، كلما ازداد مشهد الحوض الواسع الذي خلفناه على يميننا، مهابةً واتساعاً.

إن النهر الذي تركناه للتو كان يتعرّج وسط هذا السهل الذي يتموج بخفة بين التلال، وكان يمتد أحياناً على شكل برك من الماء الأزرق اللامع، تشبه بحيرات «سويسرا». وكانت التلال السوداء المكللة بباقات من أشجار الصنوبر، تقطع مجراه في كل لحظة، وتقسمه أمام أعيننا إلى ألف فرع مضيء. وكلما انحدرنا، كلما كانت الهضاب التي تخرج من السهل ترتفع وتتجمّع ويستند بعضها إلى بعضها الآخر، وجميعها مغطاة بشجيرات الخلنج المزهرة، وتحمل هنا وهناك، على مسافات متباعدة، أشجاراً واسعة الرأس تلقي فوق السفوح بقعاً من الظلال الداكنة. كانت غابات كبيرة من الأرز والصنوبر تنزل من رؤوس القمم العالية، وتأتي لتموت على شكل باقات ومظلات حول العديد من القرى الدرزية التي رأينا أسطحها وشرفاتها ونوافذها المخروطية الشكل تنبثق من قلب خضرة أشجار الصنوبر. وكان السكان بمعاطفهم القرمزية وجبهاتهم المحاطة بالعمائم الحمراء ذات الثنيات الواسعة، يصعدون فوق الشرفات ليشاهدونا أثناء مرورنا، فيزيدون، ببهاء ثيابهم ووقار تصرفاتهم، من عظمة المشهد وغرابته وجماله. كانت المناهل التركية الجميلة تتدفق في كل مكان عند مدخل القرية أو مخرجها. وكانت النساء والفتيات اللواتي أتين يستقين الماء بجرارهن الطويلة والضيقة، يتجمعن حول الأحواض، ويرفعن أطراف مناديلهن ليتمكنّ من النظر إلينا.

إنهن جميلات جداً. وتحمل ملامح وجوههن عادة علائم العزة والنبالة دون أي تعبير متوحش أو عنيف.

حيّانا الناس في كل مكان بأدب وجمال. وقدموا لنا الضيافة في كل هذه الدساكر. ولكننا اعتذرنا عنها، وتابعنا لمدة ثلاث ساعات تقريباً، هبوط المنحدرات الوعرة تحت غابات الصنوبر. بلغنا أخيراً آخر قمة بيضاء وعارية من الجبال، ومرّ بلمحة واحدة أمام أبصارنا أفق الساحل السوري الواسع. لقد كان مشهداً شديد الاختلاف عن المشهد الذي رأيناه منذ عدّة أيام: إنه يشبه أفق «نابولي» (Naples) حين ننظر إليها من أعلى قمة الـ «فيزوف» (Vésuve) أو من مرتفعات «كاستلاماري» (Castellamare) .كان البحر الشاسع بلا حدود تحت أقدامنا، أو تحدّه فقط بعض الغيوم المتجمعة على أطراف أمواجه. وخيّل لنا أننا نرى تحت هذه الغيوم أرضاً، هي أرض «قبرص»، الواقعة على بعد ثلاثين فرسخاً في البحر، جبل الـ «كرمل» (Carmel) إلى يسارنا، وعلى مدّ البصر من جهة اليمين، تمتد إلى ما لانهاية سلسلة سواحل «بيروت» و«طرابلس الشام» و«اللاذقية» و«إسكندرونة»؛ وفي النهاية، تظهر بشكل غير واضح وفوق ضباب المساء الذهبي، بعض الرؤوس البهية لجبال «طوروس»؛ ولكن ربما كان هذا مجرد وهم، لأن المسافة بعيدة جداً. ثم بدأ المنحدر مباشرة تحت أقدامنا، وبعد أن انزلق تحت الصخور وشجيرات الخلنج الجافة، بدأ يخف قليلاً ويتضاءل من قمة إلى أخرى، ماراً أولاً برؤوس التلال الصخرية الرمادية، ثم فوق الرؤوس الخضراء الداكنة لأشجار الصنوبر والأرز والخروب والبلوط الأخضر؛ ثم فوق منحدرات أكثر تدرجاً، فوق الخضرة الأكثر شحوباً واصفراراً لأشجار الدلب والجميز؛ وأتت أخيراً التلال الرمادية المخملية بفعل أوراق غابات الزيتون. ثم ذهب كل شيء لينطفئ ويموت في السهل الذي يفصل جبل «لبنان» عن البحر. هنا فوق الرؤوس رأينا الأبراج العربية القديمة التي تحرس الشاطئ؛ وفي عمق الخليج التمعت تحت الشمس مدن أو قرى كبيرة مسوّرة، مع خلجانها الصغيرة بين الرمال، ومراكبها الشراعية التي تخرج وتدخل إلى الميناء. وبالأخص مدينتا «صيدا» و«بيروت» بسهولهما الغنية بغابات الزيتون والليمون والتوت، ومآذنهما وقباب جوامعهما، وقصورهما ذات الأسوار التي

تعلوها الحزّيات، وخرجت المدينتان من محيط الألوان والخطوط هذا، واستوقفتا البصر فوق نقطتين متقدمتين في الأمواج. وخلف سهل «بيروت»، راح جبل «لبنان» الكبير الذي يقطعه مجرى النهر، يرتفع، فكان في البداية أصفر ذهبياً مثل أعمدة الـ «بيستوم» (Paestum)، ثم أصبح رمادياً داكنا معتماً، ثم أخضر وأسود في منطقة الغابات: وفي الأفق انتصبت خطوط الثلج، التي بدت وكأنها تمتزج بشفافية السماء التي تنام فيها الأشعة البيضاء في هدوء أبدي، فوق طبقات أزلية البياض. لا تملك أياً من «نابولي» أو «سورينتي» (Sorrente) أو «روما» أو «البانو» (Albano) أفقاً يشبه هذا الأفق.

بعد أن نزلنا لمدة ساعتين تقريباً، وجدنا خاناً منعزلاً تحت أشجار دلب رائعة على ضفة أحد المناهل. يجب أن نصف بشكل نهائي ما ندعوه بالخان في «سوريا»، وفي كل بلاد الشرق بصورة عامة: إنه كوخ جدرانه من الحجارة التي لا تلتصق ببعضها بشكل جيد، بدون ملاط، وتسمح بمرور الهواء وماء المطر؛ وغالباً ما تكون هذه الحجارة مسودّة بفعل دخان المواقد، الذي ينساب باستمرار عبر فتحاتها. ويتراوح ارتفاع الجدران بين سبعة وثمانية أقدام تقريباً؛ وهي مغطاة ببعض قطع الخشب الخام، بالإضافة إلى لحاء الشجر وأغصانها الأساسية؛ والكل مغطى بحزم من الخشب الجاف تقوم مقام السقف. والأرضية في الداخل غير مبلطة، أما السرير فيختلف بحسب الفصل، فهو إما سرير ترابي أو سرير موحل. وهناك عضادة أو عضادتان ليرتكز فوقها السقف الورقي، ويعلق فوقهما معطف أو أسلحة المسافر. وفي الزاوية موقد مرفوع فوق عدة أحجار غير مصقولة؛ وتشتعل فيه باستمرار نار الجمر وركوة أو ركوتان من النحاس مملوءتان على الدوام بقهوة كثيفة طحينية، وهي المرطب الاعتيادي، والحاجة الوحيدة للأتراك وللعرب.

وهناك في العادة غرفتان تشبهان تلك التي أتيت على وصفها. ويسمح لرجل عربي أو لاثنين، بعد الحصول على موافقة الباشا لقاء مبلغ يُدفع له، بالتشرف بهذه الضيافة وببيع القهوة وأقراص من طحين الشعير للقوافل العابرة.

عندما يصل المسافر إلى باب الخان، يترجل عن جمله أو حصانه، ويطلب أن تفك له حصر القش أو البسط الدمشقية التي سوف ينام فوقها. فيبسطونها في زاوية المنزل

الـمُدخن؛ ويجلس المسافر فوقها، ويطلب القهوة، ويطلب إشعال نرجيلته، وينتظر أن يجمع عبيده بعض الحطب الجاف ليحضّروا له طعامه. ويتألف هذا الطعام عادة من قرصين ناضجين بالكاد فوق حصاة ساخنة، وبعض قطع لحم الخروف المفرومة التي تطبخ مع الأرز في قدر من النحاس. في أغلب الأحيان لا يمكن شراء الأرز أو اللحم في الخان، فيكتفي المسافر بقطع الخبز والماء الممتاز البارد الذي يوجد دائماً قرب الخان. في حين يبقى الخدم والعبيد والجمّالون وسائسو الأحصنة في العراء قرب الخان.

توجد عادة في جوار الخان بعض الأشجار القديمة العهد التي تستخدم من بعيد كنقاط علام لتدل القوافل على مكان وجود الخان؛ وتكون في أغلب الأحيان شجرة جميز، وهي شجرة لم أر مثلها في حياتي في أوروبا: وهي بحجم شجرة سنديان كبيرة؛ وينمو حجمها أيضاً مع الأيام؛ ويبلغ قياس جذعها في بعض الأحيان من ثلاثين إلى أربعين قدماً، بل أكثر في بعض الأحيان؛ وتمتد فروعها، التي تبدأ في التفتح على ارتفاع خمسة عشر أو عشرين قدماً عن الأرض، بشكل أفقي، بدايةً على شكل كتلة هائلة، ثم تتجمع أغصانها العلوية على شكل مخروط أقل عرضاً ويوحي من بعيد بشكل أشجار الزان في بلادنا. إن ظل هذه الأشجار التي يبدو أن العناية الإلهية قد ألقت به هنا وهناك مثل غيمة مضيافة فوق أرض الصحراء المحرقة، يمتد على مسافة بعيدة عن جذع الشجرة، وليس من المستغرب رؤية ستين جملاً ومثل عددها من الأحصنة والبدو يخيمون أثناء القيظ تحت ظل شجرة واحدة من هذه الأشجار. ولكن هنا أيضاً نرى، كما في كل المجالات الأخرى، لا مبالاة الشرقيين وحكوماتهم. إن هذه الأشجار التي يجب أن تُصان بعناية، لكونها مضافات طبيعية لحاجات القوافل، فإنها هنا متروكة لغباء المغفلين الذين يأوون إليها: أشعل العرب النار عند أسفل شجرة الجميز، ورأيت أن معظم جذوع هذه الأشجار الجميلة قد اسودت وتجوفت بفعل لهب تلك المواقد.

لقد استقرت قافلتنا الصغيرة تحت إحدى أشجار الجميز المهيبة، وقضينا الليل متلفعين بمعاطفنا ومستلقين على حصيرة من القش في زاوية الخان.

٤ تشرين الأول ١٨٣٢

غادرنا الخان هذا الصباح، وبعد عدة ساعات من السير فوق منحدرات «لبنان» السريعة، وصلنا إلى قرى جميلة تقع في وسط المنحدر. هنا تختفي كل خشونة الجبال، فنسير مدة ساعتين وسط التلال الصغيرة الجميلة والمزروعة بأفضل شكل يمكن تصوره. إن هذه المنطقة تشبه «توسكانيا». كانت الجدران الاستنادية تدعم في كل مكان المصاطب الترابية التي تتعانق فوقها الكروم والأشجار الظليلة، دون أن تمنعها من النمو والتزهير، وفيها المحاصيل من كل الأنواع. قرى متناثرة فوق التلال، كل ما فيها يوحي بالنظام والسلام والعمل والغنى؛ ومنازل الشيوخ، أو بالأحرى قصورهم، تهيمن فوقها كما كانت تفعل القصور القوطية في ضيعنا فيما مضى. أديار كبيرة لرهبان موارنة تشغل رؤوس القمم مثل الحصون. ورأينا الرهبان الذين يحرثون الحقول، وهم يدخلون ويخرجون، أو الذين يذهبون لجمع أوراق التوت. إن العرب دون تمييز جنسي، يعملون جميعاً بهدوء في الحقول المسورة، وينظرون بابتسامة إلى زينا الأوروبي الغريب. ويجلس الشيخ عادة مع خدامه الرئيسيين فوق بساط بالقرب من باب القصر أو تحت شجرة جميز كبيرة وسط الدرب؛ وهو يدخن ويحيينا واضعًا يده فوق قلبه قائلاً: صباح الخير!، أي ليتبارك نهاركم أيها المسافرون!

بلغنا أخيراً السهل واجتزناه تحت قبة خضراء مؤلفة من أعواد القصب الطويلة، والنخيل، والتين، والعنب والتوت. ومن حين لآخر كان يظهر من غابة الأوراق هذه، بيت منعزل لمزارع عربي أو يوناني- سوري؛ يلعب الأطفال في «سوريا» مع الخراف ذات الذيل العريض، أمام أبواب المنازل؛ ونرى فتيات جميلات حسيرات الوجه يحملن جرار الماء فوق رؤوسهن، في حين يشتغل الأب والأم في أسفل شجرة التوت، لصنع أقمشة الحرير الجميلة ذات الألف لون ولون، والتي يربطون خيطانها من شجرة إلى أخرى، وينسجونها وهم يسيرون في الظل. لا يمكن لمناطق «اسكوتلاندا» أو الـ «ساكس» (Saxe)،أو الـ «سافوا»، أو «سويسرا» أن تقدّم للمسافر مشاهد أكثر حيوية وسعادة

وسلاماً من تلك التي رأيناها في سفوح جبال «لبنان»، حيث توقعنا ألا نرى غير البرابرة والمتوحشين.

٥ تشرين الأول ١٨٣٢

وجدت زوجتي وطفلتي بصحة جيدة وكانتا منشغلتين في تجميل وتزيين مكان إقامتنا الشتوية. قضيت معهما عدة أيام قبل أن أذهب إلى «فلسطين» و«مصر». لقد حقق «إبراهيم باشا» نصراً ساحقاً في «حمص»؛ وهو يتقدم الآن باتجاه «كرمانيا» (Caramanie) ويعبر جبال «طوروس» ويدحر الأتراك. لم يعد هناك قلق حول أمن وسلامة هذا البلد. سأسافر وفكري مطمئن على أغلى ما عندي في الوجود. وسيتدبر في غيابي، أصدقائي الجدد في «بيروت» السادة «بيانكو» و«جوريل» و«فارين» و«لوريلا» و«ابوست»، أمر كل المستجدات التي يمكن أن تطرأ. سوف أجهز قافلتي بشكل نهائي، وأرحل حين تخفّف أولى الأمطار الحرارةَ المرتفعة السائدة على السواحل السورية، والتي تبلغ ثلاثين درجة مئوية.

****

السفر من بيروت عبر سوريا وفلسطين

إلى القدس، ٨ تشرين الأول، الساعة الثالثة من بعد الظهر

ركبت حصاني ترافقني قافلة مؤلفة من ثمانية عشر حصاناً للمواكبة أو لنقل الأمتعة. نمنا في خان يبعد ثلاث ساعات عن «بيروت»؛ إنها طريق كتلك التي وصفتها سابقاً حين ذهبت لرؤية «الليدي ستانهوب». ثم انطلقنا صباح الغد في الساعة الثالثة فجراً : وفي الساعة الخامسة اجتزنا نهر الـ «دامور» (Tamour) الذي كان يدعى «تاميريس» (Tamyris) في السابق : كانت أشجار الدفلى المزهرة تحيط به من جانبيه. سرنا بمحاذاة الشاطئ الرملي حيث كانت الأمواج تغسل بزبدها أرجل خيولنا، حتى وصلنا إلى «صيدا» (صيدون القديمة)، إنها ظل جميل لمدينة مهدمّة فقدت كل شيء حتى اسمها؛ لم يبق أي أثر لعظمتها السابقة. رصيف بحري دائري الشكل مؤلف من صخور ضخمة، يحيط بحوض مرفأ ملأته الرمال، وبعض الصيادين مع أولادهم، أقدامهم في الماء، وهم يدفعون إلى البحر مركباً من غير سارية أو شراع، هذه هي الصورة البحرية الوحيدة لثاني ملكة في البحار. نزلنا في الخان الفرنسي في «صيدا»، إنه قصر واسع، وهو قصر تجارتنا السابقة مع «سوريا» حيث كان قناصلنا يجمعون كل الأمم تحت لواء «فرنسا». لم تعد هناك تجارة ولم يعد هناك فرنسيّون، ولم يبق في «صيدا» في هذا الخان المهجور إلا وكيل فرنسي قديم ومحترم، إنه السيد «جيرودان» (Giraudin)، الذي يعيش فيه منذ خمسين عاماً مع عائلته الشرقية بالكامل، والذي استقبلنا كما نستقبل مسافراً من مواطنينا في بلد حافظ أهله على كل مظاهر الضيافة القديمة. تعشينا ونمنا عند هذه العائلة الممتازة؛ تلقينا الضيافة العذبة غير المتوقعة

والتي أغدقوها علينا، فأحضر أبناء المنزل الماء لنغتسل؛ في حين كانت الأم وزوجتي ابنيها واقفات للاهتمام بخدمة المائدة.

امتطينا خيلنا في الساعة الرابعة يرافقنا ابنا عائلة «جيروردان» وبعض أصدقائها. وقام أحد الولدين بسباق الجريد على ظهر حصانه العربي. وبعد أن سرنا ساعتين من «صيدا» ودعنا الجميع وشكرناهم. سرنا ساعتين أيضاً، ونمنا تحت خيمنا بالقرب من بحيرة رائعة على شاطئ البحر تدعى «القنطرة». كانت هناك شجرة عملاقة ظللت القافلة بأكملها. وحديقة بديعة تنزل وتمتد حتى تلامس موج البحر. وكانت في الجوار قافلة كبيرة من الجمال تنتشر حولنا في الحقل نفسه. نمنا تحت الخيمة وسط صهيل الجياد، وجعجعة الجمال، ودخان نار المساء، ونور المصابيح الشفافة الذي ينبعث عبر قماش الخيمة المخطط. تنزل أفكار الحياة الوادعة، والتفكير في المنزل، وفي العائلة، وفي الأصدقاء البعيدين، فوق جبينك الثقيل والملتهب وأنت تريحه فوق السرج الذي يقوم مقام الوسادة. وفي الصباح بينما كان السائسون والعبيد يسرجون الخيل، كان عربيان أو ثلاثة ينزعون أوتاد الخيام؛ إنهم يهزون الوتد الذي يستخدم كعمود، فيقع، وتنزلق قطع القماش العريضة التي كانت تغطي عائلة المسافر بأكملها، وتسقط على الأرض على شكل كومة نسيج واحدة، يستطيع جمّال واحد أن يحملها تحت ذراعه وأن يعلّقها فوق سرج دابته : لم يبق في الساحة الخالية التي كنا متمركزين فيها للتو، كمكان إقامة دائمة، لم يبق إلا نار خفيفة ما زالت تدخن وسوف تنطفئ قريباً تحت الشمس : إنها صورة حقيقية ومؤثرة للحياة التي غالباً ما قرأنا وصفاً لها في الكتاب المقدس، وهي ما زالت تؤثر فيّ بشدة في كل مرّة تُعرض فيها أمام ناظري.

غادرنا «القنطرة» قبل طلوع الصبح. وتسلقنا بعض التلال القاحلة والمحصّبة التي تتقدّم في البحر على شكل مطلات مرتفعة. هاهي «صور» تلوح لي في طرف هضبتها الواسعة والقاحلة، فوق قمة آخِر هضبة من هذه الهضاب، وأكثرها ارتفاعاً. ويمتد بين البحر وبين آخر مرتفعات «لبنان» التي تبدأ من هنا بالتناقص بشكل سريع،

سهل يبلغ طوله قرابة ثمانية فراسخ وعرضه فرسخاً أو فرسخين : إنه سهل قاحل، أصفر، تغطيه شجيرات شوكية ترعاها إبل القوافل أثناء مرورها، سهل يزج في البحر أرضاً يابسة تشبه شبه جزيرة متقدمة ومفصولة عن البر برصيف بحري يغطيه الرمل الذهبي الذي حملته الرياح من «مصر». إن مدينة «تير» (Tyr) التي يطلق العرب عليها اسم «صور»، محمولة فوق النهاية الأكثر حدّة لهذا المرتفع الذي يبدو وكأنه يخرج من بين الأمواج؛ وتبدو لك من بعيد مدينة جميلة، وحديثة، وبيضاء وحيّة تتمرأى في سطح الماء؛ لكن الأمر في الحقيقة مجرد ظل جميل يتبخّر حين تقترب منها. مئات من المنازل المتهدمة وشبه المهجورة، يجمع فيها العرب بعد أن يحل المساء قطعان خرافهم وماعزهم السوداء، ذات الآذان الطويلة والمتدلية، والتي مرّت أمامنا في السهل. ها هي مدينة «صور» الحالية! لم يعد لها مرفأ على البحر، ولا طرقات على البر؛ لقد تحققت النبوءات فوقها منذ أمد بعيد.

كنا نسير بصمت منشغلين بتأمل هذا المأتم وغبار الإمبراطورية الذي ندوسه بأقدامنا. وسلكنا درباً في وسط ريف «صور»، يقع بين المدينة وبين التلال الرمادية والعارية التي ألقى بها «لبنان» على حافة السهل. وصلنا إلى ارتفاع المدينة نفسها، ولامسنا تلة من الرمل بدت كأنها تشكل حالياً السور الوحيد للمدينة، في انتظار أن تطمر المدينة تحتها في يوم من الأيام. فكرت بالنبوءات، وبحثت في ذاكرتي عن بعض التهديدات البليغة التي ألهمتها الروح الإلهية إلى «حزقيال» (Ezéchiel) .فلم أجدها بكلماتها الحرفية، بل بحقيقتها المحزنة التي أراها تحت بصري. فعادت إلى فكري بعض الأبيات التي ألفتها صدفةً حين غادرت فرنسا في رحلتي لزيارة الشرق :

«لم أسمع تحت أشجار الأرز العتيقة

صيحات الأمم تعلو ثم تهدر،

ولم أر في سواد لبنان النسور النبوية

تهبط بإشارة من إصبع الإله لتحط فوق قصور صور»

كان سواد «لبنان» أمام ناظري؛ لكني قلت في نفسي لقد خدعني خيالي : فأنا لا أرى النسور ولا الجوارح التي يجب لكي تتحقق النبوءة، أن تنزل بلا توقف من الجبال لكي تلتهم بشكل مستمر جثة هذه المدينة التي نبذتها رحمة الله وصارت عدوة شعبها. وفي اللحظة التي خطرت لي فيها تلك الفكرة، ظهر إلى يسارنا شيء كبير، وغريب، وساكن فوق قمة صخرة شديدة الانحدار تتقدم في هذا المكان داخل السهل حتى طريق القوافل. كان هذا الشيء يشبه خمسة تماثيل من الحجر الأسود الموضوعة فوق الصخرة مثل قاعدة؛ ولكن حين لاحظنا حركة طفيفة جداً تصدر عن هذه الوجوه الضخمة، اعتقدنا ونحن نقترب منها أنها كانت مجموعة من خمسة رجال عرب من البدو، يرتدون عباءاتهم المصنوعة من وبر الماعز الأسود، وهم ينظرون إلينا أثناء مرورنا، من فوق هذا التل. وحين أصبحنا على بعد خمسين خطوة من الصخرة شاهدنا هذه الوجوه الخمسة وهي تفتح أجنحتها العريضة وتضربها بجوانب جسمها وتصدر صوتاً يشبه صوت الشراع الذي نفتحه في مواجهة الريح. ميزنا عندئذٍ خمسة صقور من أندر الفصائل، لم أر مثلها في جبال الألب، أو في أقفاص الحيوانات الموجودة في مدننا. وهي لم تحاول الطيران، ولم تنزعج لاقترابنا منها : كانت واقفة على حواف الصخرة، وكأنها ملوك هذه الصحراء. توقفنا على بعد أربعين خطوة من النسور، لكنها التفتت نحونا باستعلاء وحملقت فينا؛ وأخيراً ابتعد شخصان من قافلتنا وركضا مسرعين، ثم عادا يحملان بندقيتين، حتى وصلا إلى أسفل الصخرة : لكن النسور لم تهرب كذلك. دوت عدة طلقات من البندقيتين فطارت النسور بتثاقل، لكنها عادت من تلقاء نفسها لتحوم طويلاً فوق رؤوسنا دون أن تصيبها طلقاتنا، كما لو أنها تقول لنا : «لا تستطيعون فعل أي شيء، نحن صقور الله».

اعترفت عندئذٍ بأن الخيال الشعري كشف لي أن صقور «صور» أقل واقعية وأقل جمالاً وأقل سحراً مما هي عليه في الحقيقة، وأنه يوجد في حس الشعراء الإلهي (mens divinio)، وحتى المغمورين منهم، شيء من هذا الحس الكهاني والنبوي الذي يقول الحقيقة دون أن يعي ذلك.

وصلنا ظهراً بعد سبع ساعات من السير، إلى منتصف سهل «صور»، إلى مكان يدعى «آبار سليمان» (les Puits de Salomon) . لقد وصفه جميع المسافرين : إنه ثلاث خزانات من المياه الصافية والجارية التي تخرج كالسحر من أرض منخفضة، وجافة وقاحلة، تقع على بعد ميلين من «صور»؛ وكل واحد من تلك الخزانات يرتفع اصطناعياً مسافة عشرين قدماً عن مستوى السهل، وهو مملوء حتى حافته ويفيض باستمرار؛ ويسيِّر مجرى الماء رحى الطواحين؛ وتذهب المياه إلى «صور» عبر قنوات نصفها قديم، ونصفها حديث، ولها أثر جميل في الأفق. ويقال إن «سليمان» قد أمر ببناء الآبار الثلاثة ليكافئ «صور» وملكها «أحيرام» (Hiram) بعد الخدمات التي تلقاها من قواته البحرية ومن فنانيه، من أجل بناء الهيكل. لقد جلب «أحيرام» رخام وخشب أرز «لبنان».

يبلغ محيط كل بئر من ستين إلى ثمانين قدماً على الأقل؛ ولا يعرف أحد عمقها، وأحدها لا قاع له : ولم يستطع أحد أن يكتشف بأية طريقة غامضة تصل مياه الجبال إلى هذا المكان. ونتيجة الفحص بدا لنا على الأرجح أنها آبار ارتوازية، اكتُشفتْ منذ أمد بعيد، قبل أن يعيد المعاصرون اكتشافها.

تركنا «آبار سليمان» في الساعة الخامسة؛ وسرنا مدة ساعتين في سهل «صور»، ووصلنا في الليل إلى أسفل جبل عال ينحدر بشدة فوق سطح البحر، ويشكلّ «الرأس الأبيض» (Raz-el-Abiad)؛ كان القمر قد بدأ يرتفع فوق قمة جبل «لبنان» السوداء، ولكنه لم يرتفع بعد كفاية لكي ينير سفوحه، فكانت أشعته تسقط وتسطع مثل اللهب فوق الرخام، تاركة إيانا في الظل فوق قطع هائلة من الصخور البيضاء؛ كانت هذه الصخور المتناثرة تمتد حتى تصل وسط الأمواج، فتكسر زبدها المتلألئ الذي يرتفع حتى يصل إلينا؛ وكان صوت الأمواج الأصم والمنتظم وهي ترتطم بالصخور يدوي وحده، ويهز مع كل ضربة الدرب البحري الضيق الذي كنّا نسير فوقه معلّقين فوق حافة الهوة : كان البحر يلمع في البعيد مثل غطاء شاسع من الفضة، وكانت

بعض الرؤوس الداكنة تتقدم هنا وهناك في عرض البحر، في حين ظهرت بعض المغاور العميقة في جوانب الجبل الممزقة، وامتد سهل «صور» خلفنا؛ لمحناه بشكل غامض بسبب أخاديد الرمل الأصفر والذهبي التي كانت ترسم أطرافه بين البحر والبر. وظهر ظل مدينة «صور» في نهاية الرأس المرتفع، ولا شك أن الصدفة وحدها هي التي أشعلت نوراً فوق خرائبها، ويخال الناظر من بعيد أنها منارة؛ لكنها كانت منارة الوحدة والهجر التي لا توجّه أية سفينة، بل تنير أبصارنا وحدها، وتستجدي منّا نظرة شفقة على هذه الخرائب. لقد استمرت هذه الطريق فوق الهاوية، بكل حوادث الليل المختلفة، والرائعة، والمهيبة، لمدة ساعة تقريباً، وكانت إحدى تلك الساعات التي انحفرت بقوة في ذاكرتي، والتي سمح لي الله بمشاهدتها في هذه الحياة! يا له من باب رائع لندخل في الغد إلى أرض العجائب، أرض الشهادة، كل شيء هنا ما زال يحتفظ بآثار التعامل القديم والجديد بين الله والإنسان!

لدى نزولنا من قمة هذا المطل شاهدنا المناظر نفسها التي أثرت فينا في صعودنا: نفس المهاوي العميقة، والرنانة والبيضاء كالزبد، والمزروعة بانكسارات الصخر الحي والأبيض، المهاوي الواسعة، كانت تنفغر تحت أقدامنا وأمام أعيننا؛ وكان البحر يتكسّر هنا بنفس الصوت الهادر الذي رافقنا على طول ساحل «سوريا» العاصف، كما كان يسمى في الشعر العبري القديم. كان القمر، الذي ازداد تقدماً في السماء، ينير بشكل أكبر هذا المشهد العاصف والمتوحد؛ وانفتح سهل «بطليموس» (Ptolémaïs) الواسع أمامنا. كانت الساعة التاسعة مساء في شهر تشرين الأول، وكانت جيادنا المنهكة من السير لمدة ثلاث عشرة ساعة، تضع حوافرها الحديدية ببطء فوق الصخور المدببة واللامعة التي تشكّل الطرقات الوحيدة في «سوريا»، درجات من الحجارة متفاوتة الارتفاع، ما كنّا لنخاطر في «أوروبا» للسير فوقها على ظهر أية دابة كانت؛ وكنّا نحن أنفسنا متعبين ومندهشين خاصة من عظمة مشاهد وذكريات النهار المتلاحقة؛ مشينا

بصمت سيراً على الأقدام، ممسكين بألجم أحصنتنا، ننظر تارة إلى البحر الذي علينا اجتيازه لكي نرى من جديد أنهارنا وجبالنا، وتارة أخرى إلى قمة جبل «الكرمل» السوداء والطويلة من غير تعرّجات، والتي بدأت ترتسم في آخر حدود الأفق. وصلنا إلى ما يشبه الخان، أي إلى كوخ شبه مهدّم، يملكه عربي فقير يزرع بعض أشجار التين وبعض اليقطين، بين فجوات الصخور، بالقرب من النبع : وكان يسكن في الكوخ جمّالون من «نابلس» يحملون القمح إلى «سوريا» من أجل جيش «إبراهيم»؛ وكان النبع قد جفّ بسبب حرارة الخريف. نصبنا خيامنا مع ذلك فوق أرض مكسوة بالحجارة المستديرة والمتدحرجة؛ وربطنا جيادنا إلى الأوتاد، وشربنا بتقتير بعض رشفات من الماء البارد الذي بقي في جرارنا من «آبار سليمان». راح الماء يشح منذ أن بدأ يمتد سهل «صور» وتنخفض الجبال، وتتباعد الينابيع عن بعضها مسافة خمس أو ست ساعات، وتصل إلى أحدها في أغلب الأحيان فلا تجد في مجرى النبع إلا وحلاً جافاً وحارقاً، لا يزال يحمل آثار أقدام الجمال والماعز التي كانت آخر من شرب منه.

رفعنا الخيام يوم ١١ من الشهر، على ضوء آلاف النجوم المنعكسة في الأمواج الممتدة تحت أقدامنا؛ ونزلنا لمدة ساعة آخر التلال التي تشكّل «رأس الأبيض»، ودخلنا سهل «عكا»، («بطليموس» قديماً).

إن حصار «إبراهيم باشا» لـ «عكا»، أحال المدينة مؤخراً إلى كومة من الخرائب التي دفنت تحتها عشرة آلاف أو اثنتا عشرة ألف جثة، وآلاف الجمال. لقد سارع «إبراهيم» المنتصر بوضع انتصاره الهام بمعزل عن تقلبات القدر، فانهمك ببناء أسوار «عكا» ومنازلها : كانوا ينشلون كل يوم من تحت الأنقاض مئات الجثث التي تحلل نصفها تقريباً؛ لقد أفسدت رائحة التعفّن، وأشلاء الجثث، هواء السهل بأكمله. مررنا بعيداً عن الأسوار قدر المستطاع، وذهبنا للاستراحة ظهراً في القرية العربية التي تدعى «مياه عكا» (Eau d'Acre)، في حقل تحت أشجار الرمان والتين والتوت، قرب

«مطحنة الباشا»؛ ثم غادرنا المكان في الساعة الخامسة لنخيّم في غابة زيتون، على سفوح هضاب «الجليل» الأولى.

وفي يوم ١٢ عاودنا السير عند بزوغ الفجر؛ فاجتزنا أولاً تلة مزروعة بأشجار الزيتون وبعض أشجار السنديان الخضراء، الموزعة على شكل كتل، أو التي تنمو على شكل أدغال وتقضمها أسنان الماعز والإبل القارضة. وحين وصلنا إلى الجانب المقابل للتلة انكشفت أمامنا الأرض المقدسة بشكل كامل.

ولكن ها هي «اليهودية» (Judée)،[١] كما رأيناها في الصباح الباكر، من أعلى التلال التي تحيط بسهل «بطليموس»؛ هي كما رأيناها من الجهة المقابلة لتلال «زبلون» (Zabulon) و«الناصرة» (Nazareth)، ومن سفح جبل «ندى حرمون» (Rosée-de-l'Hermon) أو جبل «الكرمل»، هي كما اجتزناها بكل عرضها وتنوعها، بدءاً من المرتفعات المشرفة على «صور» و«صيدا»، حتى جبال «السامرة» (Samarie) و«نابلس»، ومن هناك حتى أسوار «صهيون» (Sion) .ها هو في البداية سهل «زبلون»[٢]: إننا نقف بين تموجين خفيفين في الأرض، نستطيع بالكاد أن ندعوهما تلة؛ وينحفر المجرى الذي تشكلانه بينهما أمامنا ويشكل الدرب الذي نسير فوقه؛ لقد حفرت هذا الدرب خطوات الجمال التي طحنت ترابه منذ أربعة آلاف عام، أو الحفر الواسعة والعميقة التي حفرها في الصخر الأبيض والهش، ثقل أقدامها التي تقف دائماً في المواضع نفسها؛ إنها نفس الآثار من رأس «صور» حتى أول رمال صحراء «ليبيا» (libyque) .وعلى اليمين واليسار، هنا وهناك، توجد باقات من الشجيرات الدائمة الخضرة التي تظلل، على مسافة كل عشرين قدماً، السفوح المستديرة لهاتين التلتين؛ وعلى بعد مسافة أكبر ترتفع أشجار جذوعها كثيرة العقد، وأغصانها كثيرة العروق ومتشابكة، وأوراقها

١ - يطلق الشاعر على الجليل اسم اليهودية وهو اسم توراتي، ويستخدم أسماء توراتية للمناطق التي يشير إليها مثل « زبلون، السامرة.. إلخ» مع أن أسماءها العربية، وحتى الأسماء الكنعانية أقدم من اليهودية، معروفة ومشهورة ومستخدمة.

٢ - هو سهل عكا.

ساكنة وداكنة اللون؛ معظمها نوع خاص من أشجار السنديان الخضراء، وجذوعها أخف وأكثر ارتفاعاً من جذوع أشجار السنديان التي نجدها في أوروبا، أما أوراقها فهي مخملية ومستديرة ولا تملك تخاريم أوراق السنديان الشائعة، وتستكمل غطاءَ التلة أشجارُ الخروب، والبطم، وعدد قليل من أشجار الدلب والجميز. لا أعرف اسم الأشجار الباقية : بعضها له أوراق أشجار الصنوبر والأرز؛ وبعضها الآخر (وهي الأجمل) تشبه بلونها وبلحاء جذوعها، وبجمال أوراقها وتدرّج لونها اللطيف الأصفر، أشجار صفصاف عملاقة؛ ولكنها تفوقها في جميع المقاييس، من حيث امتدادها وضخامتها وارتفاعها. إن أكبر القوافل تستطيع أن تلتقي حول جذع عملاق وتخيّم جميعها تحت ظل هذه الشجرة بكامل أمتعتها وجمالها؛ في حين تبرز من قلب الأرض، في المساحات الواسعة والكثيرة التي تركتها هذه الأشجار المتنوعة مكشوفة فوق منحدرات التلال، مقاعد من الصخور البيضاء أو الرمادية في أكثر الأحيان، وتظهر تحت الشمس مثل عضلات هيكل بشري قوية، بدأت تظهر بشكل أشد بروزاً مع تقدم العمر، وتبدو وكأنها سوف تثقب الجلد الذي يغطيها؛ لكننا رأينا بين هذه المقاعد، أو بين هذه الكتل الصخرية، تربة سوداء وخفيفة وعميقة، تغطيها النباتات بشكل دائم، ويكفي أن تُحرث قليلاً حتى تنتج باستمرار القمح والشعير والذرة، أو غابات العوسج الشائكة، وأشجار الرمان البرية، وورود «أريحا»، والشوك العملاق الذي يرتفع جذعه حتى يبلغ ارتفاع رأس الجمل. إذا ما وصفت لك إحدى تلك التلال، فإنك تراها جميعها، بسبب تقارب أشكالها؛ ويمكن للمخيلة أن تتخيل تأثيرها كلما تُذكَر في وصف الأرض المقدسة. سرنا إذن بين تلتين من هذه التلال، وبدأنا ننزل ببطء تاركين خلفنا بحر وسهل «بطليموس»، حين رأينا أول سهل من أرض «كنعان» : إنه سهل «زبلون»، بستان القبيلة التي حملت ذات الاسم.

وعلى اليمين واليسار أمامنا، تباعدت بأناقة التلتان اللتان اجتزناهما للتو، باستدارة مماثلة على شكل موجتين محتضرتين تتحدان معاً ثم تبتعدان بتناغم أمام

مقدمة السفينة؛ إن المسافة التي تركتاها بينهما، والتي ازداد عرضها تدريجياً، كانت مثل خليج صغير قليل العمق رماه السهل بين الجبال : إن هذا الجون، أو الخليج، المتحد والخصب، سوف يشكّل عمّا قريب سهلاً أكثر عرضاً؛ وفي النقطة التي ماتت فيها تماماً الهضبتان اللتان كانتا تغلفانه، ذاب هذا السهل وضاع في سهل بيضاوي الشكل تقريباً، غاصت نهايتاه المستدقتان تحت ظل صفين آخرين من التلال. وبدت أبعاد هذا السهل بشكل تقريبي، فرسخ ونصف عرضاً، ومن ثلاثة إلى أربعة فراسخ طولاً. ومن المرتفع الذي كنّا واقفين فوقه والذي يقع في نهاية تلال «عكا»، نزل بصرنا بشكل طبيعي ملاحقاً بشكل لا إرادي التعرجات المرنة، فدخل معها في أضيق الخلجان التي تشكّلها حين تنزلق بين جذور الجبال التي تقع في نهايتها. وعلى اليسار كانت قمم جبال «لبنان» العالية والذهبية والمتعرّجة، تلقي بجرأة ٍ أشكالَها الهرمية في زرقة سماء الصبح الداكنة: وإلى اليمين، كانت الهضبة التي تحملنا ترتفع بشكل خفيف مبتعدة عنّا، وتذهب كما لو أنها تريد الارتباط بالتلال الأخرى، لتشكل معها كتلاً متفاوتة الارتفاع، بعضها قاحل، وبعضها الآخر تغطيه أشجار الزيتون والتين، وهي تحمل في قمتها قرية تركية[1] تتعارض مئذنتها البيضاء مع أعمدة أشجار السرو الداكنة التي تحيط بجميع جوانب الجامع تقريباً. أما في المقابل، فقد كان الأفق الذي ينهي سهل «زبلون»، والذي يمتد أمامنا على مسافة ثلاثة أو أربعة فراسخ، يشكّل منظوراً من التلال، والجبال والأودية والسماء والضياء والأبخرة والظل، مرتبة جميعها بألوان وخطوط متناغمة، تذوب وسط هذه التشكيلة السعيدة، وترتبط في ما بينها بتناظر جميل، وتختلف عن بعضها بعضاً بسبب التأثيرات المختلفة التي تنتج عنها، والتي لم أستطع أن أحيد بصري عنها، والتي لم أجد في ذكرياتي ما أقارن به هذا الكلّ السحري، لا في جبال الألب، ولا في «إيطاليا» ولا في «اليونان»، فهتفت : «إنها لوحة للرسام «بوسان» (Poussin) أو لـ «كلود لورين» (Claude Lorrain) !لا شيء في الواقع

---

١ - كان الغربيون يطلقون على كل ما هو إسلامي اسم « تركي». علماً بأن الشاعر يسير في فلسطين من بلاد الشام ذات التاريخ والحضور السكاني العربي تاريخياً.

يضاهي هذه العظمة العذبة الموجودة في أفق «كنعان»، إلا ريشة هذين الفنانين اللذين كشفت لهما عبقرية الطبيعة الإلهية سرّ هذا الجمال. لا يمكننا أن نرى هذا التوافق بين العظمة والوداعة، وبين القوة والجمال، وبين الجميل والخصب، إلا في هذه المناظر التي تخيّلها هذان الرجلان العظيمان، أو في الطبيعة التي لا تضاهى ونراها أمامنا، والتي رسمتها ولونتها يد الفنان الأعظم لكي يسكن فيها شعب رعاة ما زال على براءته الأولى. وفي البداية خرجت من سفح الجبل، على بعد نصف فرسخ في السهل، قمة منفصلة تماماً عن التلال المحيطة الباقية، خرجت كقاعدة تمثال طبيعية، أوجدتها الطبيعة لكي تحمل مدينة قوية فقط. وارتفعت جوانبها بشكل عمودي تقريباً من مستوى السهل حتى قمة هذا المذبح الترابي؛ وهي تشبه إلى حدّ بعيد أسوار ساحة حرب رسمتها وشيدتها يد الإنسان.

إن هذه القمة بحد ذاتها، بدلاً من أن تستدير وتتفاوت أطوالها، فإنها تمهّدت وتسطّحت، رأيت بعد ذلك نفس القمم التي لها شكل مذبح مربع أو مستطيل، والهدف منها هو بالتأكيد حماية المنازل الأولى لأمة خجولة وضعيفة؛ إن وظيفتها تلك تظهر بدقة في أشكالها الفريدة والغريبة، التي تمنعنا كتلتها من الوقوع في الخطأ؛ وأظن أنها من صنع الإنسان الذي غطى مدنه فيها. ولكن هل باستطاعة أمة صغيرة أن تشيّد هذا العدد الهائل من القلاع، في حين أن جيش «كسرى» (Xerxès) لم يستطع أن يشكّل واحدة منها؟ يجب أن يكون الإنسان كفيفاً حتى لا يرى، بغض النظر عن معتقده الديني، القدَر الخاص والرباني أو الطبيعي لهذه القلاع التي ترتفع في بداية ونهاية سهول «الجليل» و«السامرة» كلها تقريباً وخلف هذه القمة، حيث يستطيع الخيال أن يبني بسهولة مدينة قديمة مع أسوارها وحصونها وأبراجها، ترتفع التلال الأولى تدريجياً من السهل، حاملة فوق سفوحها بقعاً رمادية أو سوداء هي في الواقع غابات صغيرة من أشجار الزيتون أو السنديان الأخضر. ومن بين هذه التلال والجبال الأكثر ارتفاعاً وقتامة، والتي تشكّل قاعدة لها، وتهيمن عليها بجلال، ظهرت بعض السيول

المزبدة، أو بعض الغدران العميقة التي تتبخر بفعل حرارة أشعة الصباح الأولى، لأن بخاراً أبيض ومائلاً إلى الزرقة راح يمتد في هذا الفضاء الفارغ، ويحجب بخفة الصف الثاني من الجبال، كما لو أنه أرادها أن تهرب، تحت هذه الغلالة الشفافة التي تخترقها هنا وهناك حزمة من أشعة الفجر. وبعد قليل وعلى ارتفاع أكبر، ظهرت سلسلة ثالثة من الجبال داكنة بالكامل، انتصبت على شكل كتل مستديرة ومتفاوتة الارتفاع، وأسبغت على هذا المشهد الجميل مسحة من العظمة والقوة والهيبة التي يجب أن تتواجد في كل ما هو جميل، كعنصر متجانس معه أو معاكس له. وبين الحين والآخر كانت هذه السلسلة الجبلية الثالثة تنكسر، فتسمح للأفق والنظر بأن يسرحا فوق فجوة واسعة من السماء الفضية الشاحبة، والموشّحة ببعض الغيوم الوردية: وفي النهاية خلف هذا المسرح الرائع تنصب قمة أو قمتان من جبال «لبنان» مثل مطلات تتقدم في السماء، وتستقبل أولاً أمطار الأشعة المضيئة التي ترسلها أشعة الشمس المعلقة فوقها، والتي تبدو شفافة لدرجة تجعلنا نتخيّل أننا نرى عبرها ارتعاش نور السماء التي تحجبها عنّا. وتضاف إلى هذا المشهد قبة السماء الهادئة والحارة، ولون الضياء الصافي، وصلابة الظلال التي تميّز جوّ آسيا. زد على ذلك السهل خاناً خرباً، أو طابوراً طويلاً من الأبقار الصهباء، والجمال البيضاء، والعنزات السوداء، التي تسير الهوينى بحثاً عن مياه نادرة، ولكنها نقية وطيبة؛ وتخيل بعض الفرسان العرب وهم يمتطون أحصنتهم الخفيفة ويذرعون السهل جيئة وذهاباً، وهم يلمعون بأسلحتهم الفضية وثيابهم الفاقعة، ثم بعض نساء القرى المجاورة وهن يرتدين عباءاتهن الزرقاء الطويلة، وأطراف أحزمتهن العريضة البيضاء تجرجر فوق الأرض، وقد اعتمرن عمائم زرقاء مزينة بذؤابات تزينها قطع نقود من مدينة البندقية؛ ثم أضف هنا وهناك فوق سفوح التلال، بعضَ الدساكر التركية أو العربية، التي تشبه ألوان جدرانها ألوان الصخور، وبعضَ المنازل التي تهدّمت سقوفها، التي تمتزج مع صخور التلة نفسها؛ ثم بعض غيوم دخان السماء اللازوردي الذي يعلو أحياناً بين أشجار الزيتون والسرو التي تحيط بالقرية؛ وبعض الأحجار المحفورة على شكل أجران ثم بعض رؤوس

الأعمدة الغرانيتية، وبعض رؤوس الأعمدة المنحوتة، التي تلتقي هنا وهناك حول الينابيع، وتحت أقدام حصانك، فإذا تخيلت ذلك كله تكون قد حصلت على الرسم الأدق والأجمل لسهل «زبلون» و«الناصرة» و«صفورة» و«ثابور».

ثم مررنا من سهل «زبلون»، ونحن نتسلق مرتفعات خفيفة وقاحلة أكثر من التي اجتزناها للتو، إلى قرية «صفورة»، وهي القرية القديمة المذكورة في التوراة، التي كانت مدينة رومانية قديمة اسمها «ديوقيسارية» (Diocésarée)، في عهد «هيرودوس أغريبا» (Hérode-Agrippa)، وأكبر مدينة في «فلسطين» بعد مدينة «القدس».

كانت كتل الحجارة الكثيرة التي حفرت لتوضع فيها النواويس، ترسم لنا الدرب المؤدي إلى قمة المرتفع الذي تتربع «صفورة» فوقه : وحين وصلنا إلى المرتفع الأخير، رأينا عموداً منفرداً من الغرانيت يشير إلى مكان معبد قديم؛ كانت رؤوس أعمدة منحوتة تقبع على الأرض أسفل العمود، وبقايا هائلة من الحجارة المنحوتة التي أُخذت من بعض المباني الرومانية الكبيرة، تتناثر هنا وهناك، وقد استخدمها العرب لرسم حدود حقولهم، حتى على بعد ميل من «صفورة» حيث توقفنا لنستريح في منتصف النهار. كان نبع ماء رائع لا ينضب يجري لسد حاجة سكان واديين أو ثلاثة أودية، وهو محاط ببعض بساتين أشجار التين والرمان؛ جلسنا تحت ظلها، وانتظرنا أكثر من ساعة لكي تتمكن قافلتنا من الشرب، لقد كان هناك عدد كبير من قطعان الأبقار والجمال التي أتى بها الرعاة العرب من جميع أنحاء الوادي. وكانت هناك طوابير كثيرة من الماعز تجوب السهل وجوانب التلال التي تصعد باتجاه «الناصرة».

نمت متلفعاً بمعطفي تحت ظل شجرة تين على مقربة من النبع، وتأملت طويلاً هذا المشهد الاعتيادي الذي يرجع إلى العهد القديم. كانت خيولنا منتشرة حولنا، وقد ربطت أقدامها إلى بعض الحواجز، سروجها التركية فوق ظهورها، وعروفها الطويلة متدلية، وقد خفضت رؤوسها وهي تبحث عن ظل عروفها نفسها؛ وكانت أسلحتنا وخناجرنا وبنادقنا ومسدساتنا تتدلى فوق رؤوسنا، معلقة فوق أغصان الرمان والتين. وكان

بعض العرب البدو، الذين يتغطون ببساط مقلم بالأبيض والأسود ومصنوع من وبر الماعز، متحلقين بالقرب منّا وهم يراقبوننا بعيون حادة تشبه عيون الجوارح. كانت ثياب نساء «صفورة» عبارة عن جلباب أزرق معقود في منتصف الجسم، في حين تسقط فوق هذا الجلباب الأزرق الثنيات الجميلة المنتفخة لجلباب آخر أبيض اللون، وهن يحملن فوق رؤوسهن الملفوفة بالعمائم الزرق، الجرار الفارغة التي بطحنها على بطونها، أو التي عدن بها مليئة ومستقيمة فوق رؤوسهن، وهن يمسكن بها براحتي أيديهن مثل تماثيل الـ «كارياتيد» التي نجدها في الـ «اكروبوليس». وكانت فتيات أخريات يرتدين الزي نفسه، يغسلن الملابس في النبع، ويتضاحكن وهن ينظرن إلينا؛ وأخيراً فتيات يرتدين ملابس أكثر فخامة، ورؤوسهن مغطاة بذوائب من القروش أو النقود الذهبية، يرقصن تحت شجرة رمان ضخمة على مقربة من النبع ومنّا : كانت رقصتهن رخوة وبطيئة ولم تكن سوى دورة رتيبة تتخللها بين الحين والآخر بعض الخطوات التي تفتقر إلى الفن ولكن ليس إلى الجمال. لقد خُلِقت المرأة جميلة؛ ولا يمكن للأعراف وللملابس أن تُفسد فيها سحر الجمال والحب الذي يحيط بها ويشير إليها في كل مكان. لم تكن تلك النساء محجبات مثل كل النساء اللواتي رأيناهن في الشرق حتى الآن، ومع أن وجوههن كانت موشومة بلطف، إلا أن دقة ملامحهن وانتظامها تدلّ على أنهن تركيات الأصل. وتابعن الرقص والغناء طوال فترة استراحتنا، ولم يبدين أي انزعاج من اهتمامنا برقصهن وبغنائهن وثيابهن. قيل لنا إنهن اجتمعن هنا في انتظار هدايا العرس التي ذهب شاب عربي يشتريها من «الناصرة» من أجل خطيبته وهي إحدى فتيات «صفورة». والتقينا فعلاً في ذلك اليوم بالهدايا على طريقنا : كانت عبارة عن مصفاة لنخل الطحين وفصله عن النخالة، وقطعة قماش من القطن، وقطعة أخرى أفخم منها لصنع ثوب العروس.

بدأت أحس في ذلك اليوم بانطباعات جديدة في داخلي، ومختلفة تماماً عن تلك التي أوحت إليّ بها أسفاري حتى ذلك الحين : لقد سافرت بعيني، وفكري، وعقلي، ولم أسافر بروحي وقلبي. وحين لامست أرض الأعاجيب، أرض «يهوه» (Jéhovah)

والمسيح[1] وأرض تلك الأسماء التي نطقت بها شفتاي آلاف المرات في طفولتي، والتي شكّلت أول الصور التي لونت مخيلتي الشابة والغضّة؛ الأرض التي ظهرت فيها من أجلي تعاليم وعذوبة دين، هو روح ثانية لروحنا! شعرت كما لو أن شيئاً ميتاً وبارداً قد تحرك في قلبي وازدادت حرارته؛ شعرت بما نحسّ به عادة حين نتعرّف من بين آلاف الوجوه على وجه أم، أو أخت أو زوجة معشوقة؛ ما نشعر به حين نخرج من الشارع لندخل إلى معبد، هو شيء من الخشوع والعذوبة والحميمية والنعومة والعزاء، لا يمكن أن نشعر به في مكان آخر.

إن المعبد بالنسبة لي كان هو أرض التوراة والإنجيل هذه، التي طبعتُ فوقها الآن أولى خطواتي! صليت للرب بصمت، في سرّ أفكاري، وشكرته لأنه تركني أعيش كفاية لكي يبلغ بصري معبد هذه الأرض المقدسة : ومنذ ذلك الحين، وخلال كل فترة سفري في مدن «اليهودية» و«الجليل» و«فلسطين»، كانت الانطباعات الشعرية والمادية التي تمنحني إياها مظاهر وأسماء الأماكن، تمتزج في داخلي بشعور حيوي ينبض بالاحترام والحنان كما تنبض الذكرى؛ لقد غدا سفري صلاة في أكثر الأحيان، غدا مصدري الحماس الطبيعيين لروحي، وهما حماس الطبيعة وحيوية خالقها، كنت أجدهما في روحي تقريباً كل صباح، طازجين وحيويين وكأن سنوات الذبول والقحط لم تسحقهما وتكبتهما في قلبي. وشعرت بأنني إنسان وأنا أظهر أمام ظل إله شبابي! عندما نزور الأماكن التي كرّسها أحد تلك الأحداث الغامضة التي غيرت وجه العالم، نحس بشيء مشابه للشعور الذي ينتاب المسافر الذي يتسلق بدأب مجرى نهر واسع، مثل نهر النيل أو نهر الغانج لكي يكتشفه ويتأمله عند منبعه المختبئ والمجهول : كنت أحس وأنا أصعد آخر التلال التي تفصلني عن «الناصرة» أنني سوف أتأمل النبع السري لهذا الدين الواسع والخصب الذي حفر مجراه في العالم منذ ألفي عام، من أعالي جبال «الجليل»، وروى الأجيال المتعددة من البشرية بمياهه الصافية والمحيية! هنا

---

١ - يتجاوز المؤلف هنا الإسلام ورسالته ونبيه.

كان المنبع، في قلب الصخرة التي وطئتها قدماي : هذه التلة التي اجتزت آخر درجاتها كانت تحمل في جوانبها خلاص العالم وحياته ونوره وأمله ؛ هنا على بعد عدة خطوات مني ولد الإنسان الأمثل بين بني البشر، لكي ينشلهم بكلمته ومثاله، من بحر الإثم والفساد التي كان الجنس البشري يغرق فيه. وإذا نظرت إلى الأمر نظرة فلسفية، قلت إنها نقطة انطلاق الحدث الأكبر الذي هزّ العالم الأخلاقي والسياسي، الحدث الذي ما زال رجعه وحده يضفي بقية من حركة ومن حياة في العالم الأدبي! وهنا من قلب الظلمة والبؤس والجهل، خرج أكثر الرجال عظمة وعدلاً وحكمة وفضيلة! هنا كان مهده، وهنا مسرح أحداثه ونبوءاته المؤثرة! ومن هنا خرج وهو ما زال طفلاً، مع بعض الرجال المغمورين والجاهلين، الذين طبع فيهم ثقة عبقريته، وجرأة رسالته، لكي يذهبوا بإصرار لمواجهة نمط من الأفكار والأشياء التي لم تكن قوية كفاية لكي تقاومه، ولكنها كانت كافية لقتله!... قلت لنفسي، من هنا خرج ليذهب بثقة كي ينتصر على الموت وعلى إمبراطورية العالم الآتية! من هنا انسابت المسيحية، منهلاً غامضاً، نقطة ماء لا ترى في قلب صخرة «الناصرة»، لم يكن باستطاعة عصفورين دوريين أن يشربا منها، وباستطاعة شعاع شمس واحد أن يجففها، وهي الآن مثل محيط واسع من الأفكار، غمر كل أغوار الحكمة الإنسانية، وغسل بمياهه التي لا تنضب الماضي والحاضر والمستقبل! إن روحي التي لم تصدق ألوهية هذا الحدث، تهتز الآن بشدة لاقترابي من مسرح الألوهية الأول، ولسوف أكشف عن رأسي وأحني جبيني للإرادة الغامضة والقدَرية التي خلقت كل تلك الأشياء من نقطة انطلاق ضعيفة يكاد المرء لا يشعر بها.

كانت هذه الأفكار تتوارد في ذهني، ورأسي مطأطئ وجبيني مُثْقل بآلاف الأفكار الثقيلة الأخرى، حين أبصرت تحت قدمي، في أسفل الوادي المحفور على شكل حوض أو بحيرة من التراب، أبصرت منازل «الناصرة» البيضاء والجميلة التي تتجمّع على جانبي هذا الحوض. رأيت الكنيسة اليونانية، ورأس مئذنة الجامع التركي، وأسوار دير

الآباء اللاتينيين الطويلة والعريضة، ثم بدأت أميّز بعض الشوارع والمنازل الأصغر حجماً، والتي كانت مع ذلك جميلة وشرقية الطابع، والكل ينتشر حول مبان أكبر ومليئة بضجة الحياة وحركتها. وتنتشر حول وادي أو حوض «الناصرة» بعض باقات من نباتات الصبار الهندي الشائكة، ومن أشجار التين التي أفقدها الخريف أوراقها، وأشجار الرمان ذات الأوراق الخفيفة والملونة باللونين الأصفر والأخضر الزاهي، تناثرت هذه الأشجار هنا وهناك بشكل عشوائي لتضفي على المشهد الرطوبة والجمال، مثل ورود الحقول حول مذبح القرية. إن الله وحده هو الذي يعلم بما حدث في قلبي في ذلك الحين؛ غير أني بحركة عفوية، ولنقل لا إرادية، وجدت نفسي أمام أقدام حصاني، أركع فوق التراب، فوق إحدى تلك الصخور الزرقاء والمغبرة التي نجدها على الطريق المنحدر الذي كنّا ننزله. وخرجت من فمي تلك الكلمات: «الكلمة صار جسداً وحل فينا» (Et verbum caro factum est, et habitavit in nobis). لفظتها بكل الشعور السامي، والعميق والممتن الذي تتضمنه؛ لقد أوحى بها هذا المكان بكل بساطة، لدرجة أني دُهشت عندما وصلت في المساء إلى مذبح الكنيسة اللاتينية، فوجدتها محفورة بأحرف ذهبية فوق طاولة المذبح الرخامية الموجودة في القبو، في منزل «يوسف» و«مريم». ثم حنيت رأسي بخشوع نحو تلك الأرض التي أنجبت المسيح، فقبلتها بصمت، وبللتها ببعض دموع الندم والحب والأمل، هذه الأرض التي رأت الكثير من الدموع المدرارة وجفت وهي تطلب إليها بعض الحقيقة والحب.

وصلنا إلى دير الآباء اللاتينيين في «الناصرة»، حين كانت آخر أشعة المساء تذهّب بخفة أسوار الكنيسة والدير العالية. وانفتحت أمامنا بوابة كبيرة معدنية؛ فدخلت فيها خيولنا وهي تدق بحوافرها الحديدية، و بصوت رنان، بلاط الأرضية اللامع والرنان الذي يغطي الباحة الأمامية للدير. ثم انغلقت البوابة خلفنا ونزلنا عن خيولنا أمام باب الكنيسة تماماً، التي كانت في الماضي منزل تلك الأم التي أرضعت من ثديها الضيف الأزلي، والتي أعطت حليبها للإله. كان رئيس الدير والأب الذي يحرسه غائبين

كلاهما. وبعض الرهبان من «نابولي» ومن «إسبانيا» منشغلون بتذرية قمح الدير أمام الباب، استقبلونا ببرود ثم قادونا إلى رواق طويل تحيط به غرف الرهبان والغرف المخصصة للغرباء. وهناك انتظرنا طويلاً وصول كاهن «الناصرة»، الذي غمرنا بلطفه وأمر بتحضير غرفة وسرير لكل واحد منّا. كنا متعبين من السير ومن انفعالات النهار، فارتمينا فوق أسرّتنا، ولم نشأ تشويه مجمل انطباعاتنا بإلقاء نظرة أولية وعجولة على الأماكن المقدسة التي نسكن الآن داخل أسوارها.

استيقظت عدة مرات في الليل لكي أرفع روحي وصوتي إلى الله، الذي اختار في هذا المكان تلك التي سوف تحمل الكلمة إلى العالم أجمع.

وفي صباح الغد قادنا كاهن إيطالي إلى الكنيسة ثم المعبد الموجود تحت الأرض والذي كان في الماضي منزل العذراء و«يوسف». إن الكنيسة هي عبارة عن صحن عريض ومرتفع بثلاثة طوابق. كان الطابق الأعلى مخصصاً لجوقة آباء «الأرض المقدسة»، وهو يتصل بالدير بواسطة باب خلفي: والطابق الأسفل مكرّس للمؤمنين وهو يتصل بالمذبح الكبير عن طريق درج جميل ثنائي الدرابزين ومذهّب. ويوجد في هذه المنطقة من الكنيسة تحت المذبح الكبير، سلم مؤلف من عدة درجات يفضي إلى كنيسة صغيرة ومذبح من الرخام تنيره مصابيح من الفضة موضوعة في المكان الذي تقول الروايات إن البشارة قد تمت فيه. لقد شُيّد هذا المذبح تحت قبة صخرة نصفها طبيعي ونصفها الآخر اصطناعي، وكان المنزل المقدس يستند إليها بلا شك. وخلف هذه القبة الأولى، يوجد مذبحان سفليان، معتّمان، يقال إنهما كانا مطبخ قبو العائلة المقدسة. إن هذه التقاليد الأمينة إلى حدّ ما، والتي أفسدتها إلى حدّ معين الرغبةُ التقية للسذاجة الشعبية، وربما أيضاً الرغبة الطبيعية للرهبان الذين امتلكوا هذه الذخائر الثمينة والذين رغبوا في زيادة الاهتمام بها عن طريق الإسراف في التفاصيل، أضافت بعض الاختراعات الطوعية إلى ذكرى المكان القوية؛ ولكن ما هو مؤكد هو أن الدير أو الكنيسة بشكل خاص، قد بُنيت في الأصل في نفس المكان الذي كان يشغله بيت الوريث الإلهي

للسماء والأرض. عندما انتشر اسمه مثل نور فجر جديد، بعد موته بوقت قصير، حين كانت أمه وتلاميذه ما زالوا على قيد الحياة، من المؤكد أنهم قد تناقلوا في ما بينهم تقديس الحب والألم اللذين خلفهما غياب المعلم الإلهي، وذهبوا بأنفسهم في أغلب الأحيان ليقودوا المسيحيين الجدد إلى الأماكن التي عاش، وتكلم، وتصرّف، ومات فيها، ذاك الذي يعبدونه اليوم. لا يمكن لأية قداسة إنسانية أن تحفظ بهذه الدرجة من الأمانة، تقليدَ مكان عزيز بذكراه، كما فعلت قداسة هؤلاء المؤمنين والشهداء. يمكننا الاعتماد في ما يخص دقّة أماكن الفداء الرئيسية، على حرارة الإيمان الوليد ويقظة العبادة الخالدة. جثونا على ركبنا فوق هذه الأحجار، وتحت هذه القبة، وهي شهود على أكثر أسرار الرحمة الإلهية غموضاً، ثم صلينا. إن حماس الصلاة هو سر بين الإنسان وبين الله : مثله مثل الحشمة، يلقي بظل على الفكر، ويخفي عن الإنسان كل ما هو غير متعلق بالسماء.

زرنا كذلك الدير الواسع والمريح، وهو بناء يشبه جميع أديار «فرنسا» أو «إيطاليا»، حيث يمارس الآباء اللاتينيون شعائر عبادتهم بنفس القدر من الحرية والطمأنينة والدعاية، كما لو أنهم يمارسونها في أحد شوارع «روما» عاصمة المسيحية. وقد رويتْ في هذا الخصوص افتراءات كثيرة مغرضة عن المسلمين. إن التسامح الديني، لا بل يمكنني القول الاحترام الديني مطبوع بعمق في أخلاق المسلمين. إنهم جد متدينين هم أنفسهم، ويتمسكون بحرص شديد بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، لذلك فإن آخر ما يرغبون في الإساءة إليه هو حرية دين الآخر، إنهم يشعرون أحياناً بنوع من الامتعاض من دين يعارض رمزه ديانتهم، ولكنهم لا يحملون الاحتقار والكره إلا للرجل الذي لا يدعو الله الكلي القدرة بأية لغة كانت : إنهم عاجزون عن فهم هؤلاء الناس، لطالما كان وضوح فكرة الله حاضراً في أذهانهم ويشغل روحهم باستمرار. يعيش في هذا الدير بين خمسة عشر وعشرين راهباً إسبانياً وإيطالياً، يقضون وقتهم بإنشاد المدائح للسيد المسيح وأمه السيدة مريم، في نفس المعبد الذي عاشا فيه فقيرين ومجهولين. واحد منهم يلقب بكاهن الناصرة، وهو مكلف خصوصاً برعاية الجالية

المسيحية في المدينة، التي تتألف من سبعمائة إلى ثمانمائة كاثوليكي، وألفي يوناني منشق، وبعض الموارنة وهم يعيشون مع ألف مسلم تقريباً. وأثناء النهار قادنا الرهبان لزيارة الكنائس المارونية والكنيس القديم الذي ارتاده المسيح وهو طفل ليتعلم الناموس الذي سوف يتوجب عليه يوماً أن ينقيه ويطهره، والمشغل الذي كان القديس «يوسف» يمارس فيه حرفته كنجار متواضع. لقد رأينا بدهشة وفرح الاحترام الذي يكنه سكان «الناصرة» في كل مكان، وحتى الأتراك منهم، لآباء الأرض المقدسة. إذا مرّ أسقف في شوارع مدينة كاثوليكية فإنه لن يحترم أو يبجل أكثر مما يلقاه أولئك الرهبان في هذا المكان. إن فكرة اضطهاد الكهنة بعيدة عن الأخلاق الشرقية، أبعد بكثير مما هي عليه في الأخلاق الغربية، وإذا أراد الاستشهاد ترتّب عليه أن يبحث عنه في مكان آخر، وليس هنا.

١٤ تشرين الأول ١٨٣٢

انطلقنا في الرابعة صباحاً باتجاه جبل «ثابور»، المكان الذي حدث فيه التجلي، ولكن هذا الأمر غير مرجّح، لأن قمة جبل «ثابور» كانت في ذلك العصر مغطاة بقلعة رومانية. إن الموقع المنعزل وارتفاع هذا الجبل الرائع الذي يخرج مثل باقة من الخضرة من سهل «اسدرالون» مرج «ابن عامر» (Esdraëlon)، حث الآباء في عصر القديس «جيروم» (Jérôme) على اختيار هذا المكان لتحديد موقع هذا المشهد المقدس. لقد بُنيت كنيسة في قمة الجبل، يستطيع الحجاج فيها حضور القداس، ولكن لا يسكن فيها أي كاهن، وهم يأتون إليها من «الناصرة». حين وصلنا إلى سفح جبل «ثابور»، وهو مخروط منتظم تماماً، وتغطيه في كل مكان النباتات وأشجار السنديان الخضراء، ضيَّعَنا دليلنا. جلست وحيداً تحت شجرة سنديان جميلة، تقريباً في المكان الذي وضع فيه «روفائيل» (Raphaël) في لوحته، تلاميذ المسيح المذهولين من النور الآتي من الأعالي، وانتظرت حتى يبدأ الكاهن بإقامة القداس. إنهم يعلنون بدء القداس بطلقة مسدس من أعلى الجبل، حتى نتمكن من الركوع فوق الدرجات الطبيعية لهذا المذبح الهائل، أمام هذا الذي أقام المعبد وبسط قبة السماء اللامعة التي تغطيه.

انطلقنا عند الظهيرة باتجاه «نهر الأردن» و«بحر الجليل»؛ وفي الساعة الواحدة اجتزنا التلال المنخفضة والظليلة التي تحمل قاعدة جبل «ثابور»؛ ودخلنا إلى سهل واسع يبلغ طوله ثمانية فراسخ ويبلغ عرضه المسافة نفسها على الأقل. رأينا خاناً مهدماً وسط عمارة تعود إلى القرون الوسطى. واجتزنا بعض القرى الفقيرة التي كان أهلها يزرعون السهل؛ ولكل قرية بئر يقع على مقربة منها، وبعض أشجار التين والرمان المزروعة بالقرب من البئر. هذا هو مظهر الترف الوحيد. لا يمكن تمييز المنازل إلا إذا اقتربنا منها بشكل جيد. إنها دساكر يتراوح طولها من ستة إلى ثمانية فراسخ، وفيها نوع من مكعبات الطين الممزوج بالقش المفروم والتي تشكّل السقف الذي يشبه الشرفة. إن هذه الشرفات تقوم مقام الباحة : هنا يضعون أثاثهم، وهو غطاء وحصيرة، تجلس فوقهما النساء والأطفال طوال الوقت تقريباً، والنساء غير محجبات، وقد صبغن شفاههن باللون الأزرق، وكذلك أطراف جفونهن، وهناك وشم خفيف مرسوم حول الشفة أو فوق الوجنة. وترتدي الواحدة منهن قميصاً واحداً أزرق اللون ومعقوداً بزنار أبيض فوق الأرداف، وتبدو عليهن جميعاً مظاهر البؤس والعذاب. ويتلفع الرجال بمعاطف بدون خياطة، وهو قطعة نسيج ثقيل منسوج على شكل تقليمات بيضاء وسوداء لا شكل لها، وتبقى أرجلهم وأذرعهم وصدورهم عارية. بعد أن سرنا مدة ست ساعات في هذا السهل الأصفر الصخري، والخصب مع ذلك، رأينا أرضاً تنخفض فجأة تحت أقدامنا، واكتشفنا وادي «الأردن» الهائل وأولى الأشعة الزرقاء لبحيرة « جنيسارت» (Génésareth) الجميلة، أو بحر «الجليل»،[1] كما دعاه القدماء في الإنجيل. وعما قريب سوف يظهر أمامنا بأكمله يحيط به من كل جوانبه، باستثناء جهته الجنوبية، مدرج من الجبال العالية الرمادية والسوداء. ثم يضيق في منتصفه وينفتح مباشرة تحت أرجلنا لكي يسمح لنهر الأنبياء، نهر الإنجيل، نهر «الأردن» بالجريان!

ويخرج نهر «الأردن» متعرجاً من البحيرة، ثم ينزلق فوق «مرج ابن عامر» (Esdraëlon) المنخفض والسبخي، الذي يقع على مسافة حوالي خمسين قدماً تقريباً

---

١ - بحيرة طبريا.

من النهر؛ يمر وهو يهدر قليلاً، ونسمع أولى همساته تحت القناطر الخربة لجسر روماني. توجهنا إلى ذلك المكان عبر منحدر سريع تغطيه الأحجار، وأردنا أن نسلّم على مياهه، المحفوظة في ذاكرة الديانتين. وصلنا إلى ضفافه بدقائق قليلة: نزلنا عن خيولنا، وغسلنا رؤوسنا وأرجلنا وأيدينا بمياهه العذبة والدافئة والزرقاء، مثل مياه نهر الـ «رون» (Rhône) الذي يخرج من بحيرة «جنيف» (Genève) .إن نهر «الأردن» الذي يبلغ منتصفه في هذه النقطة، ليس أهلاً أن نسميه نهراً في بلد شاسع الأطراف، ولكنه مع ذلك يفوق بكثير نهري «اوروتاس» (Eurotas) و«سيفيز» (Céphise)، وكل تلك الأنهر التي تحمل الأسماء الأسطورية أو التاريخية، والتي دوت في ذاكرتنا منذ الطفولة، ومثلت بالنسبة لنا صورة القوة والسرعة والوفرة التي هدّمها الواقع. إن نهر «الأردن» هو هنا أكثر من سيل : على الرغم من أنه يجري بهدوء في نهاية خريف من غير مطر، ويبلغ عرض مجراه مئة قدم تقريباً، ويبلغ عمق مائه قدمين أو ثلاثة أقدام، ومياهه صافية وواضحة وشفافة وتسمح حتى برؤية حصى القاع وعدّها، وهي ذات ألوان جميلة تعكس كل عمق سماء آسيا، إنها أكثر زرقة من السماء، وكأنها صورة يفوق جمالها جمال الأداة التي تمثلها، إنها مثل مرآة تلوّن كل ما ينعكس فيها. أما الشاطئ الذي تركه النهر جافاً، والذي يبعد عشرين أو ثلاثين خطوة عن المياه، فهو الآن مزروع بالحصى المستدير، وبنبات القصب، وببعض باقات الدفلى التي لا زالت تحمل الأزهار. إن هذا الشاطئ الذي ينخفض خمسة أو ستة أقدام عن سطح السهل، يدل على منسوب النهر في الفصول العادية التي يمتلئ فيها بالمياه. وأقدّر أن أبعاده تبلغ في العمق ثمانية أو عشرة أقدام، وفي العرض بين مئة ومئة وعشرين قدماً. إنه أضيق وأعلى وأخفض في السهل؛ ولكنه يكون عندئذٍ أكثر تحديداً وعمقاً، والمكان الذي نتأمله منه الآن، هو أحد المعابر الأربعة المشيدة فوق مجرى النهر. شربت براحتي يديّ من نهر «الأردن»، من الماء التي شرب منها الكثير من الشعراء الإلهيين قبلي، من هذه المياه التي سالت فوق الرأس الطاهر للضحية التي قبلت طوعاً أن تكون ضحية! وجدت هذا الماء

عذباً جداً، ولطيف المذاق، وشفافاً. إن العادات التي نتبعها حين نسافر إلى الشرق، هي ألا نشرب سوى الماء، وأن نشرب بكثرة، إن هذه العادة تجعل حاسة الذوق حَكَماً ممتازاً لتحديد خصائص المياه الجديدة. لم تكن تنقص مياه نهر «الأردن» إلا خاصة وحيدة وهي البرودة. لقد كانت فاترة؛ وعلى الرغم من أن شفتيّ ويديّ كانتا ساخنتين بعد سير استمر إحدى عشرة ساعة بدون ظل، وتحت شمس ضارية، فإن يديّ وشفتيّ وجبيني أحست بالدفء حين لامست مياه هذا النهر.

ومثل كل المسافرين الذين يأتون، متجشمين المشاق والمسافات والأخطار، لزيارة هذا النهر المهمل الذي كان ملكاً في ما مضى، عبأت عدة زجاجات من مياهه لأحملها إلى أصدقائي الذين كانوا أقل حظاً مني، وملأت جراب مسدسي بالحصى الذي جمعته من مجرى النهر. ماذا يمكنني أن أحمل أيضاً، الوحي المقدس والنبوي الذي روى منه في السابق شعراء هذه الشواطئ المقدسة، وبالأخص بعضاً من قداسة الفكر وطهارته التي يحملها عندما استحم فيه أقدس وأطهر طفل بين البشر! صعدت بعدئذٍ على ظهر جوادي، وقمت بجولة حول بعض الأعمدة المهدّمة التي كانت تحمل الجسر أو قناطر الماء التي تحدثت عنها قبل قليل : لم أر شيئاً باستثناء الحالة المتردية لكل الأبنية الرومانية التي بنيت في ذلك العصر؛ لم أر رخاماً أو نحتاً أو كتابات محفورة، إذ لم تسلم أية قنطرة أو قوس، بل بقيت عشرة أعمدة واقفة، ويمكننا أن نميّز أساسات أربعة أو خمسة أعمدة أخرى؛ كانت فتحة كل قنطرة تبلغ قدمين تقريباً، وهذا ما يتوافق مع مسافة المئة والعشرين قدماً التي أعطيتها من النظرة الأولى لعرض نهر «الأردن».

أما ما كتبته بعد ذلك بشأن أبعاد نهر «الأردن» فقد كان لإرضاء فضول الأشخاص الذين يرغبون في إعطاء أبعاد دقيقة وصحيحة حتى للصور التي تتخيلها أفكارهم نفسها، وليس من أجل إعطاء سلاح لأعداء المسيحية أو للمدافعين عنها، وهي أسلحة تافهة على كل حال. لا يهم إذا كان «الأردن» سيلاً أو نهراً. أو إذا كانت

«اليهودية» مرتفعاً من الصخور أو حديقة غنّاء. أو إذا كان ذلك الجبل مجرد تلة، وتلك المملكة مجرد مقاطعة. إن الناس الذين يتهافتون ويتقاتلون حول أسئلة من هذا النوع، هم حمقى تماماً مثل أولئك الذين يتصورون أنهم قلبوا معتقدات عمرها ألفا عام، عندما اجتهدوا في البحث لتكذيب تفصيل وارد في التوراة، أو لتوجيه صفعة للنبوءات. ألا نحسب ونحن نرى هذه الصراعات الكبيرة حول كلمة لم تُفهم أو أسيء تأويلها من جانب الطرفين، ألا نحسب أن الأديان هي مسائل هندسية نثبتها برقم أو نهدمها ببرهان، وأن أجيال المؤمنين أو الكافرين هم موجدون لسماع نهاية النقاش وللانحياز بعد ذلك مباشرة إلى حزب المنطقي الأفضل أو جامع الآثار الأكثر معرفة ومهارة؟ إنها نقاشات عقيمة لا تضلل ولا تهدي أحداً! إن الأديان لا يُبَرْهَن عنها، ولا تُثْبتُ ولا تُقام ولا تُهدم على أساس المنطق : إنها السر الأكثر غموضاً والأصعب تفسيراً، من بين كل أسرار الطبيعة والفكر الإنساني؛ إنها تأتي بالغريزة وليس بالاستدلال. مثل تلك الرياح التي تهب في الشرق أو في الغرب، ولا أحد يعرف سببها أو نقطة انطلاقها، إنها تهبّ فحسب. وحده الله يعلم من أين تهبّ، ولماذا، ولأية مدة من الزمن، وفوق أية بقعة من الأرض! إن الأديان موجودة لأنها موجودة؛ إننا لا نعتقد بها أو نتخلى عنها بإرادتنا، أو بسبب رأي فلان أو فلان، إنها جزء من قلب الإنسان بحد ذاته، لا بل جزء من فكره أيضاً. من هو الرجل الذي يقول : «إني مسيحي، لأني أمتلك هنا الجواب القاطع الموجود في الكتاب الفلاني، أو تلك المعضلة التي لا حل لها في كتاب آخر؟» إن الرجل العاقل الذي يُسأل عن دينه يجيب : «إني مسيحي لأن أوتار قلبي مسيحية، لأن أمي أرضعتني حليباً مسيحياً، لأن قلبي وفكري يتعاطفان مع هذا المذهب، لأني أعيش بحسب عصري، ولا آبه للشكل الذي سيكون عليه المستقبل».

رأينا قريتين معلقتين على أطراف بحيرة «جنيسارت» الشديدة الانحدار، تبعد أحداهما مسافة ربع ساعة من السير، وهي قبالتنا تماماً على الجهة الأخرى لنهر «الأردن»، والأخرى تبعد عدة مئات من القامات على يسارنا، وعلى الضفة نفسها. لا

نعرف أي نوع من العرب يسكن هاتين القريتين، وقد قيل لنا أن ننتبه وأن نكون حذرين تحسباً لبعض المفاجئات من قبل عرب «الأردن» الذين لا يقبلون أن نجتاز سهولهم ونهرهم كما يحلو لنا. كنّا مستعدين ومتأهبين؛ إن غزو «محمد علي» السريع وغير المتوقع ل»سورية» أصاب العرب جميعاً بالخوف والذهول، فكان الوقت مناسباً للقيام بجولات جريئة فوق أراضيهم : إنهم لا يعرفون من نحن، ولماذا نسير بينهم بكل ثقة، ويمكن أن يفترضوا بسهولة أن قواتٍ كبيرة تتبعنا وهي تفوق بكثير القوات التي يمكنهم جمعها. كان الخوف من الغد، والخشية من انتقام عاجل يحفظان إذن سلامة طريقنا. ذهبت وأنا أحمل هذه الفكرة لأخيّم بجرأة وسط القرية العربية الأخيرة التي تحدثتُ عنها، لا أعرف ما هو اسمها؛[1] إنها مبنية (إذا كان بالإمكان أن نطلق صفة البيت على كتلة من الحجارة والطين لا شكل لها) فوق نفس قمة الشاطئ المرتفع الذي يشرف على بحر «الجليل».

وبينما كان مرافقونا العرب ينصبون خيامنا، نزلت وحدي السفح المنحدر الذي يؤدي إلى البحيرة؛ إنها تغسله هامسة، وترسم على أطرافه ذؤابة من الزبد الخفيف الذي يذوب ثم يتشكل من جديد إثر عودة كل موجة من موجاته القصيرة والسريعة، التي تشبه موج البحر اللطيف والعميق الذي يأتي ليموت فوق الرمل في عمق الخليج الضيّق. استطعت بالكاد أن أستحم بمياهه التي كانت مسرح العديد من أحداث القصيدة الأخلاقية الحديثة، أي الإنجيل، وأن أجمع بعض حفنات من أصدافه من أجل أصدقائي في أوروبا، قبل أن تنزل الشمس خلف آخر القمم العالية البركانية والسوداء لهضبة «طبريا»، وأصبح بإمكان بعض العرب الذين كانوا يتسكعون، والذين رأوني

١ - من قرى الجولان المطلة على بحيرة طبريا: كفر حارب والكرسي وفيق والبطيحة. ويبدو أن البلدة العربية التي يتكلم عنها وخيم فيها هي البطيحة، وهي تروى من نهر الاردن «الشريعة». وتقع عند ملتقى الحدود السورية الأردنية الفلسطينية حسب التقسيم السياسي لسورية الطبيعية الآن، في أقصى جنوبي الجولان، على الساحل الشرقي من بحيرة طبريا. ويحد أراضيها من الغرب نهر «الشريعة» نهر الاردن وبحيرة طبريا. ترتفع البطيحة عن سطح البحر بمقدار ١٨٦ متراً، وتتميز باتساع المكان، وحرارتها الدافئة شتاءً، وغزارة المياه وما تضفيه على المنطقة من اخضرار دائم. كما تعتبر ذات أجواء رطبة لقربها الشديد من بحيرة طبريا.

أنزل وحدي، أن يستغلوا هذه المناسبة. صعدت مباشرة باتجاههم، وبندقيتي في يدي؛ فنظروا إلي، ثم حيّوني واضعين أيديهم فوق صدورهم. عدت إلى الخيام؛ استلقينا فوق الحصر، بعد أن هدّنا التعب، لكن أسلحتنا في أيدينا لكي نهب واقفين عند أي إنذار. لم يعكّر أي شيء صمت ونوم تلك الليلة الجميلة، التي هدهدنا فيها صوت أمواج بحر يسوع المسيح الناعمة والحنونة وهي تداعب الشاطئ، وصوت الريح التي تهبّ على شكل نفحات متجانسة فوق جبال خيامنا المشدودة. وحين خرجنا فجر الغد لنذهب ونستحم في مياه النهر مرة ثانية، لم نر سوى النساء العربيات، وهن يسرّحن شعورهن الطويلة والسوداء على شرفات أكواخهن، وبعض الرعاة المنشغلين بحلب البقر والماعز، وأطفال القرية العراة وهم يلعبون بألفة مع أحصنتنا وكلابنا : كان الديك يصيح، والطفل يبكي، والأم تهدهد أو ترضع، كما في ضيعنا الصغيرة في «فرنسا» أو في «سويسرا». فهنأنا أنفسنا لأننا تجرأنا على السير في جزء من قرى الـ «الجليل»، التي يخشاها الجميع ولا يعرفونها جيداً، ولم نشك في أننا سوف نلقى الترحيب المسالم نفسه إذا ما توغلنا في البادية أيضاً؛ كنّا نمتلك كل الوسائل لنجتاز بأمان «السامرة» و«نابلس» [التي كانت تدعى قديماً «سيشم» (Sichem)،[1] وتقدمنا بفضل السيد «كاتافاغو» (Cattafago) المتنفذ في هذه المنطقة، والذي عرض أن يعلن عن قدومنا بواسطة أصدقائه العرب الكثيرين، وأن يرافقنا أخوه شخصيّاً.

لكن مخاوف شخصية جعلتني أعدل عن سلوك هذه الطريق، وأن أسلك الطريق المؤدية إلى «الناصرة» وجبل «الكرمل»، حيث كنت آمل أن أجد برقيات ورسائل من «بيروت».

امتطينا الجياد لكي نسير بمحاذاة شواطئ بحيرة « جنيسارت» المقدسة، لنصل إلى نهاية بحر «طبريا». ابتعدت القافلة بصمت عن القرية التي نمنا فيها، وسارت على الضفة الغربية للنهر، على بعد عدة خطوات من أمواجه، فوق شاطئ من الرمل

---

١ - شكيم.

والحصى نبتت فيه هنا وهناك بعض باقات من أشجار الدفلى، والشجيرات ذات الأوراق الخفيفة والمحزّزة والتي تحمل أزهاراً شبيهة بأزهار الليلك. وعلى يسارنا امتدت سلسلة من التلال الشديدة الانحدار، والسوداء، والجرداء، والتي حفرتها السيول العميقة، وكانت تتخللها بين الحين والآخر صخور ضخمة متفرقة وبركانية، امتدت على طول الساحل الذي كنّا بمحاذاته، وكانت تتقدم على شكل مرتفع داكن وعار، في منتصف البحر تقريباً، وكانت تحجب عنّا مدينة «طبرية» وقاع النهر من جهة «لبنان». لم يرفع أحد منّا صوته : كل الأفكار كانت شخصية، ومهمّة، وعميقة، كانت الذكريات العديدة المقدسة تتحدث بصوت عالٍ في روح كل واحد منّا. أما أنا، فلم يسبق لأي مكان في العالم أن خاطب قلبي بشكل أقوى وأعذب من هذا المكان. لقد أحببت دائماً أن أستعرض تضاريس أماكن سكنها الناس الذين عرفتهم، وأُعجبتُ بهم، وأحببتهم واحترمتهم، سواء كانوا الآن من الأحياء أو من الأموات. إن البلد الذي سكنه وفضّله رجل عظيم أثناء مروره على الأرض، هو بالنسبة إليّ أصدق وأفصح ذخيرة تعبّر عنه، إنه نوع من التعبير المادي عن عبقريته، وكشفٌ صامت لجزء من روحه، وشرح حيّ ومحسوس لحياته وأعماله وأفكاره. عندما كنت يافعاً، قضيت ساعات طويلة وحدي، أتأمل وأتخيّل نفسي مستلقياً تحت أشجار الزيتون التي تظلل حدائق «هوراسيوس» (Horace)، مقابل شلالات «تيبور» (Tibur) المذهلة في «إيطاليا»؛ وغالباً ما نمت في المساء على صوت بحر «نابولي» الجميل، تحت أغصان الكروم المتدلية، بالقرب من المكان الذي أراد «ڤرجيل» (Virgile) أن توضع فيه رفاته، لأنه كان أجمل وأعذب مكان ارتاح فيه بصره. كم من الصباحات والأمسيات قضيتها بعدئذٍ وأنا أجلس تحت أشجار الكستناء الجميلة، في وادي «شارميت» (Charmette) الصغير، حيث كانت ذكرى «جان جاك روسو» (Jean-Jacques Rousseau) تشدني وتستبقيني بسبب لطف انطباعاته، وأحلامه، وأحزانه وعبقريته! هذا كان حالي مع العديد من الرجال العظماء، الذين دوّت أسماؤهم أو كتاباتهم في نفسي. أردت أن أدرسهم، وأن أتعرّف على الأماكن التي أنجبتهم أو ألهمتهم، وغالباً ما كانت نظرة ذكية تكشف عن

التشابه السرّي والعميق بين الرجل العظيم وبين وطنه، بين المشهد والممثل، بين العبقرية و بين الطبيعة التي شكلتّها وألهمتها. ولكن الذي زرت اليوم مكان إقامته المفضّل، لم يكن رجلاً عظيماً أو شاعراً كبيراً، وإنما كان رجل الرجال، والإنسان المؤله، والألوهية المتجسدة، التي أتيت أعبد آثارها فوق الشواطئ التي أثّر فيها بشكل خاص، وفوق الأمواج التي حملته، والتلال التي جلس فوقها، والأحجار التي أراح جبينه فوقها. لقد رأى بعينيه الفانيتين هذا البحر، وهذه الأمواج، وهذه التلال، وهذه الأحجار؛ أو بالأحرى لقد رأه هذا البحر، وتلك التلال وتلك الأحجار؛ لقد داس بقدميه مئات المرات الطريق الذي أسير فوقه باحترام؛ ورفعت قدميه التراب الذي يتطاير تحت قدمي : لقد تنقل باستمرار بين «الناصرة» وبين «طبرية»، بين «القدس» و«طبرية»، خلال سنوات رسالته الإلهية الثلاث؛ لقد تنقل بمراكب الصيادين فوق بحر «الجليل»، وهدّأ عواصفه؛ وركب الأمواج ممسكاً بيد تلميذه القليل الإيمان مثلي، هذه اليد السماوية التي أنا بحاجة إليها أكثر منه في عواصف الآراء والأفكار الأشد هولاً!

لقد جرى مشهد الإنجيل الكبير والغامض بأكمله فوق هذا النهر أو على ضفافه، أو فوق تلك الجبال التي تحيط بالنهر وتراه. ها هي «عمواس» (Emmaüs) التي اختار فيها تلاميذه بالصدفة من بين أقل الرجال مكانة، لكي يثبت أن قوة عقيدته هي في العقيدة بحدّ ذاتها، وليس في أعضائها الضعفاء. ها هي «طبرية» التي ظهر فيها للقديس «بطرس» (Pierre)، وأسس نظام كنيسته بثلاث كلمات أزلية؛ وها هي «كفرناحوم» (Capharnaüm)، وها هو الجبل الذي ألقى فوقه عظة الجبل الجميلة، وها هو الجبل الذي لفظ فوقه التطويبات الثلاث بحسب الله؛ وها هو المكان حيث هتف «أُشفِقُ على هذا الجمع» (Miseror super turbam). وكثّر الخبز والسمك، مثلما كانت كلمته تخلق حياة الروح وتضاعفها؛ وها هو خليج الصيد العجائبي، هاهو الإنجيل بكامله في النهاية، مع أمثاله المؤثرة، وصوره الحنونة والممتعة كما تبدو لنا وكما بدت لمستمعي المعلم الإلهي، حين أشار لهم بإصبعه إلى الحمل، وإلى القطيع، وإلى الراعي

الصالح، وإلى زنابق الحقل. ها هو أخيراً البلد الذي فضّله المسيح على الأرض، البلد الذي اختاره لكي يجعل منه مقدمة مأساته الغامضة، والذي كان له فيه خلال الثلاثين سنة المجهولة التي عاشها، أهل وأصدقاء حسب قوانين الجسد، البلد الذي بدت له الطبيعة، التي يمتلك أسرارها، ساحرة إلى أبعد حدّ؛ ها هي الجبال التي كان مثلنا الآن، يرى منها شروق وغروب الشمس التي تقيس بسرعة أيامه الدنيوية؛ هنا كان يأتي ليرتاح، ويتأمل، ويصلي، ويحب البشر والله.

سوريا - الجليل،، ١٥ تشرين الأول ١٨٣٢

يبلغ عرض بحر «الجليل» عند نهايته الجنوبية التي سرنا بمحاذاتها، فرسخاً واحداً، ثم يزداد عرضاً بالتدريج حتى يصل إلى ارتفاع «عمواس» (Emmaüs)، التي تقع في نهاية المرتفع الذي يحجب عنّا مدينة «طبرية» (Tibériade)؛ ثم تنفتح فجأة الجبال التي كانت تحدّ هذا البحر على شكل خليجين عريضين من كل جانب، وتشكّل حوضاً شبه دائري يمتد فيه البحر ويتطور في قاع يتراوح محيطه بين اثني عشر وخمسة عشر فرسخاً. وهو حوض غير منتظم الشكل، لا تنزل الجبال من كل جانب لتلامس أمواجه، فتبتعد تارة عدّة فراسخ عن الشاطئ تاركة بينها وبين البحر سهلاً منخفضاً، خصباً وأخضر مثل سهول «جنيسارت»، وتنفصل عن بعضها تارة أخرى وتنفتح لتسمح للأمواج الزرقاء بالدخول إلى الخلجان المحفورة في أسفلها والواقعة في ظلّها. إن يد أمهر الرسامين لا تستطيع أن ترسم حواف أكثر استدارة، وأقل وضوحاً، وأشد تنوعاً من تلك التي أعطتها يد الخالق لهذه المياه وتلك الجبال؛ تبدو وكأنها تحضّر المشهد الإنجيلي لفعل النعمة والسلام والتصالح الذي يجب أن يتحقق فيه! وتشكّل الجبال في الشرق بدءاً من قمم «جلبوع» (Gelboë) التي نراها من الجهة الجنوبية، وحتى قمم «لبنان» في الشمال، تشكّل سلسلة متقاربة، ولكنها متموّجة ومرنة، تبدو وكأن ظلال حلقاتها الداكنة على وشك أن تمتد هنا وهناك لتسمح بمرور القليل من لون السماء. ولا تنتهي تلك الجبال بقمم مسنّنة، وصخور شحذتها العواصف وترفع

نهاياتها الضعيفة في وجه الصواعق والرياح، فتضفي على مظهر هذه السلسلة العالية مسحة من الحزن والرهبة والقِدم التي تُحزنُ القلبَ وترفع الفكر. بل تتناقص بليونة لتغدو على شكل كتل عريضة وسريعة بعض الشيء، مغطى بعضها بأشجار السنديان المتفرقة، والبعض الآخر بالأدغال المُخضرة، وتلك بأرض عارية ولكنها خصبة لم تغب عنها آثار بعض المزروعات؛ وأخيراً ينسحب نور المساء أو الصباح على سطح بعض تلك التلال فيلونها بالأصفر الفاتح أو بمسحة زرقاء بنفسجية أكثر غنى لا تستطيع ريشة الرسام أن تنقلها. ومع أن سفوحها لا تسمح بمرور أي واد حقيقي، إلا أنها لا تشكّل سوراً متساوي الأبعاد؛ وإنما تحفرها السيول العميقة والعريضة من حين لآخر، كما لو أن تلك الجبال قد انفجرت تحت ثقل وزنها، ثم تجعل حوادث الطبيعة، الناجمة عن النور والظل، من تلك السيول بقعاً مضيئة أو داكنة تشدّ النظر، وتكسر رتابة الحواف والألوان. وإلى الأسفل قليلاً، تنخسف تلك الجبال فوق نفسها، وتتقدم الرؤوس والمرتفعات الصغيرة والمستديرة هنا وهناك فوق البحيرة : إنه انتقال هادئ وجميل بين قمم الجبال والمياه التي تعكسها. لا تثقب الصخور، ولا في أية بقعة من جهة الشرق تقريباً، الغطاءَ النباتي الذي يكسوها بجمال. إن «اركاديا» (Arcadie) منطقة «اليهودية» تلك، تجمع بين عظمة وهيبة المناطق الجبلية وبين صورة الأرض الخصبة ووفرتها المتنوعة. آه لو أن ندى «حرمون» لا يزال يسقط في حضنها!

وفي نهاية البحيرة باتجاه الشمال، تنخفض تلك السلسلة الجبلية مبتعدة؛ ونلمح في البعيد سهلاً يموت بين الأمواج، وفي نهاية هذا السهل تبدو كتلة بيضاء من الزبد وهي تتدحرج من علوٍ لتسقط في البحر. إنه نهر «الأردن» الذي يصب من هنا في البحيرة التي يجتازها دون أن يمزج ماءه بمياهها، ثم يخرج منها في الموضع الذي وصفناه، يخرج هادئاً وصامتاً ونقياً. ويحيط بالجزء الشمالي كله لبحر «الجليل» شريط من الحقول التي تبدو مزروعة؛ فميّزنا القش الأصفر الذي بقي بعد آخر موسم حصاد، ورأينا حقول القصب الكبيرة التي يزرعها العرب في كل مكان، حيث يتواجد دائماً نبع

ليسقيها. لقد وصفت في الجهة الغربية سلسلة المرتفعات البركانية التي كنّا نتبعها منذ شروق الصبح. إنها تسيطر على المشهد بشكل متفاوت حتى «طبرية». تجتاز انهياراتٌ من الأحجار السوداء، التي لا تزال تلفظها أفواه مئات المخاريط البركانية المطفأة، المنحدراتِ القاسية لهذا الشاطئ القاتم والمأساوي. ولا تختلف الطرقات بالنسبة إلينا إلا بسبب غرابة أشكال وألوان كتل الحمم العالية والمتصلبة التي كانت متناثرة حولنا، وكذلك بسبب بقايا الأسوار وأبواب المدن المخرّبة والأعمدة الجاثمة فوق الأرض التي تجتازها خيولنا في كل خطوة. يمكننا القول إن ضفاف بحر «الجليل» في هذه الناحية من «اليهودية» تشكّل مدينة واحدة. إن هذه الآثار الكثيرة التي نراها أمامنا، وهذه المدن الكثيرة، وعظمة أبنيتها التي لا تزال هذه الخرائب تشهد عليها، تعيد إلى ذاكرتي صورة الطريق الذي يحاذي قاعدة جبل «فيزوف» (Vésuve)، في «بورتيشي» (Portici) في منطقة الـ «كاستيلامارى» (Castellamare) .إن شواطئ بحيرة «جنيسارت» تبدو هنا وكأنها تحمل مدناً عوضاً عن المحاصيل والغابات.

وصلنا بعد ساعتين من السير إلى نهاية الرأس الذي يتقدّم في البحيرة، وبدت أمامنا فجأة مدينة «طبرية» مثل تجلّ حيّ وناصع لمدينة عمرها ألفا عام. إنها تغطي منحدر التلة السوداء والعارية التي تنحدر بسرعة باتجاه البحيرة. ويحيط بها سور مرتفع ومربع الشكل، يلتصق به خمسة عشر أو عشرون برجاً له حزّيات. في حين يرتفع رأسا مئذنتين بيضاوين ومنفردتين، فوق تلك الأسوار والأبراج، ويبدو الجزء المتبقي من المدينة وكأنه يختبئ من العرب في ظل الأسوار العالية، ولا تبدو للعين إلا القباب المنخفضة والمتنوعة الأشكال بسقوفها الرمادية، الشبيهة بحراشف سلحفاة مقطعة الأوصال.

توقفنا هنا عند حمام «عمواس» التركي. إنه قبة معزولة ومحاطة بآثار رائعة لحمامات رومانية أو عبرية. جلسنا في قاعة الحمام نفسها. وفيها حوض مليء بماء جار وساخن تبلغ حرارته (١٠٠) درجة فهرنهايت. استحممنا، ثم نمنا لمدة ساعة.

وامتطينا جيادنا. ورأينا عاصفة تهب فوق البحيرة، وكنت أرغب فعلاً في رؤيتها. ماء خضراء مثل القصب الذي يحيط بها. زبد شاحب ومبهر. أمواج عالية وسريعة للغاية. صوت الموج الهادر فوق الأحجار البركانية المتدحرجة، ولكننا لم نلمح أي قارب في مواجهة الخطر أو في مرمى البصر. ولا أي مركب على سطح البحيرة. عدنا إلى «طبرية» تحت العاصفة وأمطار الجنوب. التجأنا إلى الكنيسة اللاتينية. وطلبنا إشعال الشموع وسط الكنيسة الفارغة، كنيسة المسيحية الأولى.

قادتنا تسع ساعات من السير دون راحة إلى مدينة «الناصرة» مروراً بـ«قانا»، مكان أول معجزة من معجزات المخلص. إنها قرية تركية تنحني بجمال فوق ضفتي حوض من الأرض الخصبة، والمحاطة بتلال مغطاة بصبار الهند، وبأشجار السنديان والزيتون. وحولها أشجار الرمان وثلاث نخلات وبعض أشجار التين. هناك نساء وقطعان ماشية حول أجران السقاية قرب النبع. ويوجد في القرية بيت القديس «برثلوماوس» (Barthélémi). وبالقرب منه البيت الذي تحول فيه الماء إلى خمر: إنه مهدّم وبدون سقف. ولا يزال الرهبان يعرضون الجرار التي كانت تضم الخمر المقدّس. إنه التطريز الرهباني الذي يشوّه، في كل الأنحاء، قماش التقاليد الدينية البسيط والغني.

بعد أن ارتحنا برهة وشربنا من نبع «قانا»، عاودنا السير تحت ضوء القمر باتجاه «الناصرة». اجتزنا بعض السهول المزروعة بشكل جيد، ثم سلسلة من التلال المُشجّرة التي كانت تزداد ارتفاعاً كلما اقتربنا من «الناصرة». بعد ثلاث ساعات ونصف من المسير وصلنا إلى أبواب الدير اللاتيني في «الناصرة» فاستقبلونا فيه من جديد.

فوجئت عند استيقاظي بصوت يلقي علي تحية الصباح بالإيطالية؛ إنه صوت نائب قنصل «فرنسا» القديم في «عكا»؛ السيد «كاتافاغو» (Cattafago)، وهو شخصية معروفة جداً ومهمة جداً في جميع أنحاء «سوريا»، لقد جعله لقبه كوكيل للأوروبيين، وصداقته مع «عبدالله» باشا «عكا»، مشهوراً ومتنفذاً. إنه لا يزال قنصل

«النمسا» في «عكا». وكانت ملابسه تعبّر عن طبيعته المزدوجة كعربي وأوروبي. كان يرتدي المعطف الأحمر المبطن بفراء القاقوم، ويرتدي القبعة الكبيرة المثلثة الرؤوس التي تميّز الموظفين الفرنسيين في الشرق : وتعود هذه القبعة إلى فترة حرب «مصر»؛ إنها قطعة الملابس الرثة التي حافظ عليها بحرص شديد بعض جنرالات جيش «بونابارت»: وهم لا يضعونها على رؤوسهم إلا في المناسبات الرسمية، وفي الاجتماعات مع الباشا، وفي مناسبة مرور أحد الأوروبيين في هذا البلد. إنها الآلهة المحلية التي يعرضونها عليه. كان السيد «كاتافاغو» رجلاً عجوزاً، له ملامح العرب الروحانية والقوية والثاقبة؛ كانت عيناه المليئتان بنار خففها حسن الاستقبال واللطف، تنيران وجهه بشعاع من الذكاء الرفيع. ويمكننا من النظرة الأولى أن نكتشف التأثير التي يتمتع به رجل مثله على العرب والأتراك الذين يفتقرون عادة إلى مبدأ الحيوية كما يظهر في نظرة السيد «كاتافاغو» ويتجلى في كل حركاته وأفعاله.
كان يحمل رزمة رسائل لي، استلمها لتوّه من الساحل السوري عن طريق بريد «إبراهيم باشا»، ومجموعة من الصحف الفرنسية التي تصله دائماً. لقد ظن، وكان محقاً في ظنه، أن مسافراً فرنسيّاً في قلب الصحراء قد يجد في الأخبار الواردة حديثاً من «أوروبا»، مفاجأة جميلة وممتعة. قرأت الرسائل التي تبعث في نفسي القلق باستمرار على صحة «جوليا». ودّعني السيد «كاتافاغو» بعد أن رجاني أن أقبل دعوته للغداء في منزل بناه في «الناصرة» وهو يقضي فيه وحيداً أيام الصيف المحرقة، بدأت بعد ذلك بقراءة الصحف. كان اسمي هو أول ما لفت انتباهي : كان أحد المقالات اليومية في جريدة «جورنال دي ديبا» (Journal des Débats)، يستشهد ببعض الأبيات التي كتبتها إلى السيد «فالتر سكوت» (Walter Scott) قبل أن أغادر «فرنسا». لقد وقع بصري على تلك الأبيات التي يلائم معناها الحزين والمقلق، المشهد الراهن الذي اختاره القدر لكي يضعها بين يدي، مشهد ثورات العقل البشري الكبرى، المشهد الذي حرّك فيه فكر الله الإنسان بقوة، والذي انطلقت منه

فكرة التجديد المسيحية لكي تسافر إلى أنحاء العالم، مثل الفكرة القائلة بأن المسيحية أيضاً كانت تتحرك على الضفة الأخرى لتلك البحار التي عادت إليّ كلماتي منها.

أيها المتفرج التعِبُ من تأمل المشهد الإنساني
لقد تركتنا في درب وعر،
لم يعد للأمم شاعر أو نبي
لكي يسحر طريقها ويقودها؛
لقد هز زلزال التاج عرش الملوك،
يُعدُّ حكم الرؤساء بالأيام، والممالك بالأشهر؛
إن ريح الفكر الإنسانية العاصف
هذا الاعتدال الحارق الذي انقلبت روحه،
لا يتيح لأي شخص، ولا حتى بالأمل،
أن يصمد واقفًا على قمة السلطة؛
بل يدفع بالأقوياء الذين يتناوبون على القمة
ثم يصيبهم بالدوار ويرمي بهم إلى الهاوية.
يبحث العالم عبثًا عن منقذ، أو سند،
إن الزمن الذي يفوقنا قوة يسحبنا تحته
عندما يكون البحر منخفضًا يستطيع طفل أن يعنّفه
لكن كل رجل يعود طفلاً، إذا ما كان الزمان عظيمًا!
انظر! إلى المواطنين وإلى الملوك والعساكر أو الزعماء
يضع الله يده فوقهم جميعًا دون أن يختار أحدهم
والسلطة التي تشبه نيزكًا محرقًا وسريعًا
تسقط فوق جباهنا، وتحاكمنا وتفترسنا.
لقد نفخت الكلمة في الواقع فوق البحار،
والخواء يغلي ويخبئ عالـمًا ثانيًا،

وخلاص الجنس البشري، الذي هجره الطيف،
موجود في الجميع وليس في شخص واحد!
في أعماق موج المحيط الجديد،
وفي اهتزازات السماء والسفينة،
وفي الأمواج العملاقة التي تنهار فوق رؤوسنا،
نشعر أن الإنسان يجتاز أيضًا رأس العواصف،
ويمر تحت الصاعقة وفي الظلمة،
ليتخطى المدار العاصف لإنسانية أخرى!

أعدت قراءة تلك الأبيات كما لو أن أحداً غيري قد كتبها، لقد محوتها من ذاكرتي تماماً. ودهشت مرة ثانية من الشعور الذي أوحى لي بكتابتها، من إحساسي بالارتجاف العام للأشياء، من الدوار والانبهار العام للفكر الإنساني الذي يركض بسرعة شديدة لدرجة أنه لا يستوعب مساره بكل جيد، ولكنه يملك غريزة هدف جديد ومجهول يقوده الله إليه عبر طريق المصائب الاجتماعية الوعرة والمحفوفة بالأخطار. وتأملت كذلك القوة الرائعة لعجلة الفكر الإنساني، وللصحافة وللعمل الصحفي، التي بواسطتها لحقت بي فكرة راودت جبيني قبل ستة أشهر في غابة من غابات «سان بوان» (Saint-Point)، كطفلة تبحث عن أبيها، جاءت تقرع الأصداء العتيقة لصخور «الناصرة» بنبرات لغة شابة غدت لغة عالمية بسرعة.

٢٠ تشرين الأول ١٨٣٢

تناولت الغداء في بيت السيد «كاتافاغو» مع أحد إخوته وبعض العرب. ثم طفت من جديد في أنحاء «الناصرة»؛ وزرت صخرة الجبل التي روت القصص أن المسيح كان يذهب إليها، ليتناول الطعام مع تلاميذه الأوائل. وأعطاني السيد «كاتافاغو» رسائل لأحملها إلى «عكا» وإلى متسلّم «القدس».

غادرنا «الناصرة» في ٢١ من الشهر، في السادسة صباحاً. لقد تجمع في الباحة حول جيادنا، كل آباء الدير الإسبانيين والطليانين ليقدم لنا بعضهم الأمنياتِ والصلواتِ من أجل رحلتنا، وبعضهم الآخر المؤن الطازجة، والخبز الطيب الذي أعدّوه في الليل، وزيتون وشوكولا من «إسبانيا». أعطيت الأب العام مبلغ خمسمائة قرش لتغطية نفقات ضيافتنا. لكن ذلك لم يمنع بعض الرهبان الإسبان من أن يهمسوا في أذني رغبتهم في بعض المال، وأن يتلقوا سراً عدة حفنات من القروش لشراء التبغ وبعض الحلويات الدينية التي تؤنس وحدتهم. لقد رسم المسافرون لوحة روائية وخاطئة لأديرة الأرض المقدسة. لا يوجد ما هو أقل شاعرية وقدسية منها إذا نظرنا إليها عن كثب. الفكر كبير وجميل. إن الناس يهجرون متع الحضارة الأوروبية لكي يعرضوا حياتهم، أو لكي يعيشوا حياة الحرمان والتعذيب وسط أناس يضطهدون معتقداتهم، في الأماكن نفسها التي قدّس فيها دينُهم الأرضَ. إنهم يصومون ويسهرون ويصلّون وسط شتائم الأتراك والعرب لكي يبقى فوق كل موقع ولدت فيه المسيحية، بعض من عبق البخور المسيحي المشتعل. إنهم حراس المهد والقبر المقدسين؛ وسوف يجدهم ملاك يوم الحساب وحدهم في هذا المكان، مثل تلك النساء اللواتي سهرن وبكين بالقرب من القبر الفارغ. كل ذلك كبير وجميل في الفكر؛ ولكن يجب في أرض الواقع طي كل هذه العظمة تقريباً. لا يوجد اضطهاد البتة، ولم يعد هناك شهداء، وحول كل هذه الأماكن المقدسة يوجد شعب مسيحي تحت إمرة رهبان تلك الأديرة وفي خدمتهم. إن الأتراك لا يضايقونهم ألبتة؛ بل يحرسونهم على العكس تماماً. إنه أكثر شعب تسامحاً على وجه الأرض، وأكثر شعب يفهم التعبد والصلاة بأية لغة كانت، وتحت أي مظهر بدت له. إنه لا يكره سوى الإلحاد الذي يرى فيه،، وهو على حق في ذلك، تدنياً للفكر الإنساني، وإهانة للبشرية أكثر من كونه إساءة للكائن الجليّ، أي لله. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الأديرة تقع في الغالب تحت حماية السلطات المسيحية المُهابة والمصونة، والممثلة بواسطة قناصلتها. فإذا اشتكى الأب العام، يكتب القنصل للباشا، الذي يحقق العدالة مباشرة. إن الرهبان الذين رأيتهم في هذه الأرض المقدسة لم يوحوا إلي مطلقاً بصورة الشهداء الذين

نكرّمهم، بل على العكس من ذلك رأيتهم سعداء ومحترمين ويهابهم سكان تلك البلاد بشدة. إنهم يقطنون نوعاً من الحصون التي تشبه قلاعنا القديمة في العصور الوسطى؛ ومساكنهم تلك منيعة جداً، ومحاطة بأسوار ومغلقة بأبواب حديدية. ولا يفتحون الأبواب إلا للسكان الكاثوليك الذين يعيشون في الجوار والذين يأتون ليحضروا الصلوات، وليتلقوا بعض التثقيف الديني، وليدفعوا للرهبان راتب المذبح من الاحترام والإخلاص لهم. لم أخرج مطلقاً برفقة أحد الآباء في شوارع مدن «سوريا»، بدون أن يتقدم الأطفال والنساء للانحناء أمام يد الكاهن، وتقبيل يده وطرف ثوبه. حتى الأتراك، الذين معاذ الله لا يشتمونهم، بل يشاركون الآخرين احترامَهم أثناء مرورهم[1].

والآن، من هم هؤلاء الرهبان؟ هم في العادة من فلاحي «إسبانيا» و«إيطاليا» الذين دخلوا صغاراً في أديرة وطنهم، والذين سئموا الحياة الرهبانية، وأرادوا أن يروّحوا عن أنفسهم برؤية بلدان جديدة، فطلبوا أن يُرسلوا إلى الأرض المقدسة. إن إقامتهم في منازل رهبانياتهم الموجودة في الشرق لا تستمر عادة أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات. فتأتي سفينة لإعادتهم ولإحضار رهبان غيرهم. أما الذين يتعلمون العربية ويكرسون أنفسهم لخدمة الشعب الكاثوليكي في المدن، فيبقون عادة مدة أطول، وقد يقضون فيها حياتهم بأكملها. إنهم يعيشون على غرار كهنتنا في الريف ويمارسون نشاطاتهم نفسها؛ لكنهم محاطون باحترام وتفان أكبر. ويبقى الآخرون سجناء أسوار الدير، أو يمرّون من دير لآخر لأداء الحج، فيكونون أحياناً في «الناصرة» وأحياناً أخرى في «بيت لحم»، وبعض الوقت في «روما»، وبعض الوقت في «يافا» أو في دير «القديس يوحنا» (Saint-Jean) في الصحراء. ليس لديهم أية اهتمامات غير إقامة الصلوات في الكنيسة، والتنزه في حدائق أو شرفات الدير. لا كتب، ولا دراسة ولا أية وظيفة نافعة. يبتلعهم الملل؛ وتتشكل الجماعات المتآمرة داخل الدير، فيستغيب الإسبان الرهبان الإيطاليين، ويستغيب الطليان الرهبان الإسبانيين. لقد وردت إلى مسامعنا بعض الأقوال

١ – هذه شهادة منصفة من شخص رأى ودقق في ما رأى، وأراد أن يخدم الحقيقة المعيشة والتسامح المنشود.

التي يرويها رهبان «الناصرة» عن بعضهم البعض. ولم نجد بينهم من هو جدير بإقامة حديث منطقي حتى عن المواضيع التي يجب أن يكونوا قد ألفوها بحكم دعوتهم الرهبانية. إنهم لا يمتلكون أية معرفة بالتاريخ المقدس، وبآباء الكنيسة، وبتاريخ الأمكنة التي يسكنون فيها. كل شيء يتقلص إلى عدد محدّد من التقاليد الشعبية والمضحكة التي يتناقلونها دون فحص أو تمحيص، ويعطونها للمسافرين كما تعلموها من جهل وسذاجة عرب البلد المسيحيين. وهم يطمحون جميعاً للحظة انعتاقهم، ويعودون إلى «إسبانيا» أو «إيطاليا» دون أية منفعة لهم أو لدينهم. أما عن الباقي، فإن خزائن الدير مليئة بالمؤن، وأقبيته تضم أفخر أنواع النبيذ الذي تنتجه هذه الأرض. هم وحدهم من يعرف كيفية صنعه. وكل عامين تأتي سفينة من «إسبانيا» لتحمل للرئيس العام الريع الذي ترسله له السلطات الكاثوليكية في «إسبانيا» و«البرتغال» و«إيطاليا». ويضاف إلى هذا المبلغ تبرعات المؤمنين في «مصر» و«اليونان» و«القسطنطينية» و«سوريا»، ويقال إن حاصل المبلغ يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف فرنك. ويتم توزيعه على جميع الأديرة بحسب عدد الرهبان واحتياجات الرعية. إن المباني مصانة بشكل جيد وكل شيء في المنازل التي زرتها كان يوحي بالبحبوحة والغنى النسبي.

لم أر أية فضيحة في منازل رهبان الأرض المقدسة. أما العلل الثلاثة فكانت هي الجهل والبطالة والملل، وهي أمراض يمكن، لا بل يتوجب شفاؤها.

لقد بدا لي أولئك الرجال بسطاء وساذجين فعلاً ومتعصبين. وبدا لي بعض الرهبان في «الناصرة» وكأنهم قديسون حقيقيون، يحرّكهم الإيمان الأكثر توقداً، وأعمال البرّ الأكثر فعالية، وهم متواضعون ولطفاء وصبورون ويخدمون طواعية إخوانهم والأجانب الذين يمرون بهم. إني أحمل أشكالهم المسالمة والبريئة في ذاكرتي، وحسن ضيافتهم في قلبي. حتى أني أذكر أسماءهم؛ ولكنهم لا يهتمون بأن تنتشر أسماؤهم في الأرض، شرط أن تعرفها السماء، وأن تبقى فضائلهم مدفونة في ظل ديرهم حيث يستمتعون بإخفائها عن الأعين.

بعد خروجنا من «الناصرة» سرنا بمحاذاة جبل تغطيه أشجار التين وصبار الهند. وانفتح إلى اليسار واد أخضر وظليل؛ وهناك بيت ريفي يذكّر العين بمنازلنا في أوروبا، ويقبع وحيداً فوق أحد منحدرات هذا الوادي. وهو ملك أحد مقاولي «عكا» العرب. إن الأوروبيين ليسوا معرّضين لأي خطر في أنحاء «الناصرة» لأنهم يجدون في خدمتهم غالبية سكان المنطقة الذين هم في معظمهم من النصارى. وبعد ساعتين من السير وصلنا إلى مجموعة من الأودية الصغيرة التي تنساب بين المرتفعات المكسوة بغابات جميلة من السنديان الأخضر. إن هذه الغابات تفصل سهل «حيفا» في منطقة «الناصرة»، عن صحراء جبل «ثابور». وبدأ جبل «الكرمل» الذي هو عبارة عن سلسلة من المرتفعات الجبلية التي تبدأ من مجرى نهر «الأردن» وتنتهي بشكل منحدر فوق البحر، يرتسم على يسارنا. ويتميّز خطه الأخضر الداكن فوق سماء زرقاء داكنة ومتموجة بسبب الأبخرة الحارة، مثل البخار الذي يتصاعد من فم الفرن. وجميع هذه السفوح الوعرة مغطاة بغابة قوية وخصبة. ففي كل مكان توجد طبقة مليئة بالشجيرات، وتتغلب عليها هنا وهناك رؤوس أشجار السنديان المرتفعة؛ صخور رمادية، نحتتها الطبيعة بأشكال غريبة وضخمة، وهي تشق هذه الخضرة بين الحين والآخر، وتعكس أشعة الشمس المبهرة. هذا هو المشهد الذي امتد إلى يسارنا على مدّ البصر؛ وتحت أقدامنا كانت الوديان التي تبعناها تنحدر ببطء وتنفتح على سهل «حيفا» الجميل. تسلقنا آخر التلال التي تفصلنا عنها، وكانت بالكاد تغيب عن أبصارنا، حتى نعود لرؤيتها من جديد. إن هذه التلال الواقعة بين «فلسطين» والسواحل السورية، هي من أجمل المواقع التي تأملناها ومن أكثرها مهابة أيضاً. كانت غابات السنديان تترك نباتاتها الطبيعية تشكّل هنا وهناك فسحات واسعة يغطيها عشب ندي مثل الذي نجده في سهول الغرب؛ وفي الخلف كانت قمة جبل «ثابور» ترتفع كمعبد مهيب مكلل بشرائط خضراء في سماء من نار. وإلى البعيد كانت تظهر القمة الزرقاء لجبال «جلبوع» (Gelboé) ولتلال «السامرة» (Samarie) وهي ترتعش في الأفق الغائم. كان جبل «الكرمل» يلقي غلالته الداكنة ذات الثنيات الواسعة فوق أحد جوانب المشهد، وكان

البصر الذي يتبعه يصل حتى البحر الذي ينهي كل شيء، مثل السماء في المناظر الجميلة. ما أكثر المواقع التي اخترتها في مخيلتي لأبني فوقها بيتاً لي، وقلعة زراعية، ولأؤسس مستعمرة فيها مع بعض أصدقائي الأوروبيين وبعض مئات من الشباب الذين فقدوا في بلادنا المزدحمة كل أمل لهم في المستقبل.

في التاريخ نفسه، مساء

فاجأتنا عاصفة في منتصف النهار. نادراً ما رأيت عاصفة بشدتها. لقد ارتفعت الغيوم بشكل عمودي فوق جبل «الكرمل»، وغطت في وقت قصير كل رؤوس هذه السلسلة الجبلية العالية؛ إن الجبل الذي كان للتو هادئاً ومنيراً، قد غاص شيئاً فشيئاً في أمواج الظلمة المتدحرجة، التي مزقتها في بعض المواضع ألسنة من اللهب. لقد انخفض الأفق بأكمله في وقت قصير وضاق فوقنا. ولم يكن يُسمع انفجار الرعد الذي أصبح مثل قرع طبول رهيباً ومستمراً ومُصمّاً للآذان، مثل صوت الأمواج على الشاطئ أثناء العاصفة. كان البرق يتدفق ماء بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل سيول نار في السماء، فوق سفوح «الكرمل» السوداء؛ وكانت أشجار سنديان الجبل وأشجار التلال، التي ما زلنا فوقها، تتلوى مثل القصب؛ كان بمقدور الهواء الذي يخرج من الشعاب ومن الصخرة أن يرمينا أرضاً لو لم نترجّل عن أحصنتنا، ولو لم نجد لنا ملجأ خلف جدار صخرة في قاع سيل جاف. كانت الأوراق اليابسة التي حملتها العاصفة تتدحرج فوق رؤوسنا كالغيوم، وأغصان الأشجار تمطر حولنا. تذكرت التوراة وأعاجيب النبي «ايليا» (Elie)، هذا النبي المُبيد فوق جبله : لم تكن صخرته بعيدة عنّا.

لم تستمر العاصفة سوى نصف ساعة. شربنا مياه المطر التي تجمعت في أغطية خيولنا المصنوعة من اللباد. ثم ارتحنا قليلاً في منتصف الطريق تقريباً بين «الناصرة» و«حيفا»، وعدنا إلى السير في الطريق المحاذية لقاعدة جبل «الكرمل»؛ كان الجبل إلى يسارنا، وامتد سهل واسع تجري فيه ساقية إلى يميننا. لقد أعطانا جبل «الكرمل» الذي سرنا إلى جانبه أربع ساعات تقريباً، نفس المظهر القاسي والمهيب في كل مكان

منه. إنه جدار عملاق يسقط بشكل عمودي تقريباً، ويغطيه بأكمله سرير من الشجيرات ومن الأعشاب العطرية. لم نر في أي مكان صخرة عارية، لقد انفصلت بعض القطع الصخرية وانزلقت حتى وصلت إلى السهل. إنها مثل قلاع منحتها الطبيعة لكي تستخدم كقاعدة وكملجأ لقرى المزارعين العرب. لم نمر إلا بقرية واحدة من تلك القرى، وذلك قبل أن نبصر مدينة «حيفا» بساعتين. كانت البيوت منخفضة، من غير نوافذ، ومغطاة بركام من التراب يقيها من المطر. وكان العرب في أغلب الأحيان يبنون طابقاً ثانياً يصنعونه من أوراق وجذوع الأشجار، يسكنون فيه في فترة الصيف. وكانت تلك الشرفات مليئة بالرجال والنساء الذين كانوا ينظرون إلينا أثناء مرورنا ويكيلون لنا الشتائم. كان مظهر هؤلاء الناس متوحشاً : ومع ذلك لم يجرؤ أي منهم على النزول من المرتفع وشتمنا من مسافة قريبة.

اقتربنا في الساعة السابعة من «حيفا»، التي كانت قبابها ومآذنها وأسوارها البيضاء تمنحها مظهراً لامعاً وفرحاً حتى من بعيد، مثلها مثل كل مدن الشرق. ترتفع «حيفا» في سفح جبل «الكرمل»، على سطح البحر، فوق شاطئ من الرمل الأبيض. وتشكل هذه المدينة نهاية القوس الذي تشكل مدينة «عكا» طرفه الآخر. ويفصل المدينتين عن بعضهما خليج يبلغ عرضه فرسخين : إن هذا الخليج هو من أعذب خلجان البحر التي يمكن أن ترتاح فوقها عين بحّار. كانت مدينة «عكا» بتحصيناتها التي ثقبتها مدافع «إبراهيم باشا» ومدافع «نابوليون»، وبالقبة المثقوبة لجامعها الجميل الذي انهار، وبالأشرعة التي تدخل وتخرج من مرفئها، كانت تشد البصر إلى المناطق التي غدت بسبب الحرب هامة ومشهورة : وفي عمق الخليج رأينا سهلاً واسعاً ومزروعاً، يلقي جبل «الكرمل» فوقه ظله الكبير؛ ثم تأتي مدينة «حيفا»، وهي أخت لـ «عكا»، لتشغل الطرف المقابل من الخليج، وتتقدم في البحر برصيفها الصغير الذي تتأرجح فيه بعض السفن العربية؛ وتظهر فوق «حيفا» غابة من أشجار الزيتون الكبيرة، وأعلى منها بقليل لمحنا طريقاً محفوراً في الصخر يؤدي إلى قمة رأس جبل «الكرمل»، وهنا رأينا بناءين

يكللان الجبل؛ أحدهما هو الدارة الصيفية لـ«عبد الله» باشا «عكا»؛ والآخر هو دير رهبان الـ «كرمل»، الذي بُني حديثاً بواسطة الصدقات المسيحية، ويعلوه علم ثلاثي الألوان للدلالة على وجود ملجأ وحماية فرنسيين؛ وتحت الدير بقليل توجد مغاور محفورة في غرانيت الجبل : وهي مغاور الأنبياء المشهورة. هذا هو المشهد الذي استرعى انتباهنا حين دخلنا إلى «حيفا» المغبرّة والضيقة. كان السكان المشدوهون يراقبون مرور قافلتنا الطويلة بخوف. لم نكن نعرف أحداً، وليس لنا أي مأوى، ولم نسعَ إلى أن يستضيفنا أحد. شاءت الصدفة أن نلتقي بشاب من مقاطعة الـ «بيامون» الإيطالية، وكان يشغل منصب وكيل القنصل في «حيفا»، منذ الاستيلاء على «عكا» وقلب الحكم فيها. اقترب منّا واستعلم عن أسمائنا، وقادنا إلى باب بيت صغير ومهدّم كانت تعيش فيه أمه وأختاه الصغيرتان. تركنا خيولنا والعرب الذين كانوا يرافقوننا، يخيّمون على شاطئ البحر بالقرب من المدينة ودخلنا إلى بيت السيد «مالاغامبا» (Malagamba) : هذا هو اسم هذا الشاب اللطيف، وكيل القنصل، الأوروبي الوحيد الذي بقي في ساحة المعركة المهجورة بعد خراب «عكا» بالكامل على يد المصريين.

باحة صغيرة، ودرج خشبي يؤدي إلى شرفة صغيرة تغطيها أوراق النخيل، وخلف الشرفة توجد غرفتان عاريتان إلا من ديوان، وهو الأثاث الوحيد الذي لا يستغني عنه الغني أو الفقير في الشرق كله؛ بعض أحواض الورود فوق الشرفة، ومطيرة مليئة بحمائم رمادية جميلة تهتم بإطعامها أختا السيد «مالاغامبا»، رفوف حول الجدران وضعت فوقها بترتيب الكؤوس، والنراجيل، وأقداح المشروب، وآنية الطيب الفضية، وصلبان من الخشب المرصّعة بالصدف المصنوعة في «بيت لحم» : كان هذا هو أثاث هذا البيت الفقير الذي تسكن فيه عائلة مهجورة تمثل إحدى القوى العظمى في أوروبا مقابل مرتب شهري قيمته ألف قرش (أي ما يعادل ثلاثمائة فرنك تقريباً).

استقبلتنا السيدة «مالاغامبا» الأم بكل تقاليد الحفاوة المتبعة في هذا البلد. قدمت إلينا الطيوب والمياه المعطرة؛ ولم نكد نجلس فوق الديوان لنمسح العرق عن جباهنا،

حتى جاءت الفتاتان، كتجليين سماويين، خرجتا من الغرفة المجاورة، وأحضرتا لنا ماء الزهر وأصناف المربيات فوق صوان من الخزف الصيني. إن تأثير الجمال قوي على النفس لدرجة أنه على الرغم من أن العطش كاد يقتلنا، وقد أعيانا السير لمدة اثنتي عشرة ساعة، كان بإمكاننا أن نمضي الوقت بطوله نتأمل بصمت هاتين الصبيتين دون أن نقرب الكؤوس من أفواهنا، لولا إصرار الأم علينا لكي نقبل ضيافة الفتاتين. كان الشرق كله حاضراً هنا، كما تخيّلته في سنواتي الجميلة، بفكري المليء بالصور السحرية التي رواها قصّاصوه وشعراؤه. كانت إحدى الفتاتين ما زالت طفلة؛ وكانت مجرد مرافق جميل لأختها، مثل تلك الصور التي تعكس فيها الواحدة صورة الأخرى. وبعد أن قدمتا إلينا كل عناية الضيافة الأكثر بساطة والأكثر شاعرية، جاءت الفتاتان بدورهما وجلستا فوق الديوان بجانب أمهما، قبالتنا. هذه هي اللوحة التي أريد أن أرسمها بكلماتي، لكي أحفظها في مذكراتي مثلما أراها في فكري؛ ولكننا نستطيع أن نحس في داخلنا بالجمال في كل درجاته، وكل نعومته، وكل أسراره، بيد أننا لا نملك سوى كلمة غامضة ومجرّدة لنقول ما هو الجمال. هنا يكمن انتصار اللوحة : إنها تعبّر بلمحة واحدة، وتحفظ إلى الأبد الانطباع الجميل لوجه امرأة، لا يستطيع الشاعر أن يقول فيها سوى : إنها جميلة، ويجب عندها أن نصدق كلمته، لكن كلمته لا ترسم شيئاً.

كانت الفتاة إذن جالسة فوق السجادة، وقد ثنت قدميها تحتها، وأسندت مرفقها فوق ركبة أمها، ومال وجهها إلى الخلف قليلاً، وهي ترفع تارة عينيها الزرقاوين لتعبر لأمها عن دهشتها الساذجة من مظهرنا وأحاديثنا، وتارة تريحهما فوقنا بفضول جميل، ثم تخفضهما بشكل لا إرادي وهي تخبئهما تحت مخمل أهدابها السوداء الطويلة، في حين كانت تعلو وجنتيها حمرة جديدة، أو تلامس شفتيها ابتسامة خفيفة لم تستطع إخفاءها بشكل جيد. كان زيّنا الخاص جديداً بالنسبة لها، وغرابة عاداتنا تثير في نفسها دهشة متجدّدة؛ فأشارت أمها إليها خفية بألا تظهر دهشتها، خشية إغضابنا، ولكن من غير جدوى : كانت بساطة وسذاجة انطباعاتها تظهر رغماً عنها فوق ملامح

الوجه ذي الستة عشر ربيعاً، وترتسم روحها في كل تعابير وجهها، بجمال وشفافية، بحيث كنّا نقرأ أفكارها تحت جلدها، حتى قبل أن تعيها هي نفسها. إن أشعة الشمس التي تمر عبر الظلال لتنزلق فوق ماء شفاف، هي أقل حركة وأقل شفافية من هيئة تلك الفتاة. لم نكن نستطع إزاحة أعيننا عنها، وكان تعبنا قد زال بمجرّد النظر إلى هيئة هذا الوجه الذي لن ينساه أحد منّا.

إن الآنسة «مالاغامبا» تمتلك هذا النوع من الجمال الذي لا يمكن رؤيته إلا في الشرق : الشكل المكتمل، الذي نراه في التماثيل اليونانية، والروح التي يعبّر النظر عنها – كما نجدها عند أهل الجنوب – وبساطة التعبير التي لا نراها إلا لدى الشعوب البدائية. عندما تلتقي شروط الجمال الثلاثة هذه في وجه امرأة واحدة، وتتجانس في وجه بلغ أول سن المراهقة، وعندما ينير بهدوءٍ الفكرُ الحالم والشارد بأشعته الرطبة العينين اللتين تسمحان بقراءة أعماق النفس، لأن البراءة لا تفكر بإخفاء أي شيء، وعندما تكشف نعومة الملامح، ونقاء الخطوط البكر، وأناقة وليونة الأشكال، للعين الإحساسَ المغري لكائن وُجد لكي يحُبَ، وعندما تمتزج إلى أبعد حدّ الروحُ والحواس، بحيث لا نعرف حين ننظر إذا كنّا نحس أو نتأمل : عندها يكون الجمال كاملاً، ونشعر حين نراه بذلك الاكتفاء الكامل للحواس وللقلب، وهذا الانسجام في اللذة التي لا نطلق عليها اسم الحب، ولكنها حب الذكاء، وحب الفنان، وحب العبقرية للعمل الفني الكامل. فنقول في أنفسنا : ما أطيب المكان هنا، ولا نستطيع أن نغادر المكان الذي جلسنا فيه بلا مبالاة منذ قليل، كم الجمال هو نور العقل وانجذاب القلب الذي لا يقاوم.

كان زيها الشرقي يزيد من سحر شخصيتها أيضاً : فشعرها الطويل الأشقر الغامق والمذهب بخفة، مجدول فوق رأسها على شكل ألف ضفيرة، وقد تدلى بعد ذلك من الجانبين فوق كتفيها العاريتين، وكان مزيج غريب من اللالئ، والنقود الذهبية المعقودة، والأزهار البيضاء والحمراء يتناثر فوق شعرها، كما لو أن يداً غرفت من علبة حلي، ثم انفتحت صدفة فوق هذا الرأس، تاركة فوقه هذا المطر العشوائي من الورود

والحلي. كل شيء كان يليق بها ويناسبها : لا شيء يفسد وجهاً في الخامسة عشرة من العمر. كان صدرها مكشوفاً بحسب عادة نساء البادية، وترتدي عباءة من قماش الموسلين الشفيف والموشى بورود من الفضة وقد عقدتها بشال حول خصرها؛ وكانت ترتدي سترة من الجوخ الأحمر وقد بدت ذراعاها داخل كمّين واسعين ومفتوحين حتى المرفقين، وقد تدلى طرفاهما بحرية فوق خصريها، واكتمل الزي بسروال له آلاف الثنيات، وبقدميها العاريتين المخصورتين فوق الكاحل بخلخالين من الفضة المشغولة. وكان أحد الخلخالين مزيناً بأجراس صغيرة من الفضة تصدر أصواتاً تصاحب حركة قدميها. لم يسبق أن وصف شاعر رؤية تفوقها جمالاً. إن شخصية «ايدي» (Aïdé) التي صورها «لورد بايرون» (Lord Byron) في «دون جوان» (Don Juan) تمتلك شيئاً من حُسْن الآنسة «مالاغامبا»، ولكنها بعيدة أيضاً عن اكتمال جمالها، وبراءتها، وخجلها العذب، وتكاسلها المغري وهدوئها الساطع، إذ تمتزج جميعها في ملامحها الطفولية. لقد حفرتها في ذكرياتي لكي أصفها فيما بعد، كنموذج للجمال وللحب النقيين في القصيدة التي سوف أكرّسها لرسم انطباعاتي.

كان بإمكان هذا المشهد من رحلتنا أن يشكّل موضوع لوحة جميلة لفنان، لو كان ثمة رسام بيننا : ملابسنا التركية والغنية والغريبة، وأسلحتنا المتنوعة، كلها مبعثرة على الأرض حولنا، وكلابنا نائمة قرب أقدامنا، ووجوه النساء الثلاث اللواتي جلسن القرفصاء فوق بساط حلبي في مواجهتنا، تصرفاتهن المليئة بالبساطة والغرابة والاستسلام، وتعابير وجوههن وهن يستمعن إليّ وأنا أروي سيرة رحلاتي، أو ونحن نقارن عاداتنا في أوروبا بالضيافة التي لقيناها بينهن، وآنية الطيب التي تشتعل في الزاوية وتعطّر نسيم المساء، وأشكال الكؤوس القديمة التي قدمن لنا فيها المثلجات والأشربة المعطرة : كل ذلك وسط غرفة بائسة، تطل على البحر، وتدخل من نوافذها المفتوحة أغصان أشجار النخيل المزروعة في باحة الدار. أتأسف لأنني لا أستطيع أن أحمل لأصدقائي هذه الذكرى، كما أحملها في مخيلتي.

إن السيدة «مالاغامبا» الأم، يونانية الأصل، ولدت في جزيرة «قبرص»، وتزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها من السيد «مالاغامبا» وهو تاجر فرنسي غني، كان في الوقت ذاته قنصلاً في «لارنكا» (Larnaca). لقد قضت المصائب والثورات على ثروة السيد «مالاغامبا»؛ فجاء يبحث عن وظيفة وكيل قنصلي متواضع في «عكا»، وتوفي هناك، تاركاً زوجته وأولاده الأربعة في فقر مدقع. فوظف بعض القناصلة ابنه، وهو شاب متميز بنزاهته وذكائه، وحصل أخيراً على وظيفة وكيل قنصلية «سردينيا» (Sardaigne) في مدينة «حيفا». لقد كان يعيل أمه وأختيه من راتب هذا العمل المؤقت. ويقال إن الأخت الكبرى للآنسة «مالاغامبا»، وهي جميلة أيضاً بقدر أختها التي أعجبنا بها كثيراً، قد ألهبت عاطفة الحب لدى أحد رهبان دير «حيفا» الشبان، الذي سنحت له فرصة رؤيتها فوق شرفة الدير، فهرب فوق سفينة إنكليزية، واعتنق المذهب البروتستانتي لكي يتمكن من طلب يدها للزواج، ولقد حاول أن يخطفها بكل الوسائل وبمختلف أنواع الحيل. وكانوا يعتقدون حينئذٍ أنه لا يزال يختبئ في إحدى مدن الساحل السوري لكي يتمكن من تنفيذ مخططه؛ لكن السلطات العثمانية تسهر على أمن تلك العائلة، وإذا استطاع الرهبان الذين يمارسون على كهنة رهبانيتهم، العدالة الأشد اعتباطية وتشدداً، أن يكتشفوا ذلك الهارب، سوف يضعونه في الأسر الأزلي، ويجعلونه يكفّر عن هذا الحب المجنون الذي أشعله الجمال الآسر في قلبه. لم نر قط هذه الأخت.

لقد هبط الليل، وكان علينا أن ننتزع أنفسنا من هذه الضيافة الساحرة، ونذهب للبحث عن مأوى لنا في دير جبل «الكرمل». فذهب السيد «مالاغامبا» لإخطار الآباء بقدوم عدة ضيوف إليهم. فنهضنا، واضطررنا قبل ذهابنا أن نترك السيدة والآنسة «مالاغامبا» تقربان شفاههما من أيدينا حسب عادات هذا البلد، ثم ركبنا جيادنا.

ابتدأ جبل «الكرمل» بالارتفاع بعد ابتعادنا عن «حيفا» بعدة دقائق من السير، وتسلقناه عبر طريق جميلة إلى حدّ ما، ومحفورة في الصخر فوق رأس القمة نفسها : كل خطوة خطوناها جعلتنا نكتشف أفقاً جديداً للبحر ، ولتلال «فلسطين» وشواطئ

«آدوم» . التقينا في منتصف الطريق بأحد الآباء الكرمليين، الذي يسكن منذ أربعين عاماً بيتاً صغيراً يستخدم كمأوى لفقراء مدينة «حيفا»، وهو يصعد الجبل وينزله مرتين في اليوم لكي يصلي مع إخوته. لقد فاجأنا تعبير سكون النفس وفرح القلب الذي يلمع في كل ملامحه. إن تعابير الفرح الهادئ والدائم تلك، لا يمكن أن نجدها إلا لدى الرجال الذين يعيشون حياة بسيطة وقاسية، ويتخذون قرارات سامية. إن مقياس السعادة هو مقياس هابط؛ وكثيراً ما نجد السعادة في حالات الحياة المتواضعة، أكثر بكثير مما نجدها في المراكز الاجتماعية الرفيعة. إن الله يمنح بعض الناس قسطاً من الغبطة الداخلية، التي يمنحها للبعض الآخر على شكل ثروة وأسماء رنانة. لقد اختبرت هذا الأمر مرات عديدة. ادخلْ إلى مجلس ما، وابحثْ عن أكثر رجل توحي ملامحه بالاكتفاء الداخلي، واسأل عن اسمه : إنه مجهول، فقير، لا يهتم به أحد. إن العناية الإلهية تتجلى في كل مكان.

وأمام باب الدير الذي بدا لنا حينئذٍ حديث البناء، ساطعاً في بياضه، كان راهبان بانتظارنا فوق أقسى قمة في جبل «الكرمل». كانا الساكنين الوحيدين في هذه الخلوة الرهبانية الفسيحة والرائعة. لقد استقبلانا كأصدقاء وكمواطنين. ووضعا تحت تصرفنا ثلاث غرف كل واحدة منها مزودة بسرير، وهو أثاث نادر في الشرق، وكرسي وطاولة. واستقر رجالنا العرب مع الخيول في باحات الدير الداخلية الفسيحة. وقدموا لنا عشاء من السمك الطازج والخضار المزروعة بين صخور الجبل. قضينا بعد كل هذا التعب، سهرة لطيفة، جالسين فوق الشرفات العريضة التي تطل على البحر وعلى مغاور الأنبياء. وكان قمر صافٍ يخفق فوق الأمواج التي وصل همسها ورطوبتها إلينا. وعدنا أنفسنا بقضاء نهار الغد في هذا الملجأ، لكي نريح جيادنا، ونتزود بالمؤن من جديد. كنّا على وشك الدخول إلى منطقة جديدة، لن نجد فيها مدينة أو قرية، ونادراً ما توجد فيها ينابيع مياه عذبة : كنّا نرى خمسة أيام من السير في الصحراء تمتد أمامنا.

٢٢ تشرين الأول ١٨٣٢

قضينا النهار نرتاح في دير جبل «الكرمل» أو في التنقل بين مواقع الجبل ومغاور النبي «إيليا» والأنبياء. إن المغارة الرئيسية، التي نحتتها طبعاً يد الإنسان في الصخر الصلد، هي عبارة عن صالة شاهقة الارتفاع، ولا تطل إلا على البحر غير المحدود، ولا نسمع فيها أي صوت سوى صوت الأمواج التي تتكسّر باستمرار فوق زاوية الرأس. وتروي القصص أن النبي «ايليا» كان في هذا المكان يعلّم علوم الأسرار والقصائد السامية. لقد تمَّ اختيار المكان بعناية، ولا شك في أن صوت النبي الكهل، معلم أجيال عديدة من الأنبياء، كان يجلجل بعظمة في قلب الجبل المحفور الذي زرعه بالعديد من المعجزات، والذي ترك اسمه فوقه. إن قصة «ايليا» هي من أروع القصص المقدسة القديمة : إنه عملاق الشعراء الملحميين المقدسين. حين نقرأ حياته وانتقاماته الرهيبة نتصور إن هذا الرجل كان يمتلك صاعقة الإله في روحه، وأن العنصر الذي رُفِعَ فوقه إلى السماء، هو عنصره الفطري الذي ولد معه. إنه وجه صورة وجدانية وملحمية يجب أن نضعها في قلب قصيدة الأسرار القديمة للحضارة العبرية. وفي المحصلة، إذا نظرنا إلى عصر الأنبياء من وجهة نظر تاريخية، وجدنا أنها أكثر العصور غموضاً في حياة هذا الشعب الهارب. ومع ذلك فإننا نجد فيها، وخاصة في عهد «ايليا»، مفتاح هذا التنظيم الفريد لجسد الأنبياء. لقد كانت بلا شك طبقة قديسة ومتعلمة، وفي صراع دائم مع الملوك، إنها طبقة خطباء الشعب الذين يثيرونه أو يهدئونه بأناشيدهم وأمثلتهم ووعيدهم؛ مشكّلين الأسباط المختلفة بين بني «إسرائيل»، مثلما تفعل الكلمة والصحافة في أيامنا هذه؛ فيتصارعون فيما بينهم، بداية بسيف الكلمة، ثم بالرجم والحسام بعدئذ، فيمحون أنفسهم عن وجه الأرض، كما رأينا «ايليا» يفعل بالمئات منهم، ثم ينهارون بدورهم، ويخلون المكان لمسيطرين آخرين على الشعب. لم يلعب الشعر بحد ذاته، في يوم من الأيام، دوراً أكبر في المأساة السياسية لأقدار الحضارات. إن الأنبياء الكذبة أو الحقيقيين، سواء تحدثوا بالعقل أو بالعاطفة، لم يكونوا يتكلمون إلا لغة الصور الحيّة والمنسجمة. ولم يكن فيهم خطباء مثل خطباء «أثينا» أو «روما»؛ إن الخطيب إنساني جداً! لم يكن هناك سوى الأناشيد والندب؛ إن الشاعر هو إلهي.

أية مخيلة جامحة، وملونة، وهاذية لا تتصور تأثير الكلمة المغنّاة التي تسيطر على شعب مماثل! وكيف ندهش لأن هذه القصائد، وبمعزل عن المفهوم الديني السامي الذي تختزنه، كانت صرحاً متكاملاً وفريداً من العبقرية والجمال : إن مكافأة الشعراء إذن هي المجتمع بحدّ ذاته. كان إلهامهم يُخضِعُ الشعب لإرادتهم، فيجرّونه بحسب رغبتهم إلى الجريمة أو إلى البطولة؛ كانوا يجعلون الملوك المذنبين يرتجفون خوفاً، فيلقون الرماد فوق جباههم، أو يوقظون الشعور الوطني في قلب مواطنيهم، فيجعلونهم ينتصرون على أعدائهم، أو يذكّرونهم، وهم في المنفى وفي العبودية، بتلال «صهيون» وبحرية أبناء الله. إنني مندهش كيف أن الشعر الحديث الذي استقى الكثير من المآسي من التاريخ اليهودي، لم يتصوّر بعد مأساة الأنبياء الرائعة هذه. إنها أغنية جميلة من تاريخ العالم.

التاريخ نفسه

عدت إلى نزهتي وحيداً على سفوح جبل «الكرمل» العطرة. جلست تحت شجرة (قطلب)، تقع تقريباً فوق درب يصعد بشكل حاد إلى قمة الجبل، ويؤدي إلى الدير، ونظرت إلى البحر الذي يفصلني عن الكثير من الأشياء والكثير من الأشخاص الذين عرفتهم وأحببتهم، ولكنه لا يفصلني عن ذكراهم. واستعدت حياتي الماضية، وتذكرت ساعات مشابهة قضيتها فوق ضفاف متنوعة، تراودني أفكار مختلفة؛ وتساءلت إذا كنت أنا حقيقة الآن هنا في قمة جبل «الكرمل» المعزولة، على بعد عدة فراسخ من البادية ومن الصحراء، ولماذا أنا هنا، وإلى أين أنا ذاهب، وإلى أين سوف أعود، وأية يد سوف تقودني، وما الذي أبحث عنه بإرادتي، أو على الرغم مني، في هذه الرحلات المستمرة في أرجاء العالم. كان من الصعب أن أرسم بنفسي صورة واحدة عنّي بجمل متناقضة ومُفاجئة أصوغها أثناء وجودي القصير، لكن الانطباعات القوية والواضحة والحاضرة لكل الأشخاص الذين أحببتهم وفقدتهم، كانت تدوي بنفس هذا القلق العميق في القلب، وتُثبتُ لي بشكل جلي وحدة الوجود التي لم أجدها في حياتي، والتي

كانت حاضرة بشكل كامل في قلبي؛ وشعرت بعيني تدمعان وأنا أنظر إلى الماضي، فلا أرى فيه إلا خمسة قبور أو ستة، دُفنت فيها سعادتي خمس مرات أو ست. ثم حين أصبحت هذه الانطباعات قوية جداً، وكادت تسحق أفكاري، رفعتها بشكل غريزي نحو الله بنوع من التوثب الديني، رفعتها إلى هذا اللامنتهي الذي يتقبّل كل شيء، ويمتص كل شيء، ويعيد كل شيء؛ كنت أدعوه دائماً وأخضع لإرادته الطيبة، وأقول له : «كل شيء جيد، لأنك أنت أردته. ها أنذا هنا استمر في قيادتي بحسب طرقك، وليس بحسب طرقي؛ خذني أينما شئت وكيفما شئت، يكفيني أن تكشف لظلماتي بين الحين والآخر بواسطة أحد أشعة الروح التي تُظهر لنا، مثل البرق، أفقاً يدوم لحظة وسط ليلنا العميق؛ يكفيني أن أشعر بأنني مسنود بهذا الأمل الأزلي الذي تركتَه على الأرض مثل صوت أولئك الذين رحلوا؛ بشرط أن أجدهم فيك، وأن يعرفوني، وأن نتحاب في هذه الوحدة التي لا يمكن وصفها، والتي نشكّلها أنت وهم ونحن! إن هذا يكفيني لكي أتقدّم أيضاً، ولكي أسير إلى نهاية الدرب الذي يبدو لي من غير هدف. ولكن لا تجعل الطريق صعبة جداً على قدمين مجروحتين أصلاً!»

نهضت بخفة أكبر، وبدأت أقطف حفنات من الأعشاب المعطرة التي يعبق فيها جبل «الكرمل». ويصنع منها آباء الدير نوعاً من الشاي يفوق بعطره رائحة النعناع والمريمية في حدائقنا. شتّت أفكاري وألهاني عن جمع الأعشاب وقع خطوات حمارين كانت حدواتهما ترن فوق صخر الطريق المصقول. وكانت امرأتان متلفعتان من رأسيهما إلى أقدامهما بغطاء طويل أبيض، تركبان هذين الحمارين، وكان شاب يمسك برسن الحمار الأول، وعربيان يسيران خلفهما ويحملان فوق رأسيهما سلالاً عريضة من القصب مليئة بقماش الموسلين المطرّز. كان السيد «مالاغامبا» يصعد إلى الدير مع أمه وأخته ليقدم لي مؤن الطريق التي حضّرتاها خلال الليل. كانت إحدى السلال مليئة بقطع الخبز الصغيرة والصفراء كالذهب، ذات الطعم اللذيذ، وهي صدفة ثمينة في بلد لا يعرفون الخبز فيه. والسلة الأخرى مليئة بالفواكه من كل الأصناف، وبعض زجاجات

من نبيذ «قبرص» و«لبنان» الممتاز، والعديد من أصناف المربيات، التي هي متعة الشرقيين. تلقيت بامتنان هدية هاتين المرأتين اللطيفتين. أرسلت العرب ليحملوا السلال إلى الدير وجلسنا نتحدث برهة عن مصائب السيدة «مالاغامبا». كان المكان رائعاً : تحت شجرتين أو ثلاث أشجار زيتون كانت تظلل أحد الأحواض التي حفرها نبع النبي «ايليا» وهو يسقط من الصخر فوق أحد شعاب جبل «الكرمل» الصغيرة. كان العربيان قد بسطا سرجي حماريهما فوق العشب الذي يحيط بالنبع، وأزاحت المرأتان خماريهما الطويلين إلى مستوى الكتف، وجلستا فوق السرجين، على ضفة الماء، وكانتا تشكّلان بملابسهما الغنية والمبهرة مجموعة تليق بعين الرسام. جلست قبالتهما على حافة الصخرة التي ينحدر النبع منها. كم من الدموع انهمرت من عيني السيدة «مالاغامبا» وهي تستعرض أمامي أيام عزّها، ثم وقوعها في براثن الفقر، وبؤسها الراهن، وهروبها من «عكا»، وقلقها الأمومي على مستقبل ابنها وابنتيها الرائعتين.

كانت الآنسة «مالاغامبا» تستمع إلى القصة بلامبالاة الشباب الأولى الهادئة، وكانت تتسلى بجمع باقات من الأزهار التي كانت تجلس فوقها؛ ولكن حين غص صوت أمها عندما روت ذلك وانهمرت الدموع من عينيها، أحاطت بذراعيها عنق والدتها ومسحت دموعها بمنديل من الموسلين المطرز بخيوط الفضة كانت تمسكه بيدها؛ ثم حين عادت البسمة إلى وجه الأم، تابعت تسليتها الطفولية بتنسيق ألوان باقاتها من جديد. وعدت السيدتين المسكينين بأن أتذكرهما، وأن أتذكر ضيافتهما غير المتوقعة حين أعود إلى أوروبا، وأن أسعى للحصول على ترقية صغيرة من أصدقائي في «تورينو» (Turin)، من أجل الشاب وكيل قنصل «حيفا». وعلى الرغم من أن الأمل كان بعيداً وغير مؤكد إلا أنه دخل إلى قلب السيدة «مالاغامبا»، واتخذ الحديث مجرى آخر. تحدثنا عن عادات البلد وعن رتابة حياة النساء العربيات التي تضطر النساء الأوروبيات اللواتي يعشن في بلاد العرب إلى مجاراة هذه العادات وهذا النمط من الحياة. لكن

الآنسة «مالاغامبا» ووالدتها لم تعرفا يوماً نمطاً آخر من الحياة، بل على العكس تفاجأتا بما أخبرتهما عن أوروبا. العيش من أجل رجل واحد وفكرة واحدة داخل المنزل، وقضاء النهار في تجديل الشعر فوق ديوان، ورصف الحلي العديدة التي يتزيّن بها بشكل جميل، واستنشاق هواء البحر أو الجبل المنعش من على شرفة أو عبر سياج النافذة المشبّك، والسير بضع خطوات تحت أشجار البرتقال والرمان في الحديقة الصغيرة، للذهاب، والحلم على ضفة حوض تحركه نافورة ماء هامسة، والعناية بالمنزل، وصنع عجين الخبز، والأشربة المثلجة والمربيات، والذهاب إلى حمام السوق مرة في الأسبوع وقضاء اليوم بصحبة كل شابات المدينة، وغناء بعض مقاطع الشعر العربي على لحن القيثارة : هذه هي حياة نساء الشرق من ألفها إلى يائها. إن المجتمع غير موجود بالنسبة لهن، ولذلك لا يمتلكن أي شكل من أشكال حب الذات التي ينتجها المجتمع؛ إنهن مكرسات للحب حين يكن يافعات وجميلات، ثم بعدئذ للعناية بالمنزل وبالأولاد. هل تعادل هذه الحضارةُ حضارةً أخرى؟ وفيما كنّا نتحدث بالصدفة عن هذه الأمور، كان ترجماني وهو شاب ولد في البادية، و ضليع بالأدب العربي، يبحث عنّي، ثم وجدني قرب النبع؛ فجاءني بشاب عربي آخر علم بوصولي إلى «حيفا»، فأتى من «عكا» ليتعرف بشاعر من الغرب. لقد ولد هذا الشاب في «لبنان» ونشأ في «حلب»، وكان معروفاً بموهبته الشعرية. لقد سمعت عنه الكثير، وطلبت أن يترجم إلي بعضاً من قصائده. فأحضر لي بعض قصائده التي سوف أعطي ترجمتها بعد قليل. وجلس معنا قرب النبع، وتحدثنا طويلاً بمساعدة ترجماني. لكن النهار قد بدأ بالزوال، فتوجب علينا أن نفترق. قلت له : «ما دمنا هنا شاعرين وقد جمعتنا الصدفة من نقطتين متعاكستين، في مكان رائع، وفي ساعة جميلة، وبحضور جمال مكتمل، يجب أن نكرّس بعدّة أبيات، كل واحد بلغته، هذا اللقاء والانطباعات التي تركتها هذه اللحظة في نفوسنا.» فابتسم، وسحب من حزامه لوحه وريشة القصب اللذين لا يفارقان أبداً أي كاتب عربي، مثلما لا يفارق الفارسَ حسامُه. فابتعد كل منّا عن الآخر بضع خطوات، لكي نتأمل برهة في

أبياتنا. لقد انتهى قبلي بكثير. ها هي أبياته وهذه هي أبياتي. يمكننا أن نتعرّف إلى خصائص قصيدتينا؛ ولكن لا داعي أن أذكر ما تفقده كل اللغات حين تنتقل من لغة إلى أخرى.

«في حدائق حيفا، وردة يبحث عنها شعاع الشمس عبر شباك أوراق النخيل.

لهذه الوردة عينان أعذب من عيني ظبي، عينان تشبهان قطرة ماء بحر داخل صدفة.

ولهذه الوردة عطر ساحر يشمه الشيخ الهارب أمام رماح قبيلة أخرى، فوق فرسه السريعة التي تسابق سقوط الماء، يشمه في طريقه، فيتوقف ليتنفسه.

إن ريح السموم تزيل من ثياب المسافر كل عطر، ولكنها لا تنزع أبدًا من القلب رائحة هذه الوردة الرائعة.

أخبريني يا صبية عن اسم أبيك، وأنا أقول لك اسم تلك الزهرة»

وهذا ما كتبته أنا نفسي ونقله بعدئذٍ ترجماني إلى العربية:

أيها النبع ذو المرآة الزرقاء، حين تأتي فوق ضفتك الخضراء
ليلى الحالمة لتجلس في الظل
ولتلقي صورتَها فوق أمواجكَ حين تنحني،
مثل نجمة المساء فوق الخليج الساكن،
تتثنى أمواجك النائمة برعشة متحركة
فلا نرى قاع الرمل أو القصب،
لكن أمواجك تمتلئ بالسحر والنور،
ولا تبحث العين حينها عن السماء إلا في مياهك!
إنك مجرد انعكاس لأشياء جميلة،
عينان زرقاوان مثل الورود التي تكلل حوضك،
أسنان من الصدف المبتسم بين شفتين ورديتين،

سماءان يرفعهما مع الصدر نَفَس نقي،
جدائل مضفرة بالورود تتدلى من ثقلها،
وعقود تزيد الذراعان من لونها القرمزي،
لآلئ تلمع تحت الموج، فنعتقد أننا سوف نمسك بها
كما نمسك الرمل الذهبي عندما تغوص يدنا فيه.
تمتد يدي فوقك أيها النبع الذي يسبح فيه هذا الظل،
خشية أن تمحو الريح كل شيء،
وتريد شفتاي اللتان تحسدان شاطئك
أن تشربا من هذه الأمواج السعيدة التي مرت الصورة فوقها!
لكن حين ضحكت ليلى ونهضت لتلحق بأمها،
لم تعد سوى ماء ضحل في حوض معتم.
عبثاً حاولت أن أتذوق الماء بأصابعي؛ الموج مرّ،
والطين والحشرات تعتم الأفق.
إن الذي تفعلينه لهذه الأمواج، أيتها الفتاة الصغيرة،
يفعله الجمال في روحي إلى الأبد :
إنه يُشرق فيها الفرح والنور طالما تلمع عينه فيها؛
وما إن تنحجب العين، حتى يهبط الليل، وأسفاه!

لكن هذه الفتاة الشابة التي كتبنا من أجلها هذه الأبيات في اللغة الفرنسية والعربية الفصحى، لم تكن تفقه شيئاً من الفرنسية أو العربية الفصحى، ولم تكن تفهم إلا بعض الكلمات الإيطالية.

٢٣ تشرين الأول (اكتوبر)١٨٣٢

عند شروق الشمس غادرنا بنشاط ورضى ديرَ جبل «الكرمل» وراهبَيْه الرائعيَن وتوجهنا عبر دروب وعرة ونزلنا من القمة نحو البحر. وهنا دخلنا في الصحراء التي تمتدّ من بحر سوريا المسطّحة سواحلِه الرملية بعامة والمتفرّع إلى خلجان صغيرة،

وتوجهنا نحو الجبال التي تستكمل سلسلتها في جبل «الكرمل». وتتحدّر هذه الجبال تدريجياً ودون أن نشعر وتقترب من «الجليل»، وهي داكنة جرداء؛ وفي الغالب تشقّ الصخورُ أديمَ الأرض كما تبزغ منه مجموعة من الشجيرات القاتمة اللون، التي تتسربل بالنور المبهر وبجلال الماضي الذي يكتنفها. وتمتد السلسلة أحياناً عشرة فراسخ تقريباً ثمّ تنكسر فتنفتح أحد الأودية القليلة الغور أمام ناظريك. ورأينا في أسفله أو في سفحه بقايا قلعة تمتدّ تحت أسوارها قرية عربية كبرى. وكان دخان المنازل يرتفع ويتعرج في سفوح جبل «الكرمل»؛ ورأينا صفوفاً طويلة من الجمال والماعز الأسود والبقر البني تمتدّ من القرية إلى السهل الذي كنا نقطعه. وكان بعض العرب يمتطون صهوات جيادهم متسلّحين بالحراب ومرتدين قنابيز صوفية بيضاء؛ وكانت سيقانهم وزنودهم مكشوفة؛ كان بعضهم يتقدّم قوافل الرعاة الذين يسوقون قطعانهم إلى النبع الوحيد الذي صادفناه قبل ذلك بأربع ساعات. وفي الماضي كان سكان المدن الساحلية هم الذين حفروا مسالك هذه الينابيع. وهجر العرب الحاليون هذه المدن منذ قرون طويلة؛ ولم تبق فيها إلا المناهل، ويذهبون يومياً مدّة ساعة أو ساعتين لينهلوا الماء وليرووا ظمأ قطعانهم. ومشينا طيلة ذلك اليوم فوق أخربة تلك الأسوار وفوق قطع من الفسيفساء التي تطفو فوق الرمل، ذلك أن طريقنا كان مليئاً بالآثار التي تشهد بعظمة سكان تلك السواحل وأعدادهم التي كانت غفيرة في الأيام الخوالي.

وصباحاً رأينا أمامنا في الأفق على الساحل عموداً ضخماً تنعكس عليه أشعة الشمس، وبدأ يكبر ويخرج من اللجّة كلما دنونا منه. وإذا بهذا العمود كتلة شوهاء من أوابد رائعة تعود إلى حقب شتى. رأينا أولاً سوراً هائلاً يشبه جانباً من «الكولوزيوم» في «روما»، بسبب شكله ولون حجارته ونحتها. وانتصب هذا السور الشاهق الرائع وحيداً وممشوقاً فوق كومة من الآثار اليونانية والرومانية؛ وشاهدنا خلف هذا السور بقايا رائعة ومنتظمة من عميرة عربية منضدة الحجارة؛ وشاهدنا خلف هذا السور بقايا

رائعة ومنتظمة من مجموعة من الأوابد المنتصبة والمحافظ عليها لصروح قديمة ذات البناء المتقن. وكان الطريق الرملي الذي سلكه هؤلاء المكاريّة يُحاذي هذه الأوابد القديمة التي كنا نجهل تماماً وجودها واسمها وتاريخ بنائها.

وبعد نصف ميل تقريباً من مجموعة الأوابد هذه، امتدّ الساحل وتحوّل الرمل إلى صخرة نحتها البشر بأيديهم من كل جانب، وبلغ محيطُها ميلاً تقريباً؛ كأننا كنا أمام مدنية بدائية نحتت في الصخر قبل أن يتعلّم البشر اقتلاع الحجارة من الأرض ليبنوا فوقها بيوتهم. إنها إحدى المدن الدهليزية التي تتكلم عنها القصص الأولى، أو إنها على الأقل إحدى تلك المقابر الشاسعة (مدينة الموتى) التي حفرت الأرض من كل جانب أو نحتت الصخور في محيط المدن المأهولة الكبرى، ولكن شكل الصخور والكهوف العديدة المنحوتة في جروفها يدل – في رأيي – على أنها كانت مساكن قطنها البشر. الكهوف واسعة وفسيحة وأبوابها قائمة، ولها أدراج عديدة تفضي إلى تلك الأبواب، وحُفرت في الصخر الصلب نوافذ تحمل النور إلى هؤلاء السكان؛ والأبواب والنوافذ تفضي إلى شوارع منحوتة في أحشاء الأكمة.

سلكنا عدداً من تلك الشوارع العميقة والواسعة، ورأينا آثار العجلات التي ترتكتها عربات الخيل. وحلّقت فوقنا مجموعة من النسور والصقور وسحابة من الزرازير، وكنا نرى ظلها فوق تلك الصخور المنحوتة. وكانت هناك شجيرات معرّشة وأعواد من القرّاص ولفيف من شجيرات الآس ومن التين نبتت في شقوق تلك الحجارة وكانت تزيّن تلك الممرات الطويلة. في بعض الأماكن، كان السكّان القدامى قد شطروا التّلة تماماً بالأزاميل وحفروا أقنية تستجلب ماء البحر وتسمح للناظر بأن يشرف على القسم الخلفي من المدينة. إنه لمنظر مبتكر، جليل وصلب كالصخر، باسم ومضيء كتلك النوافذ الجوية المطلة على زرقة البحر، وكتلك الأجمات التي نَمَتْ نباتاتها وحدها في شقوق الغرانيت. مشينا وقتاً في تلك المتاهات الرائعة، ووصلنا أخيراً إلى أسفل السور والصروح العربية التي كانت أمامنا. وهنا وقفنا لحظة كي نتداول. لهذه الخرائب سمعة

سيئة، إذ غالباً ما يختبئ فيها اللصوص الذين ينهبون القوافل ويذبحون المسافرين فيها. لقد نصحونا في حيفا بأن نتجنبهم، أو بأن نقطع تلك المناطق ونحن على أهبة القتال دون أن نسمح لأي رجل من رجالنا أن يبتعد عن جسم القافلة. ولكن الفضول استحوذ علينا، فلم نستطع أن نقاوم رغبتنا في زيارة تلك الخرائب التي يجهلها التاريخ القديم والحديث تماماً، وكنا نجهل كذلك إن كانت مقفرة أم مأهولة. عندما وصلنا إلى أسفل الأسوار المحيطة بها، رأينا الثغرة التي منها نستطيع أن نعبر إليها. وفي تلك اللحظة انقضّت علينا جماعة من البدو الفرسان المسلحين بالحراب، وكنا نحن ما زلنا فوق الرمل قبل الدخول، فوجئنا بهم، ولكننا كنا مستعدين، وكانت بنادقنا ذات الطلقتين معبأة وجاهزة، ومسدّساتنا فوق خصورنا. فتقدّمنا نحو البدو فتوقفوا. انسلختُ عن القافلة ، وقلت لرجالي أن يُبقوا أسلحتهم جاهزة، فتقدمت مع رفيقيّ ومترجمي، وتفاوضنا، وبعدها واكبَنا شيخهم مع ثلّة من فرسانه إلى أن وصلنا إلى الفتحة، وأمر البدو الذين في الداخل باحترامنا وبتركنا نزور تلك الخرائب. ولكنني رأيت من الحكمة ألا يدخل معي إلا عدد من رجالي، وبقي الآخرون معسكِرين على مرمى البنادق المصوبة نحو الرابية، ومستعدين لإنقاذنا إن تعرضنا لكمين من الكمائن.

وما إن عبرنا الفتحة، حتى وجدنا أنفسنا في دروب متشعبة تفضي إلى ركام سقط من السور الكبير ومن الصروح القديمة التي اكتشفناها تدريجيّاً. لم تكن تلك الدروب ذات مسار مستقيم، ولكنّ أقدام البدو وخفوف الجمال وأظلاف الماعز هي التي شقتها بين كتل الركام. ولم تبنِ عائلات القبيلة أي بيت هناك، إذ استغلت كل الفجوات التي تكوّنت بعد سقوط الحجارة الضخمة وسكنت فيها، وكانت بعض العائلات تقيم في ظلال الأعمدة والتيجان التي لم تتابع سقوطها بسبب الركام؛ وكانت عائلات أخرى قد شدت قطعاً من القماش المصنوع من وبر الماعز الأسود بين عمودين وشكلّت بها سقوفاً لمآويها. ولا شك أن الشيخ وزوجاته وأولاده كانوا يسكنون قصر القرية ويقيمون على مدخل المدينة وسط حطام أحد الهياكل الرومانية القائم على أكمة تطل على الدرب الذي

منه دخلنا. وكان منزلهم مكوناً من كتلة هائلة من الأحجار المنحوتة والمرصوفة شاقولياً، وتستند زواياه على كتل أخرى مبعثرة، كأنها توقفت عن السقوط. وبدت هذه الحجارة التائهة كأنها ستنهار وتسحق نساء الشيخ وأولاده الذين أطلوا برؤوسهم لينظروا إلينا من ذلك الكهف الاصطناعي. لم تكن النساء محجبات، وكن يلبسن فقط قمصاناً من القطن الأزرق، وكن يحتزمن في خصورهن بأحزمة جلدية. بدت النساء لنا جميلات، على الرغم من الخُزُم التي تثقب خياشيمهن والوشم الغريبة خطوطه على وجناتهن وأعناقهن. وكان الأولاد عراة يقتعدون الأرض أو يعتلون الحجارة المنحوتة التي تشكّل شرفاتٍ لهذه المنازل المخيفة. وكانت بعض العنزات السوداء بآذانها الطويلة الهابطة قد تسلقت أبواب تلك الكهوف قرب الأولاد، وكانت تنظر إلى عبورنا أو تتقافز قرب رؤوسنا وتجتاز الكتل المحيطة بالدرب العميق الذي كنا نجتازه. ورأينا هناك بعض الجمال الباركة في الفجوات الظليلة التي شكّلتها الفواصل بين أكوام الركام، وكانت تشرئب برؤوسها الساهمة والهادئة فتطل فوق قطع الأعمدة والتيجان المنهارة. في كل خطوة خطوناها، رأينا مشاهد جديدة لفتت انتباهنا، قد يجد الرسّام هناك مئة موضوع مبتكر مجهول الأشكال وغير متوقع تداخلت فيه بيوت القبيلة وتواشجت مع بقايا المسارح والحمّامات والكنائس والمساجد المحاذية لهذه البقعة من الأرض. فكلما قلّ عمل الإنسان ليقيم له مأوى في هذه المدينة المقلوبة رأساً على عقب، كلما كانت تلك المنازل مرتجلة بسبب مصادفة سقوط الأبنية، وكلما كان المشهد شعريّاً ومؤثراً أيضاً. كانت النسوة يحلبن عنزاتهن فوق درجات المدرّج الروماني؛ وكانت قطعان الغنم تقفز تترى من نافذة مقنطرة تابعة لقصر الأمير أو لكنيسة قوطية بنيت في عصر الصليبيين. وكان بعض المسنين مقرفصين يدخنون غلايينهم تحت قوس روماني منحوت بدقة، وكانت أزمّة بعض الخيول مربوطة بحلقات ثُبّتت في أعمدة عربية قصيرة تشكل جزءاً من باب الحرملك. وترجلنا من خيولنا لنزور بدقة بعض الآثار. وعاكسنا البدو عندما أردنا الدخول إلى حرم الهيكل الكبير القائم في الطرف الآخر من المدينة فوق صخرة مطلة على البحر. وكنّا نحتجّ عندما يصدوننا عن زيارة ساحة من الساحات أو جدار من

الجدران؛ فاضطررنا إلى اللجوء إلى التهديد ليخلوا لنا الطريق. فابتعدت النساء والأولاد وصببن علينا اللعنات. فانسحب الشيخ برهة من الزمن، وأبدى باقي البدو استياءهم الشديد منا؛ ولكن جو التردد والوجل غير المستور شجّعنا على الإصرار، فدلفنا، إن برضى أو عنوةً، إلى داخل الهيكل الذي كان من أكثر الصروح إدهاشاً.

لا أستطيع تحديد هوية المكان، فهو قديم في بنائه وشكله وزخارفه، وأميل إلى الظن أن الصليبيين حوّلوا هذا الهيكل القديم إلى كنيسة عندما كانوا يحكمون قيصرية «سوريا» والسواحل المحيطة بها، ثم حوّلها العرب فيما بعد إلى مسجد. إن الزمن الذي يحتال على عمل البشر وفكرهم قد حوّل هذا المكان إلى غبار، وها هي رُكَب الإبل تنصاع لبلاط أرضيته كما انصاعت تباعاً ثلاثة أو أربعة أجيال من الأديان أمام آلهة مختلفة. لا شك أن قاعدة الصرح من العمارة اليونانية في فترة من الانحطاط؛ فعندما اكتشفت القناطر، اتخذت العمارة أسلوباً عربياً، وتحولت النوافذ الوثنية أصلاً إلى نوافذ عربية متصالبة وذات أعمدة مزدوجة نحتت بفن وذوق عظيمين. وما بقي من القناطر تزركش بالرقوش الرائعة في صنعتها ودقتها. للصرح ثمانية مطلات، وكان كل أساس من أساساته العميقة المثمنة يحتوي بالأحرى على مذبح، هذا إذا نظرنا في الكوى التي تزين الجدران التي كانت تستند إليه هذه المذابح. ويحتل وسط المثمن الكبير مذبحٌ رئيسي خمّنا وجوده بسهولة من خلال الأرضية المرتفعة القائمة في مركز هذا المكان من الهيكل. ولا بد أن هذا الارتفاع يظهر من خلال الدرجات المحيطة بالمذبح. لقد انهار نصف جدران هذه الكنيسة وترك النظر يصل إلى البحر وإلى الصخور المحيطة به. وكانت نباتات ذات أوراق وأزهار كثة تتعرش على أعلى القناطر المتداعية، وتزقزق داخلها عصافير ذات رقاب حمراء وأسراب من السنونو الصغير الأزرق وتتطاير بين الأفاريز. وتصدح الطبيعة بنشيدها بعد أن غادر الإنسان نشيده. وعقب خروجنا من هذا الهيكل المجهول، جُلنا مترجلين بين الأزقة المختلفة داخل القرية، ووجدنا مجموعات غريبة من الركام وصادفنا مشاهد غير منتظرة شكّلها هذا الخليط بين عادات

المتوحشين من جهة وبين المشاهدات البهية التي خلّفتها الحضارات الميتة. ورأينا عدداً كبيراً من البدويات منهمكات بشتى أعمال الحياة الرعوية، داخل الفسحات التي تتقدّم أكواخهن؛ كان بعضهن يحكن أقمشة مصنوعة من شعر الماعز، وبعضهن الآخر يجرشن الشعير أو يطبخن الأرزّ. كنّ بعامة جميلات جداً وطويلات القامة وقويات البنية، ولوحتهن الشمس؛ وكن يبدون مليئات بالصحة والنشاط. كانت شعورهن السوداء مزينة بقطع فضية من النقود، وكن يضعن قلائد من قطع النقود أيضاً، وعندما أبصرننا نمرّ أمامهن صرخن من الدهشة وتبعننا حتى وصلنا إلى دور أخرى. لم يقدّم لنا أحد البدو شيئاً، فرأينا ألاّ نقدّم لهم بدورنا أي شيء. وخرجنا من المكان المسوَّر بحذر، ولم يتعقبنا أحد من أفراد القبيلة، ونصبنا خيامنا بعد ربع فرسخ من السور العالي، وخيمنا في نهاية خليج صغير محاط بالأسوار القديمة هو أيضاً، وكان في الماضي مرفأ لهذه المدينة المجهولة. كانت درجة الحرارة اثنتين وثلاثين، فسبحنا في البحر مستظلين بالرصيف البحري القديم الذي لم تهدّمه الأمواج. وفي تلك الأثناء كان السائسون ينصبون خيامنا، ويطعمون الشعير لخيلنا، ثم أشعلوا ناراً قرب الباب الذي كان على الأرجح باباً للمرفأ.

يطلق البدو على هذا المكان اسم «الصخرة المقطومة». وسمّاها الصليبيون في كتب أخبارهم «قلعة الحُجّاج» (Castel Peregrino)؛ ولكنني لم أستطع أن أكتشف اسم المدينة التي كانت يونانية ويهودية ورومانية والتي حوت هذه الخرائب التي جذبتنا إليها. وفي اليوم التالي تابعنا مسيرنا بمحاذاة البحر إلى أن وصلنا ظهراً إلى مدينة «قيصرية»، وفي الصباح عبرنا نهراً يسميه البدو «زرقة»، وأطلق عليه الكاتب اللاتيني «بلينوس» اسم «نهر التماسيح».

إن «قيصرية» التي كانت عاصمة «هيرودوس» القديمة والرائعة، بدت لنا مدينة مهجورة. وكانت أسوارها التي رفعها القديس «لويس» أثناء الحروب الصليبية غير متهدمة ويمكن أن تحمي اليوم مدينة حديثة. اجتزنا الخندق العميق الذي يحيط

بالأسوار على جسر حجري قائم وسط السور تقريباً، ودلفنا إلى الدهاليز الحجرية والأقبية المبقورة السقوف وبقايا العمائر وقطع الرخام الأبيض والسمّاقي، ودلفنا إلى أديم تلك المدينة القديمة. وأخرجنا ثلاثةً من بني آوى كانت مختبئة داخل الركام وفزعت لوقع سنابك خيولنا، واتجهنا نحو المنهل الذي حدّثنا بعضهم عنه، ووجدناه بصعوبة في الجانب الشرقي من تلك الخرائب، وهناك خيّمنا. وقبيل المساء، وصل راعٍ عربي صغير مع قطيع ضخم من البقر الأسود والغنم والماعز، وبقي حوالي ساعتين وهو ينهل دون توقف من النبع ليسقي حيواناته التي كانت تنتظر دورها بصبر وتنسحب بانتظام بعد شربها، كما لو أن الراعي هو الذي كان يدفعها إلى ذلك. كان الصبي راكباً على حمار، لقد كان آخر من خرج من خرائب قيصرية، وقال لنا إنه يقطع يوميّاً فرسخين ويسوق قطعان قبيلته المقيمة في الجبل. هذا هو اللقاء الوحيد الذي تمّ لنا في «قيصرية»، مدينة «هيرودوس»، حسب ما ذكر «يوسيفوس»، وهي المدينة التي كدّست جميع روائع الفنون اليونانية والرومانية، وفيها بنى «هيرودوس» مرفأ اصطناعياً كانت تحتمي فيه جميع مراكب سوريا. «قيصرية» هي المدينة التي اعتُقل فيها القديس «بولس» والتي دافع فيها عن المسيحية الناشئة وألقى فيها هذا الخطاب الجميل الذي نجد نصه في الفصل السادس والعشرين من سفر «أعمال الرسل». لقد كان قائد المئة «كورنيليوس» و«فيليبوس» الرسول من «قيصرية»؛ ومن مرفأ قيصرية أبحر رسل المسيح وذهبوا ليزرعوا كلمة الإنجيل في «اليونان» و«إيطاليا».

قضينا فترة المساء نجول بين بيوت المدينة ونجمع كسر المنحوتات التي اضطررنا إلى تركها في الساحة لافتقارنا إلى وسائل لنقلها. ما أجمل الليلة التي قضيناها في حمى الساقية المعلّقة في «قيصرية»!

وتابعنا طريقنا في صحراء رملية تكسوها أحياناً بعض الشجيرات لا بل غابات السنديان الأخضر التي يستدلّ بها الأعراب كما البوصلة. ونام السيد «دى بارسيفال» فوق حصانه، وتقدّمت عليه القافلة، ولاحظنا بعد ذلك أنه ما زال في الخلف. ودوّت في البعيد طلقتا بندقية، فهرعنا هابّين لنجدته وأطلقنا أعيرة نارية من مسدساتنا كي نخيف

البدو. ومن حسن الحظ أنه لم يهاجَم، ذلك أنه أطلق ذينك العيارين على الغزلان التي اجتازت السهل. ودون أن نعثر على نقطة ماء واحدة وصلنا مساء قرب قرية «المخلَّد» العربية. فاجتذبتنا شجرة جميّز هائلة ارتفعت في سفح إحدى التلال الجرداء الرصاصية، ولجأنا إليها كخيمة طبيعية. وذهب رجالنا من العرب إلى القرية ليسألوا عن طريق النبع، فدلّهم الناس، فهرعنا إليه جميعنا. شربنا وغسلنا رؤوسنا وأيدينا وعدنا إلى مخيمنا الذي أضرم قربه طاهينا النار ليس بعيداً عن الشجرة. كان جذعها متفحماً بسبب النيران المتتالية التي أشعلتها آلاف القوافل التي استفادت من ظلها. وفردت أغصانها الهائلة فوق خيامنا وجميع خيولنا. وأتى شيخ «المخلّد» يحمل إلينا البطيخ الأصفر، وجلس تحت خيمتي وسألني عن أخبار «ابراهيم باشا» وطلب بعض الأدوية له ولزوجاته. فأعطيته بضع نقاط من ماء الكولونيا ودعوته ليتعشى معنا. فوافق. ثم صعب علينا جداً أن نصرفه.

كان الليل قائظاً، فلم أستطع البقاء تحت خيمتي، فقمت وجلست قرب النبع تحت إحدى أشجار الزيتون. وكان القمر ينير سلسلة جبال الجليل كلها التي كانت تتماوج جذلى في الأفق، وكنت على بعد فرسخين من المكان الذي خيّمنا فيه. كان خط الأفق أجمل ما رأته عيناي. كان اللون البنفسجي الذي تزينت به تلك الجبال عندما نظرت إليها أجمل من أغصان الليلك التي بدأت تتفتح عناقيد أزهار أغصانها في الربيع. وكلما ارتفع القمر واقترب منها كلما دكن لونها وصار قرمزياً. وتماوجت أشكالها كأنها الأمواج الكبيرة التي نراها في لجّة البحر أثناء المغيب الجميل للشمس. ولجميع هذه الجبال أسماء وقصص قرأناها في طفولتنا ونحن في أحضان أمهاتنا. أعلم أنّ منطقة «اليهودية» هي هنا بروائعها وآثارها، وأن «القدس» تجثم فوق إحدى التلال، وأنه لا تفصلني عنها إلا مسافة لا يربو اجتيازها عن بضع ساعات، وأنني لامست بالتالي الهدف الذي صبوت إليه من رحلتي الطويلة. تمتّعت بهذه الفكرة كما يتمتع المرء دائماً عندما يبلغ هدفاً من أهدافه، حتى ولو كان تافهاً، وعندما يحقق صبابة تلوّع بها. بقيت

ساعة أو ساعتين أحفر في ذاكرتي تلك الخطوط والألوان وتلك السماء الشفافة والوردية وتلك الوحدة وذلك الصمت. وحطت رطوبة الليل وبلّلت معطفي، فعدت إلى خيمتي ونمت. وما كدت أنام ساعة حتى استيقظت على صوت خفيف، فنهضت على مرفقيّ ونظرت حولي. كان أحد ستائر الخيمة مرفوعاً ليمرّر نسيم الليل، وكان القمر يطلق أشعته داخل الخيمة، فرأيت ابن آوى ضخماً يدخل بحذر وينظر بعينيه البراقتين نحوي؛ فأمسكت بندقيتي فخاف من الحركة وولى هارباً. ثم عاودني النوم. واستيقظت مرة ثانية، فوجدت ابن آوى قرب رجليّ ينقّب بخطمه في طيات معطفي وكاد يمسك بخناق كلبي الجميل الذي كان نائماً فوق حصيرتي مثلي. كان كلبي الرائع من نوع السلوقي لم يغادرني لحظة واحدة منذ ثمانية أعوام، لذا فإنني سأدافع عنه وأخاطر بحياتي، لأنه أصبح جزءاً منها. لحسن الحظ أنني غطيته بقسم من معطفي، ولأنه كان ينام عميقاً لم يسمع أي شيء ولم يشعر بأي شيء ولم يشك في الخطر الداهم؛ وبعد ذلك بلحظة حمله ابن آوى وذبحه في جحره. فصرخت، فاستيقظ رجالي، وخرجت من الخيمة وأطلقت عياراً ناريّاً؛ ولكن ابن آوى قد ابتعد وفي اليوم التالي لم نر أي أثر لدم يشهد أنني انتقمت.

وفي تباشير الفجر الذي أضاء تلال «اليهوديّة» انطلقنا؛ وحاذينا التلال المتماوجة التي صدّتنا من رؤية البحر؛ أنهكنا القيظ، وسيطر الصمت على مسيرتنا كليّاً. وفي الحادية عشرة وصلنا خائري القوى قرب ضفتي نهر وعرتين تجري مياهه الداكنة بهدوء بين جرفين تحيط بهما أعواد القصب العالية، كان علينا أن نلمس مياهه لتتبيّن لنا. وكانت قطعان الجاموس البري راقدة بين القصب وفي النهر وتُظهر رؤوسها خارج الماء. وتبقى هكذا دون حراك طيلة ساعات النهار الحارقة. نظرت إلينا دون أن تبدي حركة، فقطعنا النهر ووصلنا إلى أحد الخانات المهجورة. ويسمّي عرب اليوم هذا النهر بـ «نهر الأرصوف». وتقع قرب هذه البقعة منطقة «أبولونيا» القديمة على الأرجح، إلاّ إذا كان موقعها قرب نهر آخر قطعناه بعد ذلك بساعة تقريباً، ويسمى الآن ب «نهر البتراس».

واستلقينا فوق حصائرنا تحت الأقبية الرطبة والداكنة الباقية وحدها من ذلك الخان القديم. وما إن جلسنا حول طبق من الأرزّ البارد قدّمه لنا الطاهي للغذاء، حتى خرجت حيّة طولها ثمانية أقدام، انسلّت من ثقوب الحائط القديم الذي لُذنا به وأتت تتثنى بين أقدامنا، فنهضنا سريعاً لإبعادها عن مدخل الدهليز، فوصلته وحدها وولّت ببطء وهي تحرّك ذنبها الذي يشبه وتر القوس، وضاعت بين القصب المحيط بالنهر. كان لون جلدها أزرق غامقاً وجميلاً. فأنفنا من العودة إلى مكاننا، ولكن الحرّ كان شديداً فأذعنّا ونمنا فوق سروج المطايا، دون أن نكترث بزيارات مشابهة قد تقطع علينا نومنا.

في الرابعة بعد الظهر اعتلينا خيولنا. ورأيت فوق رابية من الروابي فارساً عربيّاً غير بعيد عن النهر وبيده بندقية ويصحبه عبد مترجل. كان كأنه يصطاد، وفي كل لحظة كان يوقف حصانه ليراقب باسترابة واحتراس الطريق الذي سنسلكه. وفجأة ترك العنان لفرسه وتقدم نحوي وخاطبني بالإيطالية وسألني إن كنت ذاك الرحّالة الذي يجوب الآن ربوع البادية العربية والذي يتوقع القناصل الأوروبيون وصوله العتيد إلى «يافا». فلفظتُ اسمي فقفز من صهوة حصانه وتقدم وقبّل يدي وقال لي: «إنني ابن السيد «داميانى»، نائب قنصل فرنسا في «يافا». بعد أن أعلمني «سعيد» برسائله التي بعث بها بواسطة سفينة إنكليزية بوصولك، أتيت منذ عدة أيام لأصطاد الغزلان هنا ولألتقي بك وأدعوك إلى بيت أبي. اسم عائلتنا إيطالي من أصول أوروبية؛ ومنذ أمد طويل استقرت في ديار العرب. نحن عرب ولكن قلوبنا تميل إلى فرنسا؛ وسنعتبر عاراً علينا وإهانة لعواطفنا إن قبلتم ضيافة بيت آخر غير بيتنا. تذكّر أننا أول من وصل إليك، وفي الشرق، الذي يصل إلى أجنبي قبل غيره هو الذي يستضيفه. وأضاف قائلاً: أذكر لك ذلك، لأن بعض البيوت في «يافا» قد علمت بوصولك من خلال الرسائل التي بلغتهم عن طريق السفينة ذاتها وسيهرعون إليك ما إن يُعلم عبدي المدينةَ بوصولك». وبعد أن أنهى كلامه قال بضع كلمات بالعربية لعبده الشاب، فاعتلى هذا الأخير فرس سيده واختفى بلمح البصر خلف التلال الرملية التي كانت تسد الأفق. فأعطيت السيد

«داميانى» حصاناً غير مركوب كان معي، وسلكنا بتوءدة طريق «يافا» التي لم نرها بعد. وبعد ساعتين من السير رأينا في الجانب الآخر من النهر الذي كان علينا أن نقطعه، حوالي ثلاثين فارساً يلبسون حللاً نفيسة ويحملون أسلحة برّاقة يعتلون صهوات خيول غاية في الجمال، وكانوا يخبّون على ضفة النهر. ثم دفعوا بخيولهم نحو الماء وهم يطلقون الصرخات والأعيرة النارية من مسدساتهم ترحيباً بنا: لقد كانوا من أولاد وآباء وأصدقاء أعيان «يافا» أتوا لاستقبالنا. اقترب كل واحد منهم مني ورحب بي، فأجبت عن طريق مترجمي أو بالإيطالية للذين كانوا يفهمونها. اصطفوا حولنا، وركضوا في كل اتجاه فوق الرمل وأدّوا مشهد سباق «الجريد» الذي يطلق فيه الفرسان العرب أقصى سرعة لخيولهم ويظهرون مهارة سواعدهم.

واقتربنا من «يافا»، وبدت لنا المدينة فوق رابية تتجه نحو البحر، وكان منظرها من هذا الجانب الصحراوي منظراً ساحراً. كانت سفوح المدينة تغتسل بالبحر أثناء المغيب الذي يجر دائماً خلفه هنا أمواجاً هائلة مزبدة ترتطم بسور المرفأ. ومن جهة الشمال التي منها وصلنا إلى المدينة، كانت البساتين الرائعة تحيط بالمدينة وتخرج بشكل ساحر من الصحراء لتأتي وتكلّل أسوار المدينة وتظللها. ومشينا تحت قنطرة عالية يفوح منها شذى غابة النخيل والرمان المحمّل بنجيماته الحمراء والأرز البحري ذي الأوراق المخرّمة والبرتقال والتين والليمون، وكانت أشجاراً باسقة كأشجار الجوز في أوروبا، تتمايل أغصانها تحت ثمارها وزهرها. ولم يكن الهواء إلا عبيراً يحمله وينشره نسيم البحر.أما التربة فكانت بيضاء ناصعة تعلوها أوراق الليمون التي تذروها الريح كأوراق الشجر الساقطة عندنا. وبين الفينة والأخرى أبصرنا أسبلة تركية مغطاة بالفسيفساء الرخامي الملوّن، وعليها طاسات نحاسية مربوطة بالسلاسل، وتقدّم ماءها الصافي للمارّة؛ وكانت هذه الأسبلة دائماً محاطة بنسوة يغسلن أقدامهن وينهلن الماء من سطول ذات أشكال قديمة. وترتفع في المدينة مآذن بيضاء وسطوح محززة ونوافذ عربية متصالبة، ويحيط بالمدينة بحر من الشجيرات العطرية يقيم حداً فاصلاً من ناحية الشرق مع الرمال البيضاء الممتدة في الصحراء التي تفصل المدينة عن «مصر». وقرب

أحد الأسبلة التقينا بثلة ثالثة من الفرسان كان يقودها السيد «داميانى» الأب، الذي كان ممثلاً قنصلياً لعدد من الدول الأوروبية، والذي يُعتبر إحدى الشخصيات المرموقة في «يافا». ابتسمنا للثياب الغريبة التي كان يرتديها: كان يلبس قفطاناً أزرق سماوياً مزركشاً بفرو القاقم وفوقه حزام من الحرير القرمزي؛ وكانت ساقاه المكشوفتان تخرجان من سروال مصنوع من الموسلين الوسخ، وكان يعتمر قبعة لها ثلاثة قرون أكل الدهر عليها وشرب وتشرّبت بالعرق والغبار، مما يدل على أنه قدّم خدمات عديدة أثناء الحملة على مصر. ولكن الحفاوة والترحيب اللذين أبداهما نائب قنصلنا لجما الابتسامة عن شفاهنا، وما كان بوسعنا إلا أن نعبّر له عن عواطفنا القلبية للمعروف الذي يقدمه لنا. وكان يصحبه عدد من أصهرته وأولاده وأحفاده، وكانوا كلهم يمتطون خيولهم. وله حفيد يناهز الثانية عشرة أو الرابعة عشرة كان يخّب قرب جده على صهوة فرس دون سرج، وكان له أجمل وجه رأيته في حياتي.

تقدم السيد «داميانى» منّا وقادنا وسط حشد عظيم تجمهر حول خيولنا حتى وصلنا إلى باب البيت، فسلّم علينا أصدقاؤنا الجدد وتركونا بين أيدي مضيفنا.

بيت السيد «داميانى» صغير، ولكنه يقع على قمة المدينة ويشرف على الآفاق البحرية الثلاثة: أفق «غزة» وأفق «عسقلان» نحو «مصر» وأفق «سوريا» من جهة الشمال. تحيط بغرف البيت شرفات مكشوفة يهب عليها نسيم البحر، ومنها يستطيع المرء أن يرى مسافة عشرة فراسخ بحرية كل زورق شراعي يعبر خليج «دمياط». الغرف بدون نوافذ، ويجعلها الطقس غير ضرورية، إذ إن الهواء دافئ يشبه الهواء عندنا في أيام الربيع الجميلة، والصاد الوحيد للشمس كان ستاراً خشبياً مثبتاً بشكل سيء. وتقاسمنا مع طيور السماء تلك المطارح التي أعدها الإنسان لنفسه. كانت في بهو السيد «داميانى» على السياج الخشبي المحيط بالبيت مئات من عصافير السنونو برقابها الحمراء تجثم قرب قطع الخزف الصيني والطاسات الفضية ونرابيش الأراكيل التي تزين جوانبه. وكان السنونو يطير طيلة النهار فوق رؤوسنا، وأثناء العشاء كان يحط على سواعد القنديل النحاسي الذي أنار المكان أثناء العشاء.

تتألف العائلة من السيد «داميانى» الأب الذي يراوح بين دور الجد الأبوي والتاجر الإيطالي (ومع أن الدور الأول يطغى)، ومن السيدة «داميانى» الأم، وهي امرأة عربية جميلة، لها اثنا عشر ولداً، ولكنها ما زالت محافظة على أناقتها ونضارة جمالها التركي، ومن مجموعة من البنات الفاتنات، ومن ثلاثة شبان تعرفنا نحن على الأكبر. وأدى لنا الشابان الآخران خدمات جلى، وكانا في غاية التهذيب. لم تصعد النساء إلى الغرف؛ وظهرن مرة واحدة وكن يرتدين ثياباً احتفالية ويضعن المجوهرات الثمينة، وتناولن الطعام مرة واحدة معنا. وكن يمضين وقتهنّ في تحضير الطعام لنا ضمن حوش داخلي صغير، وكنا نبصرهن أثناء خروجنا أو دخولنا. ورُبّي الشبّان حسب التقاليد العربية التي تقضي باحترام الأبناء لوالديهم، ولم يجلسوا معنا قط خلف مائدة الطعام. وكانوا يقفون وراء والدهم ويحرصون على ألا ينقص على المدعوين شيء.

ما إن دلفنا إلى البيت، حتى زارنا عدد كبير من سكان المدينة أتوا يهنئوننا بالسلامة ويعرضون علينا خدماتهم. شربنا القهوة ودخّنا الأراكيل وقضينا الأمسية متجاذبين أطراف الحديث الذي أشبع فضولنا. ولم يتأخر حاكم «يافا» في المجيء، بعد أن أرسلت له مترجمي ليعبّر له عن ثنائي. كان عربياً شاباً ووسيماً يرتدي حلّة فاخرة، وكانت لباقته ولغته تدلان على مروءته وعلى رفعة تصرفاته. نادراً ما رأيت رأساً وسيماً كرأسه. كانت ذقنه السوداء المشذبة بعناية تنساب خصلها اللامعة وتغطي جزءاً من صدره، وكان يضع في أصابعه خواتم من الماس الكبير اللامع، ويعبث بتموجات لحيته ويمرر أنامله يمسّدها ويمشّطها بها. كانت نظراته فخورة وعذبة وصريحة كنظرات جميع الأتراك بعامة. ويشعر المرء أن هؤلاء الرجال لا يخفون شيئاً، فهم صريحون لأنهم أقوياء وهم أقوياء لأنهم لا يعتدّون بأنفسهم وبمهاراتهم الباطلة، وإنما يعتمدون على مشيئة الله الذي يدبّر كل شيء، وعلى عنايته الربانية التي يسمونها قضاء وقدراً. إذا وضعتم تركياً بين عشرة أوروبيين تعرفونه دائماً من نظرته العالية، ومن صرامة التفكير المنطبع على سحنته بفعل العادة، ومن بساطته النبيلة في التعبير. لقد تلقّى الحاكم من

«محمد علي» ومن «ابراهيم باشا» رسائل توصيه خيراً بي. واحتفظ بهذه الرسائل. وقرأت له رسالة من «ابراهيم» كانت معي. وهذا معنى كلماتها:

«علمت أن صديقنا (ويورد اسمي) وصل من فرنسا مع عائلته ومع رفاق سفر له عديدين، ليزور البلاد التي أخضعتها بأسلحتي وليتعرف على قوانيننا وعاداتنا. أريد منك ومن عمّال مدننا وأريافنا، ومن ربابنة أساطيلنا، وقواد جيوشنا وضباطنا، أن تخصّوه بأسمى آيات الصداقة، وتقدموا له كل الخدمات إذ إنني أكنّ له ولبلاده كل احترام. تقدمون له إن طلب ذلك البيوت والخيول والمؤن التي يحتاجها هو وحاشيته. وتؤمنون له الوسائل لكي يزور أصقاع بلادنا التي يبغي مشاهدتها. وترفدونه بالعديد من الحرس الذين يحرصون على سلامته وتضعونه فوق رؤوسكم. وإذا وجد صعوبة ليصل إلى بعض الأماكن التابعة لنا بسبب البدو، تسيّرون عندئذٍ جنودكم ليؤمّنوا له زياراته، إلخ».

وبعد أن قرأ الحاكم الرسالة وضعها على جبينه وأعادها إليّ. وسألني عما بوسعه أن يفعل ليلبي توجيهات سيده، واستعلم عن الأماكن التي أرغب في زيارتها. فقلت له: «القدس» واليهودية. عندما تلفظت بهاتين الكلمتين صرخ ضباطه والسيد «داميـاني» وآباء دير الأرض المقدسة في «يافا» الذين حضروا، وقالوا لي إن ذلك مستحيل، لأن الطاعون تفشّى بشكل مريع في «القدس» و«بيت لحم» والمناطق التي سنمر فيها، لا بل وصل إلى «الرملة»، وهي المدينة الأولى التي يجب أن نقطعها لنصل إلى «القدس»؛ وقالوا إن الباشا فرض حجراً على جميع العائدين من «فلسطين»، وإنني لو تجرأت وتوغلت فيها ونجوت من الطاعون فإنني لن أتمكن ربما من العودة إلى «سوريا» لأشهر طويلة. وقالوا أيضاً إن الديار التي تستضيف الأجانب في الأرض المقدسة مغلقة كلها وإننا لن نُستقبل في أي دير منها، وإنه يتوجب إرجاء الزيارة لتاريخ آخر ولموسم يناسب السفر إلى «اليهودية».

اكتأبت فعلاً لهذه الأخبار، ولكنها لم تزعزع عزيمتي. فقلت للحاكم: مع أنني ولدت في دين غير دينه، إلا أنني مثله أتكل على مشيئة الله، أسُمّيت عبادته قضاء

وقدراً، وعبادتي عناية إلهية، لأن هاتين الكلمتين المختلفتين تعنيان الشيء نفسه: الله أكبر، الله هو الرب، الله كريم. وأضفت قائلاً: إنني أتيت من بلاد بعيدة وإنني قطعت البحار والجبال والسهول لأزور المنابع التي تحدّرت المسيحية منها لتنتشر في العالم، وإنني قدِمت لأرى مدينة المسيحيين المقدسة ولأقارن الأمكنة بالتاريخ، وإنني تقدّمت كثيراً بحيث لا أستطيع التراجع وترك المشروع الذي أنجزته تقريباً لتقلبات الزمان والوقائع، وإن حياة الإنسان ليست سوى نقطة في بحر وسوى ذرة من رمال الصحراء ولا تستحق أن تحصى، وإن المكتوب مكتوب، وإن الله إن شاء أن يجنبني من الطاعون وسط المصابين به في «اليهودية»، يسهل عليه أن يحفظني وسط أمواج العاصفة ويحميني من رصاص البدو على ضفاف نهر «الأردن»، وإنني بالتالي مصرّ على التوغل وبلوغ «القدس»، مهما كانت الأخطار، وإنني أقرّر عن نفسي وليس عن الآخرين، وإنني أترك جميع أصدقائي وجميع خدمي وجميع العرب الذين يرافقونني يختارون إما الذهاب معي وإما البقاء في «يافا»، حسب ما تحدّثهم قلوبهم.

فأثنى الحاكم عندئذٍ على انصياعي لإرادة الله، وقال لي إنه لا يتمنى أن أعرّض نفسي وحدي لمخاطر الطريق وللطاعون، وإنه سيختار بين عساكر حاميته في «يافا» عدداً من الجنود الشجعان والمنضبطين ليضعهم تحت إمرتي فيحرسوا قافلتي أثناء سيرها ويحموا خيامنا في الليل ويجنبونا من ملامسة المصابين بالطاعون. وفوراً أرسل فارساً من فرسانه إلى حاكم «القدس»، وهو صديق له، لينبئه برحلتي وليهتم بأمري، ثم انصرف. فتداولنا أنا وأصدقائي، وحتى الخدم دعوا للمشاركة في ذلك المجلس ليقرّر كل واحد ما سيفعله. وبعد تردّد بسيط، أقرّ الكلّ بالإجماع أن يجرّبوا حظهم وأن يجابهوا الطاعون كي لا تفوتهم رؤية «القدس». وقرّرنا المسير بعد ذلك بيومين. فنمنا فوق الحصر والدواوين التي قدمها لنا السيد «دامياني» وأفقنا على زقزقة السنونو الذي كان يتطاير فوق رؤوسنا في البيت.

وقضينا ذلك النهار نرد الزيارات، فزرنا الحاكم ورئيس دير الأرض المقدسة في «يافا»، وهو راهب إسباني جليل يقيم في «يافا» منذ أن وصل إليها الفرنسيون، وأكّد لنا أن أجسام المصابين بالطاعون مسمومة.

«يافا» هي مدينة «يوبي» (Joppe) القديمة التي وردت في العهد القديم، وفيها أقدم وأشهر مرفأ في العالم. ويتكلم عنها المؤرخ اللاتيني «بلينوس» قائلاً إنها قديمة وسبقت الطوفان. وفيها، كما تذكر التقاليد، قُيّد «اندروميدوس» بالصخر فهاجمه الوحش البحري، وفيها أيضاً بنى «نوح» سفينته، وإليها وصلت أخشاب الأرز من لبنان بأمر من الملك «سليمان» كي يبنى بها الهيكل. ومنها أبحر النبي «يونان» عام ٨٦٢ قبل الميلاد. وفيها أحيا القديس «بطرس» الشابة «طابيتا» من بين الأموات. وأثناء الفترة الصليبية أمر القديس «لويس» بتحصين المدينة. واحتلها «نابوليون بونابرت» عام ١٧٩٩ وذبح فيها الأسرى الأتراك. للمدينة مرفأ سيئ تأوي إليه الزوارق فقط، ولها أيضاً مرسى طبيعي خطير جداً عانينا منه بأنفسنا عندما أبحرنا إليها في رحلتنا الثانية. تعدّ «يافا» ما بين خمسة آلاف وستة آلاف ساكن من أتراك وعرب وأرمن ويونانيين وكاثوليك وموارنة. وكل طائفة لها كنيستها. دير اللاتين رائع، وكان يجمّل أثناء وصولنا، ولكننا لم نحظَ بضيافة هؤلاء الرهبان، فغرف ديرهم الواسعة لم تفتح لا لنا ولا للأجانب الذين صادفناهم في «يافا». وتبقى خالية، في حين أن الحجّاج يجدون صعوبة ليأووا إلى أحد الخانات التركية البائسة، أو أنهم يدفعون غالياً في البيوت الفقيرة التي يملكها اليهود أو الأرمن في «يافا».

ما إن يخرج المرء من أسوار «يافا» حتى يجد نفسه في صحراء مصر الكبرى. وعندما قررت الذهاب إلى القاهرة عبر هذا الطريق، أرسلت ساعياً إلى العريش كي يستأجر لنا إبلاً نقطع بها الصحراء. وتستغرق المسافة بين «يافا» والقاهرة ما بين اثني عشر وخمسة عشر يوماً، ولكنها محفوفة بالصعوبات وأشكال الحرمان. بيد أن الأوامر التي أعطاها حاكم «يافا» والخدمات التي أدّاها لنا أعيان المدينة الذين اتصلوا بسكان «غزة» و«العريش»، ذلّلت أمامي الصعوبات.

أرسل لنا الحاكم بضعة فرسان وثمانية من المشاة الذين اختارهم بين جنوده البواسل المدربين الباقين لديه من الجنود المصريين. فعسكروا تلك الليلة بالذات أمام

باب المنزل. وعندما لاحت تباشير الفجر، كنا فوق صهوات خيولنا. ووجدنا قرب باب المدينة من ناحية «الرملة» حشداً من الفرسان يمثّلون جميع فئات السكان في المدينة. وأدوا سباق «الجريد» معنا حتى وصلنا إلى نبع ماء جميل تظلله أشجار الجمّيز والنخيل، وصادفناه بعد انطلاقنا بساعة. وهنا أفرغوا رصاص مسدّساتهم تكريماً لنا، وعادوا قافلين إلى المدينة. يستحيل عليّ أن أصف النباتات الرائعة والجديدة عليّ التي تنتشر على جانبي الطريق بعد أن غادرنا «يافا». ففي اليمين وفي اليسار كانت هناك غابة تجمع كافة الأشجار المثمرة وكلّ الشجيرات الزهرية في الشرق. كانت الغابة تقسم إلى بساتين مسوّرة بالآس والياسمين والرمان، وتُروى بسواقي من الماء مستجرة من المناهل التركية الجميلة التي تكلمتُ عنها. وفي كل بستان مسيّج كان هناك عرزال مفتوح أو خيمة تأتي العائلة التي تملك البستان إليهما لتمضي فيهما بضعة أسابيع في فصلي الربيع والخريف. يكفي أن تغرس ثلاثة أوتاد تعلوها قطعة من القماش كي يكون هناك بيت ريفي لتلك العائلات السعيدة. وترقد النساء على الحصر أو الأرائك تحت الخيمة ويرقد الرجال في الهواء الطلق تحت أشجار الليمون والرمان. ويأكلون هناك البطيخ الأصفر والأحمر والتين الذي له اثنان وثلاثون صنفاً ويظلل تلك البقاع الرائعة. وأحياناً يضاف إلى الطعام خروف رعاه الأولاد ويضحّى به في الأعياد، كما في التوراة. «يافا» هي المكان الوحيد في الشرق الذي يتعين فيه على عاشق الطبيعة والوحدة أن يختاره كي يقضي فيه فصول الشتاء. أما مناخها فيتوسط مناخ الصحراء المصرية الفظ ومناخ الساحل السوري الذي تهطل فيه الأمطار أثناء الخريف. لو كان لي أن أختار مكاناً أقضي فيه فصلي الربيع والخريف، لقضيتهما في سفوح جبل لبنان أو صيدا أو بيروت أو اللاذقية؛ أما لحرّ الصيف فسأختار مرتفعات لبنان التي يرطّبها هواء البحر الذي يهب من وادي الأرز ومن القمم القريبة المكللة بالثلج؛ وسأقضي الشتاء في بساتين يافا. لهذه المدينة شيء خاص في سمائها وأرضها، شيء رائع وجليل ومزركش، لم أجده في أية من البقاع التي اجتزتها. لا تستريح العين إلا عندما تنظر إلى بحر فسيح ماؤه وسماؤه زرقاوان، وإلى حصى الصحراء المصرية التي تعتور

الأفق فيها أحياناً قامة جمل يخبّ ويهتز كالأمواج، وإلى القمم الخضراء والصفراء المزروعة بأشجار البرتقال التي تتكاثف حول المدينة، عجيبة وغريبة جميع تلك الثياب التي يرتديها السكان أو المسافرون الذين يبثّون الحياة في طرقها. هم من بدو أريحا أو طبريا الذين يلبسون الفروات الصوفية البيضاء؛ وهم من الأرمن الذين يرتدون القنابيز المقلّمة بالأزرق والأبيض؛ وهم من اليهود الذين يأتون من كافة أصقاع المعمورة ويلبسون شتى الثياب الشائعة في الأرض كلها، وهم جنود مصريون يرتدون السترات الحمراء، ويشبهون تمام الشبه جنودنا الفرنسيين بعيونهم الحيوية وبسرعة مشيهم. ويشعر المرء أن عبقرية ونشاط الإنسان العملاق قد انتقلا إليهم وبثّا الحياة فيهم ليحققوا هدفاً مجهولاً. وهناك أيضاً الأغوات الأتراك الذين يمشون متبخترين فوق صهوات جيادهم ويتبعهم عدد من العرب والعبيد السود؛ وهناك عائلات فقيرة من الحجاج اليونانيين تجلس في زوايا الشوارع وتأكل الأرز والشعير المغلي في زبادي خشبية، وتقتّر على نفسها لتصل إلى المدينة المقدسة؛ وهناك النساء اليهوديات الفقيرات اللواتي يلبسن الأسمال وينوئن بحمل كيس من الخرق ويسقن حميراً تحمل في أخراجها مجموعة من الأطفال بشتى الأعمار. ولكن لنعد إلى أنفسنا.

كنا نسير بجذل محاولين أحياناً أن نعاير سرعة خيولنا بسرعة الجياد العربية التي كان يعتليها السيد «داميانى» وولدا نائب قنصل «سردينيا». لقد أراد هذان الشابان، وهما ابنا تاجر عربي غني من «الرملة»، أن يصحبانا إلى «الرملة»، وكانا في الصباح قد أرسلا عبيدهما ليجهّزوا لنا بيت أبيهما وليحضّروا لنا العشاء. وكان يتبعنا شخص آخر انضم طوعيّاً إلى قافلتنا وأدهشنا بطقمه الأوروبي الرائع والغريب هنا، وهو شاب بين العشرين والخامسة والعشرين وذو وجه مرح وعادي ولكنه دقيق القسمات يحبّ التندّر. كان يعتمر عمامة ضخمة من الموسلين الأصفر ويرتدي سترة خضراء تشبه سترات أفراد الحاشية الملكية، لها قبّة مستقيمة وذيلان طويلان ومطرزة بأشرطة ذهبية تغطي جميع الأقسام المخيّطة، ويلبس سروالاً ضيقاً من المخمل الأبيض،

وينتعل حذاء منحنياً ذا مهمازين لهما سلاسل فضية. وعلى حزامه خنجر يستعمله للصيد ويتجنّد بمسدّسين محفورين بنقوش فضية وكانا يبرزان من نطاقهما ويضربان صدره.

منذ طفولته خرج من «إيطاليا» وزج به في «مصر» قَدَرٌ غامض ووجد نفسه منذ بضع سنين في «يافا» وفي «الرملة»، وكان يمارس هوايته في جبال «اليهودية» مخالفاً أوامر الشيوخ والبدو الذين كانوا يعاكسونه. تسلّينا كثيراً بحديثه، وكان بودي أن أصطحبه إلى «القدس» وإلى جبال البحر الميت الذي بدا أنه يعرفها تمام المعرفة. ولأنه كان يعيش في الشرق منذ سنين عديدة، أصيب بهلع شديد من الطاعون كباقي الفرنجة ولم تنجح كل عروضي في إغرائه. وقال لي: «في زمن الطاعون هذا أهملت مهنتي كطبيب، إذ إنني لا أعرف له إلا دواء واحداً هو الهرب بسرعة والابتعاد كثيراً والنأي بنفسك كي لا يتمكن الوباء من إصابتك». وبدا وكأنه ينظر إلينا بإشفاق كأننا ضحايا كُتب عليها أن تذهب إلى «القدس» لتموت هناك، وكان لا يتوقع أن يرى من عددنا الكبير إلا أنفاراً قليلين يعودون. قال لي: «منذ أيام كنتُ في «عكا». فقرع باب دير آباء القديس «فرنسيس» حاج كان عائداً من «بيت لحم»، ففتح له الرهبان، وكانوا سبعة. وفي اليوم التالي أمر الحاكم بسدّ أبواب الدير بالحجارة؛ ومات الحاج والرهبان السبعة خلال أربع وعشرين ساعة».

بيد أننا بدأنا نلمح برج «الرملة» ومآذنها تبزغ أمامنا بين حقول الزيتون التي كانت جذوع شجرها الضخمة بضخامة جذوع شجر السنديان القديم عندنا.

كانت «الرملة» تسمّى في الماضي «رامة افراييم»، وهي بلدة «اريماتيا» القديمة في العهد الجديد. وأتى «فيليب لوبون»، دوق «بورغونيا»، وأسس فيها ديراً لاتينياً ما زال قائماً؛ ويملك الأرمن واليونانيون في المدينة أديارا لمساعدة حجاج بلادهم القادمين إلى الأرض المقدسة. وتحولّت الكنائس القديمة إلى جوامع، وفي أحد الجوامع يوجد قبر الأمير المملوكي «عوض بك» الذي هرب من مصر لدى وصول الفرنسيين إليها ومات في

الرملة، وقبره من الرخام الأبيض. عندما دخلنا إلى المدينة استعلمنا عمّا إذا كان الطاعون قد بدأ يعيث فساداً فيها. فقيل لنا: إن راهبتين قدمتا من «القدس» وماتتا مؤخراً في نفس اليوم، فأقيم الحجر على الدير. وقادنا أصدقاؤنا الجدد الذين قدموا معنا من «يافا» إلى بيتهم الواقع في وسط المدينة. وقيل لنا إن عربياً كان من صنّاع «الدسوت» يقيم في البيت ويشغل نصفه، ولكنه رجل لطيف ورائع ويمارس وظيفة عميل قنصلي لإحدى الدول الأوروبية، وهذا يعطيه الحق في أن يرفع علماً أوروبياً فوق سطح بيته، وهكذا يحمي نفسه من إهانات الأتراك والعرب. كان ينتظرنا عشاءٌ فاخر، فسررنا بأن نجلس على كراسي وننام فوق أسرّة، ونأكل خلف موائد، ونستعمل أدوات مطبخية أوروبية، لا بل زوّدنا مستضيفونا بمؤونة من الخبز الطازج حملناها معنا. وفي صباح اليوم التالي اعتذرنا من أصدقائنا من «يافا» و«الرملة» الذين لم يتابعوا معنا، ومشينا محاطين فقط بالفرسان والمشاة المصريين الذين وضعوا لحمايتنا، ونظمتُ سير الرحلة، فوضعتُ فارسين في المقدمة قبل القافلة بخمسين خطوة تقريباً كي يبعدوا عنا البدو أو الحجّاج اليهود الذين ربما سنلقاهم وكي يأمروهم بالتنحي عن رجالنا وخيولنا، وأمرت جنود المشاة بأن يحموا يميننا وشمالنا، وتقدّمنا الواحد بعد الآخر دون مخالفة هذا النظام، وكانت أمتعتنا في الوسط. والثلة الصغيرة المؤلفة من أفضل فرساننا شكلت مؤخرة القافلة، وأمرتهم بألا يتركوا رجلاً أو بغلاً وراءهم. ولاحت للقافلة مجموعة من البدو المريبين، فتوقفنا وانتظمنا للقتال، وذهبت أنا والفرسان والمترجمين للاستطلاع. وبهذه الطريقة جنّبنا أنفسنا المناوشات مع البدو وتفشي الطاعون. ويجب أن أقول إن عساكرنا المصريين وفرساننا الأتراك والعرب الذين كانوا معنا انصاعوا لنظام السير واحترموه بدقة تضاهي أفضل فرق جيشنا انضباطاً في أوروبا. وحافظنا عليه لمدة تزيد على خمسة وعشرين يوماً من المسير وفي المواقع الأشدّ إرباكاً. لم يحصل لي أن أنّبت أحداً منهم، وهكذا اشترينا سلامتنا بهذه الإجراءات.

بعيد غروب الشمس بلغنا نهاية سهل «الرملة» قرب نبع ماء حُفر في الصخر ويُروي حقلاً صغيراً من اليقطين. كنّا في سفح جبال «اليهودية»، ورأينا أمامنا جهة اليمين وادياً صغيراً يبلغ عرضه مائة خطوة، فنزلنا إليه، وهنا تبدأ مملكة البدو من

قطاع الطرق في هذه الجبال. وبما أن الليل كان يدنو، رأينا من الحذر أن نخيّم في ذلك الوادي، فنصبنا خيامنا على مقربة مائة خطوة من النبع. وأقمنا حراسة متقدمة تمركزت فوق تلّة مطلة على طريق «القدس»؛ وبينما كان الطهاة يحضرون عشاءنا ذهبنا لنصيد الحجل على التلال المفضية إلى خيامنا، فاصطدنا بعض الحجال وهربت مجموعة من النسور الصغيرة التي كانت تعشش بين الصخور. وحلّقت ودارت حولنا وزعقت فوق رؤوسنا ثمّ انقضت علينا بعد أن أطلقنا النار عليها. جميع الحيوانات تخاف من النار ومن الطلقات النارية، أما النسر فهو الوحيد الذي لا يأبه بها ويزج نفسه في المخاطر، إما لأنه يجهلها وإما لأنه يتحداها. ومن قمة إحدى التلال أعجبت بمشهد معسكرنا الرائع وبمرابطة فرساننا العرب فوق التلة، وبخيولنا المربوطة قرب الخيام وبالمكارية المتربعين على الأرض والمنهمكين بتنظيف السروج والأسلحة، وبألسنة النار المتقدة خلف ستار خيمة من خيامنا والتي كان الهواء يحني دخانها الأزرق الخفيف. كم أحببت هذه الحياة البدوية تحت سماء كهذه، وبوسع المرء أن يصطحب معه جميع الذين يحبهم ويأسف لرحيلهم عن هذه الأرض. الأرض كلها للشعوب الرعوية والمتنقلة كالعرب في «بلاد الرافدين». يحمل يوم واحد من أيامهم شحنة شعرية أكثر مما تحمله سنوات طويلة نقضي فيها حياتنا داخل المدن. عندما يطالب الإنسان الحياة المتحضرة بأشياء كثيرة فإنه يتجمد في مكانه، ولا يستطيع أن يتخلى عنها دون أن يفقد تلك الأمور الثانوية العديدة التي حوّلتها العادة إلى حاجة. إن بيوتنا هي سجون أردناها لأنفسنا. أتمنى أن تكون الحياة رحلة لا تنتهي، كهذه الرحلة، ولو لم تكن لي مع أوروبا علاقة عاطفية، لتابعت رحلتي بكل ما أملك من قوة وثروة.

كنا هنا قرب تخوم قبيلتي «افراييم» و«بنيامين»[١] والبئر التي نصبنا قربه خيامنا ما زالت تسمّى «بئر يعقوب».

١ - لا يعني المؤلف أن هذه القبائل اليهودية التوراتية موجودة ولكنه يشير إلى ما يراه أماكن وجودها وفق «حقائق توراتية» من الماضي.

انطلقنا قبل الشروق، وحاذينا لمدة ساعتين فجاً ضيقاً وقاحلاً ومليئاً بالحصى ومشهوراً بغزوات البدو. وهو المكان المعرّض جداً لهجومهم، إذ يستطيعون أن يدلفوا إليه من الأودية الوعرة العديدة، ويتخفون بسفوح التلال غير المأهولة، وينصبون كمائنهم خلف الصخور والشجيرات ثم ينقضّون فجأة على القوافل. وزعيم القبائل البدوية في هذه الجبال اسمه «أبو غوش»، ويسيطر على المسالك التي تؤدي إلى «القدس»، فيفتحها ويغلقها حسبما يشاء ويطلب فدية من المسافرين. ويقع مركز قيادته على بعد بضعة فراسخ من مكاننا، ويعسكر في قرية «إرميا». وتوقعنا في كل لحظة أن يظهر فرسانه، ولكننا لم نصادف أحداً، ما عدا آغا شاباً من أقارب حاكم «القدس» كان يعتلي صهوة فرس جميلة جداً ويحيط به سبعة أو ثمانية من الخيالة. سلم علينا بأدب وتوقف هو وحاشيته ليفسح الطريق لنا دون أن تتلامس خيولنا أو ثيابنا.

وبعد ساعة من قرية «إرميا» تقريباً، ضاق الفج أكثر فأكثر وغطت الأشجار الطريق بأغصانها. وكان هناك نبع قديم وكوخ متهدم، ثم تسلقنا مدة ساعة درباً وعراً غير ممهّد ومحفوراً في الصخر ويقع وسط الآجام، وفجأة لمحنا قرية «إرميا» وكنيستها في الجانب الآخر من التلة. تحولّت الآن الكنيسة إلى جامع، وكانت باذخة في عصر مملكة أورشليم، في عهد لوسينيان (Lusignan) .والقرية مؤلفة من أربعين أو خمسين منزلاً، ومساحتها واسعة، وهي معلّقة بين سفحين يحيطان بالفجّ. ثم رأينا بعض أشجار من التين متباعدة وعدداً من الكروم، مما يشير إلى وجود نوع من الزراعة، وشاهدنا قطعاناً من الماشية تسرح حول البيوت، وأبصرنا بضعة رجال من البدو بقفاطينهم الرائعة يدخنون الأراكيل على شرفة البيت الرئيسية، ويبعدون مئة خطوة عن الطريق الذي نهبطه. وكان ما بين خمسة عشر وعشرين رأساً من الخيل مربوطة في باحة البيت. وما إن رآنا هؤلاء الرجال حتى غادروا الشرفة واعتلوا خيولهم وتقدموا نحونا بخطى وئيدة. والتقينا وسط ساحة كبيرة غير مزروعة قبالة القرية التي تظللها خمس أو ست أشجار تين جميلة.

كان «أبو غوش» الشهير وعائلته، وتقدّم وحده نحوي مع أخيه، وبقي رجاله الباقون في الخلف. وفي الحال أوقفت القافلة واقتربت مع مترجمي. وبعد التحية المألوفة وكلمات المديح التي لا تنتهي والتي تبدأ قبل كل حديث مع العرب، سألني «أبو غوش» إن كنت الأمير الفرنسي الذي وضعته صديقته «الليدي ستانهوب» ملكة «تدمر»، تحت حمايتها، والتي أرسلت إليه هو باسمه السترة النفيسة السوداء التي يلبسها والتي أظهرها لي باعتزاز وامتنان. كنت أجهل هذه الهدية التي قدّمتها «الليدي ستانهوب» والتي تمّ تقديمها باسمي، ولكنني أجبت أنني ذلك الأجنبي الذي سلّمته تلك المرأة الشهيرة لكرم أصدقائها في «إرميا»، وأنني سأزور فلسطين كلها التي تعترف بسلطانه، ورجوتُه أن يعطي الأوامر الضرورية كي لا تلومه «الليدي ستانهوب». عندها ترجّل من حصانه هو وأخوه ونادى بعض الخيالة من حاشيته وأمرهم بأن يأتوا بالتمر والبسط والطنافس التي مدّوها تحت شجرة تين ضخمة في الحقل الذي كنّا فيه، وطلب منا بإلحاح شديد أن نترجّل ونجلس على ذلك الديوان الريفي الذي استحال علينا رفضه. وبما أن الطاعون كان منتشراً في «إرميا»، حرص «أبو غوش»، الذي يعلم بقيود الحجر على الأوروبيين، على ألا يلامس ثيابنا، وفرش ديوانه وديوان إخوته مقابلنا على مسافة معينة. أما نحن فلم نقبل إلا الحصر، لأنه يفترض فيها ألا تنقل العدوى. وأحضروا القهوة والشربات. وخضنا في حديث عام طويل. طلب مني «أبو غوش» أن أبعد عني حاشيتي، وفعل هو كذلك، لينقل إليّ بعض المعلومات السرية التي لا أستطيع هنا أن أذكرها[1] وبعد أن تكلمنا بضع دقائق أدنى هو إخوته، وأدنيت أنا أصدقائي. سألني: هل أنا معروف في أوروبا. فأجبته: بلى، وبعضهم يقولون إنك قاطع طريق ورجل نهب وسلب تذبح القوافل وتسترقّ الفرنجة، وإنك العدو اللدود للمسيحيين؛ وبعضهم الآخر يقولون إنك أمير شجاع وكريم تتصدى للصوصية البدو الذي يقبعون

١ - يبدو أن الرحالة محاط باهتمام خاص من محمد علي وابنه إبراهيم وعمالهم إلى الليدي ستانهوب والقناصل، وبريده يصل عبر الأسطول الإنكليزي أو الفرنسي؟ قد يشير ذلك إلى شيء يثير أكثر من الاهتمام بحاج شاعر رحال..إلخ؟، ولعله - من جهة أخرى - أراد مجاملة «أبوغوش» لا أكثر ولا أقل، وعلى أية حال فلقد كان لامارتين شخصية فرنسية كبرى ولا غرابة في إحاطته بكل أنواع الرعاية والاهتمام والحماية.

في الجبال، وتجعل الطرق آمنة وتحمي القوافل، وإنك صديق لجميع الفرنسيين الذين يستحقون صداقتك. وقال لي ضاحكاً: وأنت ماذا تقول عني؟ فأجبته: إنني سأروي ما رأيت، إنك مقتدر ومضياف مثل أمراء فرنسا وإنك ضحية نميمة وإنك تستحق صداقة جميع الأوروبيين الذين، مثلي، اختبروا شهامتك وحمايتك. فتهلل وجه «أبو غوش». وطرح عليّ هو وأخوه عدداً كبيراً من الأسئلة التي تتعلّق بعادات الأوروبيين وأسلحتهم التي يعجبون هم بها كثيراً. ثم افترقنا. وعندما هممنا على الافتراق، أمر أحد أحفاده وبعض الخيّالة بأن يتقدّموا قافلتنا، وبألا يبارحوني أثناء إقامتي في «القدس» أو في جوارها، فشكرته وانطلقنا.

يحكم «أبو غوش» حوالي أربعين ألف بدوي يقطنون جبال «اليهودية» ويمتدون من «الرامة» إلى «القدس» ومن «الخليل» (حبرون) إلى جبال «أريحا». وهذا الحكم الذي مارسته عائلته منذ أجيال عديدة لا يدلّ إلا على سلطانه. في بلاد العرب، لا يناقش أصل السلطة أو شرعيتها، يتم الاعتراف بها ويخضع لها المرء ما زالت قائمة هناك عائلة أكثر قدماً وعدداً وغنى وبسالة مما لدى العائلات الأخرى، فيصبح رئيس هذه العائلة بشكل طبيعي أكثر تأثيراً في القبيلة؛ وإذا سيست القبيلة بشكل أفضل وبمهارة أكبر وإذا ما أثبتت بسالتها في الحرب، سيطرت عندئذٍ دون منازع. هذا هو أصل جميع السلطات التي يتمتع بها زعماء آسيا بكاملها وقبائلها. السلطة تتكون وتحافظ على نفسها كشيء طبيعي، ولا أحد يستنكر ذلك؛ وتصبح الطاعة أمراً بنوياً ودينياً. يجب أن تحدث انقلابات كبرى ونكسات خطيرة كي تسقط عائلة من العائلات؛ وإذا قلنا إن القبول بهذه النبالة إرادي، إلا أنها تستمر أجيالاً بكاملها. لا يستطيع المرء أن يفهم النظام الإقطاعي تماماً إلا بعد أن يزور هذه المناطق. نرى كيف تشكلت جميع تلك العائلات الكبرى وجميع تلك السلطات المحلية إبان القرون الوسطى، ثم سيطرت على القصور والدساكر والمناطق؛ إنها الدرجة الأولى من درجات الحضارة. وكلما تطوّر المجتمع، كلما ابتلعت سلطات كبرى سلطاتٍ صغرى؛ ونشأت البلديات لحماية حقوق

المدن من الهيمنة المتداعية للعائلات الإقطاعية. ونشأت الأنظمة الملكية الكبرى، وهدّمت بدورها الامتيازات البلدية غير المفيدة، ثم أتت المراحل الاجتماعية الأخرى حاملة معها ظواهرها العديدة التي لا نفهمها جميعها حتى الآن.

صرنا على مسافة بعيدة عن «أبي غوش» وقومه من اللصوص المنظمين. كان حفيده يمشي أمامنا على طريق «القدس». بعد ميل واحد من قرية «إرميا» ترك الطريق وانسلّ نحو اليمين إلى دروب صخرية تحاذي جبلاً تغطيه شجيرات الآس وأشجار البطم، فتبعناه. حسب الأخبار القادمة من «القدس» والتي نقلها إلينا «أبو غوش»، كان يستحيل علينا أن ندخل المدينة. كان الطاعون يتفاقم فيها كل لحظة، وكان يسقط يومياً ما بين ستين وثمانين شخصاً؛ وأُغلقت جميع النزل وجميع الأديار. فقررنا أن نذهب أولاً إلى صحراء «القديس يوحنا المعمدان» التي تبعد عن «القدس» مسافة فرسخين، والتي تقع في الجبال الوعرة لمنطقة «اليهودية»، وأن نجد هناك مأوى لنا لبضعة أيام في دير للرهبان اللاتين، ثم سنتصرف بعدئذ حسب الظروف. كانت هذه الطريق المعزولة هي التي جعلنا حفيد «أبي غوش» نسلكها. بعد أن مشينا حوالي ساعتين في دروب صعبة وتحت شمس حارقة، وجدنا خلف الجبل نبعاً صغيراً تظلله بعض أشجار الزيتون، فتوقفنا عنده. كان الموقع رائعاً؛ كنا نشرف على وادي البطم العميق القاتم الذي فيه قتل «داود» الجبّارَ الفلسطيني[1] كان وصف الموقع الذي عسكر فيه الجيشان في الوادي وفي السفح وتضاريس الأرض دقيقاً جديداً، بحيث يستحيل على العين أن تخطئه. كان الوادي الجاف الذي أخذ منه «داود» حجارته يرسم خطه الأبيض وسط الفج الضيق ويؤكد كما ورد في التوراة على انفصال الجيشين عن بعضهما. ولكن خيالي الطفلي تصور حقاً شكل الأمكنة ووقائع العهدين القديم والجديد من خلال القصص والصور التي رأيتها في الكتب المقدسة، بحيث أنني تعرفت فوراً على وادي البطم وعلى ساحة المعركة التي خاضها «شاول». عندما دخلنا الدير تأكدت من الآباء

---

١ - جالوت.

الرهبان عن صحة توقعاتي. لم يتمكن رفاقي في السفر من تصديق ذلك. وحدث لي الشيء نفسه في «صفورية» وسط تلال الجليل. لقد حدّدتُ بإشارة من إصبعي وذكرتُ اسم الجبل الذي تعلوه قلعة متهدّمة، وقلت إنه المكان المفترض الذي ولدت فيه السيدة العذراء. وفي اليوم التالي حدث لي الشيء نفسه في تحديد مكان البيت الذي سكنه «المكابيّون» في «مدين»، فعندما مررنا في سفح جبل قاحل تعلوه بقايا قناة لجر الماء، تعرفت على مقبرة آخر مواطني الشعب اليهودي، وقلت فعلاً إنني أعرفها. إن خيال الإنسان أكثر صحةً مما نتصور، إنه لا يؤسِّس دائماً على الأحلام، بل يعمل بمقاربات غريزية للأشياء والصور فتعطيه نتائج أكثر تأكيداً ووضوحاً من نتائج العلم والمنطق. ما عدا أودية لبنان وآثار «بعلبك» وضفاف «البوسفور» في «القسطنطينية» والمشهد الأول لـ «دمشق» من أعلى سلسلة جبال «لبنان»، لم أصادف تقريباً أي مكان أو أي شيء إلا وكانت رؤيتي الأولى له ذكرى. هل عشنا مرتين أو ألف مرة؟ ألم تكن ذاكرتنا مرآة باهتة نفثت فيها روح الله الحياة؟ أو هل حصلنا، في خيالنا، على قدرة الاستشعار والنظر قبل أن ننظر فعلاً؟ إنها لمسائل عويصة.

في الساعة الثانية بعد الظهر، نزلنا السفوح الوعرة لوادي البطم، ومشينا في المجرى الناشف للنهر، وصعدنا درجاً محفوراً في الصخر إلى قرية «القديس يوحنا المعمدان» العربية التي نراها الآن أمامنا.

كانت عيون العرب القاسية تنظر إلينا من أعلى السطوح، وكان الأطفال والنساء يتهافتون علينا من الأزقة الضيقة في القرية؛ وذُعر الرهبان من الجلبة التي رأوها من سطوح ديرهم، ومن عدد خيولنا ورجالنا، ومن الطاعون الذي نحمله لهم، فرفضوا أن يفتحوا أبواب الدير الحديدية. فعدنا أدراجنا، وخيّمنا على التلة المجاورة للقرية، ولعنّا قساوة قلوب الرهبان. وأرسلت مترجمي يفاوضهم مرة ثانية ويعبّر لهم عن ملامتي لهم. أثناء ذلك نزل جميع سكان القرية من فوق السطوح، وأحاط بنا الشيوخ، واختلطت أصواتهم بصهيل خيولنا المذعورة، ودبت الفوضى في قافلتنا، فلقّمنا بنادقنا. وصعد

حفيد «أبي غوش» إلى سطح أحد البيوت المجاورة للدير، وخاطب الرهبان وسكان القرية معاً. ثم تنازل الرهبان ودخلنا إلى الدير، وانفتح أمامنا باب حديدي صغير، فدلفنا واحداً بعد الآخر بعد أن حنينا ظهورنا؛ وأنزلنا أحمال خيولنا التي أدخلناها بعدنا. وبقي حفيد «أبي غوش» وفرسانه العرب في الخارج وعسكروا أمام الباب. وامتقعت وجوه الرهبان واضطربوا وارتجفوا عندما لامسونا؛ فأكدنا لهم بأغلظ الإيمان أننا لم نلامس أي شخص منذ خروجنا من «يافا»، وأننا لن ندخل إلى «القدس» طالما أقمنا في الملجأ الذي أعارونا إياه. بعد أن أكدنا لهم ذلك، استعادت الوجوه المكفهرّة هدوءها. فأدخلنا الرهبان إلى ممرات الدير الواسعة، واقتادوا كل واحد منا إلى غرفة صغيرة فيها سرير وطاولة، غرفة مزينة ببعض الصور الدينية الإسبانية. وسمحوا لجنودنا وللعرب الذين معنا ولخيولنا أن يقيموا في بستان غير مزروع تابع للدير. وألقي بأكياس الشعير والتبن من فوق السور، وفي الشارع ذُبحت لنا الخراف ونُحر عجل أرسله «أبو غوش» كهدية. وبينما كان طاهينا العربي يحضّر مع الإخوة الخدم طعامنا داخل مطبخ الدير، ذهب كل واحد منا إلى غرفته التي هب عليها نسيم الجبال ليأخذ قسطاً من الراحة، أو ذهب ليمتّع نظره في جوار الدير.

إن دير «القديس يوحنا» القائم في الصحراء تابع لدير الأرض المقدسة اللاتيني في «القدس». فالرهبان المسنّون والعليلون الذين يرغبون في القيام برياضات روحية معمقة يصبحون من الرهبان الذين فضّلوا إرادياً الحياة الرهبانية الجماعية، هؤلاء كانوا يرسلون إلى هذا الدير الكبير والجميل المحاط بالبساتين التي حفرت في الصخر، والذي يحتوي على باحات عديدة ومعاصر لصنع نبيذ «القدس» اللذيذ. كان في الدير حوالي عشرين راهباً عندما وصلنا؛ وكان معظمهم من الإسبان المسنين الذين أمضوا أكبر قسط من حياتهم وهم يمارسون وظيفة كهنة الرعايا، في «القدس» أو «بيت لحم» أو في المدن الفلسطينية الأخرى. وكان بعضهم يعملون سنة الابتداء ووصلوا مؤخراً من أديارهم في «إسبانيا». وتركت الأيام الثمانية أو العشرة التي قضيناها معهم، أطيب

الأثر عن سلوكهم ومحبتهم وطهارة حياتهم. وكان الأب الرئيس النموذج المكتمل للفضائل المسيحية: من بساطة، ودعة، وتواضع، وصبر لا ينضب، وتأدب لطيف، وغيرة مناسبة دائماً، واهتمام دائم بالإخوة والأغراب دون النظر إلى مقامهم أو ثروتهم، بالإضافة إلى الإيمان الطبيعي العملي والتأملي في آن، والسكينة في الطباع والأقوال والوجوه التي لا يمكن أن تبدّلها أية معاكسة إطلاقاً. إنه مثل من الأمثال النادرة عمّا يستطيع أن ينتجه كمال المبدأ الديني حول النفس البشرية: إن الإنسان لم يعد موجوداً إلا في صورته المرئية، وإن النفس تتحول إلى ما هو فوق البشري، وإلى ما هو ملائكي، وإلى ما هو مؤلّه، وإلى ما ينأى عن الإعجاب، ولكنّه يسعى إليه. تأثرنا نحن أيضاً كأسياد وخدم، كمسيحيين ومسلمين بقداسة هذا الراهب الخارق التي انتقلت إلى الآخرين؛ ذلك أن روحه بدت وكأنها انصبّت على جميع الآباء والإخوة في الدير، إذ إننا وبدرجات متفاوتة أعجبنا بأن مزايا هذا الرئيس انتقلت إلى الآخرين، وترك عندنا دير المحبة والسلام هذا ذكرى لا تُمحى. إن الحياة الرهبانية، في الوقت الذي عشناه، قد صدمت دائماً ذكائي وعقلي، ولكنّ رؤيتي دير «القديس يوحنا المعمدان» قد رفعت هذه الصدمة؛ ومع أن ذلك كان استثناء، وخالف الطبيعة والعائلة والمجتمع، فإنه استطاع أن يكون مؤسسة يمكن تبريرها. إن أديار الأرض المقدسة ليست هكذا، فهي مفيدة للناس لأنها تستضيف الحجاج الغربيين، ولأنها تعطي مثالاً على الفضائل المسيحية التي تعرضها على الناس الذين يجهلونها، وأخيراً لأنها تخلق وشائج بين بعض مناطق الشرق وبين الأمم الغربية.

أيقظَنا الرهبان في بداية المساء وأخذونا إلى غرفة الطعام التي حضّر فيها خدامهم وخدامنا الطعام. وكان كما في جميع الأيام التي قضيناها في الدير كناية عن عجّة، وعن قطع من لحم الضأن غُرزت في أشياش وشويت بالنار، وعن أرزّ طبخ بالعصفر. وقدّموا لنا في أول طعام تناولناه عندهم نبيذاً أبيض رائعاً مصنوعاً من كروم المنطقة، وهذا هو النبيذ الوحيد المعروف في «اليهودية». وكان رهبان الصحراء في دير

«القديس يوحنا المعمدان» هم الوحيدون الذين يعرفون استقطاره، ويوردّون منه إلى جميع أديار «فلسطين»، فاشتريت منهم برميلاً صغيراً أرسلته إلى «أوروبا». وأثناء الطعام كان جميع الرهبان يتجولون في غرفة الطعام ويكلّمنا كلّ بدوره؛ وحرص رئيس الدير على ألا ينقصنا شيء، وخدمنا بيديه عدة مرات، وذهب إلى خزائن الدير ليجيء بالمشروبات والشوكولاته والسكاكر التي وصلته على ظهر السفينة الأخيرة التي قدمت من إسبانيا. وبعد العشاء، صعدنا مع الرهبان إلى سطوح الدير، وهنا كان الرهبان قد اعتادوا التنزه أثناء انتشار الطاعون، وبقوا معتكفين غالباً في ديرهم أثناء شهور طويلة من السنة.

تقع قرية القديس «يوحنا الصحراوي» على أكمة تحيط بها من كل جانب أودية عميقة ومظلمة لا يُرى قاعُها. إن سفوح هذه الأودية التي تطلّ عليها نوافذ الدير منحوتة في الصخر الرمادي الذي تستند إليه والذي يهبط بشكل شاقولي تقريباً. وتخترق هذه الصخور كهوفٌ عميقة حفرتها الطبيعة وعمّقها الرهبان المتوحدون في القرون الأولى كي يعيشوا فيها حياة النسور والحمام. وعلى السفوح القليلة الانحدار رأينا هنا وهناك بعض الكروم التي تتسلق جذوع أشجار التين الصغيرة، وتنزل من ثمّ زاحفة على الصخر. هذا هو شكل هذه الأماكن المقفرة. وتغطي المنظر كله صبغة رمادية تتخللها بقع خضراء وصفراء. من سطح الدير، يطل المرء على جروف لا قاع لها؛ وتتفيأ بظلال الدير بعض البيوت العربية التابعة لمسلمين ومسيحيين وتتجمع فوق الصخور. من هؤلاء العرب يعترفون بسلطة «أبي غوش»؛ واسمه يجعل الرهبان يمتقعون خوفاً. ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف استطعنا أن نجذبه إلى جانبنا كي يستقبلنا ويخصص لنا حفيده كدليل. لقد استرابوا في وجود شيء في الدهاء الدبلوماسي، ولم يتوقفوا عن طلب حمايتهم منه. وعدنا عندما حلّ الليل وأمضينا السهرة في ممشى الدير نتجاذب فيها أطراف الحديث مع رئيس الدير ومع رهبانه الإسبانيين الطيبين. لم تنفذ إليهم أية أخبار عن أوروبا من وراء تلك الجبال المنيعة. فاستحال عليهم أن يفهموا شيئاً من

الثورة الفرنسية الجديدة. وقالوا مختتمين حديثنا إليهم: «عسى أن يبقى ملك فرنسا ملكاً كاثوليكياً، وعسى أن تستمر فرنسا في حماية أديار الأرض المقدسة، وكل شيء على أحسن ما يرام». أزارونا كنيستهم، وهي كنيسة صغيرة وجميلة بُنيت في المكان الذي ولد فيه «يوحنا المعمدان»، ويُزينها الأرغن، بالإضافة إلى العديد من اللوحات السيئة الخاصة بالمدرسة الإسبانية.

في اليوم التالي لم نستطع مقاومة الرغبة في إلقاء نظرة على الأقل إلى «القدس».

واتفقنا مع الرهبان على ما يلي: نُبقي في الدير عدداً من رجالنا وخيولنا وأمتعتنا، ونأخذ معنا خيالة «أبي غوش» والعساكر المصريين والخدم العرب الذين سيهتمون بخيولنا، واشترطوا علينا أن نحاذي المدينة دون الدخول إليها وأن نتجنب الاحتكاك بالسكّان، وفي حال تمّ هذا الاحتكاك لسبب ما، فإننا نفقد كل حق في العودة إلى الدير، فنُخرج منه رجالنا وأمتعتنا، ونُخيم عندئذٍ في ضواحي «القدس». وعندما قبلنا بهذه الشروط وكفيلنا كان فقط قولنا وصدقنا غادرنا.

القدس

في ٢٨ تشرين الأول، انطلقنا في الساعة الخامسة صباحاً من صحراء القديس يوحنا المعمدان انتظرنا حلول الفجر ونحن على صهوات جيادنا وفي ساحة الدير ذات الأسوار العالية، كي لا يتمّ أي تلامس بيننا في الظلام وبين السكان العرب والأتراك المصابين بالطاعون في القرية وفي بلدة بيت لحم. وفي الخامسة والنصف بدأنا المسير. صعدنا جبلاً مليئاً بالصخور الرمادية الهائلة الحجم والمتراكمة فوق بعضها كما لو أن فأساً قد كسّرتها. كانت هناك بعض الكروم المعرّشة التي جعل الخريف أوراقها تصفرّ، وكانت تجرّ قاماتها في حقول صغيرة مستصلحة بين الصخور وأكوام الحجارة الهائلة الشبيهة بتلك التي تكلّم عنها سفر «نشيد الأناشيد»؛ وكانت هناك أيضاً أشجار تين

تعرّت قممها من الأوراق، وتداخلت مع الكروم وتركت ثمارها السوداء فوق الصخور. وعلى اليمين امتدت صحراء القديس يوحنا المعمدان التي سُمع فيها ذلك «الصوت الهاتف من البرية»، كانت تحتنا كهاوية سحيقة واقعة بين خمسة أو ستة جبال سوداء، ولمحنا من بين قممها الصخرية أفق بحر مصر يغطيه ضباب داكن. وإلى اليسار وعلى مقربة منا، ظهرت أطلال برج أو قلعة قديمة قابعة فوق أكمة شاهقة، وكانت جرداء ككلّ ما يحيط بها. ورأينا بعض الأوابد التي تشبه أقواس قناة معلقة تنحدر من تلك القلعة. وعلى سفح الجبل تعرشت بعض الدوالي على هذه الأقواس، وأضفت إليها أقواساً من الخضرة الصفراء والشاحبة؛ ونَمتْ بين تلك الأطلال بعض أشجار البطم. إنها قلعة «مدين» أو قبر آخر «المكابيين» الشجعان الذين ذكرتهم التوراة.

تركنا خلفنا هذه الخرائب التي سطعت عليها أشعة الشمس في الصباح. ولا تذوب هذه الأشعة كما في أوروبا في الضياء الغامض المبهم. ولكن ضياءها كان ساطعاً وشاملاً. كانت تنطلق من أعالي الجبال التي تخفي عنّا مدينة «القدس»، كأنها سهام نارية متعددة الألوان تجتمع في مركزها وتنتشر في السماء كلّما ابتعدت عنها؛ كان بعضها أزرق يميل إلى الفضي، وبعضها الآخر ناصعاً دون لمعان؛ وكانت بعض الأشعة وردية وادعة تشحب في نهاياتها، وبعضها ذا لون ناري متّقد وحار كأنه ألسنة اللهيب. وعلى اختلاف ألوانها المدرجة كانت هذه الأشعة متناغمة، وتشبه قوس قزح رائع تنكسر دائرته في جلد السماء وتنتشر في الجو. هذه هي المرة الثالثة التي تجلّى لنا فيها مشهد الفجر ومغيب الشمس بهذه الروعة، منذ أن وصلنا إلى جبال الجليل واليهودية. إنهما الفجر أو المساء كما تصورهما المصورون القدامى، إنهما صورة تبدو خاطئة لمن لم يشهد الحقيقة. كلّما صعد النهار، كلما خفّ هذا الضياء الخاص وهذا اللون السماوي الملتهب المنبعث من تلك الجبال الضوئية، وكلما ذاب في ضياء الأثير العام. أما القمر الذي كان فوق رؤوسنا وردياً وناريأ، فانحسر واتخذ لوناً صدفياً

وغاص في السماء كقرص فضي شحب لونه كلّما انحدر في المياه العميقة.

بعد أن صعدنا جبلاً ثانياً، أعلى وأجرد من الجبل الأول، انفتح الأفق فجأة نحو اليمين ورأينا الحيّز الممتد من آخر قمم جبل اليهودية[1] التي كنا فوقها إلى السلسلة الجبلية العالية في صحارى العرب. وكان هذا الحيّز مغموراً بالنور المتوّج والمضبّب في الصباح؛ وبعد التلال الصغرى التي كانت تحت أقدامنا والتي كانت تحززها جلامد الصخور الرمادية المتصدّعة، لم نرَ شيئاً من ذلك المجال المبهر الشبيه بالبحر الفسيح، سوى الوهم الذي استحوذ علينا، وسوى ظننا أننا نميّز بين تلك الجلامد الداكنة وبين تلك البقع غير اللامعة والفضية، وسوى أن النهار الجديد يلمع أو يدكن فوق بحر هادئ.

على ضفاف هذا اليمّ المتوهم، وعلى يسار الأفق، وعلى مسافة فرسخ منّا، كانت الشمس تسطع على برج مربّع، وعلى مئذنة سامقة، وعلى الأسوار العريضة الصفراء التي تحيط ببضعة صروح تكلل قمة تلّة منخفضة أخفت قواعدها عنا؛ ولكننا خلف قمم المآذن، وخلف بعض الأسوار العالية التي تكللها الحزّيات، وخلف القمم السوداء والزرقاء التابعة لقُباب تتهدّل وراء البرج والمئذنة الكبرى، تعرّفنا على مدينة لم نستطع أن نكتشف إلا جزأها العلوي، مدينة تنساب على سفوح التلة، لم تكن إلا مدينة «القدس». ظننّا أننا ما زلنا بعيدين عنها، ولم يجرؤ واحد منّا على طرح السؤال على الدليل خشية الوقوع في الوهم، ولكننا كنا نتمتع صامتين بتلك النظرة الخاطفة على المدينة التي كان كل شيء فيها يوحي لنا بأن اسمها هو «القدس». كانت هي! وبرزت بلونها الأصفر الداكن غير اللامع وبخلفية زرقاء سماوية وبخلفية سوداء أدركت أنها «جبل الزيتون».

أوقفنا خيولنا لنتأملها في ذلك التجلي السّري والباهر. عند نزولنا الأودية العميقة والداكنة التي كنّا ندوسها، كانت كل خطوة نخطوها تخطفها ثانيةً عن عيوننا؛ خلف

---

١ - يستخدم المؤلف التعابير والتسميات التوراتية. و«اليهودية» هي جبال الجليل و«السامرة» هي الضفة الغربية.

أسوار «القدس» العالية وقبابها المنحدرة، انتصبت أمامنا تلّة فسيحة أكثر قتامة من تلك التي كانت تحمل المدينة وتخفيها في آن. كانت هذه التلّة الثانية تنهي الأفق أمامنا وترسم حدوده. وكانت الشمس تترك في الظل خاصرتها الغربية، ولكنها تصب أشعتها العمودية فوق القمة، فتبدو وكأنها قبّة فسيحة، فتشعل قمتها الشفافة بالضياء. ولم نتبين الحدود الغامضة بين الأرض والسماء إلا من خلال بضع شجيرات كبيرة سوداء مغروسة على القمة الأكثر علواً التي كانت تنيرها الشمس بأشعتها. كان ذلك الجبل جبل الزيتون، وكانت تلك الأشجار أشجار الزيتون نفسها التي شهدت منذ القدم تلك الأيام التي انكتبت على الأرض والسماء والتي ارتوت بالعبرات الإلهية وبالعرق الناضح والدم المسفوك وبالدموع وقطرات العرق الكثيرة التي جعلها الليل دموعاً وقطرات مقدسة. وتراءت لنا أيضاً أشجار زيتون أخرى شكلت بقعاً سوداء على سفوح التلة؛ ثم أتت أسوار «القدس» لتشق الأفق ولتخفي أخمص الجبل المقدس. أما قربنا وتحت أبصارنا مباشرة فلم يكن سوى قفر من الحجارة يشق الطريق نحو مدينة الصخر. كانت هذه الجلامد المنصهرة ذات اللون الرمادي الداكن تمتد دون انقطاع من حيث كنا إلى أبواب «القدس». وانخفضت التلال وارتفعت، واستدارت الأودية الضيقة وتعرّجت جذورها، ونهضت بعض الآكام هنا وهناك كأنها تحتال على عين الإنسان فتعده بالخضرة والحياة؛ ولكن كل شيء كان حجارة وتلالاً وأودية وسهولاً: كانت هناك طبقة من الصخور المنصهرة يبلغ سمكها عشرة أو اثني عشر قدماً تتخللها فراغات تتيح الفرصة للزواحف أن تمضي، أو تكسر أفخاذ الإبل إن غرّزت فيها. فلنتخيّل الأسوار الحجرية الهائلة كأسوار مدرج «الكولوزيوم» أو المسارح الرومانية الكبرى وهي تنهار دفعة واحدة فتملأ بركامها الأرض التي كانت تنتصب فوقها، عندئذٍ نكوّن فكرة دقيقة عن طبقة وطبيعة الصخور التي ملأت من كل جانبٍ الأسوار الأخيرة لمدينة الصحراء. كلما اقتربنا، كلما تهافتت الحجارة وتكتلت وارتفعت ككتل ثلجية خالدة تستعد لابتلاع المسافرين. الخطوات الأولى التي خطوناها قبل أن نكتشف مدينة «القدس» انحفرت

وسط درب جامد وجنائزي بين تلك الصخور التي ترتفع عشرة أقدام فوق هامات المسافرين، ولا تترك للعين إلا أن ترى قسم السماء الذي فوقها. كنّا نتقدم في ذلك الدرب الأخير الموحش منذ ربع ساعة، وفجأة انزاحت عنّا الصخور ذات اليمين وذات الشمال، وإذا بنا أمام أسوار «القدس» التي كنّا نلامسها دون أن نشعر بها.

كانت تفصلنا عن باب «بيت لحم» مسافة فارغة تمتد بعض مئات من الخطوات. وكانت هذه المسافة القاحلة والمتموجة أشبه بكتل الجليد البعيدة المحيطة بالساحات الكبرى عندنا في أوروبا، وكانت مقفرة مثلها، وتنفتح من جهة اليمين وتنشقّ بينها لتفضي إلى وادٍ ضيّق ينساب انسياباً لطيفاً، ومن ناحية الشمال كانت تنغرز فيه خمسة جذوع لشجرات زيتون انحنت تحت ثقل السنين والشموس؛ وكانت الحجارة مجلمدة إلى حدّ ما كتلك الحقول البور التي خرجت منها بصعوبة. وانتصب أمامنا باب «بيت لحم» ببرجيه المكللين بالحَزّيات القوطية، ولكنه كان مقفراً وصامتاً كأبواب القلاع القديمة المهجورة عندنا.

بقينا بضع دقائق واجمين نحدّق في الباب، ومتحرقين لتجاوزه، ولكن الطاعون كان على أشده في «القدس»؛ ولم يستقبلنا دير القديس يوحنا المعمدان في الصحراء إلا لأننا قطعنا وعداً صريحاً بألا ندخل المدينة، فلم ندخلها إذن. وانحدرنا من جهة اليسار و بتوءدة هبطنا المنطقة المحاذية للأسوار، وكانت مبنية على ظهر وادٍ سحيق لمحنا من خلاله أحجار الأساس التابعة لسور «هيرودوس» القديم. ومررنا قرب المقابر التركية المطلية بالكلس والتي تعلوها العمائم، وكانت تنفتح كل ليلة لتستقبل ضحايا الطاعون، وفوقها اجتمعت النساء التركيات والعربيات يبكين أزواجهن وآباءهن. وغرست فوق بعض القبور خيام أوت إليها سبع أو ثماني نساء كن جالسات أو مقرفصات يرضعن أطفالهن الجميلين، وكن من وقت لآخر يندبن معاً ويصلّين ويرددن الابتهالات الجنائزية التي تمتد بأساها فتغطي المشهد الكئيب الذي رأيناه. لم يكنّ

محجبات، وعلى بعضهن رونق الشباب والجمال؛ وقربهن كانت سلال مليئة بالأزهار الاصطناعية الزاهية الألوان فيغرسنها حول القبور ويسقينها بدموعهن. وأحياناً كن ينحنين نحو الثرى الذي انفتح مؤخراً ويناجين الأموات بآيات يرددنها كأنهن كن يخاطبنهم بصوت منخفض. ثم يصمتن منتظرات سماع الجواب. ودلّت مجموعات النساء والأولاد التي قدمت لتبكي هنا طيلة النهار، على وجود للحياة وللبشر، لمسناها أثناء تجوالنا حول الأسوار. وما عدا ذلك لم نسمع أي صوت آخر ولم نر أي دخان يرتفع، بعض الحمائم التي كانت تطير من أشجار التين وتحط على حزيات الأسوار، ومن الحزيات إلى ضفاف البرك المقدسة شكّلت الحركة الوحيدة والهمسة الوحيدة لهذه الأسوار الصامتة والمقفرة.

وفي منتصف الطريق المؤدي إلى وادي «قدرون» وفي أسفل «جبل الزيتون» رأينا مغارة عميقة مفتوحة قابعة تحت أكمة من الصخر المصفرّ ليس بعيداً عن مصارف المدينة. لم أشأ أن نتوقف عندها، إذ أردت أن أعاين «القدس» أولاً، «القدس» دون سواها، «القدس» بكاملها، من خلال مشهد واحد يشمل أوديتها وتلالها، ويشمل وادي «يوشافاط» و«قدرون»[1] وهيكلها وكنيسة القيامة وأطلالها وأفقها.

ثم مررنا أمام «باب العمود» (باب الشام)، وهو صرح عربي جميل يحيط به برجان ويتوسطه قوس عريض عالٍ وأنيق تعلوه حزيات عربية بشكل عمائم. ثم انعطفنا نحو اليمين باتجاه زاوية أسوار المدينة التي تشكّل مربعاً منتظماً. وعلى يسارنا رأينا وادي «جتسماني» العميق والمظلم الذي ينحدر جافاً إلى «قدرون»، ثم تابعنا المسير إلى باب «القديس اسطفانوس»، وحاذينا السور فوق درب ضيق اعتورته بركتان جميلتان شفى المسيح في إحداهما الرجل المقعد. ويطل هذا الدرب المعلّق على منخفض «جتسماني» وعلى وادي «يوشافاط»؛ وعند باب «القديس اسطفانوس» انقطع الدرب

١ - يوشافاط هي قرية شعفاط العربية، ووادي قدرون هو وادي النار.

٢ - هذا التأكيد عن موقع الهيكل وكونه في مكان قبة الصخرة لم تثبته لاحقاً حفريات ووقائع ومعطيات ودراسات واستنتاجات علمية بصورة نهائية. وسليمان بن داود هو الذي يُنسب إليه بناء الهيكل الأول في القدس، بناه - إن صح أنه بناه أصلاً - على أنقاض قلعة اليبوسيين «: حصن صهيون - أي الأرض المرتفعة باللغة الكنعانية».

عندما بدأت الجروف التي كانت تحمل هيكل «سليمان» وتحمل اليوم قبة الصخرة؛[٢] ثم انحدرت وهدة فجأة نحو اليسار واتجهت إلى «قدرون» وأفضت إلى «جتسماني» وإلى بستان الزيتون. اجتزنا الجسر وترجلنا عن خيولنا لنشاهد صرحاً جميلاً ذا عمارة متنوعة ولكنه بطابع قاسٍ وعتيق كأنه مدفون في قاع وادي «جتسماني» ويحتّل حيّزها. إنه القبر الافتراضي للعذراء، أم المسيح: وهو مقام يملكه الأرمن الذين فتك الطاعون بأديارهم أكثر من غيرهم. لم ندخل إلى المقام إذن، واكتفيت بأن جثوت على درجة رخامية من درجات الباحة التي تتقدم هذا المقام الأنيق، وتضرعت إلى التي تتضرع إليها في الصباح الباكر كلُ أم تصلي بحرارة من أجل ابنها الغالي.

عندما نهضت رأيت خلفي مساحة صغيرة من الأرض تلامس من جهة الضفة العليا لوادي «قدرون»، ومن الجهة الأخرى قاعدة جبل الزيتون، ويحيط بها حائط صغير دون ملاط، وتغطيه ثمان من أشجار الزيتون متباعدة أربعين قدماً عن بعضها وتفرش ظلالها على المساحة كلها تقريباً. وتُعتبر هذه الأشجار من أقدم أشجار الزيتون التي رأيتها في حياتي، ويقول التقليد إن عمرها يعود إلى التاريخ الشهير الذي احتضر فيه الإنسان الإله واختاره ليخفي هواجسه الإلهية. ويؤكد شكلُها على ضرورة التقليد الذي يقدسها، فقد قلبت جذورها الهائلة والضاربة في القدم الأرض والحجارة التي تغطيها، وصار بمقدور الحجاج أن يجلسوا وأن يركعوا ويتأملوا في الكلمات القدسية التي تهبط من قمم الأشجار الصامتة. وكان هناك ساق شجرة مليء بالعقد والأخاديد أضفاه عليها القدم والتغضنات العميقة، كان يرتفع كعمود ضخم ينتصب فوق تلك الجذور، وكأنه مثقل بعبء الأيام، وكان يميل ذات اليمين وذات اليسار ويترك أغصانه الهائلة المتداخلة تنحني، علماً بأن الفأس قد عرفت طريقها إليها لتجدد شبابها. كانت هذه الأغصان القديمة والثقيلة المنحنية حول الساق تحمل أغصاناً أكثر شباباً بزغت قليلاً نحو السماء، ومنها انبعثت بعض فروع عمرها سنة أو سنتان، وتحيط بها مجموعات من الأوراق، وتتخللها بعض حبّات من الزيتون الأخضر المائل إلى السواد

سقطت كذخائر سماوية مقدسة تحت أقدام الرحالة المسيحيين.

ابتعدت عن القافلة التي بقيت حول قبر العذراء، وجلست برهة عند جذور شجرة الزيتون الوحيدة الأكثر قدماً؛ وكان ظلها يخفي عني أسوار «القدس»، وساقها الهائلة تبعدني عن أبصار الرعيان الذين كانوا يرعون أغنامهم السوداء على مشارف جبل الزيتون. ولم أكن أبصر أمامي إلا وادي «قدرون» العميق والمتمزق وبعض قمم أشجار الزيتون الأخرى التي تغطي هذا الجانب من وادي «يوشافاط». لم يخرج من قاع الوادي الجاف أي صوت ولم ترتعش أية ورقة فوق الشجرة؛ أغمضت عيني لحظةً، وعدت في فكري إلى تلك الليلة التي سبقت فداء الجنس البشري والتي شرب فيها المرسل الإلهي من كأس النزع الأخير قبل أن يموت على يد البشر لقاء رسالته الإلهية. وطلبت نصيبي من هذا الخلاص الذي أتى الفادي ليبذله لهذا العالم؛ وتصورتُ بحر القلق الذي أغرق قلب ابن الإنسان عندما لمح بطرفة عين جميع التعاسات وكافة الظلمات وكل المرارات وجميع الأباطيل والمظالم في قدر الإنسان؛ وذلك عندما شاء أن يرفع وحده ثقل الجرائم والمآسي التي تثقل كاهل البشرية كلها التي تئن في وادي الدموع الضيق هذا، وعندما أدرك أنه لن يستطيع أن يقدم للإنسان ولو حقيقةً واحدة أو عزاءً جديداً إلا بإهراق حياته، عندما تراجع خوفاً من ظل الموت الذي أحسه وشيكاً فقال لأبيه: «أبعد عني تلك الكأس!» أما أنا الإنسان البائس والجاهل والضعيف فأستطيع أن أهتف إذن على قدم شجرة الضعف البشري: يا ربّ أبعد عني جميع تلك الكؤوس المرّة ولتهرق من أجلك في تلك الكأس التي شربتها عنّا جميعاً! هو استطاع أن يشربها حتى الثمالة، كان يعرفك ورآك؛ وكان يعلم لماذا سيشربها، وكان يعلم أن الحياة الخالدة كانت تنتظره بعد القبر بثلاثة أيام؛ أما أنا يا رب فما أدراني! إن الألم يفطر قلبي ولكنني آمل كما علمني هو.

نهضتُ وأعجبتُ جداً بذاك المكان الذي حدده الله واختاره ليكون مسرحاً أليماً لأوجاع الإنسان الإله. كان الوادي ضيقاً ومحصوراً وعميقاً؛ وتسده من الشمال

مرتفعات قاتمة وجرداء تحمل مقابر الملوك، وتظلله من الغرب جدران قاتمة وهائلة لمدينة ظالمة، ومن الشرق تغطيه قمة «جبل الزيتون»، ويجتازها سيل يصب ماءه المرّ والمصفرّ فوق الصخور المهمشة في وادي «يوشافاط». وعلى بعد خطوات من المكان انفصلت صخرة سوداء عارية، كأكمة، على سفح الجبل وأطلت على «قدرون» والوادي، وكانت تحمل عدداً من قبور الملوك والأنبياء، وكانت حجارتها الضخمة منحوتة حسب هندسة غريبة وتمتد كجسر الموت فوق وادي الدموع.

في ذلك الوقت كانت سفوح «جبل الزيتون» التي أصبحت اليوم شبه قاحلة تُروى بماء البركة والسيول المنحدرة إلى وادي «قدرون». وكانت بساتين الرمان والبرتقال والزيتون تغطي بظلالها الكثيفة وادي «جتسماني» الضيّق الذي انحفر كعش من الآلام في قصر وادي «يوشافاط» المنحسر والمظلم. يستطيع أن يختبئ فيه إنسان الخزي والألم كمجرم ويختفي بين جذور تلك الأشجار وبين صخور السيل ويتبخر تحت ظلال المدينة والجبل والليل؛ كان بوسعه من مكانه هذا أن يسمع الخطوات السرية لأمه وتلاميذه، الخطوات التي تمرّ على الدرب بحثاً عن ابنها أم معلّمهم؛ كان بوسعه أيضاً أن يستمع إلى الأصوات المبهمة والهتافات الحمقاء المنطلقة من المدينة والمتعالية فوق رأسه، حتى يفرح لأنه انتصر على الحقيقة وطارد العدل؛ كان بوسعه أيضاً أن يستمع إلى تنهدات وادي «قدرون» الذي تتحرك أمواجه تحت قدميه، والذي سيرى عما قريب مدينته مقلوبة رأساً على عقب ومنبعه تخرّبه أمّة آثمة وغاشمة. أكان بمستطاع «المسيح» أن يجد مكاناً آخر لدموعه أفضل من هذا المكان؟ أكان بمستطاعه أن يسقي بعرق دمه أرضاً فلحتها الرزايا وسقتها الأحزان وتشربتها التأوهات أفضل من هذه الأرض؟.

كنت ممتطياً حصاني، التفت كل لحظة حواليّ لأرى المزيد من هذا الوادي ومن هذه المدينة؛ وصعدتُ «جبل الزيتون» بربع ساعة، وكلما كنت أصعد بحصاني على الدرب الذي يفضي إليه كنت أكتشف حياً أو صرحاً آخر في «القدس». وصلت إلى قمة الجبل المكلّلة بمسجد متهدم يغطي المكان الذي صعد منه السيد المسيح إلى السماء بعد

قيامته، وعرّجت قليلاً نحو يمين المسجد ثم وصلت قرب عمودين مكسّرين منبطحين أرضاً تحت بعض جذوع الزيتون، ومن هناك أبصرت «القدس»، و«صهيون»، ووادي «القديس سابا» المؤدي إلى البحر الميّت، وأبصرت البحر الميت نفسه يلتمع هناك بين قمم الجبال وبين الأفق الفسيح الذي تتخلله قمم شتى تفضي إلى جبال الجزيرة العربية. هنا جلست ، وتراءى لي المشهد كالتالي:

«جبل الزيتون» الذي أجلس على قمته ينزل كالجرف نزقاً وسريعاً إلى الهاوية العميقة التي تفصله عن «القدس» والتي تسمّى وادي «يوشافاط». في مقر هذا الوادي المظلم والضيّق الذي تنزرع الحجارة السوداء والبيضاء في جنباته (حجارة الموت الجنائزية)، ترتفع تلّة كبيرة وواسعة تنحني كما ينحني سور متهدّم؛ ولا تستطيع أية شجرة أن تغرس جذورها فيه ولا تقوى الطحالب أن ترمي عليه تعرشاتها؛ كان جرفه مستقيماً بحيث تتهاوى منه الحجارة دون انقطاع فلا ترى منه العين إلاّ غباراً قاحلاً وناشفاً يشبه قطع الرماد التي ترمى من أعلى المدينة. وفي منتصف هذه التلّة أو هذا السور الطبيعي بزغت أسوار عالية وصلبة من الحجارة الضخمة غير المنحوتة تخفي الأساسات الرومانية والعبرانية خلف الرماد الذي يغطي أسفلها والتي ترتفع هنا مائة قدم وهناك مائتي قدم فوق تلك القاعدة الترابية. تتخلل سور المدينة ثلاثة أبواب، بينها اثنان موصدان معمّيان، وكان الباب الوحيد المفتوح أمامنا يبدو مقفراً كأنه لا يفضي إلى مدينة مأهولة. وترتفع الأسوار فوق تلك الأبواب وتشكل ساحة فسيحة تشغل ثلثي طول مدينة «القدس»، هذا بالنسبة للناظر إلى الشرق. قد يبلغ طول هذه الساحة ألف القدم وعرضها خمسمائة أو ستمائة قدم، وتسطيحها كامل تقريباً، ما عدا الفجوة التي تحتل الوسط منها، كأنها لتذكّر العين بوجود وادٍ قليل العمق كان يفصل في الماضي بين رابية «صهيون» ومدينة «القدس».

هذه الساحة الرائعة التي صنعتها الطبيعة على الأرجح والتي استكملتها يد

١ - يقصد إسلاميين، فالكلام عن الأتراك غالباً ما يعني «عند الغربيين» الكلام عن المسلمين.

الإنسان إنها تحمل اليوم مسجدين تركيين،[1] أحدهما، الصخرة، ويحتل وسط الساحة حيث كان يمتد الهيكل؛ ويقع الثاني في الطرف الجنوبي الشرقي للساحة ويلامس سور المدينة. أما مسجد الصخرة (أو مسجد عمر) فهو صرح رائع ذو عمارة عربية، ومبني بكتل من الحجارة والرخام بأحجام شتى، وله ثمانية أضلاع تزيّن كلّ ضلع منها سبعة أقواس تنتهي بكوة؛ ويعلو هذا الجانبَ من البناء سطحٌ ذو فسحات، ومنه تنطلق أقواس أضيق، وتعلو الكلّ قبّة أنيقة مكسوة بالنحاس، وكانت في الماضي مذهبّة. إن جدران المسجد مكسوة بقيشاني أزرق؛ وذات اليمين وذات الشمال تمتد جدران عريضة تنتهي بصفّ من الأعمدة العربية الرشيقة، وتتخلل الجدران منها ثمانية أبواب هي أبواب المسجد. وخلف العقود المنفصلة عن الصرحين تمتد ساحات، وتفضي إحداهما إلى شمال المدينة، والأخرى إلى الأسوار الوسطى منها. وبزغت أشجار سرو سامقة وأشجار زيتون وشجيرات خضراء ممشوقة نبتت بين المسجدين، فحسّنت في هندستهما الأنيقة وفي لون أسوارهما عن طريق الشكل الهرمي والخضرة الداكنة التي تنساح على واجهة المعابد والقباب في المدينة. وخلف المسجدين ومكان الهيكل، امتدّت «القدس» بكاملها أمامنا وفاضت، إن صحّ القول، دون أن تفوت العين رؤية سطح أو حجر، كأنها تنظر في مخطط مدينة ناتئ يفرده الفنان فوق الطاولة.

كما صوروها لنا، لم تكن المدينة ركاماً شائهاً وغريباً من الخرائب والرماد أقيمت فوقه بضعة أكواخ عربية ونصبت عليه بضع خيام بدوية؛ لم تكن كذلك ك«أثينا»، مدينة أنقاض وجدران مهدّمة، يبحث المسافر فيها عبثاً عن ظلال المباني وعن بقايا الشوارع وعن منظر للمدينة، بل كانت مدينة أنوار وألوان، تقدم بجلال للناظر أسوارها السليمة ذات الحزيات، ومسجدها الأزرق ذا الأعمدة البيضاء، وآلاف القباب البهية التي ينزل عليها نور شمس الخريف فيتصاعد ضباباً مُبهراً. كانت واجهات منازلها قد دهنتها الأزمان وفصول الصيف فأعطتها لوناً أصفر مذهباً كصروح مدينتي «بيستوم» (Paestum) و«روما». وكانت أبراجها القديمة التي تحرس أسوارها لا تفتقر إلى أي حجر أو كوّة أو حزية. وأخيراً وسط هذا البحر من المنازل والقباب الصغيرة التي

تعلوها والتي ينبعث منها الضباب، كانت هناك قبّة سوداء منخفضة وأوسع من القباب الأخرى تسيطر عليها قبة بيضاء أخرى: إنها قبة القبر المقدس والجلجلة. كأن المكانين متداخلان ومنصهران بين سلسلة كبيرة من القباب والصروح والشوارع المحيطة بهما؛ من الصعب أن يتبيّن المرء موقعي الجلجلة والقبر المقدس من بعيد، علماً بأن الإنجيل يشير إلى تلّة خارج الأسوار ليست وسط «القدس».

جلسنا طيلة ذلك النهار قبالة الأبواب الرئيسية للقدس، وطفنا حول الأسوار مارين أمام كل باب من أبواب المدينة. لم يكن يدخل إليها أحد، ولم يكن يخرج منها أحد، ولم يجلس المتسوّل في المنعطفات، ولم يظهر الحارس على عتبة الباب. لم نر شيئاً ولم نسمع شيئاً. كان هناك خواء واحد وصمت واحد في مدينة يسكنها ثلاثون ألف نسمة، واستمر هذا أثناء الإثنتي عشرة ساعة التي قضيناها في ذلك النهار، كما لو كنّا أمام الأبواب الميتة لمدينتي «بومبي» و«هيركولانوم»! رأينا فقط أربعة مواكب جنائزية تخرج بصمت من باب العمود (باب الشام) وتحاذي السور باتجاه المقابر التركية؛ ورأينا أيضاً في باب «صهيون»، أثناء مرورنا، ميتاً مسيحياً مسكيناً حصده الطاعون هذا الصباح وكان يحمله أربعة حفارين باتجاه المقبرة اليونانية. مروا أمامنا ومددوا جثته على الأرض. وكان يرتدي جميع ثيابه، وبدأوا يحفرون بصمت مثواه الأخير، تحت حوافر خيولنا. كانت الأرض المحيطة بالمدينة قد انفتحت مؤخراً لمدفونين آخرين ضاعف الطاعون من أعدادهم يوماً بعد يوم. أما الصوت المسموع الوحيد خارج أسوار «القدس» فكان صوت الندب الرتيب الذي كانت تطلقه النساء التركيات وهن يبكين موتاهن. لم أعلم إن كان الطاعون هو السبب الوحيد لفراغ الطرق وللصمت العميق المحيط بـ «القدس» وبداخلها. لا أظن ذلك، لأن الأتراك والعرب لا يتنكبون لجائحات الله، فهم مقتنعون بأنها ستصيبهم أينما كانوا، ولا تستطيع أية قوة أن تصدها عنهم. إنه منطق رائع من جانبهم، ولكنه يقودهم إلى نتائج وخيمة.

وعلى يسار الساحة والهيكل وأسوار «القدس»، فجأة تنحدر التلّة التي تحمل المدينة، وتتسع وتنمو على مدّ النظر في منحدرات خفيفة تحيط بها أحياناً فسحات لها

حجارة نازلة. وعلى مبعدة مائة قدم من «القدس»، وفي قمة التلة، رأيت مسجداً ومجموعة من المباني التركية التي تشبه الدساكر الأوروبية، وتكللها كنيسة وجرسيتها. إنها «صهيون»![1] إنه القصر! إنه قبر «داود»! إنه المكان الذي استمد منه نبوءاته ومسراته وحياته وراحته! إنه مكان مقدّس مرتين في نظري، لأنّ هذه الصنّاجة الإلهية كثيراً ما بلغ نياط القلوب وأدهش بنات الأفكار. إنه أول شاعر من شعراء العاطفة! إنه ملك الشعراء الغنائيين! فقبله لم تعزف الأوتار البشرية قط نغمات أرق من نغماته ولا أكثر منها تأثيراً وصدى؛ لم يسبق لفكر الشاعر قط أن حلّق عالياً ولا أن صدح بروعة. لم تفض قط روحُ الإنسان أمام الإنسان وأمام الله بكلمات وعواطف شديدة الرقة والعاطفة والأسى. إن أنات القلب البشري الأكثر سرية وجدت صوتها ونغماتها على شفتي ذلك الرجل وعلى نغمات قيثارته، وحتى إذا توغلنا في التاريخ الذي شهد أنغاماً دوّت على سطح هذه الأرض. وحتى إذا فكّرنا في الشعر الغنائي الذي تغنّت فيه الأمم بالخمرة والحب والدم وانتصارات ربّات الإلهام وسباق الجياد في ألعاب الإليد

---

١ - صهيون في اللغة الكنعانية تعني المكان المرتفع، وقلعة صهيون في القدس بناها العرب اليبوسيون وهم فخذ من الكنعانيين، وهم أول من بنى القدس وأقام فيها.. ولم يغادروها أبداً في حين خلت نهائياً من اليهود ما يقرب من ألف سنة بعد أن نفاهم منها الرومان ومنعوهم من دخولها في عهد هدريان عام مائة وثلاثين للميلاد. وأكد عدم مساكنتهم وعدم قبولهم فيها جيراناً للمسيحيين المطران صفرونيوس الدمشقي أو بطركها باسم مسيحيي القدس حين سلم مفاتيحها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتم ذلك بموجب العهدة العمرية التي وقعت في القدس، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم: «هذا ما أعطى «عبدُ الله» عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينقض منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يُضارّ أحدٌ منهم، ولا يسْكُن بإيلياء معهم أحد من اليهود(❖)، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يخرِجوا منها الرومَ واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّي بِيعَهَمْ وصُلُبهَم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعِهم وصلبِهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قَعَدَ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادُهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

(❖) شهد على ذلك:

خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة ».

(Elide)، نُنشده بالنغمات الصوفيّة التي نفثها الملكُ النبي الذي كلّم الإله الخالق كصديق يكلم صديقه، والذي فهم روائعه وامتدحها، والذي أثنى على أعماله العادلة، والذي التمس رحمته، وبدا صدىً سَبَقَ الشعر الإنجيلي، فكرر كلمات المسيح الرقيقة قبل أن يستمع إليها. يرى الفيلسوف أو الإنسان المسيحي فيه إما نبياً أو رجلاً عادياً، ولكن لا يستطيع أي منهما أن ينكر بأن «داود» شاعر ملك وُهب إلهاماً لم يعطَ لأي رجل آخر. بعد أن تقرأ الشاعرين «هوراسيوس» و«بنداروس»، حاول أن تقرأ مزموراً من المزامير. أنا شخصياً لا أستطيع ذلك.

لو عشت في «القدس»، أنا الشاعر المتواضع الذي وُجد في زمن منحطّ وصامت، لاخترت مكان إقامتي ومتّكئي الحجري في المطرح الذي اختار فيه «داود» مكانه ومتكأه في «صهيون». إنه أجمل مشهد في «اليهودية» و«فلسطين» و«الجليل». فعلى اليسار هناك «القدس» بهيكلها وصروحها التي كان بمستطاع الملك أن ينظر إليها ملياً دون أن يُرى. أمامه تمتدّ بساتين خصبة تنحدر وئيداً، وكان بوسعها أن تقوده إلى قاع الوادي الذي أحب زبده وخريره. وإلى الأسفل ينفتح المنحدر ويمتدّ مظلّلاً بأشجار التين والرّمان والزيتون: فوق صخرة من تلك الصخور المطلّة على المياه الجارية؛ وفي أحد تلك الكهوف المصوّتة التي بلّلتها أنفاس المياه وهمساتها؛ وتحت شجرة بطم كتلك التي استظل بأغصانها، كان الشاعر المقدس يجيء إلى هنا منتظراً الأنفاس التي تحرك إلهامه الرائق. عساني ألتقي به لأنشد أحزان قلبي وأحزان قلوب جميع الناس في هذا الزمن القلق، كما هو أنشد آماله في عصر الفتوة والإيمان. ولكن الأمل زال من قلوب البشر، لأنّ اليأس لا يُنشِد. وما دام أحد الأشعة الجديدة لم يهبط على البشرية المظلمة في زماننا، ستبقى الكنارات صامتة، وسيمر الإنسان دون صوت بين هاويتي الشك، دون أن يكون قد أحب أو صلّى أو غنّى! ولكنني أصعد من جديد إلى قصر «داود». إنه يحملق في وادي «يوشافاط» الذي كان مخضّراً ومروياً؛ هناك فتحة عريضة بين التلال

الشـرقية تفضـي من وهـدة إلى وهـدة، ومن قـمة إلى قمـة، ومن تمـوج إلى تمـوج، إلى حوض البحر الميت الذي تنعكس أشعة المسـاء على مياهه الثقيلة والكثيفة، على غرار البوظة الكثيفة في مدينة «البندقية» التي تعطي الضوء الذي يلامسها صبغة رصاصية غير لامعة. لم يكن هذا البحر كما نتصوره، كان بحيرة متصخّرة تمتد في أفق حزين وعديم اللون؛ ولكنها هنا بحيرة من أجمل بحيرات سويسرا وإيطاليا، تترك مياهها الهادئة تنام في ظل جبال الديار العربية الممتدة الأطراف، على غرار جبال «الألب»، فتنحني لججها وترتفع قممها الهرمية والمخروطية والخفيفة والمسنّنة التي أضاءتها جبال «يهوذا» الأخيرة. هكذا رأيت «صهيون»! ولكن لنقلب الصفحة.

هناك مشـهد آخر من منظر «القدس» أريد أن أحفره في ذاكرتي، ولكنني أفتقر إلى الريشة واللون. إنه وادي «يوشافاط»! إنه وادٍ اشتهر في تراث الأديان الثلاثة، إذ يُجمع اليهودُ والمسيحيون والمسلمون على أن يوم الدينونة الهائل سيكون فيه.

التاريخ نفسه

وعدنا دون أن ننتهك أي شرط من شروط العهد الذي قطعناه مع الرهبان، إلى دير القديس «يوحنا المعمدان» الصحراوي. فاستقبلنا بثقة وبمحبة أثرتا فينا. فلو لم نكن رجالاً لهم شرفهم، ولو أن أحد العرب الذين معنا قد أفلت من رقابتنا واحتك بأولئك الذين كانوا يحملون ضحايا الطاعون وهم قربنا، لكنّا قد جلبنا الموت ربما للدير كله.

٢٩ تشرين الأول ١٨٣٢

وانطلقنا السـاعة الخامسة صباحاً من صحراء القديس «يوحنا»، بخيولنا وحاشيتنا وبدو «أبو غوش» وأربعة فرسان أرسلهم حاكم «القدس»؛ ونصبنا خيامنا على بعد مرمى بندقية مزدوج من الأسوار، وليس بعيداً عن المقبرة التركية التي كانت مليئة بالخيام الصغيرة التي ناحت النساء تحتها. واستظل بهذه الخيام حشد من النسـاء والأطفال والعبيد، وحملت النساء معهن سلالاً من الزهور التي غرسنها حول

القبور خلال ذلك اليوم. وحدهم فرساننا النابلسيون دخلوا المدينة وأنبأوا حاكمها بوصولنا. وأثناء أدائهم الرسالة، خلعنا نعالنا وجراباتنا التي قد تلتقط الطاعون، واحتذينا بشباشب مغربية ودهنّا أجسامنا بالزيت والثوم، وهذه وسيلة اخترعتُها بعد أن رأيتُ أن تجّار الزيت وحمّاليه في «القسطنطينية» هم أقل الناس تعرضاً للعدوى. وبعد نصف ساعة خرج موكب الحاكم من باب «بيت لحم»، وفيه ترجمان دير الرهبان اللاتين وخمسة أو ستة خيالة يلبسون بزات زاهية ويحملون عصياً ذات قرابيس ذهبية وفضية ثم ظهر فرساننا النابلسيون وبعض الخدم على صهوات خيولهم. فتقدمنا للقائهم، وبعد أن شكّلوا حاجزاً حولنا دخلنا باب «بيت لحم». وكان هناك ثلاثة من ضحايا الطاعون في تلك الليلة يُحملون في ذات الوقت. وتقاسمنا الطريق مع حملة الموتى، تحت القنطرة الداكنة القائمة على مدخل المدينة. وبعد أن اجتزناها، ألفينا أنفسنا على مفرق محاط ببيوت صغيرة وبائسة، وببعض الحواكير البور التي انهارت «حبَلاتها». ثم سلكنا أعرض طريق في المفرق، فأدى بنا إلى شارعين صغيرين مظلمين وضيقين وقذرين؛ لم نر في تلك الشوارع إلاّ محامل الموتى تمر أمامنا بسرعة وتلامس الجدران عندما تسمع أصوات الانكشارية التابعين للحاكم وعندما ترى العصي مرفوعة. وأحياناً كنا نشاهد بعض بائعي الخبز والفواكه، اللابسي الأسمال، بسلالهم القائمة على ركبهم، وهم جالسون أمام دكاكينهم الصغيرة، ينادون على بضاعتهم كما يفعل الباعة عندنا في أسواق الخضار والفواكه في مدننا الكبيرة. ومن وقت لآخر كنا نلمح امرأة محجبة تظهر وراء مشربيات نوافذها، وولداً يفتح باباً منخفضاً ومعتماً يخرج ليشتري مؤونة اليوم لعائلته. كانت الشوارع مليئة بالأنقاض والأوساخ المتراكمة، وخاصة بكتل من الخرق القطنية الزرقاء التي يذريها الهواء كأوراق الشجر، والتي لم يكن بوسعنا تجنبها. هذه الأوساخ والخرق التي تملأ شوارع المدن في الشرق هي التي تنقل الطاعون أكثر من غيرها. لم نشاهد حتى الآن في شوارع «القدس» شيئاً ينبئ بوجود أمّة، ولم نر أي مؤشر على الغنى وعلى الحركة والحياة؛ لقد خدَعنا المظهر الخارجي، كما خَدَعنا مراراً في مدن «اليونان» و«سوريا». إن أفقر قرى «الألب» أو «البيرينيه»، وإن الأزقة المهملة في دساكرنا المنسية المخصصة لسكن العمال، هي أكثر

نظافة ورقياً وأناقة من هذه الشوارع المقفرة في سلطانة المدائن. لم نصادف إلا بعض الخيالة البدو الراكبين أفراسهم العربية التي كانت حوافرها تنزلق وتغوص في الحفر التي تتخلل بلاط الشوارع. ولم نر علامات النبالة والفروسية على هؤلاء الخيالة كما رأيناها لدى شيوخ العرب في «سوريا» و«لبنان». لهم وجوه متوحشة وعيون كعيون الصقور وثياب كثياب قطاع الطرق.

بعد أن تجولنا بعض الوقت في هذه الشوارع المتشابهة كلها، كان ترجمان دير اللاتين يوقفنا أحياناً لنشاهد بيتاً تركيّاً خرباً وباباً قديماً أكله السوس وبقايا نوافذ عربية، ويقول لنا: «هذا بيت «فيرونيك»، وهذا باب بيت اليهودي التائه، وهذه نافذة المحكمة»؛ ولم تُثِرْ هذه الكلمات إلا الشجون في نفوسنا، لأن الشكل العصري والخلّبي لهذه الحجج الاعتباطية قد كذبتها؛ ولأن الخدع الناجمة عن التقوى وهي خدع لا تقع جريرتها على أحد بسبب قدمها وتكرار الحجّاج لها منذ قرون وقرون ربما، قد صدّقتها النفوس الجاهلة التي اخترعتها. وأرونا أخيراً سطح دير اللاتين، دون أن نتمكن من الدخول إليه. فالرهبان محجور عليهم، والدير مغلق بسبب الطاعون. ولكن هناك بيت صغير تابع للدير ما زال مفتوحاً للغرباء، يديره راهب هو كاهن «القدس»؛ وفيه غرفة أو غرفتان مشغولتان، لذا لم نتوقف هناك. ثم أُدخلنا إلى باحة صغيرة مربعة محاطة من كل جانب بالأقواس التي تحمل السطوح، إنها باحة دير. وأتى الرهبان وكلمونا قليلاً من فوق السطوح باللغتين الإسبانية والإيطالية. لا أحد بينهم يتكلم الفرنسية؛ والذين رأيناهم كانوا مسنين ذوي سحن لطيفة وجليلة وسعيدة. واستقبلونا بترحاب ومسرة، واعتذروا عن كل مخالطة بينهم وبين ضيوف معّرضين مثلنا إلى تلقي الطاعون ونقله. أعطيناهم بعض الأخبار عن أوروبا، وقدموا لنا المدد الذي ينالونه من بلدانهم. وراح جزّار يذبح لنا الخراف في الباحة. وأنزل الرهبان لنا خبزاً بالحبال من أعلى السطوح. ثم استلمنا منهم، بالطريقة نفسها، مؤونة من الصلبان والمسابح وبعض الأمور التقوية، التي تزخر بها دائماً دكاكينهم؛ وبالمقابل سلّمناهم بعض الصدقات والرسائل التي كلفنا بإيصالها لهم بعض أصدقائهم في «قبرص» و«سوريا». وكان كل شيء ينتقل منّا إليهم يخضع للتعقيم، ثم يوضع في وعاء من الماء البارد، ويرفع أخيراً إلى قمة السطح

في إناء نحاسي مثبّت بالحبال. وبدا على هؤلاء الرهبان أنهم أكثر هلعاً منّا أمام الخطر المحدق بهم. وغالباً ما عاينوا أن أي تهاون في مراعاة القواعد الصحية كان يقيم الدنيا ويقعدها في الدير كله، فيتشددون في الحرص والحذر. ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف زججنا بأنفسنا طواعية وعن طيب خاطر في يّم العدوى التي تثير نقطةٌ واحدة منها الذعر في النفوس. أما كاهن «القدس»، من جهته، وهو الذي كان مضطراً إلى تفقد أحوال رعيته، فقد حاول أن يقنعنا بأن الطاعون ولّى.

بعد أن تكلمنا نصف ساعة مع هؤلاء الرهبان، دعاهم الجرس إلى القدّاس. فشكرناهم وتمنوا لنا سفراً سعيداً؛ فأرسلنا عندئذٍ إلى معسكرنا المؤن التي حصلنا عليها وخرجنا من باحة الدير.

وبعد أن نزلنا عدداً من الحارات التي وصفتها لتوي، وجدنا أنفسنا في ساحة صغيرة مفتوحة نحو الشمال يُرى منها جزء من السماء وجبل الزيتون؛ وكان على يسارنا درج صغير نزلناه وأفضى بنا إلى فناء مكشوف. لقد وُصفتْ كنيسة القبر المقدس بمنتهى الدقة، فلا أجدني مضطراً إلى وصفها من جديد. كنّا، من الخارج، أمام صرح جميل من العصر البيزنطي؛ وهندسته جليلة واحتفالية وعظيمة وغنيّة تدلّ على الزمن الذي بنيت فيه؛ إنها إيوان وقور شلحته رحمة البشر فوق قبر ابن البشر. إذا قارنّا هذه الكنيسة بما أنتجه ذلك العصر نفسه، نجدها متفوقة بامتياز. إن كنيسة «آغيا صوفيا» (الحكمة المقدسة)، وهي أضخم منها، هي ذات شكل أكثر توحشاً، فمن الخارج ليست سوى جبل حجري ترفده تلال من الحجارة. أما كنيسة القبر المقدس، فلها قبّة سماوية مرصّعة، تضفي عليها قامة الأبواب المشوقة والمدروسة، وأشكال النوافذ والتيجان والأفاريز، مسحةً من دقة الصنع لا تضاهى. ففيها أصبح الحجر كالقماش المخرّم كي يستحق أن يشكّل جزءاً من هذا الصرح الذي رفعه الفكر البشري، وفيها تداخلت التفاصيل والخطوط العريضة على أسمى وجه. صحيح أن كنيسة القبر المقدس ليست اليوم تماماً الكنيسة التي بنتها القديسة «هيلانة»، أم الإمبراطور «قسطنطين»؛ لأن ملوك «القدس» أجروا عليها بعض التعديلات والتجميلات

وأضافوا إليها هندسةً نصفها غربي ونصفها الآخر شرقي، هندسةً وجدوا نماذجها في الشرق. ولكنها من الخارج الآن ترتفع بكتلتها البيزنطية وزخارفها اليونانية والقوطية ورقوشها العربية، على الرغم من التمزّعات التي غرستها فيها أيدي الدهر والمتوحشين والتي ما زالت واضحة على واجهتها؛ ومع ذلك فإنها لا تتناقض مع الفكر الذي يحيط بها ويعبر عنها. لا يشعر المرء أمامها بذلك الانطباع المرير من وجود فكرة لم تتحقق كما يجب، ومن وجود ذكرى انتهكتها يد البشر، بل بالعكس يقول بعفوية: هذا ما كنت أنتظره. لقد سعى الإنسان هنا وبذل كل ما استطاع. صحيح أن الصرح لا يليق بالقبر، ولكنه يليق بالجنس البشري الذي شاء أن يكرم هذا القبر العظيم. ويدخل المرء إلى الرواق المقنطر والمعتَّم لصحن الكنيسة، متأثراً بهذا الانطباع الأول الخطير.

وعلى اليسار، بعد الدخول إلى الرواق الذي يفضي إلى الصحن، وفي نهاية الكوّة التي في الماضي كانت تنتصب فيها بعض التماثيل، أقام الأتراك هنا ديواناً لهم، فهم حرّاس القبر المقدس ويحق لهم وحدهم أن يغلقوه أو يفتحوه. وعندما عبرتُ، وجدت خمسة أو ستة رجال أتراك مهيبين بلحاهم الطويلة البيضاء، مقرفصين في ذلك الديوان الذي تغطيه بعض السجادات الحلبية النفيسة، وفوقها مجموعة من فناجين القهوة والغلايين. سلموا علينا باحترام وأدب، وأمروا الحرّاس باصطحابنا إلى كافة أرجاء الكنيسة. ولم ألاحظ أية قلة أدب على وجوههم وفي حركاتهم وأقوالهم، كما اتهموا. إنهم لا يدلفون إلى داخل الكنيسة، بل يبقون قرب الباب، ويتكلمون مع المسيحيين بالرصانة والاحترام اللذين تقتضيهما زيارة هذا المكان. إنهم بسبب الحرب يملكون الصرح المقدس للمسيحيين، ولكنهم لا يهدمونه ولا يذرون رماده في الريح، إنهم يحافظون عليه ويشرفون الآن على تنظيمه وحراسته ويرعونه بصمت، خلافاً للطوائف المسيحية التي تتنازعه، وليس من الوارد أن تحميه. إن هؤلاء الأتراك يريدون المحافظة على هذه الذخيرة المشتركة بين جميع المسيحيين، كي تتمكن كل طائفة من تكريم القبر المقدس بدورها. فلولا الأتراك، لكان هذا القبر، الذي يتنازعه اليونانيون والكاثوليك والتفرعات العديدة التي انحدرت من الفكرة المسيحية، موضعَ صراع بين تلك الطوائف

المنتصرة الضاغنة والمتنافسة، ولا تنقل من طائفة لأخرى ولمنعت الطائفة المنتصرة الطوائف الأخرى عنه. لا أجد هنا سبباً لاتهام الأتراك وشتمهم. إن التعصب الوحشي المزعوم، الذي يتهمهم به الجاهلون، لا يلاقي إلا تسامحاً واحتراماً كي يتمكّن الناس الآخرون من العبادة والتكريم. ففي كل مكان يرى فيه المسلم فكرة الله في ذهن إخوانه، يطأطئ الرأس ويحترم. إنه يعتقد أن الفكر يقدّس الشكل. إنه الشعب الوحيد المتسامح، فليتساءل المسيحيون بصدق عما كانوا يفعلون لو أن مصائر الحروب وضعت «مكة» و«الكعبة» بين أيديهم. أكان باستطاعة الأتراك أن يأتوا من كافة أصقاع أوروبا وآسيا ليتبرّكوا بسلام بالأماكن الإسلامية المقدسة؟.

بعد ذلك الرواق، وجدنا أنفسنا تحت قبة الكنيسة. يعتبر التقليد أن مركز هذه القبة هو مركز الأرض، وأن مركز المركز هو القبة الصغيرة التي تحتها بمثابة حجر كريم معشّق بحجر كريم آخر. إن المقام الداخلي هو مربع عريض تزيّنه بعض الأعمدة ويرتفع فوقه إفريز وقبة مرمرية، وكله بني بدون ذوق وبتصميم مضطرب ومستهجن. لقد أعيد بناؤه عام ١٨١٦ على يد مهندس معماري أوروبي، ودفعت الكنيسة اليونانية التكاليف، وهي المالكة الآن له. ويخيم الفراغ الذي تتركه القبة الكبرى الخارجية حول هذا المقام الداخلي للضريح، فيتجول المرء فيه بحرية ويصادف فيه أعمدة ومصلّيات واسعة يرتبط كل واحد منها بأحد أسرار آلام المسيح، وتدل كلها على شهادات حقيقية أو افتراضية لمشاهد الفداء؛ أما كنيسة القبر المقدس الذي لا يقع تحت القبّة فهو مخصص للروم المنشقين، وهناك حاجز خشبي مزين بلوحات من المدرسة اليونانية يفصل بين هذا الصحن وذاك داخل الكنيسة. وعلى الرغم من كثرة الرسوم السيئة والزخارف المختلفة التي تزين جدران الهيكل وتثقله، تبقى المحصلة ذات تأثير ديني كبير. ويشعر المرء بأن الصلاة، في كافة أشكالها، قد تشربت بهذه الكنيسة وراكمت فيه ما اعتقدته الأجيالُ الخرافية والورعة في آن كل ما هو نفيس لديها أمام الله. وسلكنا درجاً محفوراً في الصخر واتجهنا من هذا المكان إلى قمة جبل الجلجلة التي

نصبت فوقه الصلبان الثلاثة؛ فالجلجلة والقبر وعدد آخر من المواقع التي شهدت مأساة الفداء وُجدت مجتمعة تحت سقف صرح واحد قليل المساحة؛ فهذا يبدو غير متناسب تماماً مع ما أوردته الأناجيل، ويصعب على المرء أن يتوقع وجود القبر الذي أعده «يوسف الرامي» محفوراً في الصخر خارج أسوار «صهيون»، وعلى بعد خمسين متراً من الجلجلة، مكان الإعدامات، ومحصوراً داخل الأسوار الحديثة؛ ولكن التقليد هو التقليد، وقد رجحت كفته. لا يرفض الفكر مشهداً كهذا، إن شكلّت بعض الخطوات فارقاً بين الأرجحية التاريخية والتقليد: أكان هنا أو هناك، يبقى أنه ليس بعيداً عن الموقع الذي يؤكدون عليه.

وبعد أن قمت بتأمل عميق وصامت في كل من هذه الأماكن المقدسة واستذكرت دلالاتها، نزلنا ثانية إلى حرم الكنيسة ودخلنا إلى المقام الداخلي الذي يحيط بحجر القبر. إنه مقسوم إلى مقامين صغيرين: في المقام الأول هناك الحجر الذي جلس عليه الملائكة وأجابوا النساء القديسات قائلين: «لم يعد هنا، لقد قام من بين الأموات». ويحتوي المقام الثاني على القبر المحاط بشيء يشبه الناووس المرمري الأبيض الذي يغطي تماماً الصخرة الأولى التي حفر فيها القبر. مصابيح ذهبية وفضية تنير المقام بشكل دائم، وعطور تحرق فيه ليلاً ونهاراً، والهواء الذي تنفسناه كان فاتراً ومعطراً. دخلنا إلى المقام، واحداً بعد واحد، دون أن نسمح لخدّام المقام بأن يدخلوا معنا، وكانت تفصلنا عن المقام الأول ستارة من الحرير القرمزي. ذلك أننا لم نشأ أن تعكّر أية نظرة جلال المكان أو المشاعر الحميمة التي يثيرها في نفس كل واحد منا، حسب طبيعة إيمانه بما يذكّره له هذا القبر. بقي كل واحد منا زهاء ربع ساعة في المقام، ولم يخرج أحد منا وعيناه جافتان. فمهما كان شكل التأملات الداخلية، وقراءة التاريخ، والسنوات، وتغيّرات قلب الإنسان وروحه، ومهما كان تأثير العاطفة الدينية على نفسه، إنْ حافظ على حرفية المسيحية، والعقائد التي غرستها أمه فيه، وإنْ آمن بمسيحية فلسفية وعقلانية، فرأى في المسيح إلهاً مصلوباً، أو أقدس بني البشر الذين ألّهتهم الفضيلة وأوحي له بالحقيقة القصوى ومات لكي يقدّم شهادة لأبيه: أكان يسوع في

نظره ابن الله أو ابن الإنسان، أم أكانت الألوهة قد تجسدت بشرياً أو تألهت البشرية، يبقى أن المسيحية هي دين ذكرياته وقلبه وخياله، وأنها لم تتبخّر بهواء القرون والحياة، وأن الروح التي انسكبت فيها ما زالت تحافظ على شذاها الأول، وأن شكل الأماكن والمواقع التي شهدت العبادة المسيحية الأولى ما زال يجدد شباب انطباعاتها ويحرك ارتعاشتها المهيبة. إن هذا القبر في نظر المسيحي أو الفيلسوف، وفي نظر المفكّر الأخلاقي أو المؤرخ هو الحد الفاصل بين عالمين: العالم القديم والعالم الجديد؛ إنه نقطة الانطلاق لفكرة جددت العالم، لحضارة بدّلت كل شيء، رأساً على عقب، لفكرة دوّت فوق الكرة الأرضية كلها. إن هذا القبر هو مدفن العالم القديم ومهد العالم الجديد. لا حجر هنا إلا وكان أساساً لصرح هائل مثل هذا، لا قبر أخصب من هذا القبر؛ لا عقيدة دُفنت ثلاثة أيام أو ثلاثة قرون استطاعت أن تكسر الصخرة التي أحكم الإنسان وضعها وانتصر وأن تكذّب الموت بقيامة من بين الأموات لا أبهى منها ولا أخلد!

كنت آخر من دخل القبر المقدس، وكانت الأفكار الكبيرة تحاصر ذهني، ولا سيما أن قلبي كان مفعماً بالانطباعات الحميمة الخالصة التي تبقى سرية بين الإنسان ونفسه، بين الحشَرة المفكرة والخالق، إن هذه الانطباعات لا أستطيع أن أكتبها، لأنها تفوح مع دخان المصابيح الدينية الورعة، ومع عبير المباخر، ومع همسات الزفرات الغامضة؛ إنها تسقط كالدموع التي تتحرك في العينين عندما يتذكر المرء الأسماء الأولى التي تلعثم بها أثناء طفولته والتي علّمه إياها أبوه أو أمه أو أخوته أو أخواته أو أصدقاؤه الذين همس بها معهم. إن جميع الانطباعات الورعة التي حركت نفوسنا في شتى مراحل الحياة، وجميع الصلوات التي خرجت من قلوبنا وتمتمت بها شفاهنا باسم الذي علمنا أن نصلي لأبيه ولأبينا، وجميع المسرات والأحزان التي عبّرت عنها هذه الصلوات، استيقظت في أعماق النفس وأحدثت بوقعها واضطرابها بريق الذكاء ورقة القلب، دون أن تبحث عن كلمات تقولها، وإنما تجلت في العيون الباكية، والصدور المرهقة، والجباه المنحنية، والأفواه التي تلتصق بصمت في حجر القبر. وبقيتُ هنا هكذا مدة طويلة وأنا أصلي إلى السماء والأب في هذا المكان بالذات الذي ارتفعت منه أجمل الصلوات لأول مرة نحو السماء؛ وصليت هنا من أجل أبي وأمي اللذين انتقلا إلى

العالم الآخر، ومن أجل الذين لم يرحلوا أو رحلوا، ومن أجل الذين لم ينقطع معهم قط حبل التواصل. واستذكرت أسماء جميع الذين عرفتهم وأحببتهم وأحبوني، ولثمت بشفتيّ حجر القبر المقدس. ثم لم أصلّ إلا من أجلي، وكان دعائي حاراً وقويّاً؛ وطلبت مزيداً من الحقيقة والشجاعة أمام قبر ذاك الذي أغدق الحقيقة على هذا العالم، ومات مضحياً بنفسه من أجل هذه الحقيقة التي جعله الله كلمتَها. سأذكر ما حييت الأقوال التي همستُ بها خلال ساعة الشدة هذه. ربما استجيبت صلاتي، لقد استنار ذهني وتشدّدت عزيمتي، وميّزت بوضوح أكبر بين غياهب الحقائق ومغالطاتها. هناك لحظات في الحياة تكون فيها أفكار الإنسان الغامضة والريبية والمذبذبة كأمواج دون ضفاف، تنتهي بملامسة الشاطئ فتتكسر على جنباته وتنكص على أعقابها بأشكال جديدة وتنداح في تيّار مختلف عن ذاك الذي دفع بها إلى الآن. كانت هذه اللحظة في نظري لحظة من تلك اللحظات؛ ومَن يسبر الأفكار والقلوب يعرف ذلك، وقد أفهمها بنفسي ذات يوم. كانت سراً في حياتي، سيتوضح لاحقاً.

****

بعد أن طفنا في شتى أحياء المدينة، التي كانت جميعها عارية وبائسة ومفككة كتلك التي دخلنا منها إليها، نزلنا صوب المسجد الشهير الذي حلّ محل هيكل «سليمان». وتقع سرايا حاكم «القدس» في مبنى يحاذي حدائق المسجد وأسواره. وتوجهنا نحو السرايا لنزور الحاكم ونشكره. كانت ساحة المكان محاطة بأقفاص مشبّكة رأينا داخلها عدداً من لصوص «أريحا» و«السامرة» الذين كانوا ينتظرون أن يفرج عنهم أو أن يحز سيف الباشا رقابهم. واجتمع في أنحاء مختلفة من السرايا خيالة كانوا منبطحين قرب سنابك خيولهم، وشيوخ بدو وعرب من «نابلس» كانوا يجلسون على الأدراج أو تحت الفساطيط، بانتظار ساعة الديوان. عندما علم الحاكم بوصولنا، أرسل إلينا ابنه يدعونا إلى الصعود. كان هذا الشاب الذي ناهز الثلاثين من عمره الأكثر وسامة بين العرب، وربما بين جميع الرجال الذين رأيتهم في حياتي. كان يجمع القوة والرشاقة والذكاء والرقة بانسجام تام على قسماته، وكانت كل هذه المزايا تلتمع في عينيه الزرقاوين بوضوح جاذب، بحيث بقينا جميعنا مأخوذين بمظهره. إنه سامري. وأبوه حاكم «القدس» هو أقوى عربي من عرب «نابلس». لقد اضطهده «عبدالله» والي «عكا» وأجبره على اللجوء هو وعائلته إلى الجبال خلف البحر الميت؛ وعندما انتصر «ابراهيم باشا» على «عبدالله»، أعيد إلى موطنه، فاستعاد ثروته ونفوذه، وطرد أعداءه من البلاد؛ ولكي يعوّضه باشا مصر عن نقص العساكر المصريين في منطقة «اليهودية»، عيّنه حاكماً على «السامرة» و«القدس». لم يكن عسكره مؤلفاً إلا من مئات من الخيالة من أفراد قبيلته، وبواسطتهم كان يحافظ على الأمن وعلى سيطرة «إبراهيم» على جميع السكان في المنطقة.

دخلنا إلى الديوان، وهو كناية عن قاعة كبرى غير مزيّنة إلا ببعض السجاد الذي مدّ فوق الحصر وببعض فناجين القهوة الموضوعة على الأرض. كان الحاكم محاطاً بعدد كبير من العبيد والعرب المدججين بالسلاح وببعض الكتبة المتربعين على الأرض الذين يكتبون فوق أيديهم، وكان يقيم العدل ويعطي الأوامر. نهض عندما اقتربنا وأتى

إلينا؛ وأمر برفع السجاد في الديوان، خوفاً من انتقال الطاعون، ووضع مكانها حصراً مصرية لا تنقله. جلسنا. وقدم لنا الغلايين والقهوة. قام ترجماني بالتعبير عن ثنائي له، وشكرته أنا على جميع الخدمات التي قدّمت لنا كأجانب استطاعوا أن يزوروا دون خطرٍ الأماكن التي تقدسها ديانتهم. فأجابني بابتسامة مهذبة أنه لم يقم إلا بواجبه، وأن أصدقاء «إبراهيم» هم أصدقاؤه، وأنه يلبي جميع حاجاتهم، وأنه مستعد لأن يواكبني إن أمرتُه هو وعساكره، وأن يصحبني إلى كل مكان يخطر على فضولي ويمليه ديني، وذلك في حدود ولايته، فهذا كان أمر الباشا إليه. ثم استعلم عن أخبارنا، وأخبار الحرب، وما تنويه الدول الأوروبية لمصير «إبراهيم». فأجبته ملبياً ما كان يعتمل في فكره، وقلت: إن أوروبا تقدّر في «إبراهيم باشا» الفاتح الذي ينشر الحضارة، وإنها، في هذا الصدد، مهتمة بانتصاراته، وإنه حان الوقت للشرق كي يساهم في مزايا إدارة أفضل، وإن باشا مصر هو المرسَل المسلّح للحضارة الأوروبية إلى جزيرة العرب، وإن الشجاعة والتخطيط اللذين استمدّهما منا يمنحانه النصر المؤكّد على الصدر الأعظم الذي يتقدم لمواجهته في «كرمانيا»، وإنه حسب جميع المعطيات سيحرز نصراً كبيراً، وإنه سيزحف نحو «القسطنطينية»، وإنه لن يدخلها، لأن الأوروبيين لن يسمحوا بذلك حينئذٍ، وإنه سيعقد الصلح بواسطتهم، وإنه سيحتفظ بالجزيرة العربية وببلاد الشام تحت سيادته الدائمة. أثرت أقوالي في قلب متمرد «نابلس» العتيق: وكانت نظراته تلتهم أقوالي، وكان ابنه وأصحابه يهزّون برؤوسهم فوق رأسي كي لا تفوتهم كلمة مما قلته، لأنها كانت تبشرهم بسيطرة طويلة وآمنة على «السامرة».

وعندما رأيت الحاكم بهذه الاستعدادات، عبّرت عن رغبتي، لا في الدخول إلى مسجد «عمر» (الصخرة) لأنني كنت أعلم أن مثل هذا المسعى يخالف عادات البلاد، بل في تأمله من الخارج. فأجابني: «إن أمرت بذلك، سيُفتح كل شيء أمامك، ولكنني سأثير عليّ عندئذٍ حفيظة المسلمين في المدينة، لأنهم ما زالوا جاهلين إذ يظنون أن وجود مسيحي داخل المسجد سيعرضهم لأخطار كبرى، لأن هناك نبوءة تقول إن كل ما يطلبه المسيحي من الله داخل الصخرة، سيناله، ولا يشكوّن في أن المسيحي سيطلب إلى الله

أن يقوّض دين النبي ويستأصل شأفة المسلمين. وأضاف: أنا لا أومن بشيء من هذا، جميع البشر هم إخوتي، مع أنهم يعبدون كل بلغته الأب المشترك الذي لا يعطي شيئاً لبعضهم على حساب الآخرين، إنه يجعل شمسه تشرق على مكرمي جميع الأنبياء، إن البشر لا يعلمون شيئاً، ولكن الله يعلم كل شيء. «الله كريم»، «الله أكبر!» » ثم أحنى رأسه مبتسماً. فقلت له: «حاشى أن أفرط في توسل ضيافتك، وأن أعرّضك تلبيةً لفضول تافه صدر عن رحّالة مثلي. لو وُجدتُ داخل مسجد الصخرة، فلن أصلي لاستئصال شأفة أي شعب من الشعوب، وإنما لاستنارة وسعادة جميع أبناء الله». بعد أن قلت هذا، نهضنا، فقادنا في ممشى إلى نافذة من نوافذ السراي تطلّ على الباحات الخارجية للمسجد. لم نستطع من هناك أن نحيط بكامل ذلك المكان، كما فعلنا من أعلى جبل الزيتون، ذلك أننا لم نشاهد إلاّ جدران القبّة وبعض الأروقة العربية ذات العمارة الأكثر أناقة، ونواصي أشجار السرو التي كانت تنتصب في الحدائق الداخلية. ثم استأذنت الحاكم وقلت له إنني أنوي البقاء ثمانية أو تسعة أيام مخيمّاً في ضواحي المدينة، وإنني سأذهب الغد إلى «البحر الميت» وإلى «نهر الأردن» و«أريحا» وسأتابع حتى سفوح جبال «البتراء» في القفار العربية، وإنني سأعود عدة مرات، كما فعلت اليوم، إلى داخل «القدس»، وإنني لن أطلب منه إلا عدداً كافياً من الخيالة ليضمنوا سلامتنا في شتى الجولات التي سنقوم بها في منطقة «اليهودية». وخرجنا من «القدس» عن طريق باب «بيت لحم» نفسه الذي نصبنا خيامنا قربه في ذلك النهار، وفي المساء أنهينا زيارتنا لجميع المواقع المهمة أو المكرسة حول أسوار المدينة.

التاريخ نفسه

قضينا السهرة ونحن نطوف في السفوح الممتدة من جنوب «القدس» بين قبر «داود» ووادي «يوشافاط». وتمثل هذه السفوح الجهة الوحيدة من المدينة التي تظهر فيها بعض المزروعات. في ساعة الغروب، جلست أمام تلة الزيتون على بعد أربعمائة أو خمسمائة قدم عن بركة «سلوان»، حيث كانت تقع تقريباً «حدائق داود»: كان وادي «يوشافاط» تحت قدميّ، وكانت الأسوار العالية لباحات الهيكل تعلو فوقي نحو اليسار؛

رأيت نواصي أشجار السرو الجميلة تسحق بهاماتها الهرمية فوق بوابات المسجد الأقصى، ورأيت قباب أشجار البرتقال تغطي منهل الهيكل المسمّى «بمنهل البرتقال». ويذكّرني هذا المنهل بأحد التقاليد الشرقية الجميلة المستنبطة التي نقلها العرب أو حافظوا عليها. إليكم ما يروونه حول اختيار «سليمان» موقع المسجد: «كانت القدس حقلاً محروثاً، وكان هناك أخوان يملكان قطعة الأرض التي يرتفع فوقها الهيكل. وكان أحدهما متزوجاً ورزق عدة أولاد، وكان الآخر يعيش وحده؛ كان كلاهما يزرعان الحقل الذي ورثاه عن أمهما. وعندما بدأ موسم الحصاد، ربط الأخوان حزمهما، وجمعاهما في كومتين متساويتين فوق الحقل. وأثناء الليل خطرت ببال الأعزب فكرة جيدة فقال لنفسه: «إن أخي متزوج وله أطفال يعيلهم، فليس من العدل أن يكون نصيبي مثل نصيبه؛ هيّا، سآخذ بعض حزم وأضيفها سراً إلى حزمه؛ ولن يشعر بذلك، فلن يرفض بالتالي. ونفّذ ما فكّر فيه. وفي الليلة نفسها، استيقظ الأخ الثاني وقال لزوجته: «أخي شاب ويعيش وحده دون شريكة لحياته، ولا أحد يساعده في عمله ويواسيه بعد أتعابه، فليس من العدل أن نأخذ من الحقل حزماً مساوية لحزمه، هيا لنذهب ونحمل سرّاً بعض الحزم ولنضفها إلى حزمه، ولن يشعر بذلك غداً، ولن يرفضها بالتالي». وفعلاً ما فكّرا فيه. في اليوم التالي ذهب كلا الأخوين إلى الحقل، وفوجئا بأن الكومتين ما زالتا متساويتين. ولم يستطع لا هذا ولا ذاك أن يفهما المعجزة. وتكررت الحادثة عدة ليالٍ متتالية؛ بما أن كل واحد كان يضيف إلى كومة الآخر نفس عدد الحزم، بقيت الكومتان متساويتين. وذات ليلة، بينما كان كل منهما ساهراً لمعرفة سبب المعجزة، التقيا وهما يحملان الحزم التي يريدان إضافتها إلى الكومة الأخرى.

«والحال أن الفكرة الحسنة التي راودت كلا الرجلين ليالي عديدة، استحسنها الله، وباركها البشر واختاروا موقعها ليشيدوا فيه بيتاً لله».

يا له من تقليد فاتن! يا له من تقليد يستنشق الطيبة الساذجة للعادات الموروثة! كم هو بسيط وقديم وطبيعي ذلك الوحي الذي نزل على البشر فدفعهم إلى أن يكرسوا

لله مكاناً نبتت فيه الفضيلة على الأرض! لقد سمعتُ عند العرب مئات القصص الشبيهة بهذه. إن الناس يتنفسون رائحة التوراة في جميع مناطق هذا الشرق.

يتطابق شكل وادي «يوشافاط» مع ما أوردته الأدبيات المسيحية. إنه يشبه قبراً عريضاً، لا يستطيع مع ذلك أن يستوعب الجنس البشري الذي سيتهافت عليه. تحيط به من كل جانب مجموعة من الأضرحة، وتخترق طرفه الجنوبي صخرة «صهيون» المليئة بالأقبية الجنائزية كخليّة من خلايا الموت، وتحدّه من هنا وهناك قبور «يوشافاط» و«أبشالوم» التي نحتت في الصخر بشكل هرمي والتي تظللها من جهة تلال «جبل المغضوب عليهم» السوداء، ومن جهة ثانية أسوار الهيكل المنهار. إنه مكان يسيطر عليه الرعب المقدس، مكان من شأنه أن يصبح قريباً مقر المخازي في هذه المدينة الكبيرة، مكان خصص له خيالُ الأنبياء بيسر مشاهدَ الموت والقيامة والدينونة. يتصوّر المرء وادي «يوشافاط» كثغرة هائلة في جبل تجري فيه مياه «قدرون» السوداء والقاتمة بهديرها المريع، ثغرةٍ تهب في كهوفها الرياح الأربع مفسحة المجال لسيول الموت الأربعة القادمة من الشرق والغرب والجنوب والوسط. وتمتد فيه درجات التلال لتصبح أشبه بمدرّج يصطف فيه أبناء «آدم» الكثيرون الذين سيشهدون النهاية القصوى لمأساة البشر الكبرى. كلاّ، لا شيء من هذا. فوادي «يوشافاط» ليس سوى حفرة طبيعية انفغرت بين مرتفعين يبلغ علوّها بضع مئات من الأقدام، أحدهما يحمل «القدس» والآخر يحمل قمة «جبل الزيتون». وعندما انهارت أسوار «القدس» سدت الجزء الأكبر منه، لذا لا نجد كهفاً ذا فتحة فارغة. إن «قدرون» الذي ينبع من جوف الأرض فوق الوادي ليس إلا سيلاً تشكله مياه المطر النازلة أثناء الشتاء التي تنحدر من بعض حقول الزيتون تحت قبور الملوك، ويعبره جسر قائم وسط الوادي، يقابل أبواب «القدس». ويبلغ عرضه بضعة أقدام؛ ليس الوادي، في هذا المكان، أعرض من النهر ذي القاع الناشف المغطى بالحصى الأبيض في غور الكهف. وقصارى القول، إن وادي «يوشافاط» يشبه أحد الخنادق المحفورة في أسفل التحصينات العالية المحيطة بمدينة ما، ويتدفق منه كهريز المدينة أثناء الشتاء حاملاً أوساخها؛ وعلى جنباته يسعى بعض

السكان الفقراء أن يزرعوا بعض الخضار، وتسرح الماعز والحمير طلباً للكلأ الذابل الذي ينبت على جرفه الوعر محملاً بالأوساخ والغبار. ازرعوا الأرض بحجارة جنائزية تنتمي إلى جميع أديان العالم، تجدوا أمام أعينكم وادي الدينونة.

التاريخ نفسه

هاهي بركة «سلوان»، النبع الوحيد في الوادي الذي حرّك الوحي لدى الملوك والأنبياء. لا أعرف لماذا وجد كثير من الرحّالة صعوبة ليكتشفوها وما زالوا يتنازعون على تحديد موقعها. هاهي أمامي بكاملها مليئة بالماء الصافي العذب الذي يبعث روح المياه في هذا الجو الملتهب والغباري قرب الوادي؛ لقد حُفرت عشرين درجة في الصخر، ويلامس أعلاها قصر «داود» بقنطرتها المصنوعة من الجلامد الحجرية التي نحتتها القرون، وبطحالبها الندية ولبالبها الدائمة التي تعرّش على ملاطها. وتلتمع درجات سلّمها كالرخام لكثرة ما مرت فوقها أقدام النساء اللواتي يأتين من «سلوان» ليملأن جرارهن. نزلتُ إليها وجلست برهة فوق بلاطها الرطب، وأصغيت كي لا أنسى إلى همسات النبع، وغسلت يدي ووجهي بمائه؛ وردّدت أبيات شعر كتبها الشاعر «ميلتون»، مستذكراً بدوري الإلهام الذي صمت منذ مدة طويلة. إن بركة «سلوان» هي المكان الوحيد في ضواحي «القدس» الذي يستطيع المسافر أن يبلّ يديه فيه ويرتوي منه ويسند رأسه إلى ظل صخرة رطبة تتخللها بعض الحشائش. وتشكّل بعض الحواكير الصغيرة التي زرعها سكان «سلوان» بالرمان والشجيرات باقةً خضراء شاحبة تحيط بالنبع. وترتوي بفائض مائه. هنا ينتهي وادي «يوشافاط». ويمتد في الأسفل سهل صغير خفيف الانحناء يجذب النظر نحو الشعاب العريضة والعميقة للجبال البركانية المؤدية إلى «أريحا» ودير القديس «سابا» والبحر الميت حيث ينقطع الأفق.

ضفاف الأردن خلف سهل «أريحا»، وقبل مصب النهر في البحر الميت ببضعة فراسخ

لقد انطلقتُ أمس، في ٣٠ تشرين الأول، من «القدس» الساعة السابعة صباحاً، مع قافلتي كلها المكونة من ستة جنود لـ «إبراهيم باشا»، وحفيد «أبو غوش» مع خيالته

الأربعة، وعرب «نابلس» الثمانية الذين أرسلهم حاكم «القدس». جلنا حول المدينة ونزلنا حتى قاع وادي «يوشافاط» ثم صعدنا «جبل الزيتون»، وتركنا «وادي المخازي» إلى يميننا، وقطعنا طرفه الجنوبي وسلسلة الجبال المحاذية لسلسلة «جبل الزيتون». ثم وصلنا إلى قرية «بيت عنيا» التي ما زالت تسكنها بعض العائلات العربية، وتعرّفنا فيها على أطلال عميرة مسيحية. وفي القرية نبع ماء عذب. ونشل أحد العرب منه ماء، ولمدة ساعة، ليسقي خيولنا وليملأ الجرار المعلقة بسروج بغالنا. فلن نجد أمامنا ماء حتى نصل إلى «أريحا»، أي بعد عشر أو اثنتي عشرة ساعة من المسير.

غادرنا «بيت عنيا» الساعة الرابعة بعد الظهر. ونزلنا لمدة ساعتين درباً عريضاً ممهّداً ومحفوراً في سفوح الجبال المتتالية دون توقف. هذه هي المعالم الوحيدة لأحد الطرق التي شاهدتها في الشرق. وكانت طريق «أريحا» والسهول الخصبة التي يرويها «نهر الأردن»، والتي تؤدي إلى ما تملكه قبائل إسرائيل التي تقاسمت فيما بينها مجرى النهر كلّه وسهل «طبريا» حتى ضواحي «صور» وسفوح جبل «لبنان». وكان هذا الطريق يؤدي إلى جزيرة العرب وبلاد الرافدين، ومن هناك إلى بلاد «فارس» و«الهند»، وهي بلدان أقام معها «سليمان» علاقات تجارية كبرى. من «بيت عنيا»، لا يعود المرء يصادف بيوتاً أو مزروعات، فالجبال جرداء تماماً، وكل ما يراه صخور وغبار تلعب به الريح كما يطيب لها، ومسحة من الرماد الأسود تغطي الأرض ككفن أسود. وأحياناً تنفلق الجبال إلى شعاب ضيقة وعميقة، فتظهر مهاوٍ لا يؤدي إليها أي درب، ولا ترى العين سوى تكرار مستمر لنفس المشاهد المحيطة. فجميع هذه الجبال لها شكل بركاني واحد، والحجارة المنقلبة التي دحرجتها على الطريق سيول الشتاء تشبه حمماً بركانية صلّدتها القرون وشققتها. ويرى المرء هنا وهناك في البعيد، وعلى نواصي التلال، تلك المسحة المصغّرة والكبريتية التي يشاهدها على سفوح بركاني الـ «فيزوف» والـ «إتنا». ويستحيل عليه أن يقاوم طويلاً الشعور بالأسى والرعب الذي يثيره هذا المشهد. إذ يحسّ بانقباض في قلبه وبحسرة في ناظريه. وعندما يجد نفسه فوق قمّة جبل، وينفتح الأفق لحظةً أمامه، لا يرى على مد النظر سوى سلاسل جبلية سوداء وقمماً مخروطية أو مقطومة متراكمة فوق بعضها ومنفصلة عن جلد السماء الزرقاء. ويجد نفسه أمام

متاهة لا تنتهي من الدروب الجبلية المتعددة الأشكال والممزقة والمتشظية التي تضم شملَها سلاسلُ الجبال المتشابهة فتجتمع في أودية لا قيعان لها، ويتمنى المرء عندها على الأقل أن يسمع هدير سيل من السيول، ولكن لا حركة لساكن، ولا وجود لشجرة أو عشبة أو زهرة أو طحلب. إنها أطلال عالم تكلّس، إنها اضطرام أرض اشتعلت، فتكلست إفرازاتها وشكلت هذه الجلامد الشوهاء.

في الساعة السادسة صادفنا في أسفل أحد الأودية جدران خانٍ متهدم ونبع ماء يحيط به جدار صغير نقشت عليه بعض الآيات القرآنية. وتنزل منه الماء نقطة بعد نقطة وتصب في بركة حجرية. ويسعى البدو جاهدين أن يشربوا منه. أوقفنا خيولنا برهة في ظل الخان، فلقد طال بنا النزول وظننا أننا صرنا على مستوى سهل «أريحا» و«البحر الميت». وشددنا الرحال مرهقين بحرّ النهار وتعبه. وبشّرنا خيالتُنا العرب أننا صرنا قريبين من «أريحا». ولكن النهار بدأ ينحسر وبدأ الغسق يريعنا ونحن داخل تلك الشعاب. وبعد ساعة من المسير في قاع ذلك الوادي، وجدنا أننا ما زلنا ننزل سفوح إحدى السلاسل الجبلية الوعرة وظننا أنها الأخيرة قبل الوصول إلى سهل «أريحا». وحجب الليل الأفق عنا، وكدنا لا نرى المهاوي التي قد نقع فيها إنْ زلت قدم حصان من أحصنتنا. واستنفدنا ذخيرتنا من الماء، وبدأ العطش يفتك بنا. فقال أحد السامريين (النابلسيين) لترجمان من تراجمتنا إنه يعرف نبع ماء قريب، فتوقفنا منتظرين أن يجد لنا الماء. وبعد نصف ساعة عاد السامري وقال إنه لم يجد النبع. يجب علينا أن نمشي، فأمامنا مسير أربع ساعات. وضعتُ عرب «نابلس» في مقدمة القافلة، وأمرت الخيالة أن يمشوا بالتتالي كي لا نضيع خطى بعضنا، وخيّم الصمت المطبق على الجميع. وادلهّم الليل وصار يستحيل على الخيّال أن يرى رأس حصانه، وبدأنا نتبع بعضنا انطلاقاً من الصوت. وكانت القافلة تتوقف كل لحظة لأن خيالة المقدمة يسبرون الدروب، خوفاً من السقوط في المهاوي؛ وترجلنا جميعنا لنمشيَ بتؤدة. وتوقفنا مراراً كثيرة بسبب صرخة تنطلق من مقدمة القافلة أو من مؤخرتها: انزلق الحصان، سقط رجل، وأوشكنا أحياناً أن نتوقف تماماً وننتظر دون أية حركة حتى ينقضي هذا الليل الطويل والسحيق. ولكن ناصية القافلة كانت تتحرك، فلا بد من المشي. وبعد ثلاث ساعات من

القلق، سمعنا صراخاً وطلقات نار من مقدمة القافلة، فظننا أن عرب «أريحا» يهاجموننا. واستعد كل واحد منا لإطلاق النار. ولكننا علمنا أن النابلسيين صرخوا فرحاً وأطلقوا العيارات لأننا اجتزنا المرحلة الصعبة. وشعرنا فعلاً أن الطريق بدأ يستوي. فامتطيت حصاني العربي الذي أحس بأن الماء قريب فنزلنا ووقعنا في الوادي. لم يشعر بنا أحد، بسبب الديجور. ولكنني لم أفلت الزمام، وتركت الحصان يتصرف حسب غريزته، دون أن أعلم إن كنت في وهدة أو في أسفل الوادي. فانطلق يصهل ولم يتوقف إلا قرب جدول ماء قليل العمق وتحيط به شجيرات شوكية.فارتوى منه. وسمعت صراخاً إلى يساري وبعض الأعيرة النارية، إذ أحسّ العرب الذين معي بغيابي فراحوا يبحثون عني في السهل. ورأيت ناراً تتلألأ وراء الشجيرات. فأطلقت حصاني، وسرعان ما وجدتني قرب خيمتي التي نصبت على جانب الجدول. وكانت الساعة الثانية عشرة ليلاً. فأكلنا كسرة خبز مغموس بالماء، ونمنا دون أن ندري أين نحن، ودون أن نعلم كيف وصلنا إلى هنا وكيف آل بنا المآل، في تلك الوحدة والعطش، إلى ضفاف هذا الجدول الذي بدا لنا تحت ضوء المشاعل والمواقد التي أضرمها عربنا كجدول من جداول جبال «الألب» تحيط به أشجار الصفصاف وعيدان القصب ونبات قرة العين.

لو كان الكاتب «تاسيوس»، كما ادعى السيد «دي شاتوبريان»، قد اقتبس إلهامه من الأماكن، عندما كتب كتابه «أورشليم المحررة» ومع إعجابي بـ «تاسيوس»، أعترف أنني لا أمتدحه في هذه النقطة، إذ يستحيل أن يكون قد فهم المواقع، وأخطأ في العادات كما فعل؛ ولكن ما أهمية المواقع والعادات؟ فالشعر ليس هنا، وإنما في القلب، لو أدركه الإلهام لدفع ببطلته «هيرميني» إلى ضفاف هذا الجدول بعد أن هربت، ولتركتْ جوادها يستسلم لعزيمته، ولصادفت هذا الراعي الأركادي، وليس العربي، الذي وصفه وصفاً رائعاً.

واستيقظنا على زقزقة آلاف الطيور الجاثمة على أغصان الشجر وعلى خرير الماء في مجراها المحصّب. وخرجنا من الخيام للتعرف على الموقع الذي أوصلنا الليلُ إليه. كانت جبال اليهودية التي قطعناها أمس تقع ناحية الشرق على بعد فرسخ من

معسكرنا؛ وكانت سلسلتها الجرداء والمسننة تمتد على مد البصر نحو الشمال والوسط، ولمحنا في البعيد شعاباً هائلة تفضي إلى السهل وينطلق منها بخار ليلي أشبه بأنهر عريضة، وتمتد أحواض من الضباب على الرمال المتوجة المحيطة بضفاف بحيرة «اسفلتيت» (Asphaltite) وفي الغرب كانت صحراء رملية تفصل بيننا وبين ضفاف «نهر الأردن» الذي لم نميزه جيداً، وبيننا وبين البحر الميت وجبال «البتراء» الزرقاء في القفار العربية. وبدت لنا تلك الجبال، في تلك الساعة بظلالها على قيعانها وأوديتها المليئة بالمزروعات وبالغابات الكبرى الظليلة. وكانت الشعاب البيضاء التي تخترقها تشبه إن لم نخطئ التقدير شلال ماء منداحاً ومدوياً. ومع ذلك لم يكن شيء من هذا. فعندما اقتربت منها أدركت أنها من طبيعة جبال «اليهودية» العقيمة والجرداء. كان كل شيء حولنا مبتسماً ورطباً، ولكن دون زرع بشري. فالماء تحيي كل شيء، وتحيي حتى الصحراء. وذكّرتنا الشجيرات القليلة المتناثرة كأجمات اصطناعية، تتقارب من الضفة مثنى وثلاثاً، ذكّرتنا بأجمل مواقع الوطن.

امتطينا جيادنا. يبعدنا عن «أريحا» مسير ساعة، ولكننا لم نر الأسوار ولا ضباب السهل، فلم نعلم أين نتجه؛ عندئذٍ رأينا حوالي ثلاثين خيالاً بدوياً على صهوات خيولهم المطهمة ينحدرون بين أكمتين رمليتين يتقدمون ببطء نحونا. كانوا بقيادة شيخ «أريحا» وأعيانها يبحثون عنا في الصحراء ليواكبونا، بعد أن أعلمهم أحد سعاة حاكم «القدس» بقدومنا. لا نعرف شيئاً عن عرب صحراء «أريحا» سوى أنهم مشهورون في سوريا كلها بالوحشية وباللصوصية، ولم نعلم للوهلة الأولى إن كانوا يتوجهون نحونا كأصدقاء أو كأعداء. ولكننا لم نلاحظ في تصرفهم خلال الأيام العديدة التي أمضوها معنا، أية نية سيئة من طرفهم. لقد دجّنهم هلعهم من اسم «إبراهيم»، إذ اعتقدوا أننا من مبعوثيه، فقدّموا لنا كل ما تستطيع مدينتهم أن تقدمه، أي الصحراء المفتوحة وماء الينابيع والشعير والذرة لإطعام خيولنا. شكرت الشيخ وصحبه على مواكبتهم إيانا، فانضموا إلى قافلتنا، وكانوا يطيرون على جنباتنا عبر الكثبان الرملية فيظهرون ويختفون بسرعة الريح. ولاحظت حصاناً رائعاً بشكله وسرعته يعتليه أخو الشيخ، فكلفتُ ترجماني بأن يشتريه لي فوراً. ولكن بما أن عروضاً كهذه لا يمكن أن تتم مباشرة دون إحراج صاحب الحصان، وجب أن تمضي عدة أيام من المفاوضات كي

أُصبح صاحبَ هذا الحيوان الجميل الذي خصصته لابنتي، وهذا ما فعلت.

أريحا

بعد مسير ساعة وجدنا أنفسنا دون أدنى شك قرب أسوار «أريحا». كانت أسواراً حقيقية يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً وعرضها ما بين خمسة عشر وعشرين قدماً، وتتعرش عليها نباتات شوكية منضّدة باهتمام لمنع الحيوانات والبشر من المرور؛ وهي تحصينات لم تنهر لسماع صوت الأبواق، ولكنها لجذوة نار الراعي أو ثعالب «شمشون» اشتعلت. وكان لهذه الأسوار الشوكية الجافة بابان أو ثلاثة أبواب مفتوحة يحرسها الخفر العرب أثناء الليل ربما. وعندما مررنا أمام تلك الأبواب رأينا فوق سطوح المنازل الطينية جميع نساء وأولاد هذه المدينة الصحراوية مجتمعين بأروع مشهد ومتهافتين وحاملين بعضهم بعضاً ليروا مرورنا. كانت أذرع النساء وسيقانهن ظاهرة، وتلبس الواحدة منهن فقط رداء قطنياً أزرق تجمعه إلى جسمها بحزام جلدي، وتضع كثيراً من الأساور الذهبية والفضية فوق معصمها والخلاخل في رجليها، وكان شعرها المجعّد يتموّج فوق جيدها. وبعض النساء جدلن شعورهن ورصعنها بالقطع النقدية الكثيرة بحيث نزلت كدرع فوق صدورهن وأكتافهن. وكان بينهن نساء مليحات جداً، بيد أن شكلهن لا ينمّ على الوداعة والخفر والدلع الذي يميّز النساء العربيات في سوريا. فالواحدة منهن ليست امرأة وإنما أنثى لرجل فظ. وبينهن رأيت زنجيّات عديدات مع أنهن لسن عبدات، فالبدو يتزوّجون أيضاً الزنجيات والبيضاوات ولا فرق بينهن بسبب لون البشرة. كانت هؤلاء النساء يطلقن صيحات ويضحكن من طريقة مشينا؛ أما الرجال فكانوا، على العكس، يكظمون فضولهم المكشوف ولا يُبدون لنا إلا الصرامة والاحترام. وعلى مقربة من السور الشوكي، مررنا قرب بيتين أو ثلاثة بيوت يسكنها الشيوخ، وقد بنيت باللَّبِن المجفف تحت الشمس، ولم يتجاوز ارتفاعها بضعة أقدام. أما السطح فمغطى بالحصر والبُسُط ويشكل المأوى الأساسي، إذ تقيم العائلة فوقه أثناء النهار والليل. وأمام الباب ترتفع مصطبة من اللَّبِن أيضاً تغرس فوقها أريكة لرب البيت الذي يستقر فوقها منذ الصباح ويحيط به كبار عبيده ويزوره أصدقاؤه. فالقهوة والنراجيل تدخّن دون انقطاع. وحول البيت هناك حظيرة للخيل والإبل والماعز

والبقر. وهناك دائماً فرسان أو ثلاث أفراس أصيلات مسرجات ومربوطات وجاهزات لتنقل رب البيت.

توقفنا برهة قرب قصر الشيخ الطيني، فقدم لنا ماء وقهوة ونراجيل، وذبح لقافلتنا عجلاً وعدة خراف. وأهدانا ذرة محمصة ودجاجاً وبطيخاً أحمر. وغادرنا المدينة بصحبة الشيخ وما بين خمسة عشر وعشرين من أعيانها العرب. ووجدنا قرب «أريحا» بعض الحقول التي زرعت فيها الذرة الصفراء والبيضاء، وبعض بساتين البرتقال والرمان، وعدداً من أشجار النخيل الجميلة التي تحيط بالبيوت المتناثرة حول المدينة. ثم تحوّل كل شيء إلى صحراء ورمال. وهذه الصحراء هي سهل واسع متدرج ينخفض تدريجياً حتى «نهر الأردن» كأنه يهبط درجات سلّم طبيعي. صحيح أن العين لا ترى إلا سهلاً منبسطاً، ولكننا بعد مسير ساعة من الزمان وجدنا أنفسنا فجأة على حافة أحد تلك السطوح. ثم نزلنا وهدة سريعة، وبعد ساعة أخرى هبطنا وهدة ثانية، وهكذا. أديم الأرض من الرمل الأبيض القاسي المغطى بالملح المنبعث من البحر الميت عن طريق الضباب الذي عندما يجف يترك آثاره الملحية فوق الرمال. لا أثر لحجر أو تراب، إلا عند الاقتراب من ضفتي النهر ومن الجبال. ومن كل مكان كان الأفق فسيحاً ومفتوحاً، فنرى مثلاً أحد العرب وهو يخب بفرسه في السهل. وبما أن هذه الصحراء هي مسرح لأعمال اللصوصية والنهب والقتل التي تشن على القوافل الذاهبة من «القدس» إلى «دمشق»، أو من «بلاد الرافدين» إلى «مصر»، فإن البدو استفادوا من بعض الكثبان الرملية، وأقاموا هم أيضاً كثباناً اصطناعية يحتمون بها من أبصار القوافل أو يترصدونها من بعيد؛ وحفروا حفراً من الرمل داخل تلك الكثبان وتخفوا فيها هم وخيولهم. وما إن يجدون إحدى الطرائد حتى ينطلقوا بسرعة الصقور فيعلموا قبيلتهم ويبدؤون الهجوم. وهذه هي مهنتهم الوحيدة، ومجدهم الأوحد. إن حضارتهم هي القتل والنهب؛ ويقدّرون نجاحاتهم في هذا النوع من المآثر كما يقدّر الفاتحون عندنا فتحهم لأحد الأقاليم. ويتغنّى شعراؤهم، وهم كثر، بتلك المشاهد الهمجية وينقلون من جيل إلى جيل ذكرى بسالتهم وجرائمهم. وتنال الخيل في هذه القصص مكاناً متميزاً. وهذا سرد رواه لنا ابن الشيخ أثناء سيرنا:

«هاجم عربي وقبيلته قافلة الشام، في الصحراء، وحقق نصراً مؤكداً وانهمكت القبيلة بتحميل الغنائم النفيسة؛ وعندها وصلت خيالة والي «عكا» لملاقاة تلك القافلة، انقضوا فجأة على البدو المنتصرين وقتلوا عدداً كبيراً منهم وأسروا الآخرين وربطوهم بالحبال وساقوهم إلى «عكا» ليقدّموهم كهدية للوالي. وكان «أبو المرج» (وهذا هو اسم العربي الذي يتكلم عنه) قد أصيب برصاصة في ساعده أثناء القتال؛ وبما أن جرحه لم يكن مميتاً، ربطوه فوق جمل واستولوا على حصانه وساقوا الحصان وفارسه. وفي مساء ذلك اليوم الذي كان عليهم أن يصلوا فيه إلى «عكا»، خيموا مع أسراهم في جبال «صفد». وكان هذا العربي الجريح مربوط الساقين بحزام جلدي، وكان ملقى قرب الخيمة التي نصبها الأتراك. وأثناء الليل، كان ساهراً بسبب آلام جرحه، فسمع صهيل حصانه بين الخيول المربوطة حول الخيام، حسب عادة الشرقيين. فعرف صهيله، ولم يستطع أن يقاوم الرغبة في الذهاب للتحدث مع رفيق حياته، فجرّ نفسه بصعوبة على الأرض مستخدماً يديه وركبتيه واقترب من جواده وقال له: «يا صديقي المسكين ماذا ستفعل بين الأتراك؟ ستسجن في أحد خانات الآغا أو الباشا؛ ولن تقدّم لنا النساء والأولاد حليب النوق ولا الشعير والذرة في أيديهن؛ ولن تركض بحرية في صحراء مصر بسرعة الريح، ولن تشق بصدرك مياه الأردن التي كانت ترطّب وبر جسمك الأبيض وزبدك. إنْ كتب لي أن أكون أسيراً، فعلى الأقل يجب أن تبقى حرّاً. عد الآن إلى الخيمة التي تعرفها؛ اذهب وقل لزوجتي إن «أبا المرج» لن يعود، ومرّر رأسك خلف ستائر خيمتي لتلعق أيدي أولادي الصغار». وبعد أن قال هذا قضم «أبو المرج» بأسنانه الحبل المصنوع من وبر الماعز الذي ربطت به الخيول العربية، وحُرِّر الحصان. ولكنه عندما رأى سيده جريحاً وموثق الرجلين، فهم الجواد الذكي الأمين بغريزته ما لم تشرحه له أية لغة، فطأطأ رأسه وشمّ صاحبه ورفعه بأسنانه من الحزام الجلدي الذي كان مربوطاً به، وانطلق يعدو به حتى خيام القبيلة. وعندما وصل ورمى صاحبه فوق الرمال أمام زوجته وأولاده، فارق الروح بسبب التعب. فبكته القبيلة كلها، وتغنّى به الشعراء، وما زال عرب «أريحا» يذكرون اسمه دون انقطاع».

نحن ليست لدينا أية فكرة عن مدى الذكاء الذي تصل إليه غريزة الحصان

العربي، ولا عن مدى إخلاصه، بعد تعوده العيش مع العائلة ونيله ملاطفة الأولاد له وتقديم النساء له طعامه وتأنيب سيده له وتشجيعه أيضاً. فالحصان هنا، لسلالته بالذات، أذكى وأدجن من خيول مناطقنا، لا بل هو أذكى من جميع حيوانات الجزيرة العربية. فالطبيعة والسماء أعطتاه مزيداً من الغرائز والتآخي مع الإنسان أكثر مما عندنا. إنهما تتذكران بدقة أيام «فردوس عدن»، عندما كانتا خاضعتين طوعاً لسيطرة ملك الطبيعة. فكثيراً ما رأيت في سوريا طيوراً اقتنصها الأولاد في الصباح تصبح مدجّنة تماماً في المساء، فلا تحتاج من ثم إلى قفص أو إلى خيط يربطها من رجلها وتعيش مع العائلة التي تبنتها، ولكنها تطير بحرية فوق أشجار البرتقال والتوت المزروعة في البستان، ثمّ تعود لتجثم على أصابع الأولاد أو على رؤوس الفتيات.

الحصان الذي اشتريته من شيخ أريحا، والذي بدأت أمتطيه، صار يعرفني بعد أيام قليلة ويرى فيّ سيده. ولم يعد يريد أن يعتليه أحد غيري، فكان عندما يسمع صوتي يقطع القافلة بكاملها ليقترب مني، مع أنني كنت أتكلم لغة غريبة عليه. وكان وديعاً وودوداً معي ومعتاداً رعاية العرب، وكان يمشي بهدوء وحكمة في موقعه من القافلة، ما دمنا لا نلتقي بالأتراك والعرب المتسربلين كالأتراك، والسوريين. ولكنه عندما كان يلمح بدوياً يعتلي حصاناً في الصحراء، حتى ولو بعد سنة من مكوثه معي، يتحوّل فجأة إلى حيوان آخر، فكانت عيناه تتقدان وينتفخ عنقه ويرتفع ذيله ويضرب به كفليه، فينتصب على قائمتيه الخلفيتين على الرغم من ثقل سرجه ووزن فارسه. لم يكن يصهل ولكنه كان يطلق صيحات حربية تشبه صوت النفير، صيحات تخيف باقي الخيول التي كانت تتوقف وتشنّف آذانها لتسمعه.

بعد مسير دام خمس ساعات كان النهر أثناءها يتظاهر دائماً بأنه يبتعد عنّا، وصلنا إلى الهضبة الأخيرة التي كان من المفترض أن يجري تحتها؛ ولكن، مع أننا لم نكن إلا على مسافة مائتين أو ثلاثمائة خطوة، إلا أننا لم نر أمامنا إلا السهل والصحراء، ولم نجد أثراً لا للوادي ولا للنهر. وأظن أن وهم الصحراء هذا هو الذي دفع بعض الرحالة إلى القول إن نهر الأردن يجر مياهه العكرة فوق مجرى محصّب بين

الضفاف الرملية وبين صحراء «أريحا». ولم يستطع هؤلاء الرحالة أن يصلوا إلى النهر، وعندما كانوا يرون بحراً فسيحاً من الرمال، لم يتصوروا أن واحة رطبة وعميقة وظليلة ورائعة انحفرت بين الهضاب في هذه الصحراء الرتيبة وغطت الضفتين تماماً وأن النهر يهمس في مجراه بستائره الخضراء التي يحسده عليها حتى نهر التايمز؛ ومع ذلك كانت تلك هي الحقيقة. لقد شُدهنا وسحرنا عندما وصلنا إلى طرف الهضبة الأخيرة التي انفغرت فجأة على وادٍ جرفي، أبصرنا أجمل الأكمات التي حطت عليها أعيننا منذ أن خلقنا. فهرولنا نحوها فوق صهوات جيادنا، تجذبنا إليه جدة المشهد وفتنة النضارة والرطوبة والظلال التي كانت تغطي الوادي بأكمله. لم نر أمامنا إلا مرجاً أخضر بهيجاً تبزغ فيه كتل من القصب المزهر والنباتات البصليّة التي كانت تويجاتها العريضة واللامعة ترصّع بنجوم ألوانها العشب الأخضر وجذوع الشجر؛ وكانت الخمائل ذات العيدان المتراقصة تنزل مزخرفة حول جذوعها العديدة. وكانت أشجار الحور الفارسي ذات الأوراق الخفيفة لا ترتفع بشكل هرمي كما لو كانت مقلّمة بل تفرد أغصانها في جميع الجهات كأنها أشجار السنديان؛ وكان لحاؤها الصقيل الأبيض يلتمع تحت أشعة الشمس الصباحية. وانتصبت هناك غابات من الصفصاف بشتى أنواعه، وأجمات من القصب الكثيف الذي يمنع الاختراق، إذ كانت الأشجار متراصة، وإذ كانت النباتات المعرشة التي تنساب تحت أقدامها وتتجدّل على أغصانها تشكّل شبكة منيعة. وامتدت هذه الغابات على مدّ البصر وأحاطت بضفتي النهر.

كان علينا أن نترجل وننصب خيامنا في حيّز فارغ من الغابة كي نصل إلى مجرى النهر مشياً على الأقدام، إذ كنا نسمع خرير الماء دون أن نراها. وتقدمنا بصعوبة داخل الغابة الكثيفة وبين الأعشاب العالية وبين الأجمات المتراصة. وأخيراً وجدنا مكاناً كان المرج فيه يحاذي المياه فبللنا أيدينا وأرجلنا في النهر الذي يبلغ عرضه مئة أو مئة وعشرين قدماً، وعمقه مسافة سحيقة. وكان مجراه سريعاً ويشبه مجرى نهر «الرون» في «جنيف»؛ ومياهه مائلة إلى الأزرق الشاحب الذي يشوبه خليط التراب الرمادي الذي يعبره ويحفره؛ وسمعنا من وقت لآخر مصبات هائلة تنداح في مجراه. كانت حواف النهر تنزل بشكل عمودي ولكنه يملأها ماء تصل إلى أسفل

أجمات القصب والأشجار التي تغطيها. وفي كل لحظة كانت المياه تصفق هذه الأشجار التي تتدلى أغصانها وتجرّ جذورها فتنغمس فيها، وتنتقل أقواسها الخضراء من ضفة إلى أخرى. وأحياناً كانت المياه تجرف إحدى هذه الأشجار وتقتلعها من ترابها، فتقوم بأغصانها فوق النهر مع نباتاتها المعرّشة وأعشاش عصافيرها وطيورها الجاثمة على فروعها؛ ورأينا انجراف عدد من الأشجار، أثناء الساعات التي قضيناها في هذه الواحة الرائعة. وكانت الغابة تتعرّج مع تعرجات النهر، فتنسج حوله أشرطة من الأغصان والأوراق المنغمسة في الماء التي تهمس بها أمواجه الخفيفة. وتقيم مجموعة كبرى من الطيور في هذه الغابات الكتيمة. ونبّهنا العرب كي لا نمشي هناك دون أسلحتنا وكي نحاذر أثناء توغلنا، لأن بعض الأسود والفهود والقطط المتنّمرة تقيم فيها. ولكننا لم نر واحداً منها؛ بيد أننا سمعنا زئيراً ينبعث بين الأجمات، كذلك سمعنا أصوات حيوانات كبرى تزعق. وتجولنا خلال ساعة أو ساعتين في أرجاء هذا النهر الجميل السالكة. وفي بعض الأماكن، لاحظنا أن بدو القبائل العربية المتوحشة المقيمين في جبال البادية، قد أحرقوا الغابة التي كنا فيها كي يتمكنوا من التوغل فيها وجمع الحطب منها. وبقيت جذوع عديدة تفحّم لحاؤها فقط، ولكن النباتات الجديدة نمت حول الأشجار المحروقة، وأحاطت بها عرائش هذه الأرض الخصبة والتفّت حول الأشجار الميتة والأشجار الشابة، فبدت الغابة أكثر غرابة، دون أن تفقد مساحتها ونضارتها. وجمعنا أكواماً من أغصان الصفصاف والحور والأشجار الأخرى ذات الأغصان الطويلة واللحاء الجميل مع أنني أجهل أسماءها كي أقدمها كهدايا لأصدقائنا في أوروبا؛ ثم التحقنا بمخيمنا الذي نقل رجالنا العرب مكانه أثناء جولتنا على ضفة النهر.

لقد اكتشفوا موقعاً أجمل وأنسب لنصب خيامنا فيه، يفوق جميع المواقع التي تجوّلنا فيها لتونا. وكان مكسواً بالعشب الأخضر الناعم المتصل كما لو أن قطيعاً من الغنم قد اكتلأه. وانتشرت في الموقع فوق العشب بعض الشجيرات ذات الأوراق الكبيرة وبعض أشجار الدلب الشابة والجميّز التي كانت تظلّل المكان المعشوشب، كي نأوي إلى ظلالها وكي تبقى خيولنا في جو رطب. وكان «نهر الأردن»، بمجراه القريب،

قد شقّ خليجاً صغيراً قليل العمق وسط الرحبة، وتقدّمت مياهه لتدور حول شجرتين أو ثلاث من أشجار الحور الباسقة. وأتاح لنا أحد المنحدرات السالكة والمؤدية إلى النهر أن نقود خيولنا لتروي ظمأها من مياهه، وأن نسبح فيه نحن أيضاً. ونصبنا هناك خيامنا واسترحنا طيلة ذلك النهار.

وفي اليوم التالي، أي في الثاني من تشرين الثاني، استأنفنا المسير وتوجهنا نحو جبال البادية العالية، وغادرنا «نهر الأردن» والتقينا به حسب تعرجات مجراه، واقتربنا من البحر الميت. وفي مكان ما من الصحراء لا أستطيع تحديد موقعه تماماً، وعلى مقربة من النهر، رأينا أطلال قلعة من القلاع الصليبية بنيت على ما يبدو لحراسة هذا الطريق. وكانت القلعة غير مأهولة، وقد يستخدمها بعض البدو ككمين ينقضون منه على القوافل لينهبوها. وتبدو وسط تلك الكثبان الرملية، كهيكل عظمي لسفينة مهجورة تلوح في أفق البحر.

وعندما اقتربنا من البحر الميت، تناقصت تموّجات التربة، وبدأنا ننحدر نحو الساحل، وصار الرمل لزجاً، فوجدت خيولنا صعوبة للتقدم. وعندما لمحنا أخيراً تلألؤ اللّجة، فقدنا صبرنا، فهرعنا وغطسنا في الأمواج الأولى الغافية أمامنا واللامعة فوق الرمل كأنها الرصاص المذاب. وظن شيخ «أريحا» ورجاله الذين كانوا ما زالوا يتبعوننا أننا نريد أن نؤدي حركة «الجريد» فاندفعوا جميعهم في شتى الاتجاهات وعادوا إلينا وهم يقعقعون ويرفعون رماحهم كما لو كانوا يريدون اختراقنا بها، وفجأة كبحوا خيولهم ونهزوها فمررنا أمامهم ثم انطلقوا ثانية وعادوا. وكنت أول الواصلين، بفضل جوادي التركماني الجديد. ولكنني ما إن صرت على بعد ثلاثين أو أربعين خطوة من الماء، حتى غاص حصاني إلى بطنه في الرمل الرطب ذي القاع الرخو، وخشيت أن أغرق فيه. فترجلت، واقتربنا عندئذٍ من الشاطئ. لقد قام العديد من الرحّالة بوصف البحر الميت. لم أذكر أنا لا ثقله النوعي ولا كمية الملح التي تحتويها مياهه؛ لأنني لا أبحث في هذا البحر عن معلومات علمية أو نقدية. ببساطة وصلتُ إليه لأنه كان في مسار رحلتي، ولأنه يتوسط صحراء اشتُهرت بابتلاعها مدناً ارتفعت سابقاً وحلّت

محلها هذه اللجج الثابتة. إن ضفاف هذا البحر من ناحيتي الشرق والغرب منبسطة، بينما تحيط بها جبال «اليهودية» و«عربة» من ناحيتي الشمال والوسط وتكاد تلامس مياهه أثناء انحدارها. بيد أن جبال «عربة» تبتعد قليلاً، لا سيما في منطقة المصب حيث كنا وقتئذٍ. وكانت تلك الضفاف مقفرة تماماً، والهواء فيها نتناً وكريهاً. وشعرنا بذلك أثناء الأيام العديدة التي قضيناها في تلك الصحراء. فأصبنا جميعنا بثقل في الرأس وبوهن في الجسم، ولم نبرأ منهما إلا بعد أن غادرنا ذلك الجو. لا توجد في البحر الميت أية جزيرة. ولكنني أثناء مغيب الشمس بدا لي أنني شاهدت جزيرتين في طرف الأفق لمحتهما وأنا فوق أحد التلال، قرب منطقة «آدوم». لا يعرف العرب شيئاً من ذلك؛ أجل يبلغ طول البحر في تلك المنطقة ثلاثين فرسخاً على الأقل، ولا يغامرون أبداً بمحاذاة الساحل لمسافة طويلة. ولم يتسنّ لأي رحّالة أن قام بجولة في جميع أرجاء البحر الميت الذي لم يُرَ طرفُه الآخَر، كما لم يُرَ طرفاه في منطقتي «اليهودية» و«عربة». وأظن أننا أوّل من استطاع أن يكتشف بكل حرية أوجهه الثلاث. ولو أتيح لنا متّسع من الوقت، لاستجلبنا من «لبنان» أو «القدس» أو «يافا» ألواحاً من خشب الصنوبر، ولصنعنا هنا زورقاً، ولزرنا بهدوء جميع ثغور هذا البحر المتوسط الرائع. ولكن العرب الذين بالعادة يمنعون الرحّالة من التوغل في هذا البحر ويحولون دونه لأحكام مسبقة، والذين مع ذلك كانوا يلبّون حاجاتنا بالشكل الأمثل، ولو طلبنا منهم ذلك لما صدّونا إطلاقاً. ولو أتيح لي أن أعرف الحفاوة التي أبداها هؤلاء العرب بنا، لنفّذتُ ذلك بالتأكيد. ولكن الوقت قد تأخر لذلك، كان يجب استقدام النجّارين من «القدس» ليصنعوا الزورق، وقد تستغرق منا تجربة الإبحار هذه ثلاثة أسابيع على الأقل، ولكنّ أيّامنا هنا كانت معدودة. فتخليت عن الفكرة، ولكن ليس دون حسرة. في ظروف مشابهة لظروفي، قد يتمكن أحد الرحّالة أن ينفّذ ذلك بسهولة ويلقي الضوء على تلك الظاهرة الطبيعية وعلى تلك المسألة الجغرافية، وهو أمر كان يتمنى النقد والعلم تنفيذه منذ أمد طويل.

في الفكر فقط يبدو منظر البحر الميّت محزناً وكئيباً. لأول وهلة ترى فيه العين بحيرة مذهلة يعكس سطحها الهائل الفضي النور والسماء كأنها مرآة مدينة «البندقية». ترمي الجبال الجميلة التقطيع بظلالها على شطآنها. يقال إنّ الأسماك لا تستطيع أن

تعيش فيها ولا الطيور على سواحلها. لا أستطيع أن أجزم في ذلك. ولكنني لم أر لا الرغائيات ولا النوارس ولا تلك الطيور البيضاء الجميلة التي تشبه الحمام البحري، التي تسبح طيلة النهار فوق أمواج بحر الشام أو تلك التي ترافق زوارق القايق في مضيق «البوسفور». بيد أنني على مسافة مئات الأقدام من شاطئ البحر الميت أطلقت النار وأصبت طيوراً تشبه البط البري كانت تغتسل على الضفاف الموحلة لـ «نهر الأردن». لو كان هواء البحر يقتلها لما اقتربت من دخانه النتن. ولم ألمح أيضاً أطلال المدن الغارقة التي تظهر، كما قيل، على عمق غير بعيد تحت الأمواج. وادعى العرب الذين يرافقونني أنهم يرونها أحياناً. حاذيت لمدة طويلة شواطئ ذلك البحر، تارةً من جهة «وادي عربة» حيث يقع مصب «نهر الأردن» (الذي وصفه الرحّالة على أنه فعلاً بحيرة ماء مالحة لها مجرى موحل)، وطوراً من جهة جبال «اليهودية» التي ترتفع فيها الشطآن وتتخذ أحياناً شكل كثبان الأوقيانوس. وفوق السطح المائي لم نر إلا مشهداً واحداً، وهو السطوع والزرقة والسكون. لقد حافظ البشر على الموهبة التي منحهم إياها الله، في سفر التكوين، وهي أن يسمّوا الأشياء بأسمائها. هذا البحر جميل، إنه يضيء ويغمر بانعكاس مياهه الصحراء الشاسعة التي تحيط به؛ إنه يلفت النظر ويؤثّر في التفكير، ولكنه بحر ميت. إنه بحر تنعدم فيه الحركة والأصوات. ولأن أمواجه ثقيلة جداً على الرياح، فإنها لا تتحول إلى أمواج صاخبة، ولا يصل زبدها الأبيض إلى حصى الشاطئ ولا يداعبه: إنه بحر متجلمد. ولكن كيف تشكّل؟ تقول التوراة وهذا التفسير ممكن إن بركاناً انفتح في جوفه وشكّل سلسلة بركانية رئيسية تمتّد من «القدس» إلى «بلاد الرافدين»، ومن «لبنان» إلى «آدوم»، وحدث هذا عندما كانت سبع مدن مأهولة بالسكان تعيش في سهوله. لقد هز الزلزال هذه المدن. وكان «نهر الأردن» على الأرجح يتجه نحو «البحر الأحمر» ويصب فيه، وفجأة اعتورت طريقه التلال البركانية الخارجة من جوف الأرض وغار في فوهات براكين «سدوم» و«عمورة»، فشكّل هذا البحر الذي أفسده الملح والكبريت والزفت، وهي مواد تنتجها البراكين بالعادة. هذا هو الواقع الذي يمكن تصديقه. والأمر لا يضيف ولا ينقص شيئاً من مفعول تلك الإرادة السيادية والأزلية التي يطلق عليها بعضهم اسم «معجزة»، وبعضهم الآخر اسم

«الطبيعة». أليست الطبيعة والمعجزة شيئاً واحداً؟ أليس الكون شيئاً سوى المعجزة الخالدة والسرمدية؟.

التاريخ نفسه

عدنا من شمال البحر الميت، ومن جانب وادي مار «سابا». وفي هذه المنطقة كانت الصحراء أكثر وضوحاً، إذ تخللتها أمواج هائلة من الأتربة والرمال، بحيث كان علينا أن ندور حولها أو أن نجتازها. وكانت قافلتنا على ظهر تلك الأمواج المتعرجة تشبه أسطولاً يمخر اللجة، فيرى المرء بعض سفنه من خلال ثنايا الأمواج. وبعد ثلاث ساعات من المسير وكنا نمشي أحياناً في سهول صغيرة مستوية تخبّ فيها خيولنا، وأحياناً أخرى على أطراف مهاوٍ عميقة تتزحلق عليها هذه الخيول لمحنا أدخنة منازل «أريحا». فانفصل عنّا العرب الذين كانوا يصحبوننا وفرّوا باتجاه تلك الأدخنة. وبقي معنا إثنان منهم ليدلّونا على الطريق. وعندما اقتربنا من المدينة، عاد إلينا معظم هؤلاء العرب. وخيّمنا وسط حقل تظلله أشجار النخيل، ويجري فيه جدول ماء. وبسرعة نصبنا خيامنا ووجدنا عشاءنا جاهزاً، بفضل الأطعمة التي أتى بها هؤلاء العرب. وكان العربي الذي يمتطي الحصان الذي رغبتُ فيه قد أُعجب هو نفسه بالحصان التركماني الذي اعتليته ليلة البارحة. ودار الحديث بلباقة حول الجياد، وأثنى على عدد من جيادي. فاقترحت عليه أن يبادلني حصانه بالحصان التركماني، وتناقشنا طيلة السهرة حول المبلغ الزائد الذي كان عليّ أن أدفعه، ولكن لم يتقرر شيء. وكل مرة كنت أقترب فيها من السعر الذي حدده، كان يبدي ألماً شديداً لانفصاله عن حصانه، ونمنا دون أن نتفق. وفي اليوم التالي، قبيل الانطلاق، كانت جميع خيولنا متوقفة تحمل راكبيها، فأبديت مرونة في الثمن. وأخيراً قرر أن يمتطي جوادي التركماني، وجعله يخبّ في السهل؛ وإذ أعجب بمزاياه، أرسل إليّ ابنه، فسلّمته تسعمائة قرش، وامتطيت حصانه وانطلقت. وبدا لي أن القبيلة بكاملها حزنت على ذهابه، فكان الأطفال يكلمونه، والنساء يشرن إليه بأصابعهنّ، وعاد الشيخ عدة مرات ليتأمله وليقوم ببعض الإشارات السرية التي يحرص العرب على أدائها عند بيعهم أو شرائهم أحصنة ما. وشعرت بأن الحصان أدرك الفراق، فطأطأ حزناً رأسه المكلل بعُرْف هائل ونظر يميناً ويساراً إلى

الصحراء بعينين حزينتين وقلقتين. إن عيون الخيول العربية لغة بكاملها. فعين الحصان العربي الجميلة ببؤبؤها الناري المنفصل عن بياضها الكبير وعن حدقتها المرمرية تقول كل شيء وتفهم كل شيء.

وكففت لبضعة أيام عن ركوب حصاني المفضّل. وبسبب التطيرات العربية العديدة، أدركت أن أبراج الأحصنة تتضمّن ستين أو سبعين إشارة فأل أو شؤم، ويكاد جميع البدو يعرفون هذه المعلومات. كان الحصان الذي أتكلم عنه والذي أطلقت عليه اسم «لبنان» لأنني اشتريته من تلك الجبال، فحلاً شاباً وكبيراً وقوياً وحكيماً ولا يتعب، ولم أر لديه أي عيب خلال الأشهر الخمسة عشر التي امتطيته فيها. ولكن كان على صدره، وفوق وبره الرمادي الداكن، شكل سنبلة اعتبرها العرب إشارة شؤم. ونُبّهت للأمر عندما اشتريته. ولكنني فكرت تفكيراً بسيطاً يتناسب مع مستوى هؤلاء، وهو أن الشؤم لدى المسلم هو فأل لدى المسيحي. فلم يجيبوني بشيء، وكنت أركب جوادي «لبنان» كل مرة كان عليّ فيها أن أركبه في أسفاري الطويلة والشاقة. وعندما كنّا نقترب من إحدى المدن أو إحدى القبائل، كان العرب والأتراك ينذهلون من جمال «لبنان» ومن قوّة شكيمته، ويُثنون عليّ وينظرون إليه نظرات حاسدة. ولكن بعد لحظات من إعجابهم هذا، كانت العلامة المشؤومة تتكشف من تحت الحزام الحريري والتعويذة الموضوعة على رقبته والتي يحملها كل حصان. فيقترب العرب مني بعد أن تتغير سحناتهم، ويأخذون شكلاً صارماً وحزيناً ويشيرون إليّ ألاّ أركب من بعد هذا الحصان. لم أكن أبالي بالأمر أثناء وجودي في «سوريا»؛ ولكنني في منطقة «اليهودية» وربوع القبائل في الصحراء، كنت أخشى من أن يؤثر ذلك في الحط من شأني ويطيح بالاحترام وبالكلمة المسموعة اللذين حظيت بهما. فتوقفت عن ركوبه، وكان يقاد باليد قربي. ولا شك أن الاحترام والهيبة اللذين أحطنا بهما مردّهما جمال الإثني عشر أو الخمسة عشر حصاناً عربيّاً التي كنّا نركبها أو تتبعنا. الحصان عند العرب هو ثروة الرجل، فله يعود كل شيء؛ لقد كانوا يجلّون الإفرنجي الذي يملك جميع هذه الخيول التي يشبه جمالها جمال جياد شيخهم وجياد الباشا.

وعدنا إلى «القدس» عن طريق ذلك الوادي، الذي اجتزناه عندما وصلنا. وقبل أن ندخل الشعاب الجبلية الأولى، رأينا فوق هضبة فسيحة تطلّ على السهل آثاراً واضحة لأوابد قديمة، وافترضنا أنها الموقع الحقيقي لمدينة «أريحا» القديمة. كي تبنى المدن في السهول، كان على الأولين أن يبلغوا درجة عالية من الحضارة. ولم يكن الأقدمون يخطئون عندما كانوا يبحثون عن المدن القديمة في الأعالي.

في هذا الشعب يتكلم المثل الإنجيلي المؤثر عن السامري والرحمة التي أبداها بعد التقتيل. وفي زمن الإنجيل، يبدو أن هذه الأودية كانت سيئة السمعة.

كان نهارنا مرهقاً، بعد أن مشينا أربع عشرة ساعة على دروب رتيبة، وتحت شمس محرقة تعكسها سفوح الأودية الوعرة؛ وأثناء مسيرنا هذا كله لم نلتق بأي إنسان، إلا راعياً عربياً كان يرعى ماعزه الأسود على سفح أحد التلال.

٢ تشرين الثاني ١٨٣٢، ونحن مخيمون قرب بركة سليمان تحت أسوار القدس

أردنا أن نكرّس نهاراً للصلاة في ذلك المكان الذي يتجه إليه جميع المسيحيين أثناء الصلاة، كما يتجه المسلمون نحو «مكة». فطلبنا من خوري «القدس» الوحيد آنذاك أن يصلي لنا من أجل الأحياء والموتى الذين يخصوننا، ومن أجل أصدقائنا في جميع الأزمان والأماكن، ومن أجلنا أخيراً، وأن يحتفل بذكرى الذبيحة الكبرى والأليمة التي ارتوت فيها هذه الأرض بدم الصدّيق، كي تنبت فيها المحبة والرجاء. وحضرنا جميعنا تلك الصلاة حسب عواطف كل منا وذكرياته وأوجاعه وخسائره ورغباته ومدى تقواه وإيمانه. وكمكان للعبادة، اخترنا مغارة «جتسماني» الواقعة في شعاب وادي «يوشافاط»؛ وكان المسيح يعتكف في هذه المغارة القائمة في أسفل «جبل الزيتون» حسب التقاليد، كي يتجنب أحياناً اضطهادات أعدائه ومضايقات تلاميذه. وهنا تحاور مع أفكاره السماوية، وطلب من أبيه أن يُبعد عن شفتيه مذاق تلك الكأس المرّة التي ملأها بنفسه، كما نملأ نحن كؤوسنا. وهنا قال لأصدقائه الثلاثة، ليلة موته، أن يبتعدوا وألاّ يناموا، واضطر إلى إيقاظهم ثلاث مرات، لأن غيرة المحبة الإنسانية سرعان ما

فترت. وهنا أخيراً أمضى ساعات رهيبة وهو يحتضر في نزاع هائل بين الحياة والموت، بين الإرادة والغريزة، بين النفس الراغبة في الانعتاق وبين المادة التي تقاوم لأنها عمياء! وهنا نضح دماً وماء، ولأنه ملّ من قتال نفسه دون أن يؤمّن انتصارُ الذكاء السلامَ لأفكاره، تلفّظ بكلماته الأخيرة، كلمات أصبحت تمثل حكمة الحكماء أجمعين، كلمات يجب أن تحفر على قبر جميع الحيوات وتُدوِّن وحدها كل الأشياء المخلوقة: «يا أبتِ، فلتكن مشيئتك وليست مشيئتي».

إن موقع تلك المغارة المحفورة في صخرة وادي «قدرون»، هو واحد من المواقع الأكثر ترجيحاً والأفضل تسويفاً، نظراً لشكل الأماكن التي ألصق بها الإيمان الشعبي الورع جميع مشاهد المأساة الإنجيلية، فهنا بالذات يقع الوادي الجاثم بين الظلمة والموت، وتقع الهاوية المخبأة تحت جدران المدينة، وتقع الفجوة السحيقة التي يبتعد عنها الناس بالأحرى، لأن المسيح هاجم جميع أكاذيبهم واستعدى عليه كل البشر، فاضطر أحياناً إلى البحث عن ملجأ يعتكف فيه ويتأمل ويصلي ويتألم! وعلى مقربة من المكان يجري السيل النجس لوادي «قدرون» الذي لم يكن آنذاك إلا كهريزاً لمدينة «القدس». وينكفئ عليها جبل الزيتون وينظم للتلال التي تحمل قبر الملوك، فتشكّل هناك منعطفاً عميقاً؛ وتغطي مدخل المغارة مجموعة من أشجار الزيتون والبطم والتين وبعض الأشجار المثمرة التي ما زال الشعب الفقير يزرعها في تراب المغارة بالذات وحول المدينة الكبيرة. يضاف إلى ذلك أن هذا الموقع لم يتزحزح ولم تشوّهه الأطلال التي دُفنت «القدس» في باطنها. لقد استطاع التلاميذ الذين سهروا وصلّوا مع المسيح أن يعودوا ويقولوا، وهم يدلّون على الصخرة والأشجار: «لقد كان هنا!» الوادي لا يمّحي كما يزول الشارع، وأصغر صخرة تستمر أكثر مما يستمر أفخم الهياكل.

تحيط الآن بمغارة «جتسماني» وبالصخرة التي تغطيها جدرانُ كنيسة صغيرة مغلقة بالمفتاح الذي يبقى عند الرهبان اللاتين في «القدس». فهم يملكون هذه الصخرة وأشجار الزيتون السبع في الحقل المجاور. ويفضي الباب المنحوت في الصخر إلى باحة كنيسة أخرى جليلة تدعى «قبر العذراء»، ويملكها اليونانيون. والمغارة عميقة

وعالية ومقسومة إلى فتحتين تلتقيان في شبه رواق داخلي. وهناك أيضاً عدة هياكل محفورة في الصخر مباشرة؛ ولم يتم تشويه هذا المقام الذي صنعته الطبيعة، ولم تضف إليه الزخرفات العديدة التي نراها في المزارات الأخرى داخل كنيسة القيامة (القبر المقدس) مثلاً. فالقنطرة والأرض والجدران هي من صلب الصخرة نفسها، وما زالت ترشح كأنها تذرف الدمع برطوبة الأرض المحيطة بالمغارة. لقد أقام الرهبان فوق كل مقام لوحة سيئة مصنوعة من النحاس المدهون باللون اللحمي وتمثّل بالحجم الطبيعي مشهد احتضار المسيح الذي يقدم له الملائكة كأس الموت. يا ليتهم انتزعوا هذه اللوحات السيئة التي تشوّه التصورات التي يحّب الخيال الديني أن يخلقها في ظل هذه المغارة الفارغة. يا ليتهم تركوا العيون المغرورقة بالدموع تصعد بحرية ودون تصاوير مادية إلى التأمل بكل ما حدث في تلك الليلة. لو فعلوا ذلك لبقيت هذه المغارة على طبيعتها ولأصبحت أنفَس ذخيرة دينية في تلال «صهيون». ولكن ينبغي على البشر أن يفسدوا دائماً كل ما يلمسونه. واحسرتاه، لم يغيّروا ويفسدوا فقط الحجارة والأوابد التي تمثل تلك المشاهد المرئية. ولكنهم فعلوا ما فعلوه بالعقائد والمعتقدات والأمثلة المستخلصة من دين العقل هذا، ومن دين البساطة والمحبة والتواضع الذي علّمهم إياه ابن البشر وبذل دمه في سبيله. عندما يسمح الله لإحدى الحقائق أن تنزل على الأرض، يبدأ البشر بلعن ورجم الذي نقلها إليهم، ثمّ يستولون على تلك الحقيقة التي لم يتمكنوا من قتلها معه لأنها خالدة. إنها وديعة تركها لهم وورثوها. ولكنّ الأشرار عندما ينتزعون الحجر الكريم من أيدي الحاجّ السماوي، يرصّعونه بحماقاتهم العديدة فتزول معالمه، إلى أن يأتي يوم يلمع ببريقه عليه فيفصل حجر الماس عما أحاط به ولو بعد قرون عديدة فتقول الحكمة عندئذٍ: «هذا هو الحجر الحقيقي، وهذا هو الحجر المزيّف؛ هذه هي الحقيقة، وهذا هو الخطأ!» لذا فإن لجميع الأديان طبيعتين يُذهل اتحادهما العقول. فهناك الطبيعة الشعبية القائمة على المعجزات والخرافات والتطيرات المخجلة، وهي كناية عن خليط فاسد جمعت عناصرَه قرونٌ من الجهل والظلام وشوّهت به فكرة السماء؛ وهناك الطبيعة العقلية والفلسفية التي نكتشف بهاءها وثباتها عندما نمحو بيدنا الصدأ البشري، والتي إن قُدّمت ليوم الخلود الذي لا يفنى، وهو العقل تنعكس

صافيةً كاملة، فتُنير كل شيء وكل عقل ذكي بنور الحقيقة والمحبة الذي نرى ونحب من خلاله «الكائن الجلي»، وهو الله.

التاريخ نفسه

قرب مغارة «جتسماني»، هناك قطعة صغيرة من الأرض ما زالت تظللها سبع أشجار زيتون، ويقول التراث الشعبي إنها نفس الأشجار التي استلقى تحتها يسوع وبكى. أجل إن جذوع هذه الأشجار وجذورها الهائلة تحمل فعلاً ثمانية عشر قرناً انصرمت منذ تلك الليلة الليلاء. جذوع هذه الأشجار هائلة ومؤلفة كجذوع أشجار الزيتون الطاعنة في السن من أغصان عديدة التحمت بلحاء الشجر وشكّلت حزمة من الأعمدة المتداخلة. وتكاد فروعها أن تكون جافة، ولكنها ما زالت تحمل بعض حبّات من الزيتون. وقطفنا بعضاً منها كان متدلياً وقريباً من الأرض، وأسقطنا البعض الآخر بهزّ الأغصان وملأنا جيوبنا منها كي نحملها كذخائر مقدسة أخذت من هذه الأرض، وسنقدمها لأصدقائنا. أفهم أن الروح المسيحية تستعذب الصلاة وهي تمرّر بين أصابعها نوى زيتون هذه الأشجار التي ربما روى المسيح جذورها بدموعه وأخصبها بها، عندما صلى هو نفسه، للمرّة الأخيرة، على هذه الأرض. إن لم تكن هذه الجذوع هي نفسها، فهي على الأرجح فسائل تلك الأشجار المقدسة. ولكن لا شيء لا يثبت أن تلك الأرومات هي مختلفة. لقد جُبت جميع مناطق العالم التي ينبت فيها الزيتون، وعلمت أن هذه الشجرة تعيش قروناً وقروناً، ولم أجد أضخم منها في أي مكان، مع أنها مزروعة في تربة وعرة وقاحلة. لقد رأيت في قمة جبل لبنان أشجار أرز ينسبها التراث العربي إلى عهد الملك «سليمان». لا شيء مستحيل، ذلك أن الطبيعة منحت بعض أنواع النبات ديمومة تضاهي ديمومة الممالك؛ فبعض أشجار السنديان قد عاينت مرور عدد من السلالات الملكية، والبلّوط الذي ندوسه بأقدامنا ونوى الزيتون التي أمررها بين أصابعي، وأكواز الأرز التي يذروها الريح، ستتناسل وتُزهر وستغطي الأرض بظلالها، عندما تعيد للأرض مئاتُ الأجيال اللاحقة حفنةَ التراب التي استمدتها منها. وهذا ليس بمثابة ازدراء للخليقة منّا. فالأهمية النسبية للكائنات لا تقدّر

بمدة حياتها بل بكثافة وجودها. ففي ساعة تفكير وتأمل وصلاة ومحبّة حياةٌ تفوق عمراً كاملاً قضاه أحدهم بشكل فيزيائي بحت. وفي فكر يجوب العالم ويصعد إلى السماء في حيّز زمني زهيد، يصل إليها بجزء من مليون الثانية، أجد حياة تفوق القرون الثمانية عشر التي عاشتها نباتياً هذه الأشجار التي ألمسها، أو حياة الألفين وخمسمائة سنة التي عاشتها أشجار الزيتون السليمانية.

التاريخ نفسه

تناولنا طعام الغداء ونحن جالسون على درجات نبع «سلوان». ثم كتبت بضعة أشعار، ومزّقتها وألقيت قطعها في النبع.الكلام سلاح مثلوم. أجمل الأشعار هي التي لا نستطيع أن نكتبها. الكلمات في كل لغة هي كلمات غير مكتملة، ويجد قلب الإنسان في دقائق أحاسيسه كل يوم، وفي تخيل انطباعاته عن الطبيعة المرئية، يجد أشياء لا يستطيع الفم أن يعبّر عنها، لأنه يفتقر إلى الكلمات. إن قلب الإنسان وفكره هما موسيقيّ مضطر إلى عزف مقطوعة هائلة، ولكنه يعزفها على ملامس بيانو محدودة النوطات. يجدر بالشاعر إذن أن يسكت. فالصمت شعر جميل في بعض الأحيان؛ وتسمعه الروح ويفهمه الله. هذا يكفي.

التاريخ نفسه

أثناء صعودي من وادي «يوشافاط»، عرّجت على قبر «أبشالوم». وهو كناية عن كتلة من الصخور محفورة في قلب جبل «شيلوحا» (سلوان)، دون أن تنفصل عن الصخرة الأولى التي هي قاعدتها. ويبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً تقريباً ويصل عرض كل ضلع من أضلاعها إلى عشرين قدماً؛ أما مقياس القامة البشرية فلا يستخدمه إلا المهندس المعماري. ولها قاعدة مربعة ذات باب يوناني يحتل وسطها ويزينه افريز كورنثي، يعلو قمته شكلٌ هرمي. لا تحمل طابعاً رومانياً ولا يونانياً. ولها شكل صارم وغريب ومدهش وجديد، ويشبه العمائر المصرية القديمة. ذلك أن اليهود لم يكن لهم فنّ

١ - لم يترك اليهود أثراً مبنياً أو فناً باقياً ليحكم الإنسان على مصادره.

معماري خاص بهم[1]. لقد اقتبسوا من «مصر» و«اليونان»، كما اقتبسوا من «الهند» على ما أعتقد، فمفتاح كل عمارة يأتي من «الهند»؛ وأظن أن الأفكار والفنون المتعاقبة تعود إليها. فـ «الهند» هي التي ولّدت «آشور» و«كلدة» و«بلاد الرافدين» و«سوريا» والمدن الصحراوية الكبرى كـ «بعلبك»، ثم أولدت «مصر» والجزر ك«كريت» و«قبرص»، ثم أنجبت منطقتي «أتروريا»[1] و«روما». ثم أرخى الليل سدوله؛ وبعدها جاءت المسيحية التي احتضنت الفلسفة الأفلاطونية أولاً، ثم أحاط بها جهل القرون الوسطى، وأنجبت بعد ذلك حضارتنا وفنوننا الحديثة[2]. ما زلنا في طور الشباب، ونكاد نصل إلى طور الرجولة. سينشأ عالم جديد من الفكر والأشكال المجتمعية والفنون، سينشأ على الأرجح بعد بضعة قرون، وسيخرج من أنقاض القرون الوسطى التي نشهدها اليوم. يشعر المرء أن العالم الأخلاقي يحمل ثمرته وسيتم المخاض في الاختلاجات والآلام. إن الكلام المكتوب والذي تنشره الصحافة، بما يحمل من نقاش ونقد وتمحيص في كل شيء، وبالعقول التي يستنير بها والتي تعالج كل حدث ومعارضة يتمّان في العالم، سيدفع حتماً بالبشرية إلى سن البلوغ. وسينشر الجميع الوحي للجميع. وسيشعشع النور الإلهي وهو العقل والدين عن طريق جميع المراكز البشرية. نعم سيكتب كتاب رائع عن تاريخ الفكر الإلهي في مختلف مراحل البشرية؛ ويبدأ بتاريخ الألوهة في الإنسان، ويتضمن ذلك المبدأ الديني الذي أثّر أولاً في العصور الأولى للبشرية والذي عرفته الغرائز والاندفاعات العمياء، ثم انتقل إلى أصوات الشعراء المنشدين

---

١ - من المؤكد والثابت علمياً أن الحضارات: الفرعونية والأكدية والكنعانية هي الأقدم، ولها شخصيتها وخصوصيتها وأصالتها، ولم تكن حضارة الهند ولا الصين أقدم منها لا من حيث الفن والعمارة ولا من حيث الفكر.

٢ - إن جهل القرون الوسطى - وهو تقسيم تاريخي للزمن من وجهة نظر أوربية - كان محيطاً بأوربا وليس بالحضارة الإنسانية، وفي تلك العصور كان العالم الإسلامي يرفع راية العلم والفكر والفلسفة والحضارة. إن القفز عن حضارة امتدت قروناً ابتداءً من القرن السابع الميلادي، ونشرت معرفة إنسانية عالية في معظم قارات الأرض، وحملت الفلسفة اليونانية وأفلاطون الذي يشير إليها المؤلف إلى الغرب، من الأمور المتعمدة لدى كثير من الغربيين، وتنسحب ظلال ذلك على عرب ينحون نحوهم ويأخذون منهم دون تدقيق.

٣ - إن شريعة حمورابي هي الأقدم في التأسيس للقانون، وأسطورة الخلق البابلي أو «الإينوما إليش - عندما في الأعالي أو عندما العليّ...» هي الأقدم في أساطير التكوين.

(mens divinior)؛ ثم تجلى ذلك التاريخ في لوحات المشرّعين[٣] أو من خلال التعاليم الصوفية التي أفرزتها الثيوقراطيات الهندية والمصرية والعبرانية. وعندما تضمحلّ هذه الأشكال الأسطورية في الفكر البشري الذي استهلكه الزمن وأنهكه تصديق البشر، سنراه ينتشر في المدارس الفلسفية الكبرى في اليونان وآسيا الصغرى، وفي النِحَل الفيثاغورية، وسيبحث عبثاً عن الرموز الكلية، إلى أن جاءت المسيحية واختزلت كل حقيقة ذهنية متنازع عليها وجمعتها في حقيقتين كبريين عمليتين ومؤكّدتين، ألا وهما عبادة الإله الواحد، والمحبة والإخاء بين جميع البشر. وظهرت المسيحية نفسها، التي شابتها المغالطات، شأنها شأن كل عقيدة أصبحت شعبية، وتراكمت عليها معتقدات القرون التي اجتازتها، وكأنه كتب عليها أنها ستغيّر نفسها وستصبح أكثر عقلانية وصفاء في ما يتعلق بالأسرار الزاخرة جداً التي تسربلت بها، وأنها ستدمج بين التجليات الإلهية وتجلي العقل الديني الذي جعلها تتفتّح ورفعها عالياً إلى أفق الإنسانية.

التاريخ نفسه

قبل أن نبدأ بوادي «قدرون»، شمالي «القدس»، اجتزنا بعض الحقول ذات التربة المحمرّة والأكثر خصباً والتي تغطّيها غابة من أشجار الزيتون. وعلى مسافة مائة خطوة من المدينة، وجدنا أنفسنا على حافة مقلع عميق الغور، فنزلنا إليه. كانت على اليسار كتلة صخرية منحوتة بعناية تمتّد على عرض المقلع كله، فرأينا في الأسفل فتحة ضيقة شبه مغلقة بسبب التراب والحجارة المنهارة. وبالكاد يستطيع الإنسان أن ينزلق إليها زاحفاً على بطنه. دلفنا إليها، ولكن بما أنه لم يكن معنا ولاّعات أو مشاعل خرجنا فوراً ولم نزر الغرف الداخلية التي كانت تحوي قبور الملوك. ويدلّ افريز المقبرة المنحوت بطريقة باذخة وبأداء يوناني جميل وهو الأسلوب المسيطر على الصخرة الخارجية

١ – من الثابت، والمسجل في التوراة، ومما أشار إليه المؤلف نفسه، أن « هيكل سليمان» وما بناه وأسرف في تجويده، تم بمساعدة حيرام ملك صور الفينيقي – الكنعاني، وأن الخشب والفنانين السوريين المبدعين في العمارة والنقش والنحت أرسلهم ذلك الملك الكنعاني إلى القدس لينجزوا لسليمان ما أراد.. فكيف أصبح ذلك من عبقرية الهند ونُسي دور هؤلاء العرب الكنعانيين وأهملت عبقريتهم، في حين أن آثارهم الباقية في صور وسواها ما زالت تشهد على تلك العبقرية؟.

على أن تزيين العمائر يعود إلى العصور اليونانية الأكثر ازدهاراً؛ إلا أنها ترتقي ربما إلى الملك «سليمان». فمن يستطيع أن يعرف ما اقتبسه هذا الأمير الكبير من عبقرية «الهند» و«مصر»؟[1].

٣ تشرين الثاني ١٨٣٢

إن الطاعون الذي فتك بالناس في «القدس» وضواحيها لم يسمح لنا بالدخول إلى «بيت لحم» التي أغلقت فيها الكنيسة والدير. ولكننا في المساء ركبنا خيولنا واجتزنا هضبة طولها فرسخان تقريباً وتطل على شرقي «القدس»، وبعدها وصلنا إلى مشارف «بيت لحم» ومنها اكتشفنا تماماً معالم المدينة الصغيرة. وما إن جلسنا حتى وصلت إلينا ثلة كبيرة من الفرسان الأعراب قدِموا من «بيت لحم» وطلبوا مقابلتي. وبعد التحيات المعهودة، قالوا لي إن سكان «بيت لحم» كلّفوهم بأن يطلبوا مني أن أتدخل لدى «إبراهيم باشا» كي يخفّف عنهم الضرائب، وإنهم يعرفون، بسبب صيتي وعن طريق عرب «أبو غوش» زعيمهم، أن «إبراهيم باشا» هو صديقي وأنه بالتأكيد لن يرفض لي طلباً، إن التمست الرأفة بهم. وبما أن الأعراب التلاحمة هم أكره قوم في هذه المناطق، دأبهم قتال جيرانهم، ودأبهم ارتهان دير اللاتين في «بيت لحم»، أجبتهم بصرامة ولمتهم كثيراً على سرقاتهم، وقلت لهم أيضاً إنني سأهتم بمطلبهم وأقدّمه للباشا بشرط أن يحترموا الأوروبيين والحجّاج وأديار «بيت لحم» و«مار سابا» في الصحراء بخاصة. وقلت لهم إن سمحوا بأي سطو على هؤلاء الرهبان المساكين، فإن «إبراهيم» سيستأصل شأفتهم وسيطردهم إلى البادية. وأضفت (وهذا ما أثّر فيهم تأثيراً كبيراً): إن لم تكفِ قوات «إبراهيم باشا»، فإن باشاوات أوروبا عازمون على المجيء بأنفسهم وعلى إعادتهم إلى جادة الصواب[1]. وبانتظار ما سأفعل، حرّضتهم على دفع الضريبة. ومنذ ذلك اليوم وحتى عودتي كان يطاردني على الرغم من إصراري على صرفهم عدد من شيوخ البدو في «بيت لحم» و«الخليل» وصحراء «القديس يوحنا»، كانوا يصرون عليّ كي أتدخل لتخفيف الضريبة عنهم. وعندما عدت

١ - لا يمكن الجزم بأن مواقف المؤلف وتهديده ووعيده ووعوده تشير إلى مهمة أبعد من مهمة الحاج والسائح، ولعله استعمل

إلى المخيّم في وادي بركة «سليمان»، تحت أسوار «صهيون»، تلقيت زيارة «أبو غوش» الذي أتى مع عمه وأخيه يستعلم عن أخباري. فقدمت لهم القهوة والغلايين، وتحدثنا ساعة أمام خيمتي، وجلس كل واحد منا تحت شجرة زيتون.

التاريخ نفسه

وصلتني رسائل عن طريق «يافا» من «أوروبا» ومن «بيروت»، وُضعت لي تحت أسوار «القدس». وكانت هذه الرسائل تطمئنني عن صحة ابنتي. ولكن بما أنها أضافت في نهاية رسالة أمها أنها لا تريدني بتاتاً أن أذهب إلى «مصر» في هذا الوقت، غيّرت وجهة مسيري. وألغيت قافلتي من الجمال التي ستأتيني من «العريش»، وقررت الذهاب إلى ربوع «الشام». فطوينا خيامنا، وتبرعت للدير بمبلغ خمسمائة قرش، بالإضافة إلى الخمسمائة قرش التي دفعتها ثمناً للمسابح والذخائر والصلبان، إلخ. ثم سلكنا طريق صحراء «القديس يوحنا».

كوصف عام لضواحي «القدس» أقول باقتضاب: إنها جبال دون ظلال، وأودية دون ماء، وأرض دون خضرة، وصخور دون مهابة وجلال؛ هي كناية عن كتل من الحجارة الرمادية الناتئة من أرض مفتتة ومصدّعة، ونشاهد فيها من حين لآخر شجرة تين أو غزالاً أو ابن آوى ينساب بين شقوق الصخر دون أن يشعر به أحد، ونصادف أحياناً بعض جفنات من العنب الزاحف على الرماد الداكن أو على التراب المحمرّ، ونرى في البعيد مجموعة من أشجار الزيتون الباهتة تلقي ببعض الظلال الخفيفة إلى سفوح التلال الوعرة. وفي الأفق نلمح شجرة بطم أو خرّوب أسود تنفصل حزينة ووحيدة عن زرقة السماء، ورأينا أسوار المدينة وأبراج التحصينات الداكنة تنتصب في البعيد على سفح جبل «صهيون». هذه هي ديار «القدس». لها سماء عالية وصافية ونقيّة وعميقة، لا تحجبها أية غيمة ولا تلوّنها أية سحابة بأرجوان المساء والصباح. وباتجاه «وادي عربة» هناك كهف واسع ينفغر بين الجبال السوداء وينقل الأنظار حتى أمواج «البحر الميت» المتلألئة وحتى الأفق البنفسجي الذي يلفّ قمم جبال «موآب». لم نسمع زفرة واحدة للريح الهامسة بين الحزّيات أو بين أغصان الزيتون الجافة. لم

نسمع طائراً واحداً يغرّد أو صراراً واحداً يجدجد بين الأثلام الجرداء: كان هناك صمت مطبق، صمت أبدي، يخيّم على المدينة والدروب والريف. هذه صورة «القدس» كما رأيتها خلال الأيام التي قضيناها تحت أسوارها. لم أسمع فيها إلا صهيل خيولنا التي ملّت من الشمس، والتي كانت تعفّر الأرض بسنابكها حول مخيمنا. ومن وقت لآخر كنا نسمع صوت المؤذن الحزين ينبعث من أعلى المئذنة، أو إيقاع عويل البكّائين الأتراك الذين يشيّعون بصفوفهم الطويلة الموتى الذين قضى عليهم الطاعون وينقلونهم إلى المقابر التي تحيط بالأسوار. «القدس» التي يريد المرء أن يزور فيها القبر المقدس، أصبحت قبراً لشعب بكامله، قبراً دون أشجار سرو ودون كتابات وأضرحة، قبراً مفتوحاً يبدو رماده وكأنه يغطي الأرض المجاورة له بالحزن والصمت والعقم. قبل أن نغادرها، ألقينا عليها أنظارنا مرات عديدة، ومن أعلى التلال كنا ننظر إليها؛ وأخيراً ألقينا النظرة الأخيرة على إكليل الزيتون المحيط بالجبل الذي يحمل هذا الاسم والذي يسبح مديداً في الأفق بعد اختفاء المدينة عن أبصارنا، رأيناه ينخفض في أفق السماء ويزول، شأنه شأن أكاليل الزهور الشاحبة التي تلقى فوق القبور.

كان علينا أيضاً أن نعود إليها، ولكن واحسرتاه ليس بالمشاعر نفسها؛ فلم نبكِ على مصائب الآخرين، وإنما لكي ننتحب على مصائبنا نحن ولكي نسقي هذه الأرض بعبراتنا، هذه الأرض التي شربت منها الكثير ثم جفّت بها.

أمس غرزت أوتاد خيمتي في حقل مليء بالحجارة نبتت فيه بعض جذوع الزيتون الهزيلة والمليئة بالعقد، وكان الحقل يقع تحت أسوار «القدس» وعلى مسافة مائة خطوة تقريباً من «برج داود»، وفوق نبع «سلوان» بقليل الذي ما زال ينساب على بلاط مغارته المهترئ، وليس ببعيد عن قبر الشاعر الملك الذي كم تغنّى به. إن مدينة «القدس» التي فتك بها الطاعون، كانت تسطع بقبابها الألف وبرخامها الأبيض وبأبراجها الحجرية المذهبة وبأسوارها التي صقلتها القرون وبرياحها المالحة القادمة من بحيرة الإسفلت، كانت تسطع تحت أشعة الشمس المبهرة. لم يكن ينبعث أي صوت من داخل أسوارها الصامتة والميتة التي تشبه سرير الإنسان المحتضر. كانت أبوابها الواسعة مفتوحة،

وكنا نرى أحياناً العمامة البيضاء والمعطف الأحمر اللذين يلبسهما الجندي العربي الذي يحرس هذه الأبواب بلا جدوى، إذ لم يكن يأتي شيء ولم يكن يخرج شيء. وحده هواء الصباح كان يحرك غبار الطرق، ولوهلة يعطي الإنطباع بأن هناك قافلة. ولكن عندما تعبر هبّة الريح، وعندما تموت وهي تصفر فوق الحزّيات التابعة لبرج «البيزانيين»[1]، أو فوق النخلات الثلاث المزروعة في بيت «قيافا»[2]، كان الغبار يهدأ، وكانت الصحراء تظهر من جديد، ولم يكن يقرقع فوق بلاط الطريق خفّ جمل أو حافر بغل. وكل ربع ساعة كانت مصراعات الأبواب الحديدية تنفتح، وكنا نرى ضحايا الطاعون يحملهم العبيد العراة على المحامل ويوصلونهم إلى القبور المنتشرة حولنا. وأحياناً كان يشيّع المتوفى موكب كبير من الأتراك والعرب والأرمن واليهود، ويرتلون وهم ماشون بين جذوع أشجار الزيتون، ثم يعودون صامتين وبخطى وئيدة إلى المدينة. وفي أحيان كثيرة كان الموتى وحدهم؛ وبعد أن يحفر العبدان الحفرة ويصلان فيها إلى بضعة أشبار داخل الرمل أو تراب التلة، ويمدّدان الموبوء فوق مقره الأخير، كانا يجلسان فوق التراب الذي هالاه فوق القبر ويتقاسمان ثياب الميت، ويشعلان غليونين طويلين ويدخنان صامتين وناظرين إلى الدخان المنبعث من غليونيهما وهو يتصاعد كعمود أزرق خفيف ويتلاشى في الهواء الصافي والمنعش والشفّاف في هذه الأيام الخريفية.

وتحت قدميّ كان وادي «يوشافاط» يمتد كقبر فسيح؛ وكان «قدرون» الناضبة مياهه يجتازه تاركاً مُزْقة بيضاء محاطة بالحجارة الزرقاء تخترقه، وكانت سفوح التلتين المجاورتين مليئة بالقبور المجصصة والعمائم المنحوتة التي تعلو قبور العثمانيين. وعلى اليمين كان «جبل الزيتون» يهبط، وبين سلاسل المخروطات البركانية المتفرقة بين جبال «أريحا» ومار «سابا» الجرداء، كان الأفق يمتد فسيحاً كأنه شارع مضاء، وينتشر بين نواصي السرو المتفاوتة الطول، فيحط عليها النظر الذي جذبه التماع البحر الميت الأزرق الرصاصي. وخلفه كانت سلسلة جبال البادية تقيم حداً للأفق. إن كلمة

١ - ربما كانت الكلمة « البيزنطيين»، وهو في هذه الحالة قلعة داود، أو قلعة صهيون سابقاً، وهي بالذات قلعة اليبوسيين التي بناها اليبوسيون عام ٣٢٠٠ ق . م.

٢ - بيت قيافا هو : كنيسة صياح الديك في سلوان.

«حدّ» هنا ليست دقيقة، لأن تلك الجبال كانت تبدو شفافة كالبلور،فيرى المرء أو يبدو له أنه يرى خلفها أفقاً غامضاً غير محدود يمتد ويسبح في الضباب المحيط المنبعث من هواء ملّون بلون قرمزي اسفيداجي.

وحلّت الظهيرة، أي الوقت الذي يترصّد المؤذن فيه الشمس على أعلى طبقة من طبقات المئذنة، ورتل صلاة الظهر وصلاة جميع الساعات؛ وكان صوته حياً ونشيطاً يعرف ما يقوله وما يرتله، وصوته يفوق برأيي رنين الأجراس اللاواعية في كاتدرائياتنا. ووضع المرافقون لي من العرب الشعير في المخالي المصنوعة من شعر الماعز وقدموها لخيولي المربوطة حول خيمتي والمقيدة أرجلها بالقيود الحديدية؛ لقد كانت هذه الحيوانات الجميلة والوديعة ثابتة في مكانها، تطأطئ رؤوسها وتستظل بعروفها الطويلة المنتشرة، وكان وبرها الرمادي يلمح ويدخّن تحت أشعة الشمس الرصاصية. وكان الرجال مجتمعين في ظل أكبر شجرة زيتون، ومدوا على الأرض حُصُرهم الشامية وراحوا يدخنون ويروون لبعضهم قصص الصحراء وينشدون أبياتاً للشاعر «عنتر». و«عنتر» هذا هو مثال العربي التائه، وهو راع ومحارب وشاعر كتب الصحراء بكاملها في قصائده الوطنية، قصائده الملحمية كقصائد «هوميروس»، قصائده الشاكية كسِفر «أيوب»، قصائده الغزلية كقصائد «ثيوكريت»، قصائده الفلسفية كسفر «سليمان»، وينام خيال العربي على أشعاره أو يتهلل بها، شأنه في ذلك شأن تنباك الأراكيل، وكانت حروف الأبيات تفرقع على ألسنة سائسي الخيل المتجمهرين، وعندما كان الشاعر يعزف على الوتر الحساس ويصيب مأخذاً في نفوس هؤلاء الرجال الأشداء[1]، ولكن السريعي التأثر، كنا نسمع شفاههم تدمدم، فيجمعون عندئذٍ أكفّهم ويرفعونها فوق آذانهم ويطأطئون رؤوسهم ويهتفون: الله، الله، الله!.

ولاحقاً، عندما تذكرّتُ تلك الساعات التي كانوا يمضونها وهم يستمعون إلى هذه

١ - لا يوافق هذا الوصف إشارته إلى استمتاعهم بالشعر وتأثرهم به تأثراً عميقاً ينم عن فهم لأداء في مستوى حضاري هو الشعر. وعنترة العبسي الشاعر لم يكن مثالاً للعربي التائه كما يصفه. ومن المستغرب أن يطلق الشاعر لامارتين حكماً من هذا النوع وأن يجري مقارنات، ما دام لم يقرأ شعره.

الأبيات، التي لم أكن أفهمها، طلبتُ جاهداً بعض المقاطع من القصائد الشعرية والشعبية، ولا سيما قصيدة «عنتر» البطولية. فتوصلت إلى جمع بعضها، وكان مترجمي يترجمها لي أثناء الأماسي الشتائية التي أمضيتها في لبنان. وبدأت أفهم شيئاً من العربية، ولم يتوافر لي ما يكفي لأقرأها، وكان مترجمي ينقل لي أبيات القصيدة إلى اللغة الإيطالية العامية، وبعدئذٍ كنت أنقلها كلمة كلمة إلى اللغة الفرنسية. وحافظت على هذه المحاولات الشعرية غير المعروفة في أوروبا، وسأدرجها في نهاية هذا الكتاب. وسيرى القارئ أن الشعر منوط بكل مكان، وبكل زمان، وبكل حضارة.

كما قلت لتوي، شعر «عنتر» هو الشعر الوطني للعربي التائه، وهو الكتاب المقدس لخياله. كم رأيت العرب الذين معي يتجمهرون متربعين في المساء حول نار مخيمنا، ويمدون أعناقهم ويشنفون آذانهم ويصوّبون أبصارهم النارية نحو واحد منهم راح ينشد بضعة أبيات من تلك القصائد الرائعة، وتلفّهم سحابة من الدخان المنبعث من تلك الغلايين وتخلق فوق رؤوسهم جواً حلميّاً مذهلاً، وكانت جيادنا تحني رؤوسها فوقهم كأنها تصغي إلى الأصوات الرتيبة لأسيادها. كنت أجلس قريباً من حلقتهم وأستمع، دون أن أفهم ما يقال. ولكنني كنت أفهم نبرة الصوت وتعابير الوجوه واختلاجات السامعين. كنت أعلم أنها شعر، فأتخيّل القصص المؤثرة والمأساوية والمدهشة، فأعيد إنشادها في قلبي. وهكذا عندما أستمع إلى موسيقى رخيمة ومؤثرة، أخالني أستمع إلى كلماتها، وأرى أن شعر اللغة المغنّى يكشف لي شعر اللغة المكتوبة ويكلّمني. أينبغي أن أقول كل شيء؟ لم أقرأ قط شعراً شبيهاً بذلك الشعر الذي كنت أسمعه على لسان هؤلاء العرب وبتلك اللغة التي لا أفهمها: كان الخيال يتجاوز دائماً الواقع، وكنت أظنّ أنني أفهم شعر الصحراء البدائي المتوارث. كنت أرى الجمل والحصان والغزال؛ كنت أرى الواحة ونواصي النخيل التي تطل بلونها الأخضر المائل إلى الصفرة وتبزغ فوق كثبان الرمال الحمراء الهائلة؛ كنت أرى المعارك بين المتحاربين، وأرى الفاتنات العربيات الشابات يُسبَيْنَ ثم يُسْتعدن في وطيس الوغى ويدركن عندئذٍ أن الذين حرّروهن هم عشاقهن.هذا يذكّرني بأنني كنت أشعر بمتعة أكبر عندما كنت أقرأ شاعراً أجنبيّاً

بترجمة رثة باهتة، فأقدّره أكثر من الأصل؛ ذلك أن الأصل الأكثر جمالاً يترك دائماً عدداً من الثغرات في التعبير، وأن الترجمة السيئة لا تشير إلا إلى الفكرة وإلى الدافع الشعري، وأن الخيال ينمّق هو نفسه هذا الدافع بعبارات يعتبر أنها بشفافية الفكرة نفسها، فيشعر بمتعة تامة يخلقها لنفسه. ولأن اللامحدود هو في الفكر، فإن الفكر يفترض وجوده في العبارة، وهكذا تصبح المتعة لامحدودة، كي يحصل المرء على هذه المتعة، ينبغي أن يكون إلى حدّ ما موسيقياً أو شاعراً ، ولكن مَن ليس بهما؟

إن «عنتر» البطل وشاعر العربي التائه، يكاد يكون غير معروف عندنا . إننا نعرف قصته معرفة سيئة، لا بل نجهل تاريخ وجوده بالضبط. بعض العلماء يدّعون أنه عاش في القرن السادس الميلادي. وتقول التقاليد المحلية إنه عاش قبل ذلك بكثير. حسب هذه التقاليد المقتبسة من شعره، كان «عنتر» عبداً زنجيّاً حصل على انعتاقه بمآثره وفضائله، وحصل على سيدته «عبلة» بحبّه وبطولته. كما الحال عند «هوميروس»، ليست قصيدة «عنتر» مكتوبة شعراً بكاملها، هي شعر عربي منثور، شعر صرف وقديم تماماً؛ وقسم القصة المكتوب نثراً أهم بكثير من المقاطع الغنائية التي تتخلله[1]. أما القسم الشعري فيشوبه التكلف والتصنع وأسلوب آداب الانحطاط؛ لا أجد شعراً أكثر بساطة وطبيعية وتأثيراً من الشعر المنشَد والمروي. إن كل ما قرأته عن الشعر العربي القديم والحديث يتعلق إلى حدّ ما بهذا البحث الشقي عن شعر «عنتر»، فهو تلاعب بالألفاظ، وتلاعب بالأفكار والصور كتبت لتسلية الروح أكثر منه للتأثير في القلب[2]. ينبغي أن تمضي قرون ليصل المرء إلى تعبير الطبيعة البسيط والرائع. ويرى العرب أن الشعر ليس سوى طريقة ذكية للهزل تحرك العقول والمشاعر[3]. وأستثني من ذلك تلك القصائد الدينية التي كتبها أحد الأساقفة الموارنة في جبل لبنان؛ وأنقل بعض هذه

١ - إنه يتكلم عن الحكاية الشعبية «عنترة بن شداد» كما يحكيها الخيال الشعبي وتتخللها أشعار يتفاعل معها الناس. وليست تلك قصائد عنترة بالضرورة والنص.

٢ - هذه أحكام جاهل بالشعر العربي تماماً، وفي إطلاقها جرأة نادرة على الحقيقة. وكم كنت أتمنى عدم إطلاق الشاعر لامارتين مثل هذه الأقوال والأحكام على ديوان العرب - الشعر الذي لم يطلع على شيء منه.

٣ - هذه أحكام وأقوال لا تقوم على معرفة ولا تعبر عن حقيقة.

القصائد الجديرة بالأماكن التي استلهمتها وبالمواضيع المقدسة التي كرّس هذا الراهب التقي عبقريته الذكرية لها. إن هذه القصائد الدينية أكثر بهاء ورقّة من كل القصائد الدينية التي أعرفها في أوروبا، ففيها نبرة من نبرات «أيوب» وعظمة «سليمان» وأسى «داود».

يؤسفني أنه لم يوجد مستشرق قدير ترجم لنا حتى الآن جميع أشعار «عنتر»، ستكون هذه الترجمة أفضل من كل رحلة، إذ لا شيء يهذب الأخلاق أكثر من الشعر. وربما ستجدد هذه الترجمة شباب الوحي عندنا، وذلك بالألوان الجديدة جداً التي استقاها «عنتر» من فترات وحدته، وستكون ممتعة إمتاع كتب «أريوستى» (Arioste) ومؤثرة تأثير كتاب «تاسو» (Tasse) .لا شك عندي في أن الشعر الإيطالي الذي كتبه كلّ من «أريوستى» و«تاسو» هو شقيق الشعر العربي؛ فتقارب الأفكار الذي أنتج قصر «الحمراء» و«إشبيلية» و«غرناطة» وعدداً من كاتدرائياتنا، هو الذي أنتج كتاب «القدس» والمسرحيات الرائعة لشاعر «ريجيو» (Reggio) [هو لقب أريوستي] «عنتر» هو أهم من «ألف ليلة وليلة» لأنه أقل خوارقية. فقد استقى الاهتمام كلّه من قلب الإنسان ومن المغامرات الحقيقية أو الممكنة التي أقدم عليها الشاعر وحبيبته. لقد ترجم الإنكليز هذه القصيدة الرائعة ترجمة تكاد تكون كاملة. أما نحن فلا نملك إلا بعض المقاطع المبثوثة في بطون مجلاتنا الأدبية. وقد يتمكن القارئ، عندما يقرأ المقاطع المدرجة والناقصة في نهاية هذا الكتاب أن يلامس الروعة المدهشة للنص الأصلي.

على مسافة خطوات منّي، كانت امرأة تركية تبكي زوجها المدفون تحت أحد تلك الحجارة البيضاء التي تنتشر فوق جميع التلال المحيطة بمدينة «القدس». وكانت تناهز الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها، ولم أر في حياتي مشهداً مذهلاً للألم كما رأيته عند تلك المرأة. وأتاحت لي قامتها الجانبية ومنديلها النازل على ظهرها أن ألمح أجمل تقاطيع الرأس البشري في الـ «بارثينون»، ولكنني رأيت فيها أيضاً اللدونة والعذوبة وجمال الاسترخاء لدى نساء آسيا، وهو جمال أكثر أنثوية يحبه القلب ويستعذبه أكثر مما يحب التماثيل اليونانية ويستعذبها. كان شعرها أشقر برونزياً وذهبياً كنحاس التماثيل القديمة، وهو لون مرغوب فيه جداً في بلاد الشمس هذه، إذ يعكس أشعتها

باستمرار.كان الشعر المفلت من رأسها ينزل ويلامس الأرض فعلاً، وكان صدرها مكشوفاً كله، حسب عادة النساء في هذه المنطقة من بلاد العرب؛ وعندما كانت تنحني لتقبّل العمامة الحجرية أو لتلصق أذنيها بالقبر، كان ثدياها العاريان يلامسان التراب ويحفران شكليهما فوقه، شأنهما شأن ثديي «أتالا» (Atala) الدفينة التي رسمتها رمال القبر، كما ورد في الملحمة الرائعة التي كتبها السيد «دي شاتوبريان». لقد غطّت هذه المرأة القبر وما يحيط به بتشكيلة من الزهور، وفرشت تحت ركبتيها بساطاً دمشقياً ووضعت فوقه آنية ملأى بالزهور وسلة تين وكعك مصنوع من الشعير، لأن المرأة ستمضي نهارها بكامله وهي تبكي[1]. وحفرت ثقباً في الأرض فوق أذن الميت كي تستطيع أن تتكلم مع العالم الآخر وتخاطب الرجل الذي أتت لزيارته. وكانت من وقت لآخر تنحني نحو تلك الفتحة، وكانت ترتّل منها بعض التراتيل التي يقطعها النحيب، ثم تلصق أذنها بها، كما لو أنها كانت تصغي إلى الجواب، ثم تعود إلى الترتيل والنحيب. حاولت أن أفهم الكلام الذي تتمتم به والذي يصل إلى مسامعي، ولكن مترجمي العربي لم يستطع أن يفهمه وأن ينقله. كم يؤسفني ذلك! كم هي عديدة أسرار الحب والألم! كم هي كثيرة تلك الزفرات التي عاشها روحان خلال حياة بكاملها ثم انقطع واحدهما عن الآخر، وكم تحتوي تلك الكلمات المبهمة على دموع ودموع! هل هناك شيء يستطيع أن يوقظ ميتاً من قبره؟ كانت المرأة تهمس بمثل تلك الكلمات المنطلقة من فم كهذا.

وعلى مقربة من تلك المرأة، وتحت قطعة نسيج أسود نصبت على عودين من القصب غرسا في الأرض وكانا بمثابة خيمة، راح طفلاها الصغيران يلعبان مع عبداتها الحبشيات الثلاث اللواتي تربّعن على الأرض مثل سيدتهن فوق البساط. وكن ثلاثتهن شابات وجميلات، ولهن قدود ممشوقة متماوجة كقدود الزنجيات في «الحبشة»، وكن بأوضاعهن المختلفة يشبهن ثلاثة تماثيل صنعت بكتلة واحدة. فكانت إحداهن تلامس بركبتها الأرض وفوق الأخرى تضع طفلاً يمدّ ذراعيه نحو أمه الباكية،

---

١ - ما تحمله زائرات القبور من طعام وغيره هو عادة حسنة يقدم لمن يطلبه أو يرغب فيه بالدرجة الأولى، وليس زوادة لمن يقمن بالزيارة.

وكانت الثانية تثني رجليها تحتها وتجمع يديها مثل «مريم المجدلية» في لوحة الفنان «كانوفا» (Canova) وتلصقهما بوزرتها الزرقاء؛ أما الثالثة فكانت واقفة وتتكئ على زميلتيها وتتمايل ذات اليمين وذات اليسار وتهزّ فوق ثديها الذي بدأ يتكوّر أصغر الولدين محاولةً أن تُنيمه، دون جدوى. وعندما كان نحيب الثكلى الشابة يتناهى إلى مسامع الطفلين، كانا يجهشان بالبكاء، وبعد أن انتحبت العبدات الثلاث مع سيدتهن، رحن يغنّين أنغاماً مُنْعِسة وأغاني طفلية من بلادهن لتهدئة الولدين.

وكان ذلك اليوم يوم أحد؛ وعلى مسافة مائتي خطوة من مكاني سمعت، من خلف الأسوار الكثيفة والعالية لمدينة «القدس»، أصداء نائية وخافتة لصلاة المساء تنطلق من تحت قبة دير الروم السوداء. كانت أناشيد ومزامير «داود» تنبعث بعد ثلاثة آلاف سنة وتترنم بها أصوات أجنبية بلغة جديدة، ولكن فوق التلال نفسها التي ألهمتها. ورأيت فوق أسطح الدير بضعة رهبان مسنين يروحون ويجيئون، ويحملون بين أيديهم كتب صلواتهم ويرددون همساً تلك الصلوات التي ردّدتها قرون عديدة وبلغات وأنغام شتى.

وأنا كنت هنا أيضاً أترنم بجميع هذه الأشياء، وأدرس القرون الطويلة انطلاقاً من مهدها، وأعود إلى الأصل المجهول لحضارة ما ولدين ما، ولأستلهم روح الأماكن ولأستوعب المعنى الخفي للقصص المروية وللأوابد، من هذه الضفاف التي انطلق منها العالم الحديث، ولأغذّي بحكمة أكثر واقعية وبفلسفة أكثر صحة الشعر الفكري الصارم في العصر الذي نعيشه.

إن هذا المشهد الذي ساقته الصدفة أمام ناظري والذي رسّخ من ذكريات إحدى الرحلات الألف التي قمت بها، أراني مصائر كل شعر بشتى حقباته: فالعبدات الزنجيات الثلاث وهن يهدهدن الطفلين ويغنين لهما بعفوية أغاني بلادهن أسمعنني الشعر الرعوي المهذّب لطفولة الأمم؛ وأسمعتني الأرملة التركية الشابة التي كانت تبكي زوجها وتغنّي للتراب نحيبَها، أسمعتني الشعر الغزلي المتيّم، شعر القلب؛ كذلك أسمعني الجنود والمكارية العرب الذين يرددون أشعار «عنتر» الحربية والغزلية الرائعة، الشعر الملحمي والحربي الذي تتغنى به الشعوب البدوية أو الشعوب الغازية؛ وأسمعني الرهبان اليونانيون الذين يرتلون المزامير من فوق الأسطح المنعزلة الشعرَ الغنائي

المقدس الذي أتت به قرون الحماس والتجديد الديني. ورحت، وأنا أتأمل تحت خيمتي، وأجمع الحقائق التاريخية والأفكار المتعلقة بالأرض كلها، رحت أفكر في شعر الفلسفة والتأملات، وهو الشعر الذي أنتجته مرحلة كانت البشرية فيها تبحث عن نفسها وتختزل نفسها في الأناشيد التي تزجّي فيها أوقات فراغها.

هذا هو الشعر بكامله كما تجلّى لي في ماضيه، فكيف سيكون في المستقبل؟.....

٤ تشرين الثاني ١٨٣٢

أمضينا السهرة والليل في صحراء «القديس يوحنا»، واستأذنّا من رهباننا الأكارم الذين سنحافظ دائماً على ذكراهم؛ فذكرى الفضائل المتواضعة والكاملة تبقى في النفس، كأريج عطر الهيكل الذي مررنا به. وأعطينا الآباء الطيبين صدقة قد تكفي لسد النفقات التي كبّدناهم إياها. أجل إنهم لم يبالوا بالخطر الذي يمكن أن ينجم عنا. وطلبوا مني أن أتوسّط ليحظوا بحماية «أبو غوش» الذي كان علي أن أراه في «إرميا». وقبل انبلاج الصبح انطلقنا متجنبين ازعاجات بدو «بيت لحم» وصحراء مار «سابا» الذين لم يملّوا من اللحاق بي والذين بدأوا يهددونني. في الساعة الثامنة صباحاً اجتزنا الجبال العالية التي يطل عليها قبر «المكابيين»، وجلسنا تحت أشجار التين في «إرميا» ورحنا ندخن غلايينا ونشرب القهوة مع «أبو غوش» وعمه وإخوته. وغمرني «أبو غوش» بعلامات الاهتمام والرفق؛ وقدّم لي حصاناً، ولكنني رفضته إذ لم أشأ أن أقدم له بدوري هدية قد تبدو اعترافاً بالجزية[1] التي يفرضها بالعادة على الحجاج، وهي جزية ألغاها «إبراهيم». وأوصيته بحماية رهبان «القديس يوحنا» و«بيت لحم» و«القدس». وعرفت بعدئذٍ أنه خلّصهم فعلاً من عربدة بدو الصحراء؛ ولم يكن يشك بالأحرى، عندما طلبت منه حماية هؤلاء الرهبان الفرنجة الفقراء والمنفيين في هذه الجبال، أنه سيطلب مني بعد ذلك بثمانية أشهر أن أسعى لأخلّص أخاه الذي سيق أسيراً إلى «دمشق»، وأنني سأسعد إن أديت له خدمة بدوري.

١ - هنا يمكن تسميتها «إتاوة» وربما «خوّة» وتعني حصول المتنفذ في منطقة ما، على مبلغ من المال من الأغراب والأجانب الذين يمرون في تلك المنطقة، مقابل حمايتهم.

بعد أن شربنا القهوة وأرحنا خيولنا انطلقنا بمواكبة سكان «إرميا» الكثيرين، وذهبنا وخيمنا بعد «الرملة» في غابة زيتون جميلة تحيط بالمدينة. وكنا منهكين من التعب ودون طعام، فالتمسنا ضيافة رهبان دير الأرض المقدسة، فرفضوا استقبالنا واعتبرونا مصابين بالطاعون فعلاً. فاستغنينا عن العشاء ونمنا على صوت الريح البحرية التي تداعب نواصي أشجار الزيتون. وهنا أمضت العذراء والقديس يوسف والطفل الليل في العراء، أثناء هروبهم إلى مصر. فحسّنت هذه الأفكار من وضع رقادنا.

تركنا «الرملة» في الساعة السادسة صباحاً، وأتينا إلى «يافا» لنتناول طعام الغداء عند السيد «داميانى». وأمضينا يوماً نرتاح فيه ونحضّر المؤن للعودة إلى سوريا عن طريق الساحل.

ما أجمل رحلات القوافل عندما تكون البلاد جميلة، وعندما تكون الخيول مرتاحة وتمشي بهدوء عند شروق الشمس وتخبّ فوق أرض مستوية ورملية، وعندما تتعاقب المناظر دون رتابة، وعندما يبعث البحر نسائمه المحمّلة برطوبة الأمواج، فتهب خضراء أو زرقاء بين سنابك الخيل، وتشلح عليك أحياناً رذاذ زبَدها. شعرنا بهذا الحبور عندما حاذينا الخليج الجميل الذي يفصل حيفا عن «عكا». أما الصحراء التي يشكّلها سهل «زبلون» فكانت تختفي إلى اليمين وراء كتل القصب الكثيفة وذؤابات النخيل التي تفصل الحصى عن التراب. ومشينا فوق سرير رملي أبيض ناعم تسقيه الأمواج التي تنداح عليه وتنشر فوقه غطاء أبيض محززاً. كان الخليج منحصراً من ناحية الشرق بقمة جبل «الكرمل» التي يقبع أحد الأديار فوقها، ومن ناحية الغرب بأسوار «عكا» البيضاء والمثلومة، وكان أشبه ببحيرة تتهدهد فيها الزوارق الصغيرة بفعل الأمواج. ومع ذلك كان هذا مجرّد انطباع. فالساحل السوري خطير كله، يزداد خطورة في خليج «حيفا»، ذلك أن السفن التي تلجأ إليه وتلقي مراسيها فيه لتحتمي برماله الرخوة من العواصف، كثيراً ما يتلقفها الشاطئ. وما أكثر الحطام المؤسي والمذهل الذي رأيناه والذي يشهد على ذلك. أجل، يعج الشاطئ كله بهياكل السفن الغارقة التي دفن نصفها في الرمال، ويظهر الجؤجو العالي

المهشّم لهذه السفن التي تعشش فيه الطيور البحرية، وتظهر سواري بعضها فقط خارج الرمال. إن هذه الأشجار الجامدة المعرّاة من أوراقها تشبه الصلبان الجنائزية التي نغرسها فوق رماد الذين رحلوا؛ وبعضها ما زال يحافظ على دواقله وحباله التي صدّأها البخار البحري المالح، والتي تتدلى حول السواري. العرب لا يقتربون من أطلال السفن الغارقة؛ ويتعيّن على الزمن وعلى العواصف الشتائية أن تتكفّل وحدها بإنجازاتها كلها، وعلى الرمال أن تدفنها يوماً بعد يوم.

وهنا رأينا كما على جميع الشواطئ البحرية الشامية كيف يصطاد العرب السمك. هناك رجل يحمل شبكة صغيرة مطوية يرفعها فوق رأسه ويجهّزها للإطلاق، يتقدم بضع خطوات في البحر، ويختار الزمان والمكان بحيث تكون الشمس وراءه وتنير الموجة دون أن تبهر عينيه. ينتظر الأمواج القادمة تنقضّ مكتّلة وواقفة أمام قدميه المثبتين فوق صخرة أو فوق الرمال. يحملق في كل زبد حملقة الخبير، عندما يرى أنه يحمل السمك يطلق شبكته عندما تتكسر الموجة وتجذب ما فيها أثناء الانحسار، تسقط الشبكة وتنسحب الموجة ويبقى السمك. يقتضي هذا النوع من الصيد على الشواطئ الشامية وقتاً طويلاً؛ وعندما يكون البحر هادئاً، لا يصيب الصياد شيئاً. ولا تصبح الموجة شفافة إلا عندما تنتصب في وجه الشمس والبحر في آن.

أنبأتنا الروائح الكريهة المنبعثة من ساحة المعركة أننا صرنا في جو «عكا»؛ وأدركنا أننا أصبحنا على بعد ساعة من أسوارها. كانت المدينة ركاماً بركام، وكانت قباب الجوامع مبقورة تماماً، والأسوار المليئة بالحزّيات مثلومة بشدة، والأبراج منهارة فوق المرفأ. كانت المدينة قد حوصرت مؤخراً وانقض عليها الأربعون ألف بطل من أبطال «إبراهيم».

نعرف في «أوروبا» سياسة الشرق بشكل سيئ، نظن أنها تحمل خططاً، لكنها لا تحمل إلا النزوات؛ وما خططها إلا انفعالات، وما المستقبل إلا اليوم الذي نحن فيه واليوم التالي فقط. لقد رأينا في هجمة «محمد علي» خطة مبيّتة منذ أمد طويل وطموحاً كبيراً يتحقق تدريجيّاً. لقد فعل الحظ فعله ودفعه خطوة بعد خطوة دون أن

يشأ ذلك إلى أن يدك عرش سيده ويحتل نصف السلطنة. وقد يدفعه حظ جديد إلى أبعد من ذلك بكثير.

انظروا كيف نشأ النزاع. كان «عبدالله»، باشا «عكا»، رجلاً شاباً متهوراً، توصل إلى أن يصبح والي «عكا» بالحظوة والصدفة، فثار على السلطان. وعندما هُزِم، التمس الحماية لدى باشا «مصر» الذي اشترى سلامة سُدّته. ولكن «عبدالله» نسي سريعاً المعروف الذي أداه له «محمد علي»، ورفض أن يفي ببعض الشروط التي قطعها على نفسه أثناء أزمته. فسار «إبراهيم» إلى «عكا» ليجبره على ذلك، ولكنه لقي مقاومة لم يكن ينتظرها، فاستشاط غضباً، وطلب من أبيه قوات جديدة، فوصلت إلاّ أنها صُدّتْ مرة ثانية. فملّ «محمد علي» واستدعى ابنه راجياً؛ ولكن عزّة النفس لدى «إبراهيم» أبت عليه ذلك، فأراد أن يموت تحت أسوار «عكا» أو أن يخضعها لسلطة أبيه. وبعد أن ضحى برجال كثيرين دك أبواب المدينة. وأسر «عبدالله» الذي كان ينتظر الموت. فأتي به إلى خيمة «إبراهيم» الذي عنّفه تعنيفاً شديداً وأرسله إلى «الإسكندرية»؛ وبدل الأنشوطة والسيف، أرسل إليه «محمد علي» حصانه واحتفى بوصوله وأجلسه على الديوان إلى جانبه ومدحه على بسالته وإخلاصه للسلطان وأعطاه قصراً وخدماً وحشماً وإتاوة كبيرة.

لقد استحق «عبدالله» ببسالة هذه المعاملة، إذ إنه تحصّن داخل أسوار «عكا» مع ثلاثة آلاف جندي عثماني، وقاوم مدة سنة جميع القوات المصرية براً وبحراً. وتشاء الصدف أن يلاقي «إبراهيم» نفس المصير الذي لاقاه «نابوليون»، فتردد أمام تلك العقبة. ولو أن السلطان، الذي توسل إليه «عبدالله» دون جدوى، أرسل له بضعة آلاف من الرجال المدربين، أو زوده فقط في بحر الشام ببارجتين أو ثلاث من بوارجه الجميلة التي ترقد هادئة فوق مراسيها أمام شواطئ البوسفور، لقُضي على «إبراهيم» ولعاد إلى «مصر» مقتنعاً بأن غضبه لا يجدي. ولكن الباب العالي استسلم للقضاء والقدر، وترك الباشا يتعرض للدمار. فانكسر حصن الشام، ولم يستيقظ ديوان السلطان إلا بعد فوات الأوان. ولكن «محمد علي» كتب لـ«إبراهيم» قائد جيشه أن يعود؛ بيد أن هذا

الأخير كان رجلاً شجاعاً يحب المغامرة، فأراد أن يختبر ضعف السلطان وحظه هو. فتقدم وحقق نصرين باهرين دون مقاومة تذكر، الأول في «حمص» في بلاد الشام والثاني في «قونيا» في آسيا الصغرى، فجعلاه سيداً مطلقاً على جزيرة العرب وعلى بلاد الشام وعلى جميع ممالك «البنطوس» و«بيثينيا» و«كبادوكيا» التي تسمى الآن ببلاد «كرمانيا» (Caramanie). ووقتئذٍ كان باستطاعة الباب العالي أن يقطع عليه طريق العودة، بإرساله قوات تهاجمه من الخلف فتستعيد المدن والأرياف، إذ لم يكن باستطاعته أن يُبقي فيها جنوداً يكفون لحمايتها. لو أنه أرسل فيلقاً من ستة آلاف رجل وزج بهم في مضائق جبال «طوروس» أو الشام، لصار «إبراهيم» وجيشه محاصراً ولأسره بعد انتصاراته. كان الأسطول التركي أكبر بكثير من أسطول «إبراهيم»، أو بالأحرى كان للباب العالي أسطول كبير ورائع، في حين أن «إبراهيم» لم تكن لديه إلا بارجتان أو ثلاث. ولكن، منذ البداية، تراجع «خليل باشا» وهو شاب حلو المعشر ومقرّب من السلطان الذي عينه قائداً لأسطوله (قبطان باشا) تراجع بحراً أمام قوات ابراهيم الضعيفة. لقد رأيته بأم عيني يغادر ميناء «رودوس» ويعتكف في ميناء «مارموريتسا» الواقع على ساحل «كرمانيا» داخل خليج «ماكري» (Macri). كان بوسعه أن يحاصر بارجتي «إبراهيم» بسفنه الكثيرة ويمنعه من الخروج، لأن باب الخليج كان ضيقاً جداً. ولكنه لم يتزحزح من مكانه، وطيلة الشتاء الذي احتدمت فيه العمليات العسكرية وانحسمت على سواحل بلاد الشام، بدت سفن «إبراهيم» وحدها فوق تلك البحار ونقلت له التعزيزات والمؤن دون أية صعوبة. يكمن حظ الأمم في عبقريتها؛ إن عبقرية المسلمين ترتجف الآن أمام عبقرية آخر باشواتها. نعرف نهاية تلك الحملة التي تذكّر بحملة الإسكندر الكبير. لا شك في أن «إبراهيم» بطل، وفي أن «محمد علي» رجل عظيم، ولكنّ حظهما يستند إلى رأسيهما فقط؛ فلو رحل هذان الرجلان، لزالت «مصر»، ولزالت الإمبراطورية العربية.

التاريخ نفسه

ازدادت نتانة الرمال المحيطة بخليج «عكا». وبدأنا نرى عظام بشر وخيول وجمال تنتشر فوق الحصى وتبيضّ بفعل الشمس وتنغسل بزبد الأمواج. وكلما تقدمنا كلما تكاثرت أمام أعيننا هذه البقايا. وبعد ذلك بقليل بدا طرف الساحل كله الممتد حتى السفوح مليئاً بها، وكان وقع سنابك خيولنا يخيف قطعان الكلاب البرية وبنات آوى والطيور الكاسرة فتهرب، وبعد أن داومت خلال شهرين كاملين ونهشت بقايا الوليمة الشنيعة التي حصدتها مدافع «إبراهيم» و«عبدالله». كان بعضها يجر أشلاء بشرية لم تدفن كما يجب، والبعض الآخر يجر أفخاذ الخيول التي ما زال جلدها عليها. وكانت النسور تحط فوق جماجم الجمال وتطير عند اقترابنا منها وتزعق غاضبة وتعود لتحط على فرائسها الشنيعة، على الرغم من طلقات بنادقنا. وكانت الأعشاب العالية وعيدان القصب والشجيرات الساحلية تميل على هذه البقايا البشرية والحيوانية. ولم تنتهِ الحرب هنا. وأنهت الحمى الصفراء، التي بدأت تجتاح «عكا» منذ أشهر عديدة، من وفّرته الأسلحة. من أصل الاثني عشر ألف أو الخمسة عشر ألف نسمة، بالكاد يبقى في المدينة ما بين ألف ومائتين وألف وخمسمائة، وكان السكان يلقون كل يوم خارج الأسوار أو في البحر مباشرة الجثث الجديدة فيقذفها البحر من جديد إلى اليابسة في الخليج أو تنبشها بنات آوى من الحقول.

وصلنا إلى الباب الشرقي لهذه المدينة البائسة. وكان الهواء لا يُستنشق. فلم ندخلها، بل درنا حولها على طول الأسوار المنهارة التي كان يعمل فيها بعض العبيد، واجتزنا ساحة المعركة على اتساعها، من أسوار المدينة حتى البيوت الريفية التي كان يملكها باشوات «عكا» وسط السهل، وعلى مسافة ساعة أو ساعتين من الشاطئ. واقتربنا من بيت رائع المنظر، له مطلات جميلة مبنية حسب الطراز الهندي، ورأينا أثلاماً طويلة أعلى من الأثلام التي يصنعها المحراث في أحسن تربة عندنا. ويبلغ طول هذه الأثلام نصف فرسخ تقريباً بعرض مشابه، وكانت قمة الثلم ترتفع قدمين أو ثلاثة أقدام فوق الأديم؛ وهنا كان يقع معسكر «إبراهيم»، ودُفن خمسة آلاف رجل تحت هذه الخنادق الجنائزية. ومشينا طويلاً بصعوبة فوق تلك الأرض التي تحتوي على هذا

العدد من ضحايا الطموح والنزوة التي نسميها بطولة.

نهزنا خيولنا التي كانت سنابكها تصطدم دون انقطاع بالموتى وتكسّر العظام التي نبشتها بنات آوى؛ وخيّمنا على بعد ساعة من هذا المكان المشؤوم، وتوقفنا في موقع ساحر من هذا السهل تسقيه المياه الجارية وتظلله أغصان البرتقال والليمون الحلو، بعيداً عن «عكا» التي ما زالت مشاهداتها تطاردنا. وكان الباشا الأسبق هو الذي زرع هذه البساتين وحوّل «عكا» الجرداء إلى واحة، وهو الباشا الذي خلف الشهير «أحمد باشا الجزار». وقدّم لنا بعض فقراء العرب الذين لجأوا إلى أكواخ طينية، قدموا لنا البرتقال والبيض والدجاج. ونمنا هنا.

وفي اليوم التالي أوشك السيد «دي لاروايير» (de Laroyère) ألا يتمكن من ركوب حصانه؛ وكانت جميع أعضائنا مخدّرة بسبب الألم وعاجزة عن الحركة. لقد شعر بالعوارض الأولى للحمى الصفراء، وميّزها أفضل منّا بسبب علمه الطبي. ولكن المكان لم يكن صالحاً لإبقاء المريض فيه، فأسرعنا بالابتعاد قبل أن يستفحل مرضه، وذهبنا ونمنا على بعد خمسة عشر فرسخاً من سهل «صور»، قرب نهر تظلله عيدان عالية من القصب، وعلى مقربة من أطلال منعزلة يقال إنها تعود لفترة الصليبيين. لقد أعادت الحركة والحرارة الروح إلى السيد «دي لاروايير». مددناه تحت خيمة، وذهبنا نصطاد البط والإوز البري الذي كان يتقافز كالغيوم فوق عيدان القصب قرب النهر. وفي ذلك اليوم أطعمتْ هذه الطيور قافلتنا كلها.

في اليوم التالي صادفنا على شاطئ البحر، وفي مكان جميل تظلله أشجار الأرز البحري والدلب الرائع، آغا تركياً عائداً من «مكّة» وبصحبته حاشية عديدة من الرجال ومجموعة من الخيول. جلسنا تحت شجرة قرب النبع، وعلى مقربة من الشجرة التي كان يتناول الباشا غداءه تحتها. وكان عبيده ينزّهون الخيول. لفتت نظري التقاطيع الكاملة الأوصاف لمهر عربي أصيل. فكلّفت مترجمي أن يفاوض الآغا. وكهدية قدّمنا له شيئاً من مؤن الطريق ومسدّسين يطلقان الخردق؛ وبدوره أهدانا سيفاً فارسيّاً معقوفاً. وطلبت من مساعديّ أن يجعلوا خيولي تمرّ أمامه، استدراجاً لحديث طبيعي في هذا

الموضوع. ونجحتُ في ذلك، ولكنني وجدت صعوبة في أن أعرض عليه أن يبيعني مهره. وروى له مترجمي أن أحد رفاقنا مريض جداً ولم نستطع أن نجد له حصاناً هادئاً ليحمله. فقال الآغا عندئذٍ إنه يملك حصاناً يستطيع فارسه أن يشرب قهوته وهو يخبّ على صهوته دون أن تسقط نقطة واحدة من الفنجان. وكان بالضبط الحصان الجميل الذي أعجبتُ به والذي وددتُ أن أشتريه لتركبه زوجتي. وبعد أن جلنا في الحديث، بدأنا الصفقة وانتهى بي الأمر أن اقتنيت الحصان الذي سميته «القنطرة» تيمناً بالمكان وبالنبع الذي اشتريت الحصان قربه. وركبته فوراً لأنهي به نهاري وأدركت أنني لم أركب قط حصاناً بخفته. فلم أشعر بحركة منكبيه اللدنة ولا بوقع حوافره على الصخر ولا بوزن رأسه تحت اللجام. كان عنقه قصيراً وسامقاً، يرفع قوائمه كالغزال، ويخال المرء أنه يعتلي طائراً يفرد جناحيه كي لا يشعر راكبه بالمسير. كان يركض أفضل من أي حصان عربي جرّبته. وكان وبره رمادياً يتلألأ. وأعطيته لزوجتي التي لم تشأ بعد ذلك أن تركب حصاناً آخر طيلة إقامتنا في الشرق. سأتندم دائماً على هذا الحصان الكامل الأوصاف الذي وُلد في خراسان وناهز الخمسة أعوام من عمره.

في المساء وصلنا إلى «بئر سليمان»؛ وفي اليوم التالي دخلنا إلى «صيدا» مبكرين (وهي صيدون القديمة)، وكان يواكبنا فرنجة المدينة وأبناء السيد «جيرودان» (Giraudin)، نائب قنصلنا الممتاز في «صيدا». ووجدنا أيضاً في المدينة السيد «كاتافاغو» (Cattafago) الذي تعرفنا عليه في «الناصرة» هو وعائلته. لقد انتهى مؤخراً من بناء بيت في هذه المدينة، وكان يستعد لتزويج إحدى بناته. ولأنه لم يبق في «صيدا» القديمة أي طلل يشهد بعظمتها الغابرة، استسلمنا تماماً لرعاية السيد «جيرودان» وخضنا في الحديث عن أوروبا والشرق مع هذا الكهل المهم.

وظهرت أعراض الحمى الصفراء واضحة لدى السيد «دى لاروايير» الذي تطور المرض عنده. فلم يعد يستطيع أن يركب حصانه، لذا استأجرنا زورقاً لنقله بحراً إلى بيروت. وذهبنا بعدها مع باقي القافلة. وأرسلت رسالة إلى «الليدي ستانهوب» لأشكرها على المساعي التي قامت بها لتتوسط لي لدى الزعيم «أبو غوش»، ورجوتها إن سنحت

الفرصة أن تخبر عرب صحراء «البقاع» و«بعلبك» و«تدمر» بقدومي.

٥ تشرين الثاني ١٨٣٢

استلقيت على أريكة قديمة غير مريحة وجدتها قرب الشاطئ، وكتبت بضعة أبيات من الشعر أثناء الليل دوّنتها على صفحات نسختي من الكتاب المقدس، وفيها عبّرت عن فرحتي بالاقتراب من بيروت بعد رحلة طويلة ناجحة. وأثناء السير صادفت فارساً عربياً يحمل لي رسالة من زوجتي. كل شيء على ما يرام. جوليا تفيض صحة. إنهما ينتظراني لنمضي معاً بضعة أيام في دير «عينطورة» في جبل «لبنان»، لأن البطريرك الكاثوليكي أتى ودعانا إليه. في الساعة الرابعة بعد الظهر هبت عاصفة مروّعة؛ وبدا وكأن دائرة الغيوم هبطت فجأة فوق الجبال الواقعة على يميننا. وامتزج صوت المد والجزر بصوت هذه الغيوم الثقيلة التي صفقت قمم الجبال ومزّقتها، واختلط بهدير البحر الذي راح يشبه سهلاً مكسواً بالثلوج وتحركه ريح هائجة. لا ينزل المطر هنا، كما في الغرب، نقطة بعد نقطة وإنما يهطل كالجداول الغزيرة بتواصل، فتصفق به يدُ العاصفة الإنسانَ وحصانَه. غاب النهار بشكل كامل، وتقدّمت خيولنا بين سيول تنهال منها الحجارة وكادت في كل لحظة أن تجرفها نحو البحر. وعندما بزغت السماء وظهرت ثانية، وجدنا أنفسنا قرب هضبة الصنوبر التي زرعها «فخر الدين»، على بعد نصف فرسخ من المدينة. الوطن له دور لدى الحيوانات كما لدى البشر. فصهلت خيولي التي تعرفتْ على الموقع الذي حملتني إليه مرات عديدة؛ ومع أنها كانت مرهقة بعد مسير ثلاث مئة فرسخ، إلا أنها راحت تصهل وتشنّف آذانها وتقفز من الفرح فوق الرمال.

تركتُ القافلة تمشي الهوينى بين أشجار الصنوبر، وأطلقت العنان لجوادي «لبنان»، ووصلت وقلبي يرتجف من القلق والفرح إلى أحضان زوجتي. كانت «جوليا» تلعب عند الجيران مع بنات أمير الجبل الذي أصبح والياً لـ «بيروت» أثناء غيابي، ورأتني من أعلى السطح وأنا أحث الخطى. وسمعتها تركض هاتفة : «أين هو؟ هل هو فعلاً؟» دخلتْ وهرعت إلى أحضاني وراحت تدغدغني ثم ركضتْ حول الغرفة ودموع الفرح تنزل من عينيها الجميلتين المشرقتين، ورفعت ذراعيها مكررة : «كم أنا مسرورة!

كم أنا مسرورة!» ثم عادت وجلست في حضني وقبّلتني. كان في الغرفة راهبان يسوعيان شابان أتيا لزيارة زوجتي. فلم أستطع أن أوجّه لهما كلمة لطيفة، وهما بُكما لرؤيتهما ذلك التعبير الساذج والمغرم الذي أبدته تلك الطفلة بأبيها، وذلك البهاء السماوي الذي أضفته السعادة على جمال ذلك المحيا المشرق. وبقيا واجمين متأثرين ومعجبين. ثم وصل أصدقاؤنا وحاشيتنا، وملأوا بساتين التوت بخيولنا وبخيامنا.

قضينا بضعة أيام نرتاح ونسعد بزيارة أصدقائنا في بيروت. ونزل أبناء «الأمير بشير» من الجبال، بأمر من «إبراهيم»، ليسيطروا على البلاد التي هددت بانتفاضة تكون لصالح الأتراك، وعسكروا في «نهر الكلب» على مسافة ساعة من بيوتنا.

٧ تشرين الثاني ١٨٣٢

دعانا قنصل سردينيا، السيد «بيانكو» (Bianco)، الذي كانت له علاقة طويلة مع هؤلاء الأمراء، دعانا للعشاء الذي أقامه على شرفهم. فوصلوا مرتدين قفاطين رائعة، منسوجة كلها بخيوط الذهب؛ وكانت عمائمهم مصنوعة من أنفَس الأنسجة الكشميرية. وكان الابن البكر وهو آمر جيش أبيه يضع خنجراً رُصّع مقبضه كله بالماس الذي لا يقدر بثمن. وكانت حاشية الأمراء عديدة وفريدة؛ وبين عدد كبير من المسلمين والعبيد السود، كان هناك شاعر تشبه ملامحه تماماً ملامح الشعراء الجوالين في القرون الوسطى. وكانت مهمته أن يتغنى بفضائل ومآثر سيده، ويروي له الحكايات عندما يستدعيه ليفرّج عنه، ويبقى واقفاً وراءه أثناء الولائم ليرتجل له شعراً يكون بمثابة نخب سياسي يُرفَع على شرفه أو شرف الذين يريد الأمير تكريمهم. وكان معه أيضاً راهب أو كاهن ماروني كاثوليكي معرِّف لا يبارحه حتى أثناء الطعام، وهو الوحيد الذي يُسمح له بدخول الحرملك؛ إنه راهب بوجه بشوش ومحارب، ويشبه تماماً الرهبان المرشدين في جيوشنا. وبسبب صفته الكنسية، جلس هذا الراهب معهم خلف المائدة. أما الشاعر فبقي واقفاً. ولم يبدُ على هؤلاء الأمراء، وعلى البكر بينهم بخاصة، أنهم مرتبكون بسبب عاداتنا ولوجود النساء الأوروبيات بيننا. بدؤوا يتكلمون معنا بأدب وذكاء وحرية كأنهم تخرجوا من أكثر بلاطات أوروبا أناقة. إن الحضارة الشرقية هي دائماً بمستوى حضارتنا لأنها عريقة أكثر منها، ولأنها أصلاً أكثر صفاء وكمالاً. وبدون أفكار مسبقة،

لا أجد مقارنة بين النبل والتهذيب والجلال القاسي في العادات العربية والتركية والهندية والفارسية وبين عاداتنا. يشعر المرء بأننا من الشعوب الفتية التي خرجت مؤخراً من الحضارات الصلبة والفظة والناقصة، بينما يشعر عندهم أنهم أولاد عائلات راقية وشعوب ورثت من الحكمة والفضيلة القديمتين. ويرى أن نبالتهم، التي لا تمت بصلة إلى تبني الفضائل البدائية، مكتوبة على جباههم ومطبوعة على كل تصرّفاتهم. يضاف إلى ذلك أن العامّة ليست موجودة في أوساطهم. إن المدنيّة الأخلاقية، هي الوحيدة التي آخذها بعين الاعتبار، هي ذات مستوى واحد. فالراعي والأمير ينتميان إلى العائلة نفسها، ويتكلمان اللغة نفسها، ولهما العادات نفسها، والحكمة نفسها، والتقاليد الكبرى نفسها، وكلها من صميم الشعب.

عندما قُدّمتْ الحلويات، أترعت كؤوس النبيذ القبرصي أو اللبناني؛ والعرب المسيحيون وعائلة الأمير «بشير»، وهي عائلة تقول إنها مسيحية، يشربون النبيذ في المناسبات ودون صعوبة. ورُفعت الكؤوس احتفاء بانتصار «إبراهيم»، وبتحرير لبنان، وبالصداقة بين الإفرنج والعرب، ثمّ رفع الأمير أخيراً كأسه على شرف السيدات المدعوات لهذا الحفل. وعندئذٍ ارتجل شاعره أبياتاً بإيعاز من الأمير ورفع عقيرته وأنشد أبياتاً شعرية عربية، وهذا مفادها تقريباً :

«لنشربْ إكسير عَدْن الذي يُسكر ويفرّح قلب العبد والأمير. إنها خمرة من الكروم التي زرعها نوح، إذ حملت له الحمامة من السماء بدل غصن الزيتون غصن دالية. وبفضل هذه الخمرة يصبح الشاعر أميراً ولو للحظة، ويصبح الأمير شاعراً».

«لنشرب نخب هؤلاء الفاتنات الإفرنجيات الشابات اللواتي يأتين من بلاد تكون فيها كل امرأة ملكة. ما أجمل عيون نساء بلد الشام، حتى ولو احتجبت. في عيون بنات الإفرنج ثَمَلٌ كما في الكأس الشفاف الذي أشربه».

«إن شرب الخمرة والتملّي في وجوه النساء، وهو حرام مزدوج لدى المسلم، وهما بالنسبة للعربي متعة مزدوجة، بها يسبّح الله بوجهين»

وانتشى الراهب نفسه بهذه الأبيات، وراح يتغنّى بمقاطع الشاعر وهو يضحك ويفرغ كأسه. واقترح علينا الأمير أن نشاهد قنص الصقور، وهو تسلية اعتادها جميع أمراء وشيوخ

بلاد الشام. ومن هنا نقل الصليبيون هذه العادة إلى «أوروبا».

٩ تشرين الثاني ١٨٣٢

باستثناء بعض هبّات الهواء على البحر وبعض زخات المطر في الظهيرة، الطقس جميل كما هو إبّان شهر أيار في فرنسا. فما إن يبدأ المطر حتى ينقشع ويحل الربيع محله. إن جدران الجلول التي تسند المنحدرات المزروعة في جبل لبنان والتلال الخصبة في ضواحي بيروت امتلأت بالمزروعات خلال أيام قليلة فتغطت الأرض كلها بالطحالب والعشب والعرائش والزهور. وسَنْدَسَ الشعير جميع الحقول التي كانت جرداء عندما وصلنا. وشكّلت أشجار التوت التي راحت أوراقها الثانية تنمو، وشكّلت حول المنازل غابات كثيفة لا تخترقها الشمس. ويلمح المرء هنا وهناك بيوتاً متفرقة في السهل تبزغ من هذا المحيط اليخضوري؛ ويرى النساء اليونانيات والسوريات بحللهن الفاخرة والبرّاقة يرفلن بها كالملكات ويستنشقن الهواء في أركان بساتينهن؛ وهناك دروب رملية مرصوصة تفضي من بيت لآخر، ومن تلّة لأخرى، وتنساب بين تلك البساتين المتصلة التي تنطلق من البحر إلى سفوح جبل لبنان؛ وإذا سلكها المرء يلمح فجأة، على عتبات تلك البيوت الصغيرة، أروع مشاهد الحياة التقليدية: النساء والفتيات مقرفصات تحت أشجار التوت أو التين يطرّزن مدّات صوفية نفيسة ذات ألوان متنافرة وحيّة؛ وأخريات يربطن أطراف الخيوط الحريرية إلى الأشجار البعيدة ويفرغنها وهن يتبخترن ويغنّين ويتنقلن من شجرة لأخرى، ورجال يمشون عكسهن ويتراجعون من شجرة لأخرى، منهمكين بصنع الثياب الحريرية ويتلقون المكوك الذي استلموه من غيرهم. وكان الأطفال مستلقين في الظل فوق أسرّة من القصب أو فوق الحصر؛ وكان بعض هذه الأسرّة معلقاً بين أغصان البرتقال. وكانت الأغنام الشامية السمينة بأذنابها العريضة المتهدلة، تتحرك ببطء بسبب وزنها، وتستلقي في حفر صغيرة فتحت خصيصاً لها في التراب الرطب أمام أبواب المنازل؛ وتأتي عنزة أو عنزتان جميلتان بآذانهما الطويلة الهابطة كآذان كلاب الصيد عندنا، وتأتي بقرة أحياناً لتكمّل هذا المشهد الريفي. وهناك

دائماً حصان رب البيت، وهو مسرج بأناقة وجاهز لأن يُركب، ويبدو واحداً من أفراد العائلة ويهتمّ بكل ما يجري وما يقال حوله، وتتحرك ملامحه كما تتحرك قسمات الوجه البشري: فعندما يظهر أحد الغرباء ويحدّثه، يشنّف أذنيه ويرفع شفتيه ويسوّي منخريه ويرفع رأسه للريح ويشمّ الشخص الغريب الذي مدحه، وتلمع عيناه العذبتان والعميقتان والساهمتان كجمرتين، تحت عُرْف عنقه الطويل والجميل.

إن العائلات الفلاحية اليونانية والسورية والعربية التي تسكن هذه البيوت الواقعة على سفوح جبل لبنان، ليست متوحشة أو همجية إطلاقاً. فهي متعلّمة أكثر من عائلات الفلاحين في أريافنا؛ وجميع أفرادها يعرفون القراءة ويفهمون كلهم لغتين، العربية واليونانية، وهم لطيفو المعشر ومكدّون وقنوعون. يعملون خلال أيام الأسبوع في الأرض أو في صناعة الحرير، ويرتاحون يوم الأحد ويذهبون مع عائلاتهم لحضور الصلوات الطويلة والجليلة بالطقسين البيزنطي أو السرياني؛ ثم يعودون إلى بيوتهم لتناول طعام فاخر أكثر بقليل من طعامهم أثناء الأيام العاديّة. إن النساء والفتيات، بحللهن الجميلة، وبضفائرهن المزينة بأزهار البرتقال والمنثور والقرنفل، يبقين جالسات على الحصر أمام أبواب بيوتهن ويتكلمن مع جاراتهن وصديقاتهن. يستحيل عليّ أن أرسم المجموعات الجميلة والنفيسة والفريدة لهؤلاء النساء الرافلات بحللهن في حياتهن الريفية. رأيت كل يوم هنا وجوه نساء شابات وفتيات لم يشهدها الفنان «رافائيل»، حتى في أحلامه. إن جمالهن أكبر بكثير من الجمال الإيطالي والجمال اليوناني، ففيه تكون الأشكال صافية والإستدارات لطيفة، وبوجيز العبارة، نجد فيه كل ما تركه لنا الفن اليوناني والروماني من كمال. ولكن يصبح أكثر إمتاعاً بسبب البساطة البدئية، والتعبير الطبيعي، والارتخاء الهادئ والشهوي، ونظرة العيون الزرقاء المحاطة بالرموش السوداء في جو سماوي، والابتسامة الرقيقة، والتقاطيع المنسجمة، وبياض البشرة الحي، وشفافية اللون التي لا توصف، والشعر الغامق اللامع، والحركات الرشيقة، والتصرفات الفريدة، والصوت المنبور الرائق، وكل هذا يجعل من الفتاة السورية حورية مرئية من حوريات الجنة. وهؤلاء الفاتنات موجودات بشتى أشكالهن في كل مكان؛ فلم

أمشِ ساعة في الريف دون أن أصادف العديد منهن وهن ذاهبات إلى العين أو عائدات بجرارهنّ يحملنها على أكتافهنّ، بسيقان مكشوفة تزينها الخلاخيل.

أما الرجال والفتيان فيجلسون يوم الأحد، ليروّحوا عن أنفسهم، على حصر ممدودة تحت أشجار الجميّز، ليس بعيداً عن النبع؛ ويبقون هنا طيلة النهار لا يتزحزحون من مكانهم، ويروون قصصاً خيالية ويحتسون القهوة بين الحين والحين ويشربون الماء الباردة. ويذهب الآخرون إلى أعالي التلال، فتراهم مجتمعين بهدوء هناك تحت أشجار العنب أو الزيتون، ويستمتعون بمنظر البحر الذي تطلّ عليه هذه التلال وينعمون بصفاء السماء وزقزقة العصافير والمسرات الطبيعية للإنسان الطاهر والبسيط، وهو أمر يفتقده الناس عندنا إذ يفضلون أن يسكروا ويصخبوا في الخمارات أو يدخنوا في الملاهي. لم أجد أجمل من مشاهد الخلق هذه التي تركت لديّ أروع الانطباعات؛ فالطبيعة هنا هي حقاً نشيد مستمر يتغنى برحمة الخالق. لا يوجد صوت ناشز أو مشهد بائس وشائن يأتي ليعكر تناغم هذا النشيد لدى الأجنبي: فالرجال والنساء والطيور والحيوانات والأشجار والجبال والبحر والسماء والمناخ في انسجام رائع، وكل شيء جميل وصافٍ وخلّاب وديني.

١٠ تشرين الثاني ١٨٣٢

في الصباح الباكر تنزهت مع جوليا في تلة يطلق عليها اليونانيون اسم «القديس ديمتري»، على مسافة فرسخ واحد تقريباً من «بيروت»، وهي قريبة من جبال لبنان وتحاذي خط البحر. رافقني اثنان من العرب الذين معي، أحدهما ليكون دليلاً، والثاني ليمسك بزمام حصان جوليا وليتلقاها بين ذراعيه إنْ اهتاج الحصان. وفي الدروب الشديدة الانحدار، كنا نترك مطايانا هنيهة ونقطع مشياً على الأقدام السطوح الطبيعية أو الاصطناعية التي تشكّل الجلول الخضراء المحيطة بتلة «القديس ديمتري». في طفولتي تذكرت كثيراً هذا الفردوس الأرضي، هذه العَدْن التي تخزّنها جميع الأمم في ذاكرتها، إمّا كحلم جميل، وإما كتراث لعصر وعيش أكثر كمالاً. لقد حذوت حذو الشاعر «ميلتون» في وصفه الرائع لتلك الحياة الساحرة التي عاشها

أجدادنا الأولون؛ ولكن الطبيعة هنا، كما في كل الأشياء، تتجاوز الخيال بكثير. فالله لم يمنح الإنسان أن يحلم بالجمال كما فعل هذا الإنسان. لقد حلمت أنا بعَدْنٍ، وأستطيع أن أقول إنني رأيتها.

بعد أن مشينا نصف ساعة تحت أقواس الصبّار الهندي المحيط بجميع طرقات السهل، بدأنا نصعد عبر دروب صغيرة ضيقة ووعرة تؤدي كلها إلى هضاب متتالية، وراحت آفاق الريف والبحر وجبل لبنان تتضح تدريجياً. كان عرض هذه الهضاب بسيطاً، وكانت كلها محاطة بأشجار حراجية لا يعرفها المناخ عندنا، وأجهل أسماءها لسوء الحظ؛ ولكن جذوعها وتنضيد فروعها وأشكال نواصيها المخروطية الجديدة والغريبة عليّ، نواصيها المشعّثة والهرمية أو المنبسطة كالأجنحة، أعطت هذه الحدود الخضراء روعة وجدّة تعتبران من سمات آسيا. ولأوراقها أشكال وألوان عديدة، تتراوح بين خضرة السرو الداكنة وخضرة الزيتون الرمادية، وبين صفار الليمون والبرتقال؛ فمنها الأوراق العريضة كما في شجر التوت الصيني، وتكفي ورقة واحدة منها لتحجب الشمس عن جبهة ولد من الأولاد، ومنها الأوراق المحززة كأوراق الشاي، كما في شجر الرمان أو الشجيرات العديدة الأخرى التي تشبه أوراقها أوراق البقدونس وتصنع غطاء خفيفاً من الدانتيلا النباتية يمتد بين الأفق وبينك. ويُهيمن على هذا الخط من الغابة خط من الخضرة يستظل بغطاء من الزهور. كانت الحقول في الداخل مزروعة بالشعير وتُلمح في إحدى زواياها شجرة نخيل أو شجرتين، أو تُلمح قبة شجرة الخروب الكبيرة المستديرة القاتمة، وقربهما عرزال الفلاح العربي، وهو محاط بعدد من جفنات العنب وبسياج مصنوع من شبائك شجر الصبار التي تغطيها ثمارها الشوكية، وإلى جانبه حقل من البرتقال زرع فيه القرنفل والمنثور لتزيّن بهما بناته ضفائرهن. وعندما كان الدرب يقودنا صدفةً إلى أبواب هذه البيوت التي أقيمت كأعشاش بشرية بين موجات الخضرة، لم نلمح على وجوه هؤلاء السكان السعداء والطيبين لا دهشة ولا ازوراراً ولا غضباً. كانوا يسلّمون علينا ويبتسمون لجمال «جوليا»، ويقولون لنا «صباح الخير»، «نهاركم سعيد». وكان بعضهم يستوقفنا لنستريح تحت إحدى شجرات النخيل، ويأتون حسب إمكانياتهم المادية بحصيرة أو ببساط، ويقدمون لنا الفواكه

واللبن والأزهار. وكنا نقبل أحياناً دعوتهم ونعدهم بالعودة لتقديم شيء لهم من «أوروبا». ولكن أدبهم وضيافتهم لم يكونا مغرضين إطلاقاً. إنهم يحبون الإفرنج لأنهم يعرفون كيف يشفون من جميع الأمراض ويعرفون خصائص جميع النباتات ويعبدون الله نفسه مثلهم.

صعدنا من هضبة إلى هضبة، وتكررت المشاهد، وتكررت الأسيجة الشجرية والخضرة المزركشة المحيطة بالحقول. وكان الأفق الجميل يتّسع بعد كل هضبة ويشكل رقعة مزدانة بالألوان، وكانت أسيجة الشجيرات المتقاربة والمتجمعة بسبب المنظور تشكّل غابات أو نقاطاً داكنة تحت أقدامنا. وتبعنا تلك الهضاب من تلة إلى تلة، ونزلنا أحياناً إلى الأودية التي تفصل بينها، وهي أودية ظليلة جداً وأمتع من التلال؛ وتغطيها كلها بسُط الأشجار المزروعة في الجلول، فتندفن كلها في تلك الموجات الخضراء المعطرة، ولكن جميع تلك الأودية تفضي إلى مضيق ينفتح على السهل والبحر. ولأن السهل يزول بسبب ارتفاع هذه الأودية، بدت وكأنها تصب مباشرة في الشاطئ؛ وتلتصق أشجارها الداكنة بزرقة الأمواج؛ وكنا أحياناً نلهو ونحن جالسون تحت إحدى أشجار النخيل برؤية أشرعة السفن التي كانت على بعد أربعة أو خمسة فراسخ من مكاننا، وهي تنزلق بهدوء بين الأشجار كما لو أنها تسير في بحيرة تشكّل هذه الأودية شاطئاً لها.

ووصلنا أخيراً، عن طريق الصدفة، إلى أكثر تلك المناظر جمالاً وسحراً. وسأعود إليه مراراً.

إنه كناية عن وادٍ خارق، ينفتح شرقاً وغرباً، ويتجمّع في طيات السلسلة الأخيرة من الروابي التي تتوغل داخل الفج الكبير الذي يجري فيه «نهر بيروت». لا أستطيع البتة أن أصف الخضرة الخارقة التي تزركش مجراه وضفتيه؛ ومع أن جانبيه صخريان، فهما مكسوان بنباتات الحزاز العديدة التي ترشح رطوبة فتقطر نقطة نقطة والتي تحمل عناقيد الخلنج والعرائش واللبلاب والشجيرات الغائصة في فجواتها الصغيرة، فيستحيل عليك أن تشك في أن الصخرة الحية هي التي استنبتت كل هذه

النباتات. إنه بساط كثيف تبلغ سماكته قدماً أو قدمين، بساط من المخمل اليخضوري المرصوص المتعدد الأشكال والألوان، والذي تنبت فوقه كله باقات من الزهور غير المعروفة بأشكالها وعطورها المتنوعة، فتغفو ساكنةً كأزهار رُسمت على سجاد سندسي في صالوناتنا، وأحياناً عندما يتسلل نسيم البحر إليها تنهض مع الأعشاب والأغصان فتفرّ منها وتكون كجلد حيوان ناعم نمرّر يدنا فوقه بعكس شعيراته، وتزدان بألوان متماوجة وتشابه نهراً من الخضرة والزهور الجارية كالأمواج العطرة. فتنبعث منها عندئذٍ نفحات عطرية مُسْكِرة، وتنطلق منها مجموعات من الحشرات ذات الأجنحة الملونة والطيور التي تطير منها لتحط فوق الأشجار المجاورة. ويمتلئ الجو بزقزقاتها المتناوبة وبطنين خلايا الزلاقط والنحل وبدمدمة الأرض الصمّاء إبان الربيع، فنظن مصيبين ربما أننا نسمع أصوات النبات تصدر عن سطحها. ومن كل ورقة تنزلق نقاط الندى الليلي فتلتمع فوق كل نبات مهما صغر وترطّب مجرى هذا الوادي الصغير إلى أن تطلع الشمس وتصوّب أشعتها على نواصي الأشجار العالية ونواتئ الصخور المحيطة بها.

وتناولنا طعام الغداء فوق أحد الأحجار قرب كهف لجأت إليه غزالتان لوقع أقدامنا، فتجنبنا أن نعكّر لجوء هذين الحيوانين الرائعين اللذين يعيشان في القفار، كما تعيش الحملان في المروج، والحمائم الداجنة في سطوح وباحات البيوت الريفية عندنا.

كان الوادي مفروشاً ببساط متحرك من الورق والطحلب والنبات، مما أثار فيّ الدهشة الكبرى. لا أذكر أنني رأيت في الطبيعة هذا القدر من الحياة المكثفة والمفعمة في بقعة صغيرة كهذه. حاذينا الوادي حتى آخره، وجلسنا من وقت لآخر في الظل الرطيب، ولامسنا النباتات بأيدينا لاستقطار ماء الندى منها ولإثارة أريجها والحشرات المعششة فيها كشذور الذهب. الله أكبر. ما أعمق وأفسح الينبوع الذي تنحدر منه هذه الحيوات وهذه الجمالات وهذه الهبات. إذا كان علينا أن نرى أشياء كثيرة وأن نعجَب بها وأن نُدهَش لها وأن ننصهر بها في زاوية صغيرة من زوايا الطبيعة، فماذا سيحدث عندما سينسدل أمامنا ستار العالمين، وعندما سنتأمل في مجمل الصنائع التي لا

تنتهي. يستحيل علينا أن ننظر وأن نفكّر دون أن تغمرنا البديهية الداخلية التي تنعكس منها فكرة الله. الطبيعة كلها مزروعة بشظايا هذه المرآة المشعة التي ترتسم عليها صورة الله.

عندما وصلنا إلى المصب الغربي للوادي، اتسع أفق السماء؛ وانكشفت أبعاده وخف انحداره تحت أقدامنا؛ وانتصبت قمم جبال لبنان المكسوّة بالثلوج، انتصبت في السماء المتموجة بالأبخرة الحارة. وهبطنا، ونحن ننظر إلى تلك الثلوج الخالدة، نحو البقع الداكنة للصنوبر والسرو والأرز، ونحو تلك الأودية العميقة التي يستريح فيها الظل كما يستريح الطائر في عشه؛ ثم نزلنا إلى الصخور المسننة ذات اللون الذهبي والتي تمتد قربها المرتفعات المارونية والقرى الدرزية. وانتهى كل شيء بزنّار من غابات الزيتون التي تلاشت على ضفاف السهل. وهذا السهل الممتدّ بين الروابي التي كنا فوقها وأخمص جبل «لبنان» قد يصل عرضه إلى فرسخ واحد. إنه سهل متعرج ولم نشاهد من طوله إلا ما يقارب الفرسخين؛ أما الباقي فكان مختفياً وراء الأكمات المغطاة بغابات الصنوبر الداكنة. ويَقسم «نهر بيروت» السهل إلى قسمين، وهو نهر ينبع من أحد الثغور العميقة والصخرية الواقعة على بعد عدة أميال في جبل «لبنان». ويركض جذلاً بمياهه العالية التي تنحصر أحياناً بين ضفتين محاطتين بالقصب (كأنها حقول قصب السكر)، وأحياناً يتّسع بين العشب الأخضر أو تحت أشجار المصطكّى ويشكل في بعض الأماكن بحيرات صغيرة تلتمع في السهل. تحيط النباتات بضفتي النهر، ورأينا على طول النهر قطعاناً من الحمير والخيول والماعز والجواميس السوداء والأبقار البيضاء، ورعاةً عرباً يجتازون النهر فوق جِمالهم. وعلى السفوح الأولى للجبل رأينا في البعيد رهباناً موارنة بصاياتهم السوداء ذات القلانس وهم يفلحون الأرض بين أشجار الزيتون في حقولهم. وسمعنا رنين أجراس الأديار وهي تدعوهم أحياناً للصلاة. عندها كانوا يوقفون ثيرانهم ويضعون العصيّ أمام المحاريث، ويجثون على الأرض لبضع دقائق. وبذلك كانوا يريحون حيواناتهم المكدونة ويتطلعون هم بدورهم نحو السماء.

عندما تقدمنا أكثر وبدأنا بالنزول نحو النهر، اكتشفنا فجأة البحر الذي أخفته عنا حافتا الوادي، واكتشفنا أيضاً مصب «نهر بيروت» الذي ازداد عرضاً وراح يضيع في البحر. وكان، قرب هذا المصب، جسر روماني شبه مهدم قائم على قناطر عالية ودون درابزون، ويقطع النهر. وكانت قافلة دمشقية طويلة ميمّمة مدينة حلب، تمرّ فوقه آنئذٍ. رأينا أفرادها واحداً واحداً؛ فمنهم من كانوا يركبون الجمال، ومنهم الخيول، وكانوا يخرجون من بين القصب المظلِل أرومة الجسر، ويصعدون بتؤدة إلى قمة القناطر، ويتملون لحظةً البحرَ الأزرق مع مطاياهم وكانوا يرتدون ثياباً غريبة وفاقعة الألوان ثم ينزلون من أعلى هذا الطلل ويختفون مع طابور حميرهم وجمالهم خلف كتل القصب والدفلى والدلب التي تظلل الضفة الأخرى من النهر. وبعد ذلك بقليل، رأيناهم يظهرون فوق الحصى والرمال، وكانت الأمواج العالية تهيل زبدها تحت سنابك المطايا. ثمّ تواروا خلف الصخور الهائلة التي تنزل شاقولياً وتنغرس في البحر مغطية الأفق في هذا الجانب.

عند مصب النهر، كان للبحر لونان: الأزرق الأخضر في اللجة، الذي يلتمع كالماس المتحرك، والأصفر الباهت حيث كانت أمواج مياه النهر تصارع الرمال الذهبية وتلوّنها وتجذبها نحو المرسى. كانت هناك سبع عشرة سفينة راسية في الخليج، تتأرجح متثاقلة بين الأمواج العالية المحيطة بها، وكانت سواريها ترتفع وتنخفض كأعواد القصب الطويلة عندما تهب الريح. وكانت سواري بعض السفن متجردة من أشرعتها كأشجار الشتاء؛ وكانت سفن أخرى تفرد أشرعتها لتجففها في الشمس، وتشبه في ذلك طيور البحر البيضاء الكبيرة التي تحلّق دون أن تحرك أجنحتها. أما الخليج فكان يلمع أكثر من السماء التي تغطيه، ويعكس جزءاً من ثلوج جبل لبنان والأديار ذات الحزّيات المنتصبة فوق القمم العالية. ومرت قوارب صيادين فاردة أشرعتها، وقدمت لتحتمي في النهر. كان الوادي تحت أقدامنا، وكذلك المنحدرات المتجهة نحو السهل، والنهر تحت القناطر الهرمية، والبحر بأضلاعه المنغرسة في الصخور، وفوقنا الكتلة الهائلة لجبل لبنان بتضاريسها العديدة والمتباينة؛ وجاءت تلك الثلوج الهرمية الشكل تنغرس، كالمخروطات الفضية، في أعماق السماء، فتبحث عنها

العين كما تبحث عن النجوم. وسمعنا حولنا أزيز الحشرات وزقزقة العصافير الجاثمة فوق الأشجار، وخوار الجواميس، وأنين إبل القافلة الذي يشبه أنين البشر. وسمعنا كذلك اصطفاق الأمواج الرتيب والجامد بالرمال عند مصب النهر، ونظرنا إلى أفق البحر الأبيض المتوسط اللامتناهي الأطراف، وإلى الأفق المتعرج والأخضر لمصب نهر بيروت إلى اليمين، وإلى السور المسنّن والهائل لجبل لبنان القائم أمامنا، وإلى قبة السماء المشعة والصافية التي تحتضنها فقط قمم الجبال ونواصي الأشجار الكبيرة المخروطية الشكل؛ وأحسسنا بدفء الهواء وأريجه، وفيه يسبح كل هذا، كما تطفو إحدى الصور فوق المياه الرقراقة في إحدى البحيرات السويسرية: كانت جميع هذه الأشكال والأصوات والظلال والأنوار والانطباعات تشكل في هذه اللوحة أروع وأجمل مشهد ثملت به عيناي طيلة حياتي. ماذا رأت جوليا إذن؟ كانت متأثرة جداً ومشرقة، وكانت ترتعش كلها من الذهول والمتعة الداخلية؛ وأنا طاب لي أن أحفر مثل هذه المشاهد في خيالها الطفلي. فالله يرتسم فيها أكثر مما يرتسم بكثير في سطور كتب تعليم الدين، إنه يرتسم بخطوط تليق به. إن الجمال الأسمى والطيبة الهائلة للطبيعة المكتملة يتجليان كما هما في نفس الطفل؛ فترجمتْ جوليا هذا الجمال الطبيعي والمادي بشعور أخلاقي جميل. عندما نتعامل مع فنّان، نريه تماثيل اليونان ليستوحي منها غريزة الجمال؛ كذلك يجب أن نُري النفس الشابة مشاهد الطبيعة الكبرى والجميلة كي تكون الصورة التي تشكّلها عن صانعها لائقة به وبها.

ركبنا في سفح الرابية صهوات خيولنا، وانتقلنا إلى السهل المحاذي للنهر، واجتزنا الجسر وصعدنا إلى بعض الأكمات المشجّرة في جبل لبنان، ووصلنا إلى أول دير كان ينتصب كالقلعة فوق قاعدة من الغرانيت. عرفني الرهبان بسبب التقارير التي أرسلها العرب إليهم، واستقبلوني في الدير. وأزاروني مقصوراتهم وغرفة المائدة وكنائسهم. كانوا عائدين من أعمالهم، ومنهمكين في وسط الباحة الكبرى بفك أنيار الثيران والجواميس. وكانت هذه الساحة مكتظة بالمحاريث والدواب وكتل الزبل والطيور المنزلية وجميع الأدوات المستعملة في الحياة الريفية. وكانوا يزاولون أعمالهم هذه

بصمت وهدوء ودون تكلف ويمارسونها بكل طبيعية، ولكن دون أن تُملى عليهم قاعدة صارمة جامدة. ما أهدأ وأعذب هذه الوجوه التي كانت تستنشق الطمأنينة والرضى؛ وجدتني أمام مشهد لجماعة من الفلاحين. وعندما قُرع جرس المائدة، دخلوا إلى غرفة الطعام دون زحام، دخلوا راهباً بعد راهب، حسب الأعمال التي أنجزوها مبكرين أو متأخرين. كل يوم، كان الطعام عندهم كناية عن كعكتين أو ثلاث من الطحين المعجون والمجفف دون أن يخبز فوق أحجار الفرن الحامية، وعن إبريق ماء وخمس حبات زيتون مغمّسة بالزيت؛ أحياناً يضاف إلى ذلك قليل من الجبن ومصل اللبن. كان هذا هو طعام أولئك الرهبان المتوحدين، ويأخذونه إما واقفين أو جالسين على الأرض. فلا يعرفون شيئاً من أثاث بلداننا.

بعد أن اشتركنا في الغداء وأكلنا قطعة من الكعك وشربنا كأساً من النبيذ اللبناني الفاخر الذي أمر رئيس الدير بإحضاره لنا، زرنا عدداً من المقصورات المتشابهة كلها. المقصورة كناية عن غرفة بخمسة أو ستة أقدام مربعة، يُغطيها بساط أو حصيرة يشكلان كل أثاث الغرفة؛ وفيها صور للقديسين معلقة على الحائط، وكتاب مقدس باللغة العربية، وعدد من المخطوطات السريانية؛ هذه هي كل الزينة. في الدير ممشى داخلي طويل مصنوع من القش، يفضي على جميع الغرف. المنظر الذي يشاهده الرهبان من نوافذ هذا الدير، وجميع الأديار تقريباً، هو منظر رائع. يشاهدون السفوح الأولى لجبل لبنان وسهل بيروت ووديها، وقباب غابات الصنوبر التي تنفصل عن الأفق الأحمر للصحراء الرملية؛ ويشاهدون البحر برؤوسه وخلجانه وحوافّه وصخوره والزوارق الشراعية التي تمخره من كل جانب. هذا هو الأفق الذي يراه الرهبان دون انقطاع. لقد قدّموا لنا الفواكه المجففة والقِرَب المليئة بالنبيذ التي حمّلوها على الحمير. ثم غادرناهم وسلكنا طريقاً ثانياً يؤدي إلى بيروت. سأتكلم عن هؤلاء الرهبان لاحقاً.

نزلنا دروباً وعرة محفورة في كتل الصلصال الأصفر الرخو الذي يغطي جميع مستويات جبل لبنان الأولى. وينساب الدرب بين هذه الكتل. وفي تجاويف الصخور

نبتت بعض الشجيرات والأعشاب. ورأينا أزهاراً رائعة تشبه خزامى بساتيننا، ولكنها أكبر من الخزامى بكثير. وأيقظنا عدداً من الغزلان وبنات آوى التي احتمت بفجوات الصخور. وطارت أمامنا مجموعات من الحجل والقطا ودجاج الأرض، لدى سماعها وقع حوافر خيولنا. وعندما وصلنا إلى السهل وجدنا ثانية الكروم والشعير والنخيل. اجتزنا نصف السهل تقريباً وسط هذه المزروعات الغنية ثم وجدنا أنفسنا في أسفل أكمة تغطيها غابة من الصنوبر الإيطالي تفضي على مطلات شاهدنا منها في البعيد قطعاناً من الإبل والماعز. كانت هذه الأكمة تحجب عنا نهر بيروت الذي نوينا أن نجتازه من طرفه الجنوبي. توغلنا تحت القناطر العالية التي تشكّلها هذه الأشجار الصنوبرية الظليلة، وبعد أن مشينا ربع ساعة تقريباً في الظل، سمعنا فجأة صراخاً عالياً ووقع أقدام رجال ونساء وأطفال كثيرين يتقدمون نحونا، وسمعنا ضرب الطبول وأصوات مزامير القِرَب والنايات. وخلال لحظات أحاط بنا خمس مئة أو ست مئة عربي بأشكال غريبة. وتقدم نحونا زعماؤهم ممن كانوا يرتدون الملابس الرائعة، ولكن القذرة والممزقة، وسبقوا العازفين. فانحنوا أمامنا وسلموا علينا بأدب ظاهري جم لم نستطع أن نفهمه. واستطعنا أن نفهم كلامهم من خلال الإشارات والجلبة التي قاموا بها هم وأفراد قبيلتهم كلها. وطلبوا منا، لا بل أجبرونا إن صح القول على مرافقتهم إلى داخل الغابة حيث يعسكرون، كانوا قبيلة من قبائل الأكراد التي انحدرت من أقاليم بلاد الفرس، وأتت لتقضي فصل الشتاء تارة في سهول «بلاد الرافدين» وضواحي «دمشق» وتارة في سهول «الشام»، وقدمت مع عوائلها وقطعانها. واستقرت في غابة أو سهل أو رابية مهجورة وأقامت فيها لمدة خمسة أو ستة أشهر.

أحاط بنا هذا الحشد من الرجال والنساء والأولاد، فمشينا بضع دقائق ونحن نسمع هذه الموسيقى الصاخبة وأصوات هذا الجمهور الذي كان ينظر إلينا نظرات استهجان نصفها ضاحك ونصفها عدواني. ثم وجدنا أنفسنا وسط المعسكر، وأمام باب خيمة أحد شيوخ القبيلة. أنزلونا من ظهور خيولنا وسلموها بإعجاب لبعض الفتيان الأكراد ليحرسوها، ثم أحضروا بسطاً كرمانية جلسنا فوقها قرب إحدى الأشجار. وقدّم لنا عبيد الشيخ الغلايين والقهوة، وجاءت نساء الخيمة بحليب النوق

وقدّمنها لـ «جوليا». يجدر بي أن أصف منظر معسكر هؤلاء الرحّل، الذين أقاموا وسط غابة الصنوبر.

في هذا الموقع، كانت للغابة مطلات واسعة. وتحت كل شجرة نصبت عائلة خيمتها؛ والخيمة هي، بعامة، عبارة عن قطعة من بساط أسود مصنوع من شعر الماعز رُبط بحبل بجذع شجرة، وعُلّق طرفه الآخر بوتدين غرسا في الأرض؛ في الغالب لا يحيط هذا البساط بالعائلة كلها؛ فمن جهة الريح والشمس كانت هناك أسمال تصد الريح وتحمي من نيران المواقد. لا يوجد داخل الخيمة أي أثاث، ما عدا الجرار الفخارية المسودّة النائمة على قعورها والتي تملأ بها النساء الماء؛ وهناك أيضاً بعض القِرب المصنوعة من جلود الماعز، وبعض السيوف والبنادق الطويلة المعلقة على أغصان الشجر؛ وهناك أيضاً بعض الحصر والبسط وثياب الرجال والنساء وقد ألقي بها على الأرض دون ترتيب. كان لبعض هؤلاء العرب صناديق[1] مربعة مصنوعة من الخشب المدهون باللون الأحمر ومزينة بمسامير ذات رؤوس مذهبة، ويضعون فيها حوائجهم. لم أشاهد إلا حصانين أو ثلاثة للقبيلة كلها. كان لمعظم العائلات جمل راقد قرب الخيمة يجتر طعامه ويرفع رأسه الذكي وينظر إلى باب الخيمة، وبعض عنزات جميلات بشعرها الأسود الطويل وبآذانها المتدلية، وبعض الأغنام والجواميس. ولكن كل خيمة كانت تملك كلباً سلوقيّاً أو كلبين كبيرين ولهما شعر أبيض، كانت هذه الكلاب سمينة ومعتنى بها، وبدا عليها أنها تعرف أصحابها، وأفترض أن هذه القبائل كانت تستخدمها للصيد. يبدو على شيوخ القبيلة أنهم يتمتعون بسلطة مطلقة، فما إن كانوا يقومون بإشارة صغيرة حتى يستتب النظام ويخيّم الصمت بعد الجلبة التي أثارها وصولنا. وعندما لاحظوا أن الأولاد يتلصصون علينا، أمسك بهم حالاً الرجال الذين كانوا يحيطون بنا وطردوهم نحو حيّ آخر من أحياء المعسكر. كان الرجال بعامة طويلي القامة وأقوياء ووسيمين وبقوام جميل؛ أما ثيابهم فلا تدلّ على الفقر وإنما على الإهمال. كان العديد منهم يرتدون سُتراً حريرية مقصّبة ويضعون معاطف حريرية زرقاء مبطنة بالفرو النفيس. وكانت أسلحتهم رائعة أيضاً بنقوشها وتعشيقاتها الفضية

١ - إنه يخلط بين عرب وكرد وربما لا يعرف حقيقة من هؤلاء.. فقد يكونون من الغجر « النَّوَر» الذين يتنقلون في كل البلدان.

التي تزينها. أما النساء فلم يُحجر عليهن ولا سيما البنات بين عشر وخمس عشرة سنة. كن يضعن فقط سروالاً كثير الثنايا يترك الرجلين مكشوفتين، وكلهن كن يضعن الخلاخل الفضية في أرجلهن. ويغطي الصدر قميص من القطن أو الحرير يجمعه الحزام، ويترك الصدر والعنق عاريين. ويُجدل الشعر وهو أسود بعامة جدائل طويلة تنزل حتى الكعبين وتزينها قطع النقود المشبوكة بها. وعلى أحقائهن ورقابهن شبائك من القروش المتداخلة ترنّ عندما يمشين، وتشبه حراشف الحيّات. لم تكن هؤلاء النسوة طويلات وبيضاوات، ولم يكنّ متواضعات ولدنات، على غرار النساء العربيات في «سوريا». ولم تكن أشكالهن متوحشة ومذعورة كالبدويات؛ كنّ بعامّة قصيرات وهزيلات، وتلوّحَ لونُهن بالشمس، وكن جذلات وحيويات وبشوشات ومائسات، يرقصن ويغنين على أنغام الموسيقى التي لم تتوقف لحظة عن عزفها النشيط والحماسي. لم يظهر عليهن أي حرج ونحن ننظر إليهن، ولم يشعرن بأي خفر لظهورهن شبه عاريات أمام رجال القبيلة. وبدا الرجال كأنهم لا يمارسون عليهن أية سلطة، واكتفوا بالضحك من الفضول الذي أبدينه تجاهنا، وأبعدوهن عنا برفق ومزْح. كانت بعض البنات جميلات للغاية، لقد وضعن الحنّة على أطراف جفونهنّ، مما يجعل النظر أكثر حيوية. وصُبغتْ سيقانهن وأيديهن أيضاً بلون الزان. كانت أسنانهن بيضاء كالعاج وعلى شفاههن وشم أزرق، وأجسامهن سمراء تنبض بالحيوية. كن يشبهن فتيات البروفانس أو نابولي بجباههن العالية وحركاتهن الحرة وابتساماتهن الصريحة وتصرفاتهن الطبيعية جداً. وتنغرس صور وجوههن في الذاكرة، لأن المرء لا يشاهد في حياته وجوهاً بهذه الصفات، مرتين.

التفّت حولنا حلقة تتراوح بين مائة ومائتي شخص من أفراد القبيلة. عندما شاهدنا معسكرهم وأشكالهم وأعمالهم، أردنا أن نركب خيولنا. فأتوا بها فوراً، ولكنها ذعرت من المشهد الغريب ومن أصوات الحشد ومن وقع الدفوف؛ عندئذٍ أوعز الشيخ إلى زوجتين له أن تحملا جوليا إلى طرف الغابة، فرافقتنا القبيلة كلها. وبعد أن امتطينا خيولنا، قدموا لنا عنزة وقَعوداً، فلم نقبل، وأعطيناهم قبضة من القروش التركية اقتسمتها الفتيات فيما بينهن ليضفنها إلى قلائدهن، وأعطينا زوجتَي الشيخ قطعتين

من الغوازي الذهبية. وغير بعيد عن الغابة، رأينا النهر من جديد، فقطعناه عبوراً. وتحت أشجار الدفلى المحيطة بالنهر صادفنا أيضاً حوالي مائة فتاة من فتيات تلك القبيلة الكردية، وهن عائدات من بيروت حيث ذهبن ليشترين الجرار الفخارية والأقمشة لبنت ستُخطب في قبيلتهن. كن قد توقفن هنا وبدأن يرقصن وهن يحملن بين أيديهن شيئاً من متاع زميلتهن أو من زينتها. تعقبننا طويلاً، وتعلقن برداء جوليا وبعروف خيولنا، علّهن يحصلن على بعض القطع النقدية. فرششنا عليهن بعض القطع، ثم هربن ونزلن في النهر ليعدن إلى معسكرهن.

بعد أن قطعنا نهر بيروت والنصف الثاني من السهل المزروع والمظلّل بأشجار النخيل الصغيرة والصنوبر، دخلنا الروابي الرملية الحمراء الممتدة شرقي «بيروت»، ما بين البحر ومجرى النهر. إنه بقعة من صحراء «مصر» زرعت في أسفل جبل «لبنان» وأحاطت بها واحات جميلة؛ كان الرمل أحمر أمغر ناعماً كالغبار الناعم. ويقول العرب إن هذه الصحراء برمالها الحمراء لم تحملها الرياح إلى هذا المكان ولم تنقلها الأمواج إليه، وإنما لفظها سيلٌ في باطن الأرض يتصل بصحراء «غزة» و«العريش»؛ ويدّعون أن هناك ينابيع رملية على غرار الينابيع المائية. وللتأكيد على رأيهم، يُظهرون لون رمل البحر وشكله، ويرون أنه لا يشبه لونه وشكله في تلك الصحراء. فاللون واضح كلون مقلع من الغرانيت أو مقلع من الرخام. على كل حال، إن هذا الرمل الذي لفظته أنهر في باطن الأرض أو زرعته في هذا المكان الرياح الشتائية العاتية، يتكوّن من أحواض تمتد على خمسة أو ستة فراسخ، ويرفع جبلاً أو يحفر أودية تغيّر العواصف شكلها. فما إن يمشي المرء بعض الوقت في هذه المتاهات المتموجة حتى يعجز عن معرفة أين هو؛ ذلك أن تلال الرمل تخفي الأفق أمامك من كل جانب، فلا يبقى أي أثر لدرب فوق سطح تلك الأمواج الرملية. وعندما يمر الحصان أو الجمل في ذلك المكان، لا يتركان أي أثر، شأنهما شأن القارب الذي لا يترك أي أثر له عندما يمخر الماء، لأن أدنى نسمة تمحو كل شيء. كانت بعض هذه الكثبان تتحرك بسرعة شديدة، بحيث أن خيولنا كادت تعجز عن ارتقائها؛ فتقدّمنا بحذر خشية الغرق في هذا المستنقع الرملي الكثير

المخاطر. لا ينمو فيه أي نبات، ما عدا بعض الأبصال الكبيرة لنباتات منتفخة علقت أحياناً بسنابك خيولنا. إن هذه القفار المتحركة تترك انطباعاً حزيناً وقاتماً، فهي عاصفة دون صوت، ولكنها عاصفة تحمل جميع صور الموت. وعندما تهب ريح الخماسين الصحراوية، تتموج تلك التلال كأنها موجات بحرية وتنكفئ صامتة على أوديتها العميقة، فتبتلع جمال القوافل. وكل سنة تتقدم هذه الرمال بضع خطوات داخل الأرض المزروعة المحيطة بها، فترى على أطرافها رؤوساً من أشجار النخيل أو التين تنتصب جافة بين الرمال، كأنها سواري سفينة ابتلعتها الأمواج.

لم نكن نسمع أي صوت سوى اندياح الأمواج البحرية البعيدة التي كانت ترتطم بالصخور على مسافة فرسخ من حيث كنا. وكانت الشمس الغاربة تلّون قمم تلك الجبال بغبار أحمر يشبه لون الحديد المحمى الخارج من البوتقة، وتنزلق في تلك الأودية فتغمرها بضيائها، كأنها ممرات صرح من الصروح تعرّض للحريق. وأحياناً عندما كنا نجد أنفسنا فوق رابية من تلك الروابي، كنا نعاين القمم الناصعة في جبل «لبنان»، أو نعاين البحر بأهدابه الزبدية التي تحاذي الشواطئ المسننة الطويلة في خليج «صيدا»، ثم نغطس ثانية في الأودية الرملية، ولم نعد نرى إلا السماء فوق رؤوسنا. كنت أمشي وراء «جوليا» التي غالباً ما كانت تنظر إليّ بوجهها الجميل الذي اصطبغ بالانفعالات والتعب، وقرأت في عينيها المتفرستين فيّ انطباعاتِها المشوبة بالهلع والحماس والسرور.

ازداد هدير البحر وأنبأنا بأننا قرب الشاطئ. وفجأة رأيناه من مكاننا العالي والوعر وأشرفنا عليه من فوق خيولنا؛ كان شاطئاً يرتفع فوق البحر الأبيض المتوسط مقدار مائتي قدم على الأقل. وكان أديم الأرض قاسياً يفرقع تحت أقدامنا، مع أنه ما زال مغطى بطبقة خفيفة من الرمل الأبيض، ودلّنا على الصخور التي تلي أمواج الرمل، وهي صخور تحيط بجميع شواطئ «سوريا». وبالصدفة وصلنا إلى بقعة من هذا الشاطئ ورأينا صراعاً غريباً وملفتاً بين البحر والماء؛ أجل لقد أدى اندفاع الأمواج المستمر علاوة عن الزلازل إلى انفصال عدد من التلال الصخرية الهائلة وانهيارها

في البحر حيث صقلتها الأمواج ولثمتها منذ قرون طويلة، وخلقت لها أشكالاً غريبة جداً. على مسافة مائة قدم أمامنا انتصبت إحدى هذه الصخور وبزغت من البحر وأطلت برأسها فوق مستوى الشاطئ، وأدت ضربات الأمواج المتواصلة لها إلى شقها من وسطها، وإلى تشكيل قوس هائل فيها يشبه فتحة صرح فخم. وكانت جوانب هذا القوس الداخلية مصقولة ولامعة كأنها رخام «كراري» (Carrare)؛ وعندما كانت الأمواج تنحسر عنه تجف جوانبه بعد أن بلّلها الزبد المنحسر مع الأمواج، ثم عندما تعود الأمواج، تنغمر هذه الجوانب بالماء وتدوّي عندما تملأ القوس حتى قنطرته؛ ولضغط الصدمة، ينطلق سيل من الزبد الجديد يصعد كألسنة هائجة إلى قمة الصخرة ثم ينحسر منها ويشكّل ضفيرة وغباراً سائلاً. وانتصب شعرنا من الهول لرؤيتنا الأمواج المهاجمة، ولم نستطع أن نحجب أنظارنا عن هذا الصراع المحتدم بين العناصر.

أثناء نصف ساعة من المسير، رأينا الشاطئ غارقاً في هذه الألعاب الرائعة للطبيعة: في البحر أبراج ذات حزّيات، أبراج تغطيها أعشاش سنونو البحر؛ وفيه جسور طبيعية تربط بين الشاطئ والصخور البحرية التي تسمع من تحتها، وأنت تمشي، زمجرة الأنواء. في بعض الأماكن هناك صخور ثقبتها الأمواج فانطلق منها زبد البحر تحت أقدامنا كما تنطلق ماء النوافير من الأنابيب. ترتفع الماء بضعة أقدام فوق الأرض كعمود هائل، ثم تنحسر هامسة في الأغوار؛ كانت تنداح كتلال زرقاء عالية، ثم تنتصب شفيفةً عند اقترابها من الصخور، وتنقضّ بعدئذ محدثةً جلبة يرتجف لها الشاطئ البعيد، فنظن عندئذٍ أن القوس البحري الذي شاهدناه أمامنا سيتصدّع وينهار. بعد فترات العزلة الصامتة والهائلة التي قضيناها لتونا، إذا بنا أمام مشهد فسيح لبحر مترامي الأطراف وخال من السفن، إبّان المساء الذي بدأت العتمة الأولى فيه تسفع أعماقه. وإذا بنا نعاين تلك التمزقات العملاقة التي تصيب الشاطئ، وذلك الهدير الصاخب للأمواج التي تنداح كصخور هائلة، شأنها شأن الطيور التي تدفع بأرجلها حبات الرمل. وإذا بنا نشعر بالنسيم يلفح وجوهنا ويحرك عروف خيولنا، ونسمع تلك الأصداء العميقة الباطنية التي تضاعف هدير العاصفة الجامد. كل هذا

خلق في نفوسنا انطباعات متباينة واحتفالية وقوية، بحيث ارْتجَ علينا، وبحيث لمعت في عيني «جوليا» دموع الانفعال.

وعدنا صامتين إلى صحراء الرملة الحمراء وقطعناها من طرفها الأشد ضيقاً واقتربنا من تلال بيروت، وعند مغيب الشمس، إذا بنا تحت غابة الصنوبر الكبرى التي زرعها الأمير «فخر الدين». عندئذٍ استعادت «جوليا» صوتها والتفتت إليّ قائلة بنشوة: «لم أعمل أجمل نزهة في العالم كله كهذه. آه، ما أكبر الله وما أرقّه معي، إذ اختارني أنا الصغيرة لأتأمل هذه الأشياء الرائعة!» خيّم الليل عندما ترجلنا من خيولنا أمام عتبة البيت. وقررنا أن نقوم بجولات أخرى في الأيام التالية قبل أن نسافر إلى «دمشق».

في ١٨ تشرين الثاني

وصلت بعد رحلة قمت بها لدير «عينطورة»، وهو أحد أجمل أديار لبنان وأشهرها. بعد أن غادرنا بيروت، سرنا وشاطئ البحر مدة ساعة وتحت قنطرة من الأشجار المتنوعة الأوراق والأشكال. ومعظمها من الأشجار المثمرة كالتين والرمان والبرتقال والمقر أو من الجميّز وهي أشجار عملاقة لها ثمار عديدة تشبه التين الصغير ولا تنمو في نهاية الأغصان بل ترتبط بالجذع وبالفروع كالطحالب. وبعد أن قطعنا النهر من فوق الجسر الروماني الذي وصفته سابقاً، حاذينا الشاطئ الرملي حتى رأس «البترون» الذي تشكّله ذراع من أذرع جبل لبنان تنغرس في البحر. وما هذه الذراع إلا كناية عن صخرة حُفرت فيها قديماً طريق ساحلية ذات منظر رائع. وفي أماكن عديدة من الصخرة رأينا كتابات يونانية ولاتينية وسريانية، وعدداً من الصور المنحوتة على الصخر فُقدت رموزها ومعانيها. ومن الأرجح أنها ترتبط بتقديس «أدونيس»، وهو تقديس كان مرعياً في هذه المناطق؛ وكان يمارس، حسب التقاليد، في معابد تقيم له احتفالات جنائزية في المكان الذي هلك فيه. ويقال إنه يقع قرب النهر الذي اجتزناه لتوّنا.

وعندما هبطنا من هذا الطريق البحري المرتفع والرائع، تغيّرت طبيعة المنطقة

فجأة. فغاص نظرنا في شِعب ضيق وعميق يملؤه نهر الكلب بمائه. أجل يجري هذا النهر بين كتلتين من الصخور العمودية التي يبلغ ارتفاعها مائتي أو ثلاثمائة قدم. وفي بعض الأماكن يملأ النهر الوادي كله؛ وفي أماكن أخرى يترك مسافة صغيرة بين الماء والصخر، مسافة تغطيها الأشجار وقصب السكّر والقصب الخشبي والنباتات المتسلقة، فتشكل قنطرة خضراء كثيفة فوق الضفتين، وأحياناً فوق النهر كله. وأقيم فوق الصخر خان متهدّم، قريب من الماء ومقابلَ جسرٍ له أقواس سامقة يمرّ فوقه الماشي وهو يرتجف من الرهبة. وعلى سفوح الصخور التي تشكّل هذا الوادي، حفر العرب بصبرهم بعض الدروب ذات الدرجات الحجرية تطلّ شاقولياً فوق النهر، ويترتب على الناس أن يصعدوا ويهبطوا فوقها وهم راكبون خيولهم. تركنا خيولنا على سجيتها تمشي بحذر. وفي بعض الأماكن الضيّقة، أجبرنا على إغماض عيوننا كي لا نرى الدرجات العالية والحجارة الملساء والدرب المنحني والهاوية العميقة. منذ بضع سنوات هلك المبعوث البابوي الأخير لدى الموارنة عندما زلّت سنابك حصانه. وفي نهاية هذا الدرب يجد المرء نفسه فوق هضاب عالية مغطاة بالمزروعات والعرائش والقرى المارونية الصغيرة. ويشاهد أمامه فوق إحدى الروابي بيتاً جميلاً جديداً، بهندسة معمارية إيطالية مع رواق وسطوح ودرابزون. إنه بيت صاحب السيادة «لوزانا» (Lozanna)، أسقف «أبيدوس» (Abidos)، وهو المبعوث الحالي للحبر الأعظم إلى «سوريا»، وابتنى هذا البيت ليقضي فيه فصل الشتاء. أما في الصيف فيسكن دير «قنّوبين»، مقر البطريرك، وعاصمة الموارنة الدينية. وهذا الدير، الشاهق العلو، والمستحيل الوصول إليه تقريباً، مدفون في الشتاء بالثلوج. وصاحب السيادة «لوزانا» هو رجل ذو أخلاق رفيعة وتصرّفات رومانية وتفكير مجنّح ومعرفة واسعة وعميقة وذكاء ثاقب وسريع، قد اختاره بلاط روما لحسن الحظ ليمثّل السياسة وليؤمن التأثير الكاثوليكي لدى المسؤولين عن الاكليروس الماروني. وقد يكون الشخص المناسب ليمثّلهما في «فيينا» أو في «باريس»، إنه واحد من أولئك الأحبار الرومانيين الذين ورثوا التقاليد الدبلوماسية الكبرى والنبيلة لهذه الحكومة التي لا تهتم بالقوة، بل تهتمّ كثيراً بالمهارة والكرامة الشخصيتين. إنه واحد من أولئك الذين يبررون النجاح، ونجاحهم

مكتوب مسبقاً على الجبين النشيط والذكي. إنه يمارس، وبحق، مع هذه الشعوب، رفاهاً شرقياً وفخامة في الملبس والسلوك لا يعترف الناس دونهما بالقداسة والاقتدار. لقد تزيا بالثياب العربية، ونزلت لحيته الهائلة والممشطة بعناية، كسيل من الذهب، فوق ردائه القرمزي؛ وفرسه العربية الأصيلة اللامعة والمطيعة لأوامره تتحدى أجمل فرس يمتلكها شيوخ الصحراء.

رأيناه بعد هنيهة يتقدم نحونا على رأس موكب كبير ويخبّ بفرسه فوق الجروف الصخرية التي لم نكن نتقدم فوقها إلا بحذر. وبعد التحيات المعهودة، قادنا إلى دارته الجميلة التي أعدّ لنا فيها الطعام، ورافقنا بعد ذلك إلى دير «عينطورة» الذي كان يقيم فيه مؤقتاً. ويشغله الآن كاهنان لعازريّان شابان، قدما من فرنسا بعد ثورة تموز، ويقيمان الآن وحدهما في هذا الدير الجميل والواسع الذي بناه اليسوعيون سابقاً. وحاول هؤلاء عدة مرات أن يرسخوا رسالتهم ونفوذهم بين العرب؛ ولكنهم لم ينجحوا، ولا يبدو أنهم سينجحون في أيامنا. والسبب في ذلك بسيط، وهو أن السياسة يجب أن تختفي في أديان الناس في الشرق. ويجب فصلها تماماً عن السلطة المدنية بحيث أنها لا تؤثر ولا تفعل في الدولة. والدول هنا إسلامية؛ الكاثوليكية حرة، ولكنها لا تملك أية وسيلة بشرية للسيطرة. والحال أن النظام اليسوعي قد حاول أن يعمل دينياً ـ وما زال يحاول ـ مستخدماً وسائل بشرية، ولا يناسب هذه البلاد. فالدين هنا منقسم إلى طوائف أرثوذكسية أو منشقّة، ومعتقداتها راسخة في دماء العائلات وفي طريقة تفكيرها المتوارثة. ورأيت بين مختلف الطوائف المسيحية نفوراً وحقداً راسخين، يفوقان النفور والحقد الموجودين بين الأتراك والمسيحيين. فالاهتداء الديني هنا مستحيل، بالإضافة إلى أن تغيير الطائفة هو عار مشين، وغالباً ما تعاقبه القبيلة أو القرية أو العائلة بالموت. أما هدي المسلمين،[1] فلم أسمع أنه يحصل. فدينهم هو غيبي عملي، والأخلاق فيه هي مبدئياً كالأخلاق في الدين المسيحي، ولكن دون العقيدة التي تأخذ بتأليه الإنسان. ليست العقيدة الإسلامية إلا إيماناً بالتنزيل الإلهي على رجل خصّه

١ - يقصد التبشير بالمسيحية.

الإشراق الإلهي بحكمة تفوق حكمة سائر البشر؛ ولاحقاً أضيفت إلى رسالة «محمد» بعض الأعمال العجائبية، ولكنّ هذه المعجزات المرتبطة بالتخيلات الإسلامية لا تعتبر أساس الدين، ولا يقبل بها الأتراك المستنيرون. كل الأديان لها تخيلاتها وتقاليدها اللامعقولة وجانبها الشعبي. أما الجانب الفلسفي في الإسلام فيخلو من هذا الحشو المبتذل، ولا يهتمّ إلا بالتسليم لإرادة الله ومحبة البشر. رأيت عدداً كبيراً من الأتراك والعرب المتدينين بعمق، ممّن لا يعترفون في ديانتهم إلا بما هو معقول وإنساني. ولم تبذل عقولهم جهداً خاصاً لكي تقبل عقائد مستنكفة. إنه إيمان عملي وتأملي بالله. لذا فإن هديَ بشر كهؤلاء لا يجوز، إذ ينزل المرء عندئذ من العقيدة المذهلة إلى العقيدة البسيطة؛ ويجب ألا يتم الارتقاء من العقيدة البسيطة إلى العقيدة المذهلة.

ووجد الموارنة في تدخل اليسوعيين عائقاً آخر. فبطبيعة رهبانيتهم، سهل عليهم أن ينشئوا أحزاباً وتكتلات دينية في صفوف الاكليروس والسكان؛ وبسبب حميّتهم أثاروا إما الحماس وإما الكراهية. فلم يبق جو فاتر حولهم. ولم يستطع الاكليروس الماروني العالي، مع أنه اكليروس بسيط وطيب، أن ينظر بعين الرضى إلى إنشائهم سلكاً دينياً ينتزع منهم جزءاً من السكان الكاثوليك ويفصلهم عن سلطتهم الروحية. فلا وجود إذن لليسوعيين في «سوريا». خلال السنوات الماضية فقط، وصل راهبان شابان، أحدهما فرنسي والآخر ألماني، استدعاهما أحد الأساقفة الموارنة لكي يعلّما في المدرسة المارونية التي أسسها. وعرفتُ هذين الراهبين المتازين، كانا كلاهما مفعمين بالإيمان ومشتعلين بغيرة غير مغرضة. فلم يهملا شيئاً لكي ينشرا بعض الأفكار المسيحية بين الدروز المجاورين؛ ولكن مسعاهما قام على تعميد أطفال العائلات التي كانوا يتغلغلون فيها متذرعين بإعطائهم بعض النصائح الطبية، وذلك دون علم أهلهم. وتبيّن لي أنهما غير مستعدين للخضوع نوعاً ما لعادات الجهل الشائعة في أوساط الأساقفة الموارنة في ما يتعلق بالتعليم، وأظن أنهما سيعودان إلى أوروبا دون أن ينجحا في تعميم طريقة التثقيف العالي. ويستحق الأب الفرنسي أن يدرّس في «روما» و«باريس».

بعد انطفاء الرهبنة اليسوعية، انتقل دير «عينطورة» إلى الرهبان اللعازريين. وأحياناً كثيرة زارني في بيروت الراهبان اللذان كانا يسكنان فيه. ووجدت فيهما إنسانين صديقين لم أتوقعهما هنا: كانا طيبين وبسيطين ومتواضعين ومنهمكين فقط بنشر العلم الصارم والعالي، كانا مطّلعين على كل ما يدور في أوروبا، وساهما في الحركة الفكرية التي كانت تدفعنا، فأُخذنا بأحاديثهما المنفتحة والعلمية، لا سيّما وأن ظروف وجودها في هذه القفار نادرة جداً. عندما كنا نمضي سهرة معهما نتجاذب فيها أطراف الحديث عن الأحداث السياسية في بلدنا وعن الأحزاب الفكريّة التي سقطت في فرنسا، وعن الأحزاب الناشئة، وعن الكتّاب الذين يتنازعون الصحافة، وعن الخطباء المسيطرين تباعاً على المنابر، وعن مذاهب المستقبل وأفكار «السان سيمونيين»، نظن أننا على بعد خطوات من شارع «لوباك» (Le Bac) نتحدث مع أناس خرجوا من باريس في الصباح وسيعودون إليها في المساء. وكان هذان الراهبان اللعازريان في الوقت نفسه قدوة في القداسة والورع التقي والبسيط. كان أحدهما يعاني من مرض شديد، إذ كان هواء لبنان الحاد يقضم صدره ويقصّر من سنوات عمره. وما كان عليه إلا أن يكتب كلمة إلى رؤسائه ليحصل على استدعائه إلى فرنسا، ولكن ضميره لم يطاوعه ليفعل ذلك. فأتى يستشير السيد «دي لاروايير» (de Laroyère) الذي كان معي وسأله، بصفته طبيباً، إن كان يستطيع أن يقول له صراحة وبراحة ضمير إنّ هواء سوريا لا يناسب صحته. ولكن السيد «دي لاروايير»، الذي كان ضميره موسوساً جداً كضمير الراهب الشاب، لم يجرؤ أن يُعرب له عن رأيه بصراحة، فسكت الراهب الطيب وبقي.

استقبلَنا هذان الراهبان الضائعان في هذا الدير الرحب الذي يخدمهما فيه أحد العرب، بمودة قلبية يدفع إليها اسم الوطن وتنشأ بين الذين يتلاقون بعيداً عنه. قضينا يومين معهما. خُصصت لكل منا غرفة واسعة فيها سرير وعدد من الكراسي، وهي أثاث غير شائع في هذه الجبال. يقع الدير في أسفل وادٍ، وهو قريب من نهاية غابة من غابات الصنوبر؛ ولكنّ هذا الوادي، القائم في منتصف الارتفاع الذي يعرفه جبل لبنان، له شِعْب يطل مباشرة على ساحل سوريا وبحرها. ويتكون الأفق المتبقي من قمم

وصخور مسننة رمادية تكللها القرى والأديار المارونية الكبرى. وتنبت بعض أشجار الصنوبر والبرتقال والتين هنا وهناك محتمية بالصخور وترتفع قرب السيول والينابيع، إنه منظر يليق بـ «نابولي» أو بخليج «جنوى».

وقرب دير «عينطورة» هناك دير للراهبات المارونيات اللواتي ينحدرن من أهم العائلات في جبل «لبنان». ومن نوافذ غرفنا لمحنا هؤلاء الفتيات السوريات اللواتي كن منشغلات جداً بوصول مجموعة من الأجانب إلى الدير المجاور. لا أهمية اجتماعية لأديار النساء هذه. ويتكلم «فولنى» في رحلته إلى سوريا عن هذا الدير الواقع قرب «عينطورة»، ويقول إن امرأة اسمها «هندية» كانت تنكّل بالراهبات المبتدئات. وما زال اسم «هندية» وقصتها على ألسنة الناس في هذه الجبال. وبأمر من البطريرك الماروني سجنت «هندية» لسنوات طويلة، وأطلق سراحها بعد أن أثبتت توبتها وسلوكها الحسن. وماتت منذ فترة ونشر أتباعها من المسيحيين أن سمعتها مقدسة. زرع خيال هذه المرأة وإرادتها التعصب لدى الناس البسطاء السريعي التصديق. إن هذه الأرض العربية هي أرض المعجزات، فكل الأفكار تستطيع أن تنبت فيها، ويستطيع أي إنسان مصداق أو متعصب أن يصبح فيها نبياً؛ و«الليدي ستانهوب» خير برهان على ذلك. ويعود هذا الميل الخوارقي إلى سببين: أولهما العاطفة الدينية المتطورة جداً، وثانيهما الخلل في المعايرة بين الخيال والعقل. لا تظهر الأشباح إلا في الليل؛ وكل أرض جاهلة هي أرض المعجزات.

تظلل أشجار البرتقال الرائعة سطح دير «عينطورة» الذي كنا نتمشى فوقه أثناء فترة من فترات النهار؛ وذكر «فولني» أن هذه الأشجار هي أجمل وأقدم أشجار سوريا، لأنها لم تهلك، شأنها شأن أشجار الجوز التي يصل عمرها في بلداننا إلى خمسين سنة، وتظلل البستان وسطح الدير وتفرش ظلّها الكثيف والعطِر، وما زالت أسماء «فولني» وبعض الرحالة الإنكليز محفورة على جذوعها، إذ إنهم أمضوا بعض الوقت تحتها.

تسمّى مجموعة الجبال التي تقع فيها «عينطورة» «كسروان» أو سلسلة جبال

«كسروان»؛ وتمتد من «النهر الكبير» إلى «نهر الكلب». وهي بلاد الموارنة تحديداً، إذ إنهم يملكون هذه الأرض، وتمتد فوقها امتيازاتهم فحسب، علماً بأنهم راحوا ينتشرون في بلاد الدروز ويحملون إليها قوانينهم وعاداتهم. والحرير هو المنتج الأساسي لهذه الجبال. وتحتسب ضريبة الميري بناء على عدد شجرات التوت التي يمتلكها كلّ واحد. وفرض الأتراك على الأمير «بشير» أن يجبي ضريبتي ميري سنوياً، وغالباً ما كان الأمير يجبي عدة ضرائب لصالحه. ومع أن الموارنة تذمروا من الضرائب المبالغ فيها، إلا أنها لا تقارن بالضرائب الباهظة التي ندفعها في «فرنسا» و«إنكلترا». وما يقهر الناس ليس قيمة الضريبة وإنما اعتباطيتها وعدم انتظامها. فلو كانت الضريبة في تركيا شرعية وثابتة لما شعر بها الأهالي. ولكن عندما لا يحدد القانون الضريبة، فلا وجود للمِلْكية، أو أن هذه المِلكية غير مؤكدة ورجراجة؛ ذلك أن ثروة شعب من الشعوب تكمن في التنظيم الجيد للملكية. فيحدد كل شيخ قريةٍ الضريبةَ التي يستنسبها ويقتطع قسماً منها لنفسه. وفي الواقع، يبقى هذا الشعب سعيداً، ويخشاه محتلوه ولا يجرؤون على الإقامة في دياره؛ ودينه حرّ ومكرّم، وأدياره وكنائسه تملأ قمم روابيه، ونواقيسه، التي يحبها كصوت للحرية والإستقلال، تقرع في الليل والنهار وتدعو إلى الصلاة مرددة صداها في الأودية. يحكم هذا الشعب زعماؤه الذين يُختارون حسب الأعراف، أو تنتقل السلطة وراثياً بين العائلات الكبرى. وتحافظ على النظام والأمن في القرى شرطةٌ دقيقة، ولكنها عادلة. والملكية معروفة ومصانة وتنتقل من الأب إلى أبنائه. والتجارة نشيطة، والأخلاق بسيطة جداً ونقيّة. لم أجد شعباً في العالم يحمل، علاوة على سماته، علائم الصحة والنبل والحضارة، مثل الناس في لبنان. ومع أن تعليم الشعب يقتصر على القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين، إلا أنه معمَّم ويعطي الموارنة تفوّقاً مشروعاً على السكان السوريين الآخرين. لا أستطيع أن أقارنهم إلا بفلاّحي دولتي الـ «ساكس» (Saxe) و «اسكتلندا» (Ecosse).

عُدنا إلى بيروت عن طريق الساحل. إن الجبال المطلة على الساحل مليئة بالأديار المبنية على طراز فيلاّت «فلورنسا» في القرون الوسطى. وتنزرع القرى فوق التلال وتكلّلها غابة من الصنوبر المظلل، وتجتازها سيول تنساح شلالاتها في قيعان الأودية.

وعلى طول هذا الساحل المخرّم توجد مرافئ صغيرة للصيادين تأوي إليها القوارب الصغيرة المربوطة بالأرصفة أو بالصخور. وتنزل من القرى إلى البحر بساتين الكرمة والشعير والتوت. وتصدح أجراس الأديار والكنائس وينتشر صداها فوق يخضور التين والسرو القاتمة الأوراق. ويفصل الحصى الرملي أخمص الجبال عن أمواج الشاطئ الزرقاء والصافية كأمواج السواقي. إذا نسي المسافر أنه على بعد ثماني مئة فرسخ

(❖) انقطعتْ هنا مذكرات الكاتب. ففي بداية شهر كانون الأول فقد ابنته الوحيدة التي قضت نحبها خلال يومين، بعد أن تحسنت صحتها التي اعتلَّت في «فرنسا»، وذلك بسبب هواء آسيا. لقد توفيت بين ذراعي أبيها وأمها، في البيت الريفي الذي استقرت فيه عائلة «لامارتين» في ضواحي «بيروت»، لقضاء فصل الشتاء. وكانت سفينة السيد «دي لامارتين» قد عادت إلى أوروبا، ولم تعد إلى شواطئ سوريا، لإرجاع المسافرين، إلا في أيار عام ١٨٣٣، فاضطروا إلى البقاء في لبنان ستة أشهر بعد الكارثة التي نزلت بهم، وكانوا أثناء ذلك لا يعبّرون عن حزنهم إلا بذرف الدموع هم ورفاق سفرهم وأصدقاؤهم. وفي شهر أيار عادت سفينة «السيست» (**Alceste**) إلى بيروت، كما كان متفقاً عليه؛ وليجنّب المسافرون الأمَ المسكينة حزنَها، لم يصعدوا في السفينة نفسها التي ركبوها سابقاً، ولم يرافقوا الطفلة التي فقدوها. وكان السيد «دي لامارتين» قد حنّط رفات بنته لكي تُنقل إلى «سان بوان» (**Saint Point**)؛ وكانت في اللحظات الأخيرة من حياتها قد عبّرت عن رغبتها في أن تدفن هناك. وعهد «لامارتين» للسفينة «السيست» هذه الوديعة المقدسة، واستأجر قلعية اسمها «لاصوفي» (**la Sophie**) بقيادة القبطان «كولون» (**Coulonne**) صعد إليها هو وزوجته وأصدقاؤه؛ وترافقت السفينتان.

عن أوروبا، قد يخطئ النظر إن ظن أنه على ضفاف بحيرة «جنيف» بين «لوزان» (Lausanne) و«فيفى» (Vevey) أو أنه على ضفاف نهر الـ «سون» (la Saone) بين «ماكون» (Macon) و«ليون» (Lyon). لكنّ مشهد اللوحة أكثر جلالاً في «عينطورة»، إذ إنه عندما يرفع ناظريه يشاهد قمتي جبل «صنين» المغطاتين بالثلج واللتين تشقان السماء كألسنة النار(*).

«جتسماني» أو وفاة «جوليا»

حاشية من الناشر:

قبل أن يغادر المؤلف مدينة «القدس» وكهوف «جتسماني» التي ذكرها مؤخراً، كتب قصيدة بعد وفاة ابنته الوحيدة بأربعة عشر شهراً. وتدور أحداثها وصورها في الأماكن التي زارها هناك:

منذ أن رضعتُ ثدي أمي، كنت بشرًا بائسًا؛
وعِوضَ أن يسكبَ قلبي الدم، يذرف الدموع؛
لقد حرمني الله بالأحرى من سحر العبارات؛
فجمّدها قلبي.
المرارة هي شَهْدي، والحزن فرحي؛
غريزة أخوية تربطني بكل نعشٍ،
لا يستوقفني درب، إلا إذا أراني
بعض الأوابد وبعض الأحزان!

إذا لمحتُ حقولاً خضراء تطلّ عليها سماءٌ صافية،
ووهاداً رائقة تنفتح لتقبّل البحرَ،
مررتُ وقلتُ بضحكةٍ مريرة:
واحسرتاه، لا مكان للسعادة عندي!
ولا صدى لنحيب نفسي؛
أين بكى الناس، هنا موطن روحي:
أرض مجبولة بالرماد والدموع
هي الفِراش الذي أحب توسّدَه.

اسألوني لماذا؟ لا أستطيع الإجابة:

قد أحرّك أمواج هذه الهاوية المريرة،
وفمي إن تكلّم لا يطلقُ إلا النحيب.
إن شئتم أن تقرأوا ما في قلبي، مزّقوه!
فالموت غرس سكّينه في نياطه؛
وخفقاته ليست سوى احتضار بطيء متكرر،
ملؤه الردى ودركات الإعدام؛
روحي كلها رَمْسٌ!

عندما اقتربتُ من الضفاف التي شاء المسيح أن يولد فيها،
لم أطلب الأماكن القدسية
التي رمى فيها الفقراء سعف النخيل أمام قدميه،
والتي عرفت «الرب الكلمة» من صوته،
والتي صدحت «هوشَعْنا» أمام قدميه المظفرتين،
والتي رأت يديه تلاطفان هامات الأطفال،
يديه اللتين سقتهما النساء القديسات بدموعهن
ورأته يمسح العرق والنيران عن جبينه.

خذني يا أبتاه إلى المبكى،
إلى ذلك البستان المأتمي الذي شاء المخلّصُ
وقد أهمله الأب والبشر
أن ينضح دماً وماءً يُنْضَحان قبل الموت!
اتركوني وحدي واذهبوا، أريد أن أشعر أيضًا
بألم تلك الساعة المديدة:
أيها اليائس إن صلاتي هي الاحتضار،
إن معبدي أنا هو هنا!

إنه في السفح المعقّر لجبل الزيتون
تحت ظلال الأسوار التي هوتْ قربها صهيون
إنه مكان تزيح الشمسُ عنه كلّ أشعتها،
وينساب فيه «قدرونُ» الناضبُ بين ضفتيه:
ويحفر فيه «يوشافاط» روابيَهُ بالأجداث؛
بدلَ العشب، تُنبتُ الأرض فيه الأطلالَ،
وتشقّ جذورُ الجذوع العتيقة المتآكلة
تشقّ حجارةَ القبور.

هنا، بين الصخرتين، ينفغر كهف دامس
أتى إليه الرجلُ الحزينُ ليتذوّق الموت،
عندما أيقظ الصداقةَ النائمةَ ثلاث مرات
وقال لأصحابه: «اسهروا؛ الساعة مريعة!»
الشفة المرتعشة تظن أنها تكفكف
قطراتِ الكأس عن البلاط الدامي،
وتمسح العرق النديّ عن الذبيحة الوبيلة،
وتنضح دائماً في جنبات الصخرة.

جلست فوق الحجر، وجبهتي بين يديّ،
مفكراً في ما اعتمل في تلك الجبهة الإلهية،
واستعدت تلك الدموعَ التي خدّدت مصيري
استعدتُها من ألِفها إلى يائها،
ورفعتُ أحمالي ونهضتُ
وأحصيتُ آلامي، ميتًا بعد ميت، وحيّاً بعد حيّ،
ثمّ تهللتْ روحي أخيرًا في حلم،

يا إلهي بأي حلم حلمتُ!

تحت جناح أمي، وليس بالبعيد، تركتُ
بنتي، ولدي، همّي، كنزي.
في كل صيف كان جبينُها يكتمل،
ولكنّ روحها بلغت عمرًا حددتْه السماءُ:
تعجز عيني عن نسيان صورتها،
أتابعُ قامتَها في كل شعاع،
ودون أن تلتفت لترغّبني،
لم يشاهد أيّ أب مرورَها.

إنها الحطام الأخير لعاصفتي الطويلة،
إنها الثمرة الوحيدة لزهور عديدة عديدة،
إنها الطلل الوحيد للحب، إنها دمعة الذهاب وقبلة الإياب،
إنها العيد الخالد لمنازلي التائهة؛
على نافذتي، كانت هي شعاعَ شمسٍ،
عصفورًا مغرّدًا يشرب فوق فمي،
نفحةً رخيمةً قرب مضجعي في الليل،
لمسةً رقيقةً عندما أنهض.

كانت أكثر من ذلك، كانت صورةَ أمي، واحسرتاه،
نظرتُها تعيد لي نظرة أمي،
بها كان ماضيٌ ينبعث مستقبلاً،
وسعادتي بدّلَت وجهها فقط،
وكان صوتها صدىً لعشر سنوات من السعادة،

وكانت خطواتها في البيت تملأ الجو بسحرها،
ونظرتها تُسيل الدموع في عينيّ،
وبسمتُها تنير قلبي.

يستلمح جبينها لأدنى فكرة من أفكاري،
وعينها الزرقاء الجميلة تعكس دائمًا عيني؛
ورأيت همومي تَصْبِغ وتندّي همومها،
كأنها ظلٌّ ينطبع على الماء الكوثرية.
كل ما كان يتحرك في قلبها رقيقٌ،
ولم تعرف شفتُها أي تغضّن صارم
إلا عندما ترفع يديها مع يدي أمها
لتصليا إلى الله جاثيتين!

حلمتُ بأنني جئتُ بها إلى هذه الديار،
وبأنني أحملها جميلة في حضني،
يدٌ تحمل رجليها ويدٌ عنقها،
ورأسي ينحني رقيقًا فوق جبينها.
ويميل هذا الجبين إلى ساعد أبيها
فتحرِّك الهواء المسفوع بضفائرها الحريرية،
وتلتمع أسنانها البيضاء تحت شفتيها الباسمتين
لضحكة أبيها الخالدة.

لأرميَ قلبها وأُفْعِم روحي،
تلتفت عيناها نحوي، دائمًا نحوي،
ويعلم الله وحده كم التمعتْ نيرانٌ

في الشعاع الرقيق الذي غطاها بنظراته.
لم تعرف شفتاي أين تحطّان حبَّهما؛
كانت هي تدعوهما كطفل يلهو،
وتُقفزِهما من ثغرها إلى خدها
وتخفيه في وجه قبلتي.

قلت لله، وقلبي ثمِل بها:
«يا إلهي! ما دامت عيناها تلمعان حولي،
فلن أجدَ لك إلا الترانيمَ والهبات:
يكفيني ما عشتُهُ وسأعيشه في هذه الحياة المزهرة.
هيا امنحها حصّتي من ألطافكَ،
إملأ أيامها بالأمل، أثناء تحرّكي،
حضِّر لها مضجعها، وافتح لها
ذراعي زوجها الحانيتين!»

ثَمِلاً بالفرح والدعاء،
لم ير ناظراي وقلبي
أن هذا الجبين غدا يتثاقل على ذراعي،
وأن رجليها تُجمّدا يدي، كالحجر.
«جوليا! جوليا! كيف حدث أن شحبتِ؟
لماذا ابتلّ هذا الجبينُ وتغيّر هذا اللون؟
كلميني، ابتسمي لي! لا تلعبي هذه الألاعيب، ياملاكي!
افتحي لي كتاب عينيك!»

إلا أن زرقة المنيّة طوّقت شفتيها الورديتين،

ما إن لاحت الابتسامة عليهما حتى ماتت،
تسارعت أنفاسها القصيرة
كخفقة جناح يهدأ.
أصغيتُ إلى قلبها، منتظرًا توثّبه
وعندما انتزع النفَس الأخير روحَها
مات قلبي فيّ كَثَمرةٍ
تحملها المرأة ميتة باردة بين كشحيها!

وفوق ساعديَّ اليابستين اللتين حملتا حياتي،
كرجل يمشي بعد الضربة القاضية،
نهضتُ ورحتُ إلى الهيكل
ومدّدت طفلتي فوق الحجر الفاتر،
والتصقتْ شفتي بعينيها الغافيتين،
وكان هذا الجبين المرمري ما زال فاترًا
كمرقد عشّ راح منه طائر الفجر
وحلّق لتوّه!

وشعرتُ، في ساعة سرمدية،
بأن بحور القلق وقرون الرعب مرّت
وملأ الألم مطارح قلبي؛
فقلت لربي: «يا إلهي، لم يكن لي سواها!
غاصت صبابتي في حبّي هذا،
حلّت محل الصبابة التي يقتطعها الموت؛
كانت الثمرة الوحيدة الباقية فوق الغصن
بعد رياح يوم عاصف».

«كانت الحلقة الوحيدة من سلسلتي مكسورة،
الزاوية الوحيدة الصافية الزرقاء في أفقي كلّه؛
كي يرّن اسمُها جميلاً في البيت،
عمّدناها باسم رخيم.
كانت عالمي، حركتي، ضجّتي،
كانت الصوت الذي يُطربني في منازلي كلها؛
كانت صباحي ومسائي وليلي؛

«المرأة التي أحبّ صورتَها قلبي،
أصفى مرآةٍ في حياتي توقفتُ عند هذا الجبين،
شعاع مستديم لسعادتي،
يا إلهي لقد جمعتَ كل هباتكَ فوق وجهٍ؛
علّقت أمُّها حملاً رقيقاً في عنقي،
عينين تلتمع فيهما عيناي، وروحاً منتزَعة من صدري
صوتًا يهتزّ به صوتي، حياةً تعيش فيها حياتي،
سماءً حية تنظر إليّ.

«أيتها العدالة الضاغنة خذي وارتوي،
أتخمي هذه الحاجة الدائمة إلى الاحتضار والموت؛
ها أنا أمدّدها فوق مذبحك الجنائزي.
اكسري كأسي، إن شربتُه حتى الثمالة!
ها هي ابنتي، طفلتي، روحي!
ها هي! قطعتُ فقط ضفيرتيها
اللتين بهما أمسِ ربطتْني بملامساتها
ولم يبق لي منها سواهما!»

مناظر و خواطر... من سوريا

انطلقْتُ في ٢٨ آذار من «بيروت» باتجاه «بعلبك» و«دمشق». كانت القافلة تضم ستة وعشرين حصاناً وثمانية أو عشرة عربٍ راجلين للخدمة والحراسة.

بعد أن غادرنا «بيروت»، صعدنا بطرق وعرة ذات رمل أحمر وأطراف مزدانة بكل زهور آسيا وبكل الأشكال وبكل عطور الربيع: تين البنغال، شجيرات شائكة بعناقيد من الزهر الأصفر كالذهب تشبه وزَّالَ جبالنا، جفنات تتدلى من شجرة إلى أخرى، أشجار خرُّوب جميلة، أشجار بأوراق من الأخضر القاتم والبرونزيّ بأغصان متعانقة وجذوع ذات قشرة بنِّيَّة ملساء لامعة وهي الأشجار الأجمل في هذه المناخات. وصلنا بعد نصف ساعة إلى قمة شبه الجزيرة التي تشكل رأس «بيروت»؛ وهي تنتهي برأس مستدير داخل البحر، بينما تتشكل قاعدتها من سهل جميل وواسع يخترقه نهر «بيروت». هذا السهل المرويّ والمزروع كله بالنخيل الجميل والتوت الأخضر، وبالصنوبر ذي النواصي العريضة الكثيفة، يجد نهايته تحت أوائل صخور لبنان المنحدرة. عند ذروة سهل «بيروت»، يمتد المشهد الرائع لـ «فخر الدين»: إنه متنزَّه «بيروت» حيث يذهب الفرسان الترك والعرب والأوروبيون ليدرِّبوا خيولهم ويؤدوا سباق الجريد؛ وكنت أنا نفسي أذهب إليه يومياً لقضاء بعض الساعات على فرسي، عدواً، تارةً، فوق الرمال الجرداء التي تغطي الأفق الأزرق والواسع للبحر السوريّ، وبتؤدة، تارةً أخرى، حالماً تحت ممرَّات أشجار الصنوبر الفتيَّة التي تغطي جزءاً من هذا المِطلّ. إنه أجمل مكان عرفته، على الإطلاق، في العالم: صنوبرات عملاقة تحمل جذوعها القوية، والمنحنية قليلاً بفعل ريح البحر، كما القباب، رؤوسَها العريضة المدورة كمظلات، تتناثر

مجموعاتٍ من شجرتين أوثلاث، أوتتباعد وحدها كلَّ عشرين خطوة، فوق رمال ذهبية يخترقها، هنا وهناك، زغبٌ خفيف أخضر من العشب وشقائق النعمان. لا تزال تلك الصنوبرات تحمل اسم فخر الدين الذي زرعها، والذي ذاع صيت مغامراته العجيبة في أوروبا. كنتُ كلَّ يوم أرى، بألم، بطلاً أحدث يكسر هذه الأشجار التي زرعها رجلٌ عظيمٌ آخر. كان «إبراهيم باشا» يأمر بقطع بعضها لبحريَّته؛ ولكن ما زال هناك ما يكفي منها ليلفتَ نظرَ البحَّار أو إعجاب الناظر المفتون بأجمل مشاهد الطبيعة، فيحملق في ذلك المطل البعيد.

إنَّنا من هنا، حسب رأيي، نحصل على المشهد الأروع لجبل «لبنان» : نحن في أسفله ولكننا، في نفس الوقت، بعيدون بما يكفي كي لا يغمرنا بظلِّه وكي تستطيع العين أن تعانقَ كلَّ شموخه وتغوصَ في ظُلمة شعابه وتميِّزَ زبد سيوله وتلعبَ بحريَّة حول القمم الأولى التي تكتنفه والتي تحمل كلٌّ منها ديراً مارونيَّاً فوق باقة من الصنوبر أوالأرز أو السرو الداكن. يشرف صنِّين، القمة الأعلى والأكثر حدة في لبنان، على كلِّ القمم الأدنى، ويشكِّل، مع الثلج شبه الأبديّ، العمقَ الجليل والذهبي والبنفسجي والوردي لأفقِ الجبال؛ ذلك العمق الغارق في القبة السماوية لا كجسمٍ صلب بل كبخار أو دخان شفاف، فيحسب المرءُ أنه يرى، من خلاله، الناحية الأخرى من السماء. إنها ظاهرة خلابة لجبال آسيا، لم أرها في مكان آخر، انتشيتُ بها كل مساء دون أن أدرك. من جهة الجنوب، ينخفض لبنان تدريجياً حتى رأس صيدا المتقدم (صيدون القديمة)؛ ولا تعود تلك القمم تحمل إلا القليل من الثلج المبعثر فوق قمَّتين أوثلاث أكثر بعداً وأكثر ارتفاعاً من الأخريات ومن بقية سلسلة الجبال اللبنانية؛ وهي تحاذي، كما سورُ مدينةٍ خربة، مرتفعاً حيناً ومنخفضاً حيناً آخر، خطَّ السهل والبحر، ثم تروح تتلاشى في بخار الغرب، من جهة جبال الجليل على أطراف بحر الجليل، أي بحيرة طبرية. ومن جهة الشمال، يشاهد المرء زاوية من البحر الذي يتقدم كبحيرة غافية في السهل المغطى لنصفه بالخضرة الكثيفة التي تشكلها رابية «سان ديميتري» (San-Dimitri) الرائعة:

وهي أجمل رابية في سوريا. في تلك البحيرة، التي لا يُلاحَظ اتصالها بالبحر، ترسو بعض المراكب بشكل دائم، وتتأرجح بلطف فوق الموج الذي يأتي بزبده ليبلل شجيرات المصطكى والغار الوردي وتين البنغال. في المرسى، يرمي الجسر، الذي بناه الرومان ومن ثم رممه فخر الدين، أقواسه القوطيَّة فوق نهر «بيروت» الذي يجري عبر السهل ناشراً الحياة والخضرة ثم يتوارى في المرسى، غير بعيد.

كانت تلك آخر نزهة لي مع «جوليا». لقد امتطت للمرة الأولى حصاناً صحراوياً كنتُ قد جلبته لها من البحر الميت، وكان خادمٌ عربيٌّ يمسك بلجامه. كنا وحيدين؛ ومع أننا كنا في شهر تشرين الثاني فقد كان النهار متفجراً بالنور والحرارة والخضرة. لم أكن قد رأيت، على الإطلاق، تلك الطفلة الرائعة في هكذا انتشاء كامل بالطبيعة وبالحركة وبسعادة الوجود وبالأحاسيس المتفتحة: كانت تستدير نحوي كلَّ لحظة مطلقةً هتافاتها؛ وعندما أتممنا دورتنا في هضبة «سان ديميتري» وقطعنا السهل ووصلنا إلى الصنوبرات التي توقفنا عندها قالت لي: «أليست تلك أطول وأجمل وأطيب نزهة قمت بها في حياتي؟» للأسف نعم! وفعلاً كانت الأخيرة! بعد خمسة عشر يوماً، كنت أتنزه وحيداً وباكياً تحت نفس الأشجار؛ لا أملك، إلا في القلب، تلك الصورة الرائعة للمخلوق الأكثر عذوبة الذي منحتني إياه السماء، لأراه ولأملكه ولأبكيه. لم أعد أحيا؛ لم تعد الطبيعة بالنسبة لي مليئةً بما كان يجعلني أشعر بها مرَّتين من خلال روح طفلتي. أنا لا أزال أتأمل الطبيعة، وهي لا تزال تُبهج ناظري، ولكنها لم تعد ترعش القلب؛ أو إذا فعلت، لدقائق أو للحظات دون إدراكي، فإن القلب سرعان ما يعود بارداً وكسيراً تحت وطأة الحزن والمرارة اللذين غرستهما إرادة الله بفعل كل تلك الخسائر التي لا تُعوَّض.

من جهة الغروب، تستوقف العينَ تلالٌ بسيطة من الرمل الأحمر كجمر الحريق، يتعالى منها بخارٌ أبيض وردي يشبه انعكاس النار الخارجة من فوهة فرن مشتعل؛ ومن ثمَّ، عندما تتبع العين خطَّ الأفق، تمرُّ فوق هذه الصحراء وتصل إلى الخط الأزرق الداكن للبحر، منتهى كل شيء، وفيه يتماهى هذا الخطُّ بعيداً مع خطِّ السماء في

ضبابٍ يترك حدودهما مبهمة. كل هذه الروابي، وكل هذا السهل وسفوح جميع الجبال تحمل عدداً لا ينتهي من البيوت الصغيرة الجميلة والمعزولة، لكل منها بستانه وفيه عدد من أشجار التوت وصنوبرة عملاقة وبضع أشجار تين، ونجد هنا وهناك بعض القرى الجميلة كمجموعات أكثر تقارباً وأكثر إثارةً للعين، أو مجموعات من الأديار ترتفع فوق قواعدها الصخرية وتعكس إلى البعيد، فوق البحر، الأشعة الصفراء لشمس الشرق.

ينتشر فوق كل القمم الجبلية وعلى كل المطلات وفي كل شعاب «لبنان» من مائتي إلى ثلاثمائة دير: إنه البلد الأكثر تديُّناً في العالم، وربما يكون البلد الوحيد حيث النظام الرهباني لم يتعرَّض بعد للعواقب الوخيمة التي تؤدي إلى دماره. هؤلاء المتديِّنون، الفقراء والنافعون، الذين يعيشون من كدِّ أيديهم، ليسوا حقيقةً إلا كادحين وَرِعين، ولا يطلبون من الحكومة ولا من العامة سوى تلك الزاوية من الصخرة التي يزرعونها، كما يطلبون التوحُّدَ والتأمُّل. ومازال هؤلاء الرهبان على حال الرهبان القدامى في كل مكان، وهو ما لا يستمر عليه الرهبان في أي مكان في العالم إلا فيما ندر. إن كان الوضع الحالي للمجتمعات وللأديان ما زال يحوي أنظمة رهبانية فلا بد أن أناسه ليسوا أولئك الذين ولدوا في عصر آخر، لحاجات أخرى وضرورات أخرى: فعلى كل زمن أن يحمل منظوماته الاجتماعية والدينية؛ إن احتياجات هذه الأزمنة تختلف عن احتياجات القرون الأولى. وليس سلك الرهبنة أقدر من الحكومات والأفراد إلا في مجالين: تعليم الإنسان، والتخفيف عنه في بؤسه الجسدي. المدرسة والمستشفى، ها هما الموقعان اللذان بقيا لهذا السلك كي يتنفذ فيهما ضمن حركة العالم الراهن. ولكن للاستحواذ على الموقع الأول بينهما، يتوجب، بدايةً، أن يساهم الراهب نفسه في ذلك النور الذي يريد نشره؛ عليه أن يكون مثقفاً وأخلاقياً حقاً أكثر من الرعية التي يراد تثقيفها وتطويرها... لنعد إلى لبنان.

بدأنا نرتقي لبنان عبر دروب ضيقة من صخور مصفرَّة وحجارة رملية تتخلَّلها بقع خفيفة وردية، تعطي الجبل، من بعيد، ذلك اللون البنفسجي والوردي الذي يسحر

الأنظار. لا شيء يستحق الذكر حتى ثلثي الجبل، حيث قمة أحد المطلات تشرف على وادٍ عميق: واحدة من أجمل ومضات النظر يُتاح للمرء أن يلقيها على آيات خلق الله، إنه وادي «حمَّانا»، تحت أقدام الناظر؛ يبدأ بشِعبٍ أسود عميق، مجوَّف تقريباً كما المغارة داخل أعلى المنحدرات الصخرية وتحت ثلوج جبل لبنان الأكثر ارتفاعاً؛ في البداية، لا يمكن تمييزه إلا من سيل الزبد الذي يهبط معه من الجبال ويخطُّ في ظلمته ثلماً متحرِّكاً ومضيئاً؛ ويتوسَّع الشِّعبُ تدريجيّاً، كما يتوسع سيله من مسقط ماءٍ إلى مسقط ماء؛ ثم فجأةً، ينعطف نحو المغيب، ويشكل إطاراً فاتناً وليناً كجدولٍ يصبُّ في نهر أكبر أو ينقلب هو نفسه نهراً؛ ويدخل الشِّعبُ في وادٍ أعرض ويصير هو نفسه وادياً يمتد بعرضٍ وسطي يقارب نصف الفرسخ بين سلسلتي جبال؛ ثم ينحدر نحو البحر بمَيلٍ منتظم وهادئ؛ وبعدئذٍ يتقعَّر ويرتفع مشكلاً عدداً من الروابي بحسب الجروف الصخرية المنحدرة التي تعترض جريانه. فوق هذه الهضاب، يحمل الوادي ضياعاً تفصلها عن بعضها بعضاً مجموعة من الوهاد، كما يحمل روابيَ منبسطة واسعة محاطة بالصنوبر الداكن، يقوم على سطوحها المزروعة دير جميل. في هذه الوهاد، ينشر الوادي مياه شلالاته الألف باسطاً إيَّاها زبداً مشعّاً وصاخباً. إن المنحدرات التي تحدُّ جانبي جبل لبنان هي نفسها مغطَّاة بمجموعات جميلة من الصنوبر والأديار والضياع العالية التي يتصاعد دخانها الأزرق فوق مهاوي تلك المنحدرات. في الساعة التي ظهر فيها لي ذلك الوادي، كانت الشمس تغيب فوق البحر وكانت أشعتها بالكاد تغمر الأديار وسطوح الضياع وذرا الصنوبر ورؤوس الصخور الأكثر ارتفاعاً التي تبرز عن مستوى الجبال، تاركةً الشعاب والوهاد في ظلمة تحجب الأسرار؛ كانت المياه الغزيرة تتساقط من كل أخاديد الجبلين ومن ثم تنبثق كزبدٍ من كل صدوع الصخور، وكذراعين فضيتين أو ثلجيتين، كانت تحيط بالقمة الجميلة المسطحة التي تحمل الضياع والأديار وغابات الصنوبر. وكان صوت تلك المياه يشبه صوت أنابيب الأرغن في الكاتدرائية، ينبثق من كل مكان ويصمُّ الآذان. لم أشعر عميقاً، إلا فيما ندر، بالجمال الخاص للمناظر الجبلية؛ ذلك الجمال الحزين والرصين والعذب في

آنٍ معاً، والذي يختلف تماماً عن جمال البحر والسهول، إنه جمالٌ يقبض القلب بدل أن يفتحه، ويكون أقرب إلى شعور الألم الديني في الخشوع الحزين عوضاً عن الشعور الديني السعيد عند البوح والحب والفرح.

في كل خطوة على طريق المنحدرات التي كنا نتبعها، كانت مساقط المياه تتهاوى على رأس المارِّ، أو تنزلق في الثغور التي تحدثها في الصخور الحية؛ إنها مزاريب في هذا السقف الشاهق للجبال لا تنفكُّ ترشح على طول المنحدرات. كان الطقس ضبابياً والعاصفة تئن داخل أشجار الصنوبر وتحمل، بين الفينة والأخرى، رذاذاً ثلجياً يخترق ويلوِّن أشعة شمس آذار الهاربة. أذكر ذلك الانطباع الجديد والمفعم بالصور الذي يتركه مرور القافلة على إحدى وهاد تلك المساقط المائية. تتقعر منحدرات الجبل فجأةً وكأنها خليج صغير عميق داخل الصخور؛ فيأتي سيل تحتبسه بعض كتل الغرانيت ليملأ بمياهه السريعة والصاخبة هذا الشق في الجبل؛ كان رذاذ المسقط المائي المتهاوي من علْو بضع قامات يطفو، على هوى الريح، فوق البروزين الرماديين القاحلين اللذين يحيطان بالخليج الصغير وينحرفان فجأة لينزلا في مجرى السيل الواجب عبوره: كان سبيلنا الوحيد للهبوط إلى السيل وعبوره طريقٌ ضيق محفور في جروف هذه النتوءات. لم يكن بوسعنا النزول ضمن هذا الطريق الضيق إلا واحداً تلو الآخر؛ كنت واحداً من الذين كانوا في آخر القافلة: ركبٌ طويل من الأحصنة والمتاع والمسافرين كان ينزل تباعاً في عمق هذه الهوة ويستدير ليختفي تماماً في ظلمات المياه الهائجة ثم يعود للظهور ببطءٍ من الطرف الآخر للممر الضيق؛ ملتحفاً بدءاً ببخارٍ عاتم وشاحب ومصفرّ كما بخار الكبريت ومن ثم ببخارٍ أبيض خفيف كالزبد الفضي للمياه وفي النهاية كان البخار يصبح لماعاً وملوناً بفعل أشعة الشمس التي كانت قد بدأت بإنارة الركب شيئاً فشيئاً كلما اعتلى ذلك الأخير السفوح المعاكسة: وكأنه مشهد الجحيم عند «دانتي» يرتسم للبصر في إحدى أشد الحلقات هولاً والتي استطاعت مخيلته أن تتصورها. ولكن، مَنْ هو الشاعر أمام الطبيعة؟ ومن ذاك الذي يبدع بعد الله؟

كانت قرية «حمّانا»، القرية الدرزية التي سنبيت فيها، تلمع منذ المشارف العلوية للوادي الذي يحمل اسمها. إنها قرية ملقاة فوق جلمود مدبب من الصخور الحادة والمكسرة الملامسة للثلج الدائم، تعلوها دار الشيخ المقامة هي نفسها فوق قمة مدببة أكثر علواً وسط القرية. القرية محاطة من كل الجهات بسيلين مخزَّنين في الصخور تعترضهما كتلٌ تكسِّر زبدهما؛ يمكن للمرء أن يعبر هذين السيلين فوق بعض جذوع صنوبر أُلقيَ فوقها قليل من التراب وبقيت دون حواجز، وبعد اجتيازهما يمكن الصعود إلى المنازل. لهذه المنازل، كما لكل منازل جبل لبنان وسوريا، هيئة منتظمة من بعيد، غنية بالألوان والصور وبعمارة تخدع البصر للوهلة الأولى، تجعلها تبدو وكأنها مجموعة من الدور الإيطالية بأسقفها وسطوحها وشرفاتها المزيَّنة بالدرابزونات. ولكن قصر شيخ «حمّانا» كان يبزُّ في أناقته ونبله كل ما رأيت من قصور منذ أن شاهدت قصر الأمير «بشير» في «دير القمر». لا يمكن أن نقارنه إلا بإحدى أروع قصورنا القوطية من العصور الوسطى، على الأقل كما تبديها لنا الأطلال المتبقية أو كما تعيد خطه الرسوم. إليكم المشهد: كانت هناك نوافذ قوطيَّة مزينة بشرفات، باب عريض وعال يعلوه كذلك قوسٌ قوطي يبرز كعارضة فوق العتبة؛ ومقعدان من الحجر المنقوش بزخارف عربية موضوعان على طرفي الباب؛ ثم سبع أو ثمان درجات حجرية دوارة تنزل كدرجٍ خارجي نحو سطحٍ واسعٍ مظلل بشجرتي جمَّيز عريضتين أو ثلاث، وهناك على السطح تتدفق المياه من نافورةٍ مرمرية. والآن إليكم الأشخاص: كان هناك سبعة أو ثمانية دروز مسلحين، مرتدين زيهم النبيل بألوانه الزاهية ومعتمرين عماماتهم العملاقة ومتخذين هيئة عسكرية، وبدوا كأنهم ينتظرون أوامر رئيسهم؛ كما كان هناك زنجيٌ أو اثنان يرتديان سترتين زرقاوين، وبعض العبيد والحجّاب يجلسون أو يلعبون فوق درجات السلم الخارجي، وأخيراً، في مكان أعلى، فوق قوس الباب نفسه، كان الشيخ يجلس حاملاً غليونه في يده، ومتدثراً بعباءة من الفرو القرمزي، وكان ينظر إلينا ونحن نمرُّ ومظاهر السلطة

والاسترخاء بادية عليه. يضاف إلى أولئك الأشخاص امرأتان شابتان وجميلتان، إحداهما متكئة على نافذة في أعلى البناء، والأخرى واقفة على شرفة فوق الباب.

بِتنا ليلتنا تلك في «حمَّانا»، في غرفة كانت قد أعدت لنا منذ أيام. قمنا قبل الفجر لارتقاء آخر قمة في جبل «لبنان». دامت رحلتنا ساعة ونصف الساعة؛ وصلنا أخيراً إلى الثلج، وتتبعنا خط الشِعب المؤدي إلى الناحية الثانية من جبال لبنان الشرقية ضمن منبسط مرتفعٍ تضفي عليه شيئاً من التنوع بعضُ تماوجات الروابي، كما في قمة الألب. بعد ساعتين من السير المضني، خائضين في قدمين أو ثلاثة من الثلج، اكتشفنا أولاً الذرا المرتفعة، والتي لا تزال مكسوَّةً بالثلج، لجبال لبنان الشرقية، ومن ثم اكتشفنا منحدراتها القاحلة والجرداء، وأخيراً اكتشفنا سهل «البقاع» الجميل والواسع والمتمم لوادي بعلبك الواقع إلى يمينه. يمتدُّ هذا السهل بدءاً من صحراء «حمص» و«حماة» ولا ينتهي إلا عند جبال «الجليل» صوب «صفد»؛ وهو لا يترك، إلا هناك، ممراً ضيقاً لـ «نهر الأردن» الذي يصب في بحر «الجليل»(*). إنه أحد أجمل وأخصب سهول العالم، ولكنه لا يُزرع إلا بالكاد، فأهالي «بعلبك» و«زحلة» وضياع «لبنان» الأخرى بالكاد يجرؤون على زراعته خوفاً من العرب[1] الشاردين الذين يعيثون فساداً في هذا السهل. يروي السهلَ عددٌ كبير من السيول والينابيع التي لا تنضب، وهو يبدو لناظره كسبخة أو كبحيرة جُفِّفت، أكثر منه كأرض يابسة. بعد أربع ساعات، نزلنا إلى مدينة «زحلة» حيث استقبلنا المطران الرومي المولود في «حلب» ووضع بعض الغرف تحت تصرفنا. غادرنا من جديد في ٣٠ من ذلك الشهر لنقطع سهل «البقاع» ونبيت في «بعلبك».

(*) نهر الأردن ينبع من سفوح جبل الشيخ ويمر ببحيرة طبرية ويصب في البحر الميت. (المراجع).

١ - هذا خلط بين العرب والبدو. أهل بعلبك وزحلة هم عرب. ولا يمكن الركون للأسباب التي يذكرها عن عدم زراعة السهل، وهو يمر فيه خلال الخريف وبداية الشتاء وليس في الربيع والصيف وقت الموسم.

أطلال بعلبك[1]

بعد مغادرتنا «زحلة»، تلك المدينة المسيحية الجميلة عند سفح جبل لبنان، على أطراف السهل قبالة سلسلة جبال لبنان الشرقية، سرنا أولاً بمحاذاة سفوح جبل «لبنان» صعوداً نحو الشمال؛ مررنا بالقرب من صرح مهدم أقام الأتراك على أنقاضه تكيّة ومسجداً لهما أثر عظيم جذاب. إن هذا الصرح، بحسب الموروث العربي، ليس إلا قبر «نوح» الذي كان فلكه يلامس قمة «صنين»، وكان هو نفسه يسكن وادي «بعلبك» الجميل حيث توفي ودفن[2] تؤكد بقايا بعض الأقواس والمنشآت من زمن اليونان والرومان صحة هذه المقولات المتوارثة. إننا نرى على الأقل أن هذا المكان قد قُدِّس منذ القديم بتذكار كبير؛ فالحجر هنا شاهد على التاريخ. مررنا من هناك وتذكرنا تلك الأيام القديمة حين كان أولاد الجدِّ الأول، أولئك الرجال، ذرِّية رجل واحد، يسكنون هذه المواطن البدائية وينشئون حضارات وصروحاً بقيت مثار تساؤل بالنسبة لنا.

قضينا سبع ساعات في اجتياز السهل المؤدي إلى «بعلبك» سالكين طريقاً مائلاً. عند مرورنا بالنهر الذي يشطر السهل، أراد الحراس العرب أن يجبرونا على اتِّباع الطريق من جهة اليمين والمبيت في قرية تركية على بعد ثلاثة فراسخ من «بعلبك». لم يستطع الترجمان المرافق أن يفرض أوامره فتطاع، لذا اضطررت أن أجعل حصاني يعدو إلى الجهة الأخرى من النهر لأجبر قائدي القافلة على أن يلحقا بنا. تقدمت نحوهما والسوط في يدي فسقطا عن حصانيهما بمجرَّد التهديد ورافقانا متمتمين.

---

١ - تقع مدينة بعلبك في وادي البقاع، أنشأها الفينيقيون، وهم كنعانيون، لتكون مركزاً لعبادة الإله بعل أو «بعل مرقد»، وهو حدد الآرامي. وقد سيطر اليونان والرومان على المنطقة فأصبح هناك: معبد زيوس اليوناني أي جوبيتر الروماني، وهيكل باخوس أو ديونيزوس، وهيكل فينوس أو أفروديت أو الزهرة، ويقال معبد الأم السورية إلهة الخصب، وجميعها تقع ضمن إطار البناء الذي أطلق عليه العرب اسم القلعة. وقد بنيت في المكان كنيسة القديسة بربارة، والمسجد الأموي الذي ينسب للصحابي أبي عبيدة ابن الجراح.

٢ - تلك ظنون ولا يوجد ما يجعلها حقائق ثابتة. وأكثر الروايات المتوارثة تشير إلى أن سفينة نوح كانت قرب قمم جبل أرارات في جنوب شرق تركيا شمالي العراق. والنبي نوح في تلك المنطقة «يبعد قليلاً عن المعلقة قرب زحلة، والمقام ذو آثار تعود لعصور مختلفة، والجامع يحمل اسم النبي نوح».

باقترابنا من سلسلة جبال «لبنان» الشرقية يرتفع السهل ويصبح صخرياً. كانت شقائق النعمان وزهور الثلج تحت أقدامنا بكثرة الحصى. ثم بدأنا نلاحظ كتلة واسعة تتمايز بسوادها عند الجروف المبيضّة لسلسلة «لبنان» الشرقية. إنها «بعلبك»، ولكننا كنا لا نزال غير قادرين على تمييز شيء. وأخيراً وصلنا إلى المَعْلَم الأول. إنه معبد مثمن محمول على أعمدة من الغرانيت الأحمر المصري، يبدو واضحاً أنها اقتطعت من أعمدةٍ أكثر ارتفاعاً، للبعض منها زخارف حلزونية في تيجانها ويخلو البعض الآخر من أي أثر حلزوني؛ وبرأيي أنها نقلت وقطعت ونصبت في أزمنة حديثة جداً بغرض حمل قبة مسجد تركي أو سقف مقام لأحد الأولياء: لا بد أن ذلك يعود إلى عهد «فخر الدين». المواد المستخدمة جميلة ولا يزال هناك بعض من الأفاريز والقباب في هذا العمل، مع أثر للذوق الفني؛ ولكن لا بد أن هذه المواد هي قطع من آثار أعيد ترتيبها وإعدادها بيد أقل مهارة وبذوق فاسد. ويبعد هذا المعبد عن «بعلبك» مسافة ربع ساعة على الأقدام.

نفذ صبرنا لنرى ما تركته لنا الحضارة القديمة والبعيدة من كل جميل وعظيم وغامض، فسرَّعنا خطى خيولنا المتعبة والتي كانت حوافرها قد بدأت تصطدم هنا وهناك بكتل الرخام وقطع الأعمدة والتيجان الساقطة: كل أسوار الحقول المسيَّجة المجاورة لـ «بعلبك» كانت قد بنيت من هذا الحطام، وقد يجد تجار التحف عندنا سراً في كل حجر منها. عادت بعض النباتات للظهور من جديد، أشجار جوز عريضة، الجوزات الأولى التي أراها في «سوريا»، ارتفعت بيننا وبين «بعلبك». ونمت تلك الجوزات حتى داخل أنقاض المعابد وحجبتها عنَّا بأغصانها. ها هي تظهر أخيراً: في الحقيقة، ليس ما ظهر معبداً أو صرحاً أو أنقاضاً؛ بل هو رابية معمارية برزت فجأة من السهل على مسافة يسيرة من الروابي الحقيقية لسلسلة جبال لبنان الشرقية. جررنا الخطى بين الأنقاض في القرية العربية المهدمة المسماة بعلبك. سرنا بمحاذاة جهة من رابية الأنقاض هذه حيث ترتفع عليها غابة من الأعمدة الفتانة المذهبة بشمس

المغيب وتلقي على العين الانعكاسات الصفراء والكامدة لرخام الـ «بارثينون» (Parthénon) أوجِير «كولوزيوم روما» (Colisée à Rome) . من بين تلك الأعمدة، وقف بعضها في رتل أنيق وممتد يحمل تيجانه السليمة إلى الآن وأفاريزه الغنية بنقوشها، ويحاذي جدران الرخام التي تغطي أماكن الصلاة؛ وبعضها الآخر يتكئ بكامله على الجدران الاستنادية وكأنه شجرة تلف جذرها لكن جذعها بقي معافى وقوياً؛ البعض الآخر – وهو أكثر هذه المرة – انتشر هنا وهناك كقطع رخام أو أحجار ضخمة على منحدرات الرابية وفي الحفر العميقة المحيطة بالهضبة وحتى في قاع النهر الجاري عند سفحها. وقرب قمة رابية الحجارة، ترتفع ستة أعمدة معزولة بحجم عملاق، ليس بعيداً عن المعبد الأسفل، ولا تزال تحمل أفاريزها العملاقة. رأينا فيما بعد على ماذا تشهد هذه الأعمدة في عزلتها عن باقي الصروح. تابعنا سيرنا بمحاذاة الآثار حتى انتهت الأعمدة والعمارة ولم نعد نرى إلا جدراناً ضخمة مبنية بأحجار ضخمة تحمل، كلها تقريباً، آثار نقوشٍ؛ وهي أنقاض عصر آخر استُفيد منها في عصر غابر حين بُنيت هذه المعابد التي أصبحت الآن أطلالاً.

لم نذهب أبعد من ذلك يومئذٍ، كان الطريق يبتعد عن الآثار ويقودنا، بين آثار أخرى وفوق قناطر تدوي لوقع سنابك خيولنا، نحو منزل صغير مبني فوق الأنقاض، إنه قصر مطران بعلبك الذي أتى إلينا يقودنا إلى بابه المتواضع مرتدياً عباءته البنفسجية ومحاطاً ببعض القرويين العرب. أما عن ذلك البناء، فإن أحقر كوخ لقروي عندنا من منطقتي «البورغوني» (Bourgogne) و«الأوفيرني» (Auvergne) يتمتع بفخامةٍ وأناقةٍ أكثر من فخامة وأناقة قصر مطران «بعلبك» : فهو عبارة عن بيت خرب دون نوافذ ودون باب، غير مُحْكَم؛ يترك سقفه، المتداعي بعضه، مياه المطر تسيل فوق أرضية طينية. على الرغم من ذلك، ففي عمق باحة الدار هناك جدار نظيف وجديد مبني من كتل من الجير؛ وقد لفت نظري باب ونافذة بأقواس قوطية بنيا على النمط المعماري الأندلسي، وكانت الأقواس مبنية من حجارة منقوشة بشكل رائع: كانت تلك كنيسة

«بعلبك»، كاتدرائية هذه المدينة حيث وجدت فيها آلهة أخرى ملاجئ رائعة، إنها نفس الكنيسة التي يجيء إليها المسيحيون العرب القلائل المقيمون فوق هذه الأنقاض ليعبدوا، بشكل أكثر نقاء، نفس الألوهة التي شغلت الإنسان عبر القرون وجعلته يحرك كل تلك الحجارة وكل تلك الأفكار.

وضعنا معاطفنا تحت ذلك السقف المضياف؛ وربطنا خيولنا إلى الأوتاد، فوق العشب الواسع الممتد بين دار الكاهن والأطلال؛ وأشعلنا ناراً من العوسج لتجفيف ملابسنا المبللة بمطر ذلك اليوم، وتعشينا في الباحة الصغيرة لدار المطران فوق طاولة شُكلت من بعض حجارة المعابد في حين كانت دعاءات صلاة المساء في الكنيسة المجاورة تدوي بصوتٍ نائح وصوت المطران القوي الوقور يتمتم بالدعاءات الورعة لرعيته: كانت هذه الرعية تضم بعض الرعيان العرب وبعض النساء. عندما خرج قرويو الصحراء من الكنيسة وتحلقوا حولنا لتأملنا، لم أرَ إلا وجوهاً صديقة ونظرات مرحِّبة ولم أسمع منهم إلا كلام المجاملات اللطيفة ، وتلك التحيات المؤثرة وتلك الأدعية المطوّلة والساذجة للشعوب البدائية والتي لم تتصنع بعد صيغاً باطلة من تحية الإنسان لأخيه الإنسان ولكنها اختصرت، في عدد صغير من العبارات الصالحة لسائر اللقاءات صباحاً أو ظهراً أو مساءً، كل ما يستطيع المضيف أن يتمناه لضيوفه بألطف العبارات وأقواها، وكل ما يمكن للمسافر أن يتمناه لمسافر آخر من أمنيات النهار والليل والطريق والعودة. لقد كنّا مسيحيين وكان ذلك كافياً بالنسبة لهم: فالأديان المشتركة هي عامل التعاطف الأكثر قوةً بين الشعوب؛ فكرةٌ مشتركة بين الناس هي أكثر من وطن مشترك؛ ومسيحيو الشرق الغارقون في محيط إسلامي يهددهم وغالباً ما يضطهدهم، يرون في مسيحيي الغرب حماةَ الحاضر ومخلصي المستقبل! في رأيي، حان الوقت الذي نعيد فيه الحضارة الحديثة إلى حيث خرجت الحضارة القديمة. لا شيء أسهل من أن تُعاد المصادر التي لا تنضب من السكان والصناعة والازدهار لأعراق لبنان الخصبة؛ ولإتمام هذا التحوُّل لن يلزم إلا ضمان الأمن والمِلْكية. إن السكان الأتراك

جيّدُون وأخلاقيّون؛ ودينهم ليس على التطيُّر والإقصاء اللذين يصوّران لنا؛ لكن توكلهم السلبي ومغالاتهم في الإيمان بملكوت العناية الإلهية يقتلان ملكات الإنسان، إذ يُوكَلُ كل شيء إلى الله. الله لا يتحرك بدل الإنسان، إن الإنسان موكَّل بالعمل لقضيته الخاصة؛ الله يراقب ويحكم على العمل الإنساني. إلا أنه يجب إنصاف الدين المحمدي: فهو ليس إلا ديناً فلسفياً جداً لم يَفرض على الإنسان إلا فريضتين اثنتين: العبادة والإحسان. هاتان الفكرتان هما في الواقع الحقيقتان الكبريان في كل دين. فالإسلام يمكن أن يدخل منظومة الحرية الدينية والمدنية من دون عناءٍ أو جهد، ويمكنه أن يشكل أحد أكبر المجتمعات في «آسيا»؛ فهو بطبيعته دين أخلاق وصبر وتسليم وإحسان وتسامح. كل هذه الصفات تجعله قادراً على الانصهار الضروري في البلدان القائم فيها. فقد اعتاد هذا الدين العيش بسلام وانسجام مع العبادات المسيحية التي تركها قائمة وحية تتحرك بحرية في قلب مدنه المقدسة كـ «دمشق» و«القدس»؛ والسلطة لا تهمه إلا فيما ندر؛ على أن نترك له الصلاة والعدالة والسلام، فهذا يكفيه.

نهضنا باكراً مع الشمس التي كانت أشعتها الأولى تضرب على معابد «بعلبك» وتعطي لتلك الأطلال السحرية بهاء الشباب الأبدي الذي تمنحه الطبيعة، على هواها، وتغدقه حتى على الزمن المتهدم. بعد فطور سريع، ذهبنا لنلمس بأيدينا ما لم نكن قد لمسناه إلا بالنظر؛ اقتربنا ببطء من الرابية الاصطناعية لنحضن بأعيننا الكتل المعمارية المختلفة التي تؤلفها؛ وصلنا سريعاً، من الجزء الشمالي، مستظلين بالأسوار العملاقة التي تحيط بالأطلال من ذلك الجانب: رأينا ساقية جميلة ابتعدت عن مسارها الغرانيتي لتجري تحت أقدامنا وتشكل هنا وهناك غدراناً صغيرة من مياه جارية وصافية تتمتم وتزبد حول الأحجار الضخمة الساقطة من أعلى الأسوار وحول المنحوتات المدفونة في قاع الساقية. قطعنا سيل «بعلبك» بفضل تلك الجسور التي رمتها الأزمنة فيه، وصعدنا عبر ثغرة ضيقة ومتعرجة إلى المصطبة المحيطة بالجدران: عند كل خطوة، وعند كل حجر لامسته أيدينا أو قاسه نظرنا، كان الإعجاب والدهشة ينتزعان منّا تعابير التعجب

التي فيها من المفاجأة والسحر ما فيها. كانت كل كتلة حجرية من سور الحرم على الأقل بطول ثمانية أو عشرة أقدام، وبعرض يتراوح بين خمسة وستة أقدام، وبارتفاع موازٍ لهذا العرض. كانت تلك الكتل، والتي هي أكبر من أن تعالجها يد الإنسان، ترتكز الواحدة فوق الأخرى من دون ملاط بينها وتحمل كلها آثار نحت من عصر هندي أو مصري. للوهلة الأولى، يمكن للمرء أن يرى أن تلك الحجارة الساقطة والمهدمة قد أدَّت في البدء غرضاً آخر غير بناء جدار مصطبة أو حرم، وأنها كانت المواد الثمينة لآثار بدائية استخدمت فيما بعد لتسييج آثار العصور اليونانية والرومانية. لقد كانت ممارسةً متعارفاً عليها، لا بل أعتقد أنها كانت دينية، عند الأقدمين، فعندما كان يتهاوى صرح مقدس بفعل الحرب أو الطبيعة، أو عندما كانت الفنون الأكثر تقدماً تبغي تجديده أو استكماله، فإنه كان يتم استخدام المواد كإنشاءات متممة للآثار المرممة كي لا تُدنَّسَ تلك الأحجار، التي لامست ظلال الآلهة، في استخدامات حياتية مبتذلة؛ وكذلك احتراماً للأسلاف، كي لا يدفن العمل الإنساني من مختلف العصور تحت الأرض بل يشهد دائماً على ورع الإنسان وتقدمه المتتالي في مجال الفن: هكذا كان الأمر في الـ «بارثينون» حيث لا تزال جدران الـ «أكروبوليس» (Acropolis)، التي أعاد «بيريكليس» (Périclès) بناءها، تضم المواد المشغولة لمعبد «منيرفا» (Minerve). يخطئ الكثير من المسافرين الحديثين، لجهلهم تلك العادة الدينية عند الأقدمين، فيخالون بعض الصروح التي بُنيت منذ القدم أبنية همجية للأتراك أوالصليبيين.

بعض أحجار ذلك السور كانت تبلغ حتى عشرين أو ثلاثين قدماً طولاً وسبعة أو ثمانية أقدام ارتفاعاً.

عند وصولنا إلى قمة الثغرة، لم تعد أعيننا تعرف على أي الأشياء تثبت نظرها: من كل جهة كانت هناك أبواب رخامية بارتفاع وعرض عظيمين، ونوافذ وكوى محاطة بأروع النقوش وأقواس مغطاة بزخارف بديعة، قطعٌ من الأفاريز والنُضُد الجانبية والتيجان مبعثرة كالغبار تحت أقدامنا، قباب مزينة بإطارات مزخرفة ترتفع فوق

رؤوسنا. أعاجيب لا تفسر تحيط بنا: أسرار وغموض وفوضى وتحف فنية ومخلفات تركتها الأزمنة. بالكاد كنّا نلقي نظرة إعجاب على ناحية ما حتى تستثير نظرنا تحفة جديدة في ناحية أخرى: كانت كل التفسيرات للشكل والمعنى الديني للأوابد تقوِّض بعضها البعض. كنا نتوه عبثاً في دوامة التداخلات تلك: لا يمكن للمرء، بالفكر وحده، أن يعيد بناء صروح مقدسة لزمن أو لشعب لا يعرف دينه ولا عاداته معرفة عميقة. يطوي الزمان أسراره معه ويترك ألغازه لعلوم الإنسان ليضللها ويتلاعب بها. صرفنا النظر سريعاً عن بناء أية منظومة حول جملة الأطلال هذه؛ اكتفينا بالمشاهدة والإعجاب دون أن نفهم شيئاً آخر سوى القوة الجبارة لعبقرية الإنسان وقوة الفكرة الدينية اللتين استطاعتا تحريك كُتل كهذه وإنجاز كمٍّ من التحف الفنية كهذه. كنا لا نزال مفصولين عن مشهد الأطلال الثاني بمُشيَّداتٍ داخلية تحجب عنا رؤية المعابد. لم نشاهد، من كل ما بدا لنا، سوى مساكن الكهنة أو أرض المعابد الخاصة المكرَّسة لاستخدامات غير معروفة. اجتزنا هذه المشيدات الفخمة، والأغنى بكثير من جدران الحرم، فوقعت أعيننا على المشهد الثاني من الأطلال. لقد كان أكثر اتساعاً وطولاً وأغنى زينةً حتى من المشهد الأول الذي خرجنا منه، انبسطت أمام أنظارنا مصطبة واسعة، على شكل مربَّع متطاول، كان استواؤها يُقاطَع في مواضع عديدة ببقايا أرضيات مرصوفة أكثر ارتفاعاً يبدو أنها كانت لمعابد دمرت بكاملها، أو معابد من غير سقف بحيث تستطيع الشمس، المعبودة في «بعلبك»، أن تصل إلى مذبح الهيكل. كانت تحيط بتلك المصطبة سلسلة من المُصلَّيات المزينة بالكوى المنقوشة بشكل يستحق الإعجاب، وبالأفاريز، والطنفات، والتربيعات المزخرفة، أي بنِتاجٍ مكتمل ولكنه يرجع إلى عصر فسدَتْ فيه الفنون: نستشعر فيه بصمة الأذواق المفرطة في زخرفها، وبصمة عصور الانحطاط اليوناني والروماني. إلا أن هذا الانطباع لن يتولَّدَ إلا عند العين المتمرسة بتأمل الآثار الأصيلة لـ «أثينا» و«روما» : أيّ عينٍ أخرى ستُفتَن بعظمة الأشكال وبالإتقان الرفيع للزخارف. النقيصة الوحيدة هنا هي الغنى المسرف: الحجر مثقلٌ بوطأة البذخ وتخريمات الرخام تلفُّ الأسوار من كل جانب. من بين تلك المصلّيات، ما زال هناك من

ثمانية إلى عشرة لم تمسَّ تقريباً، يبدو أنها لا تزال تحتفظ بالشكل الذي وجدت عليه أصلاً: فهي مفتوحة على المربع المتطاول الذي تحيط به والذي كانت تؤدَّى عليه، من غير شك، أسرار عبادات «بعل» في وضح النهار. لن أحاولَ هنا أن أصف المواضيع الألف المثيرة للدهشة والإعجاب التي يقدمها لعين المشاهد كل معبد من هذه المعابد وكل حجر من هذه الحجارة. لست نحاتاً ولا معمارياً، إنني أجهل حتى الاسم الذي يأخذه الحجر بحسب الموقـــع الذي يكــون فيه أو الشكل الذي يأخذه. قد أتكلم لغة غريبة بشكل سيئ، أمّا هذه اللغة الكونية والتي يكلم بها الجمال العين، حتى عين الجاهل، اللغة التي يكلم بها الغامض والقديم عقل الفيلسوف وروحه، فإنني أسمعها، ولم أكن قد سمعتها قط بهذه القوة إلا في فوضى الرخام والأشكال والأسرار التي تزدحم بها هذه الباحة العجيبة.

إلا أن ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع ما كنا سنكتشفه بعد قليل. يستطيع المرء تخيل ذلك المشهد المعماري باستحضاره أطلال معبد «جوبيتر ستاتور» (Jupiter Stator) في روما و«كولوزيوم» روما و«البارثينون»؛ لم يكن هناك أكثر عظمة من مجموعة العمائر هذه، ومن ذلك الغنى وذلك الشغل الفني، في حرم واحد وتحت نظرة واحدة، في قلب الصحراء وفوق أطلال مدينة غير معروفة تقريباً. أبطأنا في ترك المشهد، وسرنا جنوباً حيث ارتفعت رؤوس ستة أعمدة عملاقة كمنارة فوق هذا الأفق من الأنقاض. كي نصل إلى ذلك الموقع كنا مجبرين على اختراق المزيد من الجدران الخارجية للعمائر، ومن الأروقة المرتفعة وقواعد الأعمدة وأساسات المذابح التي كانت كلها تسد الفضاء بيننا وبين تلك الأعمدة: وصلنا أخيراً إلى أقدام تلك الأعمدة. عندما تتجاوز مشاعر الإنسان حدود الانطباعات العادية، يصبح الصمت لغته الوحيدة. بقينا صامتين نتأمل تلك الأعمدة الستة ونقيس بأعيننا قطرها وارتفاعها والنقوش الرائعة لجوائزها ولطنفها: يبلغ قطرها سبعة أقدام، ويفوق ارتفاعها السبعين قدماً، وهي تتألف من قطعتين أو ثلاث فقط ضمت إلى بعضها بعضاً بشكل رائع بحيث يستطيع المرء بالكاد أن يميّز

خطوط الملاط. أما مادتها فهي من الحجارة الصفراء المائلة قليلاً نحو الذهبي، وتلتمع قليلاً فتكون حدّاً وسطاً بين لمعان الرخام وكَمَادَة الجير. كانت الشمس تضرب تلك الأعمدة من جهة واحدة؛ جلسنا في ظلها برهة، وكانت طيور كبيرة أشبه بالنسور تحلّق مذعورة من وقع أقدامنا فوق تيجان الأعمدة حيث بنت أعشاشها، ثم حين ترجع لتستريح فوق أَفَنْثا طنف الأعمدة، كانت تضربها بمناقيرها محركة أجنحتها وكأنها زخارف حية متحركة لهذه الآثار البديعة. هذه الأعمدة، التي اعتبرها بعض المسافرين بقايا لطريق عريض بطول أربعمائة قدم وبعرض ستة وخمسين قدماً كان يؤدي فيما مضى إلى معبد، ويبدو لي جلياً أنها كانت تشكّل التزيين الخارجي للمعبد نفسه. حين يتفحص المرء بعين متمعنة المعبد الأصغر الموجود برمته على مسافة قريبة، يدرك أن هذا الأخير كان قد بني وفق التصميم نفسه. ما يبدو لي محتملاً هو أنه حين هُدِّم الأول، على إثر هزة أرضية، بني الثاني على النمط نفسه، وتم استخدام جزء من المواد السليمة في المعبد الأول لبناء المعبد الثاني، وتم فقط تصغير الأبعاد، التي كانت تعد عملاقة نسبة لعصر آخذٍ في الانحطاط، واستبدلت الأعمدة المهشمة بعد أن سقطت، وحوفظ على تلك التي وفَّرها الزمن كذكرى مقدسة للصرح القديم: لو كان الأمر غير ذلك، لبقيت أنقاض أخرى لأعمدة كبيرة حول الستة المتبقية. على العكس من ذلك، فإن كل شيء يدل على أن المساحة التي تحيط بها كانت فارغة وخالية من الأنقاض منذ أقدم العصور، وأن رواقاً غنياً كان لا يزال يستخدم حول تلك الأعمدة لأداء طقوس عبادية معينة.

قبالتنا من جهة الجنوب، كان يقوم معبد على طرف المصطبة على بعد أربعين خطوة منا؛ إنه المَعْلَم الأكثر سلامة والأروع في «بعلبك»، وسأتجرأ لأقول في العالم أسره. إذا أعدتَ تنصيب واحد أو اثنين من صف الأعمدة المتداعية على جوانب المصطبة والتي لا تزال تتكئ برؤوسها على الجدران السليمة للمعبد، وإذا أعدتَ بعضاً من التربيعات المزخرفة الضخمة الساقطة من السقف على الردهة، وإذا قوَّمتَ واحدة

أو اثنتين من الكتل المنحوتة، وإذا رممتَ المذبح بالأنقاض التي تغطي الرواق ليستعيد شكله ومكانه، يمكنك ساعتها أن تنادي الآلهة وتستدعي الكهنة والأهالي ليتعرفوا على معبدهم كاملاً وسليماً ولماعاً من الحجر المصقول والنور الوهّاج كما في اليوم الذي خرج فيه من تحت يدي المعماري.

إن أبعاد هذا المعبد أصغر من أبعاد ذلك المعبد التي تذكّر بها الأعمدة الستة العملاقة؛ إنه محاط برواق تحيط به أعمدة كورنثية؛ لكل واحد منها قطر يقدر بخمسة أقدام وجذع بحوالي خمسة وأربعين قدماً؛ يتألف كل عمود من ثلاث كتل متراكبة، ويبعد كل واحد عن الآخر مسافة تسعة أقدام ويبعد كل منها مسافة متساوية عن الجدار الداخلي للمعبد. ويمتد فوق تيجان الأعمدة جائز غني وطنف منقوش بروعة. يتألف سقف رواق الأعمدة هذا من كتل حجرية عريضة ومقعرة، منحوتة بالإزميل إلى تربيعات تحمل كل واحدة منها رسماً يمثل إلهاً أو إلهة أو بطلاً: تعرفنا على رسم له «غانيميدس» (Ganymède) يخطفه نسر «جوبيتر». وقع بعض تلك الكتل أرضاً عند أقدام الأعمدة؛ قسناها: لها عرض يعادل ستة عشر قدماً وسماكة تقارب الخمسة أقدام: إنها آجرّ هذه الآثار! أما الباب الداخلي للمعبد والمكوّن كذلك من كتل ضخمة فيبلغ عرضه اثنين وعشرين قدماً؛ لم نستطع قياس ارتفاعه لأن كتلاً أخرى تهاوت في هذا المكان بالذات، سادةً الباب لنصفه. إن شكل الأحجار المنحوتة التي تؤلف واجهات هذا الباب وعدم اتّساق أبعادها مع بقية الصرح جعلاني أفترض بأن هذا الباب هو باب المعبد الكبير المتهاوي وأنه قد تم إقحامه في هذا المعبد. في رأيي أن المنحوتات الغامضة التي تزين الباب تخص عصراً آخر تماماً غير العصر الأنطوني، وهي مشغولة بشكل أقل دقةً: نرى نسراً يمسك بمخالبه صولجاناً وينشر جناحيه نحو الفتحة؛ تنطلق من منقاره جديلات شرائط أو سلاسل يمسك بها من كل طرف تمثال امرأة تنفخ في البوق. أما داخل الصرح فهو مزين بدعائم و بكوى منحوتة بغنى مفرط؛ لقد حملنا معنا بعضاً من قطع النحت التي تغطي الردهة. هناك كوى مصانة تبدو

وكأنها خارجة من ورشة النحات. ليس بعيداً عن مدخل المعبد وجدنا فتحات واسعة وأدراجاً تحت الأرض قادتنا إلى مشيّدات سفلية لم نستطع تحديد وظيفتها؛ كل شيء فيها كذلك كان أيضاً واسعاً ورائعاً: لا بد أنها كانت مساكن للأحبار أو مجامع للكهنة أو قاعات للتعليم، أو أنها مساكن ملكية؛ وهي تستقبل النور من الأعلى أو من جوانب المصطبة التي تطل عليها. لم نشاهد إلا جزءاً صغيراً من هذه المشيدات خشية أن نضيع في هذه المتاهات؛ يبدو أنها تنتشر على امتداد ذلك البروز كله.

يقع المعبد الذي أتيت لتوي على ذكره في الطرف الجنوبي الغربي لرابية «بعلبك» الأثرية؛ إنه يشكل زاوية المصطبة. عندما خرجنا من رواق الأعمدة وجدنا أنفسنا على حافة المهوى. استطعنا أن نقيس الأحجار الهائلة التي تشكل قاعدة هذه المجموعة من الآثار: ترتفع هذه القاعدة حوالي ثلاثين قدماً فوق مستوى أرض سهل بعلبك؛ وهي مبنية من حجارةٍ عملاقة هي من العظمة بمكان بحيث يسحق خيال إنسان اليوم تحت وطأة اللامعقول، لو لم يشهد عليها المسافرون النزيهون؛ حتى خيال العرب أنفسهم، أولئك الشهود اليوميين على هذه الأعاجيب، لا يُرجعها إلى قوة الإنسان بل إلى قوة الجن أو إلى قوىً تفوق الطبيعة. عندما نأخذ باعتبارنا أن لبعض كتل الغرانيت المنحوتة تلك طولاً يصل إلى ستة وخمسين قدماً وعرضاً يصل إلى ستة عشر قدماً وسماكة غير معروفة، وأن تلك الكتل الضخمة مرفوعة الواحدة فوق الأخرى حتى ارتفاع عشرين أوثلاثين قدماً عن سطح الأرض وأنها استخرجت من مقالع بعيدة ونقلت إلى هذا المكان ثم رُفعت إلى علوٍّ كهذا لتشكل أرضية المعابد، حين نتأمل كل هذا، نتراجع مذهولين بهذا الامتحان الصعب للقوى البشرية؛ إن علوم اليوم لا تستطيع أن تفسر ذلك، ولا عجب أنه كان من الضروري اللجوء إلى ما وراء الطبيعة لتفسيره. من المؤكد أن هذه الروائع لا ترجع إلى زمن المعابد، فقد كانت سراً للأقدمين كما هي لنا الآن؛ إنها من عصرٍ غير معروف، ربما من عصر ما قبل الطوفان؛ وعلى الأرجح أنها حملت الكثير من المعابد المقدسة لعبادات متتالية ومتنوعة: فبالعين المجردة يمكننا أن نميز فوق رابية

«بعلبك» خمسة أوستة أجيال من الآثار تعود إلى عصورٍ مختلفة. يُرجِع بعض المسافرين وبعض الكتّاب العرب هذه المشيّدات البدائية إلى عهد «سليمان»، أي إلى ثلاثة آلاف سنة قبل عصرنا الحالي، إذ يُقال إنه بنى «تدمر» و«بعلبك» في الصحراء. يملأ تاريخ «سليمان» مخيلة الشرقيين ولكن هذا الافتراض ليس معقولاً على الإطلاق، على الأقل في ما يخص المشيدات الضخمة لـ «هيليوبوليس» (بعلبك). كيف يمكن لملكٍ من إسرائيل أن يمد سلطانه إلى ما بعد دمشق وحتى بعلبك، وهو الذي لم يكن يملك حتى مرفأً بحرياً على بعد عشرة فراسخ من جباله، وكان مجبراً على استعارة أسطول «أحيرام»، ملك «صور» ليجلب له أرز «لبنان»؟ كيف يمكن لأمير أراد أن يشيد معبد المعابد وبيت الله الأوحد في عاصمته، فلم يستخدم إلا مواد هشة لم تستطع أن تقاوم الزمن ولم تستطع ترك أي أثر دائم، كيف كان بوسعه أن يشيد معالم مبنية من مواد لا تفنى على بعد مئة فرسخ من شعبه، في صحارى مجهولة؟ ألم يكن من الأجدر به أن يستخدم قوته وغناه في «أورشليم»؟ وماذا بقي في «أورشليم» من آثار مشابهة لتلك الموجودة في «بعلبك»؟ لا شيء: إذن من غير الممكن أن يكون «سليمان». أعتقد على الأرجح أن هذه الحجارة العملاقة كان قد حركها الأوّلون العمالقة أو إنسان ما قبل الطوفان. يُؤكِّد البعض أنه في وادٍ من سلسلة لبنان الشرقية، ليس بعيداً من هنا، قد اكتُشفت عظام بشرية بأحجام ضخمة. إن هذه الشائعة تُتداول بقوة بين العرب المجاورين حتى أن قنصل «إنكلترا» العام في «سوريا»، مستر «فارين»(Farren) ، وهو رجل علم رفيع الشأن، يذهب دوماً ليزور تلك الأضرحة الغامضة. إن الأعراف الشرقية والمَعْلَم نفسه المشيد فوق ما يُقال إنه ضريح «نوح»، على مسافةٍ قريبة من «بعلبك»، تدل على أن ذلك المكان يخص الجدّ الأول. إن الأولين من ذرية ذلك الجد استطاعوا الحفاظ على حجم وقوة الإنسان قبل طوفان كوكبنا كلياً أو جزئياً؛ قد تكون هذه الآثار من صنعهم. حتى لو افترضنا أن الإنسان لم يتجاوز يوماً قياساته الحالية، فإن حدود الذكاء البشري ربما تغيرت: من يستطيع التأكيد أن ذلك الذكاء الفتي لم يكن قد اخترع طرقاً ميكانيكية أكمل لتحريك هذه الكتل كما لو كانت ذرة غبار وهي ما لا يستطيع

اليوم جيش من مئة ألف رجل هزها؟ مهما يكن من أمر، فإن بعضاً من حجارة «بعلبك» والتي يصل طولها إلى اثنين وستين قدماً وعرضها إلى عشرين قدماً وسماكتها أكثر من خمسة عشر قدماً هي من أعظم الكتل التي استطاع الإنسان تحريكها. لا تتجاوز أكبر حجارة في أهرام «مصر» الثمانية عشر قدماً، وهي ليست إلا كتلاً استثنائية وُضعت في بعض مواضع ذلك الصرح بغية التدعيم. عندما درنا حول الزاوية الشمالية لسطح المصطبة، رأينا أن الأسوار التي تسندها هي أيضاً بأروع حالة؛ ولكن كتلة المواد المكونة لها لا تثير العجب بنفس القدر. ومع ذلك فإن الحجارة تبلغ، بشكل عام، عشرين إلى ثلاثين قدماً طولاً وثمانية أو عشرة أقدام عرضاً. كانت تلك الجدران، وهي أعتق من المعابد العلوية، مغطاة بلون رمادي ومثقبة هنا وهناك بأعشاش السنونو وتتدلى منها طاقات من شجيرات وأزهار حشيشة الزجاج. وكان لون حجارة القاعدة الكامد والمعتم يتضاد مع اللمعة البراقة والذهبية لجدران المعابد وصفوف الأعمدة في القمة. وعند المغيب، عندما تلعب أشعة الشمس بين الأعمدة وتتمايل كأمواجٍ نارية بين الزخارف الحلزونية وأقنثيات التيجان، كانت المعابد تشع كالذهب الصافي فوق قاعدة برونزية. هبطنا عبر فتحة مشكلة في الزاوية الجنوبية للمصطبة؛ كان هناك بعض الأعمدة التي تهاوت من المعبد الصغير مع جوائزها وسقطت في السيل الجاري على طول الجدران العملاقة. دون شك بقيت تلك القواعد الضخمة للأعمدة والمتجمعة صدفةً في مجرى السيل وعلى منحدر الهاوية وستبقى أبداً هنا حيث حط بها الزمن؛ لقد برعمت بين الكتل بضع أشجار الجوز وأشجار أخرى لتغطي تلك الكتل بأغصانها وتعانقها بجذورها. مقارنةً بجذوع الأعمدة ذات المحيط البالغ عشرين قدماً وبقطع الأقنثيا والتي تغطي واحدتها نصف مجرى السيل، تكاد الأشجار الأكثر ضخامة تشبه القصب الفتي الذي نبت البارحة.

من جهة الشمال، ليس بعيداً من هنا، كانت هناك فوهة واسعة في حواف المصطبة انفتحت أمامنا. نزلنا إليها؛ وكان ضوء النهار الذي يدخلها من الطرفين

يضيئها بشكل كاف، فتبعناها على كل طولها البالغ خمسمائة قدمٍ، إنها تمتد على طول المعابد بارتفاع يقارب الثلاثين قدماً، وتتكون جدران قبتها من كتل أدهشتنا بحجمها حتى بعد تلك التي كنّا قد تأملناها لتونا. كان لكتل الحجارة الجيرية هذه، المنحوتة بالإزميل، حجومٌ غير متساوية، ولكن معظمها كان يبلغ عشرة إلى عشرين قدماً طولاً. لقد كانت القبة نصف كروية والحجارة من دون ملاط بينها، ولم نستطع تخمين استخدامها. من الطرف الغربي، تتفرع تلك القبة تفرعاً أكثر ارتفاعاً وأكثر اتساعاً، كذلك، تمتد حتى مصطبة المعابد الصغيرة التي كنا قد زرناها أولاً. هناك رأينا نور النهار من جديد؛ كان السيل مشتتاً بين القطع المعمارية الكثيرة المتهاوية من المصطبة وأشجار الجوز الجميلة النامية بين غبار الرخام. كانت صروح «بعلبك» القديمة الأخرى المنتشرة أمامنا في السهل تشد أنظارنا، ولكن لم يعد هناك ما يشدنا فعلاً بعد الذي رأيناه لتونا. عند عبورنا، ألقينا نظرة سريعة وسطحية على أربعة معابد كان ممكناً أن تعد من أفضل الروائع حتى في «روما»، ولكنها، هنا، كانت تشبه نتاجَ أقزامٍ نسبةً لما رأيناه. بدا لي أن تلك المعابد هي من العصر الروماني؛ كان بعضها مثمناً وأنيق الزخرف بينما كان البعض الآخر مربعاً مع صفوف أعمدة من الغرانيت المصري أو حتى من البورفير. استُخدِم واحد من تلك المعابد ككنيسة في عهد المسيحية الأول؛ وما زلنا نميز رموزاً مسيحية عليه؛ إنه الآن مكشوف ومهدم؛ لقد كان العرب يأخذونه كلما دعتهم الحاجة إلى حجرٍ لدعم سقفهم أو إلى جرنِ ماءٍ لإرواء إبلهم.

كان رسولٌ من أمير العرب في «بعلبك» يبحث عنّا وقد التقانا هناك. أرسله الأمير ليتمنى لنا وصولاً سعيداً وليرجونا التفضل بحضور سباق الجريد، وهو نوع من المباريات سيقيمه الأمير على شرفنا في اليوم التالي عند السهل وتحت المعابد. شكرناه وقبلنا الدعوة وأرسلت ترجماني ليقوم بزيارة الأمير مصحوباً ببعضٍ من جنودي الإنكشاريين. رجعنا إلى المطران لنرتاح من عناء ذلك النهار، ولكن ما كدنا نتناول قطعةً من الخبز والخروف المحشي بالرز الذي حضّره مكاريّونا، حتى شردنا على غير هدى

ودون دليل حول رابية الأطلال وفي المعابد التي كنا قد عرفنا الطريق إليها صباحاً. كان كل واحد منا يتعلق بالأنقاض أو بالمناظر التي اكتشفها ومن ثم ينادي أصحابه في ذلك البحث ليستمتعوا باكتشافاته؛ ولكننا لم نكن نستطيع التركيز على قطعةٍ ما دون أن نهمل أو نضيع قطعة أخرى؛ وانتهى بنا الأمر أن أطلقنا لأنفسنا العنان، كل من جهته، حسب اكتشافاتنا. كانت ظلال المساء النازلة ببطءٍ من جبال «بعلبك» تواري أعمدة الآثار الواحد تلو الآخر في ظلمتها؛ وكانت تضفي غموضاً إضافياً وأثراً أكثر غنى على هذا العمل السحري والغامض، الذي صنعه الإنسان والزمن؛ شعرنا بأننا، أمام حجم هذه الآثار وأبديّتها، وكأننا سنونوات تعشش أثناء موسمها في ثغرات هذه الحجارة دون أن تعرف لمن جُمعت هذه الحجارة أومن قام بجمعها. إننا نجهل الأفكار التي حركت تلك الكتل وراكمتها؛ غبار الرخام الذي نطأه يعرف عنها أكثر منّا، لكن لا يستطيع أن يخبرنا بأي شيء. بعد عدة قرون، عندما ستأتي الأجيال القادمة لتزور أنقاض صروحنا الحالية، ستتساءل بالطريقة نفسها لماذا بنينا ونحتنا، دون أن تستطيع الإجابة. إن أعمال الإنسان تدوم أكثر من فكره؛ فالحركة هي قانون الفكر البشري؛ الثابت والنهائي هو حلم كبريائه أو جهله؛ فالله هو الهدف الذي يتبدى، دون توقف، أبعد فأبعد بقدر ما تقترب منه البشرية؛ إننا نتقدم دائماً، لكننا لن نصل أبداً. يتوسع الوجه الإلهي الكبير الذي يسعى الإنسان منذ طفولته إلى زجه نهائياً في مخيلته ومعابده ويكبر دائماً ليتجاوز الأفكار الضيقة والمعابد المحدودة. إنه يترك المعابد خاوية ويجعل المذابح تهوي، داعياً الإنسان إلى البحث عنه ورؤيته حيث يتجلّى أكثر فأكثر في الفكر والذكاء والفضيلة والطبيعة والخير اللامحدود!

التاريخ نفسه، مساءً

طوبى لمن يحمل جناحين يحلق بهما فوق القرون الغابرة، ليحط دون دوار فوق تلك الآثار الرائعة للإنسان، فيسبر من هناك أغوار الفكر والمصير البشريين، ويقيس بعينه سبيل النفس البشرية ماشياً خطوة خطوة في ذلك النور الشحيح للفلسفات

والأديان والشرائع المتعاقبة، ويعلو كما البَحَّار في بحارٍ لا تُرى لها شواطئ، ويدرك في أي من الأزمنة يعيش وإلى أي تجلٍّ للحقيقة والألوهة يدعوه الله مع سائر جيله.

بعلبك، ٢٩ آذار، عند منتصف الليل

ذهبت البارحة إلى رابية المعابد وحيداً تحت ضوء القمر لأفكر وأبكي وأصلي. الله وحده يعلم كم بكيت وكم سأبكي طالما بقيت لي ذكرى أودمعة! بعد أن صليت لأجلي ولأجل أولئك الذين يخصونني، صليت لأجل كل البشر. لقد ألهمتني خيمة الإنسانية المقلوبة تلك، والتي كنت أجلس على أطلالها، مشاعر كانت من القوة والحرارة بحيث أنها خرجت من تلقاء نفسها على شكل شعرٍ، اللغة الطبيعية لأفكاري في كل مرة تسيطر فيها عليّ هذه الأفكار، وها أنا أكتب تلك الأبيات هذا الصباح، في نفس المكان وعلى نفس الصخرة حيث ألهمت بها في تلك الليلة :

صحارى تكتنفها الأسرار،
روابيها الفسيحة عظام لحاضرات تلاشت أسماؤها؛
كتل ضخمة دحرجها سيل الأنقاض؛
سرير عظيم من شعب خمدت الموجة التي كانت تعتمل فيه؛
معابد اجتثت الجبال العظيمة كشجرة، لترتدي أساساتكم الرخامية؛
أغوارٌ بوسعها احتضان أنهار كاملة؛
أعمدة كانت عيني عبثًا تبحث بينها عن دروب،
ركائز وقناطر في شوارع عميقة،
يضيع فيها القمر كما يضيع الغمام؛
تيجان أعمدة تخلطها عيني حين تشاهدها،
إنكم فوق قشرة الأرض كالحروف الضخمة،
جاءكم رجلٌ من الغرب

ليتلمسكم بأنامله وليسبر أسراركم

مركبه في اليم، بسط طريقه،
وفتح آفاقه المنسابة لمئات المرات؛
رمى بنفسه في الهاوية السحيقة؛
واهترأت قدماه فوق نتوءات الجبال؛
وأحرقت الشموس قماش خيمته؛
وجف إخوته وأصدقاؤه وهم ينتظرونه،
وإن رجع يومًا فحتى كلبه لن يتعرف على صوته ويديه :
لقد فَقَد في الطريق
نور عينيه، الطفلةَ التي كانت
تنشر تحت سقفه النور والخلود
سيموت دون ذكرى ودون ذرية!
والآن ها هو يقبع فوق الأطلال الفسيحة
لا يسمع إلا الريح تردد صوتاً ساخرًا
وِزْرٌ يطأطئ جبينه ويثقل صدره :
فلا خواطر ولا قلب بعد الآن

نفس التاريخ

الباقي حميم جداً. ... قطعت قمم «صنين» المغطاة بالثلوج الدائمة ونزلت من جبل لبنان، المتوَّج بإكليل أرزه، إلى صحراء «هيليوبوليس» (Héliopolis) الجدباء بعد يوم طويل ومضن. في الأفق البعيد، في آخر جبال لبنان الشرقية الداكنة، كانت أطلال صفراء، مذهبة بشمس المغيب، تنفصل عن ظل الجبال وتنعكس بأشعة المساء. أشار مرشدونا إليها هاتفين: «بعلبك! بعلبك!» في الحقيقة كانت أعجوبة الصحراء، «بعلبك» الساحرة التي خرجت مشعة من قبرها المجهول لتروي لنا حكاية عصور نسيها

التاريخ. تقدمنا على مهل فوق خطى خيولنا التعبة وعيوننا مشدودة إلى الجدران العملاقة وإلى الأعمدة المبهرة والعملاقة التي بدت وكأنها تنتشر وتكبر وتطول بقدر ما كنّا نقترب. عمَّ صمت مطبق في كل القافلة: فلقد كان واحدنا يخشى أن يضيّع انطباع لحظة جديدة إن نقل إلى الآخرين انطباعاً حصل عليه لتوه. العرب أنفسهم كانوا صامتين، وبدوا وكأنهم يعيشون حالة قوية وعظيمة إثرَ هذا المشهد الذي سوَّى بين النفوس. وأخيراً وصلنا إلى قطع الأعمدة الأولى، وإلى كتل الرخام الأولى التي هزتها الزلازل ورمتها أكثر من ميل بعيداً عن الصروح نفسها، كما الأوراق اليابسة التي يرميها الإعصار بعيداً عن الشجرة. كانت المقالع العميقة والعريضة والتي تشق، كما شعاب الأودية، السفوح السوداء لجبال «لبنان» الشرقية، تفتح أعماقها تحت وطأة سنابك خيولنا. كانت الأحواض الحجرية تلك، والتي مازالت جدرانها تحتفظ بالآثار العميقة للأزاميل التي حفرتها لتستخرج منها روابي أخرى من الحجارة، لا تزال تظهر بعض الكتل العملاقة وهي نصف مقتلعة من قواعدها، وكتل أخرى نحتت على أوجهها الأربعة وكأنها لا تنتظر إلا العربات أو أذرع أجيال العمالقة لتحريكها. كان أحد حجارة «بعلبك» تلك يبلغ طوله اثنين وستين قدماً وعرضه أربعة وعشرين قدماً وسماكته ستة عشر قدماً. ترّجل واحد من العرب المرافقين لنا عن حصانه وانزلق إلى داخل المقلع، ثم تسلق فوق ذلك الحجر متعلقاً بالحزوز التي خلَّفها الإزميل الذي قطعه وبالطحالب المتجذرة في تلك الحزوز. ثم صعد إلى سطح الحجر وبدأ بالقفز فوقه مطلقاً صيحات وحشية؛ ولكن الحجر كان يسحق بضخامته إنسان اليوم: فيختفي الإنسان أمام صنيعته؛ قد تلزم قوة ستين ألف رجلٍ مجتمعين، من رجال اليوم، لرفع هذا الحجر وحده، ومساطب «بعلبك» تحمل ما هو أكثر حجماً، مما يرتفع خمسة وعشرين أو ثلاثين قدماً عن سطح الأرض، وذلك لحمل صفوف من الأعمدة تتناسب مع هذه القواعد.

تابعنا طريقنا بين الصحراء يسرةً وتماوجات جبال لبنان الشرقية يمنةً، بمحاذاة بعض الحقول التي يزرعها الرعاة العرب، وبمحاذاة مجرى عريض لسيلٍ يتعرج بين

الأطلال، نمت على جوانبه بعض أشجار الجوز الجميلة. كان «الأكروبوليس»، أي تلك الرابية الاصطناعية التي تحمل كل الآثار الضخمة لـ «هيليوبوليس»، يظهر لنا من هنا وهناك عبر أغصان الأشجار الكبيرة ومن فوق قممها. وأخيراً رأينا تلك الرابية بأكملها فتوقفت القافلة كلها كأنّ غريزة كهربائية ثبتتها في مكانها. لا يمكن لأية ريشة كاتب أو فرشاة رسَّام أن تصف الانطباع الذي كان هذا المنظر يعطيه للعين والروح. في كل مكان، تحت أقدامنا وفي مجرى السيل وفي وسط الحقول وحول جذوع كل الأشجار، كانت هناك كتل من الغرانيت الأحمر أو الرمادي ومن البورفير الأحمر ومن الرخام الأبيض ومن الحجر الأصفر الذي يماثل في بريقه رخام جزيرة «باروس» (Paros)؛ وكانت هناك قطع أعمدة وتيجان منقوشة وجوائز وحلزونيات وأفاريز وأطر علوية وقواعد أعمدة؛ كانت أجزاء متناثرة وشيِّقة للناظر؛ ورأينا أيضاً تماثيل هاوية ووجهها على الأرض: كان كل ذلك ركاماً مجمعاً في أكوام متناثرة في كل صوب وكأنها حمم بركان لفظ أنقاض إمبراطورية كبيرة. لم يكن لنا سوى سبيل صغير لننزلق ضمن المخلفات الفنية التي غطت الأرض. كانت حدوات خيولنا تنزلق وتنكسر عند كل خطوة فوق الأقانثيا المصقولة للأفاريز أو فوق ثدي ثلجي لجذع امرأة منحوت. وحدها مياه نهر «بعلبك» كانت تُرى من بين كل تلك القطع، وكانت تغسل بزبدها المتمتم كِسرات الرخام المعيقة لمسارها.

أبعد من غبار الأنقاض تلك التي كانت تشكل كثباناً حقيقية من الرخام، كانت رابية «بعلبك» تظهر لنا من طرفها الشرقي، مشكلةً مصطبة يبلغ طولها ألف قدم وعرضها سبعمائة قدمٍ، بنتها بكاملها يد الإنسان بحجارةٍ منحوتة يبلغ طول بعضها من خمسين إلى ستين قدماً وارتفاعها من خمسة عشر إلى ستة عشر قدماً، ولكن معظمها من خمسة عشر إلى ثلاثين. كانت هذه الرابية الغرانيتية المنحوتة تتبدى لنا بقواعدها العميقة وكسوتها الفريدة بقياساتها حيث يشكل امتداد ثلاث قطع من الغرانيت مائة وثمانين قدماً ومساحتها تبلغ حوالي أربعة آلاف قدم، وكانت تظهر كذلك

فتحات القباب تحت الأرضية، حيث تغيب مياه النهر، وحيث كانت الريح تصدر مع المياه تمتمات تشبه الدقات البعيدة للأجراس الكبيرة قي كاتدرائياتنا. فوق هذه المصطبة الواسعة، كانت حافة المعابد الكبيرة منفصلة عن الأفق الأزرق والوردي بلون ذهبي. كان بعض هذه الآثار يبدو سليماً تماماً وكأنه خرج لتوِّه من يدي العامل؛ بينما لم يكن بعضها الآخر سوى بقايا مازالت منتصبة وأعمدة معزولة وأجزاء جدران مائلة وجبهيّات مقتلعة. كانت العين تضيع في الطرق العريضة المشعة بين صفوف أعمدة المعابد المختلفة، وكان الأفق المرتفع جداً يمنعنا من أن نرى أين تنتهي مجموعات الحجارة تلك. كانت الأعمدة الستة الجبارة للمعبد الكبير، والتي لا تزال تحمل بجلال أطرها العلوية الغنية والعملاقة، تسيطر على كل ذلك المشهد وتضيع في السماء الزرقاء للصحراء، كأنها مذبح جوي لأضحيات العمالقة.

توقفنا لعدة دقائق ليس إلا لنتعرف على ما جئنا لنزوره عبر كل تلك الأخطار وتلك المسافات، متيقنين بأننا امتلكنا أخيراً هذا المشهد لمستقبلنا لنعاود مشاهدته، فهو مشهد لا تستطيع حتى أحلامنا أن تعيد تصويره لنا؛ ثم عاودنا السير. كان النهار قد بدأ بالتواري، وكان يجب أن نجد ملجأً، إما تحت الخيمة أو تحت بعض قباب الآثار، لنبيت الليلة ونرتاح من سير أربع عشرة ساعة. تركنا يسارنا جبل الآثار وشاطئاً أبيض واسعاً من الأنقاض، وتجاوزنا حقولاً من العشب ترعاها الماعز والجمال، وتوجهنا نحو دخانٍ كان يرتفع من مجموعة من الأطلال المختلطة ببيوت عربية خربة على بعد مئة قدم منا تقريباً. كانت الأرض وعرة وغير ممهدة وتفرقع تحت وقع سنابك خيولنا وكأن المستويات تحت الأرض التي كنا نطؤها كانت ستنفتح بسبب خطى خيولنا. وصلنا إلى كوخ منخفض مخبّأ لنصفه بأجزاء الرخام المتداعية، بُني بابه ونوافذه الضيقة الخالية من الزجاج ومن المصاريع برخامٍ وبورفير لُصقا بشكل رديء مع قليل من الملاط. فوق السطح المستخدم كسقف لذلك الكوخ، ارتفع قوس من الحجارة بارتفاع قدم أو قدمين، وكان هناك جرس، شبيه بتلك الأجراس التي تُرسم

على مغارات المتنسكين، يتأرجح داخل ذلك القوس على هبات الريح. كان ذلك الكوخ هو القصر الأسقفي لمطران «بعلبك» العربي الذي يشرف على رعيةٍ من اثنتي عشرة أو خمس عشرة عائلة مسيحية من الطائفة الرومية، ومن قبيلة شرسة من العرب المستقلين في البقاع. حتى ذلك الحين لم نر كائناً حيّاً سوى بنات ابن آوى التي كانت تركض بين أعمدة المعبد الكبير وسوى السنونوات الصغيرة بأطواقها الوردية الحريرية التي كانت تحاذي إفريز المصطبة وكأنها زخارف معمارية شرقية.

تنبه المطران لوصولنا من صوت القافلة فأطلّ مسرعاً من بابه وانحنى يعرض علينا ضيافته: كان عجوزاً وسيماً بشعرٍ ولحية فضيين وبملامح هادئة ورصينة، حديثه نبيل وعذب وموزون، مطابق لفكرة الكاهن في الشعر والرواية، وجدير بأن يظهر وجهه ضمن هذا المشهد الجليل من الأطلال، المشهد الداعي إلى التأمل، لأنه وجه سلام وتسليم وإحسان. دعانا للدخول إلى باحة داخلية صغيرة مبلطة بكسرات التماثيل وقطع الموزاييك والأواني القديمة، وبعد أن فتح لنا منزله، وهو عبارة عن غرفتين صغيرتين منخفضتين دون أثاث ودون أبواب، انسحب تاركاً إيّانا أسياد منزله، حسب التقاليد الشرقية.

بينما كان مرافقونا من العرب يغرسون في الأرض حول المنزل أوتاداً حديدية لتثبيت الحلقات التي تربط بها قوائم خيولنا، وبينما كان آخرون يوقدون النار في الباحة ليحضِّروا الأرزَّ المفلفل ويخبزوا أرغفة الشعير، خرجنا نحن لنلقي نظرة أخرى على الآثار المحيطة بنا. كانت المعابد الكبيرة ترتفع أمام أعيننا كتماثيل على قواعدها، وكانت الشمس ترسل عليها أشعتها الأخيرة التي كانت تنسحب على مهلٍ من عمود إلى آخر وكأنها ومضات مصباح يحمله الكاهن داخل المصلّى. كانت الظلال الألف للأروقة والدعامات وصفوف الأعمدة والمعابد تنتشر متحركة تحت غابة الأحجار الواسعة وتحلّ، شيئاً فشيئاً، مكان الومضات البراقة للرخام والجير فوق «الأكروبوليس». بعيداً أكثر، في السهل، كان هناك محيط من الأطلال التي لا تنتهي إلا عند الأفق، وكأنها

أمواج من الحجارة تكسرت على صخور البحر مغطية شاطئاً واسعاً ببياضها وزبدها. لا شيء كان يرتفع فوق هذا البحر من الأنقاض التي كان الليل الهابط من المرتفعات الرمادية لسلسلة الجبال يواريها في عتماته. بقينا جالسين بصمت لبضع لحظات قبالة هذا المشهد، ثم رجعنا بخطى بطيئة إلى باحة المطران الصغيرة التي كان ينيرها موقد خدّامنا العرب.

جلسنا على قطع الأفاريز وتيجان الأعمدة التي كانت تستخدم كمقاعد في الباحة وتناولنا بسرعة طعام مسافر الصحراء البسيط وبقينا بعض الوقت، قبل أن ننام، نتجاذب أطراف الحديث حول ما كان يملأ أذهاننا. كانت نار الموقد تتخامد، ولكن القمر كان يرتفع بدراً مشعّاً وسط السماء الصافية ويمر عبر فتحات جدار كبير من الحجر الأبيض وتخريمات نافذة محاطة بالرقوش – وكانا يحدّان الباحة من جهة الصحراء – ليضيء الباحة بنور كان يشعُّ على كل الحجارة. كان يسيطر علينا الصمت والحلم: ما كنا نفكر به في تلك الساعة وفي ذلك المكان، في هذا العالم الراكد بعيداً عن العالم النابض بالحياة، وأمام كل هذا الكم من الشواهد الصامتة على ماضٍ مجهول يزعزع كل نظرياتنا حول التاريخ والفلسفة البشريين. هذا ما كان يعتمل في نفوسنا وقلوبنا حول نظمنا وأفكارنا وربما، للأسف، حول ذكرياتنا ومشاعرنا الفردية أيضاً. الرب وحده كان يعلم به، أما ألسنتنا فلم تكن تحاول قوله خاشية تدنيس جلال هذه اللحظة وهذا الكوكب وهذه الأفكار نفسها: لذلك لزمنا الصمت. فجأةً، وكشكوى رقيقة مُحبَّة، انطلقت تمتمة رزينة مثقلة شغفاً من بين الأنقاض، من وراء ذلك الجدار الكبير المثقب بأقواس الرقوش والذي بدا لنا سقفه منهاراً على نفسه: تضخمت هذه التمتمة المبهمة والمشوشة وامتدت وارتفعت بصوت أقوى وأكثر حدة لنميِّزَ غناءً جماعيّاً ضمن جوقة. كان الغناء رتيباً، حزيناً وحنوناً، يصعد ويهبط ويتلاشى ثم يعاود الانطلاق بالتناوب ويردُّ على نفسه: لقد كانت تلك صلاة المساء التي كان يقيمها المطران العربي مع رعيته الصغيرة في الفسحة المهدَّمة لما كان يوماً كنيسته، أكوام من الأنقاض

راكمتها حديثاً عشيرة من العرب الوثنيين. لم نكن قد حُضِّرنا لموسيقى الروح تلك، التي كانت كل علامة منها هي شعور أوتنهيدة للقلب البشري في هذه الوحشة في قلب القفار، تخرج من الحجارة الخرساء التي كومتها الهزات الأرضية أو الهمج أو الأزمنة. أُخذنا بتلك الحالة الشعورية ورُحنا نرافق نبرات ذلك الشعر المقدس بتوثبات نفوسنا وبصلواتنا وبكلِّ شعرِنا الداخلي إلى أن أتمَّت تلك الأدعية المغنَّاة لازمتها الرتيبة وغفت أواخر تنهيدات تلك الأصوات الورعة في الصمت المعتاد لهذه الأنقاض القديمة.

التاريخ نفسه

لقد أنستنا المعابد سباق الجريد الذي دعانا إليه الأمير، فأمضينا كل صبيحة ذلك اليوم نجوب المعابد من جديد. عند الساعة الرابعة، جاء بعض العرب ليعلمونا بأن الفرسان كانوا في السهل فوق المعابد ولكنهم انسحبوا بعد أن نفد صبرهم من تأخرنا، وبأن الأمير اعتقد أن ذلك العرض ليس جذاباً بالنسبة لنا نظراً لأننا لم نلبِّ الدعوة ويرجونا كذلك أن نصعد إلى سراياه، بعد أن نرضي فضولنا من الآثار، فهو يحضر لنا عرضاً ترفيهيّاً آخر. تعجبنا من تسامح الأمير، وهو شيخ قبيلة عربية شرسة يُخشى جانبها في هذه الصحراء. على العموم، لا يسمح العرب والأتراك للغرباء بزيارة أيٍّ من هذه الآثار لوحدهم؛ فهم يعتقدون أن هذه الأنقاض تضم كنوزاً كبيرة خبأتها الشياطين أو الجن وبأن الأوربيين يعرفون الكلمات السحرية للكشف عنها؛ كما أنهم لا يريدون أن يحمل الغرباء تلك الآثار، إنهم في هذه المناطق على غايةٍ من الحذر والحيطة مع الإفرنج. هنا، على العكس من ذلك، تُركنا على هوانا، لا بل لم يكن معنا دليل عربي واحد، أما أطفال القبيلة فقد ابتعدوا احتراماً لنا. لا أعرف إلى ماذا يرجع توقير واحترام أمير «بعلبك» لنا في هذه الحالة؟ أيكون قد ظننا مبعوثين لـ «إبراهيم باشا»؟ الواقع هو أن عددنا القليل لم يُثر خشية قبيلةٍ كاملة من خمسمائة إلى ستمائة رجلٍ اعتادوا القتال وتعيَّشوا من النهب والسلب، ومع ذلك لم يجرؤوا على الاقتراب منا ولا مساءلتنا ولا الاعتراض على خطواتنا؛ لو أردنا البقاء شهراً ننقب في المعابد ونحمّل

أثمن القطع من تلك المنحوتات لما اعترض سبيلنا أحد. إنني لنادم كثيراً، كما ندمت في البحر الميت لأنني لم أعرف مسبقاً موقف القبائل تجاهنا: لولا ذلك، لكنت جلبت عمالاً وجمالاً تحمل تلك النفائس وتغني العلم والمتاحف.

عند خروجنا من المعابد، ذهبنا إلى قصر الأمير، هناك فاصلٌ من الآثار المهجورة ولكنّها أقل أهمية من باقي الآثار، تفصل رابية المعابد الكبيرة، أو «الأكروبوليس»، عن «بعلبك» الجديدة حيث يسكن العرب. «بعلبك» الجديدة ليست إلا ركاماً من البيوت المتواضعة قُلبت مئات المرَّات بفعل الحروب التي لا تنتهي؛ قبع الناس فيها قدر المستطاع، في ثغراتٍ شكلتها كل تلك الأنقاض؛ وغُطيت تلك المساكن ببعض أغصان الأشجار أو ببعض الأسقف القشية؛ وغالباً ما بنيت أبواب ونوافذ تلك المساكن من قطع الآثار الأكثر روعةً.

لقد شغلت أنقاض المدينة الجديدة مساحةً واسعة؛ فهي تمتد على مد النظر وتغطي ببياضها رابيتين منخفضتين متماوجتين فوق السهل الكبير: إن أثر ذلك لقاسٍ وحزين. هذه الأنقاض الجديدة تذكّرني بأنقاض «أثينا» التي رأيتها السنة الماضية. البياض الكامد والفج لهذه الأسوار المتداعية على الأرض ولهذه الحجارة المتناثرة لا يمت بصلةٍ إلى جلال الآثار القديمة فعلاً أو إلى لونها الذهبي؛ فهي تشبه شاطئاً رمليّاً غُطي بزبد البحر. أما قصر الأمير فهو عبارة عن باحة كبيرة محاطة نوعاً ما بغرفٍ من كل الأشكال؛ وتشبه بعامة باحة مزرعة بائسة في أفقر مناطقنا الريفية. كان بعض العرب المسلحين يحرسون الباب؛ وكانت الجموع تتهافت للدخول فأفسح الحراس لنا مجالاً للدخول. كانت الباحة قد امتلأت مسبقاً بكل رؤوساء القبيلة وبحشد غفير من العامة. الأمير وعائلته وكذلك الشيوخ الرئيسيون المرتدون قفاطين وعباءات رائعة، ولكنها ممزقة، كانوا يجلسون جميعاً فوق منصةٍ مرتفعة عن الجموع، ساندين ظهورهم إلى المبنى الرئيسي. ووراءهم، كان هناك عدد من الخدم والرجال المسلحين والعبيد

السود. عند اقترابنا، وقف الأمير وحاشيته وساعدونا على اعتلاء المنصة عبر درجات مبنية بكتل حجرية غير منتظمة. وبعد الإطراءات المعتادة، أجلسني الأمير على الديوان قربه وقدم لي الغليون، ثم بدأ العرض.

أُعطيت إشارة البدء بموسيقى الطبول والدفوف والمزامير الحادة ومثلثات حديدية كانت تُطرق بعصي حديدية: ثم تقدم أربعة أو خمسة ممثلين يرتدون ثياباً رديئة الذوق ومثيرة للسخرية، بعضهم ظهر بزي رجلٍ والبعض الآخر ظهر بزي امرأة وبدأوا يؤدون الرقصات الأكثر غرابة والأكثر خلاعة، والتي تستطيع أعين هؤلاء الهمج أن تتحملها. استمرت تلك الرقصات الغريبة أكثر من ساعة، تخللها من وقت إلى آخر بعض الكلام وبعض الحركات وتغيير للملابس، مما يدل على نيةٍ درامية معينة؛ ولكن الشيء الوحيد الواضح كان الانحطاط الفظيع والمقزز لأخلاق العامة والذي دلت عليه حركات الراقصين. غضضت طرفي؛ حتى أن الأمير نفسه احمرَّ من ملذات شعبه الفضائحية وبدر عنه ما بدر عني من لفتات تدل على الاحتقار، ولكن الهتافات وتهليل باقي المشاهدين كانت ترتفع دائماً عند المشاهد الأكثر فحشاً التي كانت تظهر في الرقص لتشيد بالممثلين على عرضهم.

بقي هؤلاء يرقصون حتى أعيوا من التعب وتصببوا عرقاً ولم يعد بإمكانهم تحمل الإيقاع المتسارع فهووا أرضاً ثم حُملوا. لم تحضر النساء العرض ولكن نساء الأمير – والحرملك يطل على الباحة – كُنَّ يستمتعن بالعرض من غرفهن ورأيناهن عبر المشربيات الخشبية وهنَّ يتهافتن إلى النوافذ لرؤية الراقصين. كان عبيد الأمير يحملون إلينا المثلجات والمربيات من كل صنف وكذلك المشروبات اللذيذة المكونة من عصير الرمان وماء الزهر المثلج والمحضرة في أكواب بلورية، وكان عبيد آخرون يعرضون علينا مناديل من الموسلين مطرزة بالذهب لمسح شفاهنا بعد الشرب. قدِّمت القهوة عدة مرات، وبعد قضاء نصف ساعة مع الأمير، بدا لي رجلاً حكيماً وعاقلاً أسمى من أن يكون أصلاً لتلك المباهج البذيئة لشعبه: هو رجل في الخمسين من عمره، ذو وجه

وسيم، سلوكه نبيل ومحترم وتهذيبه عظيم؛ وهو ما يمتلكه أبسط عربي وهبته إياه الطبيعة أو ورثه من حضارة قديمة. وكان لباسه وأسلحته من أعظم ما يمكن. وكانت خيوله الرائعة تنتشر في الباحات وفي الطريق؛ وقد قدم لي واحداً من أجملها؛ وسألني بتحفظ ورصانة شديدين عن أوروبا و«إبراهيم» وعن سبب رحلتي وسط الصحراء، فأجبته بتحفظ متكلف جعله يعتقد أن هدف زيارتي بعيد كل البعد عن زيارة الأعمدة والآثار. وقد عرض عليّ أن ترافقني كل قبيلته إلى «دمشق» عبر جبال «لبنان» الشرقية المجهولة بالنسبة لي والتي أود عبورها. قبلت بعضاً من الفرسان فحسب كأدلاء وحماة ثم انسحبت من مجلسه، وقد رافقني كل الشيوخ وتبعوني بخيولهم حتى باب المطران الرومي. أعطيت أمري بالرحيل في اليوم التالي ثم قضينا الليل نتحدث مع مضيفنا الجليل الذي سنتركه، وقد دفعت له مقابل ضيافته لنا بضع مئات من القروش كصدقة لرعيته. عرض المطران التكفل بإرسال جملٍ محمَّل ببعض قطع المنحوتات التي رغبت في حملها إلى أوروبا، وقد وفى تماماً؛ فحين عودتي من «سوريا» وجدت تلك القطع الثمينة قد وصلت قبلي إلى «بيروت».

٣١ آذار ١٨٣٣

غادرنا «بعلبك» عند الساعة الرابعة صباحاً؛ كانت القافلة تتألف من عددها المعتاد من النسوة والعرب والخدم والحرس ومن ثمانية فرسان من بعلبك يتقدمون القافلة بمئتي أو ثلاثمئة خطوة. بدأ الصبح ينبلج في الوقت الذي قطعنا فيه الرابية الأولى المؤدية صعوداً نحو سلسلة جبال لبنان الشرقية. كانت هذه الرابية قد بقرتها المقالع الواسعة والعميقة التي أخرجت الآثار العظيمة التي تأملناها لتونا. كانت الشمس قد بدأت تضفي لمعاناً ذهبياً على قمم تلك المقالع، فلمعت في السهل تحت أقدامنا وكأنها كتل ذهبية لم نستطع أن نشيح بأعيننا عنها، وتوقفنا عشرين مرة قبل أن تغيب كلها عن أنظارنا. وأخيراً غابت كلياً تحت الرابية ولم نعد نرى وراء الصحراء سوى الذرا الداكنة أو الثلجية لجبال «طرابلس» أو «اللاذقية» التي تداخلت مع القبة الزرقاء للسماء.

كانت الجبال القليلة الارتفاع التي قطعناها أولاً جدباء تماماً وشبه مقفرة. وكانت الأرض على العموم فقيرة وعقيمة؛ وعند وجود الزرع، كانت الأرض حمراء. ورأينا أودية جميلة بانحدارات متماوجة وغير قاسية يستطيع المحراث أن يجوبها دون عراقيل. لم نلتق أحداً، لا مسافرين ولا قرى ولا سكاناً، حتى منتصف النهار. استرحنا تحت خيماتنا عند مدخل شعب عميق يجري فيه سيل كان حينها جافاً. وجدنا نبعاً تحت صخرة غزر ماؤه وطاب؛ عبأنا من ذلك النبع جرارنا المعلقة على سروج خيولنا وبعد ساعتين من الراحة عاودنا السير.

مشينا، لمدة ساعتين تقريباً، بمحاذاة منحدر جبل صخري عالٍ وأجرد، عبر طريقٍ سريع ومتعرج. كان الوادي الذي بدأ شيئاً فشيئاً يرتسم إلى يميننا مشقوقاً بمجرى نهرٍ عريض دون ماء. ورأينا من الجهة الثانية جبلاً رماديّ الصخور قاحلاً تماماً ينتصب مثل سورٍ عمودي. استأنفنا هبوطنا نحو الطرف الآخر لذلك الشعب. سقط في المهوى حصانان من خيولنا المحملة بمتاعنا. وساعدت فرشات وسجادات الدواوين التي حملها هذان الحصانان في تلطيف الصدمة فتمكنّا من سحبهما. خَيَّمنا عند مخرج الشِّعْب، بالقرب من نبع ممتاز، وقضينا ليلتنا تلك وسط هذه المتاهة المجهولة لجبال «لبنان» الشرقية. لم تكن الثلوج تبعد أكثر من خمسين خطوة فوق رؤوسنا. أشعل العرب نار العوسج في مغارةٍ على بعد عشر خطوات من التل الصغير حيث نصبنا خيامنا. كان وهج النار يخترق نسيج خيامنا ويضيء داخلها حيث احتمينا من البرد. كانت الأحصنة تئنُّ ألماً رغم أنها كانت مغطَّاةً بلبادات مصنوعة من الصوف. طوال تلك الليلة بقينا نسمع فرسان «بعلبك» والجنود المصريين يئنُّون تحت معاطفهم من شدة البرد. حتى نحن لم نستطع تحمل لسعة هواء الألب القارسة تلك، رغم أننا تغطينا بمعاطف وأغطية صوفية سميكة. امتطينا خيلنا عند الساعة السابعة صباحاً، تحت شمسٍ مشعة جعلتنا نخلع معاطفنا وقفاطيننا الواحد تلو الآخر. عند الساعة الثامنة، مررنا بسهلٍ مرتفعٍ جداً، ثم مررنا بقريةٍ عربية، بيوتها واسعة وباحاتها مليئة بالماشية

والطيور كما في أوروبا. لم نستطع التوقف هناك؛ أهالي تلك القرية كانوا أعداءً لأهالي «بعلبك» وعرب «سوريا». إنهم أقوام شبه مستقلين، لهم علاقات أوثق مع سكان «دمشق» و«بلاد الرافدين»، ويبدو عليهم اليسر والهمة العالية. كل السهول المحيطة بالقرية مزروعة. رأينا رجالاً ونساءً وأطفالاً يعملون في تلك الحقول. ورأينا ثيراناً تحرث. كما قابلنا شيوخاً، عتادهم ينمّ عن يسر، ذاهبين إلى «دمشق» أو آتين منها، وكانت ملامحهم قاسية وشرسة؛ نظروا إلينا شزراً ومرّوا من دون أن يلقوا علينا التحية. وكان الأطفال يقذفوننا بالشتائم. في قرية ثانية، تبعد عن الأولى مسافة فرسخين، اشترينا بصعوبة بعض الدجاج وقليلاً من الأرز لعشاء القافلة. عند الساعة السادسة مساءً، خيَّمنا في حقلٍ مرتفع فوق شِعْب جبل يهبط باتجاه نهرٍ يلمع من بعيد. كان هناك سيل يجري متوثباً في الشّعب وسقينا منه خيولنا. وكان الطقس مازال قاسياً. انتصبت أمامنا، عند مصبِّ الشعب، قمم مسننة من الصخور المتجمعة في أهرام ضاعت في الأفق. لا نبات فوق تلك القمم. لون صخورها الأسود والرمادي يتعاكس مع صفاء السماء الزرقاء الذي تغوص فيه.

الأول من نيسان ١٨٣٣

امتطينا أحصنتنا عند الساعة السادسة صباحاً، في نهار رائع. تابعنا سفرنا طوال النهار، دون استراحة، بين جبال متعرجة لا يفصل بينها سوى شعاب ضيقة تجري فيها سيول الثلوج الذائبة. لم نرَ حتى شجرةً واحدة، ولا حتى طحلباً على منحدرات تلك الجبال. أشكالها الغريبة والمتكسرة تدل على آثارٍ بشرية. واحد منها كان ينتصب ضخماً وحاداً من كل الجهات وكأنه هرم قد يبلغ محيطه الفرسخ. ولا يفهم المرء كيف يمكن ارتقاؤه. لم يكن هناك أي أثر لطريقٍ أو لدرجات مرئية: ومع ذلك فإن هذه المنحدرات حوت كهوفاً من كل القياسات حفرتها يد الإنسان. كان هناك العديد من الحجرات الكبيرة والصغيرة التي نقش الإزميل أبوابها وأعطاها أشكالاً مختلفة. بعضٌ من تلك الكهوف التي انفتحت أفواهها فوق رؤوسنا كان لها مصاطب من الصخر الحي

أمام أبوابها. رأينا بقايا مصلَّيات ومعابد وأعمدة ما زالت منتصبة فوق الصخور: وكأن خلايا نحلٍ بشرية كانت هنا ثم هُجرت. يقول العرب إن مسيحيّي «دمشق» هم الذين حفروا تلك الكهوف. أعتقد أنها فعلاً أماكن معزولة لجأ إليها المسيحيون الأوائل في أزمنة الترهُّب أو الاضطهاد. لقد أسس القديس «بولس» كنيسةً كبيرةً في «دمشق». تلك الكنيسة التي بقيت مزدهرة لفترة طويلة، تعرضت للاضطهاد الذي عانته كل كنائس الشرق الأخرى.[١]

تركنا ذلك الجبل إلى يسارنا، ومن ثم إلى ورائنا. نزلنا بسرعةٍ نحو وادٍ أكثر انفراجاً وعرضاً، عبر مهاوٍ يكاد يستحيل المشي عليها. كان هناك نهرٌ ساحرٌ يملأُ الوادي. وبدأت النباتات تظهر على ضفاف النهر: انتصبت أشجار صفصاف وحَور، كما ارتفعت أشجارٌ ضخمة بأغصانٍ ملتفَّة بشكل غريب وبأوراق داكنة نمت داخل الأخاديد الصخرية القريبة من النهر. وتتبعنا تلك الضفاف السحرية لمدة ساعة، هابطين دائماً ولكن بشكلٍ تدريجي. ورافقنا النهرُ متمتماً ومزبداً تحت أقدام خيولنا. بدأت أعالي الجبال، التي تشكل الشعب الذي ينحدر منه النهر، تبتعد وتستدير مشكِّلةً قمماً جبلية عريضة ومشجرة ضربتها أشعة الشمس الغاربة؛ ها هو أول منفذٍ لنا إلى بلاد الرافدين: بدأنا، أكثر فأكثر، نميز الأودية العريضة المؤدية إلى السهل الكبير للصحراء الممتدة بين «دمشق» و«بغداد»[٢]. الوادي نفسه، حيث كنّا، بدأ يتعرج متلوياً ويتوسُّع. ورحنا نرى على يمين النهر ويساره آثار زراعةٍ، وبدأنا نلتقط أصوات قطعانٍ بعيدة. وكانت بساتين أشجار المشمش، الكبيرة كأشجار الجوز، تحد طريقنا من الجهتين. بعد قليلٍ، رأينا، ويا للمفاجأة، أسيجة تفصلُ بين البساتين والحدائق المزروعة بالخضار وبأشجارٍ مثمرة مزهرة، كما في «أوروبا». ورأينا حواجز وأبواباً خشبية تؤدي إلى

١ - لم يعرف تاريخ العلاقات بين الأديان ومعتنقيها تسامحاً كذاك الذي يشهد به تاريخ سورية، وتاريخ المسلمين في سورية مع المسيحيين وكثير من مواقف الغربيين ومنهم الرحالة بنيت على أسس غير واقعية.

٢ - بين دمشق وبغداد بادية وليس صحراء، ومعظمها يعرف ببادية الشام. ويطلق المؤلف كلمة صحراء على القفار والبادية.

داخل تلك البساتين الجميلة. كان الطريق واسعاً ومستوياً ومصاناً بشكل جيد كما في محيط مدينة كبيرة في «فرنسا». ولم يسمع أحد منا بوجود تلك الواحة الساحرة في قلب جبال «لبنان» الشرقية العصية. واتضح أننا نقترب من قريةٍ نجهل اسمها. التقينا فارساً عربياً قال لنا إننا قريبون من قرية كبيرة تُسمَّى «الزبداني» : ورأينا الدخان المتصاعد منها ينبعث بين ذرا أشجار الوادي. دخلنا شوارع القرية: كانت واسعةً ومستقيمة ومرصوفة من الجانبين. وكانت الدور المحاذية لتلك الطرقات كبيرة ومحاطة بباحات داخلية مليئة بالماشية وبحدائق مروية ومزروعة بشكل رائع. ظهرت النساء مع الأطفال عند أبواب الدور ليشاهدوا مرورنا، استقبلونا بملامح بشوشة ومبتسمة. استعلمنا عن وجود خانٍ للقوافل نستطيع المبيت فيه تلك الليلة، وكان الجواب أن «الزبداني» لا تحوي مثل تلك الخانات لأنها لا تقع على طريق القوافل.

بعد أن مشينا طويلاً في شوارع القرية، وصلنا إلى ساحةٍ كبيرةٍ على ضفةِ النهر. وهناك رأينا بيتاً أكبر من بقية البيوت، تتقدمه مصطبة وتحيط به الأشجار، فعلمنا أنه مسكن الشيخ. قدمت نفسي مع ترجماني، وسألت عن إمكانية المبيت في بيت ما. ذهب العبيد ليعلموا الشيخ فهرع بنفسه لملاقاتنا: إنه شيخ جليل، بلحيةٍ بيضاء وملامح بشوشة ولطيفة. قدم لي بيته بأكمله بحماسٍ وضيافةٍ لطيفة لم ألقَ مثلها في مكان آخر. في اللحظة نفسها، كان العبيد وسكان القرية الرئيسيين قد تكفلوا بخيولنا وقادوها إلى عنبرٍ واسعٍ، ونزعوا حمولتها، ثم جلبوا لها أكواماً من القش والشعير. ثم أخلى الشيخ غرفَ النساء، وأدخلنا أولاً إلى ديوانه حيث قدم لنا القهوة والمثلجات. وسألني إن كنت أرغب في أن يعد لنا عبيده وجبةً، فرجوته أن يسمح لطباخي بأن يوفر عليه ذلك العناء، وأن يزودنا فقط بعجل وبعض الخرفان لتجديد مؤننا المستنفذة منذ تركنا «بعلبك». بعد دقائق معدودة، جُلب العجل والخرفان وذبحها قصاب القرية، عرَّفنا الشيخ على السكان الرئيسيين للبلد وعلى أهله وأصدقائه. وطلب مني السماح لنسائه بزيارة السيدة «دى لامارتين» وقال لي إنهن يتحرقن لرؤية امرأة أوربية وتأمل لباسها

وحلِيّها. وبالفعل مرت نساء الشيخ، محجبات، من الديوان حيث كنّا، ودخلن إلى المخدع المخصص لزوجتي. كنّ ثلاثاً: واحدة منهنَّ كانت متقدمة في العمر ويبدو أنها أم الإثنتين الأخريين. أما الشابتان فقد كانتا جميلتين بشكل ملفت، ويبدو أنهما تكنان لتلك الأكبر سناً كثيراً من الاحترام والتوقير والحب. قدَّمتْ زوجتي لهنّ بعض الهدايا البسيطة، وبالمقابل قدمن لها من جهتهنّ هدايا أخرى.

أثناء تلك المقابلة، قادنا الشيخ الوقور إلى شرفةٍ نصبها على ضفة النهر، قريباً جداً من بيته. وهي عبارة عن جيزان، غُرست في قاع النهر نفسه وحُمّلت أرضية مغطاة بالبسط؛ وكان هناك ديوان يحيط بالشرفة وشجرة ضخمة، شبيهة بتلك التي رأيتها على حواف الطريق، كانت تظلل الشرفة والنهر برمته. وككل الأتراك،[1] يقضي الشيخ أوقات تسليته هنا بالقرب من همس الماء وبرودته، في ظل الأشجار، ويستمع إلى تغريد العصافير الكثيرة التي تقيم على تلك الأشجار. وكان هناك جسر من العوارض الخشبية يقود من البيت إلى تلك الشرفة المعلقة. كان ذلك من أجمل المواقع التي تأملتها في رحلاتي. ينزلق النظر على آخر القمم المستديرة والقاتمة لجبال لبنان الشرقية التي تعلو أهراماً من الصخور السوداء أو التي تعلو قمماً مسننة أخرى من الثلج؛ ثم ينزل النظر نحو النهر وأمواجه المزبدة بين القمم المتباينة لغابات الأشجار المتنوعة التي تخط مساره وتضيع معه في السهول الهابطة لبلاد الرافدين،[2] تلك السهول التي تنسلّ كخليج من الخضرة ضمن تعرجات الجبال.

جهز العشاء، فرجوت الشيخ أن يتقاسمه معنا. قبِلَ بكل رحابة صدر، وبدا مستغرباً من طريقة أكل الأوربيين. لم يكن قد رأى أياً من أدوات أكل الأوربيين. هو لا

---

١ - يقصد المسلمين.

٢ - إنه يخلط في الجغرافية، فبلاد الرافدين، العراق، بعيدة جداً عن الموقع الذي هو فيه: حيث الزبداني تقع شمال غرب دمشق بأكثر من ستين كم، وبين دمشق وبغداد أكثر من ٨٥٠ كم. إلا إذا كان يقصد بداية الطريق المتجهة إلى العراق.

يشرب النبيذ على الإطلاق ولم نحاول أن نقسره أو أن نعترض على ذلك. فضمير المسلم يجب أن يُحترم كما يُحترم ضميرنا. أن ندفع تركياً إلى الخطيئة بما ينافي ما يفرضه عليه دينه لهو بنفس رداءة وعبثية إغواء مسيحي. تحدثنا طويلاً عن أوروبا وعن أزيائنا التي بدا أنه معجب بها أشد الإعجاب. حدثنا عن طريقته في إدارة القرية. لقد حكمت عائلته هذه المقاطعة من جبال لبنان الشرقية منذ أجيال؛ إن حسن صيانة الممتلكات، والزراعة والشرطة والنظافة التي أعجبتنا، كل ذلك عائد إلى تلك السلالة الممتازة من الشيوخ. كما كل شيء في الشرق الأشياء استثناء. الخير ينتشر دون حدود كما الشر. استطعنا عبر تلك القرية الساحرة أن نحكم عما ستكون عليه تلك المناطق لو تُركت لخصوبتها الطبيعية.

أُعجب الشيخ بأسلحتي كثيراً، وخاصة بزوجٍ من المسدسات الدفعيَّة؛ ولم يستطع إخفاء رغبته في اقتناء تلك الأسلحة. لكنني لم أستطع تقديمها إليه لأنها أسلحتي في القتال وكنت أريد الاحتفاظ بها إلى حين عودتي من أوروبا. قدمت له ساعة يد ذهبية كهدية لزوجته. قبل الهدية بتعفف شديد كالذي يُظهره أي أوربي عندما يقبل هدية؛ وأظهر رضاه الكامل عن الهدية مع أنني لم أشك في تفضيله لزوج المسدسات. جلبوا لنا كمية من الوسائد والبسط لننام فبسطناها في ديوان الشيخ ونمنا على صوت النهر تحت أسرتنا.

غادرنا في اليوم التالي عند بزوغ النهار وقطعنا النصف الثاني لقرية «الزبداني»، وهو أجمل من القسم الذي رأيناه. أرسل الشيخ معنا بعضاً من رجال قبيلته مع خيلهم لحراستنا حتى دمشق، وهناك صرفنا فرسان أمير «بعلبك» لأنهم لن يكونوا بأمان على أراضي دمشق. مشينا لمدة ساعة في طرقات تحدها أسيجة من الأشجار، أسيجة كبيرة ومعتنى بها إلى أكبر حد كما هي في «فرنسا». كانت هناك مظلة من أشجار المشمش والإجاص تغطي الطريق؛ كانت البساتين تمتد يميناً ويساراً دون حدود وكانت هناك حقول مزروعة مليئة بالناس وبالقطعان. وكانت السواقي النازلة من الجبال إلى

اليسار تسقي تلك البساتين، وقمم الجبال مغطاة بالثلج، وكان السهل واسعاً، ولم تغب عن نظرنا إلا بسبب غابات من الشجر المزهر. بعد ثلاث ساعات من السير وسط تلك المناظر الجميلة المشابهة لمناظر «إنكلترا» أو «لومباردي»، دون أن يذكرنا شيء بالصحراء أو الهمجية، دخلنا أراضي مجدبة ووعرة. واختفت النباتات بشكل كامل وامتدت أمامنا روابٍ صخرية تكاد تغطيها الطحالب الصفراء، وكانت تحدها جبال رمادية قاحلة أكثر ارتفاعاً. استرحنا تحت خيامنا عند سفح تلك الجبال بعيداً عن أي مسكن. قضينا الليلة عند حافة سيل محتبس يدوي كرعد دون نهاية في شعب من الصخور ويسيل فيه ماء عكر وندف من الثلج.

ركبنا خيولنا عند الساعة السادسة. إنه نهارنا الأخير؛ أتممنا ارتداء ثيابنا التركية كي لا نُعرف كإفرنج في محيط «دمشق». ارتدت زوجتي زي النساء العربيات وملاءة من الشاش الأبيض لفتها من رأسها إلى قدميها. حسّن العرب أيضاً في هندامهم وهيأتهم، ثم أشاروا بأصابعهم إلى الجبال المتبقية لنا لنقطعها هاتفين: «الشام! الشام!» إنه الاسم العربي لـ «دمشق». إن تعصب سكان دمشق والبلاد المجاورة يتطلب من الإفرنج الذين يغامرون بزيارة تلك المناطق أن يأخذوا كل هذه الاحتياطات.

لقد تشبث الدمشقيون برفضهم دخول قنصل «إنكلترا» العام أبواب «دمشق»، رغم تهديدات الباب العالي ورغم التدخل المخيف لـ «إبراهيم باشا» ورغم حامية عسكرية من اثني عشر ألف جندي مصري وأجنبي. هبت المدينة في عصيانين رهيبين لسماعها فقط خبر اقتراب هذا القنصل. لو لم يغير طريقه لقُطّع إرباً. الأشياء على حالها في «دمشق»؛ إن وصول أوربي بثياب إفرنجية هو إشارة لانفعال جديد، ونحن قلقون من أن يكون خبر مسيرتنا قد وصل إلى «دمشق» وأن يعرضنا لمخاطر جدية؛ فأخذنا كل الاحتياطات الممكنة. لبسنا كلنا لباساً أقرب ما يكون إلى اللباس التركي. هناك أوربيٌ واحد أخذ عادات ولباس العرب، وانتحل شخصية تاجر أرمني، هو

الوحيد الذي عرّض نفسه منذ سنوات لخطر السكن في مدينة كـ «دمشق» أراد أن يكون فيها مفيداً للتجارة البحرية وللمسافرين الذين تدفعهم الأقدار إلى هذه المناطق. إنه السيد «بودان»، القائم بالأعمال القنصلية لـ «فرنسا» و«أوروبا». إنه وكيل الليدي «ستانهوب» الذي رافقها في رحلاتها الأولى إلى «بعلبك» و«تدمر»، ثم استخدمته الحكومة الفرنسية للحصول على خيول من الصحراء. السيد «بودان» يتكلم العربية كعربي وقد أقام أواصر صداقة مع كل قبائل البدو الرحل المحيطة بـ «دمشق». تزوج من امرأة عربية من أصل أوربي، وهو يعيش في «دمشق» منذ عشر سنوات؛ ورغم العلاقات العديدة التي أقامها، فإن حياته تعرضت لخطر التعصب الغاضب لسكان المدينة. لقد أُجبر مرتين على أن يفر من موتٍ أكيد. بنى لنفسه منزلاً في «زحلة»، تلك القرية المسيحية الصغيرة على سفوح جبل «لبنان»، حيث يلجأ إلى هناك في أوقات الغضب الشعبي. إن السيد «بودان»، المعرض بشكل دائم لخطر الموت، وهو وسيلة الاتصال الوحيدة في هذه العاصمة الكبيرة، يمثل الحلقة السياسية والتجارية الوحيدة لأوروبا، يتلقى من الحكومة الفرنسية كأجر مقابل كل الخدمات التي يؤديها مبلغ ١٥٠٠ فرنك؛ بينما يتلقى القناصل في موانئ الشرق الأخرى، والمحاطون بكل أسباب الحماية ودعة العيش، عائدات ضخمة ومشرّفة. إنني لا أفهم باسم أي إهمالٍ وأي ظلمٍ تهمل الحكومات الأوربية، وخاصة الفرنسية، شاباً ذكياً ونزيهاً وخدوماً وشجاعاً وفعالاً مثل السيد «بودان» وهو الذي أدى وسيؤدي أكبر الخدمات لوطنه. سيفقدونه!

عرفت السيد «بودان» في «سوريا» السنة الماضية واتفقت معه حول رحلتي إلى «دمشق». حين تيقنت من موعد مغادرتي ومن موعد وصولي المقبل، بعثت له هذا الصباح رجلاً عربياً ليعلمه بموعد اقترابي من محيط «دمشق» راجياً إياه أن يبعث لي بدليلٍ لإرشادي في خطواتي وتحركاتي.

عند الساعة التاسعة، مشينا بمحاذاة جبلٍ مغطى بالبيوت القروية وبحدائق سكان «دمشق». وكان هناك جسرٌ يقطع سيلاً عند سفح الجبل. رأينا قوافل من الجمال المحملة بالحجارة من أجل أبنية جديدة؛ كل شيء كان يدل على اقترابنا من

عاصمة كبيرة. بعد ساعة، لاحظنا وجود مسجد معزول فوق إحدى الأكمات، ويقيم فيه أحد المتنسكين المسلمين؛ وكان هناك سبيل يجري بالقرب من المسجد، وسلسلة من الطاسات النحاسية المعلقة بكثرة قرب النبع لإرواء المسافر. استرحنا لبرهة في ذلك المكان، في ظل جميزة؛ كان الطريق مليئاً بالمسافرين واالقرويين والجنود العرب. عاودنا الارتقاء، ممتطين خيولنا، وبعد أن صعدنا بضع مئات من الخطوات، دخلنا في مسار عميق محتبس من اليسار بجبلٍ من الصخور المتبلورة العمودية فوق رؤوسنا ومن اليمين بنتوء صخري يتراوح ارتفاعه ما بين ثلاثين وأربعين قدماً؛ وبعدئذٍ هبطنا بسرعة وكانت الحجارة المتدحرجة تنزلق تحت أقدام خيولنا. كنت أسير في مقدمة القافلة على بعد بضع خطوات من عرب «الزبداني». وفجأة توقفوا وأطلقوا صيحات فرح وهم يدلونني على فجوة في صخور الطريق؛ اقتربت وغاصت عيني عبر تلك الفجوة إلى أروع وأغرب أفق أدهش نظر إنسان: إنها «دمشق» وباديتها المترامية الأطراف على بعد بضع مئات من الخطوات تحت قدمي. تقع العين أولاً على المدينة المحاطة بأسوار الرخام الأصفر والأسود والمليئة بالأبراج المربعة المشيدة بين مسافة وأخرى والمكللة بالحزيات المنحوتة، وتحيط بها غابة من المنارات من كل الأشكال، ويشقها نهرٌ بسبعة فروع وبعدد لا ينتهي من السواقي، تلك المدينة تمتد على مد النظر ضمن متاهة من الحدائق المزهرة، تمد أذرعها الضخمة هنا وهناك في ذلك السهل الواسع، مُظَلَّلَةً من كل جانب ومحاطة بغابة (يبلغ محيطها عشرة فراسخ) من أشجار المشمش والجميز والأشجار الخضراء من كل صنف. تبدو هذه المدينة وكأنها ستضيع تحت قبة الأشجار ثم تعاود الظهور بعد ذلك على شكل بحيرات من البيوت والضواحي والقرى؛ إنها متاهة من الحدائق والبساتين والقصور والسواقي تضيع العين فيها ولا تترك مشهداً سحرياً إلا لتجد غيره. توقفنا عن السير؛ متعجلين كلنا النظر عبر تلك الفتحة الصخرية المثقوبة كنافذة، لنتأمل، تارةً بتعجب وتارةً بصمت، هذا المشهد السحري الذي كان يمر، فجأةً، وبكامله تحت أعيننا، عند نهاية طريق، عبر تلك الصخور وتلك العزلة القاحلة، عند بداية بادية أخرى تمتد حتى «بغداد» و«البصرة» ويلزم لعبورها أربعين يوماً.

وأخيراً عاودنا السير، كان حاجز الصخور الذي يخفي عن أعيننا السهل والمدينة قد بدأ بالانخفاض تدريجياً، تاركاً لنا الاستمتاع بالأفق كله، لم نعد نبعد عن أسوار محيط المدينة سوى خمسمائة خطوة. كانت تلك الأسوار، المحاطة بمظلات فاتنة وببيوت ريفية ذات أشكال وأنماط عمارة شرقية جداً، تلمع وكأنها زنار ذهبي يحيط بدمشق. الأبراج المربعة التي تكتنفها، وترتفع فوق سطحها، كانت مرصَّعة بالرقوش التي تخترقها أقواس قوطية مدببة بأعمدة صغيرة نحيلة، كأنها قصبات مقرونة فيما بينها ومضبوطة بحزيات على شكل عمائم؛ وكانت الأسوار مكسيَّة بالحجر أو بالرخام الأصفر والأسود. ولتنويع ذلك التناظر الأنيق، كانت ذرا أشجار السرو، التي ترتفع من الحدائق ومن داخل البيوت، تتراقص فوق الأسوار والأبراج وتكللها بخضرةٍ قاتمة؛ أما قباب المساجد العديدة وقصور هذه المدينة ذات الأربع مئة ألف ساكن، فتعكس أشعة شمس المغيب؛ وكانت مياه الأنهر السبعة البراقة تتلألأ وتختفي الواحدة تلو الأخرى بين الشوارع والحدائق؛ وكان الأفق خلف المدينة لا يحده شيء كأنه البحر، يختلط مع الحدود القرمزية للسماء النارية والتي ما زال وهج رمال الصحراء الكبيرة يوقدها. إلى اليمين، كانت قمم جبال لبنان الشرقية العالية والواسعة تهرب الواحدة تلو الأخرى، تتقدم تارةً كأنها مطلات فوق السهل وتنفتح تارةً أخرى كأنها خلجان عميقة يغيب فيها السهل بغاباته وقراه الكبيرة التي يضم بعضها حتى ثلاثين ألف نسمة؛ والتمعت فروع النهر وبحيرتان كبيرتان ضمن قتامة اللون الأخضر الذي يعم المكان والذي تبدو «دمشق» غائصة فيه؛ إلى اليسار منّا، انفرج السهل أكثر فأكثر، وابتعد عن قمم الجبال اثني عشر أو خمسة عشر فرسخاً : قمم بيضاء ثلجية، تلمع في السماء الزرقاء كالغيوم فوق المحيط. المدينة محاطة، بكاملها، بغابة من بساتين الأشجار المثمرة حيث تتعانق الكروم، كما في «نابولي»، تلك المدينة الإيطالية، وتمتد كشرائط زخرفية بين أشجار التين والمشمش والإجاص والكرز. وتحت تلك الأشجار، كانت الأرض الخصبة والمروية بشكل دائم، مفروشة بالشعير وبالقمح وبالذرة وبكل النباتات القرنية التي

تنتجها تلك الأرض. واخترقت بعض البيوت البيضاء هنا وهناك خضرة تلك الغابات، إنها مسكن البستاني أوهي مكان راحة وتنزه لعائلة المالك. هذه الحدائق مأهولة بالأحصنة والخرفان والجمال واليمام وكل ما يحيي مشاهد الطبيعة؛ تبلغ مساحة الواحدة من هذه المزارع فدانًا أو فدانين، وتنفصل واحدتها عن الأخرى بجدران من الطين المجفف بالشمس وبأسيجة من الأشجار، ويمر بين تلك المزارع العديد من الطرقات المظللة التي تمر فيها ساقية من الماء الجاري، وتؤدي هذه الطرقات إلى شتى الضواحي أو إلى بعض أبواب المدينة؛ وتشكل شعاعاً محيطاً بـ «دمشق»، يبلغ طوله من عشرين إلى ثلاثين فرسخاً.

سرنا صامتين لبعض الوقت في أولى متاهات البساتين هذه، وكنا قلقين من عدم مجيء المرشد الذي ننتظره. استرحنا، ثم ظهر المرشد أخيراً، كان أرمنياً مسكيناً، هندامه سيئ ويلف عصابة سوداء حول رأسه، اقترب من القافلة دون تكلف، وجه لنا الكلام وأعطانا إشارة وبدل أن ندخل من الضاحية ومن الباب مقابلنا تبعناه على طول الجدران، كلها تقريباً، عبر متاهة من الحدائق والمظلات، ودخلنا من بابٍ شبه خاوٍ مجاور لحي الأرمن. دارُ السيد «بودان»، الذي أعدّ لنا بكل رحابة صدر مبيتاً في ذلك الحي. لم يقل لنا شيئاً عند الباب الأول للمدينة، وبعد أن تجاوزناه، حاذينا طويلاً أسواراً عالية ذات نوافذ مشبكة؛ ومن الجهة الثانية للشارع رأينا قناة عميقة من المياه الجارية تدفع نواعير عدة مطاحن. توقفنا في نهاية ذلك الشارع وسمعت شجاراً بين العرب والجنود الذين يحرسون باباً ثانياً داخلياً، فلكل حي بابه الخاص. كنت أرغب أن نبقى مغفلي الهوية وأن تمر قافلتنا كقافلة تجار من «سوريا»، ولكن الشجار طال وأصبح أكثر صخباً حتى أن الناس كانوا قد بدأوا بالتجمع حولنا، دفعت بمهمازي حصاني وتقدمت إلى رأس القافلة. كان سبب الشجار أن حراس القوات المصرية كانوا قد لاحظوا بندقيتي صيد لم يخبئهما خدمي بشكل جيد تحت أغطية الأحصنة،

فرفضوا إدخالنا؛ إنه فرمان من «شريف بك»، الحاكم الحالي لـ «دمشق»، يمنع إدخال الأسلحة إلى المدينة حيث يُخشى كل ليلة من الفتن ومن تذبيح القوات المصرية. لحسن الحظ كان بحوزتي رسالة قريبة التاريخ من «إبراهيم باشا»،[1] سحبتها وقدمتها للضابط قائد الدورية، فقرأها وقرّبها من جبينه وشفتيه وأدخلنا مع اعتذار ومديح شديدين. تهنا لبعض الوقت في دوامة مظلمة من الشوارع المتسخة والضيقة والمؤلفة من بيوت صغيرة ومنخفضة، بدت جدرانها الطينية وكأنها ستنهار علينا؛ ورأينا، عند النوافذ، عبر المشابك، الوجوه الساحرة للفتيات الأرمنيات اللاتي كنّ يتهافتن، عند وقع خطوات طابور خيولنا، ليكلمننا ويسلمن علينا ويعبّرن لنا عن ودهنّ. توقفنا أخيراً عند بابٍ منخفض وضيق، في شارع لا يكاد يتسع لمرور المرء؛ ترجلنا عن أحصنتنا، وتجاوزنا دهليزاً مظلماً ومنخفضاً جداً، ووجدنا أنفسنا، وكأنه بفعل السحر، في باحة مبلطة بالرخام، ومظللة بشجر الجميز، ومبردة بمياه نافورتين من الطراز الأندلسي ومحاطة بأروقة من الرخام وبقاعات مزينة تزييناً غنيّاً: كنا عند السيد «بودان». كان بيته، ككل بيوت المسيحيين في دمشق، كوخاً متواضعاً من الخارج وقصراً فاتناً من الداخل[2] إن طغيان الرعاع المتعصب يجبر أولئك المساكين على إخفاء غناهم ونعيمهم تحت مظاهر البؤس والخراب. أنزلنا أمتعتنا عند الباب، وملأنا الباحة بأربطتنا وخيامنا وسروجنا، وقدنا أحصنتنا إلى خان البازار.

أعطى السيد «بودان» لكلٍ منا غرفةً جميلة مؤثثة وفق الطراز الشرقي، ثم استرحنا فوق دواوينه ومائدته المضيافة من تعب طريقٍ طويلة. إن رجلاً معروفاً ومحبوباً يلتقيه المرء وسط حشود أجنبية وعالم غريب لهو وطنٌ بأسره؛ هذا ما شعرنا

١ - لعل في رسائل إبراهيم باشا إلى المؤلف سراً لم يفصح عنه سابقاً وكان يشير فقط إلى التوصيات والأوامر الموجهة من الباشا إلى الحكام في الولايات والأماكن التي يمر بها لامارتين.

٢ - هذه هي حال البيوت الدمشقية القديمة عموماً في ذلك الزمن، مظهرها لا يدل على دواخلها.

به عند السيد «بودان»؛ وقد بقيت الساعات الطويلة التي أمضيناها مساءً نتحدث عن أوروبا وآسيا، في ضوء مصباحه وعلى صوت نافورة داره، محفورة في ذاكرتي وفي قلبي كأجمل وألذ استراحة عرفتها في رحلتي.

إن السيد «بودان» واحد من الرجال القلائل الذين جعلتهم الطبيعة قادرين على كل شيء: ذكاء حاد، وقلب قوي ومستقيم، ونشاط لا يكل ولا يتعب؛ فهو يتأقلم مع كل شيء: مع «أوروبا» أو «آسيا»، مع «باريس» أو «دمشق»، مع البر أو البحر، ويجد سعادته وسكينته في كل مكان، وذلك لأن روحه تسلّم، كما روح المسلم، للقانون الكبير الذي يجعل عمق المسيحية والإسلام هو الخضوع لأمر الله، ولأنه يحمل في داخله نشاط النفس وحذاقتها وهي الروح الثانية للأوربي. لقد أخذت لغته وهيئته وحركاته كل الطباع التي أرادت ثروته أن تضفيها عليه. عند رؤيته يتحدث عن «فرنسا» وعن سياستنا المضطربة، خلناه رجلاً وصل البارحة من «باريس» وسيعود إليها في اليوم التالي؛ وعند رؤيته ممدداً فوق ديوانه – بين تاجر من «البصرة» وحاج تركي من «بغداد»، يدخن الغليون أو النرجيلة ويمرر بتكاسل حبات سبحته الشرقية الكهرمانية بين أصابعه، وعصبته على جبينه، وبابوجه في قدميه، متلفظاً بكلمة كل ربع ساعة عن سعر القهوة أو الفرو – خلناه تاجرَ عبيد أو حاجّاً عائداً من «مكة». ليس هناك من إنسان مكتمل إلا ذلك الذي سافر كثيراً وغيَّر أسلوب تفكيره وحياته عشرين مرة. إن العادات الضيقة والأحادية الشكل التي يتخذها الإنسان في حياته اليومية وضمن رتابة وطنه ما هي إلا قوالب تُضيِّق كل شيء: الفكر والفلسفة والدين والشخصية، كل شيء سيكون أكبر وأعدل وأصدق عند ذلك الذي رأى الطبيعة والمجتمع من وجهات نظر مختلفة. هناك رؤى مختلفة للكون المادي والفكري. السفر للبحث عن الحكمة كانت مقولة الأقدمين العظيمة، ولكننا لم نفهمها، فهم لم يكونوا يسافرون للبحث عن العقائد المجهولة ودروس الفلسفة فحسب، بل ليروا كل شيء ويحكموا على كل شيء. من

جهتي أُصْدَم دائماً بالطريقة المحدودة والدنيئة التي نتصور بها الأشياء والمؤسسات والشعوب، وإن كبرت نفسي واتسع نظري وتعلمت أن أتسامح في فهم كل شيء، فإني أدين بذلك إلى كوني غالباً ما كنت أغيِّر المشهد ووجهة النظر. أن ندرس القرون عبر التاريخ، والإنسان عبر الرحلات والله عبر الطبيعة، تلك هي المدرسة الكبرى. إننا ندرس كل شيء في كتبنا البائسة ونفهم كل شيء عبر عاداتنا الصغيرة المحلية، ولكن مَن رسَّخ تلك العادات وكتب تلك الكتب؟ إنهم ليسوا إلا أناساً صغاراً مثلنا. فلنفتح كتاب الكتب: ولنعش، ولنشاهد، ولنسافر: فالعالم ليس إلا كتاباً تفتح لنا كل خطوة فيه صفحة جديدة، وماذا يعرف ذلك الذي لم يقرأ إلا صفحة واحدة من هذا الكتاب؟

****

الجـزء الثانـي

ترجمة: **ماري طوق**

تمهيـد

يحتل كتاب «رحلة إلى الشرق» للأديب والشاعر الفرنسي ألفونس دو لامارتين Alphonse de lamartine (١٧٩٠ – ١٨٦٩) مركز الصدارة في حياته الأدبية بشكل عام وفي الكتابة النثرية بشكل خاص. على غرار الأدباء والرحّالة الأجانب الذين أمّوا الشرق منذ القرون الوسطى، باشر لامارتين رحلته الطويلة برفقة زوجته وابنته و«موكبه الأميري» عام ١٨٣٢ وامتدت زهاء سنتين محفوفتين بالأخطار والفجائع واللقاءات المذهلة والمشاهدات الحصيفة والصداقات المؤثّرة، زار خلالها لبنان وسوريا وفلسطين واليونان وتركيا ومناطق البلقان؛ رحلة مميزة أسست لتقليد عريق في هذا النوع الأدبي الذي أكمله من بعده كبار أدباء القرن التاسع عشر منوعين نبراتهم ومفتتحين الطريق إلى الرؤية المعاصرة لأدب الرحلات.

ارتدى السفر إلى الشرق في القرون الوسطى الأوروبية طابع السعي الديني الروحي والطبيعي (المختص بعلم الطبيعيات) . أمّ الرحالة الشرق متتبعين الطريق لتثبيت إيمانهم الديني، فالشرق مهد الديانات. كان مسارهم الروحي يمر باختبارات قاسية ملؤها الأخطار من عوامل مناخية وعواصف وقطاع طرق وأمراض معدية وأوبئة عاثت بالمدن التي جالوها خرابًا، وصولاً إلى مرحلة التطهر النهائي في الأراضي المقدسة الواعدة بالسماء والسعادة الأبدية . من النادر أن تعثر عند رحالة القرون الوسطى والقرن السادس عشر على سرد محبوك بشكل متين أو مقاربة فكرية جدية للمشاهدات والأحداث التي توالت أمامهم. كانت قصص رحلاتهم أقرب إلى «الجردة» أو إلى بيان يعددون فيه ما صادفوه في طريقهم منها إلى المغامرة أو الاعتراف الحميم .كانت أقرب إلى مخزن الغرائب منها إلى الشهادة، وتأكيدًا على الأحكام المسبقة المتوارثة عن الشرق بدل السعي إلى دحضها أو مجادلتها على الأقل . ولم يتجلَّ هذا

الدافع المعاصر للرحلات، أي مراقبة المجتمعات الأخرى والمقارنة بينها وبين المجتمعات الأصل بشكله الأمثل، إلا في القرن الثامن عشر أي ما يسمى عصر الأنوار نظرًا للروح النقدية التي أشاعها الفكر الفلسفي آنذاك، وهذا الميل لمراجعة كل الأشياء على ضوء العقل.

منذ أواخر القرن السابع عشر، قام جان – باتيست تافرينيه Jean - Baptiste Tavernier، وهو رحّالة فرنسي، برحلته راويًا أسفاره الستة في تركيا وبلاد فارس والهند التي امتدت على أربعين عامًا، جال خلالها كل الدروب الممكنة مصحوبًا بكتاب ملاحظاته عن الديانات والأنظمة والتقاليد والعلاقات الاجتماعية والتجارية، مستخلصًا أن هناك شعوبًا في آسيا لا تقل أهمية عن شعوب أوروبا لكنها مختلفة عنها في كل شيء . وهكذا مهدّت رحلات تافرينيه لهذه النظرة النسبية التي تعيد النظر في أفكار الغربيين المكتسبة عن الإنسان المشرقي، ولكن الرحلة المفصلية هي تلك التي قام بها قسطنطين فرانسوا فولني Constantin François Volney إلى الشرق عام ١٨٧٣، وتحديدًا إلى مصر وسوريا (كانت سوريا آنذاك تعني لبنان وسوريا حاليّاً والأردن وفلسطين والعراق) لم يأتِ فولني، كسائر الرحّالة، بدافع الفضول فقط بل لاستطلاع أحوال المنطقة أيضًا فخالط سكانها وعايشهم بمعزل عن التراجمة لأنه تعلّم لغتهم وأتقنها كتابة ومكالمة وتوغّل في أطراف البلاد ملمّاً بعاداتها وشرائعها . توخى فولني في سرد الوقائع المحافظة على الروح التي طبعته لدى بحثها وحبه المجرّد للحقيقة فرأى الرحلات ملك التاريخ لا الرواية.

«بدا لي، يقول فولني، أن سوريا ومصر بماضيهما وحاضرهما حقل صالح لما أردت الانصراف إليه من الأبحاث السياسية والأخلاقية، قلت في نفسي إن معظم المذاهب التي تسوسنا قد نشأت في تلك الأصقاع . ومن هناك انبثقت الأفكار التي أثرت أبلغ التأثير في خلقياتنا العامة والخاصة وفي شرائعنا ومجمل أحوالنا

الاجتماعية . فمن الجدير بالاهتمام التعرف إلى الأماكن التي ترعرعت فيها تلك المذاهب وإلى العادات والأخلاق التي عملت على تكوينها وطبائع الأمم التي دانت بها».

عُني معظم الرحالة آنذاك بالأبحاث الأثرية أكثر منهم بالتطرق إلى أوضاع البلدان الحديثة، وكان أكثرهم اجتازوا البلاد بسرعة، لذا افتقروا إلى وسيلتين أساسيتين وهما الوقت والإلمام باللغة . ولم ينقص فولني الوقت لابداء الحكم الصادق السليم إذ كان مدركًا أن منظر الأشياء الجديدة يثير الدهشة لأول وهلة ويلقي التشويش في العقول، من هنا اعتبر كتاب فولني «رحلة إلى مصر وبر الشام» مرجعًا قيّمًا وقيل إن كتابه هذا لم يكن يفارق طاولة سرير نابوليون وقد استند إليه في خطته الهادفة إلى غزو الشرق.

ثم جاءت حملة نابوليون على مصر وبلدان الشرق عام (١٧٩٨-١٧٩٩) لتضخ دمًا جديدًا في شرايين الرحلات. صحيح أن الحملة لم تنجح على الصعيد العسكري لكنها كانت من الأسباب التي أدت إلى نهضة الشرق الفكرية الحديثة. لامارتين نفسه يتحسر لكون نابوليون أراد أن يكون سيد أوروبا بدل أن يكون سيد الشرق ويبذل قصارى جهده لتحرير هذه البلدان وتحقيق الحلم الذي طالما راوده وهو «بناء أكبر مسجد في العالم لكي يستطيع المصريون والفرنسيون أن يصلوا سوية». كان لحملة نابوليون تأثير بالغ الأهمية لأنه لأول مرّة منذ ستمئة سنة تلتقي أوروبا بالشرق، فقد اصطحب معه نابوليون العلماء ليعملوا أو يدرسوا ويواصلوا أبحاثهم بالإضافة إلى جمهرة من الزراعيين والفنانين والكتّاب. إلا أن الرحلات إلى الشرق احتلت مكانة مميزة في القرن التاسع عشر ليس فقط بسبب حملة نابوليون الشهيرة على مصر ولا نظرًا للسهولة الجديدة التي أتاحها تطور المواصلات البحرية فحسب بل مردُّ ذلك أيضًا إلى الروح الرومنطقية التي سيطرت بشكل خاص على النصف الأول من ذلك القرن، نمّت الروح الرومنطيقية، بدافع من منطقها بالذات هذه النزعة إلى التغرّب والإغرابية

(Exotisme) والمغامرة البعيدة الحافلة بالمفاجآت والمنطوية على انفعالات جديدة كانوا بأمس الحاجة إلى تأجيجها من خلال اكتشاف حضارات أخرى. لكأن الرومنطيقيين لا يكتفون بتاريخهم فقط بل يحتاجون للغرف من مناهل أخرى.

كل أدباء ذلك القرن، وأكبرهم، أعدّوا الهمة للابحار إلى الشرق:

شاتوبريان Chateaubriand، لامارتين، جيرار دو نرفال Gérard de Nerval، غوستاف فلوبير Gustave Flaubert، تيوفيل غوتييه . Théophile Gautier كلهم سكنهم حلم السفر وتأبطوا كتابًا أو سافروا لمتعة السفر. لا هم، المهم هو السفر، فالعصر يدعو إلى ذلك لا بل يجعل منه ضرورة قصوى.

انطلق شاتوبريان في رحلته إلى الشرق عام ١٨٠٦. ذهب إلى هناك بهدف أن يعثر على الألوان المحلية التي تناسب كتاب «الشهداء» لكنه في الواقع لم يذهب فقط بدافع الإلهام الأدبي كان يستسلم أيضًا لتجربة الشرق التي حفّزتها رحلات تافرينيه وفولني. دامت رحلته مئة واثنين وثلاثين يومًا قضى منها ثلاثة أسابيع في القدس.

أما جيرار دو نرفال فأبحر إلى الشرق عام ١٨٤٣ أي بعد لامارتين بعشر سنوات تقريبًا مواصلاً هوى الرومنطيقيين إلى التغرّب والتجدد واكتشاف الذات من جديد من خلال الاتصال بغنى الشرق. زار الإسكندرية ومصر وبيروت أو القسطنطينية، ولم يكتف بارتياد المحال والأسواق ومشاهدة الحكواتيين العرب والدراويش، بل حاول اكتشاف عالم الرموز الروحية والمسارات الغامضة وسارع فور عودته إلى فرنسا إلى تجميع ملاحظاته في كتاب سمّاه أيضًا «رحلة إلى الشرق».

وانطلق صديقه تيوفيل غوتييه إلى الشرق عام ١٨٤٥ . حاول في كتابه «القسطنطينية» ألا يقع في فخ الصور الجاهزة التي رسمها الرحالة عن الشرق وألا يهتم إطلاقًا للمسائل السياسية. ففيما كان جميع الرحالة والسياسيين يمعنون في

إطلاق افتراضاتهم حول مستقبل السلطنة العثمانية، وجّه غوتييه انتباهه إلى التفاصيل الصغيرة، فالجهد في الوصف التصويري بالنسبة له لا ينفصل عن الإغرابية بالمعنى الكامل للكلمة أي يرمي إلى إعادة تقييم للمعايير الجمالية وتجديدها.

وعلى خطى غوتييه وسابقيه، انطلق غوستاف فلوبير الروائي الشهير الذي كتب «مدام بوفاري» ورواية تاريخية مستوحاة من مملكة قرطاجة في تونس وتدعى «سالومبو» في رحلة إلى الشرق برفقة صديقه ماكسيم دوكان، أمضى فلوبير أكثر من سنة في مصر والشرق الأوسط وجال في المغرب خلال شهرين ثم اليونان . خلافًا لمعاصريه، لم ينشر فلوبير أيّاً من الملاحظات في كتاب خاص عن الرحلات. لكن بعض الملاحظات التي تضمنتها رسائله تشير إلى تلك النبرة المميزة في تعاطيه مع الموضوع والتي تخطت بموضوعيتها ليس فقط زمانه بل زماننا أيضًا: الحدث والواقعة الثقافية والذهنيات والعادات الشرقية موصوفة من ضمن منطقها بالذات ومن خلال اختلافها الأكيد عن عادات الغربيين وتقاليدهم. كانت العين التي رأى من خلالها فلوبير الشرق عين الحداثة التي تصف دون ادعاء أو فوقية أو فقدان هوية، عين متنبهة تحاول دومًا أن تتمثل الآخر بشكل أفضل.

أما لامارتين في كتابه «رحلة إلى الشرق» فأراد كمثل كبار الرومنطيقيين أن يخلق آفاقًا جديدة للإلهام الأدبي والفني فهو يرى في الشرق موطن الخيال الأول. واللافت في كتابه الوجوه المتعددة لإبداعه فهو السياسي الذي يحاول أن يستقصي أحوال المجتمعات محاولاً النفاذ إلى حالة العصور الغابرة على ضوء الحالة الحاضرة، وإطلاق أحكام تجاور فيها القسوة المرنة التفهم الذكي للأمور. وهو لامارتين الرسّام الذي يتبارى مع لامارتين الأديب والشاعر في داخله. ريشته العاشقة للجمال تلتقط الألوان وفوارقها الدقيقة وترسم الخرائب والمناظر والصروح جاعلةً منها لوحات فنية بديعة. وهو المصوّر لعادات الناس الذين التقى بهم تصويرًا دقيقًا دون أي عصبية دينية وإن تكن خلفيته الروحانية المشبعة بوجدانية مسيحية قد طبعت آراءه وتأملاته إلا أنها

خلفية منفتحة على الآخر ومنسجمة مع قناعاتها. يسترسل لامارتين في وصفه المناظر والناس منقبًا في أماكن الشرق عن الجمال ليخرجه في قالب لغة شعرية. إنه أيضًا الوصف المقرون بالتأمل الفلسفي والديني والسياسي والميتافيزيقي وربما كانت هنا الإضافة الجديدة للامارتين . الكتاب مُطعّم إذًا بهذه اللحظات الصافية من التأمل الذي تكتنفه الكآبة الرومنطيقية لكنه لا يقف عند حدودها بل يتعداها إلى استشفاف مستقبل الشرق والإنسانية والحلم بغد أفضل لهذه البلدان، تركة «الرجل المريض» أي البلدان التي أخضعتها السلطنة العثمانية . يعتبر لامارتين أن مسقبل الإنسانية يتمثّل في الديمقراطية السياسية معتبرًا أن الملكية هي الشكل الوحيد القابل للحياة وأداة الحضارة المتلائمة مع رسوم الإرادة الإلهية.

لكن هذه الإرادة الإلهية خصّت أوروبا، وفرنسا تحديدًا، بقدر سامٍ للغاية وهو حمل الحضارة وافكار الثورة الفرنسية إلى بلدان الشرق.

على أوروبا أن تتخلى عن «أنانيتها العمياء» وألا توظف مهمتها السامية لأغراض مادية ومصالح شخصية بل يجدر بها اتباع سياسة متبصّرة نابعة من القيم الإنسانية. ربما ذكر لامارتين حالات وتصورات طواها التاريخ. إلا أن ذلك لا يقدح في قيمة الكتاب الأدبية والفكرية والتاريخية والشعرية، ولا في هذه الأخوّة الإنسانية التي أراد أن يبشر بها في لحظة تقارب حقيقية بين الشرق والغرب: «نريد أن نسير إلى الأخوة والسلام»، ولا في هذا الإيمان بوجود العناصر المكونة للانبعاث في بلدان الشرق : «ما ينقص فقط يد لتجميعها وحكمة لإرساء خطة واضحة لحكمها وإرادة صادقة لقيادة شعبها». لم يخفِ لامارتين إعجابه بالفضائل العربية والفروسية العربية إلى حدّ أنه افترض أصولاً عربية لديه، ولكن ذلك لم يجعله يستسلم لتجربة التماحي والذوبان في الآخر.

لم تخل هذه الرحلة من مرارة أليمة والسبب فقدان لامارتين ابنته جوليا إثر مرض ألمّ بها في بيروت، خلقت خسارته لابنته تحولاً عميقًا في حياته جعله ينزع إلى مذهب التأليه الذي تجاوز الإيمان الكاثوليكي ويقر بوجود الله دون الوحي والعقائد، لن يعود

لامارتين من هذه الرحلة كما كان بل عاد إنسانًا جديدًا وسيظل على حنينه لبلاد الشرق:» أود لو أنتحي زاوية في أحد الحقول وأصطلي بشمس آسيا الدافئة»، وعلى إعجابه خصوصًا بالبلاد العربية وأهلها الذين عاملوه كأمير وأخ، إلى حد افتراض أصول عربية لديه. وحين قست عليه الحياة ففقد حظوته السياسية بعد خسارته في الانتخابات الرئاسية وفقدانه ثروته بسبب السخاء الذي طبع عليه لم يتبق له سوى هذا الحلم: « سأذهب إلى هناك لأنشد الراحة في ذلك الملجأ الذي لا تضن به الضيافة العربية على الناس الوحيدين والمنفيين».

وأخيرًا نستطيع القول إن لامارتين خلق لأدب الرحلات بُعده الجمالي التصويري والإنساني والوجداني، في ذلك العصر أثار كتابه إعجابًا كبيرًا واعتبر مرجعًا، إلى حدّ أن الرحالة والأديب جون كارن الذي زار سوريا وفلسطين ولبنان قبل لامارتين بسنوات قليلة اشار في كتابه قائلاً: لا بدّ من الاعتراف أن مذكرات رحلته هي أجود ما لدينا عن سوريا ولبنان وفلسطين. يصف الرجل المواقع وصفًا أمينًا ولا إخال أن سائحًا حتى اليوم ارتاد الشرق بمثل هذا التحمس والاهتمام.»

أما ماذا بقي من كتابه اليوم فهذه الريشة التي رسمت جمال المهاوي والغابات والآفاق والبورتريهات وهذه الرغبة في الذهاب إلى أقصى الأماكن لتقصير المسافات بين إنسان وآخر لتعزيز الأخوة الإنسانية وهذا الانفعال المحتفل بالحياة، انفعال النفس المفعمة السخية أمام كل ما تراه من جمال ونبل وأيضًا هذه الكآبة الرومنطيقية اللذيذة التي تلوّن كل المشاهدات والانفعالات بظلالها اللطيفة والمؤثّرة في آن: «إن حياة مفعمة بالتأمل والفلسفة والشعر والوحدة هي الملاذ الوحيد الذي يمكن أن يستكين إليه قلبي، قبل أن يتحطَّم تمامًا».

ماري طوق

****

ذكريات وانطباعات
أفكار ومشاهد

دمشق إبريل/نيسان ١٨٣٣

مرتديًا الزي العربي الأكثر صرامة، جلت في ذاك الصباح في أحياء دمشق الرئيسية ولم يرافقني في جولتي إلاّ السيد بودان فقط. خشيت إن أنا خرجت، محاطًا بجمهرة من الوجوه المجهولة، أن أثير فضول الآخرين حيالنا . طفنا، بادئ الأمر ولفترة لا يستهان بها، بشوارع الحي الأرمني القاتمة والمتعرجة. بدت لي شبيهة بالقرى المدقعة البائسة في أريافنا البعيدة. المنازل من طين تشرف واجهاتها على الشارع عبر نوافذ صغيرة قليلة العدد مشبّكة بالحديد ومصاريعها مطلية باللون الأحمر. المساكن والأبواب بسيطة، قليلة الارتفاع.. وحول الأبواب، أكوام من الأقذار في كل مكان ومستنقعات آسنة موحلة. إلاّ أنني، لدى الدخول إلى بعض هذه البيوت التي يسكنها التجار الأرمن الكبار، أدهشني غنى هذه المساكن من الداخل وترفها. اجتزنا عتبة الباب وولجنا رواقًا قاتمًا فوجدنا أنفسنا في باحة مزدانة بنوافير رخامية ينبجس منها الماء وتظلّلها شجرة جميّز أو شجرتان وصفصاف فارسي. كانت هذه الباحة مرصوفة ببلاط عريض من الحجر المصقول أو الرخام. وكانت العرائش تفترش الجدران المكسوة بالرخام الأبيض والأسود. ثمّ أفضت بنا خمسة أو ستة أبواب دعائمها رخامية أيضًا ومنحوتة بزخارف عربية إلى الدور التي يقيم فيها رجال العائلة ونساؤها: دور فسيحة ذات عقود يخترقها عدد كبير من النوافذ الضيقة المرتفعة جدّاً التي تسمح للهواء النقي بالتسرب إلى الداخل باستمرار. وجميع هذه الدور مؤلفة من قسمين : قسم أكثر انخفاضاً يقيم فيه الخدم والعبيد وقسم آخر يرتفع عن الأول بضع درجات ويفصله عنه

درابزون من أعمدة الرخام أو من خشب الأرز مقطع بشكل رائع. وهناك دائمًا وسط الدار أو في إحدى زواياها نافورة ماء أو نافورتان مزينة حافاتها بزهور مغروسة في أوعية فاخرة تحوم حولها رفوف من السنونو والحمائم المطوقة لتشرب من مائها ساعة يحلو لها. يكسو الرخام جدران الغرفة حتى ارتفاع متوسط حيث توجد تماثيل من الجفصين(*) وتزينها الزخارف العربية ذات الألوان التي لا تحصى وأحيانًا نواتئ كثيرة الزخرفة مطلية بماء الذهب. أما الأثاث فيقتصر على بسط فارسية أو عراقية رائعة الزخرفة تنبسط فوق أرضية مفروشة بالرخام الأبيض أو مغطاة بخشب الأرز في كل مكان، وعدد كبير من الوسائد والحشايا الحريرية المبعثرة وسط الدار وهي أشبه بمقاعد أو مساند لأفراد العائلة. وفي عمق القاعة ديوان مغلّف بالأقمشة الفاخرة والبسط الثمينة التي تزين كافة جوانبه . وهناك، يتربع الأطفال والنساء أو يستلقون بعد الفراغ من الأعمال المنزلية. ووسط هذه السجاجيد والوسائد، أسرّة الأطفال الصغار. ثمة جهة من الدار تخص رب العائلة وحده يستقبل فيها الأجانب حيث يجلس صاحب الدار عادة فوق ديوانه وبالقرب منه مقلمته ذات مقبض ذهبي مطروحة على الأرض. يضع الورقة فوق ركبته أو في راحة يده اليسرى وينصرف إلى الكتابة أو الحساب طيلة النهار، فأعمال التجارة هي الشاغل الوحيد لسكان دمشق وصنعتهم الوحيدة.

حيثما توجهنا لنرد الزيارات التي تلقيناها البارحة، كان أصحاب المنازل يستقبلوننا بكياسة وود ويوعزون إلى خدمهم بأن يحضروا لنا الغلايين والقهوة والمشروبات الباردة ثم يرافقوننا في أنحاء الدار حيث تجلس النساء . أيّاً تكن الفكرة التي تصورتها عن جمال السوريات، وأيّاً تكن الصورة التي خلفها في نفسي جمال نساء روما وأثينا، فإن مرأى النساء والفتيات الأرمنيات في دمشق فاق كل تصوراتي. ففي كل مكان تقريبًا، طالعتنا وجوه لم ترسم مثلها ريشة أوروبية، وعيون يتخذ فيها نور الروح المشع لونًا أثيريّاً قائمًا مرسلاً أشعة مخملية رطيبة لم يسبق أن رأيت

(*) الجفصين: مادة الجبس في لهجة إقليم الشام.

كالتماعها في عيني امرأة. رأيت ملامح من رهافة وصفاء بديعين لا تستطيع أي يد مهما بلغت رقتها ومهارتها رسمها أو محاكاتها، وبشرات فائقة النعومة لكن ملونة بألق حي تغار من نضارتها بتلات الورد أو قد لا تدانيها روعة. الأسنان والابتسامة واللدانة الطبيعية للأجساد والحركات، نبرة الصوت الواضحة والرنانة والفضية، كل شيء ينطق بالانسجام في هذه الكائنات البهية. تتحدث هؤلاء النسوة بظرف واحتشام متواضع لكن دون إحراج وكأنهن معتادات على الإعجاب الذي يثرنه في النفوس. بَدوْنَ وكأنهن يحتفظن طويلاً بجمالهن في هذا المناخ الذي يرعى الجمال أو كأنهن يعشن حياة هانئة مسلية داخل منازلهن حيث أهواء المجتمع المصطنعة لا تستهلك الروح ولا الجسد. وفي كل المنازل التي استقبلت فيها، رأيت الأم والابنة متساويتين جمالاً بالرغم من أن الفتيات لا يزلن في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. عادة، تزف الفتيات في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وملابس النساء السوريات هي أفخر الملابس التي رأيتها في الشرق وأكثرها أناقة. تسفر النساء عن رؤوسهن ويزين شعورهن المجدولة بالزهور ويتركنها تتدلى على جهتي العنق والأكتاف العارية. أحيانًا، يجعلن في شعورهن زخارف ذهبية وصفوفًا من اللؤلؤ أو يعتمرن قلنسوة صغيرة من الذهب المرصّع. صدورهن شبه عارية ويرتدين سترة صغيرة أكمامها فضفاضة ومفتوحة منسوجة من الحرير المزخرف بالفضة أو الذهب وسروالاً أبيض واسعًا له ثنيات تصل حتى أخمص القدمين وينتعلن خفّاً من السختيان الملوّن. وفوق السترة فستان طويل حريري فاقع اللون منسدل عن الكتفين ومفتوح عند الصدر ومقدم السروال ومشدود عند الخصر بحزام يصل طرفاه حتى الأرض. لم أكن أستطيع أن أشيح بصري عن هؤلاء النسوة الساحرات. طالت زياراتنا وأحاديثنا في كل مكان ووجدت توددهن لنا يفوق جمالهن. تناولت أحاديثنا العادات المتبعة في أوروبا والأزياء التي ترتديها النساء في الغرب وعاداتهن. لم يبدُ عليهن أنهن يغبطن نساءنا على حياتهن. حين نتحدث إلى هذه الكائنات الفاتنات، حين نستمتع بأحاديثهن وحركاتهن ونجد فيها ذلك الظرف وتلك التلقائية التامة في التصرف، أو قلْ هذا اللطف والهدوء وسلام النفس والقلب يزرع

السعادة في أرجاء المنزل أو العائلة، لا يسعنا والحالة هذه إلاّ أن نتساءل تُرى هل يمكن لشيء أن يثير غيرة هؤلاء النسوة الشرقيات من نساء مجتمعنا الراقي اللواتي يعرفن كل شيء إلا باستثناء ما يجعل المرء سعيداً في حياته العائلية، واللواتي يهدرن في بضع سنوات نفوسهن وجمالهن وحياتهن. تتبادل نساء دمشق الزيارات فيما بينهن أحياناً وهنَّ لسن منفصلات تماماً عن مجتمع الرجال، لكن هذا المجتمع يقتصر على بعض الأقارب الشبان أو الأصدقاء ومن بينهم يجري اختيار خطيب عتيد للفتيات العازبات بعد استشارتهن وموافقة ولي أمرهنَّ وسائر العائلة. عندئذٍ، يأتي الخطيب من وقت لآخر ليشارك العائلة مسراتها وكأنه أحد أبنائها.

التقيت في دمشق بأحد المشايخ الأرمن وكان رجلاً مميزاً جداً ومثقفاً جداً عيّنه إبراهيم باشا رئيساً للمجلس البلدي الذي يدير شؤون المدينة في هذا الوقت. كان هذا الرجل، مع أنه لم يغادر دمشق قط، على اطلاع واسع يملك المفاهيم ومعرفة عميقة ومواكبة مستمرّة للحالة السياسية السائدة في أوروبا وفرنسا بوجه خاص وعن المسار العام للفكر البشري في عصرنا و أيضاً تحول الأنظمة الحديثة والمستقبل الحتمي للحضارة. لم ألتقِ في أوروبا رجلاً يتصف بهذه الدقة في الرؤية وبهذا الذكاء. وأكثر ما أثار دهشتي هو أنه لا يعرف إلاّ اللاتينية واليونانية وأنه لم يسبق له أن قرأ مؤلفات أو صحفاً غربية تعرض على صفحاتها المسائل التي يرددها قارئوها دون أن يفهموها. لم يتسنّ له أيضاً التحدث إلى رجال مميزين من أصقاعنا. دمشق بلاد لا علاقة لها بأوروبا، ومع ذلك فإن هذا الرجل ملمّ بشتّى الأمور من خلال الخرائط الجغرافية وبعض الوقائع التاريخية والسياسية الكبيرة التي وصلت أصداؤها إلى دمشق، وكذلك بفضل عبقريته الفطرية والتحليلية التي تدرك خفايا الأمور بفطنة مدهشة. سُحرت بهذا وظللت فترة من الصبيحة أتحدث إليه. سيأتي لزيارتي هذا المساء وكل يوم. أخذ يستشف، مثلي، ما يمكن أن تدبره العناية الإلهية للشرق والغرب من خلال تقاربهما المحتم وتناوبهما على تبادل المسافة والحركة، الحياة والضوء. لهذا الرجل ابنة في

الرابعة عشرة من عمرها وهي أجمل ما شاهدت أعيننا حتى الآن. والأم فاتنة كذلك ولا تزال في مقتبل العمر. قدّم لي ابنه البالغ الثانية عشرة من عمره معربًا عن أن مسألة تعليمه تشغل باله كثيرًا. قلت له : «يجدر بك أن ترسله إلى أوروبا ليحصّل الثقافة التي تتحسر على أنك لم تمتلكها، وأنا أشرف على تربيته». فأجابني: «هذا الأمر يشغل تفكيري على الدوام لكن، إذا كانت حالة الشرق لا تتغير فأي خدمة أؤديها لابني إذا أدرك فيما بعد أنني سمحت له بأن يتفوّق بثقافته على أبناء زمنه وبلاده التي يعيش فيها؟ ما الذي سيفعله في دمشق عندما يرجع إليها مع أنوار الغرب وعادات أوروبا وكونها وجهًا للحرية ؟ إذا كان عليه أن يكون عبدًا، فمن الأفضل له ألا يكون إلاّ عبدًا».

بعد إجراء هذه الزيارات المختلفة، تركنا الحي الأرمني الذي يفصله عن الحي الآخر باب يُغلق كل مساء. وإذا بي في شارع أوسع وأجمل، حافلٍ بقصور الآغاوات الرئيسي في دمشق. إنهم يؤلفون طبقة النبلاء في البلاد. تشبه واجهات هذه القصور المطلة على الشارع أسوارًا طويلة من السجون أو المصحات ذات جدران من الطين الرمادي اللون تتخللها نوافذ تفتح وتغلق وفقًا للمقتضيات. من وقت لآخر ترى بابًا كبيرًا مشرعًا على إحدى الباحات وعددًا كبيرًا من الأسياد والخدم والعبيد السود ينامون في كنف الباب. زرت اثنين من هؤلاء الآغاوات وهما من أصدقاء السيد بودان. قصورهم من الداخل بديعة الصنع: باحة فسيحة مزدانة بنوافير ماء رائعة تظلّلها أشجار مغروسة بانتظام وأفخم وأروع زينة من دور الأرمن، ويبدو أن العديد من هذه الصالونات أنفق على زينتها ما يفوق مئة ألف قرش. ليس في أوروبا ما يوازيها جمالاً. ولا يقل عدد هذه القصور التي بنيت على هذا الطراز عن ثمانية أو عشرة. إن آغاوات دمشق هم إجمالاً من أحفاد أو أولاد الباشاوات الذين عثروا على الكنوز التي استخدمها آباؤهم في تزيين منازلهم. إنها محاباة الأقارب الموجودة في أوروبا ولكن على شكل آخر. وهؤلاء الآغاوات متعددون ويشغلون الوظائف الرئيسية الحساسة في المدينة بالتعاون مع الباشوات الذين يعينهم السلطان لإدارة شؤون البلدان. كما يملكون

أراضي فسيحة في القرى المحيطة بدمشق، والترف بالنسبة لهم يعني امتلاك القصور والحدائق والخيول المطهمة والنساء. لكن بإشارة واحدة من الباشاوات، تسقط رؤوسهم وتنتقل هذه القصور وهؤلاء النساء وهذه الخيول إلى أحد الذين أسعفهم الحظ. إن مثل هذه القوانين تدعوهم بطبيعة الحال للتمتع بما تمنحهم الحياة من ملذات وللخضوع لمشيئة القدر فالتنعم بالملذات والاستسلام للقدر هما النتيجتان الضروريتان للنظام الاستبدادي الشرقي.

استقبلني الآغوان اللذان دخلت إلى دارهما بأسمى آيات الترحيب كانا يعرفان أنني رحالة أوروبي ويعتبرانني موفدًا سريّاً مهمته الإتيان بمعلومات لملوك أوروبا عن النزاع القائم بين الأتراك وإبراهيم باشا. أعربت عن رغبتي لأحدهما في رؤية أجمل الخيول التي يملكها بغية شراء أحدها إذا وافق على بيعه. وللفور، أمر ابنه وسائسه باقتيادي إلى حظيرة واسعة حيث يشرف على ترويض ثلاثين أو أربعين رأسًا من أروع خيول تدمر. لم تقع عيناي قط على مشهد بهذه الروعة. كانت الخيول ذات حجم كبير ووبر رمادي قاتم أو رمادي أبيض وأعراف كالحرير الأسود وعيون جاحظة تنمّ عن قوة وقسوة رائعتين، مناكبها عريضة مسطحة طويلة الأعناق كالبجع. ما إن رأتني تلك الجياد أدخل وسمعتني أتكلم لغة عربية حتى أدارت رأسها نحوي مرتعشة وراحت تصهل معبرة عن دهشتها وعجزها مرسلة إلي نظرات محملقة جفلة ومغضنة مناخيرها ما أعطى رؤوسها الجميلة هيئة وسيماءً تنمان عن ذكاء وأصالة. لقد تسنت لي الفرصة كيما ألاحظ أن رهافة حسّ الحيوانات في سوريا أقوى منه في أوروبا. داعبت بعضًا منها وتفحصتها كلها. أخرجتها إلى الباحة ولم أعرف أيها أختار لأنها كانت كلها جميلة تسحر الألباب وتدهش الأنظار. وأخيرًا، وقع خياري على جواد فحل أبيض في الثالثة من عمره بدا لي وكأنه لؤلؤة أحصنة الصحراء قاطبة. تجادل السيد بودان مع الآغا بخصوص السعر وتمّ الاتفاق على مبلغ ستة آلاف قرش نقدتها للآغا. وصل الجواد من تدمر حديثًا وتلقى البدوي الذي باعه للآغا مبلغ ثلاثة آلاف قرش ثمنًا له

وطيلسانًا بديعًا من الحرير والذهب. ينتمي الحصان، كما كل الأحصنة العربية إلى السلالة التي يرتقي إليها مكتوبة في ظرف مصنوع من الشعر معلق في رقبته وعدة تعاويذ تقيه من العين الشريرة والحسد.

طفنا بأسواق دمشق. يبلغ طول البازار الكبير نصف فرسخ. وأسواق دمشق شوارع طويلة مسقوفة بصقالات مرتفعة جدّاً، وفيها الحوانيت والدكاكين والمخازن والمقاهي وهي مقاهٍ ضيقة وقليلة الاتساع. يجلس التجار القرفصاء أمام محالهم، الغلايين في أفواههم وإلى جانبهم النارجيلة بأنبوبها الطويل. المخازن مليئة بالسلع من كل نوع وخاصة بالأقمشة الهندية التي تصل إلى دمشق بواسطة القوافل الوافدة من بغداد. يدعو الحلاقون المارة لقص شعورهم ومحلاتهم مزدحمة بالناس دومًا. والزحمة في السوق عموماً شديدة طيلة النهار كما الازدحام الذي تشهده مخازن القصر الملكي. وتعتريك دهشة عارمة إذا حدقت بنظرك بالحشود العابرة بحيث ترى آغاوات يرتدون عباءات من الحرير الأحمر المبطن بفرو السمور، متمنطقين بالسيوف والخناجر المرصعة بالماس تتدلى من أحزمتهم، وبرفقتهم خمسة أو ستة من رجال الحاشية والخدم والعبيد الذين يتبعونهم بصمت حاملين غلايين أسيادهم ونراجيلهم. يذهب الآغاوات للجلوس ردحًا من نهاراتهم على الدواوين الخارجية للمقاهي القائمة على ضفاف الأنهار التي تخترق المدينة، المظللة بأشجار الحور الجميلة. وهناك يدخنون ويتبادلون الأحاديث مع أصدقائهم. المقاهي تشكل وسيلة التواصل الوحيدة المتوافرة لسكان دمشق، باستثناء المسجد طبعًا. هناك تطبخ في الخفاء تقريبًا، الثورات المتكررة التي تسفك فيها دماء أبناء العاصمة، ثم، بعد أن تختمر طويلاً وبشكل أخرس، تنفجر في اللحظة غير المتوقعة. عندئذٍ، يهرع الشعب لحمل الأسلحة بإمرة أحد الأحزاب التي يقودها الآغوات وتنتقل السلطة، لبعض الوقت، إلى يدي المنتصر. أما المنهزمون فإما يقتلون أو يهربون إلى صحارى بعلبك أو تدمر حيث تؤويهم العشائر المتفرقة في الأرجاء المجاورة. ويستوقفك الموظفون التابعون لباشا مصر والجنود الذين يختالون بسيوفهم على أرصفة البازار مرتدين زيّاً قريبًا جدّاً للزي الأوروبي. التقينا بالعديد منهم وتحدثوا

إلينا بالإيطالية قائلين إنهم يعيشون في حالة من الحيطة والاحتراس في دمشق، فالشعب ينظر إليهم بريبة بالغة والفتنة يمكن أن ينفجر فتيلها في أي لحظة. شريف بك، وهو أحد الرجال الأكثر مقدرة في جيش محمد علي يقود الجنود ويحكم المدينة مؤقتًا. أقام معسكرًا يضمّ عشرة آلاف رجل خارج جدران المدينة وحامية الجند ترابط في القصر. أما هو نفسه فيتخذ من السراي مقرّاً له. إن أي محاولة إخلال بالأمن في دمشق تعتبر لدى إبراهيم باشا بمثابة مؤشر لفتنة عامة وصراعٍ مستشر في كافة أرجاء سوريا. يعيش الثلاثون ألفًا من المسيحيين الأرمن الذين يسكنون المدينة في حالة ذعر ويخشون أن يتم القضاء عليهم إذا انتصر الأتراك مجددًا، لا سيما أن المسلمين مستاؤون من المساواة التي وطدها إبراهيم باشا بينهم وبين المسيحيين. ثم إن بعض المسيحيين يستغلون فرصة التساهل معهم المتوافرة لهم ليشتموا أعداءهم وينتهكوا عاداتهم، ما يذكي نار التعصب بين الأديان. أعرب السيد بودان عن استعداده، عند أول إشعار بالفتنة، للهرب واللجوء إلى زحلة.

تحفل المدينة بالعرب الآتين من الصحراء الكبرى ومن تدمر ليتجولوا في الأسواق، يقتصر لباسهم على رداء فضفاض من الصوف الأبيض يلتفون به على غرار التماثيل القديمة. لوّحت الشمس بشراتهم، لحاهم سوداء ونظراتهم مفترسة. يتجمعون أمام حوانيت باعة التبغ والسرّاجين وصانعي الأسلحة أو بائعيها. يشكِلون أحصنتهم المسرجة دومًا والملجومة في الشوارع والساحات. صحيح أنهم يمقتون المصريين والأتراك على حد سواء ولكن إذا حصلت حركة عصيان أو انتفاضة فسيحاربون جيوش إبراهيم باشا الذي لم يستطع ، مع أنه ترأس هو نفسه فرقة المدفعية حين مرّ بالمدينة، لإرغامهم على التراجع مسافة نهار من دمشق، وها هم الآن يناصبونه العداء. سأتحدث فيما بعد مطولاً عن هذه الشعوب المغمورة التي تسكن الصحراء الكبرى والفرات.

لكلّ نوع من التجارة حيُّه الخاص به على حدة في هذه الأسواق. ها هنا السرّاجون الذي لا يبدون إطلاقًا أنهم يعرضون للبيع الأسلحة الرائعة الشهيرة التي

كانت تزود بها دمشق تجار المشرق. فهذه المشاغل حيث تصنع السيوف البديعة قد طواها النسيان، هذا إذا افترضنا أنها كانت موجودة فعلاً في دمشق. إذ لا يصبغون هنا إلاّ سيوفًا ذات مسقى عادي، ولا نعثر عند صانعي الأسلحة إلاّ على أسلحة قديمة بخسة. عبثًا بحثت عن سيف أو خنجر من المسقى القديم. يُقال إن هذه السيوف تأتي الآن من خراسان في بلاد فارس لكنهم تخلوا عن صناعتها حتى هناك . ثمة عدد قليل منها قيد التداول يعرضها أصحابها للبيع وكأنها ذخائر ثمينة وأسعارها لا تقدر بثمن. فالسيف الذي أهدوني إياه كلف الباشا مبلغ خمسة آلاف قرش. يقيم الأتراك والعرب وزنًا كبيرًا لمثل هذه السيوف ويعتبرونها أثمن وأنفس من الماس ويبذلون الغالي والنفيس من مالهم لقاء الحصول على سلاح مماثل. حين رأوا سلاحي، شعّت نظراتهم حماسة ووقارًا ورفعوه إلى جباههم إجلالاً منهم لهذه الأداة الرائعة القاتلة.

أما صانعو الحلي فلا يتمتعون بأي موهبة ولا تحدوهم أي رغبة في نظم حجارتهم الكريمة أو لآلئهم، لكنهم يملكون منها المجموعات الهائلة، فثروة الشرقيين منقولة كلها سواء طمرت في التراب أو حُملت. والرجال الصاغة كُثر، لا يعرضون إلاّ القليل من الحلي ويضعون الباقي في أدراج صغيرة لا يفتحونها إلاّ إذا حضر الزبون المناسب وطلب منهم رؤية الحلي.

والسرّاجون يفوقونهم عددًا وهم الأمهر في هذه الأسواق. لا شيء يضاهي، ولا في أوروبا، الذوق والظرف والفخامة التي تتمتع بها الرحال المزركشة المعدّة لخيول القادة العرب أو آغاوات البلاد. الأسرجة مكسوة بالمخمل والحرير المطرز بالذهب واللآلئ، وعقود السختيان الأحمر المتدلية كالأهداب على لبان الجياد، مزينة هي أيضًا بشرابات من فضة وذهب وباقات من اللآلئ. أما الألجمة الأكثر أناقة بكثير من ألجمتنا في أوروبا، فمصنوعة هي أيضًا من جلد السختيان من كافة الألوان ومزدانة بشرابات من الحرير والذهب. بدا لي أن سعر كل هذه الأشياء زهيد بالمقارنة مع أوروبا فاشتريت لجامين اثنين من هذه الألجمة الرائعة، وبلغ سعر كليهما مئة وعشرين قرشًا

(أي ما يعادل خمسين فرنكًا).

تتميز مخازن باعة المواد الغذائية بتنظيمها وأناقتها ونظافتها واجتذابها للأنظار. تزدان واجهة هذه الحوانيت بعدد من السلال المملوءة بالخضار والفواكه المجففة والبقول التي لا أعرف أسماءها، ولكنها تتحلى بأشكال وألوان لماعة بديعة متلألئة كحصيات صغيرة خارجة من الماء. كذلك عَرضت أرغفة الخبز من مختلف الأحجام والأشكال لمختلف الأوقات ومآدب النهار. أرغفة ساخنة أشبه بالرقاقات المقلية. لكني لم يسبق لي أن رأيت في حياتي هذا الإتقان الشديد للخبز الذي رأيته في دمشق وثمنه زهيد للغاية. تقدم بعض المطاعم أيضًا العشاء للتجار أو المتنزهين في السوق. لا يوجد لديهم طاولات ولا ملاعق أو شوك أو سكاكين: يبيعون سفافيد صغيرة من قطع لحم الضان المفرومة بحجم ثمرة الجوز مشوية في الفرن. يضعها الشاري في أحد الأرغفة التي تحدثت عنها آنفًا ويأكل طعامه واقفًا وعلى عجل. أما الشراب الوحيد المتوافر لدى العرب فتقدمه نوافير الماء العديدة في السوق. وباستطاعة المرء أن يتناول كل وجباته في دمشق بقرشين أو بعشرة فلوس في اليوم . ويمكن استئجار نزل جميل بقيمة تبلغ مئتين أو ثلاثة مئة قرش في السنة. وهكذا يستطيع الإنسان أن يعيش برفاهية هنا في دمشق بدخل لا يتجاوز الثلاثمئة أو الأربعمئة فرنك. والأمر ينطبق على كل مكان في سوريا.

حين كنت أجول في السوق ، وصلت إلى حي صانعي الصناديق والأدراج. إنها الصناعة الأكثر رواجًا لأن كل الأثاث الذي تقتنيه العائلة العربية يقتصر على صندوق أو صندوقين توضع فيهما الأمتعة التليدة والحلي. ومعظم هذه الصناديق مصنوع من خشب الأرز ومطلي باللون الأحمر تزينه زخارف رُسمت بمسامير ذهبية. بعض الصناديق منحوت بشكل بديع ومزدان بزخارف عربية أنيقة للغاية. اشتريت ثلاثًا منها وأرسلتها مع قافلة طرابلس. فاحت رائحة خشب الأرز من كل مكان في البازار. وهذا الجو العابق بألف رائحة مختلفة متصاعدة من دكاكين النجارين ومخازن السمانة

والعطارين وصناديق العنبر أو الصموغ المعطرة والمقاهي و دخان الغلايين المنبعث بلا توقف في البازار، ذكّرني بالرائحة التي شممتها عندما اجتزت فلورنسا لأول مرة حيث كانت الصقالات المصنوعة من خشب السرو تملأ جوّ الطرقات برائحة مماثلة تقريبًا.

غادر شريف بك، حاكم سوريا الذي عيّنه محمد علي، دمشق في اليوم الذي انتشر فيه خبر الانتصار الذي سجله إبراهيم باشا على الصدر الأعظم في قونيا، فاستغل شريف بك جو الذعر الذي انتشر في المدينة ليرحل منها إلى حلب، مسلّمًا إدارة الشؤون فيها إلى جنرال مصري يساعده مجلس بلدي مكوّن من التجار الأكثر نفوذًا في البلاد. وبقي معسكر مؤلف من ستة آلاف مصري وثلاثة آلاف عربي على أبواب المدينة. إذا أجال المرء النظر في هذا المعسكر رأى أنه يشكل منظرًا جميلاً، فالخيم كلها من مختلف الأحجام والألوان منصوبة في ظل الاشجار المثمرة الباسقة التي تحف بضفة النهر . الأحصنة بديعة إجمالاً وموثقة على شكل صفوف طويلة، إلى حبال مشدودة إلى أوتاد المعسكر. ها هم العرب غير المنضبطين موجودون هنا بكل ما في أعراقهم من تنوع غريب بدروعهم ولباسهم، بعضهم يشبه جليسي الملوك أو المشايخ والبعض الآخر قاطعي الطرق في الصحراء . يتصاعد من نيران المعسكر دخان تبعثره الريح على النهر أو في بساتين دمشق.

كنت شاهدًا على رحيل شريف بك. اجتمع كل الآغاوات الرئيسيين في دمشق وضباط الفصائل التي بقيت في السراي. كانت الباحات الفسيحة المحيطة بالجدران المتداعية للقصر والسراي مليئة بالعبيد الذين يسوقون أجمل أحصنة المدينة المجللة بترف. كان شريف بك يتناول طعام الغذاء في الدور الداخلية. لم أدخل عليه. بقيت، برفقة بضعة جنود مصريين وايطاليين في الباحة المرصوفة. ومن هناك، رأينا الحشد في الخارج والآغاوات يصلون جماعات والعبيد السود يعبرون حاملين على رؤ وسهم صواني معدنية هائلة تحتوي مختلف أصناف الطعام. كانت أحصنة شريف بك ترابط هناك. إنها أجمل الحيوانات التي تسنت لي رؤيتها في دمشق وهي من أصل تركماني

وهي أضخم وأقوى من الخيول العربية . تشبه الأحصنة التركمانية الأحصنة النورماندية الكبيرة لكن أطرافها أكثر رشاقة وقوة، رؤوسها ناعمة وعيونها واسعة، جامحة النظرات أبية ورقيقة. جميعها بنية اللون اختلط سوادها باحمرار وعرفها طويل. أحصنة هوميرية حقيقية. انطلق شريف بك عند الظهيرة يرافقه موكب من الفرسان على مسافة فرسخين من المدينة.

في وسط سوق دمشق، عثرت على أجمل خان في الشرق، خان أسد باشا . بُني على شكل قبة ضخمة تذكر بقبة كنيسة القديس بطرس في روما، وقد شُيدت فوق أعمدة من الغرانيت. وخلف الأعمدة مخازن وسلالم تفضي إلى الطوابق العليا حيث غُرف التجار. ويستأجر كل تاجر نافذ إحدى هذه الغرف ويعرض فيها سلعه الغالية وكتبه حيث يتناوب الحرّاس على سلامة الخان. بالقرب من الخان حظائر كبيرة لأحصنة المسافرين والقوافل ونوافير جميلة تنثر رذاذ الماء بشكل منتظم فتضفي على جو الخان انتعاشاً، وهو أشبه ببورصة تجارية في دمشق. يشكل باب خان أسعد باشا المطل على السوق إحدى القطع المغربية الهندسية التي تتميز بغنى تفاصيلها وجلالها وتؤلف تحفة فريدة في هذا العالم. والهندسة العربية تعبّر عن نفسها أصدق تعبير في الخان الذي لم يُشيد مع ذلك إلاّ منذ أربعين سنة. إن شعبًا يستطيع مهندسوه المعماريون أن يصمموا مبنى مماثلاً لخان أسعد باشا ويستطيع عماله تنفيذه فهو شعب فنان خالد على مرّ الأزمان . لقد بنى هذه الخانات إجمالاً باشاوات أثرياء يورثونها لعائلاتهم أو للمدينة التي أرادوا إعمارها، وهي تدرّ عليهم مالاً وفيرًا.

على مسافة أبعد قليلاً، رأيت عبر أحد أبواب البازار الفناء الكبير لجامع دمشق الأساسي(*) الذي كان فيما مضى كنيسة مكرّسة للقديس يو حنا الدمشقي. يبدو المبنى وكأنه يرقى إلى عهد كنيسة القيامة في القدس: ، فسيح وذو هندسة بيزنطية تحاكي الهندسة الإغريقية وتحط من شأنها، ولا يخفى على البصير أن البناء قام على أنقاض بناء سابق. كانت الأبواب الضخمة للجامع مغلقة بستائر ثقيلة ولم أستطع رؤيته من الداخل لأنه يُحظر على النصارى الدخول إلى هناك. وقفنا لبرهة في الباحة متظاهرين

(*) هو المسجد الأموي.

بأننا نرتوي من سبيل الماء.

التاريخ نفسه

في هذا اليوم وصلت قافلة بغداد. كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف جمل. خيّمت عند مشارف المدينة. ابتعت أكياسًا من قهوة الموكا التي لا نستطيع الحصول عليها من مكان آخر، وشالات من بلاد الهند.

أرجئ انطلاق قافلة مكة بسبب الحرب. أوكل إلى باشا دمشق أمر قيادتها. أنشأ الوهابيون أول حركة إصلاح دينية مسلحة في التاريخ الإسلامي. أراد أحد الحكماء الذين يقطنون في جوار مكة ويُدعى محمد بن عبد الوهاب أن يعيد الإسلام إلى أصالته النقية وعقيدته الأولية وأن يستأصل، من خلال الكلام أولاً وبواسطة قوة العرب المرتدين إلى الإيمان ثانيًا، كل الشعوذات الشعبية التي تشوّه جميع الأديان، بغية أن تعود ديانة الشرق تعبدًا عمليّاً وعقلانيّاً للإله الواحد ولم يكن شاقّاً الوصول إلى هذا الهدف فالنبي محمد لم يطرح نفسه إلهًا بل رجلاً فاض وحي الله عليه ولم يبشر إلاّ بوحدانية الله والمحبة بين البشر. كذلك [محمد بن] عبد الوهاب، لم ينصّب نفسه نبيّاً بل رجلاً اهتدى بنور العقل. زحف الوهابيون بمئة ألف رجل عقائدي مسلح وقد عقدوا العزم على تغيير وجه الشرق. حاول محمد علي وضع حاجز مؤقت يصدُّ به غزواتهم لكن الوهابية بقيت وانتشرت في مختلف أقطار المدن العربية. وعند أول مناسبة، انتشرت هذه الشعوب التي تريد تطهير الاسلام مما علق به من شوائب حتى القدس ودمشق ومصر. وهكذا تتلاشى الأفكار بالأسلحة نفسها التي عملت على نشرها. انطلقت دعوة النبي محمد من الصحراء نفسها التي انطلق منها الوهابيون، ليطيح بالأوثان ويرسي أسس عبادة الله الواحد المجرّد من المادة دون تقديم الأضاحي. ثم جاء عبدالوهاب بدوره فأطاح بالمعتقدات الشعبية وأعاد الديانة المحمدية إلى العقل المحض. ففي كل عصر يرتفع الحجاب مجددًا ليكشف عن الصورة الحقيقية للإله الواحد رب الأرباب ويُظهره خلف رموزه المتلاشية، وحيدًا، أبديّاً، جليّاً ، معيدًا إلى ضمير المؤمنين أسرار

الوحي الحقيقية.

دمشق، ٣ نيسان

أمضيت النهار أجول في المدينة والأسواق. لا تزال ذكرى القديس بولس ماثلة في أذهان مسيحيي دمشق. لا تزال آثار المنزل الذي هرب منه ليلاً بعد أن تدلى بسلّة من أعلى البناء ونجا بنفسه. كانت دمشق من أولى الأراضي التي بشر فيها بكلمة المسيح التي غيرت العالم. تلك الكلمة التي أعطت ثمارها سريعًا فالشرق هو أرض العبادات والعجائب والشعوذات حتى. والفكرة الكبيرة التي استحوذت على الأذهان في الأزمنة كلها هي فكرة الدين. إن هذه الشعوب كلها بعاداتها وقوانينها على أسس دينية صلبة. لم يقم الغرب على الدين قط. لماذا؟ لأن عرقه أقل نبلاً فهم أحفاد البرابرة ولا يزالون متمسكين بجذورهم، إن الأمور لم توضع في نصابها في بلدان الغرب. إن أنبل الأفكار الإنسانية فيه لم تأتِ إلاّ بعد الأفكار الأخرى. الغرب بلاد الذهب والمادة، الحركة والصخب أما الشرق فبلاد التأمل العميق والحدس والعبادة لكن الغرب يتقدم بخطى عملاقة. وعندما يلتقي الدين بالعقل على أسس من الحق والنور والحب بعد أن فرّقت بينها القرون الوسطى والعصور المظلمة، عندئذٍ، يعود الفكر الديني والنفحة الدينية فيشهد العالم ولادة جيل من أبناء الفضيلة والحضارة والنبوغ. فلتكن إرادتك يا رب.

دمشق، ٤ أبريل/نيسان

يوجد ثلاثون ألف مسيحي في دمشق وأربعون ألفًا في بغداد . مسيحيو دمشق هم من الأرمن أو من الروم. يخدم بعض الكهنة الكاثوليكيين جماعة مؤمنيهم ويُظهر سكان دمشق تساهلاً مع الرهبان الكاثوليك. هم معتادون على زيهم ويعتبرونهم شرقيين. رأيت مرارًا هذه الأيام كاهنين من اللعازاريين الفرنسيين الذين أقاموا ديرًا صغيرًا مغمورًا في حي الأرمن البائس. كان أحدهم، الأب (بوسوس) يأتي ليمضي السهرات معنا، وهو رجل رائع وورع ومثقف وودود. اصطحبني إلى ديره حيث يقوم بتدريس مجموعة من الطلاب المسيحيين من العرب الفقراء. إن محبة الآخرين هي

الشيء الوحيد الذي أبقاه في هذه الصحراء من الناس حيث حياته مهددة دومًا. لكنه ورغم ذلك، مبتهج وهادئ وقنوع. يتلقى، من وقت لآخر، بواسطة القوافل الآتية من سوريا أخبارًا وهبات أو مساعدات من رؤسائه في فرنسا كما يتلقى أعدادًا من الصحف الكاثوليكية. أعارني بعضها، ولا شيء بدا لي أغرب من قراءة هذه الأشياء الدينية المزعجة أو السياسية لحي سان سولبيس عند مشارف صحراء بغداد، خلف لبنان وسلسلة جباله الشرقية بالقرب من بعلبك، وسط هذا التجمع الهائل لأناس مختلفين منشغلين بأفكار أخرى مختلفة تمامًا وحيث الصخب الذي نحدثه نحن الفرنسيين وأحدثته أسماء رجالنا العظام لهذا العام، بقي بعيدًا تمامًا. باطل الأباطيل، كل شيء باطل، ما عدا خدمة الله والبشر من أجل الرب! الحق يقال، لا نشعر بفحوى هذا القول وصوابيته إلاّ عندما نسافر ونتحقق كم مدى تفاهة حركة البشر التي تصدها أمواج البحر ومن ضآلة الضجيج الذي تخنقه الجبال ومن سخافة الشهرة التي لا تستطيع لغة أجنبية التعبير عنها. لا شك إن خلودنا يكمن في مكان آخر مختلف عن ذاك الخلود المزيف العابر الذي تمنحنا إياه أسماؤنا على هذه البسيطة.

تناولنا العشاء في ذلك اليوم برفقة أحد العجائز المسيحيين في دمشق. كان في التسعين من عمره ويتمتع بكامل قدراته الجسدية والعقلية. عجوز رائع، تحمل قسماته هذا الصفاء الطالع من اللطف والفضيلة اللذين تمنحهما حياة تقية ورعة قبيل رحيلها إلى العالم الآخر. أغدق علينا العجوز خدمات شتى وهرع لمساعدتنا وكأنه في مقتبل الشباب. ووسط أبخرة الدخان والتنباك التي أقتمت الجو وعطرته، انضم إلى مجلسنا المسائي الهادئ، فوق دواوين السيد بودان، الأب بوسوس ورفيق له وتاجران من بغداد وشيخ فارسي كبير قبيل توجهه إلى الحجّ. تبادلنا أطراف الحديث بسهولة بفضل مساعدة السيد بودان ومترجمي السيد مازوير. كانت المودة والبساطة التي لا مثيل لها تسودان طيلة السهرة التي ضمّت هؤلاء الرجال الذين اجتمعوا آتين من أربعة أقطار العالم. وجرى الحديث عن عادات الهند وبلاد فارس والأحداث الراهنة في بغداد وثورة

الباشا على الباب الأعظم. أخبرنا التاجر من بغداد أنه اضطر للفرار عبر الصحراء لمدة أربعين يومًا فوق الجمال حاملاً معه كل ما يملك برفقة شابين من الفرنج. كان ينتظر بفارغ الصبر أن تصله أخبار عن أخيه ويخشى أن ينبئه أحد بموته. وفيما كان يتحدث إلينا وصلته رسالة من أخيه يخبره فيها أنه استطاع الفرار وأنه يصل مع مؤخرة الجيش في القافلة التي كنا في انتظارها. أخذ التاجر يذرف دموع الفرح، وبكينا نحن أنفسنا ابتهاجًا لفرحه وأيضًا للتأملات الحزينة في آلامنا وشقائنا نحن بالذات. وكانت هذه الدموع التي ذرفت من أعين لن يكتب لها أبدًا أن تلتقي مجددًا، وفي منزل صديق مشترك، وسط مدينة لا تشكل لنا إلاّ محطة عبور ... كانت هذه الدموع تعبيرًا صادقًا عن تعاطفنا مع هؤلاء الرجال وكأنهم أصدقاؤنا، مع إن أسماءهم لم ترسخ في ذاكرتنا.

٤ نيسان ١٨٣٣

هبّت عاصفة رهيبة خلال الليل. اهتزّ الصيوان المرتفع الذي تتخلّله نوافذ عديدة لا زجاج لها حيث ننام، وكأنه مركب تلعب به العواصف. أذاب المطر بدقائق قليلة الطين الذي يكسو سطح البيت وتسرب الماء بغزارة إلى الداخل. لحسن الحظ، وَضعت أفرشتنا فوق ألواح خشبية بسطت فوق صناديق من صنع دمشق وحمتنا الأغطية شر البرد. لكن، عند الصباح، رأينا ملابسنا تتطاير في زوايا الغرفة. إن هذه العواصف مألوفة في دمشق وغالبًا ما تجرف في طريقها البيوت التي لم تؤسس على قاعدة صلبة من صخر. الطقس بارد ورطب خلال أشهر الشتاء. وكان هذا الشتاء قاسيًا إذ غمرت الثلوج أسواق المدينة وقطعت الطرق لمدة شهرين. أما حرّ الصيف فلا يُحتمل كما يُقال. هذا ما لم نلحظه إلى حينه، وكنا نوقد كل مساء تقريبًا المجامر التي يدعوها أهل البلاد «المنقل».

اشتريت جواد نزو آخر عربيّاً من أحد رجال البدو الذين التقيتهم عند أبواب المدينة. أصررتُ على مواكبة الفارس والدخول معه إلى السوق بطريقة لائقة وطبيعية.

كان الجواد أصغر حجمًا من ذلك الذي اشتريته من الآغا ولكن أقوى، وذا وبرٍ نادر أشبه بزهر الدراق، وينتمي إلى عرق من الجياد يسمونه «ملك المسير» . ابتعته بمبلغ أربعة آلاف قرش، وعندما امتطيته لأختبره، وجدت أنه أقل رقة من الأحصنة العربية الأخرى، متوحش الطبع ويصعب ترويضه لكن يبدو عليه أنه لا يكلّ، أمرت أحد السائسين بقيادة «تدمر» (هذا هو الاسم الذي أعطيته لجواد الآغا) أما أنا، فسأمتطي جوادي الذي أسميته «شام» طيلة الطريق.

وصل أحد قادة القبائل عن طريق تدمر بناءً على طلب من بودان الذي أوكل إليه أمر اقتيادي إلى تدمر وايصالي إلى هناك سليمًا معافىً، شرط أن أكون وحدي وأن أرتدي ثوب بدوي في الصحراء. تمَّ الاتفاق أن يترك ابنه كرهينة في دمشق حتى عودتي. أخذنا نتشاور في الأمر. كنت متشوقًا لرؤية آثار تدمر. لكن، بما أن آثار تدمر أقل أهمية من آثار بعلبك، وبما أنه يلزمنا على الأقل عشرة أيام ذهابًا وإيابًا، ولا يمكن لزوجتي مرافقتي، وبما أن الوقت قد حان للتوجّه إلى شاطئ البحر حيث سفينتنا بانتظارنا، عدلت عن رحلة الصحراء هذه وفي القلب حسرة. وما كان منا إلاّ أن تأهبنا للانطلاق من جديد بعد غدٍ.

٦ نيسان ١٨٣٣

انطلقنا من دمشق في الثامنة صباحًا مجتازين المدينة والأسواق المزدحمة بالحشود. تناهت إلى أسماعنا بعض الهمسات والشتائم. لا بدّ أنهم اعتبرونا جنود دعم لإبراهيم باشا. لم نخرج من المدينة عبر الباب الذي دخلنا منه إلى دمشق بل عبر بابٍ آخر. ولجنا بساتين بديعة في طريق يحف به شلال تظلّله الأشجار البديعة. تسلقنا الجبل وشاهدنا منه منظر دمشق البهي. توقفنا لنتأملها مرة أخرى لترسخ في ذاكرتنا صورتها الأبدية. أدركت حينئذٍ لماذا يضع التقليد العربي دمشق في مصاف الجنة

المفقودة. ليس هناك مكان في الأرض يشبه عدن كما تشبهها دمشق. سهلها الواسع الخصيب، التفرعات السبعة للنهر الأزرق الذي يرويها، الجبال الجليلة التي تكللها ، البحيرات الباهرة حيث تنعكس السماء على صفحتها، موقعها الجغرافي بين البحرين، اعتدال المناخ ... كل شيء يشير إلى أن دمشق كانت إحدى أولى المدن التي بناها أبناء البشر، وإحدى المحطات الطبيعية للبشرية الهائمة في أزمنة التاريخ الأولى. إنها إحدى تلك المدن التي رسمتها يد الله على وجه الأرض وعاصمة أُعدت مسبقًا لقدرها كالقسطنطينية، فهما المدينتان الوحيدتان اللتان اختارتهما السلطات العثمانية لتكونا أهمّ مركزين لها على امتداد الامبراطورية المترامية الأطراف. وما دامت هناك امبراطوريات في الأرض فستظل دمشق مدينة كبيرة واسطنبول عاصمة العالم. لا بدّ من محطة ساحرة للقوافل الآتية من الهند لدى الخروج من الصحراء وعند منفذ سهول سوريا الجوفاء وأودية الجليل وسواحل سوريا. هذه المحطة هي دمشق. تشبه دمشق مدينة ليون في فرنسا، التجارة فيها استدعت الصناعة وباتت مصنعًا كبيرًا أما سكانها فيبلغ عددهم أربعمئة ألف نسمة حسب ما يقول البعض ومئتي ألف نسمة، حسب ما يقول البعض الآخر. أجهل العدد الصحيح لسكانها وهذا أمر تستحيل معرفته على أية حال. كل ما يمكن أن يقال هو من باب التكهّن. لا يوجد في الشرق إحصاء دقيق وتبقى الأقاويل أشبه بوجهة نظر. إذا أجلت النظر في حركة الحشد الذي يملأ الشوارع والأسواق وفي عدد الرجال المسلحين الذين يندفعون خارجين من المنازل لدى أول إشارة تؤذن بثورة أو عصيان، وإلى اتساع رقعة المساحات التي تحتلها المنازل، لملت للاعتقاد بأن أرض دمشق تطعم مليون نسمة. ألقيت نظرة أخيرة عليها وتمنيت في قلبي أشياء كثيرة للسيد بودان والرجال الرائعين الذين رعوا إقامتنا وغمرونا بمحبتهم. يكفي القيام ببعض خطوات على متن أحصنتنا لتغيب عن أنظارنا إلى الأبد أشجارها العالية ومآذنها.

أشار العربي الذي يسير بالقرب من حصاني إلى بحيرة كبيرة عند الأفق

تتلألا عند أسفل الجبال، ثم روى لي قصة فهمت منها بعض الكلمات وأفهمني ترجماني البقية.

كان هناك راعٍ يحرس فوق إحدى القرى عند ضفاف هذه البحيرة في منطقة مقفرة وغير مأهولة من هذا الجبل العالي. ذات يوم، وحين كان يروي قطيعه، لاحظ أن ماء البحيرة تتسرب عبر منفذ تحت الأرض فأغلقه بصخرة كبيرة لكنه ألقى فيه عصاه التي كان يحملها. بعد فترة قصيرة من الزمن، شحَّ أحد الأنهار في إحدى مقاطعات بلاد فارس. عندئذٍ، أدرك السلطان أن الجوع يهدد بلاده بسبب النقص في مياه الري، استشار حكماء سلطنته وأرسل، عملاً بنصائحهم ، موفدين إلى كل الممالك المجاورة للوقوف على سبب تغيّر وجهة سير النبع ونضوب مياهه. كان هؤلاء الموفدون يحملون عصا الراعي التي حملها النهر. كان الراعي موجودًا في دمشق عندما ظهر هؤلاء الموفدون وتذكّر عصاه الملقاة في البحيرة، فاقترب وتعرف إلى عصاه في أيديهم، فأدرك أن بحيرته هي منبع النهر وأن غنى هذا الشعب وحياته كانا رهن يديه. فسألهم الراعي: «ماذا سيفعل السلطان لذلك الذي سيعيد المياه إلى نهره؟» وأجابوه : «سيزوجه ابنته ويعطيه نصف مملكته» فردّ عليهم قائلاً: امضوا إلى منازلكم فستعود مياه النهر إلى مجاريها قبل بلوغكم بلاد فارس وبشروا السلطان بالخبر وابعثوا المسرّة إلى قلبه» . صعد الراعي إلى الجبل وأزاح الصخرة الكبيرة من مكانها فاستعادت المياه مجراها عبر هذه القناة الجوفية، وفاضت من جديد مجاري النهر. أرسل السلطان موفدين جددًا مع ابنته إلى الراعي السعيد ومنحه نصف مقاطعاته.

لا يزال العرب يؤمنون بهذه التقاليد الرائعة إيمانًا تامّاً. لا يساور الشك أيّاً منهم لأن الخيال لا يخطئ أبدًا.

خيمنا مساءً على أحد منحدرات جبل عالٍ بعد ثماني ساعات من المسير في بلاد وعرة جرداء قاحلة وباردة. وصلت إلينا قافلة أقل عددًا من قافلتنا: إنه قاضي دمشق الذي ترسله القسطنطينية كل سنة وها هو يعود ليبحر من الإسكندرون. تسافر نساؤه

وأولاده في هودج مزدوج، موضوع على ظهر أحد البغال. وفي كل قسم من الهودج امرأة وعدة أطفال صغار. كل شيء محجوب عن الأنظار. سار القاضي ربع ساعة خلف نسائه يرافقه بعض العبيد المتطين أحصنتهم. تخطتنا هذه القافلة وذهبت لتخيم على مسافة أبعد. إنه فعلاً ليوم شاق، عشر ساعات من السير وسط البرد القارس في أودية مقفرة تماماً. مشينا ساعة في أحد مجاري الشلالات حيث الحجارة الضخمة المتدحرجة من الجبال أعاقت في كل لحظة درب الأحصنة. امتطيت لساعة أو ساعتين حصاني الجميل «تدمر» لكي أُريح «شام». وبالرغم من انقضاء ساعتين من المسير الشاق، كان هذا الجواد ينهب الأرض نهباً وكأنه غزالة تعدو فوق أرض الصحراء المحصبة. وفي لحظة ما، تقدم أفضل أحصنة الرهان في القافلة. «تدمر» جواد رقيق وذكي، عنقه وبياضه أشبه بالبجعة. صممت أن أصطحبه معي إلى أوروبا برفقة الجوادين الآخرين «شام» و «سعيد». ما إن نزلت عن صهوته حتى فرّ مني وقفز لموافاة العربي منصور الذي كان يهتم به ويسوقه. ألقى رأسه على كتفيه وكأنه كلب مغناج . ثمة مودة كاملة بين العربي والحصان كما بين الأوروبيين والكلاب. منصور وضاهر هما السائسان العربيان الرئيسيان اللذان اخترتهما عند ضواحي بيروت وكانا مستعدين لخدمتي منذ ما يقارب السنة. إنهما الأوفى والأعذب بين الناس. أضف إلى هذا أنهما يتحليان بالرصانة والذكاء والدأب وبالتفاني لسيدهم وأحصنته، وأنهما مستعدان دوماً للوقوف إلى جانبنا عندما يلوح خطر في الأفق. ما الذي يمكن أن يفعله قائد ماهر مع عرق مماثل من الرجال؟ لو كان لديَّ ربع ثروة ذاك المصرفي في باريس أو في لندن لجددت في عشر سنوات وجه سوريا. ذلك أن جميع العناصر المكونة للانبعاث موجودة في هذه البلاد. ما ينقص هو فقط يد لتجميعها وحكمة لإرساء خطة واضحة لحكمها وإرادة صادقة لقيادة شعبها.

أمضينا الليلة في نزل منعزل في أحد السهول المرتفعة نعاني من البرد القارس. وجدنا بعض الأحطاب وأشعلنا ناراً في الغرفة المنخفضة حيث افترشنا البسط . نفذت

منا المؤونة التي حملناها معنا من دمشق فصنعنا عجينًا من طحين الشعير المعد لأحصنتنا وأكلنا كعكًا مرّاً قاتمًا.

واصلنا المسير عند الصباح. مشينا اثنتي عشرة ساعة عبر بلاد قاحلة مقفرة إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة وجدنا فيها ملجأً وطعامًا مؤلفًا من الدجاج والأرز. كان المطر ينهمر فوقنا ويغمرنا طيلة النهار. بتنا على مسافة ثماني ساعات من وادي البقاع سالكين الطريق التي توصلنا إلى طرفه الشرقي، على مستوى أكثر انخفاضًا من بعلبك.

التاريخ نفسه

وصلنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر قبالة صحراء البقاع. توقفت القافلة وظهر بعض التردد في صفوفها. بدا السهل، منذ النقطة التي بلغناها وحتى سفح لبنان المنتصب كجدار من الجهة الأخرى، وكأنه بحيرة هائلة تتخللها بعض الجزر الصغيرة القائمة وذرى أشجار مغمورة بالماء وأطلال قديمة مترامية فوق تلة تبعد عنا مسافة ثلاثة فراسخ. كيف بالإمكان عبور هذا السهل المغمور بالماء دون دليل مجتازين طريقنا عشوائيّاً؟ يجب عبوره مع ذلك وإلاّ لن يتسنى لنا اجتيازه غدًا بسبب المطر الذي يواصل انهماره والشلالات التي تصب من كل ناحية سيولها في الصحراء. سرنا لساعتين على أقسام أكثر ارتفاعًا من السهل تزيدنا اقترابًا من التلة التي تظهر فوقها آثار الهياكل، تاركين على يسارنا بقايا مجهولة لمدينة لم تعد تملك اسمًا وهي مماثلة في القدم لبعلبك. تدحرجت قطع من الأعمدة الهائلة على جنبات التلة ورقدت في الوحل عند أقدامنا . غرب النهار وازداد المطر هطولاً ولم تعد هناك إمكانية للصعود إلى المعبد. بعد أن عبرنا تلك التلة، غاصت أحصنتنا في الماء حتى ركبها . وفي كل دقيقة، كان أحد بغالنا ينزلق متدحرجًا مع أمتعتنا في الحفر فيسعفه المكارون على النهوض.

جعلنا بدوياً يسير على بعد عشرين خطوة أمام القافلة لكي يتلمس حقيقة الوضع. لكن، ما إن بلغنا وسط السهل، حيث يحفر جدول بعلبك مجراه، لم تعد هناك أرض يابسة وتوجب علينا أن نجتاز المسافة التي تتراوح بين ثلاثين وأربعين قدمًا سباحة. ارتمى العرب الذين كانوا برفقتي في الماء مسندين رؤوس الأحصنة واستطاعوا أن يساعدوا زوجتي ووصيفتها الإنكليزية على العبور. وعبرنا نحن أيضًا سباحة وبلغنا جميعًا الضفة الأخرى للجدول. هبط الليل بشكل شبه تام فأسرعنا مستغلين ما تبقى من الغسق لاجتياز الوادي. مررنا بالقرب من كوخ أو اثنين يسكنهما بدو من بعلبك. لو هاجمونا في هذه اللحظة لوقعنا تحت رحمتهم لأن جميع أسلحتنا عاجزة عن إطلاق النار. ومعنا رجال البدو من أعلى شرفاتهم ولم ينزلوا إلى المستنقعات . وأخيرًا، عندما أسدل الليل ستائره تمامًا، راح السهل يعاود ارتفاعه وسرنا على الطريق الجافة التي تحاذي جبل لبنان. اتجهنا ناحية الضوء النائي المتلألئ على بعد ثلاثة فراسخ منا في الوهاد الجبلية. لا بدّ إنها مدينة زحلة. أمضّنا التعب وارتجفنا بردًا وتبللنا حتى العظام. وأخيرًا بلغنا أول التلال التي تحتضن المدينة. وهناك تنادينا على بعضنا وأحصينا عددنا فلاحظنا أن أحد أصدقائنا السيد دو كابماس لم يكن برفقتنا. فتوقفنا لمناداته وأطلقت بضع طلقات رصاص من البنادق ولكن ما من جواب . عندئذٍ، أرسلنا فارسين للبحث عنه فور دخولنا إلى زحلة احتجنا إلى ساعة من الوقت لعبور النهر الذي يجتاز المدينة.

جسر وحيد يصل حيّاً بآخر. شقّ على أحصتنا المنهكة أن تستعيد تماسكها فوق الرصيف الزلاقة للجسر المرتفع الذي لا حواجز على جانبيه. وأخيرًا استقبلتنا دار مطرانية الروم. أوقدت أشواك الغابات في الأكواخ المحيطة بالباحة. اصطلينا بها وجففنا أجسادنا. عاد العربيان اللذان أُرسلا للبحث عن صديقنا وقد أحضراه شبه مغمى عليه. حين وضع أمام الموقد، عاد إلى رشده. عثرنا في قعر صناديقنا المغمورة

بالماء على زجاجة من عرق قصب السكر. أعطانا المطران سكرًا ورحنا نحاول إنعاش رفيقنا المحتضر بكؤوس من البنش فيما كان مرافقونا العرب يحضرون طعامًا مؤلفًا من اللحم والأرز . لم يقدم لنا المطران البائس سوى ملجأ فقط، لكنّ فضول النساء والأطفال في زحلة كان من الشدة بحيث انهم ملأوا الباحة في كل لحظة ودفعوا أبواب غرفنا لرؤية المرأتين الأجنبيتين. فاضطررت إلى وضع مسلحين عربيين على باب الباحة لأمنعهم من الدخول.

في صباح اليوم التالي، استرحنا في زحلة لكي نجفف ثيابنا ونستعيض عن زاد الطريق الذي فسد بسبب طوفان البارحة. زحلة مدينة مسيحية صرفة، تأسست منذ بضع سنوات في أحد الوهاد الواقعة عند السفوح الأخيرة لجبل لبنان، وتدين بنموها السريع وازدهارها للعائلات المسيحية من الأرمن والروم الذين غادروا دمشق وحمص هربًا من الاضطهاد. يتراوح عدد ساكنيها بين ثمانية وعشرة آلاف نسمة وتنتج مقدارًا كبيرًا من الحرير يتنامى باطّراد. حمى الأمير بشير الشهابي، حاكم لبنان، زحلة ولم يعد لديها ما تخشاه من جولات قبائل بعلبك وسلسلة جبال لبنان الشرقية. يقوم السكان وهم مزارعون نشيطون وحاذقون بحراثة التلال المنحدرة من المدينة إلى السهل وزراعتها بطريقة تثير الإعجاب، لا بل إنهم يغامرون بزراعة الأقسام الأكثر قربًا من الصحراء. تتمتع المدينة بطلّة استثنائية للغاية وهي تجمع فوضوي من المنازل السوداء المبنية من الطين دون تناسق أو انتظام فوق نجدين منحدرين يفصل بينهما أحد الأنهار. أما الوهاد التي يسيل فيها النهر قبل أن يجري في المدينة والسهل فهي تكدس واسع وعميق من الصخور المتعامدة التي يمر السيل وسطها متدحرجًا من نجد إلى نجد مشكّلاً ثلاثة أو أربعة شلالات غزيرة تحتل كل مساحة هذه الجنود التي تبدو وكأنها مدرجات متعاقبة. يغمر زبد الشلال الصخور كلياً ويغمر سقوطه شوارع زحلة بدمدمة صاخبة لا تكل. لمحت بعض المنازل التي تتحلى بشيء من الأناقة وسط اخضرار أشجار الحور والعرائش العالية المحاذية لمساقط النهر. ها هنا يكمن منزل صديقنا

السيد بودان. والمنزل الآخر بالقرب منه دير للرهبان الموارنة. يجتاز النهر المدينة ببيوتها المتجمعة المعلقة بطريقة غريبة فوق الضفاف العالية التي تحف بمجراه، ثم يذهب من بعدها ليروي أراضي ومروجًا ضيقة أقام فيها السكان المهرة قنوات وزعت مياه النهر على ألف جدول. كانت الستائر المؤلفة من أشجار الحور الفارسي تحف بجنبات مجرى النهر وتلفت الأنظار إليها وكأنها جادة مزدهية خضراء تصل حتى صحراء بعلبك والقمم المكسوة بالثلج فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية. جميع السكان تقريبًا هم من الروم أو الروم السريان الذين أتوا من دمشق. تشبه منازلهم الأكواخ الحقيرة التي يملكها مزارعو السافوا أو بريس. ولكنك تجد في كل منزل حانوتًا ومشغلاً حيث ينكب السرّاجون وصانعو الأسلحة والساعاتيون على العمل بأدوات غليظة. بدا لنا الشعب طيّبًا ومضيافًا. لم يجفلهم منظر الأجانب مثلنا بل، على العكس، تحمّسوا لرؤيتنا واستمتعوا بها. هبوا يقدمون لنا جميع الخدمات التي يتطلبها وضعنا وبدوا فخورين بالازدهار المتنامي لمدينتهم. بدت زحلة مشروعًا أوليّاً جادّاً لمدينة نصرانية تجارية كبيرة معدّة لكي تشكل مزاحمة حقيقية لدمشق في ميدان التجارة بين ملة المسيحيين وملة المحمديين. وفي حال لم تؤدِ وفاة الأمير بشير إلى تدمير وحدة السلطة التي تصنع قوة لبنان، فإن زحلة ستكون ابتداءً من تاريخه وحتى عشر سنوات في عداد مدن سوريا الأولى. إذ إن جميع المدن تتراجع في حين إن المدينة لا تزال تنمو وتزدهر. جميعها تغفو وهي وحدها تعمل. إن العبقرية اليونانية الموجودة لدى الروم تعبّر عن ذاتها من خلال النشاط الذي يجري في دم هذا العرق الأوروبي في كل مكان يحلون فيه. لكن نشاط الروم الآسيويين مفيد وخصب. أما نشاط روم الموره والجزر اليونانية فليس إلاّ حركة عقيمة. إن هواء آسيا الطيب يجعل دم الروم أكثر رقة ويجعل منهم شعبًا دمثًا لطيفًا إلى حد الروعة، لكن الروم الآخرين الموجودين في أمكنة أخرى صلاب غالبًا. كذلك الأمر بالنسبة للجمال الخارجي لهؤلاء القوم، إن نساء الروم الآسيويات هن إحدى روائع الخليقة ومثالاً للظرف وبهجة للعين. أما نساء الموره اليونانيات فأشكالهن

نقية لكن قاسية، ونار أعينهن لاذعة قاتمة لا تلطف منها المرونة العذبة للروح أو حساسية القلب. أعينهن جمر متوقد، أما عيون نساء آسيا فشعلة مغلفة بأبخرة رطبة.

التاريخ نفسه

يتحدّر مطران الروم البائس في زحلة من عائلة حلبية حيث أمضى حياته منطبعًا بأناقة ومرونة عادات تلك المدينة التي هي أثينا الشرق. وجد نفسه في زحلة دون صداقات وموارد معنوية لكن تصرفاته احتفظت بجلال تصرفات الحلبيين ورهافتها . إلاّ انه، في ظلّ التجرد المفرط الذي يعيشه، لم يستطع أن يقدم لنا إلاّ كوخه المتواضع. تحدثنا إليه بالايطالية. وقبل رحيلي أعطيته صدقة تبلغ قيمتها خمسمئة قرش يوزعها على فقرائه أو يأخذها لنفسه، لا فرق، والسبب أنه بدا لي في حالة تقارب الفقر المدقع. فالكتب القليلة العربية واليونانية المرمية بشكل فوضوي في غرفته، والدرج العتيق الذي يحوي بذلاته وثيابه الكهنوتية هي كل ثروته. اتخذت لنفسي مرشدين في زحلة لأنني أردت أن أعبر لبنان من خلال دروب مجهولة. كانت الطريق العارية تقطعها الثلوج المتراكمة التي تساقطت هذا الشتاء. تسلقنا بادئ الأمر دروبًا لا تتصف بوعورة كبيرة وسط تلال زرعت بالعرائش وأشجار التوت. ثم وصلنا إلى منطقة الصخور والشلالات التي لا مجرى لها. مررنا بالقرب من ثلاثين شلالاً على الأقل في فترة لا تتعدى الست ساعات. شلالات تتدفق فوق المنحدرات بسرعة جنونية لدرجة انه لا يتسنى لها الوقت لتشق لها مجرى مؤلفة ستارًا من الزبد المنزلق فوق الصخر العاري والعابر سريعًا كأجنحة العصافير.

اكتست السماء بغيوم شاحبة حجبت الصنوبر، مع أن النهار كان لا يزال في أوجه. كنا غارقين تمامًا في أمواج الغيوم المتدحرجة وصعب علينا غالبًا أن نستشف مقدمة القافلة الغارقة وسط هذه الجادات القاتمة. وأخذ الثلج يتساقط ندفًا كبيرة ويغطي معالم الدروب التي حاول مرشدونا اكتشاف سبيلهم عبرها. كنا نسند بمشقة أحصنتنا المنهكة التي كانت تنزلق حوافرها الحديدية فوق الحافات الوعرة التي وجدنا

أنفسنا مرغمين على سلوكها. عبر الانفراجات القليلة التي أحدثتها الغيوم، بدا لأنظارنا الأفق السفلي البديع لوادي بعلبك وقمم سلسلة لبنان الشرقية والآثار الضخمة لهياكل البقاع التي يتساقط عليها النور. بدا لنا وكأننا نعوم في السماء لو أن المرقى الذي نرى منه الأرض، لم يعد جزءًا منها. إلاّ أن الرياح الصاخبة التي تجتاز شعب الجبال العميقة والمرتفعة بدأت ترجع أصواتًا مشؤومة طالعة من جوف الأرض شبيهة بزئير بحر هائج بعد العاصفة. عبرت الرياح مثل الصواعق تارة فوق رؤوسنا وتارة أخرى في مناطق سفلية عند أرجلنا جارفة معها كومًا من الثلج وكأنها أوراق ميتة وحجارة متطايرة، وكتلاً شبه ضخمة من الصخر وكأنها قذفت من فوهة مدفع. أصابت الحجارة اثنين من أحصنتنا فتدحرجا مع أمتعتنا في الهاوية. لكن أحدًا منا لم يصب بأذى. بدت خيولنا الفتية العربية التي سقناها بأيدينا مرتاعة. رفعت خطومها وأرسلت أصواتًا لا تشبه الصهيل كثيرًا بل صرخات مزمجرة تشبه الحشرجات البشرية. مشينا متلاصقين لنواجه شدّة العاصفة ونبذل المساعدة لبعضنا البعض. اشتد سواد الليل تدريجيًا وحجب الثلج الذي صفع أعيننا ما بقي لنا من ضوء نهتدي به. نثرت زوابع الريح نتف الثلج في كل الوهاد التي نسلكها فارتفع على شكل أعمدة تطال السماء ثم هبط مكتسحًا الأرض كزبد الأمواج العاتية فوق الصخور. مرّت لحظات استحال علينا فيها التنفس. كان مرشدونا يتوقفون عند كل لحظة مترددين مطلقين عيارات نارية لنهتدي بها إلى سبيلنا الصحيح لكن الريح الغاضبة بعثرت الدوي وجعلت طلقات الأسلحة شبيهة بصفعات سوط خفيفة.

إلاّ أننا، كلما توغلنا عميقًا في هذه الشعاب المتجهة صعدًا وسط جبال لبنان العالية، كنا نسمع خائفين زئيرًا غامضًا، مستمرّاً، عاتيًا يعلو بين الفينة والأخرى ويؤلف جهيرًا في هذه السمفونية الرهيبة التي عزفتها عناصر الطبيعة الغاضبة. لم نعرف مصدر الزئير. بدا لنا أن قسمًا من الجبل ينهار ويجرف معه ركامًا من الصخور. لامست الغيوم الكثيفة الأرض وحجبت عنا الرؤية. كنا نجهل مكان وجودنا. عندئذٍ رأينا أحصنة دون فرسان تعبر بالقرب منا وبغالاً دون أحمال وعددًا من الجمال

الهاربة على منحدرات الجبال المكسوة بالثلج. ثم رأينا مجموعة من البدو يتبعونها وهم يطلقون الصرخات. أنذرونا بالتوقف عن المسير مشيرين على مسافة أربعين أو خمسين قدمًا في الأسفل إلى كوخ مستند إلى كتلة صخرية محتجب عن أعيننا خلف الضباب. شاهدنا نارًا وعمودًا من الدخان يخرج من باب هذا الكوخ الذي انتزعت العاصفة جزءًا من سقفه المبني من جذوع الأرز الضخمة وبقي متدليًا على الجدار. كان هذا الكوخ الملجأ الوحيد المتوافر لنا في هذا القسم من لبنان : خان مراد بك وكان أحد البدو يسكنه خلال الصيف ليكون محطة لعابري القوافل يطعمون فيه جيادهم ويرتاحون فيه قبل مواصلة سيرهم إلى دمشق عبر هذه الطريق. انحدرنا باتجاه الكوخ بمشقة ، سائرين على مدرجات صخرية محتجبة تحت الثلج المتساقط. وفجأة، أصبح السيل الجاري على بعد مئة قدم في أسفل الخان الذي كان يتوجب علينا اجتيازه لنتسلق المنطقة الأخيرة من الجبال، نهرًا هادرًا جارفًا في تدفقه كتلاً من الصخر وحطامًا أحدثته العاصفة. فوجئ العرب الذين التقينا بهم بالزوابع فغمرتهم الثلوج حتى أوساطهم فألقوا الأحمال عن جمالهم وبغالهم أرضًا وفروا هاربين باتجاه خان مراد. وهكذا وجدنا الخان مزدحمًا بهؤلاء الرجال وبمطاياهم ولم نعثر على أي مكان لنا ولا لأحصنتنا. لكن الريح، في كنف الكتلة الصخرية التي يفوق حجمها المنزل، كانت مع ذلك أكثر سكونًا، وغيوم الثلج الآتية من قمم لبنان، العابرة فوق رؤوسنا، الماضية للارتماء في السهل، أقل كثافة مفسحة المجال لنا أحيانًا كي نلمح زاوية من السماء التمعت فيها بعض النجوم. بعد قليل، هجعت الريح تمامًا فنزلنا عن الأحصنة نبحث عن ملجأ لنا يتيح لنا تمضية الليل وربما عدة أيام في حال استمر السيل الذي نسمع هديره ولا نراه في تدفقه وأقفل المعبر أمامنا. وجدنا، تحت جدران الخان المتهدم وفي كنف قسم من أغصان الأرز التي كانت تؤلف سقف الكوخ، مسافة عشرة أقدام مربعة مليئة ثلجًا ووحلاً فجرفنا الثلج وبقيت طبقة من الوحل الرطب حيث تعذّر علينا أن نفرش بسطنا. فما كان منا إلاّ إن اقتلعنا من السقف بضعة أغصان وبسطناها مثل الحصيرة فوق التراب الرطب. وهكذا حالت هذه الأغصان دون أن تبتل حصرنا بالماء

وشكلت فرشتنا وسجاجيدنا ومعاطفنا أرضية أخرى. أشعلنا نارًا في إحدى زوايا هذا الملجأ وأمضينا الليل الطويل الممتد من ٧ إلى ٨ نيسان/إبريل ١٨٣٣ على هذه الحال.

ومن وقت لآخر، كانت العاصفة الهاجعة تستفيق من جديد، وبدا وكأن الجبل ينهار على نفسه. كانت الصخرة الهائلة التي يستند إليها الخان ترتجف مثل جذع شجرة تهزه العاصفة، وكانت زمجرة الشلال تملأ البحر والسماء بصيحات نحيب. لكن الأمر آل بنا أخيرًا للنوم واستيقظنا متأخرين على أشعة الشمس الباهرة الملتمعة فوق الثلج. رحل العرب رفاق دربنا. لحسن الحظ، حاولوا عبور الشلال ورأيناهم من بعيد يتسلقون التلال حيث يتوجب علينا اللحاق بهم. أعددنا الأهبة للرحيل نحن أيضًا وواصلنا السير لأربع ساعات في وادٍ عالٍ عند قمة جبل لبنان، ولم نكن نرى إلاّ الثلج تحت أقدامنا والسماء فوق رؤوسنا. كانت عيوننا المنبهرة بالضوء والصمت الكئيب الذي يحيط بكل خطوة نخطوها في هذه الصحارى الخطرة من الثلج المتساقط حديثًا الذي محا كل معالم الطريق. كل هذا جعل عبورنا بين الأعمدة المرتفعة للأرض وهي صلب هذه القارة، لحظة روحية جليلة. شاهدنا على غير قصد منا، كل نقطة عند الأفق وأدنى ظاهرة في الطبيعة. رأيت مشهدًا صعقني ولم أرَ بجماله من قبل. رأيت، فوق قمم لبنان، على خواصر تلة يحتجب نصفها عن شمس الصباح قوس قزح بديعًا. لم يكن يطوق السماء كبحر أثيري واصلاً السماء بقمة الجبل بل مضطجعًا فوق الثلج وملتفًا على شكل دوائر متلاحقة وكأنه أفعى ذات ألوان باهرة. كان أشبه بعش قوس قزح باغتناه عند أعلى قمة منيعة في جبل لبنان. كلما ارتفعت الشمس في السماء ولامست بأشعتها البيضاء الأكمة، بدأت دوائر قوس قزحٍ المتوجة بألف لون ولون، تتحرك وترفع أطرافها اللولبية المضيئة عن الأرض لتصعد باتجاه السماء بضع قامات وكأنها تحاول الارتماء باتجاه الشمس ثم لا تلبث أن تذوب أبخرتها الناصعة وتتساقط لآلئها السائلة من حولنا. جلسنا في منطقة تنأى عن الثلوج لكي نجفف أحذيتنا الرطبة في الشمس. وهناك لاحت أمامنا الأودية العميقة القاتمة التي يسكنها الموارنة. وفي زهاء ساعتين

انحدرنا إلى قرية «حمّانا» وجلسنا على قمة الوادي البديع الذي يحمل الاسم نفسه وحيث سبق لنا أن أمضينا ليلتنا عندما كنا متجهين إلى دمشق.

أمر شيخ القرية بأن تقدم لنا ثلاثة بيوت. كانت شمس الغسق تلتمع فوق أوراق أشجار التوت والتين العريضة و كان الرجال يعودون من الحقول حاملين محاريثهم، وكانت النساء والأطفال يجولون الأزقة بين المنازل ويحيوننا بابتسامة مضيافة ودودة. كانت البهائم تعود من الحقول مع أجراسها والحمائم والدجاجات تملأ سطوح الشرفات. صدحت أجراس الكنيستين المارونيتين ببطء عبر قمم السرو معلنة الطقوس الدينية التي ستقام غداً نهار الأحد. بدت هذه القرية بهيئتها وصخبها وسلامها أشبه بقرية جميلة في فرنسا أو في إيطاليا عثرنا عليها مخبأة عندما خرجنا من مهاوي لبنان وصحاري بعلبك وشوارع دمشق غير المضيافة. حصل هذا الانتقال بسرعة كبيرة وبعذوبة فائقة. واتخذنا القرار بقضاء يوم الأحد في رحاب هذا الشعب الرائع والخلود للراحة بعد المشقات التي كابدناها.

أمضينا النهار في «حمّانا». زوّدنا شيخ القرية وسوقها بمؤن وفيرة. وتوافدت نساء «حمّانا» لزيارتنا طيلة النهار. كنَّ أقل جمالاً بكثير من السوريات الساكنات عند شواطئ البحار. كن ينتمين إلى العرق الماروني الخالص وينضحن جميعًا عافية وصحة، لكن ملامحهن شديدة الحدّة ونظراتهن قاسية وبشراتهن شديدة النضارة. كنَّ يرتدين سروالاً أبيض وفوقه فستان طويل من القماش الأزرق المقوّر عند الصدر. تدلت العقود المصنوعة من القروش التي لا تحصى من أعناقهن وصدورهن وخلف مناكبهن. أما النساء المتزوجات فكن يكملن هذا الزي بطنطور فضي يبلغ طوله قدمًا وأحيانًا قدمًا ونصف القدم، يثبتنه إلى شعورهن المجدولة ويرفعنه فوق جباههن بطريقة شبه جانبية. ألحق هذا الطنطور عند طرفيه بوشاح من الموسلين يغطين به أحيانًا وجوههن، ولا يفارقهن أبداً ولا حتى أثناء النوم. كانت هذه الزينة غريبة ولا يمكن إدراك سبب

استعمالها إلاّ إذا عزوناه لغرابة أطوار النفس البشرية، تشوّه هؤلاء النسوة مثقلة حركاتهن ورؤوسهن وأعناقهن.

التاسع من نيسان

انطلقنا من «حمّانا» ذات صبيحة مغلفة بالضباب عند الخامسة صباحًا. مشينا ساعتين فوق المنحدرات الجرداء الوعرة لقمم لبنان المرتفعة المنحدرة باتجاه سهول سوريا. كان الوادي الذي تركناه إلى يميننا ينشق ويتسع أكثر فأكثر تحت وقع أقدامنا. من الممكن أن يكون اتساعه في هذا المكان حوالي فرسخين عرضًا وفرسخ عمقًا. كانت الأمواج النيرة لأبخرة الصباح تتجول لدنة وكأنها أمواج بحار عند الأفق ولا تتراءى عبرها إلاّ ذرى الجبال العالية ورؤوس أشجار السرو وبعض أبراج القرى والأديرة المارونية. ولكن، لم يمضِ وقت قليل إلاّ وهبَّ النسيم الآتي من البحر مرتفعًا بطريقة غير محسوسة مع الشمس فأجلى ببطء كل تلك الأمواج من الأبخرة وطواها كالأوشحة البيضاء التي راحت لتلتصق بالقمم المكسوة بالثلوج فتكوّن فوقها بقعًا رمادية خفيفة. وعندئذٍ انقشع الوادي بكامله أمام الرؤية. تُرى لماذا لا تملك العين لغة تستطيع أن تصف بكلمة واحدة ما تراه بنظرة واحدة؟ أودُّ لو أحتفظ في ذاكرتي إلى الأبد بالمشاهد والانطباعات التي تفوق الوصف لدى رؤيتي وادي «حمّانا».

أقف فوق ألف شلال تخترق جوانب الوادي بزبدها المتوثب وتنساب عبر كتل الصخر والمروج المعلقة وجذوع السرو وأغصان الحور والكروم البرية وأشجار الخروب القاتمة لتنزلق إلى قعر الوادي وتلتحم بالنهر المركزي الذي يجري على طول الوادي العميق جدًا بحيث لا أرى قعره. تتناهى إلى سمعي أحيانًا دمدمات مائه وحفيف أوراق أشجاره وزئير قطعانه والأصوات البعيدة الفضية لأجراس أدياره. يتراءى ظل الصباح في مجرى الشعاب حيث يتوثب الشلال الرئيسي. ألمح هنا وهنالك عند انعطافة بعض الأكمات الخط الأبيض للزبد الذي يرسمه مخترقًا هذا الظل الأسود. وفي الجهة نفسها

للوادي حيث نقف، رأيت ثلاثة أو أربعة نجود أشبه بمراقٍ طبيعية يبعد الواحد عن الآخر مسافة ربع فرسخ. هذه النجود التي يبلغ اتساع دورتها نصف فرسخ مكسوة تماماً بغابات الأرز والتنوب والصنوبر ذي المظلات الواسعة. كان ضوء الصباح ينساب بين الجذوع الضخمة الباسقة لهذه الأشجار . بين الفينة والأخرى، اخترقت أوراقها الجامدة أعمدة خفيفة من الدخان الأزرق المتصاعدة من أكواخ الفلاحين الموارنة والأقواس الحجرية الصغيرة حيث يعلق جرس القرى. كان هناك ديران فسيحان يشبهان قلاع القرون الوسطى، يمتدان على طول نجدين من هذه النجود المليئة بأشجار الصنوبر؛ التمعا في الشمس وكأنهما من البرونز النحاسي. رأينا في أسفل الأديرة رهباناً موارنة مرتدين قلنسواتهم السوداء يحرثون الأرض بين عرائش الكروم وأشجار الكستناء الضخمة. ارتفعت اثنتان أو ثلاث من هذه القرى على شكل هرمي ملتفة حول الأكمات الصخرية وكأنها خلايا نحل حول جذوع أشجار قديمة. وبالقرب من كل كوخ، بانت بعض باقات النباتات واخضرارها أكثر شحوباً: أشجار رمان وتين وزيتون بدأت تثمر عند هذا الارتفاع من الوادي. ويهيم النظر ليسرح أبعد من هذه المناظر، هناك في الظل الغامض في قاع الشعاب . لو اخترق النظر هذا الظل وارتفع ليجول الخاصرة المقابلة للجبال، لرأى، في بعض النواحي، أسواراً متعامدة من الصخور الغرانيتية المتطاولة حتى الغيوم. وفوق هذه الأسوار التي تبدو وكأن الطبيعة خرمتها، تُلمح بعض النجود التي تزينها النباتات الرائعة ورؤوس أشجار التنوب المتدلية عند حافات هذه الهاويات، وذرى أشجار الجميز التي تحتل حيّزًا كبيرًا من مساحة السماء. وخلف هذه الشُرف التي تشكلها النباتات تطالعك أيضاً أجراس القرى والأديرة التي لا يمكن التكهن بمداخلها. أما في الأماكن الأخرى فتتكسر الجوانب الغرانيتية التي تزنر الجبال مشكلة منافذ واسعة يهيم من خلالها النظر في ليل الغابات الذي تقطع حدته، هنا وهناك، نقاط مضيئة متحركة مؤلفة من مجاري الشلالات والبحيرات الصغرى المكونة من الينابيع. ثم تتوقف الصخور فجأة. وإذ ذاك تنفتح أودية مرتفعة، تكاد

الأنظار ألا تسبرها، وتغوص بين أسوار الثلج والغابات. وهنا ينحدر الشلال الرئيسي لـ «حمّانا» الذي نراه ينساب في بادئ الأمر وكأنه مزراب ينساب من سقف الثلج الفسيح، ليضيع في الحوض الهادر للسيول فينقسم إلى سبعة أو ثمانية تفرعات مبهرة، ثم يختفي خلف ربوات وأكمات قاتمة ليظهر من جديد خيطًا واحدًا من الزبد متلويًا أو منبسطًا تبعًا لحركة الانحدار السريعة أو البطيئة لهذه التلال. وأخيرًا يغوص في الوادي الرئيسي ويتساقط على شكل طبقة مائية يبلغ عرضها مئة قدم وارتفاعها مئة قدم. يغطي زبده المتطاير الذي تبعثره الريح هنا وهنالك ذرى أشجار الصنوبر الظليلة التي تحف بهذا المنحنى، بأقواس قزح عائمة. إلى يساري، يتسع الوادي منحدرًا إلى شواطئ البحر ويمنح الناظر جوانب تلاله الأكثر تشجيرًا وحراثة. ينساب نهره بين الأكمات المتوجة بالأديرة والقرى. على مسافة أبعد، ترتفع أشجار النخيل في السهل، خلف التلال المنخفضة المزروعة بأشجار الزيتون برؤوسها الخضراء المائلة إلى الأصفر مخترقة الخط الطويل للرمل الذهبي الذي يحف بالبحر ليهيم النظر أخيرًا في أبعاد حائرة بين السماء والأمواج.

ولا تقل التفاصيل التي تتخلل المشهد سحرًا عن المنظر العام فعند كل منعطف من الصخر، عند كل قمة من التلال حيث تحملك الدرب، تجد أفقًا جديدًا حيث المياه والأشجار والصخور وأطلال الجسور أو قنوات الماء والثلوج والبحر ورمل الصحراء الحارق، تنتزع منك كل على حدة صيحة إعجاب أو مفاجأة أو انبهار. لقد رأيت من قبل نابولي وجزرها، رأيت أودية أبينينو وأودية الألب والسافوا وسويسرا، لكن وادي «حمّانا» وبعض أودية لبنان الأخرى محت كل هذه الذكريات.

لكن ضخامة أحجام الصخور والمساقط المتعددة للمياه، نقاوة السماء وعمقها المتصل بآفاق البحار الواسعة، جمال خطوط القرى والأديرة المارونية المعلقة كأعشاش صنعها الناس على أعالٍ لا يجرؤ النظر الاقتراب منها، لون النبات القاتم حينًا المتداخل

مع لونها الشاحب حينًا آخر، جلال قمم الأشجار الضخمة التي تشبه جذوعها أعمدة من الغرانيت... كل ذلك يرسم المنظر ويلوّنه ويضفي عليه جلالاً خاطفًا يترك في النفوس انفعالات أعمق وأكثر ورعًا مما تثيره جبال الألب نفسها. فكل مشهد لا يدخل البحر في تكوينه لا يمكن أن يكون كاملاً. هنا البحر والصحراء والسماء تشكل الإطار المهيب للوحة المترامية أمام الأنظار، ما يجعل العين المنسحرة تنتقل دون توقف من أعماق الغابات الدهرية وضفاف الينابيع الظليلة، من قمة الأعالي الأثيرية، من المشاهد الوادعة للحياة الريفية أو الرهبانية، إلى المسافة الزرقاء التي تمخرها السفن ومنها إلى قمم الثلج المتصلة بالسماء قريبًا من النجوم أو فوق الأمواج الصفراء الذهبية للصحراء حيث قوافل الجمال ترسم في البعيد خطوطًا ملتوية كالأفاعي. من هذا التناقض المستمر تولد الأفكار المتصادمة والانطباعات المهيبة التي تجعل من جبال لبنان الصخرية قصيدة شعرية ساحرة.

التاريخ نفسه

نصبنا خيمنا ظهرًا وسط المرتفعات اللبنانية لنخفف من وطأة النهار. أتاني ساعٍ عربي كان ذاهبًا للبحث عني في دمشق. أودعني حزمة من الرسائل الآتية من أوروبا حيث علمت بخبر تعييني عضوًا في مجلس النواب. كان هذا الخبر حزنًا جديدًا يضاف إلى الأحزان الأخرى. لسوء الحظ، لو طُلب مني الاضطلاع بهذه المهمة في فترة سابقة، لرضيت بها عن طيب خاطر. ولكن الآن، كم أود أن تبعد هذه الكأس عني . لم يعد لدي مستقبل شخصي في دراما العالم السياسي والاجتماعي هذا. لم يتبق في داخلي هوى من أهواء المجد هذه أو الطموح أو الثروة التي تشكل القوة الدافعة لرجال السياسة. إن الأهمية الوحيدة التي يمكن أن تتصف بها هذه القرارات الشغوفة هي فائدتها الوطنية والإنسانية. لكن الوطن والإنسانية هما كائنان مجردان والبشر يريدون امتلاك اللحظة الحاضرة وأن يفوزوا بأي ثمن بمصالح عائلة أو طبقة أو حزب. ما فائدة الصوت

الهادئ والمحايد للفلسفة وسط صخب الوقائع التي تمتزج وتتصادم؟ من ذا الذي يرى المستقبل وأفقه التي لا حدود لها خلف غبار الصراع الدائر؟ ما الجدوى إذا كان الإنسان لا يختار لا طريقه ولا عمله. إنه الله يختاره لأداء أية مهمة وفقًا للظروف ولقناعاته. وعليه إتمامها . لكني لا أرى إلاّ التضحية المعنوية بالذات «إزاء المهمة الأليمة التي يطلب مني القيام بها. خُلقت للعمل. لم يكن الشعر بالنسبة إليَّ إلاّ تعبيرًا عن الكسل الذي استسلمت له والعمل الذي لم أقم به». انتابتني أفكار ومشاعر كان لا بد لي من تدوينها شعرًا تعبيرًا عن عجزي عن القيام بعمل مُجدٍ. لكن الفعل، اليوم، لم يعد يغريني. تعمقت كثيرًا في الأشياء الإنسانية فظلّت معانيها مبهمة. وفقدت جميع الكائنات التي يمكن لحياتي العملية أن تفيدها وسئمت كل إنسان يدّعي أنه يقوم بدوره على أكمل وجه. إن حياة مفعمة بالتأمل والفلسلفة والشعر والوحدة هي الملاذ الوحيد حيث يمكن لقلبي أن يستكين قبل أن يتحطم كلياً.

****

العودة إلى بيروت
والرحلة إلى أرز سليمان

١٠ نيسان ١٨٣٣

وصلنا البارحة إلى بيروت. أمضينا ساعتين في دير الفرنسيسكان بالقرب من القبر الذي دفنت فيه كل مستقبلي. لم تلح في الأفق بعد سفينتنا «l'Alceste» التي يُفترض بها أن تعيد نقل رفات ابنتي الغالية إلى فرنسا. استأجرت اليوم سفينة أخرى لننتقل نحن أنفسنا. صحيح أننا سنبحر معًا لكن هذا على الأقل سيجنب زوجتي أن تكون في الغرفة مع جثة ابنتها الطفلة! أو فيما كان يجري إعداد الترتيبات الضرورية لانتقال مثل هذا العدد الكبير من المسافرين في سفينة القبطان كولون «Coulonne» ذهبنا لزيارة كسروان وطرابلس الشام واللاذقية وأنطاكية وأرز لبنان الرابض على القمم الأخيرة للجبال خلف طرابلس. استقبلت هذا الصباح جملة زائرين من كل أصدقائنا في بيروت: الأمير الماروني الحاكم وحبيب بربارة جارنا في الريف الذي عاملنا منذ وصولنا، وخاصة مذ حلّت بنا المصائب، بمودة صديق حقيقي والسيد بيانكو قنصل سردينيا والسيد بوردا البياموني(*) (إيطالي الأصل) الشاب اللطيف الملحق بالقنصلية الذي أقصاه قدر غريب إلى صحاري الشرق فيما كان يفترض أن تجعله ثقافته وميوله وطبعه دبلوماسيًا مميزًا في أحد المجالس المتحضرة في أوروبا، والسيد لوريللا قنصل النمسا والسيد فارن القنصل العام والسيد آبوت القنصل الخاص لبريطانيا في سوريا وتاجر فرنسي شاب يدعى السيد أومان، كان اجتماعنا به مفيدًا وعذبًا مذ وصلنا إلى هنا، والسيد كابيه وهو رحّالة فرنسي والسيد جوريل وهو أول ترجمان للقنصلية، ترعرع في فرنسا ثم عُين منذ وقت مبكر في الشرق ويتقن لغات

(*) بياموني: اسم منطقة في إيطاليا.

تركيا والبلاد العربية وكأنها لغته الأم. شاب مستقيم وحيوي وذكي ومهذب بطبيعته ويجد لذة فائقة في خدمة الآخرين، وأخيرًا السيد غيز، قنصل فرنسا في سوريا وهو تجسيد حيّ للنزاهة الوطنية في هذه الأصقاع، يجله العرب، لكنه وصل إلى هنا منذ بعض الوقت ونلتقي به أقلّ مما نلتقي بزملائه.

سنحمل في قلوبنا كل أسماء هؤلاء الرجال الذين غمرونا برعايتهم ولطفهم وتعاطفوا معنا منذ سنة من الإقامة بينهم. ولا يمكننا والحالة هذه إلاّ الاحتفاظ لهم إلى الأبد، وبنسب مختلفة، بالذكرى والاهتمام وعرفان الجميل. ولولا الرسالة التي تلقيتها البارحة ولولا والدي العجوز الذي تعيدني ذكراه دومًا إلى فرنسا، لاخترت المكان الذي أنا فيه من بين الأمكنة في العالم لأمضي أيامي الباقية في حضن الوحدة والطبيعة الساحرة.

١٣ نيسان ١٨٣٣

غادرت هذا الصباح في الساعة الرابعة برفقة القافلة نفسها التي واكبتني في دمشق. سرنا بمحاذاة البحر حتى رأس البترون، وهذه الأمكنة وصفتها في مكان آخر، أمضينا الليلة في جبيل في أحد الخانات خارج المدينة فوق تلة تشرف على البحر. لا شيء يلفت الأنظار في هذه المدينة إلاّ مسجد ذو هندسة مسيحية كان فيما مضى كنيسة بناها كونتات طرابلس، على ما يبدو. يقال إن جبيل هي جبلة القديمة التي زود ابناؤها الملك أحيرام بكتل الحجارة التي أعدت لبناء هيكل سليمان. كان والد أدونيس قد بنى قصره فيها وشملت عبادة ابنه كل بلدان سوريا. في شمال المدينة قصر يلفت الأنظار بأناقته وارتفاع أقسام تحصيناته المختلفة. نزلنا في المدينة لنرى المرفأ الصغير حيث تتأرجح بضعة مراكب عربية. سكان جبيل هم حصرًا من الموارنة. جاءت امرأة عربية جميلة جدًا، مزينة على أكمل وجه لتزور زوجتي في خان القوافل. قدمنا لها بعض الهدايا الصغيرة. في اليوم التالي، واصلنا السير بمحاذاة الشاطئ وأسفل جبال البترون التي يغمرها البحر في كل مكان. نصبنا الخيم في أحد المواقع الرائعة

عند مدخل مقاطعة طرابلس وخلدنا للنوم. تنقطع الطريق الساحلية وتنعطف فجأة إلى اليمين لتتوغل في أحد الأودية الضيقة التي يرويها أحد الجداول وعلى مسافة فرسخ واحد تقريبًا من البحر، يضيق الوادي تمامًا وتصده صخرة يبلغ ارتفاعها مئة قدم تقريبا وقطرها من خمسمائة إلى ستمائة قدم. إنها قلعة المسيلحة. تحتضن هذه الصخرة الطبيعية أو المنحوتة عند قمتها قصرًا قوطيّاً لا يزال محافظًا على هندسته ويشكل الآن ملجأ لأبناء آوى والنسور. سلالم منحوتة في الصخر ترتفع على شكل جلول متعاقبة مكسوة بالأبراج والجدران المسننة ذات الشرفات وصولاً حتى السطح الأعلى وهناك ينتصب برج تتخلله نوافذ منحوتة على شكل أقواس قوطية . نما النبات في كل مكان من القصر والجدران ومرامي السهام . كذلك نمت أشجار جميز كبيرة ضاربة جذورها في القاعات وعلت برؤوسها الواسعة خارج السقوف المنهارة . أما النباتات المعرّشة المتساقطة على شكل أيكة هائلة واللبلاب المتشبث بالنوافذ والأبواب والحزاز الذي خدّش الحجارة في كل مكان، فكانت تمنح هذا الصرح الجميل القروسطي منظر قصر مبني من الخز واللبلاب. ثمة نبع جميل يسيل في أسفل الصخر تظلله ثلاثة أشجار دردار لم نرَ جمالاً يضاهي جمالها. إن ظل شجرة واحدة منها يكفي ليغطي خيمنا وأحصنتنا الثلاثين وجميع الفرق العربية المبعثرة التي تواكبنا.

في اليوم التالي، صعدنا منحدرًا شاهقًا ترابه أبيض زلق حيث استطاعت أحصنتنا بالكاد أن تتماسك. عند القمة، ترامى أمامنا منظر لا متناه لساحل سوريا الغربي كله وصولاً حتى خليج الاسكندرون وجبل طوروس، وتراءت لنا، قليلاً إلى اليمين سهول حلب وتلال انطاكية ومجرى العاصي. لا تزال أمامنا ثلاث ساعات من المسير كي نصل إلى أبواب طرابلس حيث سيكون أناس بانتظارنا على بُعد فرسخ من المدينة، التقينا بجماعة من التجار الفرنجة الشبان المنتمين إلى جنسيات مختلفة وببعض الضباط في جيش إبراهيم باشا الذين تقدموا باتجاهنا. استضافنا ابن السيد

لومبار، وهو تاجر فرنسي مقيم في طرابلس، باسم والده. خشينا أن نثقل عليه فذهبنا إلى دير الآباء الفرنسيسكان. كان هنالك راهب واحد يسكن هذا المنزل الشاسع فنزلنا بضيافته. أمضينا يومين في طرابلس وتناولنا العشاء عند السيد لومبار. شعرت بالغبطة للقائي بعائلة فرنسية يشعر كل فرنسي في كنفها بأنه يستقبل وكأنه فرد من أفراد العائلة. عند المساء أمضينا ساعة عند عائلة كاتشيفليس وهي عائلة من التجار الروم والقناصلة الروس، مقيمة منذ زمن سحيق في طرابلس الشام وتملك فيها قصراً بديعاً. كانت السيدة كاتشيفيليس وبناتها النساء الأشهر في سوريا بجمالهن وحسن تصرفاتهن التي تمزج بشكل رائع التحفظ الآسيوي المطعم بالاسترخاء اللذيذ للنساء الأوروبيات والأناقة المفرطة التي يتحلين بها. استقبلننا في دار فسيحة ذات قبة تضيء إحداها المكان وتضفي بركة مياه جارية في الوسط جواً من البهجة والانتعاش. كن يجلسن فوق ديوان نصف دائري رابض في آخر القاعة. وكانت الأرض مكسّوة ببسط فاخرة مزدانة بالنراجيل والغلايين وأواني الأزهار وزجاجات الشراب. وكانت كل واحدة من هؤلاء النسوة المرتديات الزي الشرقي تؤلف بجمالها المميز أجمل باقة يمكن لعين رجل أن تراها. أمضينا سهرة لذيذة نتحدث إليهن ونعدهن برؤيتهن مجدداً على طريق العودة.

كان شيخ «إهدن»، وهي آخر قرية مأهولة في قمم لبنان، خال السيد مزهر، الترجمان الذي يرافقني. أعلمه ابن اخته بوصولنا إلى طرابلس فنزل الشيخ الموقر من الجبال برفقة ابنه البكر وقسم من خدمه وأتى ليزورنا في دير الفرنسيسكان. ثم دعاني لزيارته في «إهدن» التي تبعد مسافة ثلاث ساعات عن أرز سليمان. إذاً، بإمكاننا الذهاب من «إهدن» لزيارة هذه الأشجار الدهرية التي ظللت بمجدها لبنان كله والتي كانت معاصرة للنبي الكبير، هذا إذا سمحت لنا الثلوج التي لا تزال تكسو الجبال لذلك، قبلنا الدعوة وتحدد الموعد في اليوم التالي.

عند الساعة الخامسة، كنا قد امتطينا صهوات أحصنتنا. كانت القافلة أكبر عددًا من المعتاد يتقدمها شيخ «إهدن» وهو شيخ جليل، يشبه بأناقة حركاته وتهذيبه النبيل الدمث وثيابه الرائعة، المشايخ العرب، يُخيل للناظر إليه أنه شيخ جليل يسير في مقدمة قبيلته. امتطى الشيخ فرسًا من الصحراء جديرة أن تكون بوبرها الكميت المذهب وفرعها المتطاير مطية لأحد أبطال ملحمة «القدس». كان ابنه وخدمه الرئيسيون يتقافزون على خيول بديعة، على مسافة خطوات أمامنا. ثم نتبعهم نحن ووراءنا قافلة طويلة من المكارين والسائسين. لدى خروجنا من طرابلس، ترامت أمامنا مشاهد رائعة. سرنا بمحاذاة نهر مندس بين تلتين، تظلّل ضفافه أجمل الأشجار وغابات البرتقال الضخمة. وفي ظلّ هذه الأشجار كشك شعبي يعرض مصطبته العطرة للمتنزهين، يقصد الناس المكان ليدخنوا أو يحتسوا القهوة و هم ينعمون بنضارة الهواء المنعش الذي تبثه مياه النهر. وهناك، عبر أحد المخارج، نلمح البحر الذي يقع على مسافة نصف فرسخ من المدينة والأبراج المربعة الجميلة التي بناها العرب على جانبي المرفأ والسفن العديدة الموجودة في المرسى.

اجتزنا سهلاً فسيحًا محروثًا ومزروعًا بأشجار الزيتون.على أول نجد مرتفع من هذا السهل الطالع باتجاه جبل لبنان، وسط غابة من أشجار الزيتون والأشجار المثمرة من كل نوع، التقينا بحشد هائل من الرجال والأطفال والناس المنتشرين على جانبي الطريق. إنهم سكان هذه القرية الكبيرة المنتشرة في ظل الأشجار وهي ملك شيخ «إهدن» الذي يمضي فصل الصيف في «إهدن» وفصل الشتاء في هذه القرية من السهل. حيّا هؤلاء العرب أميرهم باحترام وقدموا لنا المرطبات ورافقنا عدد منهم ليسوقوا لنا عجولاً وخرافًا ويساعدونا على اجتياز مهاوي الجبل. سرنا مسافة أربع ساعات تارة متوغلين في أودية عميقة وطورًا صاعدين ذرى الجبال شبه القاحلة. توقفنا عند ضفة شلال متساقط من قمم «إهدن» يجرف في انحداره قطعًا من الثلج شبه الذائب. في كنف إحدى الصخور، أشعل لنا الشيخ نارًا عظيمة فتناولنا الغذاء وتركنا

خيولنا ترتاح من عناء السفر في هذا المكان. وبعدئذٍ، كان الصعود سريعًا جدًا فوق الصخور الجرداء والزلقة كرخام مصقول. كان محالاً أن نفهم كيف أن الخيول العربية استطاعت أن تسلكها صعودًا وخاصة نزولاً . أحاط أربعة من مرافقينا العرب بكل حصان من أحصنتنا وسندوها باليد والكتفين. وبالرغم من هذه المساعدة، تدحرج عدة منها فوق الصخر لكن من دون حوادث تذكر. قادتنا هذه الطريق المرعبة أو بالأحرى هذا الجدار شبه العامودي، بعد ساعتين من الإجهاد، إلى نجد صخري حيث غاصت أنظارنا في وادٍ فسيح داخلي وفوق كتفه الأكثر ارتفاعًا عند منطقة الثلوج، بنيت قرية «إهدن». لا يوجد فوق «إهدن» إلا هرم هائل من الصخر الأجرد، آخر نتوء في هذا القسم من جبل لبنان، وتتوج قمته كنيسة صغيرة تتآكله رياح الشتاء باستمرار وتنتزع منه كومًا هائلة تدحرجها حتى القرية، فكل الحقول المجاورة مليئة بهذه الحجارة وقصر الشيخ نفسه محاصر بها من كل ناحية. اقتربنا من قصره وكان ذا هندسة غربية كليّاً. النوافذ بنيت على شكل أقواس قوطية متساوقة تفصل فيما بينها أعمدة صغيرة أنيقة، والشرفات التي هي بمثابة سطوح وصالونات مكللة بالنقوش المزخرفة.

أحيط الباب المقبب بمقعدين مرتفعين من الحجارة المنحوتة و كانت قوائم الباب مزدانة بالزخارف العربية. أطل الشيخ أمام بيته مع الذين وفدوا لاستقبالنا وكان ابنه الأصغر يحمل قدرًا صغيرًا من الفضة في يده ويحرق فيه عطورًا أمام أحصنتنا فيما راح إخوته يرشون الطيوب على أحصنتنا وثيابنا. كانت هناك مأدبة رائعة بانتظارنا في القاعة الكبرى حيث أوقدت في الموقد الكبير أشجار بكاملها. قدمت لنا خمور لبنان وقبرص الأكثر رهافة مع كمية هائلة من الطرائد. وحظي مرافقونا العرب الذين انتظرونا في الباحة بالعناية عينها. عند المساء، اجتزنا ضواحي القرية. كانت الثلوج لا تزال تكسو قسمًا من الحقول. رأينا في كل مكان أراضي محروثة على درجة عالية من الإتقان. إن أقل زاوية تراب بين الصخور تحتضن دالية أو شجرة جوز. كانت هناك سبل ماء لا عديد لها تجري في كل مكان تحت أقدامنا والقنوات الاصطناعية تنقل المياه

إلى الأراضي المزروعة المستندة إلى جلول بنيت على شكل كتل هائلة. لمحنا ديرًا بُني في كنف النتوء الصخري إلى يسارنا وقرى عديدة تلتصق أحدها بالأخرى منتشرة على جميع جنبات الأودية.

التاريخ نفسه

أرسل الشيخ ثلاثة من العرب ليستكشفوا لنا طريق الأرز ويتحروا ما إذا كانت الثلوج تسمح لنا بالوصول إلى هذه الغابة.عند عودتهم، قال لنا مرافقونا العرب إن الوصول إليها أمر محال لأن نسبة الثلوج في الوادي الضيق الذي ينبغي تجاوزه لبلوغ الأرز تصل إلى أربعة عشر قدمًا. رغبت في الاقتراب من الغابة أكبر قدر ممكن. رجوت عندئذٍ الشيخ أن يرضى بأن يرافقني ابنه وبعض الخيالة. تركت في «إهدن» زوجتي والقافلة التي كانت برفقتي وامتطيت أشجع جواد لدي وهو «شام». سرنا مع طلوع الشمس واستغرقت مسيرتنا ثلاث ساعات فوق رؤوس الجبال أو في حقول يكسوها الثلج الذائب. وصلنا على ضفاف وادي القديسين وهو شعاب ضيقة يسرح النظر فيه من أعلى الصخور فيرى أمامه واديًا أكثر ضيقًا وقتامة وجلالاً من وادي «حمّانا». في أعلى الوادي شلال ماء بديع يتساقط من ارتفاع مئة قدم على فسحة اتساعها مئتان أو ثلاثمائة قامة عرضًا. يرجع الوادي كله صدى هدير الشلال ووثبات السيل الذي يغذيه. وفي كل مكان ينساب الزبد فوق الصخور الموجودة في حنايا الجبل. امتدت أمامنا في عمق الوادي قريتان لا تكاد بيوتهما تختلف عن الصخور التي يدحرجها السيل، وتبدو قمم أشجار الحور والتوت مثل باقات من القصب أو النبات. انحدرنا في قرية «بشرّي» عبر أزقة منحوتة في الصخر وشديدة الوعورة لدرجة أنه يستحيل على المرء أن يفهم كيف يمكن للناس بلوغها. لا شك إن الكثير منهم يلقون حتفهم أثناء الطريق: إن حجرًا مرميّاً من القمة حيث نقف يمكنه أن يسقط فوق سقف هذه القرى التي لن نستطيع الوصول إليها إلاّ إذا واصلنا انحدارنا لمدة ساعة على الأقل. فوق الشلال والثلوج، تمتد حقول من الجليد التي تتموج مثل أبخرة ذات لون يتأرجح بين الأخضر والأزرق. على مسافة ربع ساعة تقريبًا إلى اليسار وفي وادٍ شبه دائري تحيط به آخر قمم لبنان،

شاهدنا بقعة سوداء كبيرة فوق الثلج: إنها غابة الأرز الشهيرة التي تكلل أشجارها جبين الجبل مثل تاج، في أسفلها تتشابك الأودية العديدة الواسعة وأمامها عند الأفق البحر والسماء. أخذنا نحث أحصنتنا لكي تقترب أكبر قدر ممكن من الغابة، لكن ما إن وصلنا على مسافة خمسة أو ستة أقدام من الأشجار حتى غاصت الجياد في الثلج حتى أكتافها فتحققنا من أن ما قاله العرب صحيح وأنه لن يتسنى لنا ملامسة هذه الأشجار المقدسة بأيدينا ، تلك الذخائر الصامدة في وجه العصور الطبيعية فنزلنا عن أحصنتنا وجلسنا فوق صخرة نتأملها.

تشكل هذه الأشجار الصروح الطبيعية الأكثر شهرة في العالم، فالدين والشعر والتاريخ كرّسها أيضًا. واحتفلت بها الكتب المقدسة في غير مكان. إنها إحدى الصور التي آثر الأنبياء استخدامها. كرّسها سليمان عندما استخدم جذوعها لتزيين أول معبد شيده إكرامًا للإله الواحد، وهذا يشي بالشهرة والقداسة التي حظيت بها تلك الأشجار منذ تلك العهود. هذه هي فعلاً الأشجار التي تحدث عنها حزقيال حين وصف أرز «بشري» بأنه أجمل أشجار لبنان. يكنّ العرب إجلالاً تقلّيديّاً لأشجار الأرز وينسبون إليها ليس فقط قوة محيية تجعلها تعيش إلى الأبد بل أيضًا روحًا تمكنها من التحلي بعلامات الحكمة والتنبؤ، شبيهة بتلك العلامات التي تثيرها الغريزة لدى الحيوانات ويحفزّها الذكاء لدى الناس. تعرف الأرزات الفصول مسبقًا وتحرّك أغصانها الفسيحة وكأنها أطراف، تضم مرافقها أو تبسطها، ترفع أفنانها إلى السماء أو تحنيها إلى الأرض إيذانًا بحلول فصل الشتاء وتساقط الثلج أو ذوبانه. إنها كائنات قدسية تجسدت أشجارًا وهي لا تنمو إلاّ في هذا الموقع الوحيد من جبال لبنان وتضرب جذورها في هذه المرتفعات التي لا حياة فيها لأية نبتة أخرى. إن هذا الأمر يثير الدهشة في مخيلة شعوب الشرق، ولا أعرف ما إذا كانت الدهشة تصيب العلم نفسه، ولكن يا للأسف، أرز لبنان يصيبه السقم وكرمل لبنان وزهرته يذبلان. فهذه الأشجار تضؤل مع انقضاء كل قرن.

أحصى الرّحالة قديمًا ثلاثين أو أربعين شجرة دهرية، ثم صار عددها سبع عشرة ليتضاءل إلى اثنتي عشرة شجرة. والآن، لم يعد هنالك إلاّ سبع أشجار ترقى، إذا عاينا أحجامها، إلى الأزمنة التوراتية. وبالقرب من هذه الأشجار الأشبه بشهود قدامى للعصور المنصرمة، التي تعرف تاريخ الأرض أكثر من التاريخ نفسه وتروي لنا، لو استطاعت الكلام قصصاً لا عديد لها عن الإمبراطوريات والأديان والأعراق البشرية المندثرة، لا تزال هنالك غابة صغيرة من أشجار الأرز الأكثر حداثة، وبدت لي وكأنها تؤلف تجمعًا من أربعمائة أو خمسمائة شجرة أو شجيرة. وفي شهر حزيران من كل سنة، يصعد أهالي «بشري» و«إهدن» و«قنوبين» وكل القرى في الأودية المجاورة إلى الأرز يحتفلون بالذبيحة الإلهية في ظلها. كم من الصلوات تُليت تحت هذه الأغصان! وهل هناك معبد أجمل، هل هناك مذبح أقرب إلى السماء هل هناك قبة أكثر جلالاً وقداسة من هذا النجد الأخير في لبنان، من جذوع الأرز وهذه الأغصان المقدسة التي ظلّلت ولا تزال تظلّل أيضًا أجيالاً إنسانية جمة تتلفظ باسم الله بطريقة مختلفة ولكن تمجده في أعماله وفي جمالات الطبيعة أينما تجلت! أنا أيضًا صليت في حضرة هذه الأشجار. وكانت الريح التي ترجع الأغصان الرنانة صداها تعبث بشعري وتجمّد فوق أهدابي دموع الألم والخشوع.

صعدت صهوة حصاني من جديد وسرت ثلاث ساعات فوق النجود التي تتوزع أو تنتشر فوق أودية «قاديشا» ثم نزلت إلى «قنوبين»، إلى الدير الماروني الأكثر شهرة بين الأديرة في وادي القديسين. وشاهدنا دير مار سركيس المهجور الآن والذي لا يسكنه إلاّ ناسك أو ناسكان. أشار الرحّالة برخارد في عام ١٨١٠ أنه التقى فيه بناسك توسكاني عجوز جاء لينهي أيامه في الدير بعد أن كان مرسلاً في الهند ومصر وبلاد فارس.

رأينا دير قنوبين من أعالي صخرة تتقدم فوق الوادي وكأنها مطل. أوكلت جوادي إلى مرافقيّ العرب واستلقيت في الشمس، فوق صخرة مسنة حيث يمكن للنظر أن يسرح من الأعالي إلى هاوية وادي القديسين. في أسفل هذه الصخرة، يجري نهر

قاديشا وليس مجراه إلاّ خطّاً من الزبد. لكن المكان حيث أنا مرتفع جدًا بحيث إن دمدمة النهر لا تتناهى إليَّ. أسّس ثيودوسيوس الكبير دير قنوبين بحسب قول الرهبان الموارنة . يشبه وادي القديسين كله صحن كنيسة فسيحًا وطبيعيّاً تشكل السماء قبته وقمم لبنان أعمدته وصوامع النساك التي لا تُحصى المحفورة في جوانب الصخر مصلياته ، هذه الصوامع المعلقة فوق هاويات منيعة لا يمكن سلوكها . منها ما تشبه أعشاش السنونو على امتداد المرتفعات في جوانب الوادي. ومنها مجرد مغاور محفورة في الصخر والأخرى بيوت صغيرة مبنية بين جذور بعض الأشجار على المنحدرات المتقدمة للجبال. يقع الدير الكبير في الأسفل على ضفة الشلال ويوجد فيه أربعون أو خمسون راهبًا مارونيّاً يعمل بعضهم في الحراثة وبعضهم الآخر في طباعة كتب تعليم أولية للشعب. إنهم رهبان ممتازون، أبناء الشعب وأباؤه، لا يكسبون رزقهم إلاّ بعرق جبينهم، لا بل يعملون ليل نهار لتقدم إخوانهم. رجال بسطاء لا يطمعون بأي ثروة أو شهرة في هذا العالم. لا يتوقون إلاّ للعمل والصلاة، إلاّ للعيش بسلام والموت في النعمة بعيدًا عن البشر، هذا كل ما يطمح إليه الرهبان الموارنة.

التاريخ نفسه

بالأمس، عبرت من جديد المنحدرات الأخيرة لجبال الألب اللبنانية هذه. حللت ضيفًا على شيخ «إهدن» القرية العربية المارونية المعلقة فوق النتوء الأكثر حدة لهذه الجبال، عند حدود الغابات الأخيرة، ولا يقطنها سكانها إلاّ صيفًا. جاء الشيخ الجليل المحترم الذي كان أتى للبحث عني برفقة ابنه وبعض من خدمه حتى حدود طرابلس الشام ثم استقبلني في قصره في «إهدن» بجلال وطيبة قلب وأناقة في التصرف وكياسة تضاهي الكياسة التي يتحلى بها أرباب البلاط في عهد لويس الرابع عشر. كانت الأشجار المقتلعة كما هي تحترق في الأتون الواسع، وكانت الخراف والجديان والأيائل ممددة على شكل كدسات في القاعات الفسيحة، وكان يؤتى بخوابي خمور لبنان الدهرية الذهبية من القبو لتصب لأجلنا ولأجل مرافقينا. بعد أن أمضينا بضعة

أيام وسط هذه العادات الهوميرية الجميلة الشاعرية كالأمكنة التي احتضنتها، عرّفني الشيخ على ابنه البكر وعدد من الفرسان العرب لمرافقتي في زيارة أرز سليمان، تلك الأشجار الشهيرة التي تكلل حتى أيامنا هذه أعلى قمة في لبنان والتي كُرمت قداستها لقرون خلت بصفتها الشاهدة الأخيرة على مجد سليمان. لن أتطرق إلى وصفها هنا.

عند انقضاء هذا النهار الذي لا يمكن لرحالة أن ينساه، تهنا بين نتوءات الصخر في الأودية العديدة الشاهقة التي تمزّق جبال لبنان من كل ناحية. وجدنا أنفسنا فجأة على الكتف المسنن لجدار صخري هائل يقع على عمق بضعة آلاف قدم ويحيط به وادي القديسين من كل جانب . كانت جوانب هذا السور الغرانيتي عمودية جداً لدرجة أن غزلان الجبال نفسها لا تستطيع أن تجد فيها موطئًا لقدمها، وأن العرب الذين كانوا برفقتنا اضطروا للزحف على بطونهم والانحناء فوق الهاوية لاستكشاف عمق الوادي. وحين مالت الشمس نحو المغيب سرنا ساعات طوالاً لنهتدي إلى الدرب ونبلغ «إهدن» من جديد. نزلنا عن الأحصنة وسلّمنا أمرنا إلى مرشدنا الذي يعرف، على مسافة غير بعيدة، درجًا حجريّاً نحته سابقًا الرهبان الموارنة وهم السكان الدهريون لهذا الوادي. تتبعنا لبعض الوقت حافات المنحدر ونزلنا عبر هذه الأدراج الزلقة لنصل إلى ساحة تشرف على كل هذا الأفق.

كان الوادي ينخفض بادئ الأمر عبر انحدارات فسيحة وناعمة عند أسفل الثلوج وأشجار الأرز التي شكلت بقعة سوداء فوق هذه الثلوج. وهناك توالت المروج الخضراء المصفرة والطرية شبيهة بالمروج في قمم الجورا أو الألب. اخترقت خيوط الماء المتشابكة المزبدة المنسابة من أسفل الثلوج الذائبة هذه المرجات المعشوشبة، ثم اتحدت لتصير كتلة واحدة من الدفق والزبد عند نهاية أول مدرج صخري. وهنا يتوغل الوادي فجأة على عمق أربعمائة أو خمسمائة قدم عمقًا ويتدفق الشلال على طوله ليمتد على مسافة واسعة غامرًا تارة الصخر وكأنه غلالة مائعة شفافة وينفصل عنه طورًا على شكل قناطر مندفقة لينهال أخيرًا فوق كتل هائلة ومسننة من الغرانيت المتحطم من القمة

والمتكسر على شكل خرق عائمة مدويّاً مثل قصف رعد أبدي. كانت الريح المندفعة من قوة سقوطه تصل إلينا حاملة معها الغلالة التي تكتسيها أبخرة الماء المتلألئة بألف لون ولون وتبعثرها هنا وهنالك على الوادي بكامله أو تعلقها كقطرات ندى فوق أغصان الشجرات ونواتئ الصخر. يزداد وادي القديسين توغلاً حين ينبسط إلى الشمال واتساعًا، ثم، على مسافة فرسخين من المكان الذي نقف فيه، ينتصب جبلان أجردان مكسوان بالظلال ويقتربان وهما ينحنيان أحدهما باتجاه الآخر تاركين فتحة ضيقة تبلغ بضع قامات بين حافتيهما، وهناك ينتهي الوادي ويضيع مع مروجه وكرومه العالية وأشجار حوره وسرواته وشلاله الأبيض الحليبي المتدفق. وفوق الرابيتين اللتين تضغطان على خناقه على هذا النحو، نلمح، عند الأفق، بحيرة زرقاء أكثر دكنة من السماء، قطعة من بحر سوريا يؤطرها خليج بديع تؤلفه جبال لبنان الأخرى. يبعد هذا الخليج مسافة عشرين فرسخًا منا، لكن شفافية الهواء تظهره كما لو كان عند أقدامنا وتتراءى لنا سفينتان شراعيتان معلقتان بين أزرق السماء وأزرق البحر أشبه ببجعتين تحلقان في الأفق قبالتنا. كان هذا المنظر أخاذًا لدرجة أننا لم نستطع أن نجيل بنظرنا على أي تفصيل في الوادي، ولكن، عندما تلاشت دهشتنا الأولية، وعندما استطاع نظرنا أن يخترق أبخرة المساء والمياه العائمة، امتد أمامنا مشهد ذو طبيعة أخرى.

عند كل منعطف من الشلال حيث يترك الزبد مكانًا صغيرًا لليابسة، يرتسم دير للرهبان الموارنة، دير حجري من لون بني دموي فوق الصخور الرمادية ويتصاعد دخانه في الهواء بين قمم الحور والسرو. وحول الأديرة، حقول صغيرة نحتت في الصخر متحدية الشلال وبدت شبيهة بالبقع المزروعة بإتقان كبير حول بيوت الريف في فرنسا. كان يُلمح هنا وهناك هؤلاء الرهبان الموارنة الذين يرتدون قلنسواتهم السوداء ويعودون من عملهم في الحقول، يحمل بعضهم المعول فوق أكتافه ويسوق بعضهم الآخر قطعانه الصغيرة المؤلفة من المهور العربية أو يمسكون سكة المحراث ويهمزون عجولهم بين أشجار التوت. إن الكثير من أماكن الصلاة والعمل هذه معلّقة مع كنائسها

الصغيرة وصوامعها فوق الرؤوس المتقدمة لسلستي الجبال الهائلتين. وكان عدد كبير منها محفوراً مثل كهوف البهائم المتوحشة في الصخر نفسه ولا يُرى منها إلاّ الباب الذي تعلوه قوس قوطية فارغة يتدلى منها الجرس، وبعض الشرفات المنحوتة تحت القبة الصخرية نفسها، حيث يتردّد الرهبان العجائز والعجزة لتنشق الهواء أو الجلوس تحت أشعة الشمس الدافئة. وعلى حافات بعض الهاويات، لا يستطيع النظر التعرف على أي مدخل. ولكن، في هذه الحافات أيضاً والمشارف توجد أديار وعزلات ومصليات وصوامع وبعض وجوه المتوحدين الذين يتنقلون بين الصخور والشجيرات ليعملوا أو يقرأوا أو يصلوا. كان أحد هذه الأديرة مطبعة عربية مهمتها تثقيف الشعب الماروني. لمحنا على المصطبة جماعة من الرهبان الذين يروحون ويجيئون ويبسطون فوق حصائر القصب الصفحات البيضاء من الورق الرطب. لا شيء يستطيع أن يصف، إلاّ الريشة، الجمال المتعدّد لهذه العزلات. يبدو وكأن كل صخرة فيها قد أنجبت حجيرتها ، كل مغارة صومعتها، كل نبع حركته وحياته، كل شجرة متوحدها يلوذ بظلها. حيثما يقع نظرك، ترى الوادي والجبل والهاويات تمتلئ حيوية، ترى مشهد حياة أو صلاة أو تأمل طالعًا من هذه الكتل الأبدية أو ملتحمًا بها لتمجيدها.

لكن الشمس غربت فتوقفت أعمال النهار وعادت جميع الوجوه السوداء المنتشرة في الوادي إلى مغاورها أو إلى أديرتها. قرعت الأجراس في كل مكان مؤذنة بحلول ساعة التأمل وصلوات المساء. صدح بعضها بأصوات قوية مرتجة أشبه بالرياح العاتية فوق البحار، ورندح بعضها الآخر بأصوات عذبة فضية أشبه بزقزقة العصافير في حقول القمح، أو بأصوات شاكية وبعيدة كتأوهات الليل أو الصحراء كانت كل هذه الأجراس تتنادى من الضفتين المواجهتين للوادي مرجعة آلاف الأصداء في المغاور والهاويات التي بدت كدمدمات مبهمة حائرة ممتزجة بهدير الشلال وأشجار الأرز وآلاف مساقط الينابيع الرنانة المخترقة جوانب الجبال. ثم سكن كل شيء لوهلة وملأت الوادي ضوضاء أكثر عذوبة وشجنًا: إنه صوت الأناشيد المرتفعة معًا من كل دير

وكنيسة ومصلى وصومعة في الصخر فامتزجت وتصاعدت إلينا وكأنها دمدمة واسعة تشبه نشيجًا واحدًا عذبًا ملأ الوادي روحًا وصوتًا. ثم عطّرت غيمة هذا الجو الذي تتنسمــه الملائكة . بقينا صامتين مسحورين كهذه الأرواح العلوية التي، حين حلّقت لأول مــرة فوق الكوكب وظنّت أنه مقفر، سمعت فجأة صــلاة البشر تتصاعد من جنبات هذا الوادي نفسه. وعندئذٍ، أدركنا ما معنى صوت الإنسان وقدرته على إحياء الطبيعة الميتة.

ولكن!!! أنّى للشعر أن يكون في نهاية الأزمنة، غدًا حين تنطفئ المشاعر البشرية، إلاّ عبادة ونشيدًا على هذه البسيطة.

١٢ نيسان/ أبريل ١٨٣٣

نزلنا إلى طرابلس الشام مع الشيخ وقبيلته. أعطيت ابنه قطعة من قماش حريري تصلح غطاء لديوان . أمضيت نهارًا أجول فيه ضواحي طرابلس الفاتنة، ثم أعددت الأهبة للرحيل عبر البحر. أمضينا خمسة أيام ونحن نشحن أمتعتنا على السفينة الشراعية «La SophiéA» التي استأجرتها. قمنا بالتحضيرات اللازمة استعدادًا لرحلة مصر وبمراسم وداع أصدقائنا من الفرنج والعرب. وهبت العديد من أحصنتي وجعلت ستة من أجملها ترحل في إمرة فرسان عرب وثلاثة من أفضل السائسين بغية اجتياز سوريا وأرمينيا وانتظاري في أول تموز على شاطئ خليج ماكري قبالة جزيرة رودس في آسيا الصغرى. وعند طلوع النهار، في ١٥ نيسان ١٨٣٣، خرجنا من المنزل الذي قبلنا فيه جوليا للمرة الأخيرة قبل أن تغادرنا إلى السماء و غمرنا أرض غرفتها بآلاف القبلات وبلّلناها بالدموع. أضحى هذا المنزل بالنسبة لي بمثابة ذخيرة مقدسة. أجلت النظر فيه مرة أخرى. رأيت العصافير والحمائم وحصان جوليا والحديقة والفتاتين السوريتين الجميلتين اللتين كانتا تسكنان تحت نوافذنا في الحديقة. نهضتا قبل الفجر وارتديتا أجمل حليهما. أجهشتا بالبكاء. رفعتا أيديهما باتجاهنا منتزعتين الأزهار من شعورهما. قدّمت لكل واحدة منهما، على سبيل الذكرى، عقدًا يحوي قطعًا

ذهبية، هدية مسبقة لزواجهما، هبة من أصدقاء أجانب لن تتسنى لهما رؤيتهم مرة أخرى. كانت إحداهما، وتدعى أناستازيا، إحدى أجمل الفتيات اللواتي رأيتهن في الشرق.

البحر صافٍ مثل مرآة، والمراكب المحمّلة بالأصدقاء الذين أتوا لمرافقتنا حتى الشاطئ حتى موعد إبحار سفينتنا. أقلعنا مع الريح الشرقية الناعمة. اختفت شواطئ سوريا المزينة بسجف الرمل مع رؤوس أشجار النخيل، وطاردتنا القمم البيضاء لجبال لبنان على طول البحر لمسافة لا يستهان بها. اجتزنا ليلاً رأس الكرمل. وعند طلوع الصباح، وصلنا إلى مستوى عكا، قبالة خليج حيفا. البحر صافٍ ومجموعة من الدلافين تخترق الأمواج وتتقافز حول السفينة. كان كل شيء في الطبيعة ينضح فرحًا وابتهاجًا، فوق الأمواج وحول هذه السفينة التي تحمل على متنها قلوبًا ماتت فيها كل بهجة وصفاء. أمضيت الليلة على سطح السفينة. ما الأفكار التي جالت في بالي؟ قلبي وحده يعرف ذلك. ولجنا ضفاف الجليل المنخفضة. تتلألأ يافا مثل صخرة طباشيرية عند الأفق فوق شاطئ من الرمل الأبيض. توجهنا إليها وارتحنا فيها لبضعة أيام. لم تشأ زوجتي وبعض من أصدقائي، الذين لم يستطيعوا مرافقتي في رحلتي إلى القدس، أن يمروا على هذه المسافة القريبة من القبر المقدس للمسيح دون الذهاب لزيارته والانتحاب قليلاً هناك. عند المساء، برد الهواء وألقينا المرساة عند الساعة السابعة في مرسى يافا الهائج. كانت الريح من الشدّة بحيث يتعذّر إنزال القوارب خارج السفينة. في اليوم التالي نزلنا من السفينة كلنا. وجرى تحضير قافلة بفضل مساعي السيد دمياني وعقيلته وهما من أصدقائي القدامى ومن الوكلاء الفرنسيين في يافا. سارت القافلة عند الساعة الحادية عشرة لكي تذهب لقضاء الليلة في رملة. أما أنا فبقيت وحيدًا عند السيد دمياني.

أمضيت خمسة أيام أجول وحدي في الضواحي. رافقني في رحلتي بعض الأصدقاء العرب الذين تعرفت إليهم في يافا خلال الجولتين السابقتين اللتين قمت بهما، واصطحبوني إلى الحدائق التي يملكونها في ضواحي المدينة. إنها غابات كثيفة

من أشجار البرتقال والحامض والرّمان والتين، أشجار باسقة كالجوز في فرنسا. وهذه البساتين مزنرّة بصحراء غزة من كل جهة. ثمة عائلة من الفلاحين العرب تعيش في كوخ مجاور للبساتين حيث ترى أيضًا خزانًا أو بئرًا وبضعة جمال وعنزات وخراف وحمائم ودجاج. الأرض مكسوة بثمار البرتقال والحامض المتساقطة من الأشجار.

نُصبت خيمة عند ضفاف إحدى قنوات الري التي تسقي الأرض المزروعة بالبطيخ الأصفر والخيار. بُسطت سجاجيد وأديرت فتحة الخيمة باتجاه البحر لكي يصل إليها النسيم الذي يهب منذ العاشرة صباحًا وحتى المساء. كان النسيم يتعطر لدى مروره بين أشجار البرتقال حاملاً غيومًا عابقة بأزهار البرتقال. تراءت لنا قبب مآذن يافا والمراكب التي تأتي من آسيا الصغرى إلى مصر أو تذهب إليها. هكذا أمضيت نهاراتي. كتبت بعض الأشعار عن الأفكار التي راودتني. وددت البقاء هنا. كانت يافا معزولة عن الكون بكامله، عند ضفة صحراء مصر الكبرى حيث الرمل يكوّن كثبانًا بيضاء حول غابات الليمون هذه تحت سماء صافية دافئة. أجل، بإمكان يافا أن تكون ملاذًا لرجل سئم من الحياة ولا يرغب إلاّ بمكان صغير تحت الشمس.

عادت القافلة فطلبت من السيدة لا مارتين أن تمدني ببعض التفاصيل عن بيت لحم والمواقع المجاورة التي منعني انتشار وباء الطاعون من زيارتها إبان رحلتي الأولى. هاكم ما قالته: «عند الخروج من بساتين يافا، انطلقنا بأحصنتنا عبر سهل شاسع، مكسو بالأشواك الصفراء والبنفسجية. بين الفينة والأخرى كنا نرى قطعانًا كبيرة يحدوها أمامه فارس عربي مسلّح برمح طويل، تذكر بالقطعان التي تسرح في سبخات بونتي في منطقة لاسيوم في إيطاليا. كانت البهائم تبحث عن قوت يندر وجوده بين الأعشاب التي لم تحرقها الشمس تمامًا. إلى يميننا، على مسافة أبعد، وكما عند مدخل صحراء العريش، بعض الأكوام علت فوق التراب كتلاً من الوحل المكسوة بالأعشاب اليابسة أشبه بأكداس العلف التي صفرتها العاصفة قبل أن يتسنى للحصادين جمعها. عرفنا فيما بعد أن هذه الأكوام هي بيوت قرية أنشئت هناك.

وعندما اقتربنا منها، رأينا أطفالاً عراة يخرجون مثل سكان لابونيا من هذه المساكن التي تشبه المخروط المقلوب. تركت بعض النساء ذوات الشعور المتدلية اللواتي يرتدين قمصانًا زرقاء داكنة، النار التي يشعلنها بين حجرين من أجل طهو طعامهن ثم صعدن إلى أعلى أكواخهن ليشاهدننا ونحن نبتعد رويدًا رويدًا.

بعد أربع ساعات من المسير، وصلنا إلى رملة حيث كان موظف قنصلية سردينيا في انتظارنا. بما أن النساء لم يكن يستطعن إيواءنا في الدير اللاتيني، تكرّم علينا وقدّم لنا الموظف بيته. في المساء، زرنا برجًا قديمًا يقع على مسافة نصف فرسخ من المدينة يدعى سور الأربعين شهيدًا ويسكنه الآن الدراويش الدوارون. كان يوم جمعة وفي هذا اليوم يحتفلون بطقوس الصلاة، فرغبنا في مشاهدة احتفالاتهم. رأينا عشرين درويشًا مرتدين أثوابًا طويلة وقبعة مخروطيّة الشكل من اللباد الأبيض وهم يتحلقون جالسين القرفصاء في مكان يحيط به سور صغير. كان ذاك الذي يبدو عليه أنه رئيسهم، وهو رجل ذو وجه جليل ولحيته طويلة بيضاء، يعتلي طنفسًا على سبيل التمايز عنهم. وكانت هناك فرقة موسيقية مؤلفة من ناي وشبابة وطبلين صغيرين يدعوان نقاريات، تعزف ألحانًا ناشزة للغاية بالنسبة لآذاننا الأوروبية. نهض الدراويش بمهابة الواحد تلو الآخر ومرّوا أمام الرئيس. ألقوا عليه التحية وبدأوا بالدوران حول أنفسهم باسطين أذرعتهم ورافعين أعينهم باتجاه السماء. بدأت حركتهم بطيئة ثم ما لبثت أن تسارعت باطّراد لتصل إلى أقصاها حين راحوا يدورون و يغزلون مثل إعصار مثيرين البلبلة والدهشة. تبدو نظراتهم طالما تستطيع اللحاق بها مفعمة بحماس كبير ثم لا يلبث عما قليل أن ينطفئ فيها كل شيء. لا أعرف كم من الوقت استغرقت رقصة الفالس الغريبة هذه، لكنها بدت لي طويلةً بشكل غير معقول. وشيئًا فشيئًا راح عدد الدراويش ينخفض. أخذوا يتهاوون الواحد تلو الآخر وقد أرهقهم التعب فسقطوا أرضًا. أما من بقي منهم صامدًا فكان يظهر إصرارًا شديدًا على متابعة الدوران أطول وقت ممكن، وشعرت بالألم لدى رؤيتي الجهود التي كان يبذلها درويش عجوز يلهث

تعبًا ويترنح في نهاية هذه التجربة القاسية، وظلّ صامدًا حتى استسلم جميع الراقصين. لهذه الرقصة هدف جدير بالاحترام ومبدأ جليل. إنه الإنسان الذي أراد أن يكرّم الله. إنه الخيال الذي يريد أن يصاب بالانخطاف جراء الحركة الجسدية ويصل إلى هذا الذهول المقدس، إلى هذا الانعدام الكامل للإحساس وللشعور بالذات ما يتيح له الاعتقاد بأنه سبر أعماق هذه الوحدة اللامتناهية واتحد بالله. ربما كانت تلك الرقصة محاكاة نقية في الأساس لحركات الكواكب التي تدور أمام خالقها. ربما كانت نتيجة لهذا الإلهام نفسه المتحمس والشغوف الذي جعل داوود يرقص فيما مضى أمام سفينة الرب. بدا الدراويش لبعضنا غريبين كما تبدو بعض الرهبانيات غريبة لأناس يجهلون عمق عبادتنا أو كما تبدو غريبة ظاهرة التسوّل التي يمارسها بعض رهباننا أو الإماتات التي يقوم بها بعض النساك. ولكن مهما بدت هذه الممارسات الدينية أمرًا محالاً بالنسبة للعقل عند أول وهلة، فإن هناك عقلاً أعمق وأرفع شأنًا يجد فيها سببًا لاحترامها وهو الدافع الذي يثيرها. يجب ألا نسخر من أي شيء يقارب فكرة الله. قد تبدو لنا هذه المقاربة قاسية أحيانًا وعصية على الفهم أحيانًا أخرى لكنها جديرة بالاحترام دومًا. يبدو ضمير الدرويش مرتاحًا عندما يقوم برقصته الورعة معتبرًا دورانه تكريمًا للألوهة. لا أحد يحق له أن يعتبر نفسه مصيبًا أكثر من الآخر. فنحن أنفسنا، ماذا نساوي لولا تعاليم المسيحية التي أتت لتنير عقولنا؟ وهل لنا أن نعتبر عقلنا نيرًا أكثر من سوانا؟

عند خروجنا من البرج، ولجنا أروقة دير خرب أفضى بنا إلى كنيسة تحت الأرض. نزلنا عبر عدة أدراج وفوقنا قبة منخفضة تستند إلى سلسلة من الأعمدة الجميلة. تبدو لي دوما الكنائس المحفورة تحت الأرض مؤثرة وتبعث على الحنين في الوقت نفسه. إن الظلمة الغامضة والقبب الصامتة المعزولة تحمل الخيال إلى أزمنة العبادة الأولى عندما كان المسيحيون ينزوون في المغاور العميقة ليخفوا أسرارهم عن أعين المدنسين ويتقوا شر الاضطهاد. بدت هذه الكنائس حيث اختبأ الإيمان طويلاً في

الشرق وكأنها بُنيت لكي تجمّل هذه العزلات البدائية وتزينها، بما أتيح لها من ترف هندسي. لكن زمن الاضطهاد كان لا بدّ له أن يُبعث للمسيحيين البؤساء ويبدو أن اسم هذا الصرح، «ألأربعين شهيدًا»، يدعو للاعتقاد بأنه شكّل ملجأ للمؤمنين دون أن يتمكن فعلاً من حمايتهم. الآن، كان كل شيء فيه مدمرًا: أجنحة الكنيسة وسلسلة الأعمدة التي بناها الأباطرة لم تستطع أن تثير الرهبة في قلوب الغزاة أكثر من الكهوف المتواضعة لتلامذة الصليب الأوائل. باتت القبب حظائر وأروقة الدير ثكنات.

شاهدنا أيضًا بعض القبور العائدة إلى أزمنة الصليبيين، لكن الليل حال دون التوقف أمامها طويلاً. كان يتوجب علينا العودة إلى مأوينا استعدادًا لانطلاق قافلتنا صباح الغد. قدّم لنا آغا الرملة موكبًا وأوصى رئيس القواسين بألا يتركني وحدي لحظة واحدة في الشِّعاب بين الجبال التي سنتوغل فيها وأن يطيع أوامري في كل شيء. إن احترام المسلمين للنساء الأوروبيات يتناقض بشكل خاص مع التبعية التي يعاملون بها نساءهم بالذات. وفي الواقع، غمرنا هذا الانكشاري برعايته اللائقة أو عنايته الفائقة وتهذيبه المغالى فيه. كان يولي دومًا كبير اهتمامه للفرس العربية التي أمتطيها وبدا مرتعبًا لفكرة أن أهمّ برفس الحصان ومستغربًا قدرتي على المحافظة على توازني في المسالك الوعرة التي تسلقناها. ولاحقًا، حمل لنا إفادة كبيرة حين أرغم حجاجًا كثيرين عائدين من القدس على إفساح المجال لكي نمر على الدرب الأكثر وعورة وسط كتل الصخور وجذور الشجيرات التي تحف بالجرف، وحال دون سقوطنا في الهاوية. لولا أنه لم يتدخل ويفرض سلطته لكان دفعنا الصف الطويل لموكب الحجاج السائر قدمًا إلى التدحرج والسقوط بشكل محتم.

حين غادرنا «رملة»، واصلنا المسير عبر السهل مسافة فرسخين. توقفنا عند بئر يعقوب، لكن بما أنه لم يكن في حوزتنا جرار للغرف منها، وبما أن البئر كانت عميقة جدًا، واصلنا طريقنا . تحتوي كل ناحية من هذه البلاد على آبار لا تزال حية من الأزمنة التوراتية لدرجة أننا لا نظهر أية دهشة أو صعوبة في تقبل التقاليد التي تعطي

اسم يعقوب لبئر لا يزال موجوداً. التفكير وحده هو ما يدعو إلى الاندهاش أو الشك، حين تمثل أمام الأذهان الأربعة آلاف سنة التي انقضت والمراحل المختلفة التي مرّت بها البشرية ولم تجعل إيمانها يتزعزع. ثم إن المياه التي لا نصادفها في هذا السهل إلاّ مرة كل ثلاث أو أربع ساعات لا بدّ أنها كانت أمراً فائق الأهمية في القرون المنصرمة، لذا احتفظت الآبار أو الينابيع بأسمائها الدينية تماماً كما احتفظت الأبراج باسم داوود أو الآبار باسم سليمان . ثم دخلنا إلى منطقة جبال اليهودية وأصبحت الطريق وعرة تارة لا تترك حافة الهاوية للأحصنة موطئًا لحوافرها وطوراً تصير المناطق متدحرجة ومتكدسة على شكل أدراج لا تستطيع عبورها إلاّ الأحصنة العربية. ومع ذلك مهما تكن الدرب شاقة وعسيرة فهي قليلة الخطورة مقارنة مع طريق «حمّانا».

عندما وصلنا إلى أول قمة، توقفنا هنيهة كي نتمتع بالمنظر البديع الذي يشمل كل البلاد التي جلناها لتونا وصولاً حتى الشاطئ فيما يتعدى يافا. ومع أن كل شيء كان هادئًا من حولنا، كان أفق البحر المتوهج والمشحون بالغيوم ينذر للناظر ذي الخبرة بعاصفة آتية. بدأت الأمواج العاتية تحرّك السفن في المرسى. حاولنا تمييز سفينتنا مفكرين بهؤلاء الذين ظلوا على متنها. لم تكن همومي أوهامًا ففي اليوم التالي لفظ البحر سفنًا عديدة على هذا الشاطئ الخطر وسفينتنا تحطم حبل مرساتها إثر هبوب عاصفة مريعة وشردت في البحر. بعد هذه الاستراحة، انحدرنا إلى المقلب الآخر من الجبل ثم صعدنا تلالاً أخرى. عبرنا أحيانًا تحت وابل من الحجارة المنهارة التي تدحرجت تحت حوافر أحصنتنا وسرنا أحيانًا أخرى على حافة منحدرات ضيقة. كانت المنحدرات مكسوة بالأشجار ونباتات الفريز المتلألئة الخضراء والافلوس الغاري تتباين مع أوراق المصطكا الهزيلة وأشجار الزيتون. منظر كامل لا ينقصه إلاّ الماء. لكن منظراً آخر من طبيعة أخرى كان في انتظارنا: موكب حجاج من أمم مختلفة يعودون من القدس ويتوالون قبالتنا عند أعلى جبل عارٍ قاحل ثم يسيرون عبر طرق ملتوية متقدمين باتجاه الشعاب التي كنا نسلكها. ما من لغة بوسعها أن تصف الوقع الأخاذ المنبعث

من هذا المشهد المزدحم بتنوع الألوان والألبسة والوجوه حيث الأرمني الثري يسير متجاورًا مع أفقر راهب يوناني. كل شيء كان يساهم في إضفاء الروعة على هذا المشهد. توقفنا نتأمل تفاصيله وأمضينا ساعتين نلتقي مختلف الحجاج: تارة «كنا نصادف بطركًا أرثوذكسيّاً لابسًا زيّاً جميلاً ممتطيًا» بجلال صهوة جواد حمراء وذهبية فيما يمسك سائسان بلجامه. ويتبعه حشد راجل. موكب أشبه بمسيرة ظافرة لأحد السفراء البابويين في القرون الوسطى؛ وطورًا نلتقي بعائلة فقراء حيث الأب يسوق فرسًا تحمل أولاده الصغار ويمسك بيده الأخرى عصا الحجاج. كان الإبن البكر يجلس على كاهل الحيوان ممسكًا بحبل وكأنه زمام الفرس وبشمعدان كانه الراية . أما الأطفال الآخرون فمندسون داخل سلال تتدلى على جانبي الفرس، يمضغون بعض فضلات الخبز المكرّس. الأم الشاحبة المرهقة تتبع الموكب بصعوبة وهي ترضع الطفل الأصغر المتشبث بصدرها والموضوع في حزام ضيق. بعدئذٍ توالى صف من حديثي الإيمان وكل واحد منهم يمسك بيده شمعة كبيرة فصيحة وفقًا للطقوس البيزنطية وينشدون بنبرة مخنّة ورتيبة. على مسافة أبعد، يسير يهود مرتدون عمامات حمراء، لحاهم سوداء طويلة ونظراتهم ثاقبة مشؤومة. بدوا وكأنهم يلعنون في داخلهم عبادة جعلتهم فاقدي الميراث. لكن لماذا كانوا وسط هذا الحشد من المسيحيين؟ يبدو أن بعضهم استغل عبور القافلة لينضم إليها ويزور قبر داوود أو وادي طبريا. وبعضهم الآخر يطمع بالربح الذي قد يجنيه من توفير الطعام للحجاج . من وقت لآخر، تقطع الحشد الراجل بعض الجمال المحملة بأكياس هائلة يواكبها مكارون يرتدون زيّاً عربيّاً مؤلفًا من سترة وسروال بني واسع مزخرف بالأزرق ويعتمرون كوفية صفراء. ثم توافدت عائلات أرمنية حيث النساء يسترن وجوههن بحجاب أبيض كبير ويسافرن في هودج محمول فوق بغلين. أما الرجال فجلابيبهم طويلة داكنة ورؤوسهم مكسوة بـ«قلبق» مربع كذلك الذي يعتمره سكان أزمير. كانوا يمسكون بأيديهم أطفالهم الذين أفقدهم منظرهم الصارم المتجهم ونظراتهم المقدّرة للعواقب كل خفة الطفولة. كان هناك أيضًا بحارة وربّان يونانيون أتوا من مرافئ آسيا الصغرى والأرخبيل في سفن

قراصنة محمّلة بالحجاج كما تُحمل المراكب الناقلة للزنوج. كانوا يصيحون بلهجتهم الحادة ويحثون الخطى ليعودوا إلى سفنهم من جديد . ثمة طفل مريض وُضع فوق محمل وأحاط به أهله الباكون المتوسلون راجين أن تشفيه السماء بمعجزة تقديرًا منها لزيارتهم. يا للأسف، أنا أيضًا بكيت راجية متوسلة مثلهم لكني أشد تعاسة منهم لا سيما أنني لم أكن أدري آنذاك فداحة مصيبتي وشقائي بفقدان ابنتي.

وفي النهاية، أطل حشد من الأقباط البائسين بأسمالهم الرثة رجالاً ونساءً وأطفالاً. كانوا يجرون أرجلهم وكأنهم خارجون من إحدى المستشفيات. لكن كل هذه الجماعة التي أحرقتها الشمس والتي تلهث عطشًا تواصل سيرها دومًا بهدف أن تبلغ القافلة كي لا تبقى متروكة لمصيرها في شعاب الجبال. شعرت بالخجل الشديد عندما رأيتني أمتطي حصانًا يرافقني جنود الانكشارية والأصدقاء المتفانون في خدمتي والذين يقونني شر المخاطر كلها والمشقات فيما يدفع الإيمان الحنيف بآلاف الناس لمواجهة المتاعب والأمراض والحرمان على أنواعه . شعرت أن هؤلاء كانوا حجاجًا فعلاً أما أنا فمجرّد سائحة.

وبين السلسلة الأولى للجبال والأعالي الأخيرة المشرفة على القدس تبدو قرية أريحا وسط واد جميل يمتدّ على مسافة بعيدة. عبرنا لتونا أمام الكنيسة الأرثوذكسية القديمة التي باتت كغيرها من الكنائس اسطبلاً. عندئذٍ رأينا خمسين عربيّاً موزعين بشكل متدرج على جوانب التلة يجلسون القرفصاء في ظلّ أشجار الزيتون الجميلة. في وسط الحلقة وفوق مرتفع يشرف على المرتفعات الأولى، وقف الشيخ أبو غوش الشهير. رأينا أخاه وابنه واقفين إلى جانبه مدججين بالسلاح ممسكين بغليونيهما. كانت أحصنتهم الموثقة إلى الأشجار خلفهم تكمّل اللوحة الممتدة أمامنا. لدى اقتراب قافلتنا، أرسل أبو غوش ابنه ليفاوض ترجماننا الذي كان يسير في المقدمة. بعد أن عرف أن القافلة تعود إلى القدس وأنها لزوجة الأمير الافرنجي الذي تعرف إليه منذ ستة أشهر، رجانا أن نتوقف ونقبل دعوته لاحتساء القهوة. وبالطبع، تجنبنا الرفض

وبعد أن وزّعنا على قوّاسينا ومكارينا المؤونة أثناء الاستراحة، سرنا مبتعدين لمسافة قصيرة عن جماعة العربان. وهناك ألزمتنا كرامتنا التوقف حتى يتقدم العربان باتجاهنا. عندئذٍ نهض أبو غوش وسار متقدمًا من السيد بارسفال. بعد أن بادرنا بعبارات التهذيب والمجاملة، قدّم لنا القهوة ثم استأذنني للانفراد بي والتحدث إليَّ شخصيًا. فابتعدت عن مرافقي بضع خطوات وعلمت، بواسطة ترجماني، أن المصريين اعتقلوا أحد أشقائه وأنه يعتبر أن لدى السيد لا مارتين نفوذًا هائلاً في مجالس إبراهيم باشا، لذا يطلب مني راجيًا أن يتدخل زوجي لصالحه لإعتاق أخيه من الأسر. بالطبع، لم نكن نملك الحظوة التي ينسبها إلينا. لكن الصدفة شاءت أن أؤدي له خدمة حين تدخلت لصالح قضيته لدى آمر الجيش المصري.

حين وصلنا إلى مقربة من القدس، كان معسكر كبير لجيوش إبراهيم باشا يحجب الأنوار. تقدم الجنود باتجاهنا متفرسين في هيئاتنا ثم تحدثوا إلى ترجماننا وفتحوا لنا الطريق عبر المعسكر، فوجدنا أنفسنا للتو أمام خيمة القائد. أتاحت لنا الستائر المرفوعة رؤيته في الداخل ممددًا فوق ديوان من الكشمير محاطًا بضباطه الذين يقف بعضهم ويجلس بعضهم الآخر فوق سجاجيد فارسية. كانت ملابسهم ذات ألوان صارخة ومزدانة بفروات جميلة وبزخارف ذهبية، وأسلحتهم لامعة. جاء بعض العبيد السود يقدمون لهم القهوة في فناجين فضية، وكان مرآهم مدهشًا وجديدًا بالنسبة لنا. حول الخيم، راح السائسون ينزهون أروع الخيول العربية ممسكين بزمامها لكي يجففوا الزبد عن وبرها البرّاق، فيما كانت الخيول الأخرى الموثقة تصهل معبّرة عن نفاد صبرها وتضرب الأرض بحوافرها مرسلة نظرات متوقدة باتجاه كتيبة من الخيّالة المتأهبين للرحيل. كانت الفرق المصرية مؤلفة من مجندين في مقتبل العمر يرتدون ثيابًا حمراء ضيقة ورثة، نصفها أوروبي ونصفها شرقي. وكان منظرها يتباين مع مظهر العرب المتدثرين بعباءات فضفاضة. ومع ذلك، كان هؤلاء المصريون القصيرو

القامة الهزيلون يسيرون من نصر إلى نصر ويجعلون السلطان يرتجف خوفًا منهم عند مشارف القسطنطينية !

دخلنا إلى المدينة المقدسة عبر باب بيت لحم وانعطفنا يسارًا لبلوغ حي الدير اللاتيني. بما أنه لا يمكن استقبال النساء هناك، فقد حططنا رحالنا في بيت غير مأهول عادة لكنه يصلح ليستعمله الأجانب عندما يكون دير الآباء في الأراضي المقدسة مزدحمًا بالزوار. بسطنا أفرشة فوق مقاعد وضعت خصيصًا لهذا الغرض وكلنا أمل بأن نرتاح من المعاناة التي كابدناها خلال النهار ونجدّد قوانا لاستقبال معاناة أخرى أكثر حدة. ولكن، ما كدنا نلقي رؤوسنا حتى انقضت علينا آلاف الحشرات من بعوض وبراغيث وبق كانت تنتظر فريسة لها في هذه الغرف المهجورة. أو ربما انتقلت، من بعض هؤلاء الحجاج مرتدي الأسمال الذين التقيناهم في طريقنا. وهكذا بات كل نوم متعذرًا وأمضينا الليل نحاول أن نطرد الحشرات عنا متنقلين من مكان إلى آخر باستمرار. وهكذا أيضًا آل الأمر بأحد مرافقينا، بالرغم من تشجيعنا له إلى التزام الصبر، إلى الذهاب للبحث عن ملجأ في الدير نفسه. عندئذٍ أتى الرئيس العام لرؤيتنا وقال لنا إنه لو علم بالأمر مسبقًا لتدبّر لنا ملجأ أفضل لاستقبالنا ووعدنا بترتيب الأمور في اليوم التالي. بادرته بفائض من عبارات الاعتذار مؤكدة له أننا لا نحتاج لشيء وضحكت من الحساسية المفرطة التي أبديناها أمام هذا الرجل رسول التواضع والتقشف وإنكار الذات.

كان الرئيس العام للدير إسبانيّاً فائق الذكاء يدرك سرائر النفوس ومنطق الأشياء تسنت لي الفرصة، – خلال إقامتنا في القدس – بأن أدرك مدى طيبته وسماحته وفضله وأهمية تأثيره في الأرض المقدسة. لكن تجربته على هذه البسيطة كان لا بدّ لها من أن تنتهي باستشهاده وهو لما يكد يبلغ الخمسين من عمره، وهذا في اللحظة التي كان يتأهب فيها للذهاب إلى بلاده، للتمتع ببعض الراحة في مسقط رأسه. علمت أنه بعد رحيلنا بوقت قصير أبحر راجعًا إلى إسبانيا وأنه قُتل مع خمسة عشر راهبًا

آخرين على يد بحارة يونانيين على مسافة غير بعيدة من قبرص . لم ينج من المجزرة إلاّ طفل واحد مسلم فطارد القتلة وشهّر بهم وتمّ اعتقالهم في أرمينيا .

وفي اليوم التالي، عند طلوع النهار، رحنا نجول في أرجاء الأراضي المقدسة. لكن يجدر بي التوقف هنا عن الكلام وكتم الانفعالات الحميمة التي ألهمتني إياها هذه الأماكن لأن انفعالاتي تخصني وحدي. لن أتكلم عن شوارع القدس التي وصفها مرافقي في الرحلة. سأكتم في داخلي كل انطباعاتي الذاتية. لم تكن لديّ أدنى حاجة لكتابتها وهي أعمق من أن تُمحى من ذاكرتي. لكن، إذا وجدت في العالم أمكنة قادرة على إيقاظ كل ما يختلج به القلب من ألم وحزن وحداد، واستجابة لألم داخلي نفسي يكاد يكون فيزيائيّاً فإنها الأمكنة التي زرتها . كل خطوة تقوم بها تدوّي في أعماق روحك وكأنها أصداء النحيب، كل نظرة تنظرها ترسم أمامك صرحًا من الحزن المقدس الذي يستوعب أحزاننا الشخصية ويضمها إلى عذابات البشرية المرّة التي كوبدت وكُفر عنها وكرست هنا في هذا المكان بالذات.

انطلقنا من مدينة القدس في الخامسة صباحًا حتى نصل إلى بيت لحم في الوقت الذي تُقام به رتبة القداس في المغارة التي وُلد فيها يسوع. سار أمامنا راهب إسباني عجوز ليرشدنا إلى هدفنا ممتطيًا حمارًا صغيرًا . كان ذا لحية طويلة، يرتدي مشلحًا مزدانًا بخطوط سوداء وبيضاء فتلامس قدماه الأرض. ومع أننا كنا في شهر نيسان، عصفت ريح جليدية عاتية مهددة بإسقاطي وإسقاط حصاني! إنها آخر اندفاعات العاصفة التي هبّت فوق بحر يافا ووصلت إلينا . كانت زوابع الغبار تعمي بصري فأسلمت فرسي إلى سائسي العربي متدثرة بمشلحي وتهت في الأفكار التي أثارتها فيَّ الطرق التي أزورها والأشياء التي كرّستها التقاليد . لكنها أشياء غنية عن التعريف ولن أتوقف عند وصفها : شجرة زيتون النبي إيليا ، النبع الذي ظهرت فوقه النجمة للمجوس ووادي رام الذي انطلق منه الصوت الصارخ الذي مزّق أحشائي. أثار كل شيء فيّ مشاعر أصدق من أن أعبّر عنها .

أغلق الدير اللاتيني في بيت لحم أبوابه لمدة أحد عشر شهرًا بسبب الطاعون. ولكن، منذ بعض الوقت، لم يُسجل سقوط ضحايا جدد. عندما مثلنا أمام الباب المنخفض الذي يفضي إلى الدير، فُتح لنا. مررنا الواحد تلو الآخر محنيي الرؤوس تحت الفتحة الضيقة، وشدّ ما كانت عظيمة دهشتنا إذ وجدنا أنفسنا في كنيسة مهيبة: ثمانية وأربعون عمودًا من الرخام وكل عمود فيها مؤلف من قطعة واحدة. تنتظم هذه الأعمدة على صفين من كل جهة مؤلفة خمسة أجنحة كنسيّة تتوجها صقالة ضخمة من خشب الأرز. ولكن عبثًا حاولنا البحث عن المذبح أو عن المنبر، فكل شيء كان محطمًا ومدمرًا ومجردًا من محتوياته. ثمة جدار مُسلح يقسم هذا المبنى الجميل عند بروز الصليب حاجبًا على هذا النحو القسم المخصص للعبادة الذين تتنافس عليه مختلف الجماعات المسيحية حتى اليوم. جناح الكنيسة ملك اللاتين ولكنه مجرد مدخل إلى الدير. لقد سُدّ الباب الكبير ليحل محلّه الباب الصغير المخفض الذي دخلنا منه وذلك لكي يحفظ هذه البقايا المقدسة من العصابات وقطاع الطرق الذين كانوا يدخلون على صهوة أحصنتهم حتى المذبح ويبتزون الرهبان. استقبلنا الرئيس الأعلى بمحبة وكان وجهه العذب الهادئ البهج بعيدًا عن صرامة النساك وعن اللامبالاة المبتهجة التي تُنسب إلى الرهبان. سألنا عن البلاد التي تجولنا فيها وعن الجيوش المصرية المعسكرة على مسافة قريبة من هنا. إن إحدى عشرة سنة من العزلة جعلته نهمًا للأخبار وبدأ مطمئنّاً حين علم أن إبراهيم باشا كان يولي الرعاية للشعوب المسيحية التي تعيش في سوريا.

بعد دقائق قليلة من الاستراحة، بدونا جاهزين لسماع القداس في كنيسة المهد. أُشعل فانوس خافت لإنارة المكان ونزلنا الأدراج يتقدمنا الآباء حتى وصلنا إلى متاهة طويلة من الأروقة الديماسية التي يجب عبورها لبلوغ المغارة المقدسة. كانت هذه الأمكنة مليئة بالقبور والذكريات، فهنا قبر القديس جيروم وهناك قبر القديسة «بو» وبئر الأبرياء. لكن لا شيء يسعه أن يستوقف انتباهنا في هذه اللحظة فالضوء الباهر الذي

يرسله ثلاثون أو أربعون مصباحًا تحت القبة الصغيرة في آخر الممر، يظهر لنا المذبح المبني فوق المكان الذي ولد فيه يسوع، ويمينًا، على مسافة خطوتين في الأسفل، موقع المغارة. تُلبّس هذه المغاور الطبيعية بالرخام جزئيّاً في محاولة لردع التقوى غير المحتشمة للحجاج الذين كانوا يمزقون جدران المغارة منتزعين أجزاءً منها ليحملوها معهم على شكل ذخائر. لكن لا يزال بإمكان الزائر حتى اليوم تلمس الصخر العاري خلف البلاط الرخامي الذي كسيت به المغارة. ولا يزال هذا المكان الديماسي يحتفظ بشكله الأولي وعدم انتظامه. فالزخارف لم تُفسد فيه، كما في بعض الأمكنة المقدسة، و طبيعته لم تؤد إلى إثارة الشكوك، في ما يتعلق بهوية المكان. مهمة الزخارف هنا هي أن تحمي هذا الحرم الطبيعي. مررنا تحت هذه القبب المحفورة في الصخر وأدركنا دون مشقة أن هذه المغاور كانت حظائر للقطعان التي يحرسها الرعاة في السهل الذي لا يزال مكسوّاً إلى اليوم بمروج خضراء، والتي تمتد في البعيد تحت المنصة الصخرية التي تتوجها والدير وكأنهما حصن. أما المنفذ الخارجي الذي يصل المغاور بالمروج فقد أغلق. حضرنا رتبة القداس.

كنت في حالة نفسية لا تسمح لي، لسوء الحظ، أن أعبّر عما يعتمل في داخلي إزاء هذه الأمكنة والطقوس. كانت لحظة التأمل العميق والأليم يختصر كل المشاعر التي انتابتني. أثار فيّ منظر امرأة عربية جاءت لتعمّد وليدها على مذبح المغارة انفعالاً إضافيّاً. بعد انتهاء القداس، عدنا إلى الدير، ليس عبر الطريق الديماسية بل من خلال درج واسع مريح أوصلنا إلى صليب الكنيسة الموجودة خلف جدار الفصل الذي تحدثت عنه سابقًا. كان هذا الدرج قديمًا ملك الطائفتين، طائفة الروم واللاتين. أما اليوم، فالروم وحدهم يملكونه، وسمعنا شكاوى أليمة أعرب عنها آباء بيت لحم احتجاجًا على هذا الاستيلاء، وأرادوا أن نحمل شكواهم إلى أوروبا. شقّ علينا أن نقنعهم بأننا لا نملك أية سلطة لنعيد حقوقهم إليهم حتى لو كنا فرنسيين.

كان جناحا الكنيسة الجانبيان اللذان يؤلفان صليب الكنيسة القديمة يتضمنان مصليات خاصة أحدهما للأرمن والآخر للاتين. وفي المركز الشرقي، بُني المذبح تلقائياً فوق المغارة وفصل الكورس عنه بواسطة سور وجانب من الخشب المذهب الذي يخفي محراب الروم.

الكنيسة البيزنطية في الشرق أغنى من الكنيسة الرومانية، فعند الرومانيين كل شيء متواضع بسيط. أما عند الروم فكل شيء براق وباذخ. لكن الخصومة بين الكنيستين تحدث انطباعًا مؤلمًا للغاية. يتألم المرء لدى رؤية النزاع والخصومات في الأمكنة التي لا يُفترض بها أن تلهم إلاّ المحبة والبرّ.

يُنسب بناء الكنيسة الأولى للقديسة هيلينة وتُنسب إليها أيضًا أكثرية الصروح الدينية في فلسطين. صحيح أن هناك من يعترض قائلاً إن القديسة هيلينة كانت وصلت إلى سن متقدمة عندما زارت سوريا ولم تستطع أن تنفذ أعمالاً كثيرة. لكن الفكر لا يتطلب لا زمانًا ولا مكانًا. ويبدو لي أن إرادتها الخلاقة وورعها التقي استطاعا أن يكونا الدافع لبناء صروحٍ خططت لها وأنجزت بعد مماتها. حين عدنا إلى الدير رأينا أن الرئيس الأعلى للدير قد أعدّ لنا مأدبة ممتازة في قاعة الطعام. ودعناه بحسرة لاننا أردنا الإفادة من الساعات التي بقيت لنا لزيارة الضواحي. عندما نزلنا إلى السهل أرشدونا إلى مغارة التجأت إليها العذراء لحظة تأهبها للرحيل إلى مصر، حسبما يقول التقليد الديني. رأينا في بعض المرتفعات التي تشرف على بيت لحم آثار أبراج تشير إلى مواقع مختلفة للصليبيين وتحمل أسماء أبطالهم. انعطفنا يسارًا فغاب عنا مرآها وانحدرنا عبر طريق وعرة شاقة.

بعد ساعة من المسير، وصلنا إلى وادٍ صغير ضيق يرويه جدول صافٍ. إنه حديقة سليمان التي جرى التغني بها في نشيد الأناشيد. وهذا المكان التوراتي، الواقع بين القمم الصخرية في الجبال التي تحيط به من كل صوب، هو المكان الوحيد الصالح للزراعة، وقد شكّل الوادي في الأزمنة كلها حديقة أخاذة محروثة بإتقان كامل تمثل باخضرارها الرائع الرطيب تباينًا مدهشًا مع القحط الصخري الذي يحاصرها من كل

جهة . يبلغ طول هذا الوادي نصف فرسخ تقريباً. تبعنا المجرى الملتوي للجدول الذي تظلله أشجار الصفصاف متتبعين تارة ضفافه المعشوشبة ومغمسين طوراً قوائم أحصنتنا في مائه الزلال فوق الحصى المصقولة. ثم عبرنا من ضفة لأخرى فوق ألواح من خشب الأرز وبلغنا الصخور التي تسدّ الوادي بطريقة طبيعية. تطوع أحد المزارعين لمساعدتنا على تسلقها لكن اشترط علينا أن نترجل ونتخلّى عن مطايانا لأولاده ليسوقوها ويعيدوها إلينا في القمة بعد سلوكهم طرقًا طويلة.

سرنا يمينًا وواصلنا صعودنا الشاق لساعة من الوقت. عندما وصلنا إلى الأعالي وجدنا هناك أجمل ما بقي من العهود القديمة : أحواض ثلاثة هائلة محفورة في الصخر موازية لانحدار الجبل، كل واحد منها يعلو الآخر على شكل جلول وبدت وكأنها أنجزت للتو. أما حافاتها المكسوة بالبلاط وكأنها رصيف فكانت ترجع صدى حوافر أحصنتنا. كان منظر هذه الأحواض الجميلة المملوءة بمياه شفافة، على قمة جبل قاحل مدهشاً ويعطي فكرة واضحة عن الجبروت الذي صمّم مشروعًا بهذه الضخامة ونفّذه. فيما كنت أتأمل هذه البرك المنسوبة إلى سليمان، قال لي مرافقي في الرحلة بعد أن زاروها إن كل واحدة منها يبلغ حجمها أربعمائة قدم على مئة وخمس وسبعين. البركة الأولى هي الأطول والأخيرة الأكثر اتساعًا وتبلغ فتحتها مئتي قدم على الأقل وفوق البركة الأكثر ارتفاعًا لهذه الأحواض الهائلة، نبع صغير محتجب خلف بضع ضفائر من النبات الأخضر و هو النبع المقدس المذكور في التوراة الذي يغذي وحده هذه الأحواض التي كانت تصب قديماً في قنوات تقود الماء إلى المعبد في أورشليم. لا تزال آثار هذه القنوات موجودة في طريقنا، رأينا على مسافة قريبة، جدرانًا قديمة مسننة ترقى على الأرجح إلى زمن الصليبيين تحيط بسور يفترض التقليد أنه كان قصرًا تسكنه نساء سليمان. لم يبقَ منه أية طلول وبات الموقع مكسوّاً بالسماد والنفايات ويشكل باحة يلتجئ إليها ليلاً الرعاة والبهائم المقيمون في الجبال خلال فصل الرعي، كما في جبال الألب في سويسرا. عدنا إلى أورشليم عبر طريق قديمة واسعة مرصوفة تدعى درب سليمان وهي أقصر وأكثر استقامة من تلك التي سلكناها صباحًا، ولا تمر ألبتة ببيت لحم. كان الليل قد تقدم للغاية حين بلغنا قبة باب الحجاج .

في الخامس والعشرين من نيسان، بعد أن زرنا للمرة الأخيرة القبر المقدس، طلبنا من الراهب الذي كان برفقتنا أن يقوم لنا بجولة في المكان الذي يحيط بالكنيسة لنكشف وعورة الميدان الذي يضم القبر والجلجلة في آن معًا. كانت الدرب صعبة جدًا لأن الكنيسة محاطة بالمباني التي تعيق حركة المواصلات. لكن، بعد أن اجتزنا بضع باحات وبيوت، أرحنا بالنا مما كان يشغله، ثم امتطينا الأحصنة لنتبع أسوار المدينة ونزور مقابر الملوك. عندما خرجنا من باب دمشق، شمالي أورشليم على مسافة نصف فرسخ، وجدنا مساحة مجوّفة في الصخر على شكل باحة يبلغ عمقها حوالي العشرين قدمًا، مغلقة من الجهات الثلاث بجوانب الصخر وتبدو مثل أسوار مزدانة بالمنحوتات المحفورة في الصخر نفسه من أبواب وأعمدة ونقوش مشغولة بشكل بديع. كانت الفتحة الموجودة يسارًا للدخول إلى المحراب منخفضة جدًا لدرجة أننا لا نستطيع الدخول إليها إلاّ زحفًا. توصلنا لذلك بصعوبة كبيرة وبصعوبة أيضًا أضأنا المشاعل فهاجمتنا أسراب الخفافيش وقد أيقظها هذا الاعتداء على راحتها وتصارعت معنا مدافعة عن مكانها، ولو كان انسحابنا سهلاً لتراجعنا، على ما أعتقد، أمام هجومها. لكن الهدوء عاد شيئًا فشيئًا واستطعنا تفحص هذه الغرف المدفنية المقعّرة المحفورة في الصخر، الواضحة الزوايا والملساء الجوانب وكأنها مصقولة في مقلع الحجارة . زرنا خمسة مقابر متصلة فيما بينها من خلال فتحات كانت توضع عليها بضع كتل من الحجارة المنحوتة على شكل باب والمضطجعة أرضًا، وتدعو للاعتقاد بأن كل غرفة أغلقت وختمت عندما امتلأت الكوى المحفورة في الجدران المعدة لاحتضان النواويس أو الجرار التي تحوي رماد الموتى. تُرى من كان ساكنو هذه الغرف التي أنفقت أثمان باهظة لتجهيزها؟ هذا أيضًا سؤال مريب وهناك جدال عنيف بشأن أصولهم. الغرف في الداخل بسيطة ومهيبة وربما كانت ترقى إلى أقدم الأزمنة، إذ لا شيء فيها يشير إلى تاريخ محدّد. تبدو الهندسة الخارجية مشغولة بإتقان وذوق رفيع وهذا لا يجعلها ترقى إلى العصور السحيقة التي حكم فيها ملوك يهوذا. لكن، مذ رأيت بعلبك، تغيرت أفكاري عن الكمال الذي استطاع أن يتوصل إليه الفن في العهود القديمة .

أكملنا جولتنا عبر بعض الحقول المزروعة بأشجار الزيتون ونزلنا إلى وادي اليوسفية، صعدنا جنوبًا عبر أسوار صهيون. عندما رأينا قبر داوود وقاعة العشاء السري والكنيسة الأرمنية التي تحتوي على الحجر الذي وضع على مدخل القبر المقدس، عقدنا العزم على الرجوع عبر هذا الباب، باب داوود. لكن، عندما أردنا أن نزور المدفن الديماسي حيث ترقد عظام الملك _ النبي كما يقول التقليد الديني، اعترضنا الأتراك وقالوا إن المدخل يُحظر كليّاً ولوجه لأنهم يفترضون أن ثروات هائلة مدفونة في هذا القبو الملكي وأن الأجانب يمتلكون سرّه ويأتون لاكتشافه وسرقته.

كانت قاعة العشاء السري كبيرة مقببة قائمة على أعمدة قد سوّدها الزمن . تختزن القاعة آثار الأزمنة السحيقة وتقع على جبل صهيون خارج أسوار المدينة آنذاك. من الأرجح أن تلاميذ المسيح لجأوا إليها بعد القيامة وكانوا مجتمعين فيها في زمن العنصرة كما تؤكد التقاليد الشعبية. ومع ذلك فإن الخراب الذي حدث لأورشليم في عهد «تيطس» لم يبقِ منها إلاّ الأبراج وقسمًا من الأسوار. لكن المواقع بقيت معروفة وتوجب على المسيحيين الأوائل أن يولوها اهتمامًا كبيرًا لترسيخ أو لتخليد ذكراها في الأذهان من خلال بناء صروح متعاقبة في الأمكنة نفسها، وغالبًا ما حصل هذا بواسطة بقايا الصروح القديمة. لكن تطرقي إلى تفاصيل تخص أورشليم لن تكون إلاّ تكرارًا وأتخلى بحسرة عن موضوع ترجعني إليه ذكرياتي دومًا. لذا لن أقول إلاّ كلمة واحدة لا علاقة لها إطلاقًا بالذكريات الدينية . كلمة تتحدث عن قرية المدافن هذه التي بقيت ماثلة كلوحة أمام عيني. إن مرأى هذا الشعب الذي ينتمي بأكمله إلى العرب البرابرة الساكنين في أقبية وكهوف مدفنية يوحي للرسامين بلوحة هي من أكثر اللوحات تمايزًا. تخيّل أمامك في وادي صهيون السحيق مغاور تشبه فتحاتها المتعاقبة فتحاتها الواحدة فوق الأخرى مداخل الأفران. تخيل مغاور مبعثرة على جوانب الصخور مثل أجزاء متشظية لخلايا نحل، ومن هذه الكوى المدفنية تخرج كائنات حية من نساء وأطفال كما تخرج الأشباح من مراقد الأموات. لا أعرف إذا كان أحد من قبل قد تحدث عن هذا الأمر لكن يبدو لي أن هذا المشهد يُلهم ريشة الرسام لوحة تجتمع فيها أشد الأشياء تباينًا وانسجامًا في الوقت نفسه.

في السادس والعشرين من نيسان/ أبريل، ألقينا نظرة أخيرة على القدس مواصلين بكآبة طريقنا إلى يافا. حين دخلنا إلى وادي أريحا اجتذبت أنغام موسيقى غريبة آذاننا ولمحنا في البعيد قبيلة عربية تتوالى بكامل عديدها على حافة أحد النجود. أرسلت الترجمان ليتحرى لنا عما يجري فقال لنا إن كل هؤلاء الناس تجمعوا ليشاركوا في جنازة أحد المشايخ وأننا نستطيع مواصلة سيرنا دون خشية، أنبأنا لاحقًا أن هذا الزعيم توفي أمس فجأة خلال العيد لأنه تنشق عبير نبتة سامة.. أخذنا نحث أحصنتنا على السرعة وما انقضى وقت قليل حتى وافينا موكب الجنازة. في الوسط، وضع النعش على محمل تلفه أقمشة فاخرة وتعلوه عمامة العثمانيين. ثم رأينا نساء عربيات، كن يقرعن صدورهن ويبسطن أذرعتهن في الهواء متقدمات النعش مرسلات نحيبًا ومنشدات أغاني حزينة وهن ينبشن شعورهن، فيما العازفون يقرعون الطبول ليرافقوا الأصوات الناحبة الرتيبة. في مقدمة الموكب، يسير شقيق الميت، حصانه مكسو بالجلود الأنقرية الجميلة ومزدان بشرابات حمراء ذهبية تتأرجح فوق الرأس والصدر، وكان يتأرجح أحيانًا في مشيته على وقع هذه الموسيقى الحزينة . أمام باب القبر الذي تعلوه قبة مستندة إلى صف أعمدة، رجال الدين ينتظرون الموكب. مقابل القبر كنيسة خربة احتشدت النساء فوق سطحها وهنّ متشحات بأحجبة بيضاء طويلة، شبيهات بكاهنات المعابد القديمة أو بنادبات هياكل ممفيس. عندما اقترب الزعيم من القبر نزل عن حصانه ثم ارتمى بين ذراعي رجل الدين الأكبر وعلى وجهه سيماء الألم والحزن، فحثه على التسليم بإرادة الله وعلى الظهور بمظهر الجدير بتولي زعامة القبيلة خلفًا لأخيه. في أثناء ذلك، وصل الموكب وأودع الجثمان القبر ثم اصطف الحشد حول المعبد الصغير والأغاني الجنائزية تصدح بألحانها الكئيبة.

****

الرحيل عن يافا

التاريخ نفسه

أبحرنا وسط الأمواج العاتية التي بدت كتلال من الزبد ما لبثت أن تحطمت على الصخور الصلدة. انتظرنا هنيهة خلف هذه الصخور حتى تهدأ الأمواج. أخذ البحارة يجذفون بقوة في عرض البحر ليأمنوا شرّ العاصفة. عادت الأمواج ورفعتنا مثل فلينة على ظهرها ثم نزلت بنا كأنما إلى قعر الهاوية. ما عدنا نرى لا السفينة ولا الضفاف، ثم علونا من جديد وذهبت بنا السفينة والزبد يغمرنا كعباءة المطر. وصلنا أخيرًا إلى مقربة من السفينة التي كانت تتأرجح أو تتمايل وكانت من الشدة بحيث لم نجرؤ على الاقتراب منها خشية أن تلطمنا عارضات الصواري التي تغمرها الأمواج . انتظرنا فترة الهدوء التي تفصل بين الموجة والأخرى فرمى البحارة الحبل وأنزلوا السلم، عندما أصبحنا على جسر من القوارب يؤدي إلى السفينة، هبت رياح معاكسة. فتسمّرنا فوق مرساتين، معرضين في كل لحظة للغرق إذا ما استطاعت الأمواج الهائلة تحطيمها. عصفت بنا لحظات من القلق الجسدي والنفسي ونحن نتخبط وسط هذا التأرجح المريع. عند المساء وفي الليل، صفرت الريح وكأنها تتغلغل في أبواق أرغن حادة، متنقلة بين الصواري والحبال. قفزت السفينة ومالت مثل كبش يضرب الأرض بقرنيه. غاصت مقدمة السفينة في البحر وكانت توشك على الغرق كلما أتت موجة ورفعت مؤخرتها. تناهت إلينا صرخات البحارة العرب الصادرة من السفن الأخرى التي كانت تنقل الحجاج الروم البائسين إلى القدس. حاولت هذه السفن الصغيرة المحمّلة بمائتي أو ثلاثمائة راكب من النساء والأطفال أن تقلع بهدف أن تتحاشى مواجهة أمواج الشاطئ العاتية. مرّت بعض السفن بالقرب منا وأطلقت النساء الصرخات وهن يبسطن أيديهن باتجاهنا، فابتلعتهن الأمواج العاتية ولم يعاودن الظهور إلاّ على مسافة بعيدة.

استطاعت بعض هذه السفن الابتعاد عن الشاطئ لكن الريح قذفت بسفينتين فوق الصخور الناتئة على المرسى المواجه لغزة، طاوعتنا مراسينا واجتذبتنا باتجاه صخور المرفأ الداخلي . رمى القبطان مرساة أخرى. ثم هدأت الريح ودارت قليلاً لصالحنا فلذنا بالفرار وسط طقس رمادي ضبابي باتجاه خليج دمياط، وابتعدت عن أنظارنا كل يابسة. نهارًا، قطعنا مسافة من الطريق لا يستهان بها، لكن الدلائل المنذرة بالعاصفة الوشيكة شغلت بال القبطان ومساعده. هبّت العاصفة عندما مال النهار. ازدادت برودة الهواء من ساعة لأخرى وأصبحت الأمواج أكثر علوّاً. أطلقت من السفينة صرخات الخوف والإعياء. أصدرت الحبال صفيرًا واهتزت تحت ضربات الريح وكأنها ألياف معدنية. تصاعدت أصوات حادة شاكية أشبه بولولة نساء الروم وعويلهن لدى مرور مواكب موتاهن. تمزّقت أشرعة سفينتنا وتدحرجت من هاوية إلى أخرى جانحة في كل مرة على أحد جوانبها، وبدت صواريها وكأنها ستهوي إلى البحر مثل أشجار اقتلعت من جذورها . عاودت الموجة التي سحقت تحت ثقل السفينة الكرّة من جديد وغمرت جسرها . نزل جميع الركاب، باستثنائي أنا والطاقم، إلى ما بين الجسرين. سمع نحيب المرضى وارتطام الصناديق والأثاث بجوانب السفينة، والسفينة نفسها بالرغم من أقفاصها القوية وقطع الخشب الضخمة التي تعبرها من ضفة لأخرى، فرقعت والتوت وكأنها ستنشق. أحدث ارتطام الأمواج الصاخبة بمؤخرة السفينة أصواتًا شبيهة بطلقات المدافع. في الساعة الثانية صباحًا، ازدادت قوة العاصفة فأوثقت نفسي بحبال إلى الصارية الكبيرة لكي لا تقذفني الموجة فأسقط في البحر عندما ينحني جسر السفينة بطريقة شبه عمودية. تدثرت بمعطفي وتأملت هذا المنظر البديع. أحيانًا كنت أنزل إلى ما بين الجسرين لكي أطمئن زوجتي النائمة في أرجوحتها . لم يترك القبطان المساعد، وسط هذا الإعصار المريع قيادة السفينة إلاّ لكي ينتقل من غرفة لأخرى ليقوّي من عزيمة الركاب التي انهارت. كان رجلاً يتمتع برباطة جأش في مواجهة الأخطار المحدقة لكن قلبه يطفح بحنان الأم حين تتطلب المواقف الشفقة. ظلت العاصفة على تلك الحال طوال الليل وعند طلوع الشمس، لم نر شيئًا إلاّ نهارًا كامداً تنتشر أشعته

الشاحبة فوق المياه وفي الأمواج المشوشة، وبدل أن تتضاءل قوة الريح، اشتدت باطراد. على امتداد رؤية العين، لم نشاهد إلاّ تلالاً من المياه المزبدة تتوالى خلف تلال اخرى. كانت الأمواج تتلاعب بالسفينة وكأنها ريشة في مهب الرياح فتميل من جانب إلى آخر لفترة طويلة وأحيانًا كانت تغور مقدمتها إلى الأمام وكأن الأمواج ستبتلعها. ثم ينهال البحر المتدفق على مؤخرتها ويعبر بها من ضفة لأخرى، بدا البحر الذي تضرب الريح صفحته وكأن لا أمواج فيه بل غدا ساحة للزبد الهائج فقط. كانت السهول تتخلل أحيانًا تلال الأمواج الهائلة فترتاح الصواري لوهلة بين حناياها ولكن لا تلبث أن تعلو مخترقة منطقة الأمواج العاتية فتتدحرج من جديد مدفوعة من هاوية إلى هاوية.

بين تسلق هذه التلال العاتية من الأمواج ثم التهاوي في المنخفضات التي تتخللها، انقضى النهار. عندئذٍ أراد القبطان أن يستشيرني. قال لي إن شواطئ مصر منخفضة وبالإمكان أن نجنح باتجاهها دون أن نراها. أما شواطئ سوريا فلا مرفأ فيها ولا مرسى. لذا يجب اتخاذ القرار إما بتوجيه الأشرعة بحيث تقف السفينة في عرض البحر أو اللحاق بحركة الريح التي تدفعنا باتجاه قبرص، وهناك سنجد مرسى وملجأ . كنا على مسافة ثمانين فرسخًا ومع ذلك، أمرت بأن تدار الدفة باتجاه قبرص. كانت الريح تقذفنا مسافة ثلاثة فراسخ في الساعة. لكن البحر لم ينخفض. استطاعت بعض الجرعات من الحساء البارد أن تعيد القوة لزوجتي ومرافقي المضطجعين في أرجوحاتهم. وتناولت أنا نفسي بعض القطع من البسكويت وشاركت القبطان ومساعده التدخين وأنا لا أزال في الوضعية نفسها فوق الجسر، بالقرب من علبة البوصلة، ممسكًا بالحبال التي تقيني من صدمة الأمواج العاتية وأتى الليل مثيرًا رعبًا أكبر في النفوس. اشتدّت وطأة الأمواج فوق البحر، ومزّقت البروق الأفق كله وجعلت كل شيء من حولنا يشتعل، بدت الصاعقة وكأنها تنبجس من رؤوس الأمواج ملتحمة بالغيوم، لتعاود نزولها بالقرب منا ثلاث مرات متتالية. في المرة الأولى قذفت موجة عملاقة

السفينة فقلبتها على جانبها وغاصت العارضات وارتطمت الصواري بالأمواج فانبجس الزبد لهذا الارتطام وانهال مثل معطف من نار تمزقه الريح وتبعثر خرقه الشبيهة بأفاعي اللهب الملتوية. أصدر كل الطاقم صرخة واحدة وبدونا وكأننا نقذف في فوهة بركان. إنها العاصفة الأشد هولاً التي تسنى لي رؤيتها خلال هذا الليل الطويل. أصمّ الرعد آذاننا طيلة تسع ساعات متتالية وأعمى البرق أبصارنا. وعند كل دقيقة، خلنا أننا سنرى صوارينا المشتعلة تسقط فوقنا وتحرق السفينة. عند الصباح، تقلّص حجم الغيوم لكن البحر كان أشبه بحمم بركانية تغلي. هدأت الريح قليلاً ولم تعد قادرة على دفع السفينة بل جعلت حركتها أثقل. لا بدّ أننا كنا على مسافة ثلاثين فرسخًا من قبرص. عند الساعة العاشرة، لاحت لنا اليابسة التي بدأت معالمها تتضح تدريجيّاً مع مرور الوقت : إنها «ليماسول» أحد مرافئ هذه الجزيرة. نصبنا الأشرعة المتوافرة لدينا لعلّ الرياح المؤاتية تجري في أقرب فرصة لكن البحر سرعان ما هدأت حركته لدى اقترابنا من المرفأ. صرنا على مسافة فرسخين من الشواطئ ورحنا نبحث عن مرسى «لارنكا» حيث لمحنا صواري كثيرة لسفن ضخمة كانت تبحث عن ملجأ مثلنا. اشتدّت قوة الرياح بشكل مفاجئ ودفعتنا بسرعة قياسية. كانت اندفاعة السفينة من القوة بحيث خشينا أن تتحطم الأسلاك حين كنا نهم بإلقاء المرساة. وأخيرًا سقطت المرساة حتى بلغت الأعماق. كنا لا نزال نتخبط وسط بحر هائج، لكن أمواجه كانت تهددنا دون أن نشعر بالخطر. رأيت الصواري وراية القناصلة الأوروبيين في قبرص الذين جاؤوا لتحيتنا من على شرفة قنصلية فرنسا حيث شاهدت صديقنا السيد بوتو يقوم ببعض الإشارات ليفهمنا أنه تعرف إلينا. بقي الجميع على متن السفينة. نظرت زوجتي والأسى يعصر قلبها إلى عائلة بوتو السعيدة التي استضافتها منذ خمسة عشر شهرًا وكانت آنذاك في أوجّ سعادتها قبل أن تفقد ابنتها.

وطئنا اليابسة أنا والقبطان. بادرني السيد والسيدة بوتو والسيدان بيرتييه وغيوا وهما شابان فرنسيان ألحقا بالقنصلية، بكل علامات اللطف والصداقة التي كنت

أتوقعها منهما. كما قمت بزيارة السيد ماتيي وهو مصرفي يوناني عهد بي إليه، وأرسلنًا مؤنًا من جميع الأصناف إلى السفينة. واتبعها السيد ماتيي بخمور من قبرص وخراف من سوريا. عندما جلت ضواحي المدينة مع السيد بوتو، استأنفت العاصفة هبوبها بعد هدوء. لم نعد نستطيع التواصل مع السفن الراسية لأن الأمواج غمرت الرصيف وتطاير زبدها حتى نوافذ البيوت. كانت الأمسية والليلة اللتان قضيتهما فوق الشرفة في قنصلية فرنسا أو أمام نافذة غرفتي هناك مريعة. رحت أتأمل السفينة حيث توجد زوجتي، وهي تتمايل في المرسى وسط الأمواج الصاخبة. كنت في كل لحظة أرتجف خوفًا من أن تنقطع المراسي وتقذف الأمواج السفينة على الصخور فتحطمها وتحطم معها كل ما بقي لي من أمل في هذا العالم.

في مساء اليوم التالي، هدأ البحر أخيرًا فعدنا إلى السفينة وأمضينا ثلاث ساعات في المرفأ بانتظار هبوب الرياح المؤاتية، زارنا السيد ماتيي والسيد بوتو مرات عدّة. كان السيد بوتو قنصلاً شابّاً وودودًا وقد استقبل مواطنيه الذين أتوا في رحلات إلى الشرق بعظيم إمارات المودة. كان، من بين كل الموفدين الفرنسيين في الشرق، أكثر من شرف اسم أمّته. احتفظت في قلبي بذكرى المرتين اللتين استقبلني فيهما بامتنان وصداقة حقيقيين. كان رجلاً سعيدًا حظي بإمرأة أحبها قلبه، وبأطفال يشكلون كل سعادته. علمت لاحقًا أن الموت داهمه بعد أيام قليلة من مرورنا في قبرص. للأسف، كانت وظيفته الثروة الوحيدة التي أبقاها لعائلته، ثروة تفانيه في حب وطنه وقيامه بأعباء وظيفته كقنصل لبلاده. أما الآن، بعد وفاته، فقد باتت زوجته المسكينة وأولاده البررة تحت رحمة فرنسا التي خدمها وشرّفها بكل أفعاله. عسى فرنسا ترد له جزءًا من تفانيه في سبيلها!

٣٠ نيسان ١٨٣٣

نصبنا الأشرعة. كانت الرياح متغيرة. استغرقت الرحلة ثلاثة أيام لكي نجتاز الطرف الغربي للجزيرة والسفينة تتحرك متعسّرة مضطربة... رأينا جبل أولمب وبافس

وآماتونت. بدا منظر السواحل والجبال في قبرص رائعًا من هذه الناحية. ربما كانت هذه الجزيرة أجمل مستعمرة في آسيا الصغرى، لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثين ألف نسمة فيما هي توفر الغداء والثراء لملايين الناس. أينما وجهت ناظريك، تجد الأراضي المزروعة الخصبة ، والأشجار الغضة المروية والشواطئ المزدانة بمراسٍ ومرافئ طبيعية في كل ناحية. وبالإمكان اعتبارها، نظرًا لموقعها بين سوريا وأرمينيا وشبه الجزيرة العربية ومصر وشواطئ أوروبا، هبة العالم.

٣ أيار ١٨٣٣

عند الصباح، رأينا القمم الأُوَل لقرمانيا. ها هو جبل طورس يلوح في البعيد: قمم مسننة، مكسوة بالثلوج تشبه جبال الألب حين ينظر إليها من ليون. الريح عذبة ومتغيرة. الليالي رائعة ومزدانة بالنجوم. دخلنا ليلاً خليج ساتاليا وهو أشبه ببحر داخلي. سكنت الريح وهجعت السفينة وكأنها في بحيرة. كيفما قلبت نظرك، ترى الجبال تحيط بالخلجان وهي جبال من مختلف الأشكال والارتفاعات يتوإلى أحدها وراء الآخر، مخلية المكان أحيانًا بين قممها غير المتساوية لأودية مرتفعة حيث يسبح ضوء القمر وتزين جنباتها أبخرة بيضاء. أما قممها فغارقة في أمواج قرمزية شاحبة وخلفها ترتفع القمم المسننة لجبل طورس مع شماريخها المكسوة بالثلوج. تترامى بعض الرؤوس المنخفضة التي تغطيها الأشجار في البعيد مخترقة البحر، وتنشر على شكل جزر صغيرة هنا وهناك فيما بينها أشبه بسفن راسية فيخيّم صمت مطبق على البحر والأرض. لا تسمع إلاّ الضجة التي تحدثها الدلافين وهي تنبثق بين الفينة والأخرى من الأمواج متقافزة مثل الجديان فوق المروج. بدت الأمواج المتحدة والمطعمة بالفضة والذهب مخددة وكأنها أعمدة يونانية مضطجعة أرضًا. بقيت السفينة ثابتة لم تتحرك. عند منتصف الليل، هب نسيم من اليابسة فدفعنا ببطء من خليج ساتاليا فسرنا بمحاذاة شواطئ آسيا الصغرى وصولاً حتى مستوى كاستلوريزو. دخلنا جميع الخلجان وكدنا نلامس اليابسة. ارتسمت خرائب هذه الأراضي التي تكونت من ممالك

عدة، البنطس وكابادوشيه وبيثينية ، فوق التلال المرتفعة، وقد باتت الآن أرضًا فارغة وموحشة. الغابات تكسو الأودية والسهول . يأتي التركمانيون لينصبوا الخيام طيلة الصيف. كل شيء مقفر باستثناء بعض الأماكن الساحلية كطرسوس وساتاليا وكاستلوريزو ومرموريتزا في خليج ماكري.

أيار ١٨٣٣

دفعنا التيار الذي يسيطر على طول شاطئ قرمانيا باتجاه طرف هذه القارة ومصب خليج ماكري. خلال الليل، اضطربت حركة السفينة حين اقتربنا من جزيرة رودس. وإذ خشي القبطان محاذاة الارتطام بشاطئ آسيا بنعل الريح الغربية التي هبت، عاد ليقذفنا في عرض البحر. استفقنا، وما أن رأينا رودس حتى وجدنا سفينتنا التي ضلت عن رفيقتها على مسافة غير بعيدة منا وهي: "L'alceste" منعنا سكون الهواء من الاقتراب منها طيلة النهار. عند المساء، هبّت الريح المنعشة التي دفعتنا إلى عمق خليج مرموريتزا. عند منتصف الليل، عاودت ريح اليابسة ودخلنا صباحًا إلى مرفأ رودس.

أيار ١٨٣٣

أمضينا ثلاثة أيام نجوب ضواحي رودس على جوانب الجبل المطل على شبه الجزيرة، مواقع ساحرة. بعد ساعتين من المسير على طول الشاطئ المكسو بالحصى، دخلت إلى واد تظلله أشجار جميلة ويرويه جدول صغير. سرت بمحاذاة ضفاف الجدول الذي تحيط به أشجار الدفلى فوصلت إلى نجد صغير يشكل المدرج الأخير للوادي. وكان هناك بيت صغير تسكنه عائلة يونانية فقيرة، حجبته تقريبًا أغصان أشجار التين والبرتقال. كان بستانه يحوي خرائب معبد صغير للحوريات، مع مغارة وبعض الأعمدة مع تيجانها مبعثرة، شبه مختفية بين النبات المعرّش وجذور الشجيرات. في أعلاه، مرجة يبلغ اتساعها مائتي أو ثلاثمائة قدم وفيها نبع نمت حوله شجرتا

جمّيز أو ثلاث. كانت إحدى الجميزتين تظلل باغصانها المرجة كلها: إنها شجرة الجزيرة المقدسة. يحترمها الأتراك، وإذا أراد مزارع يوناني بائس أن يقطع يومًا ما غصنًا من أغصانها، جعل باشا رودس عقابه فلقًا. ليس صحيحًا أن الاتراك يفسدون الطبيعة أو الأعمال الفنية بل يبقون جميع الأشياء على حالها. وطريقتهم الوحيدة في إفساد الأشياء هي أنهم لا يحسنونها. فوق المرجة وشجرات الجمين، تنتصب التلال شاهقة مسننة محتضنة غابات من شجر التنوب وتنساب منها شلالات صغيرة تحفر وهادًا حول جنباتها. وأخيرًا الجبال العالية للجزيرة التي تشرف على التلال وتظللها وعلى المروج والنبع . من على ضفاف النبع حيث اضطجعت، أرى، عبر أغصان الصنوبر والجميز بحر أرخبيل آسيا الذي يشبه بحيرة نثرت على صفحتها مجموعة من الجزر والخلجان العميقة التي تخترق أسفل الجبال العالية والقاتمة «لماكري» المتوجة كلها بتخاريم الثلوج. لا أسمع شيئًا إلاّ دمدمة النبع والريح وحفيف الأوراق وطيران بلبل أجفله حضوري والأغنية الشاكية التي تنشدها الفلاحة اليونانية التي تهدهد طفلها فوق سطح الكوخ. ما كان أروع هذا المنظر الجميل لو تسنّت لي رؤيته منذ ستة أشهر. التقيت في أحد المسالك بين جبال رودس العالية زعيمًا قبرصيّاً مرتديًا على الطريقة الأوروبية، ولكنه يعتمر قلنسوة يونانية وكانت لحيته بيضاء مسترسلة. تعرفت إليه، يدعى تيزيه وهو ابن أخ بطريرك قبرص، وقد لعب دورًا بارزًا خلال حرب الاستقلال. حين عاد إلى قبرص بعد استتباب السلم في الموره، جعله اسمه وفكره ونشاطه مثار إعجاب وإكبار لدى الشعوب اليونانية في قبرص. وفي زمن الانتفاضة الذي شهدته الجزيرة لتوها، انضوى مزارعو الجبال تحت أوامره، استغل نفوذه لتهدئتهم. ثم تدارك بالاتفاق مع بوتو قنصل فرنسا تبعات الوضع فبعثر رجاله والتجأ إلى قنصلية فرنسا تحاشيًا لانتقام الأتراك فقادته سفينة يونانية إلى رودس حيث لا يتهدده الخطر في كل لحظة. عرضت عليه مكانًا على متن احدى سفني فوافق. سأقله إلى القسطنطينية أو اليونان أو إلى أوروبا، وفقًا لرغبته . كان من هؤلاء الرجال الذين يغامرون دائماً بحياتهم وثروتهم، يميزه ذكاء رفيع وجرأة نادرة، يتكلم جميع اللغات

ويعرف جميع البلدان. كان حديثه مشوّقًا لا ينضب معينه، وكانت روحه متأهبة للعمل والتفكير. كان من هؤلاء الرجال الذين يتصفون بعفوية وتلقائية في تصرفاتهم، يرتفعون في خضمّ الثورات كما ترتفع العصافير فوق العواصف لتعود وتحط مع انحسارها . نادرًا ما تخلق الطبيعة مثل هؤلاء الرجال، وهم تعساء عادةً، نخشاهم ونضطهدهم فيما بإمكانهم أن يكونوا عونًا لنا في الملمّات لو عرفنا كيف نفيد منهم في الميدان الذي يتجلون فيه. ارسلت قاربًا إلى مرمورتيزا ليقل شابّاً يونانيّاً لكي يذهب لانتظار أحصنتي وينقل الأوامر لسائسيّ لموافاتي في القسطنطينية. عقدنا النية على الذهاب بحرًا لزيارة الجزر الواقعة على شاطئ آسيا وضفاف اليابسة.

أقلعنا عند منتصف الليل وكانت الريح خفيفة. تجاوزنا رأس كريو مساء أول يوم. كان الإبحار جميلاً وعذبًا بين جزر بيسكوبيا ونيزيرا وجزيرة كوس المسحورة، موطن أسكولاب. بدت لي جزيرة كوس الأكثر بهجة وظرفًا في هذا الأرخبيل، بعد جزيرة رودس. ثمة قرى بديعة تظللها أشجار دلب جميلة تحف بضفافها. المدينة بهجة المنظر وبيوتها أنيقة. عند المساء وجدنا أنفسنا تائهين مع سفينتنا في وسط متاهة من الجزر الصغيرة غير المأهولة، تفترشها الأعشاب العالية كالسجاد وتتخللها قنوات ساحرة وخلجان صغيرة حيث يمكن للسفن أن ترسو. كم من الأمكنة الساحرة المتوافرة لهؤلاء الناس الذين يشكون من ندرتها في أوروبا! تتميّز رودس وكوس بمناخهما وخصوبة تربتهما وثمة مساحة هائلة من اليابسة على مسافة فرسخين. اجتازت بنا السفينة مسافة لا يستهان بها بين هذه اليابسة وهذه الجزر. رأينا الشمس تلتمع فوق الخرائب الكبيرة لمدن اليونان والرومان الواقعة في آسيا الصغرى. في صباح اليوم التالي، افقنا فوجدنا أنفسنا بين جزيرة ساموس وجزيرة إيكاريا. انتصب الجبل العالي الذي يؤلف وحده جزيرة ساموس فوق رؤوسنا مكسوّاً بالصخور وغابات التنوب. لمحنا نساء وأطفالاً وسط هذه الصخور. التجأ شعب ساموس الذي كان ينتفض في هذه اللحظة ضد الأتراك إلى الجبال، وكان الرجال مسلحين في المدينة وعلى السواحل. ساموس

جبل أشبه بالجبال المحيطة ببحيرة لوسرن في سويسرا ولكن تضيئه شمس آسيا، وهو يلامس اليابسة بقاعدته: لم نلمح إلاّ قناة ضيقة تفصله عنها. عاودت العاصفة هبوبها في خليج سكالانوفا، على مسافة غير بعيدة من خرائب أفسس: دخلنا صباحًا إلى قناة خيو وبحثنا عن ملجأ في مرسى جشمة الشهير حيث جرى تدمير الأسطول العثماني على يد الأسطول الروسي. تمتد جزيرة خيو الساحرة مثل تلة خضراء، على الضفة الأخرى لنهر كبير. تلتمع بيوتها البيضاء ومدنها المتجمعة على المنحدرات الظليلة للجنوب، بين أشجار البرتقال والحجنات. وما تبقى منها يبشر بازدهار هائل حديث العهد وينذر بكثافة سكانية. لم يستطع النظام التركي أن يئد عبقرية الشعوب اليونانية القاطنة في هذه الجزر الجميلة ويحدّ من نشاطهم ومهارتهم في ميدان التجارة والزراعة. لم آت بلدًا في أوروبا تبدو عليه مناظر الثراء والرفاهية مثل خيو: إنها حديقة تبلغ مساحتها ستين فرسخًا.

زرنا لمدة يوم خرائب جشمة الشهيرة بمياهها المعدنية.

هدأ البحر. أقلعنا باتجاه إزمير. هبّت ريح متقلبة وأمضينا النهار نبحر بهدوء بمحاذاة ساحل خيو. تنحدر الغابات حتى تلامس البحر وتحيط بالخلجان جميعها مدن محصنة ذات مرافئ محتشدة بسفن صغيرة. على شاطئ كل خليج صغير قرية ومجموعة لا تحصى من الأشرعة الصغيرة تنتشر على الشواطئ محملة بالنساء والفتيات اليونانيات اللواتي يقصدن الكنيسة للصلاة. تشاهد على جميع المنحدرات والوهاد كنيسة أو قرية. تجاوزنا أطراف الجزيرة وهبّت ريح معاكسة دفعتنا إلى خليج إزمير. استمتعنا حتى هبوط المساء بمنظر الغابات الجميلة والقرى الشبيهة بطرزاها بقرى جبال الألب التي تحف بالساحل الشرقي للخليج. في الليل، أبحرنا بهدوء على مسافة غير بعيدة عن جزر فورلا حيث شاهدنا نيران الأسطول الفرنسي تتلألأ وقد مضى ستة أشهر على رسوه هناك. في الصباح، لاحت لنا إزمير في عمق الخليج متكئة على تلة هائلة مكسوة بشجر السرو. تتوج الأسوار العالية المسننة القسم الأعلى

من المدينة. تمتد قرى جميلة إلى اليسار صعوداً حتى الجبال. هنا، في إزمير، يسيل نهر مليس، وشعرت أن ذكرى هوميروس تحوم جاثمة فوق شواطئ إزمير كلها. تحريت بعيني عن تلك الشجرة الموجودة على ضفة النهر حيث وضعت الأمَة المسكينة ثمرة أحشائها بين نبات القصب. لم تعرف أن طفلها سيخلّد إلى الأبد النهر واليابسة والجزر، بمخيلته وعبقريته التي خصته بها السماء وعكست كل العصور القديمة بآلهتها وناسها. هوميروس هبة من السماء إلى الأرض. ولد متروكًا على ضفة النهر وكأنه موسى الشعر. عاش بائسًا وأعمى مثل آلهة الهند الذين جالوا العالم بلباس المتسولين والذين لم يعرف أنهم آلهة إلاّ بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. أرى هوميروس رجلاً فريدًا، استطاع أن يعثر على النبرة في الصوت والدموع في القلب والألوان في الكلام. ويبدو لي التسليم بأنه يوجد سلالة من الرجال أشباه هوميروس أصعب من التسليم بوجود سلالة للعمالقة. فالطبيعة لا تجود بعباقرتها على دفعات بل تصنع هوميروس وتتحدى العصور بأن تقدر على خلق إنسان يجمع في ذاته هذا الكل المنسجم من الفكر والفلسفة والإحساس والعبقرية.

نزلت في إزمير راغبًا في أن أكتشف المدينة وضواحيها برفقة السيد سالزاني وهو مصرفي وتاجر من إزمير، أضف إلى أنه لطيف قدر ما هو ودود ومثقف. أسرفت في استغلال طيبته لمدة ثلاثة أيام وكنا نعود عند كل مساء للنوم على متن سفينتنا . لا تشبه إزمير الصورة التي كوّنتها عن المدن الشرقية. بل هي أقرب إلى أن تكون مرسيليا على ضفاف آسيا الصغرى. إنها محطة اقتصادية أجنبية، فسيحة وأنيقة، حيث يعيش القناصلة والأوروبيون حياة الباريسيين واللندنيين. يبدو منظر الخليج والمدينة جميلاً من أعلى الجبال المكسوة بأشجار السرو. عندما انحدرنا من جديد وجدنا أنفسنا على ضفة النهر الذي طاب لي أن أعتبره نهر مليس ورأيناه موقعًا ساحرًا لا يبعد عن باب المدينة وهو جسر القوافل. أما النهر فجدول شفّاف يهجع تحت القبة الوادعة لأشجار الجميز والسرو. جلسنا على ضفافه وأحضر لنا الأتراك غلايين

وقهوة. طوبى لهذه المياه التي استطاعت أن تسمع صراخ هوميروس وهو لا يزال طفلاً وليداً. أود أن أسمع دمدمتها العذبة بين جذور أشجار الدلب. أود لو أحملها إلى شفتي وأغسل بها جبيني الملتهب.. ألا فليبعث من جديد لعالم الغرب الرجل الذي صنع قصيدة تاريخه وأحلامه وسمائه! إن شعرًا مشابهًا لهو ضريح الأزمنة حيث يأتي المستقبل ليقدّس التقاليد الغابرة ويخلّد مآثر البشرية وأفكارها السامية. إن صانع هذا الشعر يحفر اسمه في أسفل التمثال المشيّد لعظمة الإنسان ويعيش في جميع الصور التي أغنى بها عالم الفكر.

في هذا المساء، ذهبنا لزيارة رجل عجوز يعيش وحده في منزل صغير على رصيف إزمير البحري وبرفقته خادمتان يونانيتان. كان الدرج والمدخل والغرف مليئة ببقايا من تحف قديمة وخرائط أثينا وشذرات من الرخام وحجر السماق. إنه السيد فوفيل، قنصل فرنسا السابق في اليونان . طرد من أثينا التي كانت وطنه وكان كابن من أبنائها ، أمضى حياته ينظف الغبار عنها ليلمع تمثالها أمام أنظار العالم. لكنه الآن يعيش في إزمير وحيداً مغمورًا حاملاً إليها آلهة أثينا الذين يجلّ قدرهم على الدوام. كان شاتوبريان قد التقاه في شبابه ووجده سعيداً وسط آثار البارتينون الرائعة. أما الآن فألفيته عجوزاً منفيّاً مسحوقًا تحت وطأة الشعور بنكران الجميل الذي أظهره الناس تجاهه. لكنه، ورغم ذلك، بدا متماسكًا وسعيداً في شقائه مفعمًا بتلك الحكمة الطبيعية التي يحملها أثرياء القلوب متحملين بكل أناة وصبر الشقاء ونكران الفضل. أمضيت ساعة عذبة سهوت فيها عن نفسي وأنا استمع إلى هذا العجوز الرائع.

التقيت في إزمير بشاب موهوب سبق أن تعرفت إليه في إيطاليا إنه السيد ديشان وهو محرر جريدة إزمير ... تذكّر لقاءنا السابق وكان حديثه مفعمًا بالإحساس. يبدو أن العاصفة قد حملت شذرات من مذهب سان – سيمون في الإصلاح الاجتماعي لترميها في إزمير. – تلقيت رسالتين منه على قدر من الأهمية وأنا على متن السفينة. يجب أن لا نحكم على الأفكار الجديدة باحتقار على غرار ما ينظر إليها أبناء هذا

العصر. جميع الأفكار السامية تواجه لدى إطلاقها على أنها بدعة أو هرطقة.لا شك أن السان – سيمونية تملك بحدّ ذاتها شيئًا من المصداقية والنبل. إنها تطبيق للمسيحية في المجتمع السياسي وتشريع للأخوة الإنسانية. إذا أردنا أن نأخذ الأمور من هذه الزاوية، فيمكنني القول إنني سان – سيموني. ليس الفكر هو ما يفتقر إليه هذا المذهب الذي انكسف ولم يمت. ولا يفتقر إلى الأتباع، بل ما ينقصه هو القائد والمعلم والمنظّر. لو أن رجلاً يتحلى بالعبقرية والفضيلة، لو كان متدينًا وسياسيّاً في آن، ثاقب النظر، بعيد الرؤية، فأنا على يقين بأن لديه القدرة على توجيه هذه الفكرة الناشئة وتحويلها إلى واقع حي. إن الأزمنة التي تشهد فوضى الأفكار مواسم ملائمة لتبرعم الأفكار القوية والجديدة. يبدو المجتمع لعيني الفيلسوف في حالة الضلال، لا وجهة له ولا هدف ولا قائد و لا من يؤمن استمراره سوى غريزة البقاء وحدها . أما إذا ظهر مذهب ديني وأخلاقي واجتماعي وسياسي، وإذا اتخذ له رمزًا وشعارًا وهدفًا وقائدًا وفكرًا، وإذا سار متماسكًا متقدمًا وسط الصفوف المشتتة، ما من شك أن النصر سيكون حليفه لكن شريطة أن يجلب للمجتمع خلاصه لا دماره، أن يستأصل من المجتمع الجذور التي تؤذيه لا التي تغذي بقاءه ؛ والأهم من كل ذلك أن يعيد للعقل المحبة وللسياسة الأخوة المسيحية وللملكية الرأفة وللمنفعة العامة التي هي مبدأها الوحيد والقاعدة الوحيدة التي ترتكز إليها. إن وجود قائد مشرّع هو ما كان يفتقر إليه هؤلاء الفتيان المتقدين حماسًا، التائقين إلى شعلة الإيمان، لكننا لم نواجه عقيدتهم إلا بالتشكيك. فأتباع السان – سيمونية اتخذوا شعارًا أوليّاً لهم إعلان الحرب على العائلة والملكية والدين حتى القضاء عليها ! لا يمكننا أن نغزو العالم بقوة الكلمة وحدها ، لنا أن نعيده إلى صوابه، نهزه، نفعل فيه ونغيّره. ما دامت الفكرة التي نؤمن بها غير عملية، لا يحق لنا والحالة هذه أن نقدمها إلى العالم الاجتماعي. تتدرج البشرية من المعلوم إلى المجهول لكن ليس من المعروف إلى المحال. – يجب أن يحافظ على الأساس دون تدمير البناء كله، وإلا فإن هذا لن يجدي نفعًا. قبل نشوء الثوارت الكبرى، تلوح علائمها المنذرة على الأرض وفي السماء. وأتباع مذهب سان – سيمون كانوا من هذه العلائم. ربما كان

قدرهم أن ينجلوا كتنظيمات ويصيبهم التفكك لكنهم سيستمرون كأفراد وسيكونون قادة الجيش الجديد وجنوده.

١٥ أيار

خرجنا من خليج إزمير ناشرين كل القلوع. وصلنا إلى مستوى فورلا. وحين تسكعت السفينة عند مصب الخليج اصطدمت بجرف رملي بسبب رعونة القبطان اليوناني فاهتزت بعنف وارتجفت لاهتزازها الصواري لتبقى جامدة في مكانها على بعد ثلاثة فراسخ من اليابسة. وعندئذٍ تدفقت إليها الأمواج المتعاظمة متحطمة على جوانبها. ثم صعدنا على ظهر السفينة. كانت لحظة قلق هادىء ومهيب .لحظة تتوقف فيها حيوات كثيرة على نجاح قيادة السفينة أو عدمه. ساد صمت مطبق ولكن لا أثر للذعر. كم الإنسان قوي أمام الصعاب ! بعد بضع دقائق من الجهود غير المثمرة أسعفتنا الريح وأدارت سفينتنا وتحركت ولم يعترض طريقنا أي منفذ ماء فاخترقنا عباب البحر وجزيرة ميتيلين على يميننا. كان نهارًا رائعًا. اقتربنا من القناة التي تفصل الجزيرة عن اليابسة. تضاءلت الريح وتجمعت الغيوم فوق عرض البحر. لكن عند حلول المساء انعتقت الريح من هذه الغيوم حاملة معها الصواعق وهبّت عاصفة مزمجرة وساد ظلام كامل. أخذت السفينتان تؤشران لبعضهما وبحثتا عن مرفأ فوليبري وهو مرفأ فوسي القديم بين الصخور التي تشكّل الحدود الشمالية لخليج إزمير. دفعتنا الريح في زهاء ساعتين على مسافة عشرة فراسخ بمحاذاة الشاطىء. دوّى الرعد مع انقضاء كل دقيقة وصفّر بين الأمواج فأضاءت البروق السماء والبحر وصخور الشاطىء المدوية وصار الليل نهارًا فاستهدينا على طريقنا. كادت السفينتان تلتحمان وارتجفنا خوفًا لئلا تتحطما. وأخيرًا عندما كان الليل في أوجه قام القبطان بعمل جبار ما جعلنا ندخل المصب الضيّق لمرسى فوسي. سمعنا الأمواج على يميننا وعلى شمالنا تزأر فوق الصخور. وكانت أي حركة خاطئة تدار بها السفينة سترمينا أشلاء. صمتنا جميعًا على ظهر السفينة بانتظار أن تنجلي الأمور لنا. ما عدنا نرى الصواري لشدة

الظلام. وفجأة شعرنا بالسفينة تنساب فوق مسافة جامدة. التمعت بعض الأنوار حولنا على مدار الحوض حيث دخلنا لحسن الحظ ورمينا المرساة دون أن نعرف أين كنا تحديداً. عصفت الريح طيلة الليل في صوارينا وعوارضنا وكأنها ستقتلعها من مكانها لكن البحر بقي جامداً. إنه لحوض ظريف، حوض فوسي القديم الذي تبلغ مساحته نصف فرسخ والذي ارتسم كدائرة بين تلال بهجة مكسوة ببيوت طليت بالأحمر وبأكواخ تظللها أشجار الزيتون وحدائق وكروم معرشة وحقول رائعة مزدانة بأشجارالسرو التي تلتمع في أسفلها المدافن التركية. نزلنا إلى اليابسة وزرنا المدينة التي أنجبت مرسيليا، استُقبلنا بحفاوة وود في منزلي عائلات تركية، وأمضينا النهار وسط بساتينهم المزروعة بأشجارالبرتقال، في اليوم الثالث هدأ البحر وخرجنا عند منتصف الليل من مرفأ فوسي الذي صنعته الطبيعة .

١٧ مايو ١٨٣٣

سرنا النهار بطوله بمحاذاة قناة ميتيلين حيث كانت جزيرة لسبوس. تذكرت المرأة التي كانت الشاعرة الوحيدة في العصور القديمة واستطاع صوتها أن يخترق العصور. لم تصل إلينا الا بعض قصائد الشاعرة سافو (Savo) لكنها كانت كفيلة لتظهر لنا العبقرية الرفيعة لهذه الشاعرة، مثلما يستطيع جزء من ذراع أو جذع تمثال نحته فيدياس أن يوحي لنا بالتمثال كله. لا بد أن القلب الذي فجّر قريحة سافو وأطلق أشعارها كان معيناً لا ينضب من الشغف والصور. بدت لي جزيرة لسبوس أجمل من جزيرة خيو، سلسلة جبالها الخضراء المخرمة بأشجار التنوب أكثر ارتفاعًا وأظرف تناسقًا. يتغلغل البحر بشكل أعمق في خليجها الداخلي الواسع. ثم إن تلالها المشرفة على البحر والأكثر التصاقًا بآسيا، تبدو أشد وحشة ومنعة. لا ترى في هذه الجزيرة القرى المتلاصقة المنتشرة. في حدائق خيو نادرًا ما نلمح دخانًا يتصاعد من أحد الأكواخ اليونانية متدحرجًا بين رؤوس أشجار الكستناء والسرو أو بضعة رعيان يحرسون على أعلى الصخور قطعانًا كبيرة من الماعز البيضاء. عند المساء، كانت الريح

مؤاتية فتجاوزنا الطرف الشمالي لجزيرة ميتيلين ولمحنا عند الافق أمامنا، في الضباب الوردي للبحر، بقعتين قاتمتين هما جزيرتا لمنوس وتينيدوس.

التاريخ نفسه

إنه منتصف الليل. البحر هادئ مثل مرآة. تحلق السفينة كظل جامد فوق مساحته اللامعة: انبثقت تينيدوس فوق الأمواج إلى يسارنا وحجبت عنا البحر الواسع. على مقربة منا امتد الشاطى المنخفض لسهل طروادة مثل حاجز أسود. طلع القمر بدرًا عند قمة جبل «ايدا» المبقع بالثلج ونشر نورًا صافيًا ومريبًا فوق قمم الجبال والتلال والسهل. ثم انتشر ضياؤه ليغمر البحر ويشق طريقًا رائعًا فيه حتى ظل سفينتنا، طريقًا من النور لا تستطيع الظلال أن تطفئ بريقها. لمحنا الحجارة المنصوبة فوق القبور الصغيرة المخروطية التي تقول التقاليد إنها قبور باتروكل وهكتور. اكتسح القمر الفسيح الأحمر التلال المتموجة وكأنه درع «أخيل» الدامي. ما من ضوء على امتداد هذا الساحل. فقط نار بعيدة أشعلها الرعاة فوق أحد هضاب ايدا. ما من ضجة إلا خفقان الشراع والاهتزاز الذي تحدثه الصارية من وقت لآخر لدى ارتطامها بالعارضة الكبيرة. بدا كل شيء ميتًا كالماضي وسط هذا المشهد الكامد الأخرس. انحنيت فوق أحزمة السفينة ورأيت تلك الأرض والجبال والآثار والمقابر تخرج من قلب البحر كأنها ظلال عالم مندثر، وترتسم بأشكالها الأثرية وحدودها المبهمة في كنف الأشعة الناعسة والصامتة لكوكب الليل ثم تتلاشى كلما نأى القمر خلف قمم جبال أخرى. إنها صفحة جميلة من شعر هوميروس. إنها نهاية كل حكاية وكل قصيدة، تلك القبور المجهولة الآثار التي لا تملك اسمًا أكيدًا والأرض الجرداء القاتمة التي تضيئها كواكب خالدة بنورها المضطرب. مرت أشباح جديدة لا مبالية أمام هذه الشطآن ورددت للمرة الألف الكتابة التي توضع على شاهدة كل قبر «ها هنا ترقد مملكة ومدينة وشعب وأبطال». العظمة لله وحده والفكرة التي تسعى إليه و تعبده .

لم تراودني أي رغبة بالذهاب لزيارة الآثار المريبة لطروادة عن كثب أو في النهار. أفضل رؤيتها ضمن هذا التجلي الليلي الذي يتيح للفكر بأن يعيد هذه الصحارى

مأهولة من جديد، مستضيئا فقط بمشعل القمر الشاحب وقصائد هوميروس. ثم ما لي ولطروادة وآلهتها وأبطالها؟ فهذه الصفحة من العالم البطولي طويت إلى الأبد. هبت ريح مؤاتية من اليابسة أفدنا منها وجعلتنا نقترب من الدردنيل أكثر فأكثر. على أية حال، كانت هناك سفن كثيرة وكبيرة تبحث مثلنا عن هذا المدخل الصعب، واقتربت منا. بدت أشرعتها الرمادية الكبيرة كأجنحة العصافير الليلية تنزلق بصمت منسابة بين سفينتنا وتينيدوس. نزلت إلى ما بين الجسرين واستسلمت للنوم.

١٨ أيار ١٨٣٣

حين أفقت عند الصباح، سمعت المركب يمخر بسرعة عباب البحر وأمواج الصباح الخفيفة تزغرد وكأنها زقزقات عصافير حول جوانب السفينة. فتحت كوة السفينة ورأيت فوق سلسلة من التلال المنخفضة والمستديرة قصور الدردنيل بأسوارها البيضاء وأبراجها وفوهات مدافعها الهائلة. يبلغ عرض القناة فرسخًا في هذا المكان وتنساب كنهر جميل بين ساحلي آسيا وأوروبا المتشابهين تمامًا. تمتد القصور على هذه الشواطئ وكأنها مصراعا باب. لكن، في ظل العلاقات الحالية السائدة بين تركيا وأوروبا، من السهل الدخول عنوة عن طريق البحر أو القيام بإنزال والالتفاف حول الحصون من الخلف. ذلك أن عبور الدردنيل لا يشكل مجازفة إلا حين يحرسه الروس .

دفعنا التيار السريع مثل سهم أمام غاليبولي والقرى التي تحف بالقناة رأينا جزر بحر مرمرة تكبر أمامنا تدريجيّاً وسرنا بمحاذاة الشاطئ نهارين وليلتين في عكس اتجاه رياح الشمال. عند الصباح لمحنا جزر الأمراء في عمق بحر مرمرة، في خليج نيقيا وإلى يسارنا قصر الأبراج السبعة وقمم المآذن الأثرية التي لا تحصى من اسطنبول تطاول تلال القسطنطينية السبع. وبقدر ما كانت السفينة تقترب من هذه الأمكنة تنكشف لنا أشياء جديدة. لم أشعر لدى هذا المشهد الأولي للقسطنطينية إلا بانفعال شديد ناجم فقط عن الدهشة من زوال السحر الذي خلته بها. قلت في نفسي: عجبًا ! هل هي هنا فعلاً هذه البحار والشطآن والمدينة الرائعة التي لأجلها تخلّى أسياد

العالم عن روما وشواطىء نابولي ؟ أهنا فعلاً عاصمة العالم المستوية على عرشي أوروبا وآسيا جاعلة جميع الأمم الغازية تستميت للاستيلاء عليها وكأنها رمز ملك هذا العالم ؟ أهنا المدينة التي تخيلها الرسامون و الشعراء ملكة المدن جميعها المحلقة فوق تلالها وبحرها المزدوج وخلجانها وأبراجها وجبالها، الحاوية كنوز الطبيعة وثروات الشرق! أهنا المكان الذي يقارن بخليج نابولي محتضنًا كمسرح ضخم مدينة بيضاء ومن فوقه هالة ذهبية تشبه قمة بركان فيزوف لكنها ضائعة وسط غيوم رمادية وقرمزية، وأيضًا غابات كغابات كاستلاماري لكنها تبلل أغصانها القاتمة في بحر أزرق، وجزر شبيهة بجزر بروسيدا وايشيا بقممها الرمادية وسفوحها المزورعة بالعرائش الذهبية المزدانة بالدارات البيضاء تسدّ الخليج الهائل وكأنها صخور عملاقة رماها الله عند مصب هذا المرفأ! لا أرى ههنا شيئًا يمكن مقارنته بنابولي وبمناظرها التي انطبعت في عيني. صحيح أني مبحر فوق يمٍّ جميل ظريف لكن الشواطىء التي ترتفع فوقه التلال الرتيبة المستديرة، مسطحة والثلوج التي تغطي جبل الاولمب الساطعة عند الأفق ليست إلا مجرّد غيمة بيضاء في السماء ولا تضفي على المشهد المهابة المرتجاة وفي عمق الخليج لا أرى إلا التلال المتقاربة الارتفاع والمتشابهة في الشكل، دون الصخور ولا خلجان صغيرة ولا ألسنة بحرية. ليست إسطنبول التي دلّني عليها القبطان بإصبعه إلا مدينة بيضاء منبسطة فوق أكمة كبيرة على شواطىء أوروبا. هل تستحق هذه الأمكنة القاصية عناء زيارتها بعد الخيبة التي منيت بها وزوال السحر الذي ما كنت أتوقعه ؟! زالت عندي كل رغبة في النظر إلى الطبيعة. ومع ذلك كانت تنقلات السفينة التي لا تنتهي تقرّبنا تدريجيّاً من المدينة: سرنا بمحاذاة الأبراج السبعة وهو بناء ضخم رمادي صارم يرقى إلى القرون الوسطى، وتقدمت بنا السفينة لترسو تحت منازل إسطنبول في بحر مرمرة وسط حشد من السفن والقوارب التي حوصرت مثلنا خارج المرفأ بسبب عنف رياح الشمال. كانت الساعة الخامسة مساءً والسماء صافية والشمس ساطعة. وشيئًا فشيئًا تبدد عندي النفور الذي أحسست به تجاه القسطنطينية. تؤلف جدران السور في هذا القسم من المدينة المبنية على أنقاض الجدران القديمة ومن فوقها

الحدائق والظلات والبيوت الخشبية الصغيرة المطلية بالأحمر، الجزء الأمامي من هذه اللوحة. في الأعلى سطوح المنازل التي لا تحصى الممتدة كألادراج تخللها رؤوس أشجار البرتقال والسروات المسننة القائمة مثل الرماح. ودائمًا إلى الأعلى. سبعة أو ثمانية مساجد تتوج التلة، تعلوها المآذن وتزينها الأعمدة المغربية، وتنصب قبتها الذهبية نحو السماء فيما يزيدها انعكاس الشمس توهجًا. كانت جدارن المساجد المطلية باللون الأثيري الناعم الذي يكسو قبتها الرصاصية تضفي عليها منظرًا ولونًا شفافًا يجعلها أقرب إلى الأبنية المصنوعة من البورسلان. كانت أشجار السرو الدهرية التي تحرس هذه القبب بمسالاتها الجامدة القاتمة بالإضافة إلى الألوان المتنوعة التي طليت بها بيوت المدينة تلتمع وسط التلة الفسيحة كأنها حديقة أزهار زاهية. كان الصمت يلف الشوارع. وظلت النوافذ مغلقة ولم يتناه أي صوت عن هذا التجمع البشري الكبير. بدا كل شيء ناعمًا تحت شمس النهار المحرقة. وحده الخليج الذي تخترقه الأشرعة من مختلف الأشكال والأحجام، كان الدليل الوحيد على الحياة في المدينة : في كل لحظة، كنا نشاهد سفنًا ناشرة كل قلوعها تخرج من القرن الذهبي ، مدخل مضيق البوسفور الوحيد والمرفأ الحقيقي لإسطنبول، ثم تعبر بالقرب منا هاربة باتجاه الدردنيل لكننا لم نستطع أن نبصر مدخل البوسفور ولا أن نتبين فعلاً موقعه. تناولنا العشاء على ظهر السفينة قبالة هذا المشهد السحري .اتجهت الزوارق التركية الضيقة باتجاهنا وسألتنا من نكون ثم أحضرت لنا المؤونة والزاد. قال لنا ربان الزورق إنه لم يعد هنالك طاعون. بعثت برسائلي إلى المدينة عند الساعة السابعة، جاء السيد تروكي، القنصل العام لسردينيا لزيارتنا برفقة ضباط من دار مفوضيته ويطلب منا أن نحلّ ضيوفًا عليه في منزله الكائن في بيرا. لم يكن هناك من مجال لإيجاد مسكن نأوى إليه في المدينة التي أحرقت منذ وقت قريب. حملتنا مودة السيد تروكي ولطفه على الموافقة على عرضه من أول لحظة. كانت الريح المعاكسة لا تزال مهيمنة. لن تستطيع السفن الابحار هذا المساء فخلدنا للنوم على متنها.

القسطنطينية: ٢٠ أيار ١٨٣٣

عند الساعة الخامسة، كنت متأهبًا على ظهر السفينة. أنزل القبطان زورقًا في البحر فاستقلله وأقلعنا باتجاه مصب البوسفور. سرنا بمحاذاة جدران القسطنطينية التي كان البحر يغسل أقدامها باستمرار. بعد نصف ساعة من الإبحار وسط مجموعة من السفن الراسية، لامسنا جدران السراي التي تشكل تكملة لجدران المدينة وتؤلف عند طرف التلة التي تحتضن إسطنبول الزاوية الفاصلة بين بحر مرمرة وقناة البوسفور والقرن الذهبي أو المرفأ الداخلي الكبير للقسطنطينية: هنا بالذات اجتمع الله والإنسان والطبيعة والفن ليساهموا معًا في خلق المنظر الأروع الذي أتيح لعين بشرية أن تراه على هذه البسيطة. أطلقت صرخة دون قصد مني وأنساني المنظر إلى الأبد خليج نابولي وكل مفاتنه. إن مجرّد المقارنة بين المشهد البديع الذي أراه وأي مشهد آخر يُعد تجديفًا على أروع ما خلقه الله.

كانت الأسوار التي تحتضن الجلول الدائرية لحدائق السراي الكبير الشاسعة على مسافة بضع خطوات منا، يفصلها لجهة البحر إلى يسارنا رصيف ضيّق فرشت أرضه بالحجارة الكبيرة التي يغسلها البحر دون توقف، وحيث تتدفق مياه البوسفور أمواجًا صغيرة مدمدمة وزرقاء أشبه بمياه نهر الرون في جنيف. هذه الجلول ترتفع على شكل منحدر خفيف حتى قصر السلطان الذي تبزغ قببه الذهبية بين قمم أشجار الدلب والسرو الباسقة، المزروعة هي نفسها بأشجار السرو والدلب الهائلة القائمة على امتداد الجدران بحيث تتدلى أغصانها الفائضة عن الحدائق فوق البحر وكأنها خيم مصنوعة من الأوراق تستظل بفيئها الزوارق. كان المجذفون يتوقفون من وقت لآخر في ظلها، أحيانًا كانت تتخلل مجموعات الأشجار هذه قصور ودواوين وظلات وأبواب منحوتة ذهبية مطلة على البحر أو بطاريات مدفعية من النحاس والبرونز غريبة الأشكال وقديمة. تطل النوافذ المسيجة لهذه القصور البحرية التي تشكل جزءًا من السراي على الأمواج وتلوح، عبر الستائر المعدنية، الثريات البراقة وسقوف الغرف المطلية بالذهب

وعند كل مسافة يجتازها بنا القارب، تطالعك نوافير ماء أنيقة محفورة في جدران السراي تتساقط من أعلى الحدائق مدمدمة في صدفيات رخامية ليرتوي منها العابرون. كان بعض الجنود الأتراك ينامون بالقرب من هذه النوافير فيما بعض الكلاب الشاردة تتسكع على طول الرصيف وبعضها مضطجع في فتحات المدافع ذات المواسير الهائلة.

كلما تقدم القارب بمحاذاة هذه الأسوار اتسع الأفق أمامنا واقترب شاطىء آسيا. بين تلال مكسوة بالأخضر القاتم وتلال مواجهة لها بدت وكأنها مطلية بكل ألوان قوس قزح، ارتسم مصب البوسفور أمام أعيننا، استرحنا قليلاً في هذا المكان. رأينا شاطىء آسيا على مسافة ميل إلى يميننا تتخلله تلال فسيحة وبيوت مطلية قممها بالأحمر وسط الحقو ل التي تحف بها الأشجار فيما وهادها العموديّة مفروشة بالنبات الأخضر وأشجار الجميز التي تغمس أطراف أغصانها في الماء. على مسافة أبعد، ازدادت هذه التلال ارتفاعًا ثم عاودت انحدارها شطآنًا خضراء مشكّلة رأسًا فسيحًا متقدمًا في البحر يحتضن مدينة كبيرة. إنها مدينة سكوتاري بثكناتها الواسعة البيضاء التي تشبه قصوراً ملكية، ومساجدها المحيطة بمآذنها المتلألئة، وأرصفتها وخلجانها الصغيرة التي تحف بها المنازل والأسواق والزوارق المظللة بالعرائش وأشجار الدلب، وغابة السرو التي تشرف على المدينة. وعبر الأغصان، التمعت قمم الجبال البيضاء المزدانة بالمقابر التركية بألق جنائزي. وفيما يتعدى رأس سكوتاري المنتهي بجزيرة صغيرة تحتضن مصلى تركيّاً يدعى «قبر الفتاة»، يمتد البوسفور أشبه بنهر منحصر بين ضفتي جبال قاتمة تتلاقى منحدراتها الصخرية وتتداخل زواياها النافرة ووهادها وغاباتها. وعند سفوح هذه الجبال، تلمع، على مدّ النظر، سلسلة متواصلة من القرى والأساطيل الراسية او المبحرة، والمرافىء الصغيرة المظللة بالأشجار، والبيوت المبعثرة والقصور الفسيحة المحاطة بالحدائق المزروعة بالورد والمطلة على البحر.

دفعتنا بعض ضربات المجاذيف قدمًا إلى الأمام تحديدًا إلى تلك النقطة من القرن الذهبي حيث بإمكاننا أن نتمتع بالوقت نفسه بمرأى البوسفور وبحر مرمرة والمنظر

الكامل للمرفأ أو بالأحرى لبحر القسطنطينية الداخلي. هنا، نسينا مرمرة وشاطىء آسيا والبوسفور واستغرقنا في تأمل الحوض نفسه للقرن الذهبي والمدن السبع المعلقة فوق تلال القسطنطينية السبع التي تتجه جميعها نحو الشرم الذي يؤلف المدنية الفريدة التي لا تضاهى. المدينة والأرياف والبحر والمرفأ وضفاف الأنهر والحدائق والجبال المكسوة بالأشجار والمزدانة بالأودية السحيقة والبيوت التي لا تحصى ومنحلة السفن والشوارع والبحيرات الهادئة والعزلات الساحرة... منظر لا تستطيع أي ريشة مهما أبدعت أن تصفه إلا متقطعًا، وحيث كل ضربة مجذاف تحمل إلى العين والنفس منظرًا وانطباعًا مخالفين لما سبق.

أقلعنا باتجاه تلال غلاطة وبيرا، كلما ابتعد السراي خلفنا، عانق النظر أكثر الحدود الفسيحة لأسواره ومنحدراته المتعددة وأشجاره وظلاته وقصوره. بإمكانه وحده أن يحتضن مدينة كبيرة. أخذ المرفأ يزداد جلاءً أمامنا، منسابًا مثل قناة بين منحدرات الجبال المنحنية، متسعًا أمام تقدمنا، لا يشبه هذا المرفأ المرافىء بشيء بل هو أقرب بالأحرى إلى نهر فسيح كنهر التايمز. تحيط به من الجهتين تلال مكتظة بالمدن ويغزوه عند ضفته أسطول لا متناه من السفن المحتشدة الراسية بمحاذاة المنازل. عبرنا وسط هذه المجموعة الهائلة من السفن، بعضها راسٍ وبعضها الآخر مبحر باتجاه البوسفور أو البحر الأسود أو مرمرة . سفن من جميع الأشكال والأحجام والرايات، بدءًا من القارب العربي ذي المقدمة الناتئة المرتفعة مثل أنوف المراكب الشراعية الحربية القديمة وصولاً إلى السفينة ذات الجسور الثلاثة بأسوارها البرونزية اللامعة، كانت القياقق أو الزوراق التركية الطويلة التي يقودها المجذّفون وأكمامهم الحريرية تتدلى من أذرعتهم. زوارق أشبه بعربات للطرقات البحرية في هذه المدينة البرمائية تجول بين السفن الضخمة وتتلاقى وتتصادم دون أن تنقلب وتتلامس كالحشود في الساحات العامة. ارتفعت أسراب البطريق الشبيهة بالحمائم البيضاء من البحر لدى اقتراب الزوارق لتحط على مسافة أبعد مستسلمة لهدهدة الأمواج، لن

أحاول إحصاء السفن والمراكب والقوارب والعمارات البحرية والزوارق التي تهجع أو تسبح في مياه مرفأ القسطنطينية بدءًا من مصب البوسفور مرورًا بالسراي وصولاً إلى ضواحي أيوب والوهاد البديعة ذات المياه العذبة. لا يمنح نهر التايمز في لندن مشهدًا مماثلاً لما أراه. تراءت لنا هذه الصفوف التي لا تحصى من مقدمات السفن المطلة على البحر، لكن نظرنا سرح بعيدًا في عمق الخليج الذي راح يضؤل ويتغلغل في أراضي اليابسة وسط غابة حقيقة من صواري السفن.

رسونا في أسفل مدينة بيرا، على مسافة غير بعيدة من ثكنة رائعة لقاذفات القنابل، وكانت شرفاتها المسقوفة مزدحمة بالمراقب والمدافع، رأينا نافورة ماء رائعة مبنية على الطراز المغربي وأقرب ما تكون إلى معبد هندي، رخامها منحوت ومطلي بألوان زاهية وكأنه دنتيلا مخرمة على قماش من حرير.

كان ماؤها ينهال في ساحة صغيرة مزدحمة بالسلع والبضائع والأحصنة والكلاب الشاردة، وكان الأتراك ينفثون الدخان وهم متربعون في الظلال. جلس نوتيّو الزوارق بأعداد كبيرة على حافات الرصيف منتظرين أسيادهم أو منادين العابرين. كانوا ينتمون إلى عرق جميل من البشر وكانت الأزياء التي يرتدونها تظهر جمالهم بصورة أوضح: يرتدون سروايل بيضاء ذات طيات فضفاضة وكأنها تنورة، يشدون أوساطهم بأحزمة من الحرير القرمزي ويعتمرون قلنسوات يونانية صغيرة من الصوف الأحمر فوق رؤوسهم، تتدلى منها بلوطة طويلة من الحرير. كانت أعناقهم وصدورهم عارية، أما أكتافهم وأذرعتهم فتغطيها قمصان واسعة من الحرير . يبلغ طول زوارقهم الضيقة عشرين أو ثلاثين قدمًا وعرضها قدمان أو ثلاثة، وهي مصنوعة من خشب الجوز المصقول واللامع كالأكاجو. كانت مقدمة هذه القوارب حادة كالرماح وتعبر البحر وكأنها سكين. لكن شكل هذه القوارب كان يجعلها تبدو خطيرة للفرنج وغير مريحة خاصة أنهم غير معتادين عليها، ثم إنها تترنح لدى أقل هزّة تحدثها فيها قدم رعناء. يجب أن يضطجع راكبوها داخلها كما يفعل الأتراك ويحرصوا على أن يكون

جسدهم متوازنًا فيها بالتساوى على جهتي القارب. ثمة أحجام مختلفة منها تتسع لراكب أو أربعة ركاب أو ثمانية، لكن لجميعها الشكل نفسه. هناك الآلاف منها في مرافىء القسطنطينية، منها تلك التي تنقل الركاب في أي وقت كان كأنها عربات خيل عامة، ومنها التي يستخدمها البعض لأغراضهم الخاصة، فلكل ساكن ميسور في المدينة قاربه الذي يجذّفه خداموه. كل من يريد عبور المدينة وقضاء حاجاته مضطر لاجتياز البحر عدة مرات في النهار.

ما إن خرجنا من هذه الساحة الصغيرة حتى دخلنا في الشوارع المتسخة المزدحمة بالناس في أحد أسواق بيرا التي تشبه الأسواق المجاورة التي تحيط بمدننا: حوانيت خشبية شعبية تقلى فيها الحلويات أو اللحوم، محال حلاقين وبائعي تبغ وسمانة. الناس في الشوارع مسرعون يضجون حيوية . جميع أزياء الشرق ولغاته تتجلّى للعين وتطرق الأذن وفوق ذلك كله، نباح الكلاب العديدة الذي يملأ الساحات والأسواق وتشاجرها على الفضلات المرمية أمام الأبواب. ومن السوق، دخلنا إلى شارع طويل ضيّق وموحش يتجّه صعوداً عبر منحدر وعر فوق تلة بيرا. لا تسمح النوافذ المشبكة برؤية شيء داخل المنازل التركية التي بدت فقيرة ومهجورة. من وقت لآخر كان الرأس الأخضر لإحدى السروات يبزغ كالسهم خلف الحصون المحاطة بالأسوار الرمادية الخربة ويتطاول جامداً وسط سماء صافية. يمائم بيضاء وزرقاء مبعثرة على حافات النوافذ وسقوف المنازل تملأ الشوارع بهدهدها الكئيب. وفي أعلى هذه الشوارع يمتد حي بيرا الجميل الذي يسكنه الأوروبيون والسفراء والقناصلة. حي أشبه بمدينة صغيرة فقيرة في أريافنا. ثمة قصور جميلة يسكنها السفراء مبعثرة على منحدرات غلاطة. ثمَّ لم نعد نرى إلا الأعمدة المضطجعة أرضًا وأجزاء من جدران سوداء وحدائق مهدومة. لقد التهمت شعلة الحرائق كل شيء. لا تملك بيرا أي سمة أو ميزة أو جمال، ولا يمكن أن نرى من شوارعها لا البحر ولا التلال ولا حدائق القسطنطينية، يجدر الصعود إلى قمة سطوحها للتمتّع بالمنظر البديع الذي خصّ به الإنسان والطبيعة.

استقبلنا السيد تروكي وكأننا أولاده، منزله فسيح وموقعه بديع وقد وضع تحت تصرفنا الأثاث الأكثر ثراء والطعام الأوروبي الأكثر رهافة وأمارات المودة الأكثر صدقًا والإلفة الأحب. كل ذلك ناب بالنسبة لنا عن حصيرة الصحراء وخشونة الحياة البحرية وقساوتها. ما كدت أقيم عنده حتى استلمت رسالة من الأميرال روسان سفير فرنسا في القسطنطينية الذي كان من اللطف بحيث دعانا إلى زيارته في تيرابيا. تركت هذه التصرفات المفعمة بالود والأدب التي بادرنا بها مواطنون مجهولون، فيما كنا على\مسافة ألف فرسخ من الوطن وبعد أن عرفنا ضروب العزلة والشقاء ، أثرًا لا ينسى في ذاكرتنا.

٢١ ، ٢٢ و٢٣أيار ١٨٣٣

أنزل الركاب عن السفينتين، قضينا فترة من الراحة تلقينا خلالها زيارات من التجار الرئيسيين لبيرا، أمضيت أيامًا برفقة السيد تروكي وتمتّعت بمجالسته الساحرة اشترينا بضائع رائعة من القسطنطينية وقمنا بزيارة للسفير في تيرابيا.

٢٣ أيار ١٨٣٣

حين نغادر فجاة المشهد المتغيّر العاصف للبحر والقمرية القاتمة المتحركة للقارب والترنح المنهك للأمواج، عندما نتلمّس بأقدامنا أرضًا صديقة ونرى أنفسنا محاطين بالبشر والكتب ويسر العيش، عندما نرى أمامنا أريافًا وغابات، و نستعيد الوجود كله بعدما فقدنا طويلاً هذه العادة، حينئذٍ ، تغمرنا لذة جسدية عارمة لا يمكن تجاهلها، حينئذٍ تضحي أي أرض مهما كانت موحشة قصية أشبه بوطن استعدناه، راودني هذا الإحساس عشرين مرة حين نزلت من السفينة حتى لو استغرق نزولي بضع ساعات، ولو كان الشاطىء مجهولاً مقفرًا. قد تجد صخرة تحميك من الريح وشجرة صغيرة تظللك بجذعها أو بفيِّها أو شعاع شمسي يدفىء الرمل حيث جلست. ترى بضع عظايات تجول بين الحجارة، وحشرات تتطاير من حولك وعصفورًا قلقا يقترب مطلقًا

صرخة استغاثة. كل هذا القليل من الأشياء بالنسبة لساكني الأرض هي عالم كامل للبحارة المنهكين الذين غادروا لجة البحر. لكن السفينة هنا، تترنح في الخليج فوق بحر عات، ويجدر بنا ركوبها لاحقًا. البحارة فوق عوارض الصواري منهمكون بتجفيف الأشرعة الكبيرة الممزقة أو برأبها. القارب الذي يمخر عباب الأمواج العالية المزبدة ويختفي وسطها، يذهب ويجيء دومًا دون توقف من السفينة إلى الضفاف حاملاً المؤن إلى اليابسة أو الماء المنعشة من الينبوع إلى السفينة. يغسل البحارة قمصانهم الخام الملونة ويعلقونها على أشجار المصطكا النابتة على الضفاف لتجف. يتفحص القبطان السماء، منتظرًا هبوب الريح المؤاتية ثمَّ يطلق المدفع لكي يذكّر المسافرين بحياتهم البائسة والأخطار التي تهدد سفينتهم في كل لحظة. ورغم أننا كنا متلهفين على الوصول إلى المكان المقصود ، نتمنى سرّاً أن لا تخفت الريح المعاكسة بهذه السرعة وأن نضطر للتريث يومًا إضافيّاً ونتمتع بهذه اللذة الحميمة التي يشعر بها الإنسان حين يتصل باليابسة: نتصالح مع الشاطىء، مع مرجة العشب الأخضر الصغيرة أو الشجيرات الممتدة بين البحر والصخور ، مع نافورة الماء المختبئة تحت جذور سنديانة خضراء قديمة، مع نبات الخزّ الملتصق بالصخور وهذه الأزهار البرية الصغيرة التي تحركها الريح على الدوام بين الشقوق الصخرية ولا نراها أبدًا . وعندما تدوّي طلقة المدفع التي تدعو الركاب لارتقاء متن سفينتهم، عندما ترتفع راية الإشارة على الصارية ثم يتجه القارب ليأتي ويأخذنا، نشعر أننا على وشك البكاء حزنًا على مغادرة هذه الزاوية من الأرض التي لا اسم لها، وحيث لم نفعل شيئًا سوى أننا أرحنا لبعض الوقت أطرافنا المتعبة. غالبًا ما راودني هذا الإحساس الفطري الذي يجعل الإنسان يحنّ إلى ملجأ يلوذ إليه ولو كان موحشًا ومجهولاً وضائعًا على ضفة مجهولة.

لكني أشعر هنا بأمرين متضاربين، الأول عذب والآخر شاق. بادىء الأمر، أشعر بهذه اللذة التي وصفتها للتوِّ حين تطأ قدماي التراب، أي حين لا يعود السرير يهتز ولا الأرضية تموج بك وترميك باستمرار من جدار لآخر. تشعر بسرور عظيم حين تقوم

بخطواتك بطلاقة، وتقفل نوافذ كبيرة أو تفتحها حسب رغبتك دون أن تخشى أن يدخل منها الزبد ، لذة أن تسمع صوت الهواء يتلاعب بالستائر دون أن يلتوي البيت أو تدوي الأشرعة أو ترتجف الصواري ويهرول البحارة على ظهر السفينة محدثين صخبًا قويّاً بوقع أقدامهم. وفوق ذلك، بإمكانك وأنت على اليابسة أن تقوم باتصالات ودية مباشرة بالقادمين من أوروبا وأن ترى مسافرين وتجارًا وجرائد وكتبًا، أي كل ما يجعل الإنسان يتواصل مع أفكار الآخرين وحياتهم أقصد هذه المشاركة في الحركة العامة للأشياء والأفكار التي حُرمنا منها لوقت طويل، وأكثر من هذا كله، هذه الصداقة التي جمعتنا بمضيفنا الممتاز السيد تروكي وحسن ضيافته لنا واهتمامه بنا. كان السيد تروكي سعيدًا لأنه أحاطنا برعايته ولياقته والإغاثة التي خصّنا بها والسعادة التي وفرها لنا. إنه فعلاً لرجل نبيل ويندر أن نجد مثله. على أية حال، لم أر مثيلاً له طيلة الرحلات التي قمت بها في حياتي. إن ذكراه الطيبة لازمتني دومًا كلما خطرت لي سنوات الحج تلك وقد واكبته دومًا بفكري وهو يتنقل على سواحل آسيا أو افريقيا، حيث حكم عليه القدر بأن ينهي أيامه.

التاريخ نفسه

لكن، عندما تتذوق على غفلة منك الملذات الأولى للعودة إلى اليابسة يحدث لك أن تتحسّر غالبًا على الحيرة التي تنتابك والقلق بشأن المستقبل حين تعيش على ظهر السفينة، فحين تكون هناك، لا يعود لديك الوقت لكي تنطوي على ذاتك وتسبر هاوية احزانك التي حفرها الموت في أحشائك!صحيح أن الألم، موجود دائمًا ولكن في كل لحظة تراودك فكرة متغيرة تحول دون أن تظلّ فريسة الهواجس على هذا الشكل: إن الضجة والحركة اللتين تحدثان من حولك والمظهر المتغيّر باستمرار لظهر السفينة والبحر، الأمواج التي تنتفخ ثمّ تنبسط، الريح التي تدور صعودًا أو هبوطًا ، أشرعة السفينة التي نوجهها عشرين مرة في النهار ،آلاف الأحداث التي تحصل خلال نهار أو ليل عاصفين، صخب الأشرعة التي تحملها الريح، الأثاث المحطم يموج ما بين جسري

السفينة ، الأمواج التي تلطم جوانب القمرية الهشة بشكل غير منتظم فيما تحاول عبثًا الاستسلام للنوم، الخطوات السريعة للبحارة الذين يتناوبون على الحراسة ويهرعون من مكان لآخر على ظهر السفينة محدثين ضجة فوق رأسك، النقيق الشاكي للدجاجات التي يغمرها الزبد داخل أقفاصها الموثقة إلى أسفل الصواري، صياح الديكة التي تلمح انبلاج الفجر مثل الجميع عند نهاية ليلة مظلمة وعاصفة، صفير حبل اللخ الذي يُرمى لقياس الطريق، المنظر الغريب، المجهول، المتوحش أو الأليف لأحد الشواطىء التي لم نكن نرتاب بوجودها البارحة ، ثمَّ يطالعنا عند انبلاج النهار فنروز أعالي جباله أو ندل على مدنه وقراه الملتمعة كندف الثلج بين مجموعات أشجار التنوب.. كل ذلك يذهب بنفوسنا ويؤاسي قلوبنا ويجعل الألم يتلاشى ويهدىء من روع الحزن ما دامت الرحلة متواصلة. لكن هذا الألم يرمي بثقله على النفس ما إن تلامس أقدامنا رمل الشاطىء ونخلد لاحقًا للنوم في سرير هادىء مريح حتى تعود للإنسان ذكرياته المريرة. وهكذا فإن القلب الذي لا يشغله شيء في الخارج، يجد نفسه في مواجهة مشاعره المبتورة وأفكاره اليائسة ومستقبله الآفل . لا نعرف حينها كيف سيكون بمقدورنا أن نتحمل الحياة الماضية والحياة الرتيبة والحياة الخالية من المدن والناس. هذا ما أشعر به حين ألامس أطراف اليابسة ما يجعلني أرغب في إبحار أبدي وسفر لا نهاية له مع كل ما يتيحه من فرص وتسليات مهما تكن شاقة. يا للأسف، هذا أيضًا ما أقرأه في عيني زوجتي أكثر مما أقرأه في قلبي. إن عذاب الرجل لا يعد شيئًا بالنسبة لعذاب المرأة وألمها. تعيش المرأة وتموت في سبيل فكرة واحدة وشعور واحد. فالحياة بالنسبة لها شيء امتلكته والموت شيء فقدته! أما الرجل فيحيا كيفما كانت الأمور حسنة أم سيئة: لا يقضي عليه الله دفعة واحدة.

٢٤ أيار ١٨٣٣

جمعت في حوزتي الصحف والمنشورات الآتية حديثًا من أوروبا والتي أغدقها عليّ سفراء فرنسا والنمسا مع كل الكياسة التي يتمتعون بها. بعد أن قرأت طيلة

النهار، زدت تشبثًا بالأفكار التي حملتها معي من أوروبا . أرى أن الوقائع تسير بشكل يتوافق مع التوقعات السياسية التي أملتها المقارنة التاريخية والفلسفية على سير الأشياء في هذا القرن الذي يبلغ أوجه. ها هي فرنسا المنفعلة تهدئ من روعها، أما أوروبا القلقة فتتنازع قلبها الغيرة والحسد ولكنها لا تجرؤ على عرقلة الأمور. لديها شعور غرائزي (نابع من حسها التنبؤي)أنها ستفقد توازنها إن هي أقدمت على خطوة في المجهول . لم أؤمن في حياتي يومًا بضرورة القيام بحرب إثر ثورة تموز. كان على فرنسا أن تصغي إلى نصائح جنونية وتقوم بالهجوم. لكنها لم تفعل ذلك، وأوروبا لن تستطيع أن تأتي وترمي بنفسها، عن طيبة خاطر، في الأتون الثوري حتى لا تحترق بلهيبه حتى لو رغبت في إخماد النار. وإذا كان هناك من فضل لحكومة تموز على فرنسا وأوروبا فهو أنها احتوت الحماس المتهور وعمى الروح القتالية التي اشتعلت في فرنسا عقب الأيام الثلاثة، وإلا لكانت أوروبا وفرنسا هلكتا معًا. لم يكن لدينا أسلحة ولا روح شعبية، لأن لا روح شعبية دون توافق. كان بوسع الحرب الأجنبية أن تُشعل تلقائيّاً حربًا أهلية في جنوب فرنسا وغربها وأن تسبب الاضطهاد والقهر في كل مكان. إن أية حكومة في باريس لم يكن بإمكانها أن تصمد تحت وطأة الاندفاعة الثورية لوسط البلاد. فلو أن فرقًا من الجيش تحركت مدفوعة بشعور وطني لا مرشد له ولا رادع ونكلت ببعضها على حدودنا الشرقية لكان الجنوب، وصولاً حتى ليون رفع الراية البيضاء ولكان الغرب حتى منطقة اللوار أعاد تشكيل العصابات الفاندية ولكان عمال المصانع في ليون وروان وباريس، المستاءة أصلاً من البؤس الذي أغرقها فيه توقف العمل، أشعلوا ثورة في الوسط وأثاروا جماهير متنصلة من أي رادع في باريس وعند الحدود، مختارين لأنفسهم قادة مؤقتين، فارضين عليهم نزواتهم فيما يخص مخططاتهم الميدانيّة وكل ذلك كان سيقضي دفعة واحدة على الملكية الفردية والحركة التجارية، والصناعية والمصرفية مما يؤدي إلى المزيد من أعمال العنف والإكراه. كتسليف الأموال وجباية الضرائب . حين يُخفى الذهب وتتلاشى الاعتمادات المصرفية، يدفع اليأس بالناس إلى ممارسة العنف الذي يؤدي إلى انتشار أعمال السطو وتفشّي

الجرائم وانتهاك حقوق الناس... ما إن يدخل الشعب في دوامة الاقتتال وسفك الدماء حتى لا يعود هنالك من منفذ إلا الفوضى والدكتاتورية والتفكك، وما كان سيزيد الطين بلة والأمور تعقيداً لو أن بعض الفئات في أوروبا قامت بردود فعل عفوية وغير متوقعة، في إسبانيا مثلاً أو إيطاليا أو بولونيا أو عند حدود الراين وبلجيكا فلو حصل ذلك لاندلعت الحرب في كل مكان دفعة واحدة على مراحل، ولدخلت أوروبا في دائرة التجاذب بين الفتن وأعمال القمع التي تغيّر في كل لحظة ظاهر الأشياء ولدخلنا من الباب الواسع في دوامة حرب ثلاثين سنة أخرى، لكن عبقرية الحضارة لم تشأ ذلك، وما كُتب تمَّ. لن نحارب إلا بعدما نكون قد أتممنا استعداداتنا للمعركة وعرفنا أنفسنا وأحصينا عددنا واستعرضنا مقدراتنا ووحدنا صفوفنا للقتال. عندئذٍ سيكون الصراع منظماً ومثمراً وأكيداً، ولن يكون القتال قتالاً عشوائيّاً على غير هداية.

من بعيد، نرى الأشياء بشكل أفضل لأن التفاصيل لا تعيق النظر بإمعان إليها، ولأن الأشياء تمتثل أمامنا بخطوطها الرئيسية العريضة. لذا، كان الأنبياء والكهنة يعيشون وحدهم بعيداً عن ضوضاء العالم. كانوا حكماء يدرسون الأمور في مجموعها، دون أن تعكّر الأهواء اليومية صفو أحكامهم، يجدر بالرجل السياسي الابتعاد عن الحلبة حيث تدور مسرحية الأحداث المأسوية في زمانه، إذا كان يريد فعلاً أن يُصدر الأحكام الصائبة ويستشرف أفقاً للحل. التنبؤ مستحيل لأن العلم بالغيب حكر على الله وحده. أما استشراف الأمور فممكن لأنّ الفطنة من صفات الإنسان.

غالباً ما أتساءل عما يمكن أن تفضي إليه هذه الحركة الكبيرة الفكرية والأحداث الميدانية، التي انطلقت من فرنسا فهزّت العالم وجرفت عن طيب خاطر أو عنوةً، الأشياء في تيارها. لست من هؤلاء الذين يرون في هذه الحركة مجرّد أحداث عابرة أي تشوشاً وبلبلة وفوضى أفكار ، ولا من هؤلاء الذين يعتقدون أن العالم السياسي والأخلاقي، يلفظ أنفاسه الأخيرة التي يعقبها الموت والتحلل. لا شك في أن العالم يعيش في جدلية مستمرّة من التفكك والتنظيم معًا: فالفكر الخلاّق والفكر الهدّام يسيران جنباً إلى

جنب. ينوب الإيمان الجديد عن القديم، فالصراع بين الجديد والقديم لا يتوقف. وحيثما يتلاشى الماضي، ينهض المستقبل على أنقاضه. لا شك في أن الانتقال من حال لحالٍ بطيء وقاسٍ دومًا، فالأهواء والمصالح البشرية تتضارب، والطبقات الاجتماعية والأمم المختلفة تسير بخطى متفاوتة، والبعض يريد الإبقاء على مكتسباته السابقة فيما تطمح الجماهير لأن تتقدم. لا شك أن البلبلة والغبار والخراب والظلمة تسود أحيانًا، لكن، من وقت لآخر تأتي الريح وتدفع غيمة الغبار هذه التي تحجب الطريق والهدف، وعندئذٍ يرى هؤلاء الذين استطاعوا أن يرتقوا إلى مرتفع يرون منه ٍ سيرَ البشرية، الآفاق الواسعة أمامهم فيستشرفوا أرض المستقبل ويروا النهار مضيئًا، منذ طلوعه. أسمعهم باستمرار يقولون من حولي: «لم يعد للناس معتقدات وكل شيء بات متروكًا للعقل الفردي، لم يعد هنالك إيمان مشترك بأي شيء، لا بالدين ولا بالسياسة ولا بالاجتماع. فالمعتقدات والإيمان المشترك هي محرّك الأمم، وما إن يتعطّل هذا المحرّك حتى ينهار كل شيء. ما من وسيلة لإنقاذ الشعوب إلا بإرجاعهم إلى معتقداتهم. لكن الرجوع إلى المعتقدات وإحياء العقائد الشعبية الميتة في وعي الشعوب وإعادة صنع ما دمره الزمن... كلمات لم يعد لها معنى، لأنه لا يمكننا أن نحارب طبيعة الأشياء وروحها، أو نسير خلافًا للعناية الإلهية والوقائع التي هي مظهر من مظاهرها، لا يمكن الوصول إلى هدف إلا إذا مشينا في الاتجاه الذي يسيّر فيه الله الأحداث والأفكار، فالزمن لا يرجع للوراء، وبإمكاننا أن نوجه أنفسنا ونوجه العالم ضمن تياره الجامح، لكن أنّى لنا أن نتوقف أو نعود إلى الوراء.

لكن، هل صحيح أنه لم يعد هناك ضوء في عقل الإنسان ولا اعتقاد مشترك في فكر الشعوب، ولا إيمان حميمًا وعميقًا في وعي الإنسان؟ إنها كلمات نرددها دون أن نفقه معناها، فلو لم يكن العالم يملك فكرة مشتركة أو إيمانًا أو معتقدًا، لما كان اضطرب على هذه الشاكلة فالعدم لا ينتج إلا العدم. ثمة اقتناع هائل وإيمان عميق ورجاء مشوش ولكن غير متناه.. ثمة حب متوقد وشعور مشترك، ولو لم يكن كتب حتى الآن، يدفع بالعقول كلها والضمائر كلها والقوى المعنية كلها الموجودة في هذا العصر

فيحثها ويحركها ويشدها ويكثفها ويجعلها تتجاذب فيما بينها. فهذه الثورات والاضطرابات والامبراطوريات المنهارة والحركات المتكررة والعلاقة لكل أطراف أوروبا القديمة وأصداؤها المدوية في أميركا وآسيا .. هذا النزوع الأرعن الجامح الذي يطبع القوى الجماعية بهذا الاضطراب، بالرغم من وجود الإرادات الطيبة ليس نتيجة دون سبب. لكل الأمور التي تحصل معنى، معنى عميق محتجب ولكنه بديهي في نظر الفيلسوف وهذا المعنى هو بالضبط ما يشتكي منه الناس قائلين إنهم فقدوه، وهو ما يحاولون نفيه في عالمنا الحالي، وهو ما يتمثل في فكرة شائعة أو قناعة أو قانون اجتماعي أو حقيقة تغلغلت سرّاً في العقول كلها، وربما سهوًا، وتسعى للتجسد في الوقائع بقوة فعليّة، وإلهية، أي بقوة لا تقهر. هذا الإيمان هو العقل العام، الكلام أداته والصحافة رسولته، وهو ينتشر في العالم بالعزيمة والحدّة اللتين ينتشر بهما دين جديد. جُلّ ما يطمح إليه هذا الإيمان هو أن يعيد صياغة الديانات والحضارات والمجتمعات على صورته وكذلك التشريعات الناقصة أو التي شوّهتها كبوات العصور المظلمة وجهالاتها، جلّ ما يطمح إليه هو أن يرسو بصفته ديانة – مبدأ عقيدتها الله الواحد المطلق، شعارها الأخلاق الأبدية وطقسها المحبة – أما في السياسة فالبشرية فوق الجنسيات جميعًا، أما في التشريع فالإنسان مساوٍ للإنسان وأخو الإنسان، أما المجتمع فهو تبادل أخوي للخدمات والواجبات التي ينظمها القانون ويضمنها، أي باختصار، هذا الإيمان هو المسيحية مشرعنة!

هذا ما تطمح إليه هذه الديانة الجديدة وتريده وتصنعه وتقولون أيضًا إنه لا وجود للمعتقدات أو لإيمان مشترك بين أهل زماننا ! منذ مجيء المسيحية، لم يكتمل إنجاز في العالم بمثل هذه الوسائل القليلة. الصليب والصحافة هما الأداتان اللتان تتوسلهما أكبر الحركات الحضارية في العالم.

٢٥ أيار ١٨٣٣

هذا المساء تحت ضوء القمر الرائع الذي يتلألأ فوق بحر مرمرة، وصولاً حتى الخطوط البنفسجية التي تتخلل الثلوج الأبدية فوق قمة جبل الأولمب، جلست وحيداً

تحت أشجار السرو التي تظلل القبور اللامتناهية للمسلمين، الممتدة من أعالي بيرا حتى ضفاف البحر تفصلها بعض المسالك الضيقة الصاعدة من مرفأ القسطنطينية وصولاً إلى مسجد الدراويش. لا عابرين في مثل هذا الوقت، ويُخيّل للمرء أنه على مسافة مئة فرسخ من المدينة الكبيرة لولا الضجيج المتنوع المقدد الذي تحمله ريح المساء فيصل على متنها متلاشيًا في أغصان السروات المرتعشة. كل هذه الأصوات التي يضعفها الوقت المتأخر: أغاني البحارة فوق السفن، ضربات المجاديف التي يحدثها نوتيو القوارب التركية الضيقة فوق الأمواج، قرع الطبول في ثكنات البلغاريين وقرقعة أسلحتهم ، أغاني النساء اللواتي يهدهدن أطفالهن بالقرب من نوافذهن المسيجة، الدمدمة المسترسلة للشوارع الحافلة بالمارة وأسواق غلاطة، أصوات المؤذنين من أعالي المآذن، طلقات المدفع التتي تنطلق من الأسطول الراسي عند مدخل البوسفور ثم ترجعها المساجد الصاخبة والتلال فتأتي لتتغلغل في حوض القرن الذهبي وتدوي تحت أشجار الصفصاف الوادعة المترامية فوق الأنهر العذبة لأوروبا.. قلت في نفسي إن كل هذه الأصوات تظهر في بعض الأوقات لتصير هديرًا واحدًا أصم وحائرًا، مؤلفة موسيقى منسجمة حيث الأصوات البشرية تمتزج بالتنفس المخنوق للمدينة الكبيرة الهاجعة وأصوات الطبيعة ودوي الأمواج البعيد وهمسات الريح التي تحرك رؤوس أشجار السروات المسننة، دون أن نستطيع تمييزها. إنها أحد الانطباعات اللامتناهية والتي ينوء الشاعر تحت ثقلها الذي لا يطاق . كل شيء يمتزج فيها، الإنسان والله والطبيعة والمجتمع والاضطراب الداخلي والراحة الكئيبة للفكر. لا نعود ندري إذ ذاك ما إذا كنا نشارك فعلاً في هذه الحركة الهائلة للكائنات الحية التي تنعم أو تشقى وسط صخب الأصوات المتصاعدة أو هذا السلام الليلي للعناصر المدمرة التي تسمو بالنفس فوق المدن والامبراطوريات لتلقيها في حضن الطبيعة التي خلقها الله.

السراي شبه جزيرة فسيحة تظللها أشجار الدلب وتزيدها السروات قتامة، تتقد أمام ناظري كأنها شبه جزيرة تغطيها الغابات بين البحرين. كان القمر يضيء السرادقات

المتعددة والأسوار القديمة لقصر السلطان مراد تخرج وكأنها صخرة وسط أشجار الدلب الخضراء القاتمة. مرّت في خاطري جميع المشاهد التي توالت فيها مآسي كثيرة مشؤومة ومجيدة عبر العصور، بشخصياتها وآثار دمائها أو عظمة مجدها.

رأيت عصابة تخرج من جبل القوقاز تدفعها غريزة الترحال تلك التي منحها الله للشعوب الغازية كما تخرج النحلات من جذع الشجرة لتتحوّل إلى قفير جديد. إن الصورة الأبوية المكرسة لعثمان تظهره وسط خيمة وبين قطعانه، داعيًا شعبه إلى الانتشار من آسيا الصغرى متقدمًا تباعًا حتى بروسا، أو محتضرًا بين يدي أبنائه الذين أصبحوا ضباطه، قائلاً لأورخان:

«أموت دون حسرة، لأنني أترك ورائي خلفًا مثلك، اذهب وانشر الشريعة الإلهية وفكرة الله التي أتت من مكة إلى القوقاز لتبحث عنا. كن محبًا ورحومًا مثل هذه الشريعة فبهذه الطريقة يلتمس الأمراء لأمتهم مباركة الله، لا تترك جسدي في هذه الأرض التي ليست إلا طريقًا عابرة لنا .اجعل لجثتي الفانية مرقدًا في القسطنطينية في المكان الذي أدلك عليه حين أموت» .

بعد بضع سنوات، كان أورخان بن عثمان مخيمًا في سكورتاري فوق هذه التلال نفسها التي تبدو كأنها بقعة من السرو الأسود. كان امبراطور الروم، كانتاكوزين قد أجبر على إعطائه تيودورا ابنته الجميلة كزوجة خامسة له في السراي. كانت الأميرة الشابة تجتاز على وقع الآلات الموسيقية هذا الشرم، الذي أراه اليوم أمامي مزدحمًا بالسفن الروسية، ذاهبة لكيما تضحي بنفسها بغية إطالة عمر الإمبراطورية البيزنطية ولو قليلاً، لكن دون جدوى. عندئذٍ اقترب أبناء أورخان من الشاطئ يتبعهم بعض الجنود الشجعان وصنعوا في ليلة واحدة ثلاث طوافات تسندها مثانات عجول منفوخة هواء. عبروا المضيق دون أن يراهم أحد في الظلام وكان الحراس الروم نائمين. التقوا بمزارع شاب ذاهب عند بزوغ الفجر إلى عمله فدلّ العثمانيين التائهين على مدخل تحت الأرض يفضي إلى أحد القصور فكان للأتراك موطئ قدم وحصن في أوروبا.

وبعد انقضاء أربعة عهود من ذلك التاريخ، ردَّ السلطان محمد الثاني على المبعوثين الروم قائلاً: «لا أنوي القيام بأي إجراء ضدكم: حدود إمبراطورية الروم أسوارها». لكن القسطنطينية المحصنة داخل أسوارها منعت السلطان من النوم فأرسل أحدهم يوقظ وزيره، ثم قال له: «أطلب منك أن تستولي على القسطنطينية. لقد جافاني النوم على هذه الوسادة . إن إرادة الله شاءت أن أستولي على عرش الروم» لكن صبره كان قد نفد، فأرسل بحصانه إلى الأمواج التي كادت أن تبتلعه، وقال لجنوده في اليوم الأخير للهجوم : «هيا اذهبوا، لن أحتفظ لنفسي إلا بالمدينة. أعطيكم الذهب والنساء وأنصب أول من يصل إلى الأسوار حاكمًا على أكبر ولاية لي». طيلة الليل أضاءت النيران التي لا تحصى الأرض والمياه جاعلة الليل نهارًا، هذا النهار الذي طالما انتظره العثمانيون ليستولوا على فريستهم أخيرًا!

في أثناء ذلك، وتحت القبة القاتمة لكنيسة القديسة صوفيا جاء قسطنطين الشجاع لكن عديم الحظ ليتوسل، في ليلته الأخيرة لإله الامبراطورية، متناولاً القربان والدموع في عينيه. وعند طلوع الفجر خرج منها على حصانه محاطًا بصراخ عائلته ونحيبها وقضى بطلاً في عاصمته في ٢٩ أيار عام ١٤٥٣ .

بعد بضع ساعات، انهال الجنود بفؤوسهم على باب الكنيسة. كان العجائز والنساء والفتيات والرهبان والراهبات يملأون هذه البازيليكية الواسعة التي بإمكان فناءاتها ومصلياتها وأروقتها وممراتها السفلية ومنصاتها الهائلة أن تتسع لسكان مدينة بأكملها. وأطلقت صرخة أخيرة نحو السماء، صرخة المسيحية المحتضرة. وخلال دقائق قليلة، جُمع ستون ألف عجوز وامرأة وطفل دون تمييز بين طبقة أوعمر أو جنس وأوثقوا أزواجًا، الرجال بواسطة الحبال والنساء بأوشحتهن أو أحزمتهن، ورمي بهؤلاء الرجال الموثقين كالعبيد في السفن وأخذوا إلى معسكر العثمانيين مهانين وبيعوا كبهائم حقيرة لم يسبق لضفتي أوروبا أن سمعت مثل هذا النحيب. كانت النساء يفترقن للأبد عن أزواجهن، والأمهات عن أولادهن، وشتت الأتراك، عبر طرقات مختلفة،

هذه الغنيمة الحية من أبناء القسطنطينية باتجاه آسيا الداخلية. دمرّت القسطنطينية خلال ثماني ساعات ثم دخل محمد الثاني عبر باب سان – رومان محاطًا بوزرائه وباشاواته وحرسه. وطأ الأرض بقدميه أمام بوابة «القديسة صوفيا» وضرب بسيفه الأقطم جنديًا كان يهدم المذبح. لم يشأ تدمير أي شيء. حوّل الكنيسة إلى مسجد، وصعد المؤذن للمرة الأولى على هذا البرج نفسه، حيث أسمع الآن مؤذنًا داعيًا المسلمين إلى الصلاة وممجدًا بطريقة أخرى الإله الذي كان يُعبد في كنيسة الأمس. ومن هناك اتجه محمد الثاني إلى قصر الأباطرة الروم الذي بات خاليًا وتلا وهو يدخل هذه الآيات الفارسية: «ينسج العنكبوت خيوطه في قصر الأباطرة وترسل البومة نعيبها الليلي فوق أبراج ايرازياب!».

عُثر على جثة قسطنطين في ذلك اليوم تحت أشلاء الجثث، سمع جنود الانكشارية أحد الروم يهتف وهو يصارع الموت وكان يرتدي ثوبًا رائعًا : «أما من مسيحي يأتي ويخلصني من هذه الحياة؟» فقطعوا رأسه. كان هناك نسران من ذهب مطرزان على حذائه العسكري، ولم يعد هنالك من شك بأن هذا الجندي المجهول كان قسطنطين الشجاع والبائس في آن .. كانت دموع بعض المؤمنين الروم شاهدة على ذلك. شُهر رأس قسطنطين لكي لا تساور المهزومين أي شكوك بخصوص موته ولكي يُقطع عليهم أي رجاء برؤيته يظهر من جديد. تمّ دفن الإمبراطور مع ما يوجبه مقامه من تكريم وما توجبه البطولة والموت من إجلال.

لم يستغل محمد الثاني انتصاره، وظهر التسامح الديني للأتراك في أول الأعمال التي قام بها. ترك للمسيحيين كنائسهم والحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وأبقى لبطريرك الروم مهماته. واستوى هو نفسه على العرش مسلّمًا عصا الأسقفية والراعوية إلى الراهب جيناديوس كما قدّم له حصانًا مجللاً بفخامة. فرّ اليونانيون هاربين إلى إيطاليا حاملين معهم مجادلاتهم اللاهوتية وعلومهم في الفلسفة والأدب. وهكذا قذف المشعل المطفأ في القسطنطينية بشراراته إلى ما وراء المتوسط ليضيء من جديد في

فلورنسا وروما. وخلال ثلاثين سنة من تسلم السلطة التي لم تكن إلا غزواً متواصلاً، استطاع محمد الثاني أن يلحق بالسلطنة العثمانية مئتي مدينة واثنتي عشرة مملكة، ولقي حتفه وسط انتصاراته ولقب بمحمد الفاتح. لا تزال ذكراه تدوّي على السنوات الأخيرة للشعب الذي رماه في أوروبا ثم أعاده لاحقًا إلى مثواه في آسيا.

كان لهذا الأمير لون التتر، وجه مصقول، عينان غائرتان ونظرات عميقة حادة، وقد اتصف بجميع الفضائل وارتكب جميع الجرائم التي أملتها عليه السياسة.

أما السلطان بايزيد الثاني، الذي يذكر مصيره بمصير لويس الحادي عشر الذي أبعده سليم عن العرش، فهرب مع نسائه وثرواته وقضى بالسم الذي أعدّه له ابنه. عندما اعتلى السلطان سليم العرش، أمر بشنق الوزير الذي سأله عن المكان الذي يجب أن ينصب فيه خيام المعسكر. ثم عندما طرح خلف الوزير القتيل السؤال نفسه لقي المصير نفسه. لكن الوزير الثالث نصب خيام المعسكرات في أربعة أقطار الأرض، وعندما سأله السلطان سليم أين معسكره أجابه الوزير «في كل مكان. أينما وجهّت سلاحك، سيتبعك الجنود» فقال له السلطان الرهيب: «هذا رجل يحسن خدمتي :. فغزا السلطان مصر، وأقام عرشًا بديعًا على ضفاف النيل واستدعى المنتمين إلى سلالة الحكام المضطهدين لهذا البلد الجميل وأمر بقتل عشرين ألف مملوك أمام ناظريه وبرمي جثثهم في النهر. فعل كل ذلك دون أن يكون موقفه نابعًا من ثأر شخصي بل بدافع من هذا الشعور المحتم الذي يحسه كلٌ من أوكلت إليه رسالة وكتب عليه أن يكون الأداة ليتمم إرادة الله، فينظر إلى العالم كأنه معقله وإلى الناس وكأنهم غبار تحت قدميه. وهكذا، فان هذه اليد نفسها الملوثة بدم آلاف البشر، كتبت أشعارًا مليئة بالحكمة والرقة والفلسفة. ولا تزال هذه الحِكَم مدونة فوق ضريحه الرخامي الأبيض: «كل شيء ينبع من الله فهو الذي يغدق علينا الهبات وفق مشيئته وهو الذي يحجبها عنا ولو استطاع أحد على هذه البسيطة أن يفعل شيئًا بنفسه لكان مساويًا لله». ثم كتب في الأسفل: «سليم، خادم الفقراء هو من ألّف وكتب هذه الأشعار». وافته المنية

عندما غزا بلاد فارس وحين كان يأمر وزيره بأن يدفع التعويضات للعائلات الفارسية التي أفلست بسبب الحرب. قبره مجاور لقبر محمد الثاني، وعليه هذه الكتابة الضريحية: «في هذا اليوم انتقل سليم إلى الملكوت الأبدي، تاركًا ملك هذا العالم إلى سليمان ».

ألمح من مكاني القبة الرائعة لمسجد سليمان تلتمع وسط المساجد، أحد أجمل مساجد القسطنطينية. بناه عندما فقد ابنه الأول محمد الذي أنجبه من روكسالينا الشهيرة. هذا المسجد ذكرى مؤثرة تشهد على ألم هذا الأمير الذي أراد أن يكرّم ذكرى ابنه فحرر جماعة من العبيد رجالاً ونساءً راغبًا في أن يكسب على هذا النحو، تعاطفًا شعبيّاً في هذا الظرف العصيب. ولكن، ويا للأسف كانت ضواحي هذا المسجد ساحة لمأساة رهيبة. حُرّض سليمان على مصطفى ابنه الذي أنجبه من امرأة أخرى، فأتى بالمفتي وسأله : «ما هو العقاب الذي يستحقه (زئير) وهو عبد لدى أحد التجار في المدينة بعد أن ترك زوجته وأولاده وثروته في عهدته ؟ ما كان من زئير إلا أن عمد إلى الفوضى وأحدث البلبلة في إدارة شؤون سيده وحاول أن يغوي زوجته وينصب المكائد لأولاده، فما العقوبة التي استحقها»؟ فأفتى المفتي بما يلي:

– يستحق العبد زئير الموت. الله أدرى! متسلحًا بهذه الفتوى استدعى السلطان ولده مصطفى من المعسكر فوصل برفقة زيانجير أحد أبناء روكسالينا الذي لم يكن يشارك والدته حقدها بل يكنُّ، خلافًا لذلك، لأخيه مصطفى أصدق علامات الصداقة. حين وصل مصطفى إلى خيمة سليمان، كان مجرّدًا من السلاح. تقدم وحيدًا في السرادق الأول وكانت تخيّم عليه وحشة كاملة وصمت مطبق فعاجله أربعة خرسان محاولين خنقه لكنه صعقهم، ثم همَّ بالهرب ليطلب النجدة من الجنود الذين يحبونه حتّى العبادة، عندئذٍ رفع سليمان، الذي كان يتابع بنظراته الصراع الدائر بين الخرسان وابنه، أحد زوايا ستارة الخيمة وتفرّس فيهم نظرة تقدح شررًا. ما إن رآه الخرسان حتى نهضوا من جديد فانقضوا على الأمير الشاب وخنقوه، مُددت جثته على بساط

أمام خيمة السلطان ولفظ زيانجير أنفاسه الأخيرة يائسًا فوق جثة أخيه، حينئذٍ، صُعق الجنود بمنظر الانتقام المريع الذي قامت به امرأة استطاعت أن تسلب عقل سليمان البائس. كان لمصطفى ابن في العاشرة من عمره فأمرت روكسالينا السلطان بقتله، عندئذٍ أُرسل أحد الخصيان سرًا ليقتل الطفل على غفلة من أمّه، اختلقوا ذريعة لاقتيادها إلى بيت للراحة يبعد قليلاً عن بروسّا. كان السلطان الشاب فوق صهوة حصانه يتقدم هودج الأميرة. فتحطم الهودج فتجاوزه الأمير الشاب يتبعه الخصيّ الذي أوكلت إليه المهمة الخفية بقتله. ما إن همّ بالدخول إلى البيت حتى أوقفه الخصي عند عتبة الباب ملوحًا له بالحبل :

– يريد السلطان أن تموت في الحال.

– أجاب الغلام : أمره مطاع بالنسبة لي كأمر الله.

ثم قدّم رأسه إلى جلاده. عندما وصلت الأم وجدت ابنها ممزّق الجسد يطلق زفراته الأخيرة عند عتبة الباب. وهكذا فإن شغف سليمان المجنون بروكسالينا ملأ السراي بجرائم أكبر عددًا من تلك التي شهدها قصر ارغوس.

تذكّرني الأبراج السبعة بموت أول سلطان قضى عليه جنود الانكشارية وهو السلطان عثمان الثاني فاقتادوه إلى هذا القصر حيث سقط صريعًا بعد يومين تحت ضربات الوزير داوود الذي اقتيد بدوره بعد وقت قصير إلى الأبراج السبعة فنزعت عنه عمامته وأجبر على الارتواء من سبيل الماء نفسه الذي ارتوى منه عثمان التعيس الحظ وخُنق في الغرفة نفسها التي خُنق فيها سيده.. ندم جنود الانكشارية على فعلتهم هذه وارتكابهم جريمة قتل عثمان، فخلعوا مصطفى عن العرش وانطلقوا وهم يسيرون على ركابهم إلى السراي ليحضروا طفلاً في الثانية عشرة من عمره ويسلموه السلطنة. ارتدى السلطان الصغير ثوبًا من القماش الفضي وعمامة المُلك فوق رأسه. حمله الضباط الأربعة للانكشارية على عرش فوق أكتافهم وجابوا به وسط شعبه. كان هذا مراد الرابع الذي جعله العصيان والندم يعتليه قبل الأوان وكان جديرًا بالعرش.

هنا خاتمة الأيام المجيدة للأمبراطورية العثمانية. فقانون سليمان الذي أمر بأن يحتبس أولاد السلاطين في السراي وسط الخصيان والنساء قد أثار حفيظة آل عثمان وجعل السلطنة فريسة المؤامرات التي يحوكها الخصيان وحركات العصيان التي تقوم بها فرقة الانكشارية. لم يعد هناك أشخاص لامعون ومقتدرون بين السلاطين ما خلا قلة منهم. لكن حتى هؤلاء كانوا يتخلون بسهولة عن نفوذهم لأنهم اعتادوا منذ نعومة أظفارهم على أن يكونوا مسلوبي الإرادة. ومهما يُشيّع في أوروبا عن عظمة السلطنة فمن الواضح أنها على شفير الاحتضار، وأن لا أحد مهما قويت شوكته، قادر على أن يبعث الحياة من جديد.

لم تعد السراي، التي تركها محمود، إلا قبرًا برّاقًا. لكن، لو استطاعت الجدران الكلام لروت تاريخًا خفيّاً حافلاً بالمآسي المؤثرة! .

أحد الوجوه الأكثر رزانة وعذوبة لهذه المأساة الغامضة هو وجه سليم التعيس الحظ الذي أودع السراي واحتُبس فيها لأنه لم يشأ أن يسفك دم أولاد أخيه، فأصبح معلّم السلطان الحالي محمود. كان سليم فيلسوفًا وشاعرًا ومربي التلميذ الذي كان عليه أن يعتلي العرش ذات يوم. خلال فترة الأسر الطويلة لهذين الأميرين، استاء محمود من تخلّي أحد العبيد عن مهامه فحنق وصفعه في وجهه. عندئذٍ قال له سليم : «آه يا محمود، حين تمر غدًا بأتون هذا العالم فلن تحنق على هذا النحو. حين تتعذّب كما تعذبت، ستتعلم كيف تتعاطف مع آلام الآخرين، حتى ولو كانت آلام العبيد".

كان مصير سليم بائسًا حتى النهاية. جاء مصطفى بيرقدار أحد باشاواته المتفانين في سبيله إلى القسطنطينية ومثل أمام أبواب السراي. كان السلطان مصطفى آنذاك في أحد ظلاته على البوسفور متمرغا في أحضان الملذات. وكان البسطنجيون يحرسون الأبواب. وفيما كان مصطفى عائدًا إلى السراي، كان بيرقدار يقصف أبواب السور بالمدفعية مطالبًا بأن يعيدوا له سيده سليم، لكن هذا البائس سقط صريعًا تحت طعنات غيسلر ـ آغا أي رئيس الحرس وخصيانه. عندئذٍ رمى السلطان مصطفى جثته

إلى بيرقدار، فارتمى فوقه وغمره بالقبل والدموع، وأتى الجنود ليبحثوا عن محمود المختبىء في السراي كانوا يخشون أن يكون قد لقي مصرعه على يد مصطفى فيقضى بذلك على آخر ذرية آل عثمان، لكنهم عثرواعليه أخيرًا مختبئًا تحت أكوام من السجاد في إحدى زوايا السراي المظلمة. ظنّ أنهم يبحثون عنه ليقتلوه. نصِّب على العرش، وسجد بيرقدار أمامه. كانت رؤوس الموالين لمصطفى معروضة على الجدران. أما نساؤه فوضعن في أكياس من الجلد مخاطة ورمين في البحر. لكن ما هي إلا أيام حتى أصبحت القسطنطينية ساحة وغى. انتفض جنود الانكشارية ضد بيرقدار وطالبوا من جديد بإعادة السلطان مصطفى إلى عرش السلطة وقد أبقي على قيد الحياة بفضل تسامح محمود. حوصرت السراي والتهمت الحرائق نصف مدينة اسطنبول. طالب أنصار محمود بقتل أخيه مصطفى لأن الإجراء هذا وحده بإمكانه إنقاذ حياته وحياتهم ولكن شقَّ على محمود أن يصدر الأوامر بالحكم عليه بالإعدام. غطى رأسه بوشاح والتفّ فوق أحد الدواوين فيما استغلَّ مؤيدوه صمته وخنقوا مصطفى. وهكذا أصبح محمود آخر أحفاد عثمان، لذا، كان شخصًا لا يجوز المس به ومحترمًا من جميع الفرقاء، لقي بيرقدار حتفه بعد أن التهمته النيران وهو يقاوم حول السراي، وبدأ عهد السلطان محمود.

تشهد ساحة الميدان التي يغلفها السواد خلف الجدران البيضاء للسراي على أكبر مأثرة قام بها السلطان محمود وهي القضاء على سلالة الإنكشارية. وهذا الإجراء الذي كان من شأنه وحده أن يعيد الحياة والشباب إلى الامبراطورية، لم يُسفر إلا عن صفحة هي من بين أكثر الصفحات دموية وشؤمًا يمكن أن تدوّن في سجل السلطنة. وهذه الصفحة لا تزال مدوّنة أيضًا فوق كل صرح من صروح ساحة الميدان المدمرّة وعلى الآثار التي أحدثتها كرات المدافع والحرائق وقد هيّأ لها محمود وكأنه سياسي نافذ البصيرة وبطل لا نظير له .. إلا أن حادثًا طارئًا تميّزت به حركة العصيان الأخيرة: تعرّض أحد الجنود الأتراك للضرب على يد ضابط مصري فتهيأ جند الإنكشارية

لإطلاق قذائف مدفعيتهم. كان السلطان العالم بكل ما يجري والمستعد لكل طارىء يتنزه برفقة مستشاريه الرئيسيين في إحدى حدائقه في بشكتاش على البوسفور. فهرع عندئذٍ إلى السراي وأخذ راية محمد المقدسة، اجتمع المفتي والعلماء حول الراية المقدسة واتفقوا على القضاء على الإنكشارية، فما كان من الفرق المنظمة والمجاهدين المسلمين إلا أن اجتمعوا لدى سماعهم صوت السلطان الذي تقدم هو بنفسه فوق صهوة حصانه على رأس الفرق المنتشرة حول السراي. عندما استعرض حشود الإنكشارية المتمردين المجتمعين في ساحة الميدان، أظهروا له الاحترام فدار عدة دورات حولهم مجازفًا بحياته ألف مرة لكنه كان متسلحًا بهذه الشجاعة الفائقة التي يستمدها الإنسان من عزيمته الصلبة . كان من المفترض أن يكون هذا النهار آخر يوم في حياته أو أول يوم انعتاقه من التبعية، وتوطيد نفوذه. صمَّ الانكشارية آذانهم عن سماع صوته وامتنعوا عن الالتحاق بآغاواتهم، فهرعوا من كل زوايا العاصمة وعددهم أربعون ألف رجل . في هذا الوقت ، كانت الفرق الموالية للسلطان من مدفعيين وبوسطنجية تحتل منافذ الشوارع المجاورة لميدان سباق الخيل. أمر السلطان بإطلاق النار فتردد المدفعيون لكن ضابطًا جسورًا يُدعى قره ـ جهنم هرع إلى أحد المدافع مطلقًا رصاصة من مسدسه على فتيلة القنبلة فبدّد الفرق الأولى للإنكشارية، تراجعت الصفوف الأخرى فأدار فوهة المدفع في كل جوانب الساحة ، وهكذا قضى آلاف الرجال في هذه المساحة الضيقة تحت أنقاض الجدران المنهارة بفعل القذائف ووسط ألسنة النار التي تسببت بحرائق كبيرة. لم يتوقف حكم الإعدام هذا إلا حين قُضي على آخر إنكشاري. أصبح المئة والعشرون ألف رجل في الباحة وحدها ،المنضوون تحت لواء هذه الفرقة، طعامًا للنار فانطفأ غضب السلطان المسعور والشعب الموالي له. قذفت مياه البوسفور جثثهم نحو بحر مرمرة وأقصي ما بقي منهم إلى آسيا الصغرى فقضوا في الطريق. لكن السلطنة تحررت من وزرهم وبات حكم السلطان مطلقًا أكثر من أي وقت مضى ولم يعد الرعايا إلا عبيدًا مطيعين.

وصار في مقدوره أن يعيد إحياء الإمبراطورية، لكن الأوان قد فات . فعبقريته لم تكن على مستوى شجاعته. وساعة أفول السلطنة أوشكت كما حصل للامبراطورية البيزنطية من قبل. بقي أمام القسطنطنية أن تنتظر أحكام القدر القادمة. أرى من هنا حيث أقف الأسطول الروسي يحاصر المدينة والمرفأ ويضيق على خناقها يومًا بعد يوم تماما كما فعل محمد الثاني من قبل . ألمح نار مخيمات القلموق(*) فوق تلال آسياها. ها إن البيزنطيين يعودون بزيّ روسيّ، ووحدها العناية الإلهية تدرك في أي يوم ينقض الروس في هجوم أخير على جدران القسطنطينية التي تختصر اليوم السلطنة كلها، فيغرقون بالنار والدخان والدمار هذه المدينة الرائعة التي تهجع تحت ناظري هجيعها الأخير.

إن أجمل منظر للقسطنطينية يمتد مباشرة أمامنا في أعلى المقصورة التي بناها السيد تروكي فوق سطح منزله، تهيمن هذه المقصورة على مجموع تلال بيرا وغلاطة كلها والنجود التي تحيط بالمرفأ لجهة «المياه العذبة». يحلّق نظرك كدوران نسر فوق القسطنطينية والبحر. ويمكن رؤية أوروبا ومدخل البوسفور وبحر مرمرة في الوقت نفسه، تنبسط المدينة عند قدميك وإذا لم يتبق لك إلا نظرة أخيرة ترمق بها الأرض فيجدر بك تأمل هذا المنظر بالذات. لا يسعني أن أفهم في كل مرّة أصعد فيها إلى المقصورة، وأصعد إليها مرات عدّة في اليوم لا بل أمضي فوقها السهرة كلها؛ لا يسعني أن أفهم كيف أن من بين كل هؤلاء الرحّالة الذين لا عديد لهم الذين قاموا بزيارة القسطنطينية، ليست هنالك إلا قلّة قليلة جدًا عبرت عن هذا الانبهار، الذي غلب عيني وقلبي أمام هذا المشهد، لا أفهم كيف أن أحدًا من الرحالة لم يصفه. تُرى هل لأنه يعصى على الكلام بأفقه وألوانه ؟ هل لأن لغة العين الوحيدة هي ريشة الرسام ؟ لكن الريشة أيضًا لم تستطع أن تصوّر هذا الجمال كله. لم أرَ في اللوحات إلا خطوطًا باهتة ومشاهد مبتورة وألوانًا لا حياة فيها. أما التدرج الذي لا تحصى دقائقه لهذه الألوان وتنوعها وتغيرها وفقًا للطقس والوقت، أما هذه الخطوط المنسجمة العظيمة بمهابتها

(*) القلموق: شعب مغولي الأصل يعيش في روسيا بين نهري الدو والفولغا وسيبيريا.

وهذه التموجات والآفاق المختلفة المتشابكة الهاربة والدمدمة المفعمة بالحياة لتلك الشعوب الساكنة بين هذه الضفاف؛ أما ضربات المدفع المدوية والمنطلقة من السفن وهذه الرايات المنزلة والمنصوبة في أعلى الصواري، وهذا الحشد من الزوارق والانعكاس الضبابي للقبب والمساجد والمآذن في البحر.. فهل هنالك لوحة صوّرتها وأظهرت طيفًا بسيطًا من جمالها؟ لماذا أغفل هذا الجمال ؟ فلنحاول أن نتبيّن بعضًا من ملامحه!!

تنحدر تلال غلاطة وبيرا وثلاث أو أربع تلال أخرى أمامي وصولاً حتى البحر وتغطيها المدن المختلفة الألوان بعضها مطلي بالأحمر القاني وبعضها الآخر بالأسود، ويزينها حشد من القبب الزرقاء التي تتخلل هذه الألوان القاتمة ؛ وبين القبة والأخرى بقع خضراء كثيفة تغطيها أشجار الدلب والتين والسرو في الحدائق الصغيرة المحيطة بالمناظر. ثمة مساحات واسعة فارغة بين البيوت من حقول مزروعة وحدائق صغيرة تُرى فيها النساء التركيات المتشحات بمناديلهن السوداء منصرفات إلى ملاعبة أطفالهنَّ وبرفقتهن العبيد في ظل الأشجار. أسراب من اليمائم والحمائم البيضاء تسبح في الفضاء الأزرق فوق هذه الحدائق والسطوح منفصلة، كأزهار تهدهدها الريح، عن أزرق البحر الذي يشكل خلفية الأفق. تلمح الشوارع المنسابة المنحدرة باتجاه البحر وكأنها سيول، وعلى مسافة أكثر انخفاضًا، حركة السكان في الأسواق التي تغمرها غلالة من الدخان الخفيف الشفاف. يفصل بين هذه المدن أو هذه الأحياء تلال مرتفعة تكسوها الأشجار وتتوجها قصور من الخشب المطلي والظلات المختلفة، أو وهاد عميقة حيث يتوه النظر بين جذور الأشجار التي تغطي النجود، وتلمح فقط ذرى السرو المنتصبة والسهام الحادة اللامعة للمآذن. عندما يصل النظر إلى البحر، يسرح شاردًا في صفحته الزرقاء وسط متاهة السفن الراسية أو المقلعة والزوارق التركية الطويلة تسبح كالطيور المائية، تارةً جماعات وطورًا فرادى فوق القناة في جميع الاتجاهات، ذاهبة من أوروبا إلى آسيا أو من بيرا إلى قمة السراي. تخرج بعض البوارج الحربية

الكبيرة باسطة جميع قلوعها من البوسفور كأنها تبعث بتحيتها إلى المقيمين في السراي، يغطيها الدخان لوهلة وكأنه أجنحة رمادية ثم تنفذ منه ملتمعة ببياض أشرعتها بمحاذاة السروات الباسقة وأشجار الدلب الشاهقة في حديقة السلطان وكأنها ستلامسها، لتدخل بعدئذٍ إلى بحر مرمرة. ثمة بوارج حربية أخرى يتراوح عددها بين الثلاثين أو الأربعين (تؤلف أسطول السلطان بأكمله) ترسو عند مدخل البوسفور، وأحجامها الهائلة تلقي بظلالها فوق المياه. لا يُلمح منها كاملة إلا خمس أو ست سفن، فالتلة والأشجار تحجب أجزاءها الأخرى فلا نرى منها إلا جوانبها المرتفعة وصواريها أو عوارضها التي تبدو وكأنها تعانق أشجار السرو، مشكّلة جادة دائرية تمتد حتى عمق البوسفور. وهناك ترتفع الجبال الموجودة عند الساحل المقابل لشاطىء آسيا مؤلفة خلفية اللوحة وتبز بارتفاعها واخضرارها تلك التي تكلل شواطىء أوروبا. غابات كثيفة تظللها منحدرة حتى الوهاد التي تخترقها، أما تلالها المزروعة حدائق فتحتضن ظلات منعزلة ومقصورات وقرى ومساجد صغيرة تحيط بها ستائر الأشجار الباسقة، وتزدحم خلجانها الصغيرة بالسفن الراسية والزوارق ذات المجاذيف والقوارب الصغيرة ذات الأشرعة. تمتد مدينة سكوتاري الكبيرة السفوح منبسطة على مسافة واسعة تظللها قمم الجبال وتزنرها غابات السرو القاتمة . بين سكوتاري وغلاطة، يعبر الخليج رتل لا ينقطع من الزوارق والقوارب المحملة بالجنود الآسيويين والأحصنة، أو بالمزارعين اليونانيين الذين ينقلون خضارهم إلى القسطنطينية، ثم يفتح الطريق لعبور رتل آخر من السفن الكبيرة الخارجة من بحر مرمرة. حين تلتفت إلى ساحل أوروبا من جديد، ولكن إلى الجهة الأخرى لقناة القرن الذهبي فإن أول ما تقع عليه عيناك بعد اجتياز حوض القناة الأزرق هو قمة السراي، إنه الموقع الأكثر جلالاً وتنوعًا، الأكثر جمالاً وتوحشًا الذي يمكن لعين رسام أن تراه . تتقدم قمة السراي وكأنها مرتفع أو كأنها رأس مسطح بين ثلاثة بحار قبالة آسيا. ربما كان محيط دائرة هذا المرتفع، بدءًا من باب السراي، عند بحر مرمرة وانتهاءً بالظلة الكبيرة لقصر السلطان إزاء أسكلة بيرا، يبلغ ثلاثة أرباع الفرسخ إنه مثلث تشكل السراي نفسها

قاعدته، قمته تغوص في البحر وضلعه الأكثر تراميًا يطل على المرفأ الداخلي أو قناتها. أقف فوق النقطة التي يمكنني فيها أن أراه بكامله :إنه غابة من الأشجار العملاقة التي تبزغ جذوعها من جدران الحصن وجلوله وكأنها أعمدة، باسطة أغصانها على الظلات والمدافع والسفن في البحر. تتخلل هذه الغابات ذات الاخضرار القاتم المصقول مروج خضراء ومساكب أزهار ودرابزونات وأدراج رخامية وقبب ذهبية أو رصاصية ومآذن أشد دقة من صواري السفن وقبب فسيحة تتوج القصور والمساجد والأكشاك المحيطة بالحدائق. مشهد شبيه بذاك الذي يتسم أمامك حين تنظر إلى قصر سان – كلو والجلول والمنحدرات المحيطة به، من الضفاف المقابلة لنهر السين أو من تلال مودون. لكن هذه المواقع الريفية محاطة من الجهات الثلاث بالبحر وتشرف عليها من الجهة الرابعة قبب المساجد العديدة ومجموعة من المنازل والشوارع التي تؤلف فعلاً ما يسمى بمدينة القسطنطينية أو إسطنبول. وتعلو هذه القبب جميعها قبة كنيسة القديسة صوفيا وهي أقرب إلى أن تكون كنيسة القديس بطرس المشرقية، قبتها الضخمة العملاقة تنتصب فوق حرم السراي، على مسافة قريبة منه.

كنيسة القديسة صوفيا تلة غير متوازية من الحجارة تعلوها قبة لامعة في الشمس مثل بحر من الرصاص. على مسافة أبعد، توجد المساجد الأحدث عهدًا، مساجد السلاطين أحمد وبايزيد وسليمان ومسجدالسلطانية التي ترفع نحو السماء مآذنها التي تتخللها أورقة معمّدة ذات طابع مغربي. تحيط بها أشجار السرو التي يوازي حجمها حجم المآذن وتبدو كأغماد الحراب متنافرة باخضرارها القاتم في كل مكان مع البريق الملتمع للمباني. وفوق قمة التلة المسطحة لإسطنبول، وسط جدران المآذن ورماح المآذن، تُلمح أكمة أو أكمتان قديمتان سوّدتهما الحرائق وجعل الزمن ألوانهما نحاسية .إنها خرائب بيزنطية القديمة التي لا تزال صامدة في ساحة ميدان الخيل أو ما يدعى بالميدان، هنا أيضًا تمتد الخطوط الواسعة لقصور السلطان العديدة أو وزرائه. وتحوي هذه المجموعة من الصروح الديوان الذي سُميت السلطنة على اسمه:

«الباب العالي» في الأعلى يتجلّى بوضوح على أفق سماء أثيري مسجد رائع يتوّج التلة ويشرف على البحرين. تبدو قبته الذهبية التي تنعكس عليها أشعة الشمس وكأنها تشتعل. كما تضفي عليه قبته الشفافة وأسواره التي تعلوها أروقة أثيرية منظرًا يجعله أقرب أن يكون صرحًا فضيّاً أو من البورسلين الأزرق، الأفق مسدود في هذه الجهة، ما يجعل النظر يواصل انحداره ليتأمل التلتين الواسعتين الأخريين المكتظتين بالمساجد والقصور والمنازل المطلية وصولاً حتى المرفأ، حيث تتضاءل سعة البحر تدريجيّاً ويحتجب مرآه خلف أشجار الوادي الرائع القائمة على مجاري مياه أوروبا العذبة . وإذا عاود النظر صعوده باتجاه القناة حلّق فوق صوارٍ متجمعة على ضفة «أسكلة الموتى» والترسانة أو في ظل غابات السرو التي تكسو منحدرات القسطنطينية، فيرى عندئذٍ برج غلاطة الذي بناه الجنويون بارزًا كصارية سفينة وسط سقوف المنازل المكتظة، وكأن بياضه اللامع منارٌ عملاق بين مدينتين . ثم يعود النظر ليرتاح أخيرًا فوق حوض البوسفور الهادىء الحائر بين أوروبا وآسيا.

هذه هي تفاصيل اللوحة التي أراها أمام ناظري. لكن إذا أضيفت إلى عناصرها الرئيسية التي تتألف منها، الخلفية الهائلة التي تؤطرها لجهتي السماء والبحر، الخطوط السوداء لجبال آسيا والآفاق المنخفضة الأثيرية لخليج نيقوميدية وقمم جبال الأولمب في بروسا خلف السراي، فيما يتعدى بحر مرمرة التي تبسط ثلوجها الفسيحة كأنها سحائب بيضاء عند قبة السماء. وإذا أضفتم على هذه المجموعة الساحرة الألوان الظريفة اللامتناهية لتفاصيل صغيرة لا تحصى. إذا راودت أفكاركم الانطباعات المتنوعة التي تثيرها السماء والريح وأوقات النهار المتغيرة فوق البحر والمدينة، وإذا رأيتم أساطيل السفن بارزة كأسراب عصافير برية تنفصل عن قمم الغابات القاتمة للسراي ثم تعبر وسط القناة لتبتعد ببطء في البوسفور وقد انضمت إليها سفن جديدة متزايدة باطراد. وإذا اكتسحت أشعة الشمس الغاربة ذرى الأشجار والمآذن فبدت معها جدران سكوتاري واسطنبول الحمراء وكأنها مشتعلة كحريق، وإذا بردت الريح

أو تلاشت وجعلت صفحة بحر مرمرة مسطحًا، مثل بحيرة من رصاص ذائب أو أحدثت تجعدات خفيفة فوق مياه البوسفور وأحاطتها بشبكة من الظلال الفضية المتلألئة، وإذا ارتفع دخان السفن التجارية محلقًا وسط الأشرعة الكبيرة المرتعشة للسفن أو لسفن التدريب التابعة للسلطان، وإذا دعا المؤذن للصلاة وترددت أصداء آذانه بدءًا من سفن الأسطول حتى أشجار السرو في حقل «الموتى»، إذا تصاعدت الضوضاء اللامتناهية من المدن السبع وآلاف العمارات البحرية وتناهت إلى المكان حيث تقف محمولة على أجنحة النسيم، إذا تخيلت أن السماء هي دائمًا بهذا الصفاء وهذا العمق، إذا كانت هذه البحار والمرافىء الطبيعية بهذا السكون والطمأنينة وإذا أيقنت أنّ كل منزل من المنازل الممتدة على طول هذه الضفاف خليج صغير يمكن للسفن أن ترسو تحت نوافذه في أي وقت تشاء، وإذا رأيت سفنًا ذات جسور ثلاث تبنى وتُدفع إلى البحر في ظل أشجار الدلب نفسها المحيطة بالضفاف، إذا تذكرت أنك في القسطنطينية، في هذه المدينة المتوجة على أوروبا وآسيا، من هذا الموقع بالذات حيث يلتقي قسما العالم ليتعانقا أو ليتحاربا. إذا باغتك الليل وسط هذا التأمل الذي لا تملّه العين. إذا أضيئت منارات غلاطة والسراي وسكوتاري وأضواء مؤخرة السفن العالية. إذا انفصلت النجوم تدريجيّاً فرادى أو جماعات عن قبة السماء الزرقاء وغمرت القمم القاتمة فوق شواطىء آسيا وذرى الأولب المكسوة ثلجًا وجزر الأمراء في بحر مرمرة وتلال السراي القاتمة وتلال إسطنبول والبحار الثلاثة، بشبكة زرقاء منثورة لآلئ، بدت الطبيعة وكأنها تسبح فيها بكل عناصرها، إذا تركت الشرارة الرقيقة المنبعثة من قبة المساء حيث يرسل القمر الطالع ما يكفي من الضياء لرؤية الكتل الضخمة لهذه اللوحة، طامسة التفاصيل أو ملطفة منها. إذا تسنى لكم أن تروا كل هذا فهذا يعني أن لديكم في جميع أوقات النهار والليل أروع وألذّ مشهد يمكن أن تراه عين إنسان. لديكم نشوة العين المتصلة بالفكر، وانبهار البصر والنفس. هذا هو المنظر الذي أمتّع نفسي به كل نهار وكل ليل منذ شهر.

اقترح عليّ سفير فرنسا أن أرافقه في الزيارة التي يحق بموجبها لكل السفراء المعينين حديثًا أن يقوموا بها إلى كنيسة آيا صوفيا. وجدتني في هذا الصباح عند الساعة الثامنة أمام باب من أبواب إسطنبول المطلة على البحر، خلف جدران السراي. كان أحد الضباط الرئيسيين لسموّه ينتظرنا على الشاطىء . اقتادنا بداية إلى منزله حيث أعدّ لنا وجبة طعام خفيفة. كانت الغرف عديدة ومزينة بشكل أنيق لكن لا أثاث فيها إلا الدواوين والغلايين. كانت الدواوين ملتصقة بالنوافذ التي تطل على بحر مرمرة. قدّم طعام الغداء على الطريقة الأوروبية لكن الأطباق كانت محلية ومتعددة الأصناف ومتقنة، وجميعها جديدة بالنسبة لنا . بعد تناول الغداء، ذهبت السيدات لرؤية زوجات الضابط التركي اللواتي لازمن في ذلك النهار بالذات شقة في أسفل المنزل، فالحريم أو دار النساء كانت حيث استقبلنا. زُودنا جميعًا ببوابيج وهو حذاء بلا كعب مصنوع من جلد الماعز المدبوغ المسمى السختيان لكي ننتعلها عند دخول المسجد الذي كان فيما مضى كنيسة القديسة صوفيا، وإلا لتوجب علينا خلع أحذيتنا والمشي حفاة القدمين. دخلنا إلى الباحة الأمامية لمسجد آيا صوفيا وسط عدد معين من الحرس الذين أبعدوا الحشد المتجمع لرؤيتنا. بدت وجوه العثمانيين متجهمة ومستاءة. نظر المسلمون الورعون إلى المسيحيين الداخلين إلى مسجدهم وكأنه تدنيس لأمكنتهم المقدسة، أغلق باب المسجد ما إن دخلنا.

تُعد البازيليكية الكبيرة للقديسة صوفيا التي بناها قسطنطين، أحد أضخم الصروح التي شيدتها عبقرية اتباع الديانة المسيحية. لكن يشعر المرء لدى رؤيته الطريقة التي بُنيت من خلالها هذه الكنيسة أنها كانت صنيعة زمن الفساد والانحطاط، إنها الذكرى المشوشة والفظة لذوق فنّي لم يعد موجودًا. إنها المسوّدة الناقصة لفن قيد التجريب. تتصدر المعبد باحة طويلة معمدة فسيحة ومسقوفة شبيهة بباحة كنيسة القديس بطرس في روما، ثمة أعمدة هائلة من الغرانيت لكنها ملتصقة بالأسوار لتشكل كتلة متراصة معها. تفصل هذا البناء عن ساحة الكنيسة بوابة ضخمة تفضي إلى

الداخل وجوانب الكنيسة زُينت بأعمدة بديعة من الرخام السماقي والغرانيت المصري والرخام النفيس. لكن هذه الأعمدة ذات الضخامة والحجم والنظام المتنوع تبدو وكأنها شذرات مأخوذة من معابد أخرى ووضعت هنا دون تناسق أو ذوق كما يحلو للبرابرة أن يدعموا كوخًا بأجزاء بُترت من أحد القصور. وهناك أعمدة عملاقة مبنية بشكل سيئ تحتضن قبة أثيرية شبيهة بقبة كنيسة القديس بطرس وتعطي انطباعًا بالجلال نفسه، هذه القبة التي كانت قديمًا مكسوة بالفسيفساء طُليت عندما استولى محمد الثاني على آيا صوفيا وجعل منها مسجدًا. قشر الطلاء عن بعض الأجزاء فبانت زينتها المسيحية القديمة. ثمة أروقة دائرية بالقرب منها أروقة شاسعة، تحيط بالبازيليكية عند مستوى بزوغ القبة؛ من هنا، يبدو منظر المعبد جميلاً، فسيحًا، قاتمًا، مجردًا من الزينة بعقوده المشققة وأعمدته البرونزية، شبيهًا بمقبرة ضخمة بُعثرت ذخائرها؛ منظر يوحي الرهبة والصمت والتأمل أمام هشاشة أعمال الإنسان الذي شيّد الصروح تخليدًا لأفكار ومعتقدات خالها أبدية ثم أتت أفكار ومعتقدات أخرى لتشهر كتابًا أو سيفًا، لا فرق، وتسكن هذه الصروح أو تدمّرها. في حالتها الراهنة، تشبه آيا صوفيا خان قوافل شيّد لله. ها هي أعمدة أفسس، ها هي صور الرسل بالهالات الذهبية التي تكلل رؤوسهم فوق القبة تنظر إلى المصابيح المعلقة فوق رؤوس أئمة المسلمين.

عندما خرجنا من آيا صوفيا، ذهبنا لزيارة المساجد الرئيسية السبعة في القسطنطينية، إنها أقل اتساعًا من كنيسة القديسة صوفيا لكنها أجمل بكثير. يشعر المرء أن الدين المحمدي يمتاز بفن خاص به، فن جاهز سلفًا ومتلائم مع البساطة المشرقة للعقيدة الإسلامية. شُيدت هذه المعابد البسيطة المنتظمة البديعة التي لا ظل فيها لأسرارها ولا مذابح لأضاحيها. المساجد متشابهة جميعها، أحجامًا وألوانًا تتصدرها أفنية كبيرة محاطة بدور منعزلة حيث المدارس ومساكن الأئمة. تظلّل أشجار رائعة هذه الباحات وتزينها نوافير ماء عديدة تملأ الساحة بدمدمتها وتدعو المؤمن إلى الارتواء من مائها العذب.

ترتفع المآذن التي صُنعت بذوق رفيع مثل أربع منارات أثيرية في زوايا المسجد الأربع وتعلو قببه . ثمة مقصورات دائرية صغيرة مزدانة بحواجز حجرية منحوتة برهافة وكأنها من الدانتيل تحيط على مستويات ارتفاع مختلفة، بالمسلة الرشيقة للمئذنة حيث يقف المؤذن خمس مرّات كل يوم ويؤذن بصوته الرخيم معلنًا عن حلول موعد الصلاة ومناديًا المؤمنين إلى تأديتها والصلاة على الله ونبيّه الكريم. ثمة بوابة تشرف على الحدائق والباحات و تنخفض بضع درجات عن باب المعبد، والمعبد فناء واسع مربع أو مستدير تعلوه قبة مستندة إلى أعمدة أنيقة أو مضلعة. يلتصق المنبر بأحد الأعمدة المزينة بالآيات القرآنية المنقوشة على جوانبه. أما الجدران فمطلية بالزخارف العربية. تجتاز أسلاك حديدية المسجد من عمود لآخر وتتدلى منها المصابيح العديدة وبيض نعام وباقات من السنابل أو الأزهار. تكسو الحصائر المصنوعة من القصب والبسط الفاخرة بلاط الفناء، وهي تضفي جوّاً بسيطًا ومفخمًا في الوقت نفسه. ليس هذا معبدًا حيث يسكن الله بل بيت للصلاة والتأمل حيث يتجمع الناس لعبادة إله الكون الأوحد. ما ندعوه شعائر غير موجود في الدين الإسلامي. بشّر النبي محمد شعوبًا بربرية وكان يخشى أن تحجب الشعائر الدينية عندها فكرة الله. الطقوس تتميز ببساطتها: عيد سنوي، الوضوء، وتأدية الصلاة خمس مرات في اليوم. هذا كل شيء . ما من عقيدة إلا الإيمان بالله الخالق والمثيب. لا وجود للصور فهي تغوي خيال الإنسان الضعيف وتجعل الذكرى تعبدًا آثمًا. ما من كهنة، أو على الأقل، بإمكان كل مؤمن أن يؤدي مهمات الكاهن. السلطات الدينية الكهنوتية لم تتشكل إلا لاحقًا بعد تفشي ظاهرة الفساد. كلما دخلت مسجدًا، سواء في ذلك اليوم أو في أيام أخرى، وجدت فيه جماعة من الأتراك المقرفصين أو المضطجعين فوق السجاجيد يؤدون الصلاة والورع وخشوع الروح ظاهران على وجوههم. في فناء مسجد بايزيد، رأيت قبر قسطنطين الفارغ: إنه من الرخام السماقي ذو حجم هائل ويمكن أن يتسع لعشرين بطلاً. لا شك أن كتلة الرخام هذه تعود إلى العهد الإغريقي وأنها بعض الأجزاء المأخوذة من معبد ديانا في إفسس. تتبادل العصور معابدها كما تتبادل قبورها

وتعيدها فارغة. أين هي عظام قسطنطين؟ وضع الأتراك ضريحه في أحد الظلات ولم يسمحوا لأحد بتدنيسه. أما قبور السلاطين وعائلاتهم فهي موجودة في حدائق المساجد التي بنوها تحت ظلات من الرخام تظللها الأشجار وتعطّرها الأزهار. تدمدم نوافير الماء قرب الأكشاك أو داخلها حيث يخلد المسلمون ذكرى موتاهم. ما من مرة مررت أمام أحد هذه القبور إلا وجدت باقات من الأزهار المقطوفة حديثًا موضوعة أمام أبواب هذه الأنصاب العديدة أو عند نوافذها.

انحدرت على طول قناة البوسفور ثم عدت أدراجي من القسطنطينية حتى مصب البحر الأسود. أريد أن أرسّخ في خيالي سمات هذه الطبيعة الساحرة. لم أكن أعتقد أن السماء والأرض، أن البحر والإنسان بإمكانهم أن يصنعوا معًا مثل هذه المناظر الفاتنة. وحدها مرآة السماء أو البحر الشفيفة بإمكانها أن تراها وتعكسها كاملة: هكذا يراها خيالي أيضًا ويحتفظ بها. لكن ذاكرتي لا يمكنها الاحتفاظ بها ورسمها إلا من خلال تفاصيل متعاقبة. فلنكتب إذًا مشهدًا إثر مشهد وخليجًا تلو خليج وجونًا عقب جون وضربة مجذاف تلو ضربة أخرى. يحتاج الرسام السنوات لكي يستطيع أن يصوّر ضفة واحدة من ضفاف البوسفور إذ تتغير البلاد مع كل نظرة وتتجدد دومًا بتنوع جمالها وتجدده. فماذا أقول ببضع كلمات عن هذا الجمال.

قادني أربعة مجذفين في أحد هذه الزوارق الطويلة التي تمخر عباب البحر وكأنها سمكة، أبحرت وحيدًا عند الساعة السابعة صباحًا تحت سماء صافية وشمس ساطعة. حدثني ترجمان مستلقٍ في القارب بين المجذفين وبيني عن الأسماء والأشياء. سرنا بادئ الأمر بمحاذاة أرصفة توفانا وثكنة مدفعيتها. ترتفع مدينة توفانا على شكل مدرّج من المنازل المطلية وكأنها باقات من الزهر المتجمعة حول مسجد الرخام لتختفي بعد ذلك في ظل السروات الباسقة لحقل «الموتى» الكبير في بيرا. تسد هذه الستائر من الغابات القاتمة التلال من هذه الجهة . كنا ننزلق وسط مجموعة من السفن الراسية والزوارق التي لا عديد لها والتي تقل إلى القسطنطينية ضباط السراي والوزير

وعائلات الأرمن الذين تفرض عليهم شروط العمل الالتحاق بمتاجرهم. هؤلاء الأرمن رائعو الجمال، لباسهم بسيط وأنيق: يرتدون عمامة سوداء وثوبًا أزرق طويلاً معقودًا عند الخصر بشال من الكشمير الأبيض. أجسادهم مفتولة ووجوههم تنضح بالذكاء وملامحهم أليفة. بشرتهم نضرة وعيونهم زرقاء ولحاهم شقراء. إنهم سويسريو الشرق، وهم مثلهم أيضًا جشعون يتقنون الحسابات ويوظفون عبقريتهم في التجارة لحساب السلطان أو الأتراك. لا يحمل الأرمن في عروقهم دمًا بطوليّاً أو عصبًا قتاليّاً، جل عبقريتهم تتجسد في التجارة التي يمارسونها في ظل جميع الحكّام. إنهم المسيحيون الذين ينسجمون على أكمل وجه مع الأتراك. يتقدمون في أعمالهم باطراد ويجمعون الثروات التي أهملها الأتراك وأفلتت من اليونانيين واليهود . إنهم قادرون على القيام بأية مهمة توكل اليهم، فهم تراجمة الباشوات كلهم والوزراء. تذكّر نساؤهم بملامحهن الصافية بجمال الإنكليزيات الهادئ أو فلاحات جبال سويسرا ولكن جمالهن أكثر رهافة. إنهن رائعات وكذلك أولادهن. تحفل الزوارق بهن وبالأزهار التي يجنينها من حدائق منازلهن الريفية ويضعنها في مقدم الزوارق.

بدأنا بالالتفاف حول رأس توفانا ثم انزلقنا في ظل السفن الحربية الكبيرة التابعة للأسطول العثماني والراسية عند شاطئ أوروبا. تهجع هذه الكتل الضخمة هنا وكأنها فوق بحيرة. يتكئ البحارة الذين يرتدون مثل جنود الأتراك سترات حمراء أو زرقاء متكاسلين إلى أربطة السفينة أو يستحمون حول عارضتها . تعبر زوارق تجارية محملة الحشود ذهابًا وإيابًا من اليابسة إلى المراكب. وتمر القوارب الأنيقة للقبطان – الباشا التي يقودها عشرون مجذفًا كالسهم تقريبًا. يرتدي الأميرال طاهر باشا وضباطه سترات الردنغوت الطويلة البنية ويعتمرون الطرابيش المصنوعة من الصوف الأحمر ويخفضونها فوق جباههم وأعينهم وكانهم خجلوا لتخليهم عن العمامة النبيلة الجميلة. يبدو هؤلاء الرجال واجمين وخانعين، ينفثون دخان غلايينهم الطويلة المزوجة بالعنبر. هنالك ما يقارب الثلاثين بارجة حربية جميلة الصنع والتي تبدو وكأنها متأهبة للإقلاع.

لكن لا ضباط فيها ولا بحارة وهذا الأسطول البديع ليس إلا زينة للبوسفور. وفيما يتأمله السلطان من ظلة قصر بكلربك، الواقع على شاطىء آسيا، فإن الفرقاطتين أو الفرقاطات الثلاث التابعة لإبراهيم باشا تهيمن على المتوسط موطّدة السلام وتسيطر قوارب ساموس على الأرخبيل. على مسافة خطوات من هذه المراكب، انزلقت بمحاذاة ضفة أوروبا، عابراً تحت نوافذ أحد قصور السلطان . قصر طويل وبديع لكنه بات مهجوراً الآن .انه أشبه بقصر برمائي فأمواج البوسفور ما إن ترتفع بفعل الريح حتى تكتسح النوافذ وتنشر زبدها في غرف الطابق الأرضي. أدراج المداخل مبللة والبحر ينفذ من الأبواب المسيجة غامراً الباحات والحدائق. هنا محط الزوارق ومسابح السلطانات اللواتي بوسعهن أن يسبحن في البحر في كنف ستائر دورهن، وخلف هذه الباحات البحرية، حدائق مزروعة بالشجيرات وأزهار الليلك والورد، مرتفعة على شكل جلول متعاقبة محتضنة ظلات مسيجة ومذهبّة. تتوه مرجات الأزهار هذه وسط غابات كبيرة من السنديان والغار والدلب التي تكسو المنحدرات ثم ترتفع مع الصخور حتى قمة الهضبة.

دور السلطان مفتوحة، وأرى من خلال النوافذ النقوش المذهبة في السقوف ثريات الكريستال والدواوين والستار الحريرية. أما دور الحريم فمسورة بأسيجة عازلة من الخشب المنقوش بأناقة. وخلف هذا القصر بالضبط تبدأ سلسلة لا تنتهي من القصور والمنازل والحدائق التي يمتلكها ذوو الحظوة والمقرّبون من قادة النظام من وزراء وباشاوات السلطان. وجميع هذه القصور هاجعة عند البحر وكأنها بنيت لتتنشق نضارته. نوافذها مفتوحة وأسيادها جالسون فوق دواوين في قاعات فسيحة تلتمع ذهبًا وحريراً. يدخنون ويتكلمون ويشربون العصير البارد وهم ينظرون إلينا نعبر على ظهر القارب الذي يجتاز بنا الشاطىء. تشرف دورهم أيضًا على جلول مدّرجة مكتظة بالعرائش والشجيرات والأزهار. يرتدي خدامهم الكثر ملابس فاخرة ويجلسون على أدراج السلالم التي تغمرها مياه البحر. عند أسفل السلالم زوارق مجهّزة بكل ما يلزم

من مجذفين ومتأهبة لاستقبال أسياد هذه المنازل أو اصطحابهم. وفي كل مكان تؤلف دور الحريم أجنحة يفصلها عن دور الرجال حدائق أو باحات. الدور مسيجة. ألمح فقط من وقت لآخر رأس طفل جميل يلتصق بفتحات الجدران المصنوعة من القصب التي التصقت بها الزهور المعرّشة، ناظرًا إلى البحر، أو الذراع البيضاء لإحدى النساء تفتح الستارة أو تغلقها. جميع هذه القصور والبيوت مبنية من خشب لكنها مشغولة بإتقان ومزدانة بتسقيفات أمامية ومقصورات ودرابزونات لا تحصى، وجميعها غارقة في كنف الأشجار الباسقة والنباتات المعرّشة وغابات الياسمين والورود. جميعها مغمورة بمياه البوسفور ومزدانة بباحات داخلية تنفذ إليها مياه البحر متجددة باستمرار، وتستظل بها الزوارق. مياه البوسفور عميقة في كل مكان إلى درجة أننا نحاذي الضفة تقريبًا ونستطيع تنشق النسيم العطر للأزهار وبإمكان مجذفينا أن يستريحوا في ظل الأشجار أو في عرائش الدوالي أو في ستائر النوافذ وتولي قواربهم حاملة معها خرقًا من أشجار أو من المنازل. تفصل هذه المنازل عن بعضها البعض فقط مجموعات من الأشجار التي تكسو بعض الرؤوس الصغيرة المتقدمة، أو بعض زوايا الصخور المتدثرة باللبلاب والخز، النازلة من نتوءات التلال والممتدة بضعة أقدام في المياه. بين الفينة والأخرى فقط، يظهر خليج صغير أكثر عمقًا وانحصارًا بين تلتين يفصل بينهما مجرى عميق لمسيل ماء أو جدول. عندئذٍ، ترى قرية تمتد على الضفاف المسطحة لهذه الخلجان بنوافيرها الجميلة ومسجدها ذي القبة الذهبية أو الأثيرية ومئذنته الباسقة التي تعانق قمتها ذرى أشجار الدلب الشاهقة. ترتفع البيوت الصغيرة المطلية على جانبي الخلجان الصغيرة أشبه بقاعة مسرح، تزينها واجهات أو ظلات بألف لون ولون. في أعلى التلال، تمتد دارات كبيرة مزدانة بالجنائن المعلقة وأشجار التنوب ذات المظلات الواسعة التي تسد الأفق. عند أسفل هذه القرى شواطئ رملية أو رصيف من غرانيت تبلغ مساحته بضعة أقدام. وهذه الرملات مزروعة بأشجار الجميز وبالدوالي والياسمين، وتمتد حتى البحر مشكلة ملجأ للزوارق الضيقة. هنا ترسو مجموعة متنوعة من المراكب والسفن القلاعية التجارية الوافدة من الأمم جميعها قبالة منازل مجهزي

السفن أو مخازنهم. وغالبًا ما يرمى جسر متحرك من السفينة كي يصل إلى نافذة إحدى الدارات وينقل البضائع. ترى حشدًا من الأطفال وباعة الخضار والبلح والثمار يجولون هذه الأرصفة. إنه سوق القرية والبوسفور. هناك يتجمع البحارة من مختلف الأعراق واللغات بين العثمانيين الذين ينفثون الدخان وهم يجلسون القرفصاء فوق سجاجيدهم بالقرب من النافورة حول جذوع أشجار الدلب. لا يمكن لأي منظر أن يضاهي بظرفه وجماله هذه الخلجان الصغيرة للبوسفور، ولا حتى جمال قرى لوسرن أو انترلاكن. يستحيل ألاّ نتوقف عن التجذيف لبرهة ونتأملها. كل خمس دقائق، تجد مدنًا ومرافئ وقرى مماثلة على القسم الأول من ساحل أوروبا أي على مساحة فرسخين أو ثلاثة، ثم تصبح أكثر ندرة ويتخذ المشهد طابعًا أكثر ريفية بسبب الارتفاع المتزايد للتلال وكثافة الغابات. لا أتحدث في معرض كلامي إلاّ عن ساحل أوروبا لأنني سأصف لدى رجوعي ساحل آسيا الذي يفوقه جمالاً. لكن، يجب ألا ننسى، إذا أردنا إعطاء صورة دقيقة، بأن شاطئ آسيا هذا لا يبعد عنا إلا بضع ضربات مجداف، وأننا غالبًا ما نقترب من هذا الشاطئ أو ذاك عند بلوغنا الأماكن التي تضيق فيها القناة وتنعطف، وأن المشاهد التي أصفها على ساحل أوروبا تسحر الناظر كلما وقع نظره على شواطئ آسيا.

لكنني أعود إلى الشاطئ الذي أحاذيه عن كثب. ثمة مكان آخر يقع في عمق هذه المرافئ الطبيعية حيث البوسفور يضيق ليصير أشبه بنهر فسيح بين رأسين من الصخور المنحدرة من أعلى هذه الجبال المزدوجة. تبدو القناة المنسابة مقفلة تمامًا في هذا المكان وكلما تقدمنا، استطعنا رؤيتها منبسطة وملتفة خلف رأس أوروبا ثم متسعة لتصير بحيرة تحتضن مدينتي تيرابيا وبيوكديريه. من أسفل الرأسين الصخريين المكسوين بالأشجار والنباتات المكتظة، إلى أعلاهما، تبرز تحصينات نصف متهدمة وترتفع أبراج هائلة بيضاء مخرمة مزدانة بجسور متحركة وأبراج شبيهة بالقصور الجميلة في القرون الوسطى. إنها القصور الشهيرة لأوروبا وآسيا، تلك التي اتخذها

محمد الثاني مقرّاً أثناء حصاره الطويل للقسطنطنية قبل أن يحتلها. ترتفع هذه القصور مثل شبحين أبيضين وسط أشجار الصنوبر القاتمة والسرو، وكأنها تريد أن تقفل أي منفذ على هذين البحرين. أبراجها ذات الأحجام المختلفة المحلقة فوق السفن الباسطة جميع قلوعها، الأغصان الطويلة للنباتات المعرشة التي تتدلى كمعاطف المحاربين فوق جدرانها نصف المتهدمة، الصخور الرمادية التي تحتضنها ونتوءاتها التي تبرز وسط الغابة التي تكسوها الظلال الكثيفة التي تلقيها على المياه... كل ذلك يجعل منها أحد المواقع الأكثر تميّزًا للبوسفور. هنا يفقد البوسفور من منظره الظريف فقط ليتخذ مظهرًا ظريفًا ومهيبًا في الوقت نفسه. في الأسفل تمتد المدافن التركية، والعمامات المنحوتة من الرخام الأبيض تبرز هنا وهناك وسط الأوراق الكثيفة التي تغمرها المياه. ما أسعد هؤلاء الأتراك! يرتاحون دومًا في ظل الشجيرات التي أحبوا، على ضفة المياه التي سحرتهم دمدمتها، ترفرف اليمائم التي أطعموها طيلة حياتهم فوق قبورهم وتعطر أجواءهم النباتات التي زرعوها. إذا كانوا لا يملكون الأرض خلال حياتهم فهم يملكونها بعد مماتهم، فمدافن الأحياء الذين فقدناهم لا يليق بنا أن نجعلها في الأماكن غير اللائقة لأن ذكراهم الغالية تفرض علينا زيارتهم باستمرار وإجلال قدرهم.

في ما يتعدى القصور، يتسع مجرى البوسفور وتصبح جبال أوروبا وآسيا أكثر ارتفاعًا ووعورة وقحطًا. ضفاف البحار فقط مزروعة هنا وهناك بالمنازل الصغيرة البيضاء والمساجد المبنية على أكمة الجبل، بالقرب من سبيل ماء وفي ظل شجرة الدلب. على مسافة أبعد بقليل، تحاذي مدينة تيرابيا الضفة وهي مقر إقامة السفراء، سفراء فرنسا وإنكلترا. تغطيها الغابات العالية وتلتقي بظلالها على الجلول ومروج القصرين. تمتد بضعة أودية صغيرة بين الصخور وتشكل الحدود بين الدولتين النافذتين. قبالة كل قصر منهما، في القناة ترسو فرقاطتان الأولى إنكليزية والثانية فرنسية وهما تنتظران إشارة من السفراء لتحملا إلى أساطيل المتوسط رسائل الحرب أو السلم.

بيوكديريه مدينة ساحرة تقع في عمق الخليج، عند انعطافة البوسفور قبل أن يضيع في البحر الأسود، وهي تنتشر على جانبي الجبلين القاتمين كستائر من قصور ودارات. يفصل الرصيف البساتين والبيوت عن البحر. يشكّل الأسطول الروسي المؤلف من خمس سفن وثلاث فرقاطات وسفينتين بخاريتين، الراسي أمام جلول قصور روسيا، مدينة عائمة فوق المياه قبالة المدينة وظلال أشجار بيوكديريه العذبة. القوارب التي تنقل التعليمات المكتوبة من سفينة إلى أخرى، والقوارب التي تنقل الماء من الينابيع أو تنزّه المرضى على الشاطئ، يخوت الضباط الشبّان الماخرة عباب الماء وكأنها أحصنة سباق والتي تنحني أشرعتها بفعل الريح وتبللها الأمواج، ضربات المدافع التي تردد أودية آسيا صداها مبشرة بقدوم سفن جديدة آتية من البحر الأسود، المعسكر الروسي المتمركز على المنحدرات المحروقة لجبل «العملاق»، قبالة الأسطول، المروج الجميلة لبيوكديريه الحافلة بأشجار الدلب الرائعة التي يكفي ظل شجرة منها ليفيء فيلق بأكمله، الغابات البديعة المحيطة بقصور الروس والنمساويين التي تزين التلال وكأنها تخريم، طائفة المنازل الأنيقة بشرفاتها التي تحف بالأرصفة ويتدلى وردها وليلكها مثل حواشي الفساتين، الأرمن وأطفالهم الوافدون أو الراحلون باستمرار في زوارقهم المليئة بالأغصان والأزهار، شرم البوسفور الذي يقتم ويضيق ممتدًا نحو الأفق الضبابي للبحر الأسود، السلاسل الجبلية الأخرى المجردة تمامًا من القرى والبيوت، الشامخة باتجاه الغيوم والمكسوة بغاباتها الكثيفة، أشبه بنجوم مهيبة بين عواصف بحر الأعاصير وصفاء بحار القسطنطينية، الحصنان القابعان أحدهما قبالة الآخر على الضفتين، المتوجان بمدافعهما وأسوارهما ومتاريسهما، الرأسان القائمان المتقدمان في البحر وفوقهما المرتفعات، وأخيرًا الخط المزدوج للصخور المكسوة ببقع الغابات المنتهية عند حدود الأمواج الزرقاء للبحر الأسود... تلك هي جميع العناصر التي تؤلف منظر مدينة بيوكديريه. أضف إليه العبور المستمر لأرتال السفن الآتية من القسطنطينية أو الخارجة من القناة، تبعًا لمشيئة الرياح سواء هبّت من الشمال أو من الجنوب. كثيرة هي هذه السفن. ذات يوم كنت عائدًا في زورقي واستطعت أن أحصي

مئة سفينة في أقل من ساعة. تمخر هذه السفن عباب البحر جماعات وكأنها أسراب عصافير تهاجر إلى مناطق أخرى، بحثًا عن مناخ دافئ. وإذا تغيّر دوران الريح، تهرع في جولات من ضفة لأخرى مراوحة في مكانها تحت النوافذ أو في ظل أشجار آسيا أو أوروبا. وإذا رقّ النسيم، ترسو في أحد الخلجان العديدة للبوسفور، لتعود وتبسط من جديد أشرعتها. يتغير المنظر عند كل لحظة ويضجّ بالحياة بفعل مجموعات السفن المقلعة أو الراسية أو تبعًا للمراكز المختلفة التي تتخذها على طول المجاري التي تعبرها، ما يجعل مرأى البوسفور أشبه بمشكال رائع يتجدد باستمرار.

ما إن وصلت إلى بيوكديريه حتى استوليت على المنزل الساحر الواقع على الرصيف البحري حيث أراد السيد تروكي أن يقدم لي ضيافته المضاعفة للمرة الثانية على التوالي، وهناك أمضينا الصيف.

التاريخ نفسه

بعد وصف شاطئ البوسفور هذا، يبدو أن الطبيعة لا تستطيع أن تتخطى نفسها، ولا يستطيع أي منظر أن يفوق بجماله ذاك الذي امتلأت به عيناي. أسير بمحاذاة شاطئ آسيا أثناء رجوعي هذا المساء إلى القسطنطينية وأجده أجمل بمئة مرة من شاطئ أوروبا. لا يدين شاطئ آسيا للإنسان بشيء لأن الطبيعة صنعت منه كل شيء. لم يعد هناك وجود لبيوكديريه ولا لتيرابيا أو قصور السفراء أو مدينة الأرمن أو الفرنج. هناك فقط جبال وشعاب تفصل بينهما وأودية صغيرة تفترشها المروج وجداول تنساب وشلالات تتدفق بزبدها الأبيض وغابات تتدلى عند جوانب الجبل وتنزلق في وهاد منحدرة حتى ضفاف الخلجان العديدة. ثمة تنوع في الأشكال والألوان والأوراق والنبات، تنوع تعجز ريشة رسام عن أن تصوّره. ترى بضعة بيوت منعزلة لبعض التجار أو المزارعين الأتراك، منثورة على الشاطئ الرملي أو مبعثرة فوق هضبة مكسوة بالأشجار أو متجمعة بين الصخور العالية حيث يحملك التيار المتكسرة أمواجه الزرقاء كسماء ليلية. ترى بضعة أشرعة بيضاء للصيادين راسية في الخلجان العميقة ثم لا

تلبث أن تتحرك متنقلة من ظلّ شجرة دلب إلى أخرى وكأنها أنسجة جافة تطويها الغاسلات، ويكتمل المشهد برفوف لا عديد لها من العصافير البيضاء تنفض ريشها على تخوم الحقول، ونسور محلّقة حول قمم الجبال المشرفة على البحر. الخلجان الصغيرة التي تكتنفها أسرار غامضة تحيط كلياً بالصخور وجذوع الأشجار العملاقة التي تلامس أغصانها الكثيفة المتدلية صفحة الماء. ترى قرية أو قريتين في كنف هذه الخلجان وفوق منحدراتها الخضراء حدائق غناء وفي أسفل الصخور أشجار متشابكة، والأمواج تهدهد المراكب برقة عند أبواب المنازل وأسراب الحمائم فوق السقوف. النساء والأطفال يستندون إلى حافات النوافذ أو الشيوخ يجلسون تحت أشجار الدلب عند أسفل المئذنة فيما الفلاحون يعودون من حقولهم في زوارقهم وآخرون يملأون مراكبهم برزم الأغصان والآسن أو الخلنج المزهر، بهدف تجفيفها واستخدامها للتدفئة أيام الشتاء. تغطي أكوام النبات المتدلية الزوارق فتفيض عنها منغمسة في الماء، ما يحجب الزورق عن النظر والمجذّف أيضًا، ويحملنا على الاعتقاد أن بقعة من الضفة انفصلت صدفة عن اليابسة بفعل التيار فعامت فوق الماء بأوراقها الخضراء وأزهارها التي لا تزال عطرة.

تتوالى على الشاطئ هذه اللوحة وصولاً حتى قصر محمد الثاني الذي يبدو وكأنه هو أيضًا يرسم حدودًا أضيق للبوسفور فيجعله أشبه بإحدى بحيرات سويسرا. في هذا المكان بالذات يتغير طابعه، تصير التلال أقل وعورة والأودية أكثر ليونة. تمتد القرى الآسيوية أكثر غنًى وتراصّاً. ينبسط سهل «المياه العذبة» لآسيا أمام الناظر، بديعًا صغيرًا مظللاً بالأشجار ومزدانًا بالظلات والنوافذ. ترى عددًا كبيرًا من عربات القسطنطينية، وهي أشبه بأقفاص ذهبية تجرها العجول على أربع عجلات، متناثرة فوق المروج ونساء تركيات يخرجن متحجبات ويجلسن في ظلال الأشجار أو على شاطئ البحر برفقة أولادهن وعبداتهن السوداوات،و جماعات الرجال الجالسين على مسافة أبعد يحتسون القهوة أو يدخنون الغليون. يؤلف تنوع ألوان الملابس التي يرتديها

الرجال والأطفال ،لا سيما النساء بحجابهن البني الرتيب، فسيفساء غريبة رائعة تسحر الأعين. عجول الزرائب وجواميسه تجتر في البراري، والجياد العربية التي وضعت فوق ظهورها سروج مخملية وحريرية وذهبية تضرب الأرض بحوافرها بالقرب من الزوارق التي تبلغ الضفاف على دفعات محمّلة بالأرمن أو بالنساء اليهوديات. ما إن تصل النساء اليهوديات حتى يفترشن العشب سافرات عند ضفة الجدول، ويؤلفن حلقة من النساء والفتيات المرتديات ملابس مختلفة والمتخذات أوضاعًا مختلفة. بعضهن يتمتّعن بجمال فاتن يظهره تنوع التسريحات والملابس. غالبًا ما رأيت هناك، عددًا كبيرًا من نساء الحريم التركيات سافرات. كنَّ جميعًا قصيرات القامة، شديدات الشحوب ساهمات النظرات، وكان منظرهن مخيفًا ولونهن شاحبًا وسقيمًا. غالبًا ما يبدو لي مناخ القسطنطينية، بالرغم من كل المظاهر التي تجعله مؤهلاً للسكن، غير صحّي. كما لا أشعر بأن النساء التركيات يستحققن سمعة الجمال التي عرفن بها. وحدهن الأرمنيات واليهوديات تظهر عليهن ملامح الجمال. ولكن، مع ذلك، ما أعظم الفرق بين جمالهن وجمال اليهوديات والأرمنيات في المناطق العربية، وعلى وجه أخص، ذلك السحر الذي لا يوصف لنساء الروم في سوريا وآسيا الصغرى!

على مسافة بعيدة قليلاً، بالضبط عند شاطئ البوسفور حيث تتكسر الأمواج ينتصب القصر الجديد البديع الذي يقيم السلطان فيه الآن. بني قصر بكلربك على الطراز الإيطالي ممتزجًا بتأثيرات هندية ومغربية. صروح ضخمة من طوابق عدّة مزدانة بأجنحة للبساتين الداخلية. خلف الصروح، بين الجبل والقصر، تمتد حدائق كبيرة مزروعة بالورد ترويها نوافير ماء. يفصل رصيف ضيق من الغرانيت البحر عن النوافذ. أبطأت عبوري تحت هذا القصر الذي تقض المخاوف والهموم مضاجع أربابه على الرغم من مظاهر الثراء والترف. لمحت السلطان جالسًا فوق ديوان في إحد ى الظلات المطلة على البحر، وعصمت باشا، أحد رجال حاشيته الشبّان، واقفًا بالقرب منه. ذعر السلطان لدى رؤيته اللباس الأوروبي فأوعز إلى عصمت باشا مشيرًا بإصبعه

كي يذهب و يتحرى عنا وعن سبب وجودنا في هذا المكان. ألقيت التحية على سيد آسيا وفق الطريقة الشرقية فردّ لي التحية بكياسة ولياقة. كانت جميع الستائر في قصره مزاحة ما أتاح لنا رؤية الزخارف المترفة وهي تلتمع في هذا القصر البديع. كان الجناح المخصص للنساء أو ما يسمّى دار الحريم مقفلاً. إنه جناح هائل، لكن نجهل عدد النساء اللواتي يقمن فيه. عند باب القصر المشرّع على البحر زورقان مذهّبان بشكل كامل يتسع كل واحد منها لأربعة وعشرين مجذفًا. الرسوم التي نقشت على هذه الزوارق تجمع بإتقانها رهافة أوروبا وجلال الشرق. كانت مقدمة أحدهما البالغ طولها خمسة وعشرين قدمًا على الأقل، مصنوعة على شكل بجعة من ذهب، وبدت أجنحتها الذهبية وكأنها تحمل القارب الذهبي على متن الأمواج. في مؤخرة الزورق ديوان حريري رفع على أعمدة من ذهب وهو بمثابة مقعد للسلطان، وقد دثر بشالات الكشمير الفاخرة. أما الزورق الآخر فتشبه مقدمته سهمًا ذهبيّاً بدا وكأنه يطير منفصلاً عن قوسه باتجاه البحر.

حين بتّ بعيدًا عن نظر السلطان، توقفت مليّاً لأتأمل هذا القصر وهذه الحدائق. لا أعرف إذا كان ثمة من قصر ملكي في أوروبا يتحلى بهذا الجلال والسحر. بدا كل شيء فيه وكأنه خارج من يدي فنان، بدا صافيًا، مشعّاً بالألق والألوان البديعة. كانت سطوح القصر محتجبة خلف درابزينات ذهبية. والمداخن نفسها التي تشوه في أوروبا أشكال المباني العامة، كانت مصنوعة من الأعمدة الذهبية المضلعة، تضفي تيجانها الأنيقة جمالاً على هندسة هذا القصر. أعجبني هذا الأمير الذي أمضى طفولته في ظل مخابئ السراي، وحياته في كل يوم مهددة، حيث أقام إلى جانب السلطان سليم أستاذه الحكيم والتعيس الحظ في آن. ثم حمل على العرش إثر وفاة أخيه وانزوى لمدة خمس عشرة سنة في صمت أفكاره مخططًا لتحرير السلطنة وعودة السلام إلى الحكم من خلال القضاء على جنود الإنكشارية، ومنفذًا لخطته ببطولة وهدوء أتاحهما له القدر المحتوم، مستنهضًا باستمرار عزيمة شعبه بهدف إنهاضه من كبوته، مقدامًا جبارًا عند

اقتراب الخطر، رؤوفًا ورحيمًا إذا سمحت له الظروف منصتًا إلى مشاعر قلبه. لكنه للأسف كان يفتقر إلى المخلصين المقربين ولا يملك الوسائل الكافية ليوطّد دعائم الخير الذي يسعى إليه وقد تنكر له شعبه وخدعه باشاواته فدفع إلى إعلان فشله وتخلّى عنه أقرب المقربين فهجروه وساء حظه فسدّت بوجهه جميع المنافذ وانهار عرش السلطنة أمام ناظريه فاستسلم لقدره المحتوم ولنهايته المأساوية واقتنع من دنياه بالملذات التي توفّرها له أجواء البوسفور مقابل سيادته الضائعة. رجل الرغبات الصالحة كان والنزاهة لكنه أيضًا رجل العبقرية الناقصة والإرادة الواهية، شبيهًا بآخر الأباطرة الإغريق الذي يسكن في مقره بالذات ويبدو وكأنه جدير بشعب آخر وزمن أفضل وقادر على الموت بطلاً على الأقل. كان ذات يوم رجلاً عظيمًا. فليس في التاريخ صفحة تضاهي بأهميتها حدث القضاء على جنود الإنكشارية! إنها الثورة التي تسنّى لي أن أراها ولم أشهد مثلها ثورة خطط لها بهذا الصفاء ونفذت بهذه البطولة! ستخلد هذه الصفحة السلطان محمود. لكن لماذا رضي فقط الصفحة ما دامت المهمة الأصعب قد ذللت وجرى القضاء على أعتى طغاة السلطنة ؟ لم يكن ينقصه إذًا سوى الإرادة والمثابرة لكي يعاد إحياء هذه الامبراطورية والتحاقها من جديد بركب الحضارة. لكن محمود توقف في منتصف الطريق. ترى هل لأن العبقرية أشد ندرة من البطولة؟

بعد اجتياز قصر بكلربك، عاد شاطىء آسيا ليكتسي بالغابات من جديد وبدا موحشًا حتى سكوتاري التي لمعت مثل حديقة ورود عند حافة الرأس الذي يشكّل مدخل بحر مرمرة. قبالته، تنبسط التلة المسننة بالقرب من السراي التي تغطّيها الأشجار، وبين شاطئ أوروبا المتوج بمدنه الثلاث المطلية بالألوان وبين شاطئ إسطنبول المتألق بقببه ومآذنه، يمتدّ مرفأ القسطنطينية الهائل حيث لا تترك السفن الراسية على الضفتين إلاّ شارعًا واسعًا لمرور الزوارق. أنساب عبر هذه المتاهة من العمارات البحرية وكأنني في جندول ينزلق في البندقية في كنف القصور. أحط رحالي عند أسكلة «الموتى» تحت جادة تحدّد مسارها أشجار السرو.

٢٣ أيار

في ذلك الصباح، اقتادني شاب من القسطنطينية إلى سوق الرقيق. بعد أن اجتزنا الشوارع الطويلة لإسطنبول التي تحاذي جدران السراي القديم، وبعد أن تجولنا في عدّة أسواق بديعة مزدحمة بحشود لا تحصى من الباعة المشترين، اتجهنا صعوداً في شوارع صغيرة ضيقة حتى وصلنا إلى ساحة قذرة تطل على سوق آخر. سمح لنا بالدخول إلى هذه السوق التي تتاجر بالرقيق بسبب الزي التركي الذي كنا نرتديه. كم لزم الانسان من الوقت، كم من الرؤى المتعاقبة تجلت لعقل الإنسان حتى امتنع عن اعتبار القوة حقّاً واقتنع بأن الاستعباد جريمة وتجديف بحق الإنسانية وبحقه بالذات؟! يا للتقدم الذي أحرزه الإنسان ويا للرقي العظيم الذي أنجزه! كم من الأشياء سلّم بها أسلافنا فيما اعتبرها أحفادهم جرائم نكراء! هذا ما فكرت به وانا أدخل إلى تلك السوق حيث تباع الحياة والنفس والجسد وحرية الإنسان كما يباع العجل أو الحصان أو أية سلعة أخرى، وحيث نحسب أنفسنا المالكين الشرعيين لما ابتعناه. كم من الأمور التي حللها الشرع لا ندرك فداحة معناها! ومع ذلك فهي موجودة، لأننا لا نستطيع على ما يبدو أن نحمّل الإنسان فوق طاقته فهو يسلّم تسليماً أعمى بأن قناعته هي الحقيقة، ولا يملك سواها. الله وحده يملك الحقائق ويوزعها على مراحل متعاقبة متناسبة مع مرحلة الذكاء التي بلغناها.

سوق الرقيق باحة واسعة ومكشوفة ومحاطة بأروقة مسقوفة ومعمّرة. وتحت هذه الأروقة التي يحيطها، لجهة الباحة جدار ساند، أبواب مفتوحة تفضي إلى الغرف التي يحبس فيها النخّاسون رقيقهم. تبقى هذه الأبواب مفتوحة لكي يستطيع المشترون المتجولون أن يشاهدوها بوضوح. يوضع الرجال والنساء في غرف منفصلة. النساء سافرات. وبالإضافة إلى هؤلاء الرقيق المودعين في هذه الغرف المنخفضة، هناك عدد كبير منهم متجمعون في الرواق المعمّد وفي الباحة. رحنا نجول وسط هذه الجماعات المختلفة. وكانت الجماعة الأبرز بينهم فتيات شابات من الحبشة يتراوح عددهن بين

الاثنتي عشرة أو الخمس عشرة فتاة. كن يستندن إحداهن إلى الأخرى كتماثيل الكريتيد اللواتي يحملن إناء فوق رؤوسهن، كن متحلقات وأنظارهن متجهة إلى المتفرجين. وجوههن رائعة الجمال! عيونهن لوزية وأنوفهن دقيقة وشفاههن رقيقة وخدودهن ملساء بيضاوية الشكل وشعورهن سوداء براقة مثل ريش الغراب. أما تعابير نظراتهن الساهمة الحزينة فتجعل من الحبشيات أحد أجمل أعراق النساء بالرغم من لون بشرتهن النحاسي. فهن طويلات القامة، ضامرات الخصور، فارعات القامة كأغصان النخيل الموجود في أرضهن الجميلة، ولأذرعتهن انسكاب مريع. ما من ملابس تستر أجساد هؤلاء الفتيات سوى قمصان طويلة من القماش الخشن والمصفّر. في سيقانهن خلاخل من الدرر الزرقاء اللون. كن يجلسن القرفصاء جامدات ورؤوسهن مسندة إلى أيديهن أو ركبهن. نظرن إلينا نظرات رقيقة حزينة شبيهة بنظرات النعاج التي تسوقها الفلاحات لتبيعها في أسواقنا الشعبية القروية. أحيانًا، كانت إحداهن تهمس بكلمة لرفيقتها فتتبادلان الابتسام. رأيت واحدة منهن تحمل ولدًا صغيرًا بين ذراعيها وهي تبكي لأن التاجر أراد أن يبيعه من دونها لأحد باعة الأطفال بالمفرق. وعلى مسافة غير بعيدة، سبعة أو ثمانية أطفال من الزنوج تتراوح أعمارهم بين الثمانية والاثني عشر عامًا، يرتدون ثيابًا لائقة نوعًا ما وتبدو عليهم دلائل الصحة والرفاهية. كانوا يلعبون معًا لعبة شرقية تقوم على تجميع حصى صغيرة بأشكال مختلفة يضعونها في حفر رملية صغيرة. في هذه الأثناء، كان النخاس والباعة بالمفرق يجولون حولهم، تارة يشترون أحد الأولاد وطورًا يمسكون ولدًا من يده ويتفحصونه من الرأس إلى أخمص القدمين ويكشفون على أسنانه لكي يتأكدوا من عمره وصحته، ثم يعود الولد قافلاً بسرعة إلى إخوانه بعد أن التهى عن ألعابه بعض الوقت. ثم مررت تحت الأروقة المطلة على الباحة المحتشدة بالعبيد والمشترين. كان الأتراك الذين يمارسون هذه التجارة يتنزهون متجولين بين الجماعات وهم يرتدون معاطف رائعة مكسوة بالفرو ويحملون غليونًا طويلاً في أيديهم. كانوا يترصدون، وقد بدا على وجوههم الهم وانشغال البال، لأقل نظرة يرمق بها المارة الرجال والنساء العبيد

الموجودين داخل مخازنهم. لم يجرؤوا على منعنا من الدخول إلى أيّ غرفة والسبب أنهم اعتبرونا عربًا مصريين. كان هناك أيضًا باعة متجولون يبيعون الحلوى والفواكه المجففة ويجولون في الأروقة ليعرضوا على العبيد شراء الطعام. دسست بضعة قروش في يد أحدهم لكي يوزّع سلته على جماعة من الأطفال الزنوج الذين راحوا يلتهمون الحلوى بشراهة. لفتت نظري زنجية بائسة في الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها بجمالها القاسي والحزين. كانت جالسة على أحد المقاعد في الرواق حاسرة الرأس سافرة الوجه وثيابها فاخرة، وسط دزينة من الزنجيات الأخريات اللواتي كن يلبسن الأسمال معروضات للبيع بسعر منخفض جدًا. كانت الزنجية تحتضن بين ذراعيها طفلاً صغيرًا في الثالثة أو الرابعة من عمره، رائع الجمال، مرتديًا هو أيضًا ثيابًا فاخرة. كان الطفل خلاسيّاً، تتشح ملامحه بنبل عظيم، فمه من أظرف الأفواه وعيناه تتقدان بذكاء وإباء قلّ نظيرهما .لاطفته قليلاً وقدمت له حلوى وسكاكر ابتعتها من المخزن المجاور، لكن والدته انتزعت من يديه ما قدمته له ورمته بغضب وعنفوان على الرصيف. كانت غضيضة الطرف ودموعها تسيل على خديها. خلتها تبكي خوفًا من أن تباع منفصلة عن طفلها. وإذ تأثرت لحظها التعيس، رجوت السيد مورلاش وهو مرشدي المهذب أن يشتريها مع طفلها على حسابي. وددت لو أستطيع اصطحابها معي وتربية الطفل الجميل بجوار أمه. توجهنا إلى أحد السماسرة من معارف السيد مورلاش فدخل في مفاوضات مع مالك العبدة الجميلة وطفلها. تظاهر المالك بادئ الامر برغبته الفعلية في بيعها فأخذت المرأة المسكينة تجهش بالبكاء عاليًا وباطراد، وأخذ الطفل الصغير يبكي مطوقًا بذراعيه عنق والدته. لكن هذه المساومة كانت مجرد لعبة من قبل البائع لأنه ما إن هممنا بأن ننقده في الحال المبلغ المرتفع الذي طلبه ثمنًا للمرأة وطفلها، حتى أخذ السمسار على حدة وقال له إن العبدة ليست للبيع وإنها عبدة خليلة لأحد الأثرياء الأتراك، وإن هذا الطفل ابنه. لكن بما أن الزنجية كانت شرسة الطباع أبيّة لا يمكن تدجينها في الحريم، أرسلها سيدها إلى البازار لمعاقبتها وإهانتها وترويض عنادها لكنه أوعز إليه سرّاً بألا يبيعها. وغالبًا ما يلجأ التركي إلى هذا

العقاب عندما يستاء من تصرف إحدى نسائه فيهددها بإرسالها إلى البازار. وهكذا نسينا الأمر.

سرنا بمحاذاة عدد كبير من الغرف التي تضم كل واحد منها أربع أو خمس نساء جميعهن سوداوات وقبيحات لكن بصحة جيدة. أغلبهن بدون غير مباليات بوضعهن لا بل كن يتملقن المشترين. كن يتحدثن فيما بينهن ويضحكن ويبدين ملاحظات تتعلق بوجوه هؤلاء الذين كانوا يتفاوضون بشأنهن. رأيت واحدة أو اثنتين تبكيان وتختبئان في عمق الغرفة وقد أبدتا معارضة شديدة حين طلب منهما سيدهما العودة إلى المنصة حيث كانتا جالستين. شاهدنا العديدات منهن يذهبن مبتهجات برفقة التركي الذي جاء لشرائهن حاملات الصرّة الصغيرة التي تحتوي أغراضهن، ساترات وجوههن بأوشحة بيضاء. شهدت بضعة أعمال برّ وإحسان قام بها مسلمون صالحون تغبطهم عليها المسيحية نفسها، حسب اعتقادي. رأيت أتراكًا يشترون عبدات عجوزات تخلى عنهن أسيادهن بسبب عجزهن وعاهاتهن من أجل تحريرهن. سألنا عن جدوى شراء هؤلاء النساء العاجزات، فأجابنا السمسار: «إرضاءً لله». أعلمني السيد مورلاش أن العديد من المسلمين يرسلون رجالهم إلى السوق ليشتروا عبيدًا فقراء معوقين من الحبشيين لإطعامهم في منازلهم على سبيل الرأفة. وهكذا فإن روح الله لم تفارق الناس تمامًا.

كانت الغرف الأخيرة التي زرناها شبه مغلقة ودخلناها بشيء من المقاومة بعد أن منع علينا ذلك. كانت كل غرفة تحوي عبدة واحدة تحرسها امرأة. كن جميعهن شركسيات وصلن حديثًا من بلادهن، مرتديات الأبيض بدلال وأناقة لافتين. لا تظهر ملامحهن أي حزن أو دهشة، بل بالأحرى لا مبالاة مستخفة بكل شيء. باتت هؤلاء العبدات الجميلات البيضاوات الآتيات من جورجيا أو من بلاد الشركس نادرات جدًا منذ اختفت الروميات من السراي ومنذ أن حظرت روسيا الاتجار بالنساء. ومع ذلك تربي العائلات الجورجية بناتهن للاستعداد لهذه التجارة المعينة، وأحيانًا يتوصل بعض

السماسرة من قطّاع الطرق إلى اصطحاب بعضهن من وقت لآخر. يبلغ ثمن هؤلاء النساء الجميلات بين اثني عشرألف قرش وعشرين ألفًا (أيّ ما يعادل مئة وخمسين أو مئتي فرنكا) كانت إحدى هؤلاء الجورجيات تتصف بجمال مكتمل: ملامحها رهيفة ناعمة، نظراتها عذبة حزينة وبشرتها ذات بياض وألق رائعين. لكن سيماء هؤلاء النساء الآتيات من تلك البلاد لا تقارب بسحرها وصفائها الجمال الموجود لدى العربيات. إذ تشعر أن برد الشمال لا يزال مختبئًا في حنايا هذه الوجوه. بيعت الفتاة الجورجية، بحضورنا، إلى حريم أحد الباشاوات الشبان في القسطنطينية. خرجنا من تلك السوق دامعي الأعين والحزن يعتصر قلبنا مفكرين بهذا المشهد الذي يتكرر كل يوم وكل ساعة في مدن الشرق. اتجهنا ساهمي البال إلى أسواق إسطنبول. تلك هي التشريعات الجامدة! تلك التي تكرس الهمجية الغابرة القديمة قدم الأزمنة وتعطيها حق الأقدمية والشرعية. إن متزمتي الماضي السحيق مذنبون ومضرون بالبشرية مثلهم مثل متزمتي المستقبل. متزمتو الماضي يدمرون الإنسان بجهلهم وذكرياتهم ومتزمتو المستقبل يدمرونه بآمالهم الواهمة ولهفتهم النزقة. لو أن الإنسان يفعل ويفكر بما فعل وفكر وآمن به أسلافه لما استطاع الجنس البشري كله أن يتحرر من التبعية والاستعباد. العقل شمس ساطعة لا تقهر وهو الذي يجعل الحقائق الالهية تتجلى حقيقة تلو الحقيقة فتنير الجماعات. يجب السير مهتدين بنور العقل وإلاّ بقينا في الشر والجهالة، شرط ألا نتجاوز الحدود لئلا نقع في المهاوي. يجب أن نفهم الماضي دون التحسر عليه وان نتقبل الحاضر من خلال إصلاحه وتحسينه ونتحضر للمستقبل بالأمل والرجاء. تلك هي شريعة الناس الحكماء ومؤسسات البر والإحسان. إن الخطيئة التي ترتكب بحق الفكر المقدس والتجديف عليه تتمثل في هذه المعركة التي يشنها بعض الناس للحؤول دون التطّور الإيجابي للأمور، في هذا الجهد الأناني الأحمق الذي يبذلونه لكي يعيدوا دومًا العالم الأخلاقي والاجتماعي إلى الوراء فيما الله والطبيعة يدفعانه قدمًا إلى الأمام. الماضي هو قبر الإنسانية المنهارة، يجب احترامه ولكن عدم التقوقع داخل جدرانه مرغمين أنفسنا على العيش فيه..

تقع الأسواق الكبيرة، سواء كانت تبيع السمانة أو السلع على اختلافها في أروقة طويلة واسعة مبنية على شكل قناطر وتحف بأرصفتها المحال المزدحمة بكل أنواع البضائع من لأمات وأسرجة وحليّ ومأكولات ومصنوعات جلدية وأوشحة من الهند وبلاد فارس وأقمشة من أوروبا وسجاجيد من الشام وأرمينيا وطيوب وعطور من القسطنطينية ونراجيل وغلايين من جميع الأشكال والزخارف مع العنبر والمرجان المنحوتين لكي يستعمل الشرقيون التنباك وبسطات التبغ المقطع أو المطوية كمواعين من الأوراق الصفراء ومحال الحلويات الشهية الأشكال والأنواع والمحامص الجميلة مع ما فيها من ملبس وسكاكر وفواكه مجففة والعطارات التي تنبعث روائحها النفاذة لتملأ الأسواق كلها والمشالح العربية المنسوجة بخيطان الذهب ووبر الماعز ومناديل النساء المطرزة بشذرات الفضة والذهب. ووسط هذا كله حشود هائلة متجددة باستمرار من الأتراك المترجلين، الحاملين غلايينهم في أفواههم أو في أيديهم وخلفهم العبيد والنساء المحجبات اللواتي ترافقهن زنجيات يحملن أولادًا جميلين. أو ترى باشاوات ممتطين أحصنتهم وهم يتجاوزون على مهل هذه الجموع المسرعة الصامتة، أو عربات تركية، يقودها حوذيون ذوو لحى طويلة بيضاء، وخلف شعرياتها الموصدة الذهبية تقل نساء كثيرات كن يتوقفن من وقت لآخر لكي يساومن عند أبواب بائعي الحليّ. وهذه الأسواق التي تتلامس فيها أجساد المارة بسبب الازدحام وحيث يبسط اليهود ملابس المصابين بالطاعون ويبيعونها هي الوسيلة الأكثر فعالية لنقل العدوى. سمعنا عن خمس أو ست اصابات قاتلة بالطاعون في بيرا ومررنا وسط هذا الحشد الذي يمكن للطاعون أن يقضي عليه غدًا وقلوبنا تسودها الخشية.

١٨ حزيران ١٨٣٣

أمضيت النهارات أطالع وأقرأ في مقر إقامتنا المنعزل في بيوكديريه وقبالتي البوسفور والبحر الأسود. عند المساء، كنت أقوم بنزهات في الزورق إلى القسطنطينية وبلغراد وغاباتها الرائعة وإلى شاطئ آسيا ووادي الورود الواقع خلف جبال بيوكديريه. غالبًا ما كنت أذهب إلى هناك، إلى الوادي العذب الذي يرويه نبع زلال يأتي إليه الأتراك

لينتشوا بمائه المنعشة ورائحة وروده وأناشيد بلابله. فوق النبع خمس أشجار هائلة الحجم تظلل مقهى له مرتادوه المفضلّون. ثم فيما يتعدى النبع يضيق الوادي ويفضي إلى منحدر في الجبل تهجع فيه بحيرتان صغيرتان اصطناعيتان تجمعتا من المياه المتساقطة من النبع، تحت القناطر الفسيحة لأشجار الدلب. عند المساء، تأتي الأرمنيات مع عائلاتهن ويجلسن على ضفاف البحيرتين لتناول العشاء. تتحلق هذه المجموعات البشرية الساحرة حول جذوع الأشجار. وتبدأ الصبايا بالرقص معًا. إنها المتع المحتشمة الصارمة للشرقيين التي تبدو وكأنها متع لذاتها. يبدو أن المشرقيين يشعرون بروح الطبيعة أكثر منا نحن الغربيين. ليس للشجرة والنبع عبّاد يقدمون لهما طقوس الإجلال والاحترام مثل الشرقيين. ثمة انسجام عميق بين أرواحهم وجمالات الأرض والبحر والسماء. عندما أعود مساءً من القسطنطنية في زورقي وأسير بمحاذاة ضفاف شاطىء أوروبا في ضوء القمر، أجد حلقة من النساء والصبايا والأطفال الجالسين بصمت على ضفاف الرصيف المصنوع من الغرانيت أو على أسيجة جلول البساتين، يمضون هناك ساعات وهم يتأملون البحر والغابات والقمر متنسمين هدوء الليل. إن شعبنا الغربي لا يشعر بشيء من هذه الملذات الطبيعية. لقد استنفد لذّة حواسه ويحتاج إلى ملذات مصطنعة ولعلّ الرذائل وحدها تثير انفعاله. إن الأشخاص الذين لا يزالون يصغون إلى صوت الطبيعة فيفهمون لغتها ويجلونها هم وحدهم الحالمون والشعراء، إنهم أهل التعاسة الذين يكفيهم فقط صوت الله في مخلوقاته المتجسّدة في الطبيعة والحب والتأمل الصامت.

التقيت في بيوكديريه وتيرابيا أشخاصًا عديدين من معارفي ومن بينهم الروس والدبلوماسيون أمثال الكونت أورلوف والسيد بوتينييف، سفير روسيا في القسطنطينية، وهو رجل ساحر وذو خلق رفيع وفيلسوف ورجل دولة. كما غمرني البارون دوستورمر، وهو القاصد الرسولي لدى النمسا، بلطفه. كان يعلم الكثير عمّا يجري من احداث سياسية في أوروبا. والحدث الأهم الآن هو هل سينسحب الروس المعسكرون في آسيا والمرابطة سفنهم على شواطىء القسطنطينية؟ بالنسبة لي، لا أشك

في ذلك. ثم إن لا شيء يدعوهم للعجلة فالفريسة محاصرة ولا يمكنها الإفلات من الصياد. سلّمني الكونت أورلوف بالأمس رسالة رائعة لأقرأها وقد أرسلها له الإمبراطور نيقولا. ذاك هو معناها: «عزيزي أورلوف، عندما تضع العناية الإلهية رجلاً على رأس أربعين مليون رجل، فهذا لكي يكون من أعلى عرشه مثالاً للعالم في النزاهة وشرف الكلمة. أنا هو ذلك الرجل: أريد أن أكون جديرًا بالمهمة التي أوكلني إياها الله. ما إن تُسوى الأمور العالقة بين إبراهيم باشا والسلطان، لا تنتظر يومًا إضافيّاً: أرجع أسطولي وجيشي». ذاك هو المنطق السليم لرجل الدولة يحيط بالأمور من كافة جهاتها ويتعامل معها بنبل أصيل. لن تنتقل القسطنطينية من مكانها وسيعود إليها الروس الذين لا تمنعهم طموحاتهم السياسية عنها إلا لفترة قصيرة.

٢٠ حزيران

تعرفت أيضًا إلى رجل محب ومميّز، أحد الرجال المحظوظين الذين يتحدون سوء طالعهم فيركبون الموجة التي ستغرقهم لكنها تعيدهم إلى الشاطىء سالمين. كان السيد كالوسو ضابطًا من بيامون وقد تورط كمعظم رفاقه في أحداث الثورة العسكرية عام ١٨٢٠. بعدئذٍ، نُبذ كالآخرين وبات دون ملجأ وغير مرغوب فيه أينما كان فأتى إلى تركيا. مَثَل أمام السلطان وعرض عليه أن يتولى تأهيل فرقة خيالته، ثمّ ما لبث أن أصبح أميرًا لديه ومستشاره العسكري. كان السيد كالوسو حذقًا ومتحفظًا وحصّل لنفسه خطوة مرموقة من شأنها إثارة الغيرة والحسد ضده. لكن نبله وتودده أعجبا باشاوات البلاط ووزراء الديوان. فأقام علاقات صداقة في كل مكان وعرف كيف يحافظ عليها بنفس المقدرة التي أتاحت له إقامتها. أعلى السلطان من مقامه دون أن يطلب منه التنكر لجنسيته أو لدينه. وهو الآن بالنسبة للأتراك رستم بك ولكل الإفرنج إفرنجي لطيف ومحبب. بحث عني وقدّم لي كل ما يمكن أن تجيزها له علاقاته الأليفة بالديوان والسراي : الوصول إلى كل الأماكن ومصادقة الضباط الأساسيين في البلاط وتسهيلات لرؤية كل شيء ومعرفته إلى حدّ أن أحدًا من الرحالة المسيحيين لم يستطع الحصول على هذا الامتياز الذي حظيت به بمن فيهم القناصلة. تحضرت بفضل

مساعدته لزيارة مطوّلة للسراي الذي لم يُدْخِلْ أحداً إليه منذ الليدي ورتلي مونتاغو. سنحاول إذًا غداً اجتياز هذه الدار المكتنفة بالأسرار سوية، هذه الدار التي يجهلها السيد كالوسو نفسه على الرغم مما لديه من علاقات مع كبار ضباط القصر .

بدأنا بزيارة نامق باشا، أحد الشبّان ذوي الحظوة لدى السلطان. دعاني نامق باشا لتناول العشاء في ثكنته في سكوتاري واضعًا بتصرّفي خيوله بهدف زيارة جبال آسيا. وكان في ذلك النهار يؤدي واجبه في قصر السلطان في بكلربك، على ضفاف البوسفور. نزلنا من مركبنا. سُمح لنا، بفضل مركز رستم بك وعظمته أن نجتاز الأبواب ونجول في الأماكن التي يسكن فيها السلطان. كان السلطان يتهيأ للذهاب إلى مسجد صغير في إحدى القرى في أوروبا على الضفة الأخرى من البوسفور قبالة قصر بكلربك. رأينا زوارقه المجهزة بكل أبهتها راسية على طول الشاطىء الذي يحيط بالقصر، وكانت خيوله العربية، بكامل جلالها مرابطة في الباحات برفقة سائسيها، وجاهزة ليمتطيها السلطان خلال اجتيازه الحدائق. دخلنا جناحًا من القصر منفصلاً عن المقر الأساسي، حيث يمكث الباشوات وضباط الخدمة وهيئة الاركان عبرنا قاعات واسعة، حيث كانت تمر مجموعات من العسكر والموظفين والعبيد. كان كل شيء يضج بالحركة وكأننا في احتفال يجري في إحدى وزارات أوروبا أو أحد قصورها. لم يكن أثاث القصر فاخراً: دواوين وسجاجيد ونقوش مطلية على الجدران وثريات من الكريستال، لا غير. ولم يكن هناك أزياء شرقية، لا عمامة ولا معطف أو سروال فضفاض أو حزام أو قفطان ذهبي. لقد تخلى الأتراك عن كل ذلك معتمدين زيّاً أوروبيّاً خاليًا من الذوق مخاطًا بشكل سيئ وملبوسًا بشكل أسوأ. وهكذا تغيرت الطلة المهيبة والعظيمة لهذا الشعب لتصير محاكاة مضحكة لزي الإفرنج. فقط نجمة الألماس التي تلتمع فوق صدر الباشوات والوزراء كانت الزينة الوحيدة التي تميزهم وتذكر بمجدهم الغابر.

اقتادونا عبر قاعات عدّة مكتظة بالناس، وصولاً حتى صالون صغير يطل على الحدائق الخارجية لقصر السلطان. هنا، وافانا نامق بك فجلس معنا وأمر بإحضار

الغليون لنا والمشروبات المثلجة. ثم عرّفنا على عدة شبان من الباشاوات الذين كانوا يتمتعون مثله بحظوة لدى السلطان. انضم ضباط النظام الكبار أو فرق الحرس النظامية إلينا وتبادلوا معنا أطراف الحديث. كان نامق – باشا العائد حديثًا من سفارته في بطرسبورغ يتكلم الفرنسية بذوق وسهولة، وكانت تصرفاته، التي تعلّمها من الروس، تصرفات دبلوماسي أوروبي أنيق. بدا لي مرهف الحس عاقلاً نبيهًا. وكان خليل باشا أو الكابتن – باشا، المتزوج ببنت السلطان، يتحدث الفرنسية بشكل متقن، وكذلك أحمد باشا وهو عثماني أنيق يمتاز بالكثير من سمات الأوروبيين.

لا شيء في هذا القصر كان يوحي بأنه قصر آسيوي ما عدا العبيد السود والخصيان وشعريات الحريم والظلال الجميلة ومياه البوسفور الزرقاء التي تقع عليها أنظارنا حين ننظر إلى الحدائق. تحدثنا بتحفظ، لكن بصراحة عن أحوال المفاوضات بين مصر وأوروبا وتركيا والنجاحات التي تحققت والتي يجب أن يحققها الأتراك في ميدان التكتيك والتشريعات وأيضًا عن سياسة الدول العظمى المختلفة حيال تركيا. ليس هناك في هذه الأحاديث ما يمكن أن نصفه بأنه حديث عن البرابرة إلى البرابرة، ولم نشعر بأن مسامع السلطان نفسها، وهو ظل الله على الأرض، قد تتناهى إليها همسات أحاديثنا فتخدشها بأي شكل من الأشكال. لم يكن الحوار الذي يدور بيننا بأقل حميمية أو عمقًا من ذلك الذي يجري في صالونات لندن أو فيينا. كان هؤلاء الرجال الشبان الشغوفون بالاهتداء بأنوار العقل والتطور، يتكلمون عن أوضاعهم وأنفسهم بنبل وتواضع مؤثر.

لدى حلول موعد الصلاة، استأذنا مضيفينا وأرجأنا لوقت آخر طلب مثولنا أمام السلطان مباشرة. عهد نامق – باشا بأمرنا إلى عقيد في الحرس الامبراطوري وأوكل إليه أن يدخلنا إلى الباحة الأمامية للمسجد حيث سيتوجه السلطان. عبرنا البوسفور وأنزلنا عند باب الجامع الصغير أي عند الأدراج التي تفضي اليه. بعد عدة دقائق، سمعنا دوي المدافع المنطلق من الأسطول والقلاع والذي يعلن للعاصمة أن السلطان يؤم المسجد كل نهار جمعة. رأينا الزورقين الامبراطوريين يتركان ضفة آسيا ويعبران

البوسفور مثل الأسهم. ما من زينة خيول أو عربات بوسعها أن تضاهي الترف الشرقي لهذه الزوارق المذهبة التي تندفع مقدماتها، مسافة أربعة أو عشرين قدمًا إلى الأمام، مثل نسور ذهبية. كان المجدفون يرفعون سوية مجاذيفهم المنبسطة كأجنحة طيور عملاقة ثم ينزلونها، فيعلو وشاح من الزبد على دفتي الزورق. ما من ترف يمكنه أن يضاهي أخيرًا هذه المقصورة المغلفة بالحرير والذهب والريش حيث يجلس السلطان على عرش من الكشمير بالقرب من الستائر المثنية، وعند ركبتيه، يسجد أميرالاته وباشاواته. حين لامس الزورق الضفة، انطلق السلطان منه بخفة، مسندًا يديه إلى كتف أحمد ونامق باشا. حينئذٍ بدأ حرسه المصطفون قبالتنا في فناء المسجد، يعزفون له موسيقى التعظيم ودخل سريعًا وسط صفين من الضباط والمشاهدين.

كان السلطان محمود في سن الخامسة والأربعين، متوسط القامة، أنيقًا ونبيلاً، عيناه زرقاوان ونظرتهما رقيقة، بشرته سمراء ملوحة وفمه ظريف وحديثه عذب، لحيته سوداء لامعة مثل السبَج تنسدل كثيفة فوق صدره وهي ما بقي من الزي الوطني الذي حافظ عليه، وفيما عدا ذلك يمكن اعتباره أوروبيًا، بما فيه القبعة. كان يرتدي بنطالاً وجزمة وردنغوت بنية اللون وهي سترة طويلة ويلف حول عنقه طوقًا مزدانًا بالألماس ويعتمر قلنسوة حمراء صغيرة من الصوف تعلوها شرابة على شكل بلوطة مرصعة بجواهر نفيسة. كانت مشيته متقطعة ونظراته حائرة وكأن صدمة اعترته أو أمرًا أو هاجسًا خطيرًا يشغل باله. تحدّث بحيوية واضطراب إلى الباشاوات المرافقين له ثم تقدم منا متمهلاً في خطوته وعندما أضحى عند مدخل الباب، رمقنا بنظرة احتفاء وأحنى رأسه قليلاً مشيرًا بحركة إلى نامق - باشا ليستلم مذكرة استرحام كانت تقدمها له امرأة تركية محجبة، وبعدها دخل المسجد. مكث هناك عشرين دقيقة، وأثناء ذلك، عزفت الفرقة العسكرية الموسيقية مقاطع أوبرالية لموزار وروسيني. خرج السلطان ووجهه مشرقٌ صاف ثم ألقى التحية يمنة ويسرة متقدمًا باتجاه البر وانطلق في مركبه ضاحكًا. ما هي سوى لحظات حتى رأيناه يطأ بقدميه ضفة آسيا ويدخل حدائقه في قصر بكلربك.

يستحيل على المرء أن يتجاهل سيماء وجه السلطان محمود وألا تتولد في باله أصدق التمنيات بالنجاح والتوفيق لهذا الرجل الذي تشي سماته بحيوية رجولية وإحساس عميق. لكن، ويا للأسف إنها تمنيات حزينة إذ نتحسر عندما نفكر بالمستقبل القاتم الذي ينتظره. لو كان فعلاً رجلاً عظيماً لعمل على مواجهة قدره وتغلب على المصاعب والعقبات التي تواجهه. ربما كانت الفرصة لا تزال سانحة، فما دام الشعب لم يمت وما دام يستمّد من ديانته ووطنيته مبادئ القوة والانبعاث، يمكن والحالة هذه، إذا توافر له قائد ذكي وحاذق وقوي أن يستوحي المبادئ ويبثها في النفوس ويعيد إحياءها ويحقق بواسطتها التحول المجيد المنشود، لكن محمود ليس رجلاً كبيرًا إلا بشجاعته وشدّة بأسه. فهو مقدام وباسل في القتال والموت لكن ما إن يتوجب الأمر تحركًا وإدارة حكيمة حتى تضعف إرادته. وأيّاً يكن قدره فالتاريخ سوف يرثي لحاله وسيكرمه. سعى لتحقيق أمور كثيرة وأدرك أن الموت سيواجه شعبه إن لم يقدم على تغييرات جذرية، فانهال بفأسه على الأغصان اليابسة وانتزعها من الشجرة لكنه لم يعرف كيف يحيي العصارة ليستمر ما بقي صامدًا من هذا الجذع السليم الحيويّ. هل الذنب ذنبه؟ أجل، أظن ذلك. فالأمور الأخرى التي استلزمت معالجة لا تعد شيئًا بالمقارنة مع قضائه على جيش الانكشارية. والأسوأ من ذلك أن أوروبا المترددة والعمياء، امتدحت جبنه وجموده وشجعته عليهما. وهكذا فإن فرصًا مؤاتية ضاعت وأعوامًا مرّت هباء. ثم إن ابراهيم باشا القائد الجسور استغلّ ضعف ثقة السلطان ليزيد حظوته لدى الناس. عندئذٍ قبلت السلطنة العثمانية الحماية التي قدمتها روسيا. لكن هذه الحماية المهينة التي يقدمها عدو بديهي لصدّ عبد متمرد أثارت استنكار الإسلاميين المتشددين. لم يبق للسلطان محمود إلا شجاعته بالذات لا سيما أن أناسًا متملقين وخونة يحيطون به، وأن فتنة صغيرة قادرة على إزاحته عن عرشه وإغراق السلطنة في فوضى نهائية. مصير الإمبراطورية العثمانية منوط بحياة السلطان محمود فما إن يسقط حتى تسقط السلطنة. عظيم ومحتوم قدر هذا الأمير الذي سيأخذ معه في حال سقوطه أجمل نصفين في أوروبا وآسيا!

٢١حزيران / يونيو ١٨٣٩

عند الساعة الحادية عشرة، نزلنا عند مدخل السراي القديم، ثم دخلنا إلى الشوارع المحيطة به. زرت خلال مروري ديوان الباب العالي وهو قصر فسيح يتخذه الصدر الأعظم مقراً له و تتم فيه مناقشة الشؤون السياسية للسلطنة. لا شيء فيه يثير الانتباه سوى الانطباع عن الأحداث التي كان هذا المكان مسرحًا لها. لكن لا شيء في خصائص البناء يذكر بالمآسي الدامية التي دارت هناك.. إنه قصر كبير من الخشب المطلي المزدان بدرج خارجي تعلوه سقيفة أمامية مقطعة ومخرمة على الطراز الهندي والصيني. القاعات فارغة ومفروشة بالبسط. ومنها نزلنا إلى المكان الذي كان فيه باب السراي يفتح ليقذف برؤوس الوزراء المقطوعة أو حتى السلاطين. عبرنا هذا الباب دون عوائق. رأينا الجمهور يدخل إلى أول باحة في السراي وهي شاسعة مزروعة بمجموعات عدة من الأشجار الجميلة التي تنحدر يسارًا نحو ديوان المال وهو بناء متقن الصنع حديث الهندسة لا يحمل أي سمات مشرقية. استقبلنا الأرمن، مدراء المال، وفتحوا لنا الأدراج حيث وضعت الجواهر التي صقلوها للسراي. مجموعة كبيرة من الجواهر والألماس تشكل ثروات طائلة تفلس إمبراطورية بحالها ! ما إن تنتشر المدنية في بلد حتى تتم مقايضة هذه الموجودات المثالية من الثروة المنقولة بالغنى الحقيقي الذي يجسّده الإنتاج الاقتصادي والملكية العقارية والأموال غير المنقولة. مكثت قليلاً هناك ثم دخلنا آخر باحة في السراي، تلك التي يحظر على الجميع دخولها ما عدا موظفي السراي، والسفراء خلال ممارسة مهامهم الرسمية . هذه الباحة محاطة بعدة أجنحة وهي بمثابة مقصورات مكوّنة من ظلات متباعدة فيما بينها وبمساكن الخصيان والحرس والعبيد. كانت نوافير المياه فيها وظلال الأشجار تضفي على المكان برودة وانتعاشاً. عندما وصلنا إلى الباب الثالث، رفض الحراس بشكل مطلق السماح لنا بالدخول. عبثًا حاول رستم بك التعريف عن نفسه أمام الحارس التركي الذي اعترض متذرعًا بالتعليمات التي أعطيت له قائلاً إنه يعرض حياته للخطر إذا أذن لنا

بالدخول. عدنا أدراجنا بأسى حتى التقينا بالخازندار، وهو مسؤول عن أموال الخزانة، الذي كان عائدًا من بيت المال ويهمّ بالدخول إلى مبنى السراي، حيث يقيم . صافح رستم بك الذي كان صديقًا له واستعلم عن سبب إرباكنا، ثم قال لنا «اتبعوني»، وأدخلنا دون أي مشقة إلى باحة الضباط السلطانيين. هذه الباحة، الأقل اتساعًا من الباحات السابقة، مؤلفة من عدة قصور صغيرة على شكل أكشاك مع أسقف منخفضة جدّاً تبعد عن الجدران مسافة سبعة أو ثمانية أقدام وتستند إلى أعمدة صغيرة أو ركائز مغربية مصنوعة من الخشب المطلي. الأعمدة والركائز والجدران والسقوف مصنوعة هي أيضًا من الخشب المصقول أو المطلي بعدة ألوان. زرعت الباحات والحدائق في المساحات الفارغة ما بين الأكشاك المنتشرة عشوائيّاً في المكان بأشجار جميلة جدّاً متفاوتة الحجم وتتدلى أغصانها فوق المباني وتحرس السطوح والشرفات. في الجناح الأيمن من هذه المباني، تقع المطابخ وهي أبنية ضخمة تكشف مداخلها الكثيرة وجدرانها الخارجية التي سوّدها الدخان عن وجهة استعمالها. لنا أن نتخيل ضخامة هذا المبنى حين ندرك أن السلطان يوفّر الطعام لجميع الأشخاص المرتبطين بالبلاط والقصور وأن عدد الذين يتناولون الطعام يرتفع إلى أكثر من عشرة آلاف في اليوم. وعلى مسافة أبعد قليلاً من المطابخ، يوجد قصر صغير أخّاذ، محاط بأروقة معمدة في الطابق الأرضي، وهو خاص بخدم السراي أو بالضباط السلطانيين. في هذا القصر بالذات، يعمل السلطان على تنشئة وتعليم أولاد عائلات البلاط أو العبيد الشبان المؤهلين بتولي الوظائف في السراي أو السلطنة. هذا القصر الذي كان فيما مضى مقرّاً للسلطان نفسه، مزدان من الخارج والداخل بنقوش ومنحوتات ونواتئ ذهبية تنم عن ذوق رفيع. السقوف غنية بالزخارف وكأنها أفضل وأجمل قصور فرنسا أو إيطاليا. الأرضية مكسوة بفسيفساء، والقصر مقسوم إلى قاعات عدة متساوية الاتساع تقريبًا بحيث تتوزّع يمينًا وشمالاً حجيرات أو دواوين مصنوعة من الخشب المنحوت شبيهة بالكراسي الرفيعة الإتقان الموجودة في كوارس كاتدرائيتنا القديمة. تؤلف كل واحدة منها غرفة للضباط السلطاني، توجد في عمق الحجيرة منصة حيث

تطوى السجاجيد والأحرمة. ودرج من الخشب المذهّب حيث يعلق ثيابه أو يطويها. وفوق هذه الدواوين منصة بارزة، مقسومة قسمين ومزخرفة تحوي دواوين كتلك التي في القاعة السفلى. ينفذ النور إلى القاعات كلها عبر قبب أو كوى صغيرة موجودة في أعلى الصرح. استقبل الضباط السلطانيون الشبان رستم بك، وهم تلاميذه القدامى، بفرح وحبور عظيمين وكأنهم يستقبلون أبًا منتظرًا. أثرت فيه مودة الفتيان الرائعة وطهارة قلوبهم حتى انهمرت دموعه على وجنتيه. وكنت متأثرًا أنا نفسي حيال حركاتهم العفوية ومشاعرهم الصادقة. كانوا يشدّون على يديه بأيديهم ويقبلون أطراف سترته الطويلة.

صرخوا به الواحد تلو الآخر قائلين: «رستم بك! رستم بك!» وسارع الجميع للقاء صديقهم مرتعشين، متوردي الوجنات لشدة الانفعال والغبطة. لم يستطع التملص من ملاطفاتهم ولا من كلامهم العذب: «رستم بك لماذا تركتنا كل هذا الوقت؟ كنت لنا أبًا. ما أتعسنا في غيابك. إليك يعود الفضل في كل ما نعرفه. الله والسلطان بعثا بك إلينا لتخلق منا رجالاً. فنحن لم نكن سوى عبيد وأولاد عبيد. كانت كنية العثمانيين بمثابة شتيمة ومدعاة للسخرية في أوروبا. الآن فقط بتنا نعرف كيف ندافع عن هذه الكنية ونفتخر بها. لكن، تحدث إلى السلطان ليعيدك لنا. ما عدنا نرغب في متابعة دروسنا وقد أصابنا الملل والحزن!».

خمسة أو ستة من هؤلاء الفتيان، ذوي السمات الهادئة الصادقة والملامح الذكية الفاتنة، أمسكوا بيدنا واقتادونا إلى كل الأمكنة ثم أعادونا إلى قاعة الاستراحة وهي كناية عن ظلة محاطة بنوافير مياه متدفقة من الجدران وتصبّ في بركة رخامية. تحيط الدواوين بالمكان، وثمة درج خفي محفور في سماكة الجدران يفضي إلى غرف الخدم حيث يعمد عدد من العبيد، للاهتمام دون كلل بإشعال الغلايين وتقديم القهوة والمشروبات والمثلجات والماء تلبية لرغبة الضباط والسلاطين وتنفيذًا لأوامرهم. قدّموا لنا المشروبات والمثلجات واستلقينا على الدواوين وبدأنا نتحدث بإسهاب عن دروسهم

وتطورهم في مهنتهم وعن سياسة أوروبا ومصير السلطنة. كانوا يتحدثون بشغف ويتحسرون على ما آلت اليه أوضاع السلطنة الحالية معبرين عن تمنياتهم الصادقة حيال السلطان ومطلقين الدعوات لإنجاحه في خططه الإصلاحية الآيلة إلى تحديث البلاد. لم أشهد أبداً في حياتي نظيراً لتلك الحماسة المتوهجة التي تلهب قلوب هؤلاء الفتيان التواقين إلى النهوض ببلادهم مجدداً. حتى إنهم يفوقون شبان إيطاليا اندفاعة عندما نحدثهم عن الاستقلال وأنوار الحداثة. كانت وجوه هؤلاء الشبان تضيء حين نتحدث إليهم وكانت أعمارهم تراوح بين العشرين والاثنتين والعشرين سنة على الأكثر، ولا تقل عن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وباستثناء وجوه الأيتام أبناء جنود البحرية الذين رأيتهم في المأوى العسكري في غرينويتش، لم يسبق لي أن رأيت وجوهاً أجمل من وجوه بعض هؤلاء الفتيان. لم يشاءوا أن نرحل وأصروا على مرافقتنا إلى كل الحدائق والأكشاك والباحات التي يسمح لهم بالدخول إليها. اغرورقت عيون بعضهم بالدمع حين هم رستم بك بالمغادرة. في هذه الأثناء أمر الخازندار الخصيان وحراس الحدائق والقصور بأن يسمحوا لنا بالمرور والدخول أينما نشاء. في آخر الباحة، وعلى مسافة ليست بالبعيدة عن قصر الضباط السلطانيين، يوجد قصر فسيح يحجب الرؤية ويقطع المرور في آن، تحيط به الظلاّت والقصور الشبيهة بالتي سبق لنا زيارتها وأمامه رواق مسقوف يمتد سطحه بموازاة عن الجدران، وتشرف عليه أبواب المساكن العديدة ونوافذها. ليس للقصر سوى طابق سفلي واحد. ولجنا القاعات الكبيرة التي هي بمثابة مداخل وغرف انتظار. كانت أشبه بمتاهة مؤلفة من الركائز التي تستند اليها السقوف والسطوح، ومنها نعبر إلى ممرات دائرية واسعة من أجل تأمين الخدمة للمساكن. كانت الدعائم والسقوف والجدران جميعها من الخشب المطلي تزيّنه نقوش مغربية الطابع. أمّا أبواب الغرف الإمبراطورية فمشرعة على مصراعيها وهي كثيرة العدد ومتشابهة الموقع والسقوف المنقوشة والمذهّبة. ينساب ضوء النهار من القبب المزدانة بالخشب أو بالرخام والمرصعة بزخارف عربية، خفيفاً موشحاً بألوان زاهية الجدران التي تحيط بها دواوين فسيحة ومنخفضة. لا وجود لأي أثاث، لأي مقاعد سوى السجاجيد والبسط

والطنافس. النوافذ تبدأ على علو نصف قدم من أرض الغرفة وتطل على الباحة والأروقة والحدائق: هذا كل شيء. في الجهة المقابلة للقصر الذي دخلنا إليه، سطيحة معبدّة ببلاط من الرخام. ثمة ظلة جميلة يجلس فيها السلطان عندما يستقبل السفراء وتفصلها عن القصر عدة قامات، وهي ترتفع عن السطيحة بضعة أقدام وتشبه مصلى صغيرًا مغربي الطابع، تحيط بها الدواوين من كل جهة وتزيّنها نوافذ دائرية مشرعة على القسطنطينية والمرفأ وبحر مرمرة والبوسفور. يا للمنظر المسرّح على الأفق البديع! تتدفق المياه من النوافذ الرخامية مشرئبة على أرض الرواق المفتوح بين الظلة والقصر. إنها نزهة ممتعة. تغطي أغصان الشجيرات والورود في الحدائق الصغيرة الشرفات المنخفضة وتنساب على الدرابزونات والشعريات معطّرة أجواء القصر. كانت بعض اللوحات الرخامية أو الخشبية معلقة على الجدران وتمثل مناظر مكة المكرمة والمدينة المنورة. تأملتها بفضول.. كانت متطابقة تمامًا لوصف علي بك عن مكة المكرمة والكعبة المشرّفة وكيفية انتظام هذه الصروح المختلفة المقدسة في المدينة المنورة. تثبت هذه الرسومات أن هذا الرحالة قد زار الأماكن المقدسة حقّاً .

حين نتتبّع سطيحة القصر شمالاً، نبلغ عبر شرفة ضيقة مستندة إلى جلول عالية، دار الحريم أو قصر السلطانات. كان مقفلاً ولم يبق فيه سوى عدد قليل من الجواري. لم نقترب كثيرًا من هذا القصر المحتجب عن الأنظار. رأينا فقط النوافذ المشبكة والشرفات الجميلة المزدانة بالشعريات ومغالق النوافذ التي تعانقها الأزهار. وراء هذه الجدران، تمضي النساء نهارهن بتأمل الحدائق والبحر والمدينة. جلنا بنظرنا على عدّة مساكن محاطة بجدران من الرخام ومروية بنوافير مياه ومزروعة بإتقان وانتظام بعدة أصناف من الأزهار والشجيرات العطرة. في هذه الحدائق التي نصل إليها عبر السلالم، المتصلة ببعضها البعض، ظلات أنيقة حيث تتنزه حرم السلطان وأولادهن متمتعين بمناظر الطبيعة الخلابة. كنا وصلنا إلى أعلى موقع في السراي بحيث تعود الطريق لتنحدر بنا وببحر مرمرة. إنها التلة الأكثر ارتفاعًا وسط هذا المكان

النادر من العالم، وحيث يستطيع الناظر أن يرى بالعين المجردة كل روابي القسطنطينية وبحورها. توقفنا طويلاً للتمتع بهذا المنظر المعاكس لذلك الذي وصفته من أعالي مقصورة بيرا. وفيما كنا جالسين على هذا الموقع المشرف من القصر، دقت ساعة العشاء. رأينا عدداً كبيراً من العبيد يمرون أمامنا حاملين على رؤوسهم أطباقًا كبيرة مليئة بالطعام للموظفين والضباط والخصيان ونساء السراي. شاركنا بعدة مآدب عشاء مماثلة مكونة من مناسف وطيور وكبة ومحشي وورق عنب وأرغفة خبز شبيهة بالمقمعات وإبريق من الماء. كان العبد يقتفي أثر سيده أينما كان، حاملاً له طبق الطعام، سواء كان في زاوية من قاعة القصر أم على الشرفة أو في ظل أحد السقوف أو تحت شجرة في الحديقة أو قرب نافورة ماء .

أتى الخازندار لرؤيتنا واصطحبنا إلى الظلة التي يقيم فيها قبالة خزينة السراي. بيت المال هذا، حيث تتدفق ثروات هائلة لا تحصى منذ أنشئت الامبراطورية، كناية عن مبنى كبير من الحجارة يتقدمه رواق معمد.لا يعلو المبنى إلا قليلاً عن سطح الأرض، أبوابه منخفضة والغرف سفلية. خزائنه الضخمة من الخشب المطلية بالأحمر تحتوي على العملات الذهبية والنقدية. في كل أسبوع، يسحب منها القليل لخدمة الامبراطورية، وكان هناك عدد كبير منها في الرواق المعمد. لم نشأ التطفل ولم نطلب الإذن بالدخول، لكن يقال إن هذه الخزنة تحتوي فيما تحتويه، بالإضافة إلى القطع الذهبية والأموال، قطعًا من اللؤلؤ والماس. وهذا على الأرجح صحيح لأن السلاطين درجوا على وضع المال باستمرار في الخزنة وعدم الأخذ منه إلا في ما ندر. لكن، بما أن قيمة هذه الأحجار الكريمة ليست إلا قيمة اصطلاحية، أي أنه في حال أراد السلطان استخدامها وطرحها للبيع، فيرجح عندئذٍ إغراق السوق، وتنخفض بالتالي قيمتها الفعلية. وهذه الموارد التي تعتبر عظيمة النفع بالنسبة للاقتصاد، ليست كما يظن البعض.

أدخلني الخازندار، وهو رجل مرح ومنفتح ومرهف العقل إلى المكان الذي يقيم

فيه، ولأول مرة في تركيا، رأيت أثاثًا يتصف بشيء من الترف والرفاهية . كانت المقاعد مرتفعة ومغطاة بوسائد من حرير. وهناك أيضًا طاولات ورفوف خشبية وضعت عليها مستندات وكتب وخرائط جغرافية ومجسّم للكرة الأرضية. قدمت لنا المشروبات والفواكه ورحنا نتحدث عن المستوى الذي بلغته الفنون والعلوم الأوروبية ونقارن بينها وبين ما هي عليه في المناطق الخاضعة للسلطنة العثمانية. بدا لي الخازندار رجلاً مثقفًا مؤمنًا بحرية الرأي ملمّاً بثقافة عصره كأي أوروبي مثقف. أعرب عن أمنيته للسلطان محمود بالنجاح في محاولاته الإصلاحية. لكنه، بسبب سنه وخبرته الطويلة التي اكتسبها من خلال تقلبه في مناصب حكومية عديدة واكب فيها أربعة سلاطين، بدا ضعيف الإيمان بالنجاح ومتطلعًا إلى المستقبل بحكمة وهدوء. كان يعيش هانئًا وحيدًا في هذا السراي المهجور وخضنا معًا مسائل عديدة شملت الفلسفة والدين والشعر والمعتقدات الشعبية في أوروبا وأنظمة الدول المختلفة سواء الملكية منها أو الجمهورية وأيضًا السياسة والتكتيك. تداولنا في كل الأمور وأظهر من خلال حديثه، سداد فكر واطلاعًا واسعًا وحسّاً سليمًا، فأحسست أني أتحدث إلى أحد الأشخاص الأوسع ثقافة في السلطنة. أتى بمجسم الكرة الأرضية راغبًا في أن أشرح له حركات الكواكب والتقسيمات الجغرافية للأرض. دوّن كل شيء وبدا ممتنّاً لي، رجاني أن أقبل دعوته إلى العشاء وأن أمضي الليلة عنده. شقّ علينا جدّاً إلاّ نستجيب لدعوته الملحة ولم نستطع إقناعه باضطرارنا لعدم تلبية دعوته إلا بالتذرع بأن زوجتي وأصدقائي على علم بوجودي في السراي وأنهم سيقلقون جدّاً إذا لم أعد إليهم. قال لي: «والحق يقال، أنت أول افرنجي يدخل إلى هنا. ولهذا، يجب معاملتك كصديق. إن مقام السلطان مرموق والله للجميع!». رافقنا الخازندار حتى السلالم الداخلية التي تنحدر نحو الأسفل انطلاقًا من مستوى السطيحة أمام قصر السلطان وصولاً حتى متاهة الحدائق الصغيرة المحيطة بدار الحريم التي تكلمت عنها آنفًا. ثم أودعنا بعهدة أحد المسؤولين عن الحدائق أي أحد البستانيين، فعبرنا من ظلة إلى ظلة، ومن روض إلى روض وجميع

الرياض مزروعة بالأزهار ومروية بنوافير الماء، حتى بلغنا بوابة يحيط بها سور عال يفصل القصور الداخلية للسراي عن المرجات الكبيرة في الخارج. هنا، وجدنا أنفسنا أمام أشجار دلب شاهقة يزيد ارتفاعها عن مئة قدم، قبالة الجدران والشرفات المرتفعة لدور الحريم. تشكل هذه الأشجار غابة في هذا المكان، ثم تفصل بينها مروج معشوشبة. وعلى مسافة أبعد، تنتشر الأشجار المثمرة والحدائق الكبيرة المزروعة بالخضار ويهتم بها عبيد سود يسكنون في أكواخ تحت الأشجار. ترتوي هذه الزراعات المبعثرة بواسطة سواقي مياه. وإذا نظرنا خلف مساكن الحريم، أمكننا رؤية قصر بايزيد القديم الرائع المهجور متروكًا لنباتات اللبلاب وطيور الليل. قصر حجري ذو هندسة عربية باهرة بالإمكان ترميمه بسهولة ليصبح أجمل ما في السراي كله، لكن يسود اعتقاد في الأذهان بأنه مسكون بالأرواح الشريرة، ويجب ألا يدخله أي عثماني. وبما أننا أصبحنا وحدنا دخلت إلى قنطرة أو قنطرتين في الطبقة السفلى من هذا القصر الجميل. كانتا مليئتين بالحطام والحجارة المبعثرة. أما الجدران والسلالم التي استطعت رؤيتها فبدت لي مبنية وفقًا لذوق رفيع. وحين وصلنا إلى مكان يقع بالقرب من إحدى بوابات السراي، عدنا أدراجنا متوغلين في غابة من أشجار الدلب والجميز والسرو التي لم أر لحجمها مثيلاً، ثم أكملنا دورة الحدائق الخارجية التي أفضت بنا بالضبط إلى ضفاف بحر مرمرة حيث يوجد قصران أو ثلاثة قصور رائعة يسكنها السلاطين صيفًا. الدور مشرّعة على القناة ليتسرب إليها النسيم العليل. فوق الهضاب الخضراء البعيدة، لمحنا مساجد صغيرة وظلات وسبل مياه محاطة بدرابزون من الرخام تظللها الأشجار الباسقة. جلسنا هناك وسط الأزهار ونوافير الماء المدمدمة. من ورائنا جدران السراي الشاهقة ومن أمامنا المرجة المنحدرة وصولاً حتى البحر، وبين البحر وبيننا ستارة من أشجار السرو والدلب التي تحف بجدران الحصن، وعبر هذه الستارة المصنوعة من قمم الأشجار تتراءى أمواج بحر مرمرة وجزر الأمراء والمراكب الشراعية التي تنزلق صواريها من شجرة إلى أخرى وسكوتاري التي تلوحها أشعة

الشمس الغاربة والذرى الذهبية لجبل العمالقة والقمم المكسوة بالثلج لجبال فريجيا التي تؤطر هذه اللوحة الإلهية.

ذاك هو هذا القصر الغامض والأجمل على الأرض قاطبة، الذي كان حلبة لأحداث مأساوية دامية، حيث ولدت السلطنة العثمانية ونمت ولا تزال في صراع مرير مع الموت، لأنه منذ المجزرة التي أودت بجنود الإنكشارية محمود يمتنع عن السكن فيه. السلطان محمود رجل ألف حلاوة العيش واقتناص الملذات وتنفرّه الجرائم الدامية التي لطخت عهد حكمه. لعلّه عاجز عن الشعور بالاطمئنان بين الجماهير المتزمتة لإسطنبول، وآثر أن تكون له قدم في آسيا وأخرى على متن أسطوله، على مقربة من قصوره الثلاثين على ضفاف البوسفور. إن السمة العامة لهذا المسكن العظيم ليست الفخامة أو الراحة أو الترف فهو يقتصر على مجموعة من الخيم الخشبية المزينة بالنقوش المذهّبة. إن خصوصية هذه القصور تكمن في الذكاء الذي يمتاز به الأتراك وحبهم للطبيعة وحسن اختيارهم للمواقع الجميلة المطلة على البحور المتوهجة بالشموس وأيضاالظلال والينابيع والآفاق الهائلة التي تكللها قمم الجبال المكسوة بالثلج. هذا الشعب بنى قصور أسياده وعاصمة إمبراطوريته على سفح أجمل رابية في السلطنة وربما في العالم أجمع. لا تتصف هذه القصور بالفخامة الداخلية أو بالملذات الغامضة التي تحفل بها القصور الأوروبية. تحيط بها فقط الحدائق الفسيحة، حيث الأشجار تنمو حرة وخالدة وكأنها في غابة عذراء، حيث المياه والحمائم تهدل، حيث نوافذ الغرف مشرعة دومًا على الآفاق والجلول تحلق فوق الحدائق والبحر وحيث السلاطين الجالسون خلف منافذ ظلاتهم يستطيعون التمتع بالوحدة ومنظر البوسفور الساحر في آن. هذه المناظر موجودة في كل مكان في تركيا. فالحاكم والشعب، الكبار والصغار، الجميع في تركيا تحدوهم رغبة واحدة ويحركهم شعور واحد في اختيار مساكنهم وتنظيمها ألا وهو التمتع بمنظر جميل مشرع على الآفاق. أما إذا كان الوضع المادي لا يسمح للبؤساء والفقراء بتوفير هذه المستلزمات فجلّ ما يبتغونه هو الحصول على شجرة وعصافير وخروف وحمائم في زاوية بالقرب من كوخهم وهكذا تجد فوق كل

موقع مرتفع فخم وظريف، مسجدًا أو قبر ولي أو كوخًا تركيّاً. ما من موقع في البوسفور، ما من أكمة مرتفعة أو خليج هانئ على شاطئ آسيا أو أوروبا إلا وبنى عليه أحد الباشاوات دارة وحديقة. ما أطيب الجلوس في الظل قبالة أفق بديع تحت أغصان الأشجار الجميلة الظليلة، بالقرب من سبيل ماء. الجلوس هناك وتمضية الأوقات والأيام أمام الريف المنبسط أو المدينة، حتى تسام النفس من هذا التأمل الغامض المتقطع... هذا ما يسم حياة المسلم وما يفسر اختيار موقع مسكنه وتنظيمه. هذا ما يفسر أيضًا السبب الذي جعل هذا الشعب خاملاً صامتًا حتى تأتي الأهواء فتحرّضه وتفجّر طاقته الكامنة التي ولدت معه وجعلها تهجع داخله لكنه لم يفقدها أبدًا. ليس المسلم التركي ثرثارًا كالعربي، إذ قلما يهتم بملذات الجسد ويسعى إلى المغريات الاجتماعية. يحلم ويتأمل ويصلي. إنه شعب فيلسوف يأخذ العبر كلها من الطبيعة ويسلم كل شيء لله. الله موجود دائمًا في فكره وعلى لسانه. وليس الله فكرة عقيمة بل حقيقة ملموسة وبديهية وعملية. إن فضيلة هذا الشعب تقوم على عبادته المستمرة للإرادة الإلهية وتسليمه لها. القدر عقيدته. بهذا الإيمان يغزو العالم ويخسره بالسهولة نفسها والسكينة نفسها. خرجنا عبر الباب الذي يؤدي إلى المرفأ ودخلت إلى الظلة الجميلة على الرصيف البحري حيث يأتي السلطان للجلوس عندما تنطلق أساطيله أو ترجع من حملاتها لتلقي التحية على سيدها.

٢٢حزيران

غادرني اثنان من أصدقائي وذهبا إلى أوروبا. بقيت وحيدًا في بيوكديريه برفقة زوجتي والسيد دو كابماس.

٢٥حزيران

قضيت يومين في بلغراد وسط غابة تبعد أربعة فراسخ عن القسطنطينية: غابة هائلة من أشجار السنديان التي تكسو التلال الواقعة بين البوسفور وبحر مرمرة، على مسافة متساوية منهما لتنبسط تقريبًا حتى مشارف البلقان . هذه الغابات أكثر توحشًا

من غابات إنكلترا وفيها قرية يونانية مبنية وسط واد واسع ومروج شبيهة ببراري أركاديا يجتازها نهر ينساب بين جذوع أشجار السنديان فيكوّن بحيرات اصطناعية بديعة في الأحواض الموجودة بين التلال المرتفعة تحتبس فيها المياه وتغذي ينابيع القسطنطينية. نزلت في ضيافة السيد آليون وعقيلته وهم عائلة من الصيارفة الفرنسيين استقروا في القسطنطينية أبًا عن جد. تملك عائلة آليون دارة ظريفة في بيوكديريه وبيتًا ريفيّاً يستخدم أثناء رحلات الصيد في قرية بلغراد. إنهم أشخاص ساحرون فعاداتهم المستحبة ونبل مشاعرهم وعمق أفكارهم مقرونة بظرف الشرقيين وبساطتهم الودودة. عثرت في القسطنطينية على عائلة فرنسية أخرى متمثلة في شخص السيد سالزاني وهو أخ الصيرفي الذي أتعامل معه في إزمير. السيد سالزاني رجل خير وعاطفة وفكر وقد عاملنا بصفتنا مواطنين وأصدقاء. يتكوّن المجتمع الإفرنجي في القسطنطينية إجمالاً من ضباط السفارات والقنصليات وعائلات التراجم والتجار من مختلف الأمم الأوروبية. هذا المجتمع المنتظم في مدينة صغيرة يتصف بجميع السيئات التي تسود في المدن الصغيرة مع ما فيها من ثرثرات وغيرة مزعجة. لكن هنالك أيضًا النزاهة والعلم والأناقة والضيافة الودودة حيال الأجانب. كما أن هؤلاء الناس على بيّنة من جميع الأحداث التي تجري في أوروبا وكأنهم مقيمون في فيينا أو في باريس، ويشاركون بحماس في الحركة الصاخبة التي يجتازها الغرب. بينهم رجال محترمون ونساء يتحلين بالظرف وبالفضائل النبيلة. ترددت إلى صالونات في بيرا وتيرابيا وبيوكديريه حيث يخال المرء نفسه في أحد الصالونات الأكثر تميزًا في مدن أوروبا الكبيرة لو لم يصطدم بصره بمشهد البوسفور أو بالقرن الذهبي الذي يلتمع في أسفل الحدائق بين أوراق الأشجار.

٣٠ حزيران ١٨٣٣

قمت بجولات في «مياه أوروبا العذبة». في آخر مرفأ القسطنطينية، تتقارب تلال أيوب وتلك التي تحتضن بيرا وغلاطة تدريجيًا ولا تترك إلا مساحة محدودة لشرم ضيق بين الضفاف. شمالاً، تمتد ضواحي أيوب ومسجدها الذي يقصده السلاطين

حين يتولون العرش ليتقلدوا سيف محمد تكريسًا للدم وتقديسًا للقوة من أجل حضّ المسلمين على الجهاد لنصرة الدين الإسلامي. هذا المسجد الهرمي الذي يعلو بجماله وأبهته منازل هذه الضواحي المطلية الجدران والذي تسامي مآذنه عند الأفق الأسوار العالية البيزنطية المتهدمة. على ضفة القناة، قصر السلطانات الجميل يمتد على طول البحر الذي تحاذي نوافذه مستوى الماء. تنسدل رؤوس الأشجار الكثيفة في الحديقة فوق سطح القصر وقد انعكست ظلالها فوق صفحة الماء. على مسافة أبعد، يصير البحر مجرد نهر يعبر بين مرجتين. التلال والحدائق والغابات تكسو هذه الاستدارات الجميلة. بعض الرعيان البلغاريين يحرسون قطعان الخيول والماعز وهم يجلسون على الصخور ويعزفون على المزمار. وأخيرًا، لم يعد النهر إلا جدولاً تلامس فيه مجاذيف الزوارق الضفتين وتعيق جذور أشجار الدردار الرائعة النامية على الضفاف، الأبحار. ثمة مرجة فسيحة تظللها مجموعات من أشجار الدلب الممتدة يمينًا، يسارًا تواصل التلال المكسوة بالأشجار والاخضرار اتجاهها صعدًا وفي الخلف يتوه النظر بين أعمدة الأشجار الخضراء غير المنتظمة التي تظلل مياه الجدول وتنساب معه. وهكذا ينتهي مرفأ القسطنطينية الجميل. هكذا ينتهي المتوسط الفسيح الجميل العاصف. ثم تجد نفسك تجنح إلى جون وارف الظلال في عمق خليج يحفّ به الاخضرار من كل جانب ويتّخذ شكل بساط مزدان بالأعشاب الخضراء والأزهار بعيدًا عن ضجيج البحر والمدينة وصخبها. آه! يا للخاتمة السعيدة! ما أجمل أن تنتهي الحياة هنا. فليمنح الله مثل هذه النهاية لأصدقائي الذين يتخبطون في معركة الحياة البشرية وضوضائها بغية تحقيق طموحاتهم. ما أجمل الصمت بعد الصخب والظلمة الرقيقة بعد النهار الباهر والراحة بعد التعب. ما أعذب أن يجد المرء عشّاً من الظلال، عزلة يتأمل فيها حياته التي مضت وينهي أيامه بسلام ومودة مع الطبيعة والبشر. بالنسبة لي أنا نفسي، لم أعد أتمنى شيئًا ولا حتى هذه النهاية ولن تكون عزلتي على هذا المستوى من الجمال والعذوبة.

حين نزلت من الزورق، تتبعت ضفتي الجدول وصولاً حتى إحدى الظلات التي

رأيتها تلمع بين الأشجار. عند كل جذع، رأيت جماعة من النساء التركيات والأرمنيات ومن حولهن أطفال رائعو الجمال يمرحون فوق المرجة ويتناولون طعامهم في الظلال الغضّة. كانت هناك أحصنة مسرجة بشكل رائع وعربات تسوقها العجول متناثرة في أنحاء البرية. تتقدم الظلة قناة وتحيط بها برك تسبح فيها بعض البجعات. الحدائق صغيرة ولكن المرجة الفسيحة أشبه بحديقة كاملة. إلى هذا المكان كان السلطان الحالي يتردد قديمًا هربًا من قيظ الصيف. كان يعشق هذا المكان البديع لأن إحدى جواريه المحظيات كانت معجبة به. لقد وجد الحب طريقه أخيرًا إلى هذا القلب وسط شهوات الحريم، بعد المجازر التي ارتكبت في ساحة الميدان. توفيت الجارية هنا، ومنذ ذلك الحين، هجر السلطان هذا المكان الجميل. يقال إنه غالبًا ما يقوم بزيارة القبر الذي دفنت فيه الجارية ويخلد وحده ذكرى حدائق هذا القصر المهجور. أمضيت النهار في عمق الوادي في ظل الأشجار وكتبت قصائد إلى ف...

تموز

إنها حياة العزلة نفسها في بيوكديريه مساءً عند البحر أو في وادي الورود. أقوم بزيارة السيد تروكي كل أسبوع. وحدها القلوب الطيبة تحمل في حناياها المؤاساة للآخرين، وقد وهب الله البلسم الوحيد الموجود لجروح القلب التي لا تشفى ألا وهما المؤانسة وتبادل المودّة.

البارحة، احتفل الكونت أورلوف، قائد الأسطول والجيش الروسي والسفير فوق العادة لامبراطور روسيا لدى الباب العالي، بنجاح مهمته وانتهاء مهامه من خلال مهرجان عسكري أقامه السلطان تكريمًا له على شاطئ البوسفور. تحيط بحدائق سفارة روسيا في بويوكديريه المنحدرات المكسوة بالاشجار المتجهة نزولاً حتى شاطئ الخليج بحيث تحيط به من كل جانب فتلامس بأغصانها زبد شواطئه. بالإمكان رؤية البوسفور في جريانه المزدوج باتجاه القسطنطينية والبحر الأسود، من شرفات القصر. طيلة النهار، كان مدفع الأسطول الروسي الراسي في أسفل الحدائق أمام نوافذنا، يدوي بين دقيقة وأخرى، وقد تداخلت صواريه المزينة بالأعلام مع الأشجار الكبيرة

الخضراء التي تحف بالضفتين. منذ الصباح، ملأت البحر سفن صغيرة وزوارق حاملة من القسطنطينية خمسة عشر ألفًا متفرِّج أو عشرين ألفًا توزعوا تحت ظلال الأشجار وبين المروج والصخور المجاورة، وقد بقي عدد منهم في الزوارق التي امتلأت بنساء يهوديات وتركيات وأرمنيات يرتدين ألوانًا زاهية، ومخرت وكأنها باقات من الأزهار هنا وهنالك عباب البحر. يبعد معسكر الروس المتمركزين على جوانب جبل «العملاق» مسافة نصف فرسخ من الأسطول، الذي يبدو وسط الأخضر القاتم والسفوح المحترقة لجوانب الجبل، كالخيمة البيضاء والزرقاء. عند المساء، أضيئت السفارة الروسية بآلاف المصابيح الصغيرة المعلقة إلى أغصان الغابات. كما أضيئت أيضًا السفن فوق صواريها وعوارضها وحبالها فباتت شبيهة بسفن من نار تنطلق من لهيبها المدافع. كانت جوانبها التي تقذف شلالات من ضياء وكانت النيران العظيمة على قمم جبال آسيا وأكمتها المحيطة بمعسكر فرق الإنزال، تنعكس على شكل أذيال هائلة مضيئة فوق صفحة البحر وترمي شرارات ساطعة في مجرى البوسفور الهائل. وصل السلطان وسط هذه الليلة المنيرة على متن سفينة بخارية أتت لترسو تحت سطيحات قصر سفارة روسيا لكي يتمتع السلطان بالمشهد الذي يترامى لعينيه . شوهد السلطان على جسر السفينة محاطًا بوزيره وباشواته المقربين. بقي على متنها وأوفد الصدر الأعظم ليشارك في العشاء الذي أقيم للكونت أورلوف. نصبت طاولات هائلة الحجم على الجادات الطويلة التي تحف بها أشجار الدلب، ووزعت طاولات أخرى تحت الأشجار في أرجاء الحديقة ووضعت فوقها أواني الذهب والفضة التي راحت تعكس أنوار الأشجار المضاءة. وعند الساعة الأكثر حلكة من الليل، قبيل طلوع القمر، انطلقت المفرقعات النارية مدوية في الأجواء، وكانت موضوعة فوق ألواح خشبية على الأمواج وسط البوسفور، على مسافة متساوية من الضفاف الثلاث. انطلقت المفرقعات فوق الأمواج مرسلة ضياء قاني الألوان على الجبال والأسطول وهذا الحشد الغفير من المتفرجين الذين امتلأ سطح البحر بزوارقهم. لم يتسن لعين أن ترى مشهدًا مماثلاً من قبل. يخيّل للناظر أن قبة الليالي نفسها ستتمزق لتكشف عالمًا ساحرًا مؤلفًا من

عناصر وجبال وبحار وسموات ذات أشكال وألوان مختلفة ومن آلاف الظلال الأثرية الهاربة العائمة فوق أمواج الضوء والنار. ثم دخل كل شيء في الصمت والليل. أطفئت المصابيح الصغيرة كأنما بنفخة هواء في كل العوارض والسفن. وطلع القمر البازغ من فوق واد يفصل بين قمم الجبلين ليشع نوره العذب فوق البحر محدداً معالم الكتل الضخمة السوداء للأكمات والأشباح المشلّعة للصواري والعوارض وأوثقة الأعمدة فوق ظهور السفن على خلفية من سماء منثورة باللآلىء. انطلق السلطان من جديد على متن سفينته الشراعية البخارية الرشيقة التي أطلقت من مؤخرتها عموداً من الدخان المنبعث الذي لا يلبث أن يتلاشى في الصمت مثل شبح أتى ليشهد على انهيار إمبراطورية وأفولها.

لم يكن السلطان محمود، آشور بانيبال، الذي أضاءت نيران محرقته حطام عرشه المنهار، بل كان سيد السلطنة المتهاوية الذي وجد نفسه مرغماً على أن يطلب من أعدائه المساعدة والحماية لمواجهة أحد عبيده المتمردين، وكأنه يعترف بمجد أعدائه وذله هو بالذات. ترى، ما هي المشاعر التي راودت كبار السن من العثمانيين الذين كانوا يرون أضواء معسكر البرابرة المسيحيين والنجيمات المنبعثة من نيران ابتهاجهم تتشظى فوق جبال آسيا المقدسة لتنسدل من جديد متساقطة فوق قبب المساجد ومنعكسة على جدران السرايات القديمة؟ وماذا يخفي السلطان محمود نفسه وراء ابتسامته المرتسمة على شفتيه؟ أي غيظ يشدّ على قلبه؟ آه! لا بدّ أن حزناً شديداً يعتمل في داخله ويحطم قلبه، أظن أنها الحسرة على ملكه الضائع الحافل بالبطولات. لا بدّ أن هناك أيضاً أمراً معزياً يمكن للفيلسوف المفكر المؤمن بالعناية الإلهية والمحب للبشر استخلاصه مما يجري ألا وهو سيرورة الزمن والأشياء التي تجعل سلطنة هائلة تنهار وتتبعثر أشلاء، بعد أن وقفت حجر عثرة أمام تحضر نصف الشرق، ودفعت بانهيارها شعوباً أرهقتها تحت وطأة الاضطهاد لتستعيد بلدانها الجميلة خطوة بخطوة، وتعمل على إنشاء أنظمة أكثر إنسانية وأديان أكثر رقيّاً.

تموز

تناولت العشاء اليوم عند البارون ستورمر برفقة الأمير الملكي لبافاريا الذي كان راجعًا من اليونان وأراد التوقف لبضعة أيام في القسطنطينية. كان الأمير الشاب، التائق للعلم وغير الحافل بالعرش الذي ينتظره، يسعى للتحدث إلى الناس الذين لا يؤخذون بالإطراء ويحاول أن يكتسب منهم العلم والثقافة. على أية حال، هو نفسه محدث رائع. قال لي: «ملك اليونان متردد بشأن اختيار عاصمة لمملكته. أود أن أعرف رأيك» فأجبته: «عاصمة اليونان تحدّدها طبيعة الحدث نفسه الذي أعاد إعمار اليونان. فاليونان بعثت ثانية إلى الوجود . وعندما نبعث، نولد من جديد تحت شكلنا واسمنا وكياننا الفردي كاملاً. وأثينا، بآثارها و ذكرياتها، علامة مميّزة تعرف بها اليونان. لذا، يجب أن تبعث اليونان في أثينا، وإلا فلن تكون ألا ما هي عليه اليوم، أي شعب فقير مبعثر على صخور البيلوبوينز والجزر الأخرى» .

تموز

في هذا اليوم انطلق الأسطول والجيش الروسيان. الروس يعرفون الآن الطريق بعد أن جعلوا الأتراك يألفون رؤية أساطيلهم على الشاطئ. ها إن البوسفور مهجور ودون حياة.

وصلت أحصنتي العربية عبر آسيا الصغرى. لكن حصاني تدمر ، أجمل الأحصنة وأحبها إلى قلب الجميع، قضى في مغنيسيا، في نهاية الطريق تقريبًا. بكاه السائسون وبكوا أيضًا وهم يخبرونني عن نهايته. كان مثار إعجاب مدن أرمينيا أينما حلّ. أما الأحصنة الأخرى فكانت من الهزال والتعب بحيث يلزمها شهر من الراحة لتكون في حالة تسمح لها بالقيام برحلة إلى تركيا الأوروبية وألمانيا. بعت أجمل اثنين منها إلى السيد بوتينييف قائد حرس إمبراطور روسيا، والثلاثة الأخرى إلى أشخاص مختلفين من القسطنطينية. لكن تدمر وسعيد لن أنساهما أبدًا.

أجريت للتوِّ صفقة مع أتراك إسطنبول وضاحية أيوب، وهم مالكو هذه العربات التي تقل النساء في شوارع القسطنطينية، فأجّروني خمس عربات كل واحدة منها موثقة إلى أربعة خيول، بهدف بلوغنا أنا وزوجتي والسيد دوكابماس وخدمي وأمتعتنا، بلغراد خلال فترة لا تتعدى الخمسة والعشرين يومًا. استأجرت اثنين من التتر لكي يقودا القافلة وبضعة رجال من المكارين وحداة البغال لنقل الأسرّة والأواني وصناديق الكتب، الخ... وستة أحصنة مسرجة لنا، في حال كانت الطرقات لا تسمح للعربات بالمرور. بلغ ثمن الأحصنة والعربات زهاء أربعة آلاف فرنك، وقد رافقنا ترجمان ممتاز على حصانه، وحدّد موعد الرحيل في ٢٥ تموز.

تموز

انطلقنا هذه الليلة في الساعة الثانية من القسطنطينية. كانت الأحصنة والعربات في انتظارنا في ضاحية أيوب في ساحة صغيرة غير بعيدة عن نافورة ماء فيها مقهى تركي و تظللها أشجار الدلب . تجمع الحشد لمشاهدتنا ونحن نرحل. لكننا لم نتلق شتيمة واحدة من الأتراك ولم نفقد أي غرض من أغراضنا. إن الأمانة هي ميزة أبناء الشوارع في تركيا وهي أقل شيوعًا في القصور. ساعدنا الأتراك الذين كانوا جالسين أمام المقاهي وكذلك الأطفال العابرون على تحميل عرباتنا وأحصنتنا والتقطوا الأشياء التي سقطت منا ونسيناها سهوًا وأعادوها إلينا بأنفسهم. سرنا مع طلوع الشمس وكنا على متن أحصنتنا نجتاز الشوارع الطويلة المقفرة الوعرة التي تنطلق من ضاحية أيوب باتجاه الأسوار البيزنطية لإسطنبول. خرجنا من أسوار المدينة لنطل على نجدٍ عار قاحل تحيط به أمكنة مرتفعة. رأينا كتيبتين من جنود النظام الجديد تابعتين للفرق النظامية، تقومان بالتدريبات أمام الثكنة. أراد السيد تروكي والشبان اليونانيون العاملون في قنصليته أن يرافقونا. لكننا افترقنا عند هذه المحطة بعد أن طبعنا قبلة الوداع على خد هذا الرجل الرائع الذي كان بالنسبة لنا نعمة مرسلة من السماء في أيام عزلتنا تلك . تبدو الصداقة في غمرات اليأس وكأنها صداقة ترقى إلى سنين طويلة

حتى لو كانت لا تعود إلى أكثر من شهرين. فليكافئ الله رجل المؤاساة هذا وليحمل إليه التعزية والرجاء في سنواته الأخيرة. هل سنرى بعضنا على هذه البسيطة مرة أخرى؟ من يدري! انطلقنا في رحلة طويلة وربما كانت مجهولة المصير. وبقي هو حزينًا ومريضًا، بعيدًا عن زوجته ووطنه. عبثًا أراد أن يخفي دموعه لكن دموعنا بللت يده المرتعشة.

قمنا باستراحة على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية لكي نتقي قيظ النهار. اجتزنا سلسلة النجود الملتوية التي تشرف على بحر مرمرة : لم تكن هناك قرى بل بيوت قليلة مبعثرة بين الحقول. استأنفنا السير عند الساعة الرابعة مؤثرين دومًا سلوك التلال المنخفضة، الفسيحة والعارية حتى وصلنا إلى مدينة صغيرة حيث كان مرافقنا من التتر قد سبقنا إلى هناك وأعد لنا مأوى نلجأ اليه. وهذا المأوى منزل تملكه عائلة يونانية ساحرة مؤلفة من ثلاث نساء وأولاد رائعي الجمال. فرشنا السجاجيد والوسائد فوق الأرضية المصنوعة من خشب الصنوبر لكي نمضي الليل. استطاع طباخي أن يحصل على أرز ودجاج وخضار كثيرة. كانت قافلتنا على أهبة الرحيل عند الساعة الثالثة صباحًا . مشى أحد الرجال التتر لبضع ساعات على رأس الموكب وبعد الاستراحة التي قمنا بها عند الظهر، على ضفة أحد الينابيع أو في كنف أحد البيوت الخشبية في خان القوافل، طلبت إليه الانطلاق سريعًا على حصانه إلى المدينة أو القرية حيث يتوجب علينا النوم لاحقًا. وحملته الرسائل التي بعثها الصدر الأعظم إلى الباشا أو الآغا أو أعيان القرية فما كان من هؤلاء إلا أن اختاروا أفضل منزل يوناني أو أرمني أو يهودي في البلاد منبهين المالك إلى ضرورة تجهيزها للأجانب وأحضروا العلف الكافي لاثنين وثلاثين حصانًا كانت في موكبنا، وغالبًا ما قدموا العشاء لنا . كان الحاكم يأتي لموافاتنا عند مسافة ما من الطريق مصحوبًا بالوجهاء وبعض الخيّالة، هذا إذا كانت هناك جيوش في المدينة، ويرافقنا حتى المنزل الذي سنأوي اليه. ثم يترجلون عن أحصنتهم معنا ويقدموننا لأصحاب البيت ويأمرون بإحضار الغلايين والقهوة، يعودون أدراجهم قافلين إلى منازلهم حيث ما ألبث أن أقوم بزيارتهم لاحقًا في بيوتهم.

وعلى طول الطريق الممتد من القسطنطينية إلى أدرنة لا شيء يلفت الأنظار، لا شيء أخّاذًا إلا المدى الهائل للسهول التي لا بيوت فيها ولا أشجار والتي يخترقها، هنا وهناك، نهر ضيق شبه جاف يمر تحت قناطر جسر متهدم. عند المساء، وجدنا قرية أو ما شابه في عمق أحد الأودية المحاطة ببساتين أشجار مثمرة. جميع سكانها يونانيون أو أرمن أو بلغاريون. كانت خانات هذه القرى دون سقف يتكوم فيها الناس والأحصنة على السواء . وهكذا واصلنا السير لمدة خمسة أيام لم نلتق فيها أحد، ذكّرتنا بصحراء سوريا . لمرة واحدة فقط التقينا بثلاثين أو أربعين فلاحًا بلغاريّاً يرتدون زيّاً أوروبيّاً ويعتمرون فوق رؤوسهم قبعة من شعر الخروف الأسود. كانوا يقصدون القسطنطينية على وقع أنغام مزامير اثنين من أبناء القرية. أطلقوا صرخات عالية لدى رؤيتنا ثم اتجهوا نحونا طالبين منا بضعة قروش. كانوا ذاهبين لحراسة أحصنة السلطان والباشوات في حقول المياه العذبة في آسيا وبيوكديريه وهم أيضًا بستانيو اسطنبول.

في اليوم السادس صباحًا، تراءت لنا أدرنة في نهاية هذه السهول، في منخفض جميل بين الجبال. بدت المدينة أمامنا هائلة يطغى عليها مسجدها الجميل. يعد مسجدها أجمل صرح ديني في تركيا بعد كنيسة القديسة صوفيا، وقد بناه بايزيد أيام كانت أدرنة عاصمة السلطنة. تقع الحقول على مسافة فرسخين من المدينة، وهي مزروعة قمحًا وكرمة وأشجارًا مثمرة من كل نوع. يذكر منظر المدينة بضواحي ديجون أو ليون الفرنسيتين. كانت الجداول العديدة تخترق السهل. ثم دخلنا إلى ضاحية مترامية، واجتزنا المدينة وسط حشد من الأتراك والنساء والأولاد الذين هرعوا لرؤيتنا. لكنهم لم يتسببوا لنا بأي إزعاج، كما كنا نخشى بل أظهروا لنا، خلافًا لذلك كل علامات الترحيب والاحترام. أما الأشخاص الذين أتوا لموافاتنا فقد اقتادونا أمام منزل جميل يملكه السيد فرنازا قنصل سردينيا في أدرنة.

أمضينا يومين في أدرنة في بيت القنصل الجميل. أما عائلته فكانت تقطن على مسافة بضعة فراسخ من هنا، على ضفة نهر ماريشا. عند المساء، كنا نمتّع أنظارنا

برؤية مشهد المدينة الجميل من أعلى شرفة السيد فرنازا. تروي المدينة التي يقارب حجمها مدينة ليون، ثلاثة أنهار هي هيدرا وأردا وتونديشا وتحيط الغابات والمياه من كل جانب بهذا المنخفض الخصب و كذلك أجمل سلاسل الجبال . لم يفتنا القيام بزيارة المسجد وهو صرح مشابه لكل المساجد التي رأيناها، لكنه أكثر ارتفاعًا وأكبر مساحة، بحيث لم يستطع الفن الأوروبي أن ينتج أو يبدع ما هو أجرأ وأكثر تميزًا وأشد تأثيرًا من هذا المسجد بمئذنته البالغ ارتفاعها أكثر من مئة قدم.

ثم انطلقنا من أدرنة متوجهين إلى فيليبوبوليس. تخترق الطريق شعاب ومنخفضات ساحرة مكسوة بالأشجار لكنها مقفرة بين السلاسل العالية لجبال رودوبا وهيموس. سرنا لمدة ثلاثة أيام ومررنا بقرى جميلة. عند المساء، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من فيليبوبوليس(*)، لمحت من السهل ، سربًا من الخيالة الأتراك والأرمن واليونانيين الذين اتجهوا نحونا عدوًا. أول الواصلين كان فتى جميلاً يمتطي حصانًا رائعًا. لامس ثوبي بإصبعه، ثم وقف إلى جانبي يتحدث إليّ بالإيطالية قائلاً لي إنه يتوجب عليّ قبول دعوته إلى منزله لأنه أول من لمسني، وذلك مهما بلغت شدة إلحاح الخيالة الآخرين لاقتيادي إلى مكان آخر. ثم وصل أحد أعيان فيليبوبوليس وامتدحني باسم سيده قائلاً لي إن الحاكم أعدّ لي بيتًا فسيحًا ومريحًا وعشاء، وإنه ينوي إبقائي بضعة أيام في المدينة لكني أصررت على قبول استضافة الشاب اليوناني لي في منزله ويدعى السيد موريديس.

دخلنا إلى فيليبوبوليس وعددنا يتراوح بين ستين وثمانين خيالاً. احتشد الناس عند نوافذهم وفي الشوارع ليشاهدوا هذا الموكب الذي يخترق مدينتهم. استقبلتنا أخت موريديس وعمّاته. بيته واسع أنيق. ديوان جميل يحتوي على أربع وعشرين نافذة ومفروش على الطريقة الأوروبية. أتى الحاكم وزعماء مختلف الملل في المدينة للترحيب بنا واحتساء القهوة معنا. أمضيت ثلاثة أيام في فيليبوبوليس مستمتعًا بالحفاوة

(*) فيليبوبوليس أو بلوفديف : مدينة في بلغاريا على نهر ماريشا (المترجم) .

الرائعة التي استقبلنا بها السيد موريديس، متجولاً في الضواحي ومستقبلاً الأتراك واليونانيين والأرمن و حللت بدوري ضيفًا عليهم.

تعد فيليبوبوليس ثلاثين ألف نسمة وتبعد مسافة أربعة أيام عن أدرنة وثمانية أيام عن صوفيا، تقع على ضفة نهر، فوق السفح الصخري لواد واسع وخصب. إنه أجمل المواقع الطبيعية الذي يمكن أن نتصوره لمدينة من المدن. والجبل فوقها يؤلف قرنًا من قمتين وكلتاهما متوجتان بالبيوت والحدائق، تنساب طرقاتهما بطريقة دائرية لتخفف من حدة الانحدار، وصولاً حتى ضفاف النهر الذي يجري هو نفسه في أسفل المدينة ويغمرها بفيض من المياه الجارية. إن الجسر المكسو بالأشجار الذي يفصل النهر عن جبال مقدونيا وهذه الجبال نفسها المزدانة بالقرى أو الأديرة اليونانية الكبيرة والتي تخترق سفوحها الشلالات المتدفقة بزبدها الأبيض... كل ذلك يجعل من حديقة السيد موريديس إحدى أجمل الحدائق في العالم. نصف سكان المدينة من اليونانيين ونصفهم الآخر من الأتراك والأرمن. اليونانيون مثقفون إجمالاً ويتعاطون التجارة، والوجهاء بينهم يرسلون أولادهم إلى هنغاريا لتلقّي العلم. لم يعانوا من اضطهاد الأتراك لهم إلاّ فيما بعد، وهم، أي اليونانيون، يتوقون لاستقلالهم على نحو ما فعل إخوانهم في الموره. تعرفت في فيليبوبوليس إلى ثلاثة يونانيين شبان مميزين بحضورهم وصدق مشاعرهم وقوة فكرهم، جديرين بأن يواجهوا قدرًا آخر وينتسبوا إلى وطن آخر.

غادرنا فيليبوبوليس ووصلنا خلال يومين إلى مدينة جميلة في سهل مزروع تدعى تتر – بزرجيك وتنتمي، مثلها مثل الأرياف المجاورة إلى إحدى هذه العائلات الإقطاعية التركية الكبيرة التي يوجد منها خمس أو ست سلالات في آسيا وأوروبا تحظى برعاية من السلاطين. يملك تتر – بزرجيك ويحكمها أمير شاب هو ابن الوزير السابق حسين باشا. نزلنا في ضيافة الأمير الذي استقبلنا بحفاوة بالغة. وضع تحت تصرفنا بيتًا حديثًا مبنيّاً على ضفة النهر الذي يحيط بالمدينة. إنه بيت واسع أنيق ومريح يملكه أحد الأثرياء الأرمن. ما إن نزلنا فيه حتى وافانا خمسة عشر أو عشرون عبدًا يحمل كل

منهم صاعًا من القصدير فوق رأسه. وضعوا عند أقدامنا على الأرض أصنافًا متنوعة من الطعام: المنسف والحلويات والطيور والسكاكر من كل الأنواع أي مآكل أميرية باختصار. كما قدموا لي جوادين هدية لكني رفضتهما وكذلك عجولاً وخرافًا كي أطعم أفراد قافلتي.

في اليوم التالي، تراءى لنا البلقان بجباله الجميلة المكسوة بالأشجار والمزدانة بالقرى الكبيرة التي تتخللها الأراضي المزروعة ويسكنها البلغار. سرنا طيلة النهار بمحاذاة ضفاف شلال تتحوّل مياهه إلى مستنقع في السهل. وصلنا إلى أسفل البلقان. وجدت جميع السكان الرئيسيين للقرية البلغارية وتدعى ينيكوي في انتظارنا. وقفوا على جهتي عرباتنا شمالاً ويمينًا، أمسكوا بأعنة أحصنتنا ورفعوا بأيديهم وأكتافهم عرباتنا ليحولوا دون انزلاق العجلات في الهاوية. وهكذا ساروا بنا على هذا النحو في هذه القرية البائسة وفي مقدمة الموكب، سار التتريان اللذان كانا معي. البيوت مبعثرة على جوانب التلال أو فوق ذراها، تحيط بها البساتين المثمرة الجميلة والمروج، ويفصل بين التلال وهاد عميقة. جميع هذه الجبال سفوحها مزروعة ومكسوة بغابات بديعة عند قممها الصخرية. كانت البيوت البلغارية الصغيرة مبنية من حصائر الصفصاف ومغطاة بأغصان الأشجار الكاملة مع أوراقها. أقمنا في سبعة أو ثمانية بيوت وخيم المكاريون والتتريان والخيالة وسط البساتين المثمرة. في كل بيت غرفة فقط ذات أرضية من تراب. انتابتني الحمى وأصبت بالتهاب الدم نتيجة الإرهاق والتعب. أمضيت عشرين يومًا مضطجعًا على حصيرة وسط هذا الكوخ البائس الذي لا نافذة فيه، مصارعًا الموت. اهتمت زوجتي بي بتفان مدهش؛ أمضت خمسة عشر نهارًا وخمسة عشر ليلاً دون أن تغمض لها جفنًا قرب سريري المصنوع من القش. وأرسلت الرجال لكي يبحثوا لي في المستنقعات عن علق. إلى أن عثر عليه البلغار أخيرًا، ووضعت ستون علقة فوق صدري وجذعي ما خفف من حدة الحمّى. أدركت فداحة وضعي الصحّي ورحت أفكر ليلاً ونهارًا بزوجتي في حال موتي، وأتخيّلها متروكة

لمصيرها على مسافة أربعمائة فرسخ في جبال مقدونية، بعيدة عن كل ما يؤاسيها ويحمل العزاء إلى قلبها. ما أشد وطأة تلك الساعات التي مرّت! أرسلت في طلب السيد دوكابماس لأعطيه تعليماتي الأخيرة في حال قضيت نحبي. رجوت منه أن يدفنني في ظل شجرة رأيتها عند حافة الطريق، لدى وصولنا، وأن يكتب على ضريحي هذه الكلمة التي تسمو فوق كل تعزية: «الله». في اليوم السادس للحمّى، بعد زوال الخطر، سمعنا ضجة أحصنة وقرقعة سلاح في الباحة. ترجل بضعة فرسان عن الحصان، ورأيت ذاك الشاب اليوناني الودود من فيليبوبوليس وهو السيد موريديس، وبرفقته طبيب مقدوني شاب ثم أنزل عدة خدام الأحمال عن الأحصنة، مؤونة وأثاثًا وأدوية. كان أحد التتريين يجتاز البلقان ذاهبًا باتجاه أدرنة فتوقف في أحد خانات فيليبوبوليس وأشاع الخبر بأن رحالة إفرنجيًا سقط صريع المرض وأنه في ينيكوي. وصل الخبر إلى مسامع السيد موريديس عند العاشرة مساءً فخشي أن يكون الرحالة الإفرنجي هو نفسه الذي نزل في ضيافته عندما كان ماراً في فيليبوبوليس، فأرسل في طلب صديقه الطبيب وجمع خدمه وشحن أحصنته بكل ما أملته عليه غيرته وأريحيّته ورآه ضرورياً لمريض، ثم انطلق عند منتصف الليل وسار دون توقف زهاء نهارين ليأتي لنا بالنجدة والأدوية والمؤاساة لرجل مجهول لن تتسنى له رؤيته أبدًا. تلك هي الفضائل التي تحمل البهجة إلى الروح وتكشف سخاء الإنسان وطبيعته النبيلة أينما حلّ. وجدني السيد موريديس متماثلاً للشفاء تقريبًا وما لبث أن انطلق في اليوم نفسه إلى فيليبوبوليس حيث تنتظره أعماله، تاركًا عندي الطبيب المقدوني الشاب. كان الطبيب رجل موهبة وعلم، أنجز دروسه الطبية في سملين في هنغاريا، وكان يتقن اللغة اللاتينية. لكن موهبته أظهرت عدم جدواها فالحنان وحدة الذكاء والقدرة على التصميم واتخاذ القرار الحازم، أي الفضائل التي تتحلى بها زوجتي، طغت على كل ما عداها. ومع ذلك حملت رفقته البهجة إلى قلوبنا خلال العشرين يومًا تلك التي أمضيتها وأنا اصارع المرض حتى تماثلت إلى للشفاء، واستعدت قواي وبتّ قادرًا على اعتلاء حصاني من جديد. لم يكن اهتمام امير تتر – بزرجيك يقل عن السيد موريديس فما إن علم بمرضي حتى غمرني

بلطفه وكياسته. كان يرسل كل يوم خرافًا وعجولاً لرفاقي في القافلة. وطيلة فترة إقامتي في ينيكوي، أرسل خمسة أو ستة من خيالة حرسه ليرابطوا بطريقة دائمة في باحة منزلي مع أحصنتهم المربوطة والمتأهبة لتنفيذ كل ما أطلبه. وخلال الأيام الأخيرة لتماثلي للشفاء، اصطحبني خيالته في جولات على الخيل في الوادي البديع وعلى الجبال في ضواحي ينيكوي. كما قدّم لي الأمير عبيدًا ورافقتني مجموعة من خيالته لدى رحيلي حتى حدود الإمارة. تسنى لي الوقت كي أراقب عن كثب، أساليب عيش العائلات البلغارية وعاداتهم وتقاليدهم، ووجدت أنها تشبه عادات الفلاحين السويسريين أو المتحدرين من منطقة السافوا. هؤلاء الناس بسطاء ولطفاء مجتهدون يحترمون كهنتهم ويتقيدون بتعاليم دينهم. إنهم من الروم الأرثوذكس وكهنتهم فلاحون بسطاء. يعد البلغاريون عدة ملايين نسمة وهم يتزايدون باستمرار ويعيشون في قرى كبيرة ومدن صغيرة منفصلة عن الأتراك. وهناك تركي أو اثنان اختارهما الباشا والحاكم يجولان طيلة السنة في هذه القرى لجباية الضرائب. وما عدا هذا الأمر وبعض أعمال السخرة فإنهم يعيشون بسلام وفقًا لعاداتهم بالذات. لباسهم كلباس فلاحي ألمانيا، أما زي النساء والفتيات فيشبه زيّ النساء والفتيات في جبال سويسرا. إنهن جميلات ينضحن بالحيوية والظرف. بدت لي عاداتهن نقية مع أن النساء لم يعدن محجبات كما في تركيا ويعاشرن الرجال بحرية. شاهدت رقصات ريفية بلغارية تشبه رقصات قرانا في فرنسا. يحتقر البلغار الأتراك ويكرهونهم، وهم ناضجون بما يكفي لينالوا استقلالهم ويؤلفوا مع الصربيين، جيرانهم، القاعدة المقبلة لدول تركيا الأوروبية. وستكون البلاد التي يسكنونها عما قريب جنّة عذبة ما إن ينتهي حكم الاضطهاد الغاشم، ليس فقط الصادر عن الحكومة بل عن الإدارة التركية، ويتاح لهم المجال ليستغلّوا مواردهم الزراعية في جو أكثر أمنًا لأن لديهم شغفًا بالأرض.

غادرت ينيكوي ومزارعيها اللطفاء الطيبين والحسرة تعتصر قلبي. رافقنا جميع سكان القرية على مسافة فرسخين في البلقان وأمطرونا بوابل من التمنيات والبركات.

اجتزنا جبال البلقان الأولى في يوم واحد. جبال شبيهة تقريبًا بجبال أوفرني وهي سهلة المنال صالحة للزراعة في كل مكان. باستطاعة خمسمائة عامل أن يمهدوا الطريق في فترة لا تتعدى موسمًا وتصير أصلح طريق للعربات. وصلت إلى صوفيا: مدينة كبيرة في سهل داخلي يرويها أحد الأنهار. كان هنالك باشا تركي يقيم فيها. بعث مأمورًا لموافاتي ووضع تحت تصرفي بيت تاجر يوناني. أمضيت يومًا هناك وأرسل لي الباشا عجولاً وخرافًا ولم يشأ أن يقبل أية هدية تقدم له. إنها مدينة عادية ليس فيها ما يثير الاهتمام.

بعد أربعة أيام من المسير في جبال سهلة العبور تارة وأودية وسهول فائقة الخصوبة تارة أخرى، ولكن خالية من السكان. وصلنا إلى سهل مدينة نيسا، آخر المدن الواقعة تحت السيطرة التركية، عند حدود صربيا تقريبًا. استبقت القافلة على حصاني مسافة نصف ساعة. كانت الشمس حارقة. على بعد فرسخ من المدينة، تراءى لي برج أبيض واسع يرتفع وسط السهل، ملتمع مثل رخام باروس. تبعت الطريق فوصلت إلى المكان مسلمًا حصاني إلى أحد الأطفال الأتراك الذين رافقوني. أردت أن أستلقي هنيهة في ظل البرج. ما إن استويت في جلستي ورفعت عيني إلى الصرح الذي أستظل به حتى أدركت أن جدرانه التي بدت لي من الرخام اللامع أو من الحجارة البيضاء وكانت مجموعة صفوف منتظمة من الجماجم البشرية. كانت هذه الجماجم إذًا رؤوسًا بشرية باتت الآن مجرّدة من اللحم فغسلها المطر وهي الآن تلتمع تحت أشعة الشمس بعد أن غير لونها نثار الرمل والكلس، وها هي ترتفع لتأويني أشبه بقوس نصر. ربما كان عدد الجماجم يتراوح بين الخمس عشرة والعشرين ألفًا، بعضها لا يزال يحتفظ بالشعر الذي تطاير مثل خز الصخور عند أقل هبّة ريح. هبّت ريح الجبال حيّة منعشة وتغلغلت في شقوق الرؤوس والوجوه والجماجم لتخرج منها صفيرًا ناحبًا وشاكيًا. لم يكن أمامي أحد لكي يشرح لي لغز هذا الصرح. رأيت الطفل الذي أمسك حصانيَّ من لجاميهما يلهو بالقطع الصغيرة المتساقطة من الجماجم

المتفتتة عند أسفل البرج. كنت منهكًا من شدة النعاس والحرّ فاستسلمت للنوم مسندًا رأسي إلى جدران الرؤوس المقطوعة. عندما استيقظت، وجدتني محاطًا بالقافلة وعدد كبير من الخيالة الأتراك الذين أتوا من نيسا لكي يواكبوني عند مدخل المدينة. أخبروني أن الصرح مؤلف من خمسة عشر ألف جندي قتلهم الباشا إبّان آخر ثورة اشتعلت في صربيا. وكان هذا السهل المترامي أمامنا ساحة الوغى التي شهدت مقتل هؤلاء المتمردين الأباة، وهذا الصرح مدفنهم. حييت بعيني وقلبي رفات هؤلاء الناس الأبطال الذين رسمت رؤوسهم المقطوعة حدود استقلال بلادهم .

دخلنا إلى صربيا التي باتت حرة الآن. وها هو نشيد الحرية والمجد تردده الجبال وتحيّي به برج الصربيين الذين قتلوا من أجل استقلال بلادهم! عمّا قريب ستكون نيسا نفسها ملكهم. فليتركوا هذا الصرح قائمًا! فهو الذي سيعلم أولادهم الثمن الذي يساويه استقلال شعب ويظهر لهم الأثمان الباهظة المتلاحقة التي دفعها آباؤهم لأجل ذلك.

تشبه نيسا مدينة صوفيا وهي مثلها لا تمتاز بأي طابع. أمضينا فيها نهارًا، ثم دخلنا إلى منطقة الجبال الجميلة وإلى غابات صربيا الهائلة. غابات عذراء تنبسط في كل مكان منتهى مدّ البصر مفسحة المجال فقط لطريق واسعة شقها حديثًا الأمير ميلوش، زعيم صربيا المستقلة. توغلنا لمدة ستة أيام في ظلالها البديعة دون أن نرى مشهدا آخر إلا تلك الصفوف من الأعمدة التي لا نهاية لها المكوّنة من الجذوع الضخمة الباسقة لأشجار الزان والأغصان الغضّة التي تهزها الرياح والتلال المتلاحقة التي تكسوها الغابات وقمم الجبال التي تزينها أشجار السنديان الدهرية المتناسقة الشكل. بين الفينة والأخرى فقط، على مسافة خمسة أو ستة فراسخ، كنا نعثر، لدى انحدارنا في أحد الأودية المتسعة قليلاً حيث ينساب أحد الأنهار، على قرى كبيرة، منازلها خشبية. أطلت من فرجات الأشجار بعض البيوت الجميلة الجديدة المطلية بالأبيض.

على طول جدول جميل، وسط المروج وحقول البطيخ الأصفر توجد كنيسة صغيرة قرب دير. السكان جالسون أمام محالهم فوق دواوين خشبية يعملون في مهن عديدة. كانت لوجوههم، رغم عذوبتها وجمالها، سيماء شمالية حيوية أبية تذكر الناظر للتو بأن هذا الشعب نال حريته وبأنه جدير بها. استقبلنا في كل مكان بحفاوة واحترام. كانوا يعدون لنا المنزل الأجمل في القرية ويأتي الكهنة لموافاتنا. رأينا في المنازل بعضاً من أثاث أوروبي. لم تكن النساء محجبات، والتقينا في المروج والغابات بجماعات من الشبان والشابات الذاهبين سوية إلى أعمال الحقول، وهم ينشدون أغاني وطنية تذكر بالألحان الرعوية السويسرية. كانت الفتيات يرتدين قمصاناً ذات ثنيات وتنانير قصيرة من الصوف البني والأحمر ويشبهن بنضارتهن وغبطتهن وإشراق جباههن وأعينهن نساء «برن» الجميلات أو نساء جبال لوسرن.

وهنا غادرتنا الطيور التي كانت رفيقة دربنا الوفية في كل أصقاع تركيا. لم نعد نرى طيور اللقلق التي كانت أعشاشها الواسعة التي تشبه مهوداً من القصب تتوج قبب جميع المآذن في مساجد تركيا الأوروبية. كنا، عندما نصل كل مساء إلى القرى أو الخانات المقفرة، نراها تتجول، أزواجاً، حول خيمنا وأكواخنا. كانت الصغار ترفع أعناقها خارج أعشاشها وتمد مناقيرها لأمهاتها اللواتي رحن يوزعن لها الطعام الذي أحضرنه من المستنقعات المجاورة. وكان الأب يحوّم بشكل ثابت على مسافة عالية من العش ويبدو وكأنه يستمتع بهذا المنظر المؤثر. ليست هذه العصافير الجميلة متوحشة إطلاقاً. تحرس السطح كما تحرس الكلاب المنزل، وتعيش في سلام مع أسراب اليمائم التي تبيض في كل مكان، على قبة الخانات والمساجد، ولا تجفل السنونو أبداً. يعيش الأتراك بسلام مع أنفسهم، ومع كل ما خلقه الله ويخصون بعطفهم كل هذه الأنواع المتروكة والمضطهدة عندنا. يضعون في كل الشوارع أوعية مليئة ماء لتشرب كلاب الحيّ، وينشئون أحياناً مؤسسات خيرية تعمل على رمي الحب لليمائم التي كانوا

يطعمونها عندما كانوا على قيد الحياة.

١٢ أيلول ١٨٣٣

خرجنا هذا الصباح من غابات صربيا الأبدية المنحدرة حتى حدود الدانوب. رأينا الدانوب، ملك الأنهار، من أعلى أكمة تغطّيها سنديانات بديعة. بعد أن اجتزنا الأكمة، وجدنا عند سفحها ما يشبه بحيرة واسعة من المياه الزرقاء الشفافة محتبسة بين غابات من القصب ومزدانة بجزر مبعثرة. عندما سرنا قدمًا، رأينا النهر ينتشر يمينًا وشمالاً، ويجري بمحاذاة الجروف الصخرية المغطاة بالأشجار، ليضيع يمينًا في سهول هنغاريا. إن المنحدرات الأخيرة للغابات النازلة باتجاه النهر هي من أجمل المواقع في العالم، أمضينا ليلتنا على ضفاف نهر الدانوب في قرية صربية صغيرة.

في اليوم التالي، غادرنا من جديد النهر خلال أربع ساعات من المسير. أصبحت البلاد، كما كل البلدان عند الحدود، قاحلة ومقفرة وغير صالحة للزراعة. ارتقينا عند الظهيرة نجودًا قاحلة، ومن هناك شاهدنا بلغراد عند أقدامنا. تقع بلغراد التي دمّرتها القنابل مرات عدة، على ضفة مرتفعة من نهر الدانوب. سقوف مساجدها مثقوبة وجدرانها محطمة وضواحيها مهجورة ومليئة بالأكواخ والأنقاض. تشبه بلغراد جميع المدن التركية وتنحدر شوارعها الضيقة الملتوية باتجاه النهر. على الضفة الأخرى من الدانوب، ظهرت لنا سملين، أول مدينة في هنغاريا. كانت تلتمع بكل الوهج الذي تتحلى به المدن الأوروبية. رأينا الأجراس ترتفع قبالة المآذن. عندما وصلنا إلى بلغراد وفيما كنا نخلد للراحة في نزل صغير، وهو أول نزل نعثر عليه في صربيا، بعث لي الأمير ميلوش بعضًا من ضباطه الأساسيين ليبلغوني رغبته في استضافتي بضعة أيام في الحصن حيث يقيم، على مسافة عدة أيام من بلغراد. تملّصت من إلحاحهم وأمرت السفن بأن تتأهب لعبور الدانوب. عند الساعة الرابعة، نزلنا باتجاه النهر. وحين كنا نهم بالإبحار، رأيت جماعة من الفرسان الذين يرتدون ألبستهم على الطريقة الأوروبية يهرعون إلى ضفاف النهر. إنه أخ الأمير ميلوش، زعيم الصربيين، الذي أوفده أخوه

مكرّرًا دعوته لي بقضاء بضعة أيام عنده. لم أكن قادرًا على قبول هذه الدعوة الكريمة وشعرت بحسرة كبيرة إزاء ذلك.

غالبًا ما التقيت وسط هذه الغابات العذراء وفي هذه الوهاد العميقة حيث يخيّل للمرء أن ما من مخلوقات تسكنها سوى البهائم المتوحشة، بفتيان وفتيات يسيرون وهم ينشدون معًا الأغاني الوطنية التي فسّر لي تراجمتنا بعضًا من كلماتها. قطع الشبان أناشيدهم لفترة قصيرة كي يلقوا علينا التحية ثم شيعونا بنظراتهم. وعندما اختفينا، استأنفوا مسيرهم وأغانيهم فارتعشت لها قبب السنديانات القاتمة المعمّرة والصخور التي تحف بالشلال، ورجعت صدى نوتاتها المطلقة ولازماتها المكررة الواعدة بحياة أكثر هناء على هذه الارض. سألت يومًا الترجمان الذي يعرف لغتهم :

– عمّ تتحدث هذه الأغاني؟

– أيها الاسبودار(*)، إنها تتحدث عن أشياء ساذجة جدًا ولا تستحق عناء أن نقولها للإفرنج.

– وإن يكن، هيا، ترجم لي الكلمات التي ينشدونها في اللحظة!

– حسنًا، إنهم يقولون: فليبارك الله مياه الموارفا لأنها أغرقت أعداء الصربيين ! فليكثر الله بلوط السنديان في شومادیا لأن كل شجرة من هذه السنديانات هي بمثابة جندي من جنود صربيا!

– وماذا يقصدون بذلك؟

– يقصدون، أيها الاسبودار، أنهم وجدوا في هذه السنديانات سورًا احتموا به خلال الحرب فغاباتهم كانت حصونهم ولا تزال، وكل واحدة من هذه الأشجار هي

(*) الأسبودار : لقب الأمراء الذين كانوا يحكمون باسم سلطان العثمانيين في مناطق البلقان، وهنا يقولها الترجمان احترامًا للامارتين .(المترجم) .

بمثابة رفيق سلاح لهم، يحبونها وكأنها إخوة لهم. وهكذا، عندما أمر الأمير ميلوش، الذي يحكمهم حاليًا، بقطع الكثير من الأشجار بهدف شق الطريق الطويلة التي نقتفيها الآن عبر هذه الغابات، صبّ الصربيون جام غضبهم عليه مرارًا ولعنوه قائلين: إن قطع السنديان قتل للبشر. في صربيا، الناس والأشجار أصدقاء!

حين تجتاز هذه العزلات المدهشة من تلك المسيرة الطويلة، لا ترى أينما اتجهت إلا التموج المنسق والقائم لأوراق السنديان الذي يكسو الأودية والجبال. المنظر أشبه ببحار من الأوراق لا يخترقها ولا يبرز منها أي شيء، ولا حتى القبة المسننة لإحدى المآذن أو الأجراس. وحين تواصل انحدارك، من وقت لآخر، في الأودية العميقة حيث يهدر أحد الأنهار وتفسح الغابة مجالاً قليلاً أو تخلي الساح لبعض الحقول المزروعة بانتظام أو بعض البيوت الخشبية المبنية حديثًا أو المتاجر أو الطواحين المبنية على ضفاف المياه... حين ترى قطعانًا هائلة من البهائم تسوقها صبايا جميلات يرتدين ثيابًا أنيقة ويخرجن من بين صفوف الأشجار الكبيرة ليعدن مساءً إلى مساكنهن، حين ترى أطفالاً خارجين من المدرسة والكاهن الأرثوذكسي جالسًا على مقعد خشبي أمام باب بيته الجميل، والعجائز يدخلون إلى مقرهم المشترك أو إلى الكنيسة للتشاور، تخال نفسك في غابات أميركا الشمالية تشهد على ولادة شعب وأمة أو على نشوء مستعمرة جديدة. تعكس وجوه الناس عذوبة عاداتهم وأدبهم الذي يرقى إلى حضارة موغلة في القدم، وكذلك على عافية هذا الشعب ورفاهيته. الحرية مرتسمة على سيماء وجوههم تشي بها نظراتهم. البلغاري إنسان طيب وبسيط، لكننا نشعر أنه، رغم جدارته بالتحرّر، فإن آثار العبودية لا تزال تتحكم في سلوكه. تذكرك طريقة تحريكه لرأسه ونبرة صوته والخضوع المنكسر لنظراته، بالوحشية التي عاناها من تصرفات الأتراك. يذكرك بسكان السافوا، ذاك الشعب الطيب البديع في جبال الألب الذي لا ينقصه شيء سوى عنفوان السيماء والكلمة، هذا العنفوان المجمّل لكل الفضائل الأخرى. أما

الصربي فيذكّر، خلافًا لذلك، بسويسريي الكانتونات الصغيرة حيث العادات النقية العميقة الجذور تمارس انسجامًا تامّاً فيما بينها، وترى على وجه الرعاة سمة الحرية التي يمتاز بها الإنسان والشجاعة التي يمتاز بها الأبطال. وتشبه الصبايا الصربيات النساء الجميلات في كانتونات لوسرن وبرن، بل إن أزياءهن متقاربة: تنانير قصيرة جدّاً ألوانها زاهية وشعور طويلة مجدولة كالحبال تصل حتى أخمص أقدامهن. عادات الصربيين نقية كعادات الشعوب الرعوية والمتدينة. ولغتهم، كسائر اللغات المتحدرة من اللغة السلافية، منسجمة وموسيقية وذات إيقاع. ليسوا جميعًا أثرياء، هناك بعض التفاوت في مقدار ثرواتهم ولكنهم ميسورون إجمالاً. أما الكماليات التي تستهويهم فهي اقتناء الأسلحة.

يتميز حكمهم الحالي بأنه نوع من الدكتاتورية التمثيلية. احتفظ الأمير ميلوش، محرّر صربيا، بالسلطة الاستنسابية التي أرغمته الحرب على الاستئثار بها وحده. أعلن أميراً للصربيين سنة ١٨٢٩ وعاهده الشعب على الوفاء له ولمن يخلفه. وقد اعترف الأتراك، الذين لا يزالون يساهمون في إدارة البلاد عن طريق الاحتفاظ ببعض المواقع والحصون، بالأمير ميلوش وتفاوضوا معه مباشرة في إنشاء مجلس شيوخ ومجالس استشارية في المقاطعات للمساهمة في إدارة بعض الشؤون العامة والبت فيها: يعقد مجلس الشيوخ مرة كل سنة ويتجمع نواب القرى في الضواحي المحيطة بقصر الأمير تحت الأشجار للتشاور، كما كان يفعل الرجال في الأزمنة البطولية الغابرة. ينزل الأمير من المقعد حيث يجلس ويسير قدمًا إلى كل واحد من نوابه ويسأله ويستمع إلى وجهة نظره، مسجلاً ملاحظات عن الشكاوى التي يتقدم بها والنصائح التي يسديها. ثم يتحدث الأمير إليه معربًا عن رأيه موضحًا بمحبة الطريقة التي تساس بها الأمور، مبرراً الإجراءات التي يمكن أن تبدو صارمة أو ظالمة. كل شيء يجري وفقًا للتعاون المخلص النبيل الصارم القائم بين طبقة الفلاحين من جهة وأسيادهم من جهة أخرى.

إنـهم شيوخ أجلاء مزارعون ومسلحون. يستوحون من تعاليم الله مواقفهم ويخوضون على أساسها حروبهم. يحاربون ويحكمون من أجل خدمة مذابح كنائسهم وغاباتهم على حدّ سواء، لكن نفوذ الكهنة يتوقف عند حدود الأمور الدينية. أما النفوذ الرئيسي فهو في يد القادة العسكريين من طبقة الأشراف الذين يدعون آل «فيفود». لا تبدأ مهمة رجال الكهنوت مطلقًا إلا حين تتوقف الحرب وتصير أرض الوطن ملكًا للشعب دون منازع. وما دامت الحرب دائرة، لا يقدم أهل الوطن الولاء إلا للذين كانوا يدافعون عن راية التحرر التي يرفعونها . يبلغ عدد سكان صربيا حوالي المليون نسمة وهم في تزايد مستمر. ثم إن مناخ صربيا يتميّز بعذوبته وهو مشابه لمناخ فرنسا بين منطقتي ليون واقينيون، أرضها خصبة بكر عميقة التربة تكسوها كل مكان النباتات المشابهة لمروج سويسرا؛ أنهارها وفيرة وجداولها المنحدرة من الجبال تجري في الأودية مكونة هنا وهنالك بحيرات وسط الغابات؛ غاباتها المستصلحة التي توفر المكان الصالح كما في أميركا، للزراعة ولبناء الإنشاءات التي لا حد لها؛ عادات شعبها العذبة والنقية؛ قوانينها الحامية لحقوق الإنسان والتي يضيئها نور حيوي من شرائعنا الأوروبية المثلى؛ حقوق المواطنين التي تضمنها مجالس تمثيلية محلية ومجالس شورى، وأخيرًا وجود السلطة بين يدي رجل يضطلع بمهمته على أفضل ما يرام وهو الأمير ميلوش، والمنتقلة وراثيّاً إلى أحفاده من بعده.. كل هذه الأمور التي تشكل عناصر السلام والحضارة والازدهار تؤهل سكان صربيا لارتفاع عددهم إلى عدة ملايين قبل انقضاء نصف قرن. وإذا أصبح هذا الشعب، كما يشتهي ويأمل، نواة لامبراطورية سلافية جديدة من خلال اتحاده ببوسنيا وقسم من بلغاريا والعصابات المحاربة في مونتغرو؛ فإن أوروبا ستشهد عندئذٍ ولادة دولة جديدة تقوم على أنقاض تركيا وتحيي هذه المناطق الفسيحة الجميلة الواقعة بين الدانوب والإدرياتيك وأعالي البلقان. وإذا كان الاختلاف في العادات والقوميات يقف في وجه هذا الانصهار بين الدول، فعلى الأقل، سنشهد في صربيا أحد عناصر هذه الفيدرالية من الدول الحرة في ظل سلطات

وصاية أوروبية هدفها ملء الفراغ الذي سيتركه غياب السلطنة العثمانية عن أوروبا كما حصل في آسيا: لا يبدو أن لدى السياسة الأوروبية من تطلع آخر تتوق إليه.

٢٣ أيلول ١٨٣٣

ربما كان يجدر بتاريخ هذا الشعب أن يغنّي لا أن يكتب تاريخه قصيدة تتواصل حلقاتها. جمعت الوقائع الأساسية بخصوص الأمكنة على ألسنة أصدقائنا في بلغراد الذين أتوا ليزورونا عند بوابة المحجر الصحي. جلست تحت شجرة زيزفون، فوق العشب، حيث تسطع شمس هذه الأصقاع الجميلة، العذبة، وسط الدمدمة القريبة للسيول المتدفقة لنهر الدانوب، أمامي منظر الضفاف البديعة والغابات الخضراء التي تشكل أسوار صربيا لجهة هنغاريا. أخذ هؤلاء الرجال في زيهم شبه الشرقي وبوجوههم ذات السمات الذكورية الرقيقة التي تمتاز بها الشعوب المحاربة يروون لي ببساطة الأحداث والوقائع التي شاركوا فيها. ومع أنهم كانوا لا يزالون في مقتبل العمر ولا تزال آثار جروح الحرب بادية على أجسادهم، بدوا وكأنهم نسوها كليّاً. لا يصبون اهتمامهم إلا على التعليم الرسمي والمدارس الشعبية والإصلاحات الريفية والإدارية والتطور الواجب تحقيقه في التشريعات والقوانين. وبما أنهم متواضعون وذوو حمية وحماس، فقد اغتنموا جميع الفرص التي سنحت لهم من أجل تطوير مؤسساتهم التي هي في طور النشوء. كانوا يبحثون عن الرحالة ويستمعون إلى آرائهم أطول وقت ممكن ويجمعون كل ما يقوله هؤلاء الرجال الآتون من بعيد وكانهم مرسلو العناية الإلهية.

هذا ما استطعت أن أجمعه من أخبار عن سنواتهم الماضية. في العام ١٨٠٤ وعقب الاضطرابات الطويلة الأمد التي أثارها بادئ الأمر باسوانوغلو باشا مدينة فيدين، والتي انتهت بهيمنة جنود الانكشارية. في ذاك العام إذًا ثار الصربيون على طغاتهم. اجتمع ثلاثة زعماء في هذه المنطقة الوسطى من صربيا التي تدعى شوماديا، المكسوة بغابات كثيفة لا يمكن اختراقها. كان أول هؤلاء القادة يدعى قره – جورج أما القائدان الآخران فهما تانتو – كاليش وفاسو – تشارابيتش. كان قره – جورج قائد

عصابات «الهيدوك»،وهي العصابات المسلحة التي كانت تحارب الأتراك في هنغاريا وبلاد البلقان . وكان رجال الهيدوك في صربيا كما كان عليه قطاع الطرق واللصوص اليونانيون، أي عرق من البشر المستقلين والمغامرين، ساكني الجبال المنيعة والمتأهبين عند انطلاق شرارة الحرب للنزول من جبالهم والانضمام إلى الزمر المحاربة والتعايش مع أساليب القتل والنهب. وعمت الانتفاضة البلاد كلها على غرار شوماديا واختارت كل مقاطعة لنفسها القائد الأشجع والأكثر مهابة بين صفوف الفيفود الذين اجتمعوا على شكل محكمة عسكرية ومنحوا قره – جورج لقب الجنرال الأعظم. لم يمنحه هذا اللقب بحد ذاته صلاحيات كثيرة. لكن العبقرية، في أزمنة الاضطراب والمحن سرعان ما تمنح الرجل الجريء سلطة الأمر الواقع. فالمساومة غير جائزة إطلاقًا في مواجهة الشجاعة العمياء. وطاعة القائد هي قدر الشعوب المستضعفة التي تتعرض للظلم فتخلق فيهم الجرأة والموهبة. ولد جورج بيتروفيتش، الملقب «قره» أو «زرين» أي جورج الأسود عام ١٧٦٥ في إحدى القرى التابعة لمحافظة كراغوسواتس. كان والده فلاحًا بسيطًا وقسًا يدعى بتروني. وهناك رواية أخرى تقول إن قره – جورج ولد في فرنسا، لكن يبدو أن لا صحة لهذه الرواية. اصطحب بتروني ابنه وهو لا يزال طفلاً إلى جبال توبولي. أما الثورة التي نشبت عام ١٧١٧، والتي دعمتها النمسا، فقد أخمدت وأدت إلى نهاية مشؤومة إذ طارد الأتراك والبوسنيون الثوار وأرغموهم على الفرار. فما كان من بتروني وابنه جورج اللذين حاربا ببسالة، إلا أن جمعا القطعان وهي الثروة الوحيدة التي يملكانها واتجها إلى منطقة سافا في يوغوسلافيا. كانا قد اقتربا من نهر سافا وأوشكا أن يجدا خلاصهما على الأرض النمساوية حين التفت والد قره – جورج وهو عجوز ينوء تحت ثقل السنين، وأخذ ينظر إلى الجبال واعتراه خوف من أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذا المكان، فأحس أن جذوره ضاربة في أرض الوطن وأن قلبه ينفطر لدى فكرة أنه سيغادره إلى الأبد وينتقل للعيش وسط شعب مجهول. عندئذٍ، جلس أرضًا وراح يتضرع طالبًا من ولده الخضوع للأتراك بدل العبور إلى ألمانيا. يا للأسف، لا أستطيع في هذا المعرض تذكر التوسلات المؤثرة الجميلة التي تلفظ بها العجوز وترد في الأغاني الشعبية الصربية بتلك العبقرية التي يعبر بها شعب طفل عن المشاعر

الإنسانية البديهية الأكثر حدة، متفوقًا في وصفه على كل ما يمكن أن تقدمه الشعوب المثقفة للإبداع الفني.

إزاء هذا التوسل الأبوي، رجع قره - جورج وقد استعطفته تحسرات أبيه، أعقابه وعاد معه خدامه وقطعانه. استجاب منصاعًا لنداء الواجب الملح وألزم نفسه بما يلتزم به البنون من الطاعة حيال آبائهم، ويعتبر هذا الاحترام واجبًا دينيّاً لدى الشرقيين. أحنى رأسه ملبيًا رغبة أبيه سالكًا بحزن طريق الجلجلة وللحؤول دون حرمان عظام أبيه بتروني من أن تدفن في الأرض الصربية، إلى أن فوجئ بطلقات البنادق التي وجهها البوسنيون إيذانًا باقتراب الأعداء الأتراك الذين سيتعرضون على أيديهم إلى شتى أنواع العذاب والانتقام. عندئذٍ، قال لأبيه: « يا أبي، عليك أن تحزم أمرك، ليست أمامنا إلا فرصة واحدة للخلاص. انهض وارم بنفسك في النهر، ذراعي ستحضنك وجسدي سيحميك من رصاص البوسنيين.ستعيش بانتظار أيام أفضل على أرض شعب صديق». لكن العجوز لم يكن يريد. عبثًا حاول ولده إقناعه، صدّ الوالد كل محاولاته وأراد أن يموت على أرض الوطن. لم يشأ قره - جورج أن يسقط والده صريعًا على أيدي الأتراك فجثا على ركبتيه طالبًا بركة العجوز ثم أرداه قتيلاً برصاصة من مسدسه ثم ألقى جثته في نهر السافا وارتمى في النهر ليبلغ الأرض النمساوية سباحة.

بعد ذلك بوقت قصير، عاد إلى صربيا بصفته رقيبًا أول في جيش إفرنجي. استاء لأنه لم يدرج على لائحة الجنود في حفل توزيع ميداليات الشرف فترك هذا الجيش والتحق بعصابات الهيدوك في الجبال. ثم تصالح مع رئيسه فرافقه إلى النمسا لدى انعقاد معاهدة السلام وحصل على رتبة حارس غابات في دير كروشدال. لكنه ما لبث أن مل من نمط العيش هذا فعاد إلى صربيا في ظل حكم حاجي مصطفى. ورجع إلى عمله كراعٍ لكنه كان يلتحق بالمقاتلين ما إن تنشأ في البلاد حركة عصيان مدني.

كان قره - جورج طويل القامة قوي البنية، ذا وجه جميل مشرق يدل على نبل

محتده يلوذ بالصمت ويستغرق في التفكير عندما يكون بمنأى عن تأثير النبيذ أو عن قرقعة الرصاص أو النصائح المتناقضة التي تسدى إليه. وهكذا يستطيع أن يمضي نهارًا كاملاً دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ربما كان كل الرجــال الذين أنجـزوا مآثر أو أعدوا لها يضنون بالكلام. ربما لأنـهم يتحـدثون إلى أنفســهم أكثر مما يتحدثون إلى الآخرين ويتغذون من بنات أفكارهم مغترفين من طاقة الذكاء والفكر هذه التي تميز الرجال الأقوياء. لم يصبح نابوليون محـدثًا إلا حين اكتمل قدره وغرب حظه. كان قره – جورج مدافعًا شرسًا عن العدالة والنظـام ولم يتورع عن الحكم على أخيه بالإعدام شنقًا إثر انتهاكه شرف إحدى الفتيات.

في كانون الثاني/يناير عام ١٨٠٦، اجتاحت عدة فرق عسكرية صربيا في الوقت نفسه. تلقى بكير باشا بوسنيا، وإبراهيم باشا سكوتاري الأوامر من الباب العالي بالذهاب إلى هناك ترافقه جميع قواته. أرسل بكير كتيبتين تضمان نحو أربعين ألف رجل. وزحف إبراهيم من جهة نيسا على رأس جيش جرار. فما كان من قره – جورج إلا أن دحر هذا الجيش مع أن رجاله كانوا أقل عددًا ولكن تحدوهم نزعة وطنية لا تقهر وثقة بقائدهم ويقين بالحماية التي تمنحها لهم غاباتهم والتي غطت كل تحركاتهم. وهكذا تصدوا لكل الهجمات المتفرقة التي قام بها بكير وإبراهيم. بعد أن أوقع قره – جورج بحاجي – بك بالقرب من بتزكا زحف على الجيش الرئيسي المرتد إلى تشاباز فبلغه وهزمه في ستاباز نفسها في ٨ آب/أغسطس ١٨٠٦. وأراد البوسنيون أن يعبروا نهر الدرينا من جديد فوقعوا في الأسر. لم يكن في حوزة قره – جورج إلا سبعة آلاف رجل من المشاة وألفا رجل من الخيالة لكنه انقض بسرعة على إبراهيم – باشا الذي كان يحاصر داليغراد، إحدى المدن الصربية، ويلقى مقاومة من قائد صربي آخر يدعى بيار دوبرينياس. لدى اقتراب جورج – قره من المدينة طلب إبراهيم – باشا منه الدخول

في مفاوضات معه. عقدت عدة اجتماعات في سماديريفو أعقبتها مرحلة سلام مؤقت في صربيا وفقًا لشروط ملائمة للبلدين. لكنها كانت أشبه بتلك الهدنات التي تتيح للثورة أن تتنفس الصعداء وتجعل الأمم تعتاد تدريجيّاً على استقلالها الجزئي الذي ما يلبث أن يتحول تعطشًا وتلهفًا للحرية. بعد ذلك بوقت قصير، زحف قره – جورج على رأس جيوشه التي لم يكن قد صرفها بعد لأن قرارات رجال الإفتاء لم توافق على شروط سماديريفو، على بلغراد، عاصمة صربيا المدينة المحصنة على نهر الدانوب بقلعتها وحاميتها التركية، فاستولى عليها . عندئذٍ استطاع كوشارز – علي الذي كان يحكم المدينة الحصول على موافقة قره – جورج بالانتقال إلى قيدين عبر نهر الدانوب. بقي سليمان باشا في القلعة. لكنه في بداية عام ١٨٠٧، سار على رأس مئتي انكشاري ظلوا معه لمواجهة الأتراك فقتل مع جنوده على يد الموكب الذي أرسله قره – جورج لكي يحميه أثناء انسحابه. لم يهتم قره – جورج بهذا العمل الوحشي بل اعتبر كردة فعل من الصربيين الذين ثأروا من عرق الانكشارية بعد أن عودوا الشعوب التي أخضعوها على أعمالهم البربرية وفظائعهم.

تدين صربيا بتقسيمها الإداري إلى النجاحات التي أحرزتها حرب الاستقلال. حلّ القادة العسكريون الذين أطلق عليهم اسم الفيفود مكان السلطات المدنية. وتساند هؤلاء القادة العسكريين فرقة خيالة مكوّنة من الشبان الذين ينتمون إلى أكثر العائلات ثراءً، ولم يكونوا يتقاضون مرتبات بل يعيشون على نفقة القادة ويتقاسمون معهم الغنائم. كان لبعض القادة فريق من هؤلاء الخيالة يقارب عدده الخمسين. لكن الأكثر نفوذًا من القادة كانوا آنذاك جاكوب نينادوفيتش وميلنكو دوبرينياس ورسافا، وعلى رأسهم جميعًا قره – جورج.

أما مجلس الشيوخ فكان مؤلفًا من اثني عشر عضوًا يجري انتخابهم تبعًا للمحافظات الاثنتي عشرة. من مهامه أن يرعى المصالح العامة المتعلقة بهذا النوع من

الفيدرالية المسلحة ويشكل بديلاً عن السلطات المغتصبة. أظهر هذا المجلس جدارة في إنجاز المهام من رواتب الجيش واهتم بتعليم الشعب اهتماماً مفعماً بالحماس والحكمة تحركه رغبة ملحّة للمضيّ قدماً في ركب الحضارة. استبدل التعليم التقليدي الرتيب الذي كانت تقوم به الأديرة بإنشاء مدارس شعبية في كل مدينة رئيسية في المحافظات. ولكن، لسوء الحظ، بدل أن يستمدّ أعضاء مجلس الشيوخ سلطتهم من الشعب بكامله، فإنهم لم يكونوا ليمثلوا إلا القادة العسكريين وكانوا بالتالي خاضعين لنفوذهم دون سواهم.

وكانت هناك هيئة سياسية أخرى للشورى مؤلفة من القادة العسكريين والأمراء (الاسبودار) مهمتها الإمساك بزمام الأمور الأكثر أهمية، وكانت هذه الهيئة تتنازع السلطة مع قره – جورج. في كل سنة، عند اقتراب عيد الميلاد، يتجمع أعضاء الهيئة في بلغراد ويتداولون، بحضور القائد قره – جورج، في أمور السلام والحرب وشكل الحكم وتحديد الضرائب في جو تخيّم عليه محاولات الدسّ وتدبير المؤامرات. كانوا يؤدون ما يتوجب عليهم من الأموال ويقومون بتنظيم شؤون الإدارة والعدالة . وقف وجود هذه الهيئة الأرستقراطية الجشعة الطامعة بأموال الشعب حجر عثرة في وجه التحرر الكامل والتطور السريع في صربيا. لا شك أن وحدة الشعب والسلاح تمثل الشرط الحيوي لمواجهة أعداء الوطن وأن الاستقلال يحتاج إلى سلطة رجل طاغية لكي يتوطد، والحرية المدنية تقضي بوجود هيئات شورى. لو كان الصربيون أكثر دراية آنذاك لأدركوا أنه يتوجب عليهم رفع قره – جورج فوق خصومه جميعاً وحصر السلطات في شخصه دون غيره. كان الاسبودار يعرفون جيداً أن الاستقلال يستلزم وجود قائد واحد، لكنهم شاؤوا أن يكون هذا القائد ضعيفاً ليبقى لهم الأمل بالتحايل عليه. وأدرك أعضاء مجلس الشيوخ واقع الأمر فقاموا هم ايضاً بخياراتهم آملين أن تساندهم هذه الهيئة في تصديهم لقره – جورج الذي كان يتوقع منهم أن يساندوه في حربه ضد الاسبودار. وهكذا، بدأت الحروب الصامتة بين محرري صربيا.

أما الأكثر فصاحة وبلاغة بين أعضاء مجلس الشيوخ فكان ميلوفانوفيتش الذي

استطاع، بفضل كلمته النافذة أن يكون له القرار الفصل في مجلس الشيوخ، كان قد أثرى عقب نهب بلغراد وتسلمه التجارة الخارجية عبر جمارك الدانوب، فنظر بقلق وضغينة إلى قره - جورج ومحازبيه الذي حرّضوا مجلس الشيوخ عليه. عندئذٍ، انسحب ميلوفانوفيتش إلى داليغراد تراوده أفكار الانتقام، فما كان منه إلا أن نقل خبرًا كاذبًا لجورج مفاده أن الروس واليونان على وشك القيام بمؤامرة خفيفة ضدّه. فصدّق جورج كلامه واستدعاه إلى بلغراد وكان على وشك اتخاذ القرار بشنّ الحرب ضد البوسنيين مفتتحًا حملته على بوسنيا عام ١٨٠٩ .

ينبئ النشيد الوطني السلافي الذي يحتفل بانطلاقة الثورة بالمآسي التي ستقع إذا ما سولت لأحد نفسه عبور الدرينا واجتياح بوسنيا. لكن نبوءة الشاعر تنذر بما أرادته العناية الإلهية فهذه الحملة كانت سلسلة من الأخطار والمآسي والويلات. عبثًا حاول قره - جورج أن يحارب ببسالته المعتادة وقد ساندته فرقة من الجيش الروسي إذ سرعان ما أثبطت عزيمة جنوده وأصيبوا بالوهن، فأوقع الأتراك به هزيمة نكراء في كومينيتزا، فانطلق ليدافع عن تاغودينا ويحمي الضفة اليسرى لنهر المورافا، لكنه لم يستطع الاحتفاظ بهذا القسم من الأراضي إلا بعد قيام الروس بهجوم مضلل.

زادت التطورات الميدانية المستجدة من الكراهية التي يضمرها الفيفود أي القادة العسكريون ضد قره - جورج. ما إن اهتزت سلطته المحمية بهالة انتصاراته حتى عمد القادة إلى الاستيلاء على الحكم. كان جاكوب نينادوفيتش أول المغامرين. ظهر في مجلس الشيوخ في الأول من كانون الثاني عام ١٨١٠ على رأس ستمائة رجل ممتطين أحصنتهم، وفرض تعيينه رئيسًا لمجلس الشيوخ . وحده نفوذ روسيا استطاع أن يصون لبعض الوقت سلطة قره - جورج المهتزة. زحف جورج ليهاجم خورشيد باشا حاكم نيسا الذي كان في إمرته ثلاثون ألف رجل فقط لا غير. وشكل سهل فافارين مسرحًا لمعركة دامية استطاع فيها ثلاثة آلاف صربي أن يدحروا الجيوش التركية ويجبروها على التراجع والعودة إلى نيسا، مقتدين بشجاعة قائدهم وملبّين نداءه. ثم ما

لبث أن هجم قره – جورج على لوينتزا التي كان أربعون ألف عثماني يضربون الحصار حولها. كانت المدينة صامدة منذ اثني عشر يومًا في وجه ضربات المدفعية العنيفة، وتوشك على السقوط في قبضة المحاصرين عندما أرغم ظهور قره – جورج وشجاعة الصربيين الجيش التركي على عبور الدرينا من جديد. وهنا كانت ذروة انتصار قره – جورج، فبفضله تحررت صربيا كلياً من حكم الأتراك ووسّعت حدودها ابتداءً من جزيرة بورتش على الدانوب حتى التقاء هذا النهر بنهر تيموك. لكن يبدو أن السلام أكثر شؤمًا لمحرري الأوطان من الحروب، ففترة السلم تشهد اختمارًا لمكائد جديدة وانشقاقات جديدة بين القادة الذين وحّدهم الخطر المشترك لكن لحين. أراد الاسبودار أن يحدوا من سلطة قره – جورج ليجرّدوه لاحقًا من كل قدرة لكن مؤامراتهم كشفت في حينها. استغل جورج هذه المحاولة التي جرى قمعها بشدة عاملاً على أن يثير لصالحه ردة فعل حاسمة ابان انعقاد الدييت(*) عام ١٨١١. استطاع جورج عندئذٍ أن يصيب في الصميم نفوذ الاسبودار والقادة العسكريين من خلال تقسيمه المحافظات من جديد وزيادة عدد الرؤساء الذين باتوا أضعف من أن يتحركوا بمفردهم وأصبحوا بالتالي أدوات يسهل التلاعب بها. لا بل إن هؤلاء، بسبب غيرتهم من تفوق القادة العسكريين السابق، تحالفوا فيما بينهم ضدّ القادة مستندين إلى سلطة قره – جورج ومستمدين قوتهم من قوته. وهكذا، تبدلت صلاحيات مجلس الشيوخ فقد جرى تقسيمه إلى جمعيتين. الجمعية الأولى، مؤلفة من الأعضاء الأقل نفوذاً وهي أشبه بهيئة قضائية، والجمعية الثانية تتقلد المهام الإدارية وهي بمثابة وزارة تابعة لقره – جورج. لكن، لا بدّ في هذه المناسبة، أن نعرب عن إعجابنا بالحس السياسي الذي يملكه هذا الرجل العظيم والذي يضاهي بعد نظره في الأمور العسكرية بسالته في القتال. فما كان منه إلاّ أن استدعى أصدقاءه وأعداءه أيضًا وأبقاهم في مناصب حساسة ومشرفة لكنه فصلهم عن جماهيرهم المعتادة على إطاعتهم وفتت

(*) الدييت: مجلس تشريعي في عدد من بلدان أوروبا.

أوليغارشيتهم التحريضية. ثم أصدر قانونًا يقضي على كل صربي بالنفي في حال أبدى معارضة للتوزيع الجديد للسلطة. حكم على دوبرينياس وميلنكو بالنفي فلجأ إلى روسيا. وانضم نينادوفيتش من جديد إلى حلف جورج عقب زواج ابنته بميلودان أحد الأنصار الأكثر نفوذًا للديكتاتور الحاكم.

اقترح السلطان على قره – جورج الاعتراف به بصفته أوسبودارًا صربيّاً وبضمانة من روسيا، مقابل أن يحتفظ الأتراك بقلاعهم وبأسلحة الصربيين. وهكذا بدأت سلسلة مفاوضات معقدة طالت دون أن تفضي إلى نتيجة حتى عام ١٨١٣، حين قطعت جميع سبل التفاهم بين جورج والباب العالي. فدعا عندئذٍ مواطنيه إلى حمل السلاح مجددًا قائلاً لهم: «هزمتم أعداءكم لأننا حاربنا سوية أنا وانتم لمدة تسع سنوات. قاتلتم دون سلاح ودون ساحات وغى، وها قد حصلتم الآن على مدن وأسوار وأنهار تفصل بينكم وبين الأتراك. تملكون مئة وخمسين مدفعًا وسبعة حصون وأربعين بابًا محصنًا وغابات منيعة شكلت حصنًا أشد منعة لكم. أضف إلى ذلك أن الروس سيزحفون لمساعدتكم فلم أنتم مترددون إذًا؟»

في هذه الأثناء، بدأ الأتراك، بإمرة قائدهم، وهو باشا مدينة فيدين، تحركاتهم. استغل الصدر الأعظم انشغال الفرنسيين بانتصارهم في لوتزن ليحثوا الباشاوات على وضع حدّ لهذا الصراع الطويل، المسيء إلى سمعة الباب العالي وهيبته. زحف مائة وثمانية عشر ألف تركي لينقضوا على المقاتل فيليكو فحاصروه في نيغوتين. أصيب فيليكو بكرة مدفع فسقط صريعًا. عندئذٍ تشتت جيشه وفرّ هاربًا عبر المستنقعات إلى جزيرة بوتش. في الجنوب، دحر خورشيد، على رأس جيش كبير، الجنرالين الصربين ملادن وسيما ثم أقام معسكرًا تحت أسوار شاباز. لم يسبق للأتراك أن شنوا على صربيا مثل هذه الهجمات العنيفة . تراجعت حماسة الصربيين للاستقلال بفعل الانقلابات الكثيرة التي حصلت أو ربما بسبب مرور ثلاث سنوات سلام شهدوا خلالها انشقاقات داخلية. انكسفت وطنية صربيا ومجدها، وقره – جورج نفسه استسلم لقدره

ووجد نفسه عاجزًا عن لعب دور تجاه وطنه، إما لأنه رأى مسبقًا الكارثة المحتومة وأراد انتظار ظروف مؤاتية أكثر للتحرك وإما لأنه فقد بسالته وأراد إنقاذ حياته وثرواته ففرّ إلى النمسا مع سكرتيره جينكي وثلاثة من مستشاريه وهكذا انطفأ نجم هذا البطل الصربي إلى الأبد، مفضلاً الموت في إحدى قلاع النمسا، بدل أن يجد بين أقرانه وعلى أرض وطنه ميتة عزيزة كان من شأنها تخليده لا سيما أنه كان أول من أيقظ لديهم شعور المواطنيّة ! عندما علم الجيش بنبأ هربه، تشتتت صفوفه، وسقطت سماديريفو وبلغراد في قبضة الأتراك مجددًا. أصبحت صربيا بشليقًا وأصبح سليمان الذي هزمها، سيدها وباشاها. هرب أعضاء مجلس الشيوخ ولم يصمد منهم إلا شاب لا يزال في مقتبل العمر وهو ميلوش أوبرينوفيتش الذي بقي وفيّاً لقضية الاستقلال الميئوس منها. فما كان منه إلا أن حرّض المقاطعات الجنوبية على الانتفاضة وأراد احتلال أوشي. ولكن، بعد أن خانته الفرق المحاربة معه، أجبر على القبول باقتراحات الأتراك، فمثل لدى سليمان باشا الذي استقبله باحترام. وجرى استخدام الصربيين الذين جردوا من أسلحتهم في تشييد الحصون التي سيشرف منها الأتراك على بلادهم. ورأى السباهي،الفرسان الأتراك، الفرصة سانحة لاستعادة طغيانهم والإمعان في إجراءاتهم الانتقامية التعسفية بعد أن جردهم الصربيون الشجعان من نفوذهم طيلة تسع سنوات وأرغموهم على العيش في المنفى القسري كل تلك المدّة.

لكن المشاعر الوطنية عادت لتتنامى من جديد جرّاء هذا الاستعباد القاسي المهين. كانت نار العصيان مشتعلة تحت الرماد، وكان ميلوش يراقب الوضع بعين ساهرة ويتحيّن الفرصة المؤاتية، ويعمد بنفسه إلى إرجاء مساعي أصدقائه ظنّاً منه أن الساعة لم تات بعد. وأخيرا كانت الوحشية التي تعامل بها الأتراك مع الثوار الصربيين الذين انتفضوا في أياغودينا كانت أشد وقعًا عليه ووطأة من النصائح التي دعته إلى اتخاذ جانب الحذر. ذلك أن الأتراك، بدل أن يفوا بوعودهم، استقدموا قادة هذا العصيان المتمرد إلى بلغراد وأعدموا مئة وخمسين رجلاً منهم رميًا بالرصاص ورفعوا ثلاثة وثلاثين منهم على الخوازيق. كان ميلوش هو نفسه في بلغراد وآلمه عذاب أبناء وطنه في

الصميم. انتفض دمهم المراق في وجهه ودوّى صراخهم في قلبه. لاحظ الأتراك غضبه فخشوا انتقامه وعمدوا إلى أسره. لكنه أفلت من قبضتهم بعد أن اعتقلوه واستطاع اجتياز الأسوار واللجوء إلى جبال رودويك ملتحقًا بحلفائه، واشتعلت نيران الثورة كما تشتعل النار في غابات صربيا.

ولد ميلوش عام ١٧٧٠. تزوجت والدته فيشنيا مرتين . كان زوجها الأول يدعى أوبرن. أنجبت منه ولدًا أسمته ميلان أما زوجها الثاني تسكو فقد أنجبت منه عدة أولاد من بينهم ميلوش. كونه من عائلة فقيرة،وجد ميلوش نفسه بادئ الأمر مجبرًا على سوق قطعان العجول التي كان تجار البلاد الأغنياء يرسلونها إلى أسواق دلماتيا. ثم عمل لدى ميلان شقيقه من أمه، الذي كان يمارس تجارة البهائم. كان الشقيقان يحبان أحدهما الآخر حبّاً جمّاً لدرجة أن ميلوش اتخذ هو أيضًا اسم أوبرنوفيتش أي اسم عائلة والد ميلان. ازدهرت تجارتهما وأصبحا ثريين ونافذين منذ مرحلة العصيان الأولى التي شهدتها البلاد وشاركا فيها، كل على طريقته. بقي ميلان المسالم واللطيف في المنزل منصرفًا إلى إدارة المحافظة وذهب ميلوش المقدام والشجاع ليحارب في كنف قره – جورج.

عندما غيّر قره – جورج دستور البلاد، أعدم ميلان رميًا بالرصاص بناءً على أوامره لأنه انحاز ضده في مجلس الشيوخ. وها هو ميلوش يدين الآن بجزء من ثروته ومجده الحالي لوفاة أخيه، دفعه الانتقام للانضمام إلى صفوف المستائين، ولم يشأ ميلوش اللحاق بالقادة الذين فرّوا عام ١٨١٥، دخل ميلوش الذي فرّ من بلغراد إلى كنيسة تاكوفو حيث احتشد جمع غفير، وخطب في هذا الجمهور بتلك الفصاحة الطبيعية التي يتمتع بها السلافيون، مستغلاً ظروف تلك المرحلة من اليأس والخيبة ليظهر قدرته الفائقة على التأثير على مشاعر الناس في المنعطف الخطير الذي يجتازه الوطن. انطلقت الأعمال الحربية واستطاع ميلوش على رأس فرقة صغيرة من الخيالة

من أبناء محافظته وألف رجل من الجبال أن يسيطر على أحد المنافذ التي يتحكم بها السباهي ويستولي على مدفعين. أثار هذا الانتصار ضجة فرجع النازحون وخرج الفارون من مخابئ الغابات ونزل الهيدوك من الجبال. قتل القائدالعسكري للباشا الذي جاء على رأس عشرة آلاف تركي واتخذ قرارًا متهورًا بإقامة مخيّم تدريب في سهول المورافا. أثار مقتله الرعب في المعسكر فهرب الجنود الأتراك إلى سينيتزا. وهناك، شنّت معركة جديدة انتصر فيها ميلوش. وسقطت الغنائم والنساء ومدافع الأتراك في أيدي الصربيين. عندئذٍ خرج علي – باشا من بلغراد مع ما تبقى له من فرق عسكرية وزحف منقضّاً على ميلوش فهزم وانسحب إلى كيوبرا يواكبه جنود ميلوش المنتصر. عندئذٍ استسلم أيضا آدم – باشا ذليلاً ولجأ إلى نوفيبازار فتوجّه اليه ميلوش بالهدايا. ثم نزل باشا بوسنيا من الجبال يواكبه جيش فتي كثير العدد فيما أرسل علي – باشا وهو أحد ضباطه لمحاربة ميلوش في منطقة ماتشواي فوقع علي – باشا أسيرًا وأعيد إلى الصدر الأعظم مغمورًا بالهدايا. أظهر الصربيون أنهم، بسخائهم، يستحقون فعلاً هذه الحضارة التي يحاربون من أجلها. عامل ميلوش أعداءه على أساس أنهم أصدقاؤه المقبلون. أحسّ أن الاستقلال التام لبلاده لم يحن موعده بعد فمهّد له بمعاهدات صداقة بدل ارتكاب المجازر التي تسيء إلى كرامة وطنه. ولكن، على حدود مورافا كان الجنرال مرشلي علي – باشا يتقدم بدوره لينقض على الصربيين، بيد أن القسمة والانشقاق كانا، لحسن الحظ، على أشدّهما بين هذا الجنرال وخورشيد باشا، الصدر الأعظم الأسبق وباشا بوسنيا حاليّاً. وهكذا فإنهما لم يعملا على توحيد خططهما وأضمر كل واحد منهما الضغينة للآخر ليتسنى له الاستئثار بالانتصار. رغب كلاهما في التفاوض وتسابقا للحصول على شرف إنهاء الحرب. كان ميلوش على بينة من هذا الانشقاق فعرف كيف يفيد منه وتجرأ على المثول شخصيّاً في حضرة الصدر الأعظم، وسط معسكر الأتراك وحظي بمقابلة مع خورشيد – باشا. لم يستطع الفريقان التوصل إلى التفاهم. أراد ميلوش أن تحتفظ صربيا بأسلحتها،

وأذعن الباشا لكل الشروط ما عدا الشرط الذي يلغي الالتزامات المعقودة سابقًا. انتفض ميلوش غاضبًا وامتطى حصانه. أمر خورشيد باشا بإيقافه وانقضّ جنود الانكشارية عليه. لكن علي – باشا، الضابط في جيش خورشيد الذي هزمه ميلوش وأرجعه إلى الوزير محملاً بالهدايا، تدخل بشجاعة ووقف سدّاً منيعًا بين السباهي الأتراك وبين ميلوش وقال لخورشيد إن ميلوش جاء إلى المعسكر إيمانًا منه بكلامه وبالتزامه الوعد بإخراجه سالمًا من المخيم، وانه يفضل الموت على الاعتداء على حياة الرجل الذي يدين له بحياته. وفرض علي – باشا قراره الحازم على الوزير وجنوده وتعهد بمرافقة ميلوش إلى خارج المعسكر. قال لميلوش عندما كان يهم بالمغادرة : «عسى يكون ذلك درسًا لك وألا تثق بأحد من الآن فصاعداً ولا حتى بنفسك ! كنا أصدقاء وها نحن نفترق اليوم وإلى الأبد» . ابتعد ميلوش واستؤنفت جولة جديدة من المفاوضات مع مرشلي – علي – باشا أفضت إلى نتيجة أفضل تقضي بإبقاء السلاح بأيدي الصربيين. ثم ما لبث أن توجّه وفد من النواب الصربيين إلى القسطنطينية وعادوا بعد شهر حاملين فرمان معاهدة سلام ورد فيه ما يلي: «كما أن الله عهد برعاياه إلى السلطان، كذلك يعهد السلطان برعاياه إلى الباشا». عاد الباشا إلى بلغراد وجاء القادة الصربيون ليعبروا عن خضوعهم بواسطة ميلوش. بقيت الحصون في قبضة الأتراك وأخذ الصربيون يفرضون وجودهم تدريجًا. تقاسم الفريقان إدارة البلاد وأنشئ مجلس شيوخ مقره في بلغراد بالقرب من الباشا . كان سليمان باشا يناصب العداء للصربيين فاستدعاه السلطان وأقاله من منصبه في بلغراد معينًا مكانه علي – باشا الذي كان محبوبًا من الأهالي. لا يمكن لمثل تلك الحال أن تدوم طويلاً، فالصدام أمر محتوم. بقي ميلوش قائد شعبه في بلغراد، بالقرب من علي – باشا، حارسًا متيقظًا ساهرًا على أمن بلاده وعلى أهبة الاستعداد دومًا لاتخاذ خيار المقاومة أو الهجوم. سعى علي – باشا للحصول من خلال المفاوضات على انتزاع السلاح من الصربيين بدل اللجوء إلى القوة. فتوجه إلى ميلوش متوسلاً إليه أن يجمع الأسلحة من

الشعب. فأجابه قائلاً إنه وأصدقاءه مستعدون لتسليم أسلحتهم لكن يستحيل عليه تجريد الفلاحين منها. فاغتاظ الباشا وألّب عليه رئيس المستشارية الصربية مولر والمتروبوليت نيكفيتز، لكن حرس ميلوش قبضوا على هذين المتآمرين أثناء انعقاد الجلسة وأرغموا الباشا نفسه على أن يحكم عليهما بالإعدام، لا سيما أن السلطة التنفيذية كانت في يده. وإزاء ضعف الباشا، ازدادت جسارة الصربيين. خرج ميلوش من بلغراد تجنبًا للأفخاخ التي كان ينصبها له الأتراك وخصومه من الصربيين وفرض على نفسه العزلة في توبشيدور على مسافة نصف فرسخ من بلغراد. في عام ١٨٢١، حصلت محاولة انقلاب فاشلة على ميلوش لوضع حدّ لحياته انتهت بإعدام القائدين العسكريين اللذين قاما بها. توجهت أصابع الإتهام نحو الباشا واتهم بأنه المحرّض على هذا الاعتداء، ما زاد الكراهية بين الأتراك والصربيين. في هذه الأثناء، شهدت ألبانيا حركات تمرد فيما كانت حرب استقلال اليونان تشغل الأتراك وتثير غضبهم. أي أن الظروف كانت ملائمة لتمركز السلطة القومية في صربيا،لأن الشعوب لا تستطيع الفوز بحريتها إلا حين يجسّد قائد عسكري طموحاتها. وقضت مصلحة أهل البلاد أن يردوا الجميل لذلك الذي حقق لهم استقلالهم وعرف كيف يدافع عنه فكرسوا في البلاد نظام الحكم المتوارث. فالأمم الناشئة تندفع بغريزتها إلى الحكم الملكي. هذا هو الوحي الذي تستلهمه لاستقلالها الذي لا يزال مهدداً. وهذه الغريزة هي الأقوى في صربيا لا سيما أن الأنظمة الجمهورية هناك لم تبصر النور بعد. كان ميلوش يوافقهم الرأي وتوجب عليه الإفادة من اقتراحهم فبسط سلطته على البلاد مستعيدًا روحية دستور الذي وضعه قره – جورج والذي يجعل طبقة الأرستقراطية الفلاحيّة وسيطًا بينه وبين الشعب وتوكل إليها مهمّة إدارة البلاد. كان لكل من هؤلاء الأرستقراطيين مقاطعته الخاصة، وقد عيّن ميلوش أغلبيتهم، وحدد بنفسه الأقاليم الخاضعة لهم والصلاحيات المعطاة لهم. وتجنبًا لأي ابتزاز من قبل هؤلاء الأرستقراطيين، خصصت لهم رواتب تدفع من الخزينة العامة. كذلك أقيمت محاكم درجة أولى في المدن والقرى. وأقيمت

محكمة عليا مقرها في كرازفاتز وعيّن ميلوش قضاتها. ظلّت الأحكام العرفية مطبقة إلى أن تتم التشريعات وسنّ القوانين اللازمة. وأوكل حصريّاً حق إصدار الحكم بالإعدام إلى القائد الأعلى للبلاد. ظلت صربيا تدفع الإعانة المالية للباب العالي وهي ضريبة رمزية ومجرد اعتراف بتبعيتها القديمة للباب العالي وكان يستوفيها القائد الأعلى ويسلمها بدوره إلى الباشا. أما الباشا فكان ظلاً باهتًا لسلطة لم تعد موجودة وبات فقط مجرد حارس تائه تابع للباب العالي مهمته مراقبة الدانوب ورفع التقارير للأتراك الذين يحرسون الحصون. كان على الصربيين أن يؤمّنوا احتياطًا مؤلفًا من أربعين ألف رجل في حال شنّت تركيا الحرب على النمسا. أما الإكليروس الذي كان يتمتّع سابقًا بنفوذ أوسع من نفوذ ميلوش نفسه فتراجع دوره بعد أن انتزع من يده حق البت في أحكام القضاء بعد أن انتقلت هذه الصلاحية إلى محاكم مدنية. أخضع الكهنة الأرثوذكس والرهبان وباقي أفراد الشعب لعقوبات جسدية ودفعوا الضرائب المشتركة، وجرى التعامل مع الثروات التي يملكها المطارنة وفقًا لقوانين أصدرتها الدولة. وهكذا ارتكزت كل سلطة بين يدي القائد الأعلى. وهكذا تبدو حضارة صربيا أشبه بمخيمٍ فسيحٍ يعيش ساكنوه في جو من الانضباط والتنظيم والذوبان بشخص القائد الذي يبسط سلطته الفعلية على البلاد ويفرض طاعته على العباد. ولعل مرد هذا الواقع إلى وجود الأتراك، فالصربيون متأهبون دومًا ومسلحون وقائدهم جندي متأهب على الدوام . كان الأتراك يعارضون استقلال صربيا الجزئي. ولم تستطع معاهدة أكرمان المبرمة عام ١٨٢٧ أن تقدّم أي حلول. فحين عقد مجلس تشاوري في كراغوزفاتز للتداول بشأن معاهدة أكرمان. تدخل ميلوش وقال:

«لا أعرف إذا كان ثمة أناس مستاؤون من العقاب الذي أنزلته ببعض المخلّين بالاستقرار. اتهمت بالصرامة التامة في المواقف وبتعطشي الجارف للسلطة، فيما لم أضع هدفًا آخر نصب عيني إلاّ الحفاظ على السلام والطاعة اللذين يفرضهما علينا

البلاطان الإمبراطوريان. نسبت إليّ أيضًا تهمة إرهاق كاهل الشعب بالضرائب. لكن هل نسيتم الثمن الباهظ الذي دفعناه لقاء الحرية التي ننعم بها الآن؟! أليس الاستعباد أكثر كلفة! لو تولى منصبي رجل ضعيف لكان استسلم للمصاعب الناتجة عن الأوضاع التي تمر بها البلاد. لم أستطع أن أقوم بواجباتي التي أمليتها على نفسي تجاه الشعب والأباطرة وتجاه ضميري والله نفسه إلاّ حين تسلّحت من أجل خلاصكم بالعدالة والحق الذي لا يقهر» . بعد هذا الخطاب، حرّر المجلس مرسومًا رفع إلى ميلوش الذي أرسله بدوره إلى الباب العالي، وتعهد من خلاله الصربيون، عبر هيئة قادتهم بأن يظهروا الطاعة الأبدية لسموّ الأمير ميلوش أوبرنوفيتش وخلفه من بعده. دفعت صربيا ما تدين به إلى ميلوش وها هو يدفع بدوره دينه إلى صربيا. شرّع لأبناء وطنه قوانين بسيطة كعادات شعبه ولكنها مستوحاة من تشريعات عصر الأنوار في أوروبا. أوفد كما في السابق رجال قانون صربيين شبانًا ليسافروا إلى العواصم الأوروبية المتطورة ويطّلعوا على شؤون التشريع والإدارة ويستوحوا منها تشريعات لبلادهم صربيا. استعان ببعض الخبراء الأجانب في إدارته ليكونوا وسطاء في حقل اللغات والفنون في الأمم المجاورة. وأدرك السكان حينئذٍ، الذين لم يعودوا في حالة حرب، والذين استعادوا حياتهم الطبيعية وأعمالهم في الزراعة والتجارة، ثمن الحرية التي يعيشون في ظلها ، فازداد عددهم وتضاعف نشاطهم وارتقوا خلقيّاً إلى مستوى الإحساس العميق بالمصلحة العامة، وفقد رجال الدين من امتيازاتهم ولم يعد الدين مظهر الحضارة الوحيد لدى الشعوب الذين لم يواكبوا حركة تطور الشرائع من غير أن يفقد مع ذلك نفوذه الإيجابي، كان توفير التعليم لجميع الشعب الموضوع الأساسي الذي عنيت به الحكومة. وتجاوب الشعب، على أكمل وجه مع الجهود التي بذلها ميلوش ليجعله جديرًا بمواكبة ركب الحضارة المتمثل في تطبيق الأنظمة الحديثة. لكأنه أدرك أن الشعوب المتنورة وحدها تملك القدرة على أن تصير شعوبًا حرة، فأحس أنه على عجلة

من أمره للوصول إلى هذه الغاية، التي سعت إليها السلطات البلدية الموزعة في المقاطعات وكأنها نواة لكل محاولة تحرّر. تململ بعض المنفيين الصربيين الذين أبعدهم الأتراك بعد هرب قره – جورج أو الذين أبعدهم ميلوش نفسه بعد أن تآمروا ضده، وتحيّنوا اللحظة المناسبة للعودة إلى وطنهم الذي حرموا منه والاعتراف بنفوذ البطل الذي حاربوه، لا سيما وأن النظام أخذ يستتب يومًا بعد يوم والآراء تتلاقى على تعزيز وحدة وطنية جامعة.

لا يزال عشرة آلاف تركي يحتلون الحصون. وإذا شاء الأمير فهو يستطيع طردهم منها بسهولة ذلك أن كل من في البلاد متأهب لتلبية ندائه. لكن وجود الأتراك في هذه الحصون ومشاركتهم في السلطة اسمية وليست لها آثار سلبية على صربيا. لا بل خلافًا لذلك، بوسعها أن تقيها من الاضطرابات الداخلية والمؤامرات الخارجية التي ستظهر حتمًا في حال كانت منفصلة تمامًا عن الامبراطورية العثمانية. يفضل الأمير ميلوش الوضع الراهن على اللجوء إلى حرب جديدة وخيمة العواقب، فيماالشعب ينعم بحال السلام هذه التي تسمح له بتعزيز ازدهاره لا سيما وانه يطمح للحصول على استقلاله الناجز فكل السكان مسلحون ويبسطون نفوذهم على مناطق البلاد الداخلية والمدن والقرى. الباشا يقيم في بلغراد وميلوش يتردد أحيانًا إلى بلغراد، ويمكث أحيانًا اخرى في قصره الذي يقع على بعد ميل من هذه المدينة، في كراغوزفاتز. هنا يجد نفسه بمنأى عن الأتراك ومقيم في آن في النقطة المحورية من صربيا ثم إن طبيعة البلاد وحال التأهب الدائم التي تعيشها جعلاه بمأمن من المفاجآت.

يبلغ ميلوش التاسعة والأربعين من العمر ولديه ولدان كبيرهما في سن الثانية عشرة.

لا شك أن مستقبل السلطنة العثمانية هو الذي سيقرر مصير هذه العائلة وهذا الشعب، يبدو أن طبيعة الأمور تؤهل ميلوش للمشاركة في الأحداث مشاركة فعّالة، تلك الأحداث التي تتحضر في تركيا الأوروبية وفي إمبراطورية آسيا على حد سواء. عمل الأمير على نشر الأناشيد الشعبية بين أوساط الشعب منبها إياهم إلى مجد صربيا العتيد ومستقبلها الباهر ومذكرًا بمجدها القديم المتمثل في ملكها السابق البطل إتيان دوشان. أخذت مآثر المحاربين القدامى وبطولاتهم تدور على كل لسان وتجعل الصربيين يحلمون بانبعاث أمة سلافية جديرة بأن تصان بالأرواح والمهج لتبقى حيّة في أذهان الشعب وتبقى لغتها وعاداتها وتقاليدها الأصيلة في غابات شومادیا.

لا يسع الرحّالة، مثلي، إلا أن يحيي حلم هذا الشعب ورجاءه.لا يسعه أن يغادر هذه الغابات العذراء الهائلة وهذه الجبال إلا والحسرة تعتمل في قلبه قبالة هذه السهول والأنهار التي تبدو وكأنها خارجة من بين يدي الخالق. لا يسعه إلا أن يماثل بين فتوة الأرض المتألقة وفتوة الشعب. وعندما يرى الرحّالة بيوت الصربيين الجديدة تتوزع بين الغابات أو ترتفع عند ضفاف الشلالات لتمتد كفرجات طويلة صفراء في عمق الأودية. عندما يسمع من بعيد أصوات المناشر وصخب الطواحين وقرع الأجراس المرفوعة حديثًا فوق القبب والمعمّرة بدم المدافعين عن الوطن، أو نشيد الوداع والتأهب للحرب الذي ينشده الشبان والصبايا لدى رجوعهم من أعمالهم في الحقول. عندما يرى هذه الصفوف الطويلة من الأطفال تتخرج من المدارس أو من الكنائس الخشبية التي لم تكتمل سقوفها بعد. عندما يسمع نبرة الحرية والسعادة والرجاء على كل الألسنة ويرى اندفاعة الشباب وحميته على سيماء كل الوجوه. عندما يفكر في الظروف الملائمة التي يوفرها مناخ البلاد لسكانها ، تحت أشعة الشمس المعتدلة التي تنيرها والجبال التي تظللها وكأنها حصون أقامتها الطبيعة ونهر الدانوب الجميل الذي ينحني لمعانقتها وينقل الخيرات التي تنتجها البلاد إلى الشمال والشرق معًا وبحر الادرياتيك الذي سيكون مهدًا لمرافئ الملاحة البحرية التي ستصلها بإيطاليا. عندما يتذكر الرحالة دلائل اللطف والمودة والإكرام التي

الاول من كانون الثاني/يناير ١٨٤٦

ذات صيف من عام ١٨٣٣، كنت مبحراً مع نسيم الصباح العليل في القناة الضيقة الهائجة التي تفصل جزيرة هيدرا عن ساحل البيلوبونيز. إلى يساري الجبال الخضراء يسمونها حدائق لأن جوانبها وسفوحها مظللة ببعض شجرات الدفلى والرمان. إلى يميني جزيرة هيدرا أو بالأحرى صخرة هيدرا وبيوتها المنحوتة في الصخر التي تجعل المدينة أشبه بحراشف سلحفاة عملاقة تغفو عند شاطىء البحر. كنا نجتاز عشرين عقدة بحرية في الساعة باسطين جميع أشرعتنا بما فيها الأشرعة الإضافية. كانت سفينتنا تنوء تحت ثقل الصواري وضربات المجاذيف القوية التي تدفع بمؤخرتها فتنحبس لحركتها أمواج الزبد المالحة غامرة ظهر السفينة. بلغنا في ساعات قليلة مدخل خليج أثينا العميق، هناك حيث تلتقي ثلاثة بحار في مصب يبلغ اتساعه عشرة أو اثني عشر فرسخاً محدثة ضجة مروعة، وبدت صفحة الأمواج مثلمة بخطوط طويلة مقبّبة من الزبد. وفجأة ظهر زورق خفيف مترنحاً بين تلال الأمواج، شاقّاً طريقه بسرعة وإقدام وسط هذه الفوضى الرائعة. وصل الزورق بالتزامن مع سفينتنا إلى الشاطئ التقليدي المنشود، ورأينا ثلاثة مسافرين ينزلون منه. بدت ملامح وجوههم تعبّر عن شغفهم البالغ بكل ما هو حيويّ ووجداني على غرار أبناء فرنسا المرهفي الحسّ تجاه كل ما تراه أعينهم من جميل وشهير وعظيم، هذا في حال ظلوا، بالطبع، أوفياء لأصالتهم. هؤلاء المسافرون الذين التقينا هم: الكونت جوزيف دستورميل والسيد والسيدة غونتو، قريبيه. شارف الكونت على السن التي يتجه فيها الخيال، وهو لا يزال في أوجه، لتذكر الماضي وما يثيره فينا من انطباعات ومشاعر مكتنفة بكآبة تلقائية. إنها السنّ التي تصبح فيها الذكريات كنز الحياة الجوهري. من منا لا يشعر في اليونان أن هذه البلاد توقظ فيه ذكريات شخصية متصلة بأحلام شبابه وطموحاته وأوهامه النبيلة؟ تقلد السيد دستورميل أرفع المناصب الإدارية خلال فترة عودة الحكم الملكي إلى فرنسا(*)، لكنه لم يعد له من دور في هذا السلك منذ حدثت التغييرات

(*) عودة الحكم الملكي إلى فرنسا بعد سقوط نابوليون عام ١٨١٤.

المفاجئة في مؤسساتنا الوطنية. بيد أن موهبة الكونت دستورميل تتجلى في القدرة على التنظيم والإدارة في مجالات العمل كافة، وكان يسعى من خلال الاستكشاف الدقيق والمتقن للأصقاع التي انبثقت منها الروح الأدبية واللاهوتية أو الأخلاقية للحضارة الأوروبية، إلى ايجاد مجالات للعمل تستوفي ديناميته ونشاطه. كان يريد أن يختتم «الكاليري» المتنوعة لمعارفه الفكرية بلوحات براقة وجليلة في آن. أما السيد والسيدة غونتو فكانا في مقتبل العمر وهما يطأان ببهجة وشوق منقطع النظير هذه الأرض المجبول ترابها بالخلود وهذا الشاطئ الذي يجعله التأمل قديمًا قدم التاريخ وتجده العين نضرًا كالخيال. في مثل عمرهما، يكون الفضول طبيعيّاً ويستقبل بحفاوة الغنى والعراقة التي تسم هذه الأراضي كافة، التي يحدّها البارناس من جهة وسيناء من الجهة الأخرى. تحدونا دومًا الرغبة في أن نرى الأرض التي اعتدنا أن تحتضن عرش الماضي، مزدهرة بالآمال. زرنا معًا أطلال مدينة مينرفا وشاهدنا بدايات النهضة المتواضعة التي حققتها عاصمة اليونان مؤخرًا وتدعو الرحّالة إلى اكتشافها. قام السيد دستورميل بوصفٍ مدروس ومسبوك بلغة جميلة للانطباعات التي أثارتها أثينا في ذاكرته. وصفه منهجي واضح ومسلٍّ وزاخر بالتفاصيل، فعلى هذه الأرض التي لا تزال أرجاؤها ترجّع أصداء جوقات سوفوكليس، ما من حجر لا يحمل اسمًا أو يردّد أصداء سمفونية أو مقطوعة شعرية.

بعد عدة أيام، رسونا في رودس آملين أن نلتقي فيها بالكونت، هذا المراقب المتحمس المبتهج في آن، الإغريقي حقّاً بثقافته الفرنسي حقّاً بطبعه. هذه المرة أثارت فيه رودس ذكريات من طبيعة أخرى،أكثر حميمية،انفعالات جديدة تتعلّق بالحنين إلى زمن الفروسية وترمي جسرًا مضيئًا فوق هاوية العصور والأحداث التي تفصل اليونان القديمة عن فرنسا المعاصرة. إن خوذة الصليبي هي الفاصل بين مرحلة تقديم الأضاحي وزيارة الأماكن المقدسة المعاصرة. لسوء الحظ، أخّرت الرياح المعاكسة رسو سفينة دستورميل لثلاثة أيام، فوصل إلى رودس غداة رحيلنا وباشر فورًا أبحاثه

المتعلقة بالألقاب العائلية التي أمكنه اكتشافها بسهولة في الأرشيفات الحجرية التي حافظ عليها الأتراك بأريحيتهم النابعة من تكاسلهم فظلّت كما هي سليمة لم تمس. عوّض هذا النشاط للكونت عن التعب الذي كان أصابه. فالألقاب في رودس تكتب بالدم وتختم بالمجد. والقسم المتعلق بالملجأ البطولي لفرسان القديس يوحنا في القدس(*)، هو الأكثر تميّزًا في المجلّد الأول من حيث دقة المعلومات ووضوح الألوان.

«بقيت القرون الوسطى في رودس بكل مظاهرها الحربية وأبراجها وكوى مراميها وقناطرها وشعارات نبالتها. لدينا في فرنسا مساكن من هذا النوع، لكن أن تجد مدينة بكاملها على هذا النحو، فهذا جديد عليّ تمامًا. كان المرفأ حيث نزلنا يحف بالأرصفة التي تهدمت أقسام كبيرة منها وبأسوار تشرئب منها كوى الرمي. فوق التحصينات الأخرى، يرتفع برج مربع جميل عالٍ مزدان عند قمته بمدارات مدفعية أربعة. خلال الحصار، دعي البرج برج القديس نقولا ودافع عنه أحد القشتاليين بشراسة. ما أن نجتاز الأبواب حتى ندخل عبر مجموعة أبنية حجرية مزدانة بنوافذ صغيرة مربعة وأبواب منخفضة وأرصفة لا تترك معها مكانًا إلا لطريق ضيقة. بعض الشوارع شقّت بشكل أفضل وباتت تشبه حيّاً نبيلاً شبيهًا بضاحية سان – جرمان . احتفظ أحد الشوارع الأكثر استقامة واتساعًا باسم شارع الفرسان، وهو يخترق المدينة مفضيًا من جهة إلى المسجد الواقع بالقرب من باب الحصن ومن جهة أخرى إلى الكنيسة القديمة شفيعة البلدة، كنيسة القديس يوحنا. ما زالت الفنادق التي تحيط بها كما كانت في نهاية القرن الخامس عشر ومعظمها يحمل هذا التاريخ. وحدها أضيفت بضع شرفات مغلقة إلى النوافذ لتمنع تسرب ضوء النهار وأعين المتطفلين من النظر إلى داخل الغرف. هناك مرامي سهام وأبراج صغيرة ومزاريب حجرية بارزة فوق الواجهات».

«ما يزيّن بشكل خاص هذه البيوت هو وفرة شعارات النبّالة المنحوتة في الحجر

(*) فرسان القديس يوحنا : جمعية تأسست لإسعاف المرضى ممن زاروا القدس عام ١١١٣م، صارت في عهد الصليبيين منظمة عسكرية عام ١١٣٧م، تحصّن أعضاؤها في قبرص عام ١٢٩١م، فتحوا رودس عام ١٣١٠ ومنها سمّوا بـ «فرسان رودس».

أو المصنوعة من الرخام الأبيض وهي منتشرة بكثرة تحت السقوف. أحيانًا نجد سبع شعارات منها مجتمعة في مكان واحد. صليب الرهبنة في كل مكان ، لكن ليس وحده فالصليب المربوط بمرساة موضوع على كل الأبواب والأماكن الأكثر بروزًا، وهذا برهان أكيد على أن المدينة قد أعيد بناؤها في قسم كبير منها بعد الحصار الأول. تزيّن المنازل أزهار الزنبق الموجودة بكثرة في مناطقنا. لكن وسط كل هذه الأشياء، يشعر المرء بخيبة كبيرة لعدم تمكنه في رودس من الاستعلام عن أي شيء. فالضيوف النبلاء الذين سكنوا هذه المنازل لم يتركوا أثرًا وراءهم. وهذه المستعمرة الفروسية، حين رحلت، أخذت معها تاريخها. اذهب إذًا واسأل الأتراك عن تاريخ رودس! لا يعرفون شيئًا عن تاريخها. كل ما وجدوه منازل فارغة فسكنوا فيها متناسين حتى أن ينتزعوا عن الأسوار الصلبان التي تبدو وكأنها تتحداهم. علينا أن نطمئن إلى عدم مبالاتهم. لهم ندين ببقاء هذه المدينة المجيدة التي حافظوا عليها. ليس صحيحًا ما قاله الأب فرتو من أنها لم تكن إلا ركام حجارة وتراب عندما احتلها السلطان سليمان عام ١٥٢٢»

التقينا من جديد السيد دستورميل في القدس حين كنا نقوم بجولة عند هذه الأسوار التي أظهر أجدادنا أمامها الكثير من البسالة والبطولة (لم تكن هذه البطولة عبثًا لأن ثمة قيثارة خالدة غنت أمجادها ولا شيء يضيع مما تخطّه العبقرية). هل كان رحّالتنا يبحث، عند هذه الأسوار، عن الفتحة التي غرز فيها رامبو كريتو، أحد أجداده، أول راية تحمل الصليب؟ أشك في الأمر لأن التواضع الكبير هو إحدى الصفات الثابتة للسيد دستورميل. لكننا رحنا نفتش، بدلاً منه، عن هذه الآثار المجيدة، فالغرور له ما يبرّره لدى الأصدقاء. والقدس هي المسرح حيث شاءت العناية الإلهية أن تحسم الأمور هناك ضمن سلسلة طويلة من القرون المتشابهة. القدس مكان يكفي ذكره حتى يخفق قلوب المؤمنين بالديانات الثلاث الكبرى في نواحي العالم بأجمعه وتنخفض أعينهم احترامًا وخشوعًا.

....

أما اليوم، فها قد عدنا إلى الوطن. عاد السيد دستورميل لينشر رائعته المصورة

عن الرحلة الجميلة التي قام بها، ويتمتع بسلام بسنوات الراحة هذه التي يمنحها الله للإنسان بعد سنوات التعب. وعدت أنا لأكمل رحلتي وأسفاري عبر هذه الأهواء الدينية والسياسية النبيلة التي تتنازعني؛ أبحث عن الأفكار التي تندفع الشعوب صوبها بفعل غريزة حب الاكتشاف، مثلما كان يذهب البحّارة سابقًا لاكتشاف مناطق الأرض الأكيدة ولو كانت مجهولة؛ لكننا أنا والسيد دستورميل تعاهدنا على هذه الأخوة، أخوة الرحّالة التي لا تنفصم عراها. كنا مسافرين اثنين ولدا تحت سماء واحدة ويتكلمان اللغة نفسها، مواطنين فرنسيين ينتميان إلى وطن واحد ألا وهو الأرض الغريبة التي جالا فيها سوية. إنها المواقع، الشعوب، المدن، الصحارى، الصروح التي قاما بزيارتها، فيها حلما وتمتعا وتعذبا وتليا صلاة وبكيا معًا، وكوّنت الانطباعات والذكريات التي راودتهما أثناء الترحال مخزونًا مشتركًا من الأفكار والمشاعر. هذه الطائفة من الذكريات والأسماء والصور أشبه ما تكون بوطن المخيلة. لقد أشار الكتاب المقدس إلى ذلك في العهد القديم عندما قال أبناء يعقوب: «كنا مسافرين سوية في أرض كنعان». فالنوم تحت الخيمة نفسها والجدران نفسها صداقة بحد ذاتها.

والآن، إذا انطلقنا من جديد لزيارة هذا الشرق بعد عشر سنوات من الغياب، هذا الشرق الذي قصدناه بكثير من الرجاء وغادرناه بكثير من الحسرات وتركنا فيه أصدقاء كثيرين، فماذا سنجد يا ترى؟ أي تغيرات حزينة مؤسفة حصلت على مدى السنوات العشر تلك، أي تغيرات أحدثتها أنانية الغرب والسياسة المغلوطة التي يمارسها رجال الدولة في تلك الأصقاع؟ وبحر سوريا الذي كان مربضًا آنذاك لأسطولين رائعين، واحد للأتراك وآخر للمصريين، لم يعد يبحر فيه الآن إلا بعض الأشرعة الإنكليزية التي تجول من رودس إلى الإسكندرية، وكأنها حرس البحرية البريطانية، تجول ذهابًا وإيابًا أمام مرقب مالطة لتمنع صور وصيدا من النهوض مجددًا وتسيطر على البحر. توفي السلطان محمود في القسطنطينية وها هي السفن الجميلة التي بناها ليدافع عن سلطنته تتعفن في قناة البوسفور الضيقة... أما بيروت

وعكا فلا تجرؤان على النهوض مجدداً بوجه القائد الإنكليزي للعمارة البحرية وقد تهدمت أسوارهما بفعل قصف المدافع عام ١٨٤٠. أما الجيوش البديعة لإبراهيم باشا فتلاشت مثل غبار الصحراء بعد أن هبت عليها رياح أوروبا فحطمتها ودحرتها بعيداً. صمت محمد علي واختبأ في الإسكندرية، والامبراطورية العربية التي حلم بها ستتوحد جميع أممها في قبره. أما الموارنة، سويسريو لبنان، المتأهبون لتحقيق استقلالهم، هازمو دمشق والمهيمنون عليها، والذين لا ينتظرون شيئًا ليؤسسوا المستعمرة الأصلية لأوروبا في آسيا الصغرى ... لا ينتظرون شيئًا إلا إشارة فرنسا وتشجيعها. لكننا تركناهم وخناهم وسلمنا رؤوسهم وقتلناهم. هؤلاء القادة الشرفاء الذين نزلوا من أعلى جبالهم بعد أن رأوا منازلهم المضيافة تحترق وفتياتهم يغتصبن وأولادهم يذبحون على يد الدروز والألبانيين. ماذا عن الأمير بشير، ذلك الشيخ المتمنطق بسلاحه من الشرق الجديد،الذي وطّد السلم خلال فترة حكمه إلى أن اقتيد أسيرًا إلى مالطة على متن سفينة إنكليزية، ثم نقل مع عائلته إلى القسطنطينية ونفي في سن السادسة والثمانين مع زوجته وأولاده إلى إحدى القرى المظلمة من تركيا الآسيوية. قيل إنه رأى ابنه الاكبر المير أمين، هذا المير الشاب المحارب والسياسي المحنّك الذي حمل سيف أبيه، يقتل أمام عينيه على يد أفراد الموكب الذي يرافقه. ذرف المير بشير دموعه ودماءه على كل الطرقات. ماذا عن قصره الجميل في دير القمر عند سفوح جبال لبنان، وقد رأيناه من سنوات قليلة مدويًا مضيئًا بنفوذه، لم يعد يرى منه إلا بعض جوانب الجدران التي سودّها الحريق. وعينطورة، هذه المستعمرة الفرنسية عند سفح جبل لبنان، دمّرت مرتين. حتى إن فولني أول رحّالة إلى سوريا لم يستطع التعرف على هذه القرية الجميلة التي تعلم فيها العربية ووجدنا فيها اسمه محفورًا برأس خنجره على جذع شجرة برتقال كبيرة تبسط أغصانها وكأنها شجرة أرز. ماذا عن أرز إهدن وأرز سليمان قطعت أشجاره أو أحرقت حتى لا تعود غابتها الدهرية تاجًا يكلّل جبين لبنان ومركز حجّ يشكّل حلقة وصل للمسيحيين ... ماذا أيضًا عن الليدي ستانهوب، لغز الشرق والغرب، قريبة السياسي البريطاني «بيت» التي خرجت من حكومة عمها لتحكم

على بعلبك و«تدمر» ثم توفيت فقيرة ومتروكة في عزلتها في بلدة «جون» القريبة من صيدا. لم يكن السائحون يفهمون غرابة أطوارها العظيمة وعبقريتها الذكورية المميزة فنعتوها بالمجنونة لأنهم عاجزون عن تقدير أهمية هذه المرأة، عرّافة الشرق. إن جنون الحكومات الأوروبية نفخ على شمعة أحلامها بالحرية فاحتبست هذه المرأة طويلاً في أرض الاستعباد. لكن، عندما ينبعث الدفء في نفوس رجال السياسة في الغرب،عندما تنال سوريا استقلالها وتحكم سيطرتها على قبائل البدو التي تنهش أرض إبراهيم وفخر الدين؛ عندما تُبعث شعوب الجزيرة العربية من جديد، عندئذٍ ستأتي هذه الشعوب لتحج إلى جون باحثة عن رفات الليدي ستانهوب، وستقيم لها قبرًا عند مدخل المدينة محفورًا على ضريحه بلغة أيوب :«إلى المرأة الأوروبية التي أحبتنا عندما كنّا مستعبدين والأولى التي لفتت إلينا أنظار الغرب وفكره»!

ما دعاه ناس زمانها حلمًا لم يكن إلا ثمرة من ثمار عبقريتها وبشرى من بشائر انبعاثنا.

****

خلاصة سياسية عن رحلة إلى الشرق

ثمانية عشر شهرًا من الرحلات والأحداث المتلاحقة واللقاءات الترفيهية، والفكر يعمل لا شعوريًا. فالوقائع العديدة التي يشاهدها المرء بأم عينيه، تنير عقله دون أن يدري. والنشاطات ذات الطابع الإنساني تظهر له جوانبها المتعددة التي لا تحصى فتشحذ عقله وتنير دربه. يحلل الإنسان بطريقة غرائزية ما رآه وأحسه واستنتجه في التاريخ والفلسفة والدين، فتتكون لديه حقائق عفوية، وحين يعود إلى نفسه، يجد أنه بات إنسانًا آخر في الكثير من النواحي. لقد تحدث العالم إليه ففهم ما قاله العالم. وإلا فما جدوى تكبد المشقات والأخطار والهموم الطويلة الناجمة عن السفر والغياب عن الأصدقاء والوطن؟ وإلا لكانت الأسفار خدعة باهرة. الأسفار تربية للفكر على يد الطبيعة والناس، لكن الإنسان، خلال ترحاله، لا يتخلى عن ذاته، وحين يغادر السقف الأبوي الذي احتضنه لا تنفك الأفكار التي تشغل أوروبا وخصوصًا فرنسا تتنازعه أثناء الطريق. السياسة شغل أوروبا الشاغل وخصوصًا فرنسا، لذا فكرت كثيرًا في السياسة حين كنت في الشرق، في السياسة والتاريخ والفلسفة والدين واستطعت أن استخلص عبرًا أكثر صوابًا واتساعًا وصدقًا من خلال المراقبة الميدانية للوقائع والأماكن. في المجال السياسي، شيء ما تجمّع في فكري : هاكم خلاصته. إنها الصفحة الوحيدة المستمدّة من ملاحظات الرحّالة التي مارستها وأود أن أضعها في تصرف الأوروبيين لأنها تحتوي حقيقة راهنة، حقيقة يجب إدراكها نظرًا لبداهتها ونضجها وقدرتها على كشف آفاق المستقبل. إذا أدركت هذه الحقيقة وطبّقت فستنقذ أوروبا وآسيا فتساهم في إسعاد العرق البشري وتحسّن ظروف حياته وتخط سطرًا في كيان البشرية النابض بالحياة والناشط والساعي أبدًا إلى التطور. لكن إذا أغفلت

وتمّ تجاهلها باعتبارها حلمًا مثاليّاً لا يمت للواقع بصلة، وهذا فقط لأنه قد تعترضها بعض الصعوبات الطفيفة في التنفيذ، عندئذٍ ستنقلب الأهواء السيئة والحسنة التي تحرّك أوروبا على أوروبا نفسها وستبقى آسيا على ما هي عليه، أي غصنًا ميتًا وعقيمًا في شجرة البشرية.

لديّ كلام سأقوله :

لقد أوصلت الأفكار الإنسانية أوروبا إلى إحدى هذه الأزمات العضوية الكبرى التي لم يحتفظ منها الزمن إلا بتاريخ أو تاريخين في ذاكرته، وأقصد تلك المراحل المتعاقبة التي تخلي فيها حضارة استنفدت المكان لحضارة أخرى، بحيث يشكك الناس بماضيهم ويفقدون الثقة بمستقبلهم وتنتابهم الشكوك حوله ويغمر الظلام آفاقهم الداجية. إنها مراحل مرعبة وعقيمة في تاريخ الشعوب تتفشّى فيها الأمراض التي تصيب الفكر البشري فتقتله على مدى قرون مقبلة أو تحييه في انبعاث متجدد طويل الأمد. دقت الثورة الفرنسية ناقوس الخطر في وجه العالم. مراحل كثيرة منها أنجزت ولم تنته الثورة. لا شيء ينتهي ضمن هذه الحركات البطيئة الداخلية الأبدية للحياة المعنوية التي تسم الجنس البشري. لا شك أن هناك فترات استراحة، لكن خلال هذه المحطات نفسها من سيرورة البشرية ، تنضج الأفكار وتتكدس القوى وتتحضر لانطلاقة جديدة. فالهدف لا يختصر حركة الفكر والمجتمع، ضمن مسار المجتمعات بل هو محطة جديدة للانطلاق. ليست الثورة الفرنسية، التي دعيت لاحقًا الثورة الأوروبية، بسبب الأفكار التي اتسع انتشارها أفقيّاً كما تنتشر مياه النهر فوق صفحة البحر، ليست الثورة الفرنسية إذًا ثورة سياسية فقط أو تحولاً في السلطة أو سلالة حاكمة أخلت المكان لسلالة أخرى أو حكمًا جمهوريّاً نشأ على أنقاض الحكم الملكي. ليست التغيرات التي حصلت إلا أمرًا طارئًا وعارضًا وأداة ووسيلة. الثورة الفرنسية أهم وأسمى من هذا كله بحيث يمكنها أن تستوعب جميع أشكال السلطة السياسية التي تستوحي مبادئها ويمكننا أن نكون ملكيين أو جمهوريين، مرتبطين بهذه السلالة

الحاكمة أو بتلك ، أنصار هذه التركيبة الدستورية أو من دعاة دستور آخر، دون أن نكون بالضرورة أقل ثورية من غيرنا أو أكثر ثورية. كل الأمر هو أننا آثرنا خطة عمل على أخرى واعتمدناها لتحريك العالم وزحزحته من مكانه. هذا كل شيء. المهم أن فكرة الثورة، أي فكرة التغيير والتقدم تضيء الفكر وتدفئ القلب. من هو الإنسان بيننا الذي يتأمل في أمور الحياة ويفكر بقلبه وعقله مهتديًا بالدين والرجاء، من هو الإنسان الذي يقسم بضميره مسائلاً نفسه أمام الله وأمام مجتمع يسقط في دركات التشوه والتخلف ولا يلتزم باتخاذ مواقف ثورية لتغيير الواقع؟ يأخذ الزمن في طريقه كل هؤلاء الذين يقاومونه وأيضًا الذين يستبقونه كما الذين يساندونه بتمنياتهم. الزمن تيار سريع يجرف في طريقه كل شيء، وهؤلاء الذين يجذفون في مياهه وبالحيوية الأكثر توثبًا ويعبرونه مجابهين كل مساقطه وانحداراته الشاهقة، يجدون أنفسهم، في غفلة منهم، قد حملهم التيار أبعد من الأفق الذي تنشده أعينهم وقلوبهم، وشدّ ما تكون دهشتهم حين يكتشفون ضخامة المنجزات التي حققوها على الطريق الذي سلكوه رغمًا عن إرادتهم. نصف قرن ولّى على هذه الثورة التي نشرت أفكارها الناضجة، نصف قرن ولّى على ترسيخ وقائعها الجديدة. لم تكن بادئ الأمر إلا معركة ومن ثم خرابًا انتشر غباره الأسود وضوضاؤه الصاخبة فأصاب كل شيء ولفترة طويلة. قلّما كان الناس يعرفون لماذا يقاتلون وعلى أي ميدان وفي ظل أي رايات. أطلقوا الرصاص، في ليل ضميرهم المدلهم على أصدقائهم وأخواتهم. أعقبت ردود الفعل الفعل نفسه ودنّست الانتصارات والأعلام والرايات كلها. تخلى الجميع عن القضية المقدسة التي بدا أن الجريمة هي أداتها. وخسرت القضية لأن الجريمة تتسبّب في خسارة كل شيء. انتقلوا من تعسف إلى تعسف أشد منه ولم يدركوا شيئًا من الحركات الصاخبة وتقلبات المعركة. تحولت القضية المقدسة إلى مجرد معركة اختلطت فيها الأمور وعمّت الفوضى وتداخلت فيها الانتصارات والهزائم وتخللتها الآمال والآلام واشتداد الهمم وتثبيط العزائم.

اليوم، بدأنا ندرك المخطط الإلهي الكامن خلف هذا التفاعل الكبير بين الأفكار والبشر. تلاشى الغبار من جديد وانقشع الأفق من ورائه. وباتت واضحة كل المواقف الثابتة والضائعة، والأفكار التي بقيت في ساحة المعركة والأفكار الجديرة بالخلود التي لا تزال تعيش والتي انتصرت أو ستنتصر. فهمنا الماضي وفهمنا العصر وتراءت لنا زاوية من المستقبل. إنها لحظة جميلة ونادرة للفكر البشري، لحظة يعي ذاته ويعي العمل الذي أنجزه. لا يزال الضوء ينير أفق مستقبله. وحين تفهم الثورة أخيرًا فمعنى ذلك أنها أنجزت: قد يكون النجاح بطيئًا ولكن أكيد. ربما كان الفكر الجديد لم يأخذ سبيله إلى أذهان الناس لكنه استخدم سلاحًا لا يهزم وهذا السلاح هو الصحافة. الصحافة هي المرآة التي يستخدمها الجميع في وجه الجميع، وهي بالنسبة لحركة التجدد والتقدم شبيهة بالبارود الذي استخدم لأول مرّة، أي إنها مفتاح النصر في كل مواجهة. لم يعد الأمر يتعلق بالنسبة للفلاسفة السياسيين بالقتال بل بالتلطيف من حدة السلاح الجبارالذي تمتلكه الحضارة الجديدة وتوجيهه. اندثر الماضي وأخليت الساحة لكل جديد. جرى التسليم المبدئي بالمساواة في الحقوق، وتكرست حرية النقاش في الهيئات وأعيدت السلطة إلى منابعها. قضت مصلحة الجميع بإيجاد مؤسسات قد يلحق ضعفها ضررًا بمصالح الناس أكثر مما يلحقه الطغيان نفسه. مارست الكلمة المحكية والمكتوبة حقها في كل مكان داعية الناس إلى التجاوب معها. إنها هذا المنبر العالي للعقل الذي يهيمن على جميع السلطات الأخرى المنبثقة عنه وسيهيمن باطراد. فقوة الكلمة حرّكت وستحرك جميع المسائل الاجتماعية والدينية والسياسية والوطنية مدفوعة بالقوة التي تستمدها من الرأي الحر حتى يصير العالم الاجتماعي بأكمله تحت سلطة العقل البشري المستنير بالشعاع الذي شاء الرب أن يلهمه إياه. وعندئذٍ، يقتنع العقل بعمله المنطقي ويقول كما فعل الخالق القدير عندما خلق الكون: «ما أروع ما خلقته»، ثم يستريح بضعة أيام، هذا إذا كانت هناك راحة في السماء وعلى الأرض.

بيد أن المسائل الاجتماعية معقدة، وحل المسائل المتعلقة بالسياسة الداخلية يستوجب حل تلك المتعلقة بالسياسة الخارجية. كل شيء يستمر في هذا العالم، وهناك دومًا واقعة تؤثر على واقعة أخرى. فلنرَ إذًا أية خطة يتوجب على السياسة الأوروبية وضعها والعمل بها إزاء الشرق. أقول السياسة الأوروبية لأنه صحيح أن النظام دستوري، أو ما يسمى بالعقلاني، لم يجد تطبيقًا له من حيث الشكل إلا في فرنسا وانكلترا وإسبانيا والبرتغال، إلا أنه يستأثر باهتمام الجميع على الصعيد الفكري بحيث يتبناه المفكرون ويسعون إلى تحقيقه متحينين الفرصة لذلك، فالمسألة عندهم مسألة توقيت فقط. لأوروبا هيئات دستورية متعددة، لكن الروح التي تحرك هذه الدساتير واحدة هي روح التجدد والاحتكام إلى العقل في سياسة أمور الناس. فرنسا وانكلترا هما البلدان اللذان لديهما تجربة عريقة في هذا الميدان وإليهما توكل، في هذه المراحل الأخيرة، مهمة الإعلاء من شأن الأفكار وتشجيعها – يا للمهمة المجيدة التي ليس منها بدّ! لا تنقص فرنسا الجرأة وها قد بدأت مسيرتها لا بل مضت قدمًا في مهمتها. فلنتكلم بداية الأمر عنها:

لفرنسا تاريخ عريق ومجيد في هذا المضمار وأمامها مسؤوليات وتحدّيات جسام. إنها مشعل هداية لسائر الأمم لكنها ما زالت تتلمس الطريق في الوقت الذي يخشى عليها الوقوع في الهاوية. ثم إن كل الأحقاد الماضية التي بقيت تعتمل في نفوس شعوب أوروبا توظّف ضدها. فكل من يروّعه العقل في الدين والفلسفة والسياسة، تروعه فرنسا. وجميع الناس المتخلفين أو المتشبثين بالماضي يتمنّون لفرنسا كل شرٍّ في قرارة نفوسهم، لأنها رمز انحطاطهم والبرهان الحي على عجزهم وكذب نبوءاتهم. إذا ازدهرت فرنسا دحضت عقائدهم وإذا سقطت عزّزت مزاعمهم وسقطت معها جميع المحاولات لتحسين مستوى المؤسسات الإنسانية. وعندئذٍ يتصاعد التصفيق العظيم من هؤلاء الذين يتمنون خراب البشرية، ويبقى العالم في قبضة الطغيان والأحكام المسبقة. كل ما يتوق إليه أهل الطغيان والأحكام المسبقة هو تدمير

فرنسا. كل نجاح تحققه فرنسا، يعلنون تشكيكهم به وفي كل منافسة يعبّرون فيها عن نواياهم السيئة تجاهها. لكن عزيمة فرنسا قوية ليس بعدد جنودها بل بروح الحياة الذي يدفعها إلى الأمام. وحدها فرنسا تملك الإيمان بالقضية الكبيرة التي تحارب من أجلها وأيضاً الغريزة المتوثبة المفعمة بالأمل والشهامة. عبثًا يواجهونها بآلات الحرب فتبذل دماء شهدائها في ساحة القتال. إن الإيمان بفكرة أقوى من جيش كامل. إن فرنسا التي انقسمت على ذاتها بفعل المكائد التي حيكت ضدّها على يد جلاّديها والمهدّدة من الخارج من قبل أبنائها بالذات تساندهم كل أسلحة أوروبا، أثبتت للعالم أنها لن تموت مهما بلغت الأخطار التي تتهددها من الخارج. فالأخطار المحدقة بها من الداخل أشد فداحة الناتجة عن الأوضاع الجديدة التي طرأت عليها: إن المرحلة الانتقالية ترافقها دائمًا ازمات حادّة، والنتائج المتوقعة أو غير المتوقعة الناتجة عن نظرية اجتماعية جديدة تحرك المجتمعات تفضي حتمًا إلى نشوء ظواهر جديدة في الحياة الاجتماعية للشعوب الكبيرة. كثيرة هي التبعات المباشرة للثورة في فرنسا وعديدة هي العواقب العرضية للأزمات التي تجتازها، لكني لن أتحدث إلا عن الرئيسية منها..

أنتجت المساواة في الحقوق مساواة في المطامع والمصالح بين جميع الطبقات أي التوق إلى السلطة والمنافسة المستميتة والمشروعة وغير المحدودة على كافة الوظائف مما أدّى إلى عرقلة جميع المهن وخلق جوّ من التنافس والحسد والغيرة بين الكثير من الافراد الساعين إلى الغاية نفسها، وأحدثت احتكاكًا دائمًا بين الأفراد فشلّت القدرات وزادت الأطماع والعنجهيات على أبواب كل الخدمات العامة ونشأت حال من البلبلة في الإدارات العامة وأتاحت لطائفة من القوى السلبية والمسمومة أن تسيطر على مرافق المجتمع وأن تظلّ متأهبة دومًا للانتقام منه.

كما أطلقت حرية إبداء الرأي والنقد المتمثلة في الصحافة حركات فكرية دخلت في نزاعات حادّة مجرّدة أحيانًا من النوايا الحسنة وأدّت إلى نشوء حركات رافضة

لكل القيم والمفاهيم مستخدمة عبارات تجافي الحسّ السليم وتتجاوز روح الاعتدال وتنمّ عن جهل مطلقها ومروّجيها، لأنها لا تقيم وزنًا لحاجات الشعوب في قيام سلطة ترعى شؤونهم وتصون حقوقهم. وقد أدّى سوء استخدام الحرية إلى ترويع الناس الشرفاء الذين لا يدخلون طرفًا في هذه المهاترات وإلى انخراط ذوي الأهواء الشريرة في السجال الدائر على مستوى البلاد كلها مستخدمين كل الأسلحة المتاحة.

كذلك أنتجت الثقافة التي باتت منتشرة ومعممة بين الجماهير، وهي الضرورة الأولى للشعوب وكانت محرومة منها، نوعًا من الانبهارالأولي بالأفكار التي لم تفهم بعد، خلقت في أذهان الناس نشوة لم تكن معروفة من قبل. تشبه هذه الجماهير الإنسان الذي أخرجناه من الظلمات بعد أن تخبّط فيها طويلاً ولم ندخله في النور الحقيقي، كمثل الانسان الجائع الذي نقدّم إليه كمية كبرى من الطعام ليأكلها دفعة واحدة. إنسان الظلمات مبهور بالنور ويبقى أعمى لأمد من الزمن، أما الإنسان الجائع فيقضي أحيانًا بسبب الغذاء نفسه الذي كان يفترض به أن يعيده إلى الحياة. لا يفهمنَّ من كلامي أن النور والخبز أمران مشؤومان أو سيئان، إن الانتقال المتهور من الظلمة إلى النور هو ما نحذّر منه. تلك هي ثقافة الجماهير: تنتج للوهلة الأولى فائضًا من القدرات التي تتطلب توظيفًا اجتماعيّاً، تنتج خللاً في التوازن بين القدرات والأعمال إلى أن تتكامل المستويات لدى الجميع فتخلق هذه القدرات المضاعفة أنماطها الخاصة في العمل.

أما الحركة الصناعية فانتزعت السكان من عاداتهم وتقاليدهم العائلية وأعمال الأرض الوادعة المروّضة للأخلاق. استثارت الصناعة العمل من خلال الربح الذي رفعته فجأة ثم جعلته يتدنّى شيئًا فشيئًا، كما أنها جعلت الناس يتعودون على الترف ورذائل المدينة فلا يعود بإمكانهم العودة إلى البساطة وزهد الحياة الريفية. الجماهير العامة في ميدان الصناعة غير قادرة على توفير متطلبات الحياة اليوم وغدًا دون وظيفة

إضافية، وفقرها سيوقعها في الفوضى ويؤدّي بها إلى العصيان.... أمّا ما هي حال الامبراطورية العثمانية اليوم؟

تلك هي حال أوروبا عمومًا وفرنسا خصوصًا؛ لكنما حال الامبراطورية العثمانية اليوم ؟

إن شبه الجزيرة العربية منقسمة إلى قبائل لا تلاحم بينها ولا انسجام في عاداتها وشرائعها. رزحت الجزيرة منذ قرون تحت نير الباشاوات وهي أبعد من أن ترى في محمد علي محررها. حتى إنها لا ترى فيه قائدًا قادرًا على تحريرها من الهمجية والعجز إلى التخطيط والاستقلال. لا ترى فيه إلا عبدًا يدّعي التمرد فيما هو يتوق إلى أن يزيد حجم الحصة التي خصّه بها القدر ويغتني وحده من خيرات مصر وسوريا ويموت دون أن يحكمه سيد آخر. لذا، تعرف الجزيرة أنه بعد انقضاء حكم محمد علي، ستسقط تحت نير آخر.

أما بغداد الواقعة عند حدود صحراء سوريا فلا تضم إلا سكانًا مختلطين من اليهود والفرس والعرب. لن يكون بإمكان الآلاف من الأتراك الذين يحكمهم باشا معرّض دائمًا للعزل أو الإبعاد أو يتمرد هو نفسه كل ثلاث أو أربع سنوات، أن يؤسسوا القومية التركية في هذه المدينة التي يبلغ تعدادها مئتي ألف نسمة. بغداد مدينة حرة بطبيعتها، وهي محط رحال كل القوافل التابعة للقارة الآسيوية ومستودع لتجارتها الداخلية. إنها تدمر الصحراء. بين بغداد ودمشق، تنتشر الصحارى الواسعة لسوريا وبلاد ما بين النهرين التي يجتازها نهر الفرات. لا مملكة في هذه الصحارى ولا مدنًا ولا حكومات. ليست هناك إلا خيم يتجوّل أصحابها في أرجاء الصحارى المجهولة بحثًا عن الواحات المنتشرة هنا أو هناك. قبائل لا هويّة لها ولا تتحرك إلا بدافع من نزواتها كما أنها لا تعترف بوطن أو بحاكم. لا أعداء لأبناء الصحراء إلاّ الذين يريدون إخضاعهم، بالأمس الأتراك واليوم المصريون.

أما دمشق فهي مدينة كبيرة وبديعة، مدينة ذات طابع ديني، حيث التقيّد التام بموجبات الإسلام لا يزال سائدًا. يتراوح عدد سكانها بين المئة ألف والمئة وخمسين ألف نسمة. يشكل المسيحيون ثلاثين ألفًا منهم واليهود سبعة أو ثمانية آلاف والعرب أكثر من مئة ألف. لا تزال حفنة من الأتراك تتحكم بمقدّرات البلاد عن طريق القوة حينًا وبذريعة الدفاع عن الدين المشترك. دمشق مدينة متحفّزة، مستقلّة، تثور في كل لحظة وتقتل باشاها وتطرد الأتراك. ينطبق الأمر نفسه على حلب، وإن كانت مدينة أقل أهمية بكثير من دمشق. التجارة فيها إلى تراجع كبير وتحتضر تحت أنقاض زلازلها. إن مدن سوريا بحد ذاتها، من غزة إلى الاسكندرية بما فيها حمص وحماة، يقطنها أيضًا العرب والروم السريان واليهود والأرمن. لا يتعدى مجموع الأتراك في هذه الأرض الجميلة، الواسعة، الثلاثين ألف أو الأربعين ألف نسمة. أما الموارنة، هذه الأمّة السليمة القوية المؤمنة المحاربة الخبيرة بالتجارة، فمقيمون بأرض لبنان ويحتقرون الأتراك ويتحدونهم. كما يشكل الدروز والمتاولة بقبائلهم المستقلة والشجاعة، بالإضافة إلى الموارنة الخاضعين لحكم الأمير بشير الفيدرالي سكان سوريا الرئيسيين والأكثر نفوذًا، ويؤلفون خميرة شعب كبير يمكن تحضيره وإعداده لمستقبل أبهى. ليس على أوروبا إلا أن ترعاه بعينيها وتقول له: انهض!

ثم يأتي جبل طورس وقرمانيا الهائلة هذه (آسيا الصغرى) التي كانت مقاطعاتها تشكل ممالك سبعًا وشطآنها مدنًا مستقلة أو مستعمرات يونانية ورومانية مزدهرة. جبت كل سواحلها ودخلت جميع خلجانها من طرسوس حتى جشمة، ولم أرَ إلا شواطئ خصبة لكن مهجورة وبعض القرى البائسة التي يسكنها اليونانيون. أما الداخل فتسكنه قبائل التركمان الذين لا يروضون ويرعون قطعانهم فوق الجبال ويخيمون شتاءً في السهول. أما المدن الرئيسية، أضنة وقونيا وكوتانيا وانغورا فيسكن في كل واحدة منها بضعة آلاف من الأتراك. إزمير وحدها مركز واسع للسكان: ما يقارب المئة الف نسمة وأكثر من نصف سكانها مسيحيون ويونانيون وأرمن ويهود. إذا

عبرنا شواطئ آسيا الصغرى وجدنا الجزر الإغريقية الجميلة جزر كيو ورودس وقبرص. قبرص وحدها مملكة، تبلغ مساحتها ثمانين فرسخا طولاً وعشرين عرضاً. غذت قبرص وتغذي عدة ملايين من السكان؛ إن سماءها شبيهة بسماء آسيا أما ترابها فشبيه بتراب أوروبا يسكنها ثلاثون ألف يوناني فيما يقيم ستون تركيًا في حصن حقير ويمثلون السلطة العثمانية. هذه هي أيضاً حال رودس وستانشيو وساموس وكيو وميتيلين. إنها النصف الأجمل للسلطنة.

إن شاطئ بحر مرمرة وقناة الدردنيل مأهولان، كذلك هي أيضًا بعض المدن الصغيرة التي نصفها تركي ونصفها يوناني. سكانها قلة وفقراء ومبعثرون في مساحات كبيرة على سواحل لا عمق لها. لا يمكن إحصاء عدد السكان الأتراك الفعلي في هذه الأصقاع. قد لا يصل إلى أكثر من مئة ألف بما فيها بروسا.

أما القسطنطينية، كجميع العواصم التي يعيش شعبها مرحلة انحطاط، فتظهر كثافة سكانية وتضج بالحياة. فالحياة في الإمبراطوريات تنخفض وتيرتها عند الأطراف وتتكثف حركتها في المركز. منذ زمن كانت الإمبراطورية الإغريقية كلها متجمعة في القسطنطينية، وحين احتل العثمانيون المدينة سقطت الإمبراطورية كلها. ليس هناك اتفاق أو إجماع على عدد سكان القسطنطينية. منهم من يقول إن عددهم ثلاثمائة ألف نسمة ومنهم من يقول إن عددهم مليون. لا توجد إحصاءات وكل يطلق أحكامه انطلاقًا من معطيات خاصة تكوّنت لديه. ومعطياتي تستند إلى المعاينة التي أجريتها للمدينة فوجدت نمواً هائلاً بما فيها سكوتاري وشواطئ القرن الذهبي وبحر مرمرة وشواطيء آسيا وأوروبا. ورأيت أن كل ذلك يندرج تحت لواء القسطنطينية لأن المنازل متصلة ببعضها على طول تلك المسافات، فتسميات الأحياء والمدن والقرى اعتباطية. يمكن القول إنها كتلة تابعة لمدينة واحدة وتمركز واحد للسكان ونمو متصل للبيوت والظلات والقصور والقرى. أعتقد أن مجموع هؤلاء السكان قد يتراوح بين ستمائة ألف نسمة وسبعمائة ألف. ثلثهم أتراك والباقي أرمن ويهود ومسيحيون وإفرنج ويونان وبلغار.

وفي رأيي، يتراوح عدد السكان الأتراك في القسطنطينية بين مئتي ألف وثلاثمائة ألف نسمة. لم أزر ضفاف بحر البنطس (أي البحر الأسود)، لكن إذا استندنا للرحلة الممتازة والدقيقة التي قام بها السيد فونتانييه ونشرها في كتاب عام ١٨٣٤، وجدنا أن السكان المحليين يفوقون السكان الأتراك الذين يشهد عددهم تراجعًا وانحطاطًا، كما في كل أرجاء المملكة التي جبتها.

أدرنة هي المدينة الوحيدة الكبيرة. قد يتراوح عدد سكانها الأتراك بين ثلاثين ألف وأربعين ألف نسمة، كذلك الأمر في فيليبوبولي وصوفيا ونيستا وبلغراد والمدن الصغيرة الوسيطة. أضف إلى ذلك مائتي ألف تركي في الأجزاء التي لم أزرها في تركيا أي ما يعادل مجموعه ثلاثمائة ألف نسمة تقريبًا. في صربيا وبلغاريا لا تكاد تعثر على أكثر من تركي في كل القرية. وأعتقد أن الأمر مشابه في المقاطعات الأخرى من تركيا الأوروبية. إذا أخذنا بعين الاعتبار الأخطاء التي يمكن ارتكابها كأن ننسب مثلاً إلى آسيا الصغرى الداخلية سكانًا أتراكًا يفوق عددهم ما تسمح به العين والعلاقات رؤيته والتحقق منه، لا أعتقد أن مجمل السكان الأتراك يرتفع الآن إلى أكثر من مليونين أو ثلاثة ملايين نسمة. لا بل إنني أجزم أنهم لا يربون على هذا العدد. ذاك هو إذًا، عرق الأتراك، عرق هؤلاء الغزاة الذين انطلقوا من شواطئ بحر قزوين وصهروا تحت شمس المتوسط. هذه هي تركيا التي يحكم أمرها عدد قليل جدًا من البشر. وفيما الأتراك مستسلمون لعقيدة الحتمية والاستسلام للقدر وما ينجم عنها من جمود في المؤسسات وتعسف في الدوائر؛ فيما غزاة آسيا وأسيادها يؤولون إلى العدم، يتعاظم نفوذ الأعراق السلافية والمسيحية في شمال السلطنة وجنوبها، وكذلك الأعراق الأرمنية واليونانية والمارونية والعرق العربي المحتل. إذًا يتعاظم نفوذ تلك الأعراق ويتضاعف بفعل عاداتها ودياناتها ونشاطها. إن عدد المستعبدين يفوق إلى حد كبير عدد الغزاة، وقد استطاع يونانيو الموره، رغم ضعفهم وتعاستهم، أن يتحرروا من نير الأتراك في لحظة من نشدان الحرية. كذلك خلعت مولدافيا وفالاشيا عن كاهلهما النير الذي

يستعبدهما، وكانت الجزر كلها استعادت حريتها لولا المعاهدة الأوروبية التي وافقت على إعطاء ضمانات للسلطان العثماني فيها: قسّمت جزيرة العرب بأكملها إلى عائلات تجهل إحداها الأخرى ويتجاذبها مداورة الأتراك والمصريون ويسيطر الوهابيون على القسم الأكثر حيوية منها: الأرمن بثلثيهم أفلتوا من قبضة الهيمنة الإسلامية بمساندة الروس والفرس؛ الموارنة والدروز سيكونون أسياد سوريا ودمشق إذا رغبوا جدياً في ذلك. البلغاريون شعب كثير العدد ومفعم حيوية؛صحيح أنه لا يزال خاضعًا لهيمنة الأتراك، لكن إذا ترك الأمر له وحده، وهو أكثر عددًا وتنظيمًا من الأتراك فسيتحرر بضربة واحدة. هذه الكلمة قالها الصربيون عاليًا وبدأوا يشقون طرقًا وسط غاباتهم البديعة ويبنون مدنًا وقرى. لم يعد زعيمهم، الأمير ميلوش، يوافق على بقاء بعض الأتراك في بلغراد إلا بصفتهم حلفاء وليس أسيادًا.

إن روح الغزو العثماني انطفأت وانطفأت أيضًا ومنذ زمن بعيد حركات الجهاد الديني المسلح. لم تعد قوتهم الدافعة موجودة في أي مكان ولا قوة بقائهم من خلال إدارة منتظمة ومتنورة ومتقدمة ولا واردة إلا في ذهن السلطان محمود. الجاهزية القتالية تلاشت مع اختفاء الانكشارية وإذا ولد جنود الانكشارية من جديد ولدت معهم البربرية ثانيةً. لا يمكن للسلطنة أن تبعث من دون معجزة يحققها قائد عبقري. لكن السلطان محمود رجل عاطفة وتنقصه العبقرية. إنه الشاهد الحي على ضعف السلطة ويواجه العراقيل في الوقت الذي يستطيع فيه أي قائد ذي رؤية أكثر اتساعًا وحزمًا أن يجد أدوات لتحركه والنهوض بالسلطنة. لم يجد السلطان محمود من مفر في النهاية إلا اللجوء إلى الروس وهم أعداؤه المباشرون. سياسته القائمة على اليأس والضعف تجعله يهون في أعين شعبه. لم يعد سوى ظل سلطان يعاني التفكك المتعاقب لأجزاء السلطنة. يومًا بعد يوم، يجد نفسه محشورًا بين أوروبا التي تحميه ومحمد علي الذي يتهدده. فإذا تمرد على الحماية المعيبة التي يوفرها له الروس، يستغل الأمر إبراهيم باشا ويزحف بجيوشه ويقلبه عن عرشه. وإذا حارب إبراهيم باشا تأتي إنكلترا

وفرنسا بأساطيلهما وتعسكران في الدردنيل. وإذا تحالف مع إبراهيم، يصبح عبدًا رهينة لعبد متمرد وينتهي مصيره وراء قضبان السجن أو يقتل في سراياه بالذات. وحدهما البطولة الخارقة أو الانتفاضة النابعة من ذروة اليأس بإمكانهما إنقاذ السلطان محمود وإعادة السلطة إلى سابق مجدها العثماني: أي أن يعمد إلى إغلاق الدردنيل من الجهتين والبحر الأسود ويحشد كل طاقة أوروبا الجنوبية وما تبقى من الغيارى على العقيدة الإسلامية، ليزحف بنفسه على إبراهيم والروس. عندئذٍ، حتى لو هزم، فعلى الأقل سيكون سقوطه محاطًا بهالة من البطولة، معلنًا نهاية سلطان سلالته بني عثمان نهاية عزيزة مجيدة كما بدأت.

الآن وقد عاينّا حالة أوروبا والسلطنة العثمانية، ترى ماذا بإمكان سياسة متبصرة ونابعة من القيم الانسانية وليس من الأنانية العمياء والحمقاء أن تفعل؟ ماذا يتوجب على أوروبا القيام به؟ يدعو الروتين الدبلوماسي، الذي يردد شعاراته الجوفاء التي تملى عليه فقط حين تفقد معناها وتصبح فارغة والذي يرتجف خوفًا حين تطرح أمامه فعلاً المسائل الحقيقية والهامه لأنه لا يملك لا الذكاء ولا الطاقة لمعالجتها وإيجاد الحلول لها... يدعو الروتين الدبلوماسي إذًا إلى ضرورة أن تبسط السلطنة العثمانية سلطتها من كل الجهات لأنها تؤمن التوازن الضروري في الشرق المناهض للنفوذ الروسي. لو كانت هناك سلطنة عثمانية، لو كان هناك أتراك قادرون ليس فقط على إنشاء جيوش وتنظيمها بل على خلق دولة تستطيع أن تسهر على مصالح أبناء الإمبراطورية الروسية من الخلف وتهددها فعلاً فيما تقوم أوروبا الجنوبية بمحاربتها، لاعتبرنا هذا منطقًا سياسيًا محافظًا ومبررًا، إذ على المرء أن يكون إما جسورًا جدًا وإما متماديًا في موقفه الأخرق ليقول لأوروبا: «امحي عن الخريطة امبراطورية موجودة تضج بالحياة. انتزعي وزنًا هائلاً عن الميزان المختل التوازن في هذا العالم السياسي، فالعالم لن يلاحظ ذلك». لكن السلطنة العثمانية غير موجودة اليوم إلا بالاسم فقط.

حين ستنهار الامبراطورية من تلقاء نفسها ويعمل إبراهيم باشا أو أي من الباشاوات الأخر على دك أسوارها والسيطرة عليها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، حينئذٍ ستطرح على بساط البحث المسألة التي ينبغي البتّ فيها. هل يجب إعلان الحرب على روسيا لمنعها من أن ترث السيطرة على ضفاف البحر الأسود والقسطنطينية. هل يجب إعلان الحرب على النمسا لمنعها من أن تستولي على نصف تركيا الأوروبية؟ هل يجب إعلان الحرب على إنكلترا لمنعها من الاستيلاء على مصر وطريق الهند عبر البحر الأحمر؟ أم نعلن الحرب على فرنسا لنقف دون استعمارها سوريا وجزيرة قبرص؟ أم على اليونان لمنعها من مواصلة امتدادها عبر ساحل المتوسط لتستعيد الجزر الجميلة التي تحتضن سكانها واسمها؟ أم نعلن الحرب على العالم كله دفعة واحدة لئلا يستفيد أحد من هذه التركة الرائعة؟ أم أنه يجب أن نتفاهم ونحمي العرق البشري بشفاعة أوروبا فيتضاعف هذا العرق ويتكاثر وتنتشر الحضارة؟ ذانكا هما السؤالان اللذان يفترض بدول أوروبا أن تعقد مؤتمرًا لتتداول في أمرهما. وبالطبع، الإجابة على هذ السؤال لا يمكن أن يحصل خلاف بشأنها.

إذا كنت تريد أن تعلن الحرب فستتحمل كل عواقبها وويلاتها وآثارها المدمّرة. إن الحرب تضرّ بمصالح أوروبا وآسيا وبمصالحك بالذات وحين تضع الحرب أوزارها سيخرج كل فريق منها منهكًا لم يحقق فيها النتائج المرجوّة وإن كان النصر حليفه من وجهة النظر العسكرية، وستكون لأساليب القوّة المعتمدة والمنحى العنيف للأحداث وتأجيج الصراعات الوطنية والأديان المختلفة والنزاعات القوميّة تأثيرها المحتم. ستحتل روسيا شواطئ البحر الأسود والقسطنطينية. وسيتحوّل البحر الأسود إلى بحيرة روسية مفتاحها القسطنطينية. وستحذو النمسا حذو روسيا فتحكم سيطرتها على صربيا وبلغاريا ومقدونيا. وستحتل فرنسا وإنكلترا واليونان، بعد نزاع مؤقّت على الطريق، مصر وسوريا وقبرص والجزر وستكون النتيجة ذاتها، مع فارق بسيط هو أن أنهارًا من الدم ستسيل برّاً وبحرًا. وستعتمد التقسيمات القسرية التعسفية وفقًا

لتطورات المعارك المحتملة مكان التقسيمات العقلانية للأراضي. وسيقتضي الأمر إنشاء مستعمرات لسنوات، وخلال هذه السنوات التي قد تكون طويلة، ستقع تركيا الأوروبية وآسيا فريستي الفوضى والكوارث التي لا تحصى. وستجد بلدانًا مقفرة أكثر مما خلّف الأتراك المندثرون خلفهم. وستتراجع أوروبا بدل أن تواصل مسارها الحضاري المتسارع وازدهارها. وستبقى آسيا وقتًا أطول ميتة في قبرها. لكن، إذا كان العقل يوجّه أقدار أوروبا، فهل يسعه أن يتردد؟ وإذا تردد، فماذا سيقول التاريخ عن حكومات أوروبا وقادتها؟ سيقول إن العالم السياسي في القرن التاسع عشر قاده الجنون ووجهته الأنانية الانتحارية، وأن الحكومات والشعوب عبثت بأجمل هدية قدمتها لها العناية الإلهية وخسرت بذلك أعظم فرصة لتحقيق حتميات المرحلة وتقدم الإنسانية.

هذا ما يجب فعله: المبادرة للقيام بمؤتمر تجتمع فيه الدول العظمى الأساسية المتاخمة للامبراطورية العثمانية والتي لها مصالح حيويّة في حوض البحر المتوسط، والإعلان صراحة بأن الدول الأوروبية ملتزمة في المبدأ والواقع بأي عمل من شأنه التأثير المباشر على الشؤون الداخلية لتركيا وتركها لمسارها الخاص بها وللظروف التي تحيط بها وترسم أقدارها؛ والتوافق المسبق على أنه في حال سقوط هذه الامبراطورية سواء كان السبب نشوب ثورة في القسطنطينية أم نتيجة تفكك متوالٍ لأجزائها، تعمد كل من القوى الأوروبية العظمى إلى ضمّ القسم الذي تنص مقررات المؤتمر لنظام الوصاية على التخلي عنه، شرط ألا تنتهك هذه الدول المحمية التي حددّت أراضيها تبعًا لعلاقات الجوار وأمن الحدود وتشابه الديانات والعادات والمصالح، حقوق السلطات المحلية الموجودة سابقًا في المناطق الواقعة تحت سيطرة الوصاية، وألا تعمل إلا على ترسيخ سيادة القوى العظمى. تقوم هذه السيادة المكرّسة بصفتها حقّاً أوروبيّاً على الحق في احتلال هذا الجزء بالذات من الأراضي أو الشواطئ لكي تؤسس فيه إما مدنًا حرة وإما مستعمرات أوروبية أو مرافئ أو أسكلات تجارية. سيتم الاعتراف بالقوميات المختلفة التي توجد على هذه الأراضي مع احترام خصوصية كل

فئة واحترام الحقوق التي كانت متوافرة لها سابقًا أيّاً يكن نوعها. فالدولة الحامية لن تمارس إلا وصاية مهمتها تحضير الدولة المحمية وضمانة أمنها ووجودها وعناصرها القومية تحت لواء قومية أقوى منها كحضور مسلّح فتحول دون غزوها وتفككها وتمزقها وشيوع الفوضى فيها كما تمدها بالوسائل السلمية لتطوير تجارتها وصناعتها.

وعلى هذا الأساس، ستتنوع نمطية العمل وتأثير الدول الحامية على الأقسام التي ستؤول إليها في الشرق تبعًا للمقاطعات والعادات والظروف الخاصة المحيطة بها. وهكذا تسير الأمور من تلقاء ذاتها.

في البداية تبادر الدولة الحامية إلى تأسيس مدينة أو عدة مدن أوروبية حرة في إحدى النقاط الاستراتيجية التي حبتها الطبيعة أو الظروف بفضائلها سواء كانت على السواحل أو في الداخل. هذه المدن المفتوحة أراضيها على جميع الشعوب الخاضعة لسلطة الوصاية، ستكون محكومة وفقًا لقوانين البلد الأم والقوانين الاستعمارية. وحين يدخل السكان المحميون إلى هذه المدن الحرة فسينعمون بحقوق المواطنة ولن يعودوا خاضعين للتشريعات الجبرية والتعسفية لقبيلتهم أو أميرهم، لا بل سيتمتعون بحق الملكية والإرث الذي كانوا يفتقرون إليه في كل مكان والذي هو بمثابة الرافعة الأساسية لكل حضارة، كما سيحظون أيضاً بالامتيازت التجارية والصناعية والحماية الأمنية التي تستنسبها الدول الحامية لهم. وستتوسع دائرة العلاقات التجارية بين هذه المراكز الأساسية الحرة بطريقة حتمية وتدريجية إلى أن تطال المدن والقرى والقبائل الأخرى التي لن تلبث أن تطالب بإصرار بحقوقها القومية والاجتماعية. وهكذا سينتقل البلد المحمي، في سنوات قليلة، ليتكيف داخل أطر الأمة الحامية لأنه يقدّر مسبقًا قيمة القوانين النافذة والمنافع السياسية والاجتماعية التي تمنحها هذه الأمة، لساكنيها والتي ينشدونها عن قصد أو غير قصد. لقد أضنى الطغيان السكان وأرهقتهم الإدارة البربرية المضطهدة التي كانت سائدة في مجتمعاتهم، وباتوا متعطشين إلى الحرية

الفردية وحق الملكية والتجارة. لذا، ما إن تؤسس الدول الحامية المدن الحرة النموذجية حتى يسارع سكان البلاد إلى الذهاب للعيش فيها. ثم إن الأمن المزدهر الذي تتمتع به هذه المدن وانفتاحها ستنتقل عدواها إلى المجتمعات المجاورة فيعمل أهلها على التمثل بها. بيد أن هناك أمرين يجب مراعاتهما واحترامهما وهما الدين والعادات. وهذه المهمة سهلة لأن التسامح شريعة الحس السليم وشريعة أوروبا، وهو أيضًا عادة متأصلة في الشرق. يجب أن تبقى جميع الديانات متعايشة فيما بينها بكل صراحة واحترام متبادل لاستقلالية كل منها. بالإمكان فقط فرض بعض الشروط المدنية البحتة بطريقة تدريجية على هؤلاء الذين سيقيمون في المدن الأوروبية، وتعديلها بما يتوافق مع التشريع وليس مع المعتقدات. لن يعترف القانون المدني الذي يحمي حقوق الأفراد لا بعدد الزوجات ولا بنظام الرقّ. لكن القوانين لن تتدخل في الشؤون العائلية الخاصة،كالأحوال الشخصية أو ممارسة الشعائر الدينية.

سيكون هناك نوعان من التشريعات في كل محمية، تشريع عام واقطاعي نوعًا ما يوطّد العلاقات العامة للشعوب والقبائل المحمية فيما بينها من جهة وبينها وبين الأمة الحامية من جهة أخرى كالمساهمة في الضريبة والأمن وترسيم الحدود؛ وتشريع أوروبي تعمل بموجبه المدن الأوروبية الحرة مستلهم من حضارة الأمة الحامية. وهذا التشريع قوانينه نموذجية وضعت لكي تكون البديل عن التشريع المتخلف والهمجي الذي تسير عليه القبائل المجاورة. من الضروري الفصل بين التشريعين. فهذه الأعراق المجتمعة في الشرق المكوّنة من قبائل وديانات لها عاداتها يجب أن تلتزم بمضمون الميثاق الذي تشرف عليه الدولة الحامية، الذي يدعو الجميع إلى العيش بسلام. يجب تعويد هذه الشعوب على فكرة وحدة المصالح وإنشاء جمعيات استشارية منبثقة عنها للتداول في بعض المواضيع وتعيين مندوبين يتم اختيارهم من بين أكثرهم تنورًا ليتشاوروا بدورهم فيما بينهم ويحددوا المصالح المشتركة للمجموعات الخاضعة لسيطرة الوصاية، من أجل تعويد هذه الأمم والقبائل والملل على إقامة علاقات

متسامحة، وصهرها تدريجيّاً لتصبح مع الوقت كالعرف والعادة إلى جانب الشرائع المكتوبة. على أية حال، الشرق مهيأ مسبقًا لتقبل هذه الأمور نظرًا لعاداته المحلية والتنوع الهائل لأعراقه. لذا لن تجد الأمة الحامية أية صعوبة في توطيد هذه العلاقات والمفاهيم إلا في بعض العواصم الكبيرة كدمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية. لكن، يجب ألا تذلل هذه الصعوبات بواسطة القوة بل من خلال فصل هذه العواصم المؤقت عن باقي الأراضي الخاضعة لسلطة الوصاية وإذا لم يتم معالجة هذه الناحية بحكمة ورويّة تتوقف حركة التجارة في الشرق وتتوقف معها حركة المجتمع وهذا ما يؤدي إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها.

أود أن اقول أيضاً إن إمكانية تحقيق تنظيم مماثل للأمور، لا بل السهولة الفائقة لتنفيذه يستشعر بها كل من جال في هذه الأصقاع. إن غياب حق الملكية والميراث الشرعي، وكذلك تعسف الباشاوات الذي أرهق كاهل الناس في ثرواتهم وحياتهم جعلهم يفقدون مؤقتًا الصلة القومية التي تربطهم ببلدانهم الجميلة، ما يجعل كل لواء يخفق في سمائهم في ظل شروط عادلة جامعًا وطنيّاً لهم، لا سيما أن أغلبهم مهيأون مسبقًا لهذا التغيير الكبير. إن جميع شعوب تركيا الأوروبية وجميع السكان من يونان وأرمن وموارنة ويهود، وهم أقوام نشطاء يحسنون الزراعة والتجارة، لا يطلبون شيئًا آخر سوى حقهم في الملكية والأمن والحرية لكي يتكاثروا ويملأوا الجزر والقارتين. وأنا كفيل بأن هذه الخطة التي أقترحها إذا نفذت ستخلق في فترة لا تتعدى العشرين سنة، أممًا مزدهرة تضمّ الملايين من البشر المندفعين تحت راية أوروبا باتجاه حضارة جديدة.

ربَّ سائل يسأل: إلامَ ستؤول إليه حال الأتراك! أظنّ أن الأتراك سيؤلفون هم أنفسهم أمة تعيش في كنف الدولة الأوروبية الحامية التي آلت إليها السيطرة على البوسفور والقسطنطينية أو آسيا الصغرى. سيحتفظون بقوانينهم وشرائعهم وشعائرهم الدينية إلى أن يقودهم الاحتكاك مع حضارة أكثر تقدمًا بطريقة تدريجية

إلى الاعتراف بحقوق الملكية والعمل والتجارة وكل المنافع الاجتماعية الناتجة عنها. ستبقى أرضهم واستقلالهم النسبي وتابعيتهم تحت الوصاية الأوروبية حتى يتم الانصهار الكامل مع الأمم الحرة الأخرى في آسيا. إذا كان من شأن الخطة التي أتصورها أو أقترحها أن تعتمد العنف وسيلة لترحيل الأتراك عن وطنهم وانتزاع الملكية منهم، فسأعتبر هذه الخطة جريمة. صحيح أن الأتراك، بسبب سوء إدارتهم وعاداتهم، غير قادرين على أن يحكموا أوروبا وآسيا أو إحدى هاتين القارتين. صحيح أنهم أفرغوا البلدان التي أخضعوها لسيطرتهم من محتواها وانتحروا هم أنفسهم من خلال انتحار إدارتهم. ولكن الأتراك بصفتهم عرقًا بشريّاً وأمة، لا يزالون في رأيي نخبة شعوب امبراطوريتهم الواسعة وأكثرهم جدارة. طباعهم هي الأنبل والأكثر رفعة وشجاعتهم لا غبار عليها. أما مزاياهم الدينية والمدنية والعائلية فتثير إعجاب وتقدير كل فكر محايد. نبالتهم مكتوبة على جباههم وفي أعمالهم. لو كانت لديهم شرائع أفضل وإدارة أكثر تنوراً لكانوا من أوائل شعوب العالم. جميع طباعهم كريمة. إنهم شعب جليل عميق التأمل متديّن وفيلسوف. وعندما يتولّون تطبيق شريعة الله يتحولون إلى أبطال وشهداء. معاذ الله، أنا لا أريد أن أثير فكرة القضاء على سلالة مشابهة من البشر الذين شرفوا، برأيي، البشرية! لكنهم لم يعودوا ذلك الشعب الذي خبرناه سابقًا ويجب إنقاذهم كعرق بشري وكأمّة بإنقاذنا أيضًا الأمم التي يضطهدونها ويعرقلون تطوّرها وتقدّمها، وذلك باتخاذنا، في اللحظة المناسبة، القرار بأن نكون أوصياء على قدرهم وقدر آسيا. ربّ سائل يقول لي: بأي حق تضطلع بمثل هذه الوصاية؟ وأجيب بشعوري بالمسؤولية تجاه الإنسانية والحضارة. ما أتوسله ليس الحق الصادر أو المنبثق عن القوة.القوة لا تعطي الحق بل فقط التسهيلات لتنفيذه. وأوروبا المتحدة بهدف الحفاظ على الجنس البشري وتحضيره تملك القدرة، بلا منازع، على التحكم بمصير آسيا. هل يترتب عليها هي أن تسأل ما إذا كانت هذه القدرة تعطيها الحق أو تلزمها بواجب؟ أما أنا فأجيب بنعم. ليس على أوروبا إطلاق ضربة مدفع واحدة ولا هي مرغمة على ممارسة أي عنف كان ولا انتزاع أي ملكية أو تهجير شعب أو انتهاك حرمة دين

أو تقاليد. على أوروبا فقط أن تتخذ قرارًا وتوطّد وصايتها وترفع راية السلام. وإذا لم تعمد أوروبا إلى اتخاذ هذا القرار فأمامها عشرون سنة من الحروب العقيمة وأمام آسيا الفوضى والخراب والجمود والفقر الذي لا ينتهي. فهل يعقل أن يترك الله أجمل منطقة في العالم فريسة الجهل والعقم والقحط والدمار على يد الهمجية الأبدية؟

أما أوروبا نفسها، التي تعيش حالة توتر ثوري وتزخر بازدهار سكّاني وصناعة وقوى فكرية تنتظر من يوظفها، فيفترض بها أن تحمد العناية الإلهية التي تشرّع أمامها آفاقًا هائلة لممارسة فكرها ونشاطها وأهدافها النبيلة ونشر ثقافتها الرائدة ووسائلها الحديثة المعتمدة في الصناعة والزراعة والوظائف وجني ثمار الحضارة من كل نوع. وأمامها أيضًا الأساطيل والجيوش التي يجب قيادتها والمرافئ والمدن التي يجب تأسيسها والمستعمرات التي يجب إنشاؤها والصحارى الخصبة التي يجب استغلالها والصناعات الجديدة التي يجب تنظيمها والأذرعة المفتولة وتشغيلها وعقلنتها وانصهار عادات وشعوب يجب إتمامه وأفريقيا وآسيا وأوروبا يجب تقريبها من خلال خطوط مواصلات جديدة تجعل الهند على مسافة شهر من مرسيليا وتصل القاهرة بكالكوتا. هناك أجمل مناخات الكون. هناك الأنهار وسهول بلاد ما بين النهرين التي تبسط طرقها البرية والبحرية لنشاط التجارة العالمية المتعددة. هناك جبال سوريا التي هي معين لا ينضب للفحم الحجري لتزويد السفن التجارية العديدة عند شاطئ البحر. هناك البحر المتوسط الذي أصبح بحيرة أوروبا الجنوبية تمامًا كما أصبح البحر الأسود بحيرة روسية أو البحر الأحمر والخليج الفارسي بحيرات إنكليزية. هناك الأمم التي حرمت من الأراضي والأوطان والقوانين والشرائع والأمن تتقاسم في كنف التشريعات الأوروبية الأمكنة حيث تتمركز الآن مالئة آسيا الصغرى وأفريقيا والجزيرة العربية وتركيا الأوروبية والجزر بشعوب مجتهدة، متعطشة لأنوار أوروبا ومنتوجاتها ... أية لوحة بديعة تتراءى لأعيننا! أي مستقبل مشرق للقارات الثلاث! أية دوائر جديدة للنشاطات والقدرات والحاجات التي تشغل بالنا! أي سلام ونظام داخلي وتقدم منتظم

لعصرنا الحافل بالمتغيّرات عجبًا! ليست هذه اللوحة إلا تجسيدًا للحقيقة، الحقيقة التي لا تهزم، البسيطة، الفعّالة. كل ما يجب أن تمتلكه أوروبا فكرة صائبة وشعور نبيل تسعى إلى تحقيقه. لديها فقط كلمة واحدة تقولها فتنقذ نفسها بإعدادها مستقبلاً واسع الآفاق للبشرية.

لن أدخل ها هنا في جدال بشأن الحدود أو بشأن المعايير التي يجب أن تلتزم بها أنظمة الوصاية في أوروبا وآسيا، أو بشأن التعويضات التي ستعود بها هذه الترتيبات على أوروبا نفسها. فهذه الأمور صنيعة مؤتمر سري تعقده الدول العظمى فيما بينها. إن الكيانات المتوطّدة هي نتيجة خصوصيات الشعوب، ويجب عدم المس بها قدر الإمكان في المفاوضات. الحرب وحدها تمسها وهذا ما لا ينقصنا. هذه المكافآت ستكون رمزيّة إلى حدّ بعيد. لا يجدر بها أن تؤدي إلى جدال لا نهاية له. ولا إلى نزاعات بين الأطراف المعنيّة. قلت آنفًا إن الكفاءة يجب أن تؤتي ثمارها في بعض الحالات. ولا يجدر بالدول الصغرى في أوروبا إحراج الدول الكبرى التي تتمتع بنفوذ كبير والوقوف بوجهها في المجلس الأوروبي الكبير. عندما تتفاهم روسيا وإنكلترا وفرنسا في شأن من الشؤون وتتخذ القرار الحاسم فلا تستطيع سائر الدول منعها. سترتفع بعض الأصوات السياسية الصغيرة معترضة، لكن ما كتب قد كتب، وأوروبا كتب لها أن تتجدد.

****

خاتمة ١٨٤٩

أكملنا هذه الرحلة بأن ألحقناها بملاحظات مختلفة وإضافات وترجمات غير مسبوقة من شأنها أن تزيد في أهميتها. أنجز فتح الله الصغير، هذا الرحّالة العربي الأول الذي جال بين قبائل الوهابيين، قصته ودوّنها بيديه وجاء بها إلى باريس فأوعزت إلى المكتبة الوطنية بأن تشتريها عام ١٨٤٤. وقد كافأت الحكومة الفرنسية فتح الله الصغير على الخدمات التي أداها في مجال التاريخ والجغرافيا ووصف عادات الشعوب الشرقية فعيّنته وكيلاً قنصلياً لفرنسا في حلب. أنزلته في داري في باريس واستضفته كما كان يفعل العرب تحت خيامهم في الصحراء وكما استضافني أنا نفسي أصدقاؤه في الجزيرة. أحاطته فرنسا- بلده الثاني - بكل الاهتمام الذب يستحقه وها هو يعيش الآن في وطنه بين زوجته وأولاده. عندما يصلب عود الجمهورية في فرنسا ويعم السلام البلاد، آمل أن أذهب أنا نفسي إلى الشرق لرؤية فتح الله من جديد، هذا الشرق الذي طالما فتن خيال الشعراء والفلاسفة، كما تجتذب الشمس الغاربة أنظار الرحّالة لتنذرهم بالقليل من الأيام التي تبقت لهم لإنهاء رحلتهم.

قمت بتوضيح بعض وجهات النظر والآراء الواردة في هذه الكتاب. أو بالأحرى صححتها الأحداث نيابة عني. كل شيء تغيّر على هذه الحلبة التي تدور فوقها أحداث السياسة الغربية والشرقية معًا. ما بدا صحيحًا في عام ١٨٣٤ سيكون ربما مغلوطًا عام ١٨٥٠. فالله نفخ ريحه على هذه الصحارى راسمًا أشكالاً جديدة وتموجات جديدة على رمال الشرق.

توفي إبراهيم باشا وهاهو سيفه، الذي كان يهدّد به موارنة لبنان والسلطنة العثمانية في إزمير والقسطنطينية، يرقد إلى جانبه في القبر.

توفي محمد علي، وتلاشت أحلامه بإخضاع الإسلام وخلق محور جديد له في الإسكندرية وتجديد شباب الإسلام ودفنت معه.

توفي السلطان محمود، قاهر جنود الإنكشارية في القسطنطينية ومحرّر السلطنة الإمبراطورية من نير الجنود الطغاة وغير المنضبطين. سيدعوه التاريخ بطرس الأكبر العثماني.

وابنه عبد المجيد الذي خلفه من بعده، وجد عند موت والده امبراطورية حرّة منعتقة من الأحكام المسبقة والوسائل من حولها متوافرة لإتمام العمل الحضاري الذي باشر به أبوه. كما أحاط نفسه بطائفة من الوزراء الماهرين الليبراليين الذين ترعرعوا في أوروبا ويعملون بدأب على توطيد سياسته المتساهلة والمنفتحة، ما يبشر بانصهار مقبل للأعراق الذي من شأنه وحده تجديد وجه الشرق.

وقد أظهرت حكومات لندن وباريس اهتماماً بهذا الأمير الشاب لأنه يجسد طموح حاكم شاب وشعب في الوقت نفسه. وأدركت أوروبا أكثر فأكثر، من خلال الأحداث التي شهدتها هنغاريا وفالاشيا ومولدافيا، أن الامبراطورية العثمانية المتحضرة، المتنورة، المسلحة، المحمية، باتت تشكل ثقلاً ضرورياً يؤمن توازن العالم، وأن البوسفور والدردنيل سيكونان لاحقًا صمام الأمان لحرية الملاحة البحرية وربما أيضًا صمام الأمان لحرية القارة في مواجهة الغزوات المحتملة للجركس. وجدت الجمهورية الفرنسية نفسها متحالفة مع تركيا دون معاهدة، ذلك أن الشعبين أدركا ضرورة هذا التحالف دون أن تكون هناك حاجة إلى المؤتمرات أو المفاوضات. وتبقى الغريزة التي يتمتع بها السياسيون هي الأصدق. غداة ثورة شباط، أرسلت الجمهورية، في شخص الجنرال أوبيك سفيرًا مصلحًا ومعتدلاً وصديقًا للسلام لكنه قادر أيضًا على اتخاذ القرارات المناسبة الحاسمة عند الضرورة وتذكير مغتصبي الاستقلال العثماني بأن فرنسا لا تزال تنجب أشخاصًا مثل سيباستيان بين مفاوضيها وجنرالاتها.

أظهر عبد المجيد في هذه المناسبات الأخيرة أن اللطف الذي يتوسله في الإشراف على مقاطعاته لن يكون إطلاقًا تخليًا جبانًا عن كرامته أو تنازلاً مهينًا أمام مطالب جيرانه بل إن وجوده يشكل من الآن فصاعدًا جزءًا لا يتجزأ من التحالف الثلاثي في مواجهة القوافل المرابطة وراء البحر الأسود والبلقان. إن امبراطوريته طليعة الحضارة في الشرق ومحكوم عليها بالتالي أن تمضي قدمًا في طليعة موكب التحضر. إنها بشرى سعيدة تلك التي ستعيد عبد المجيد غاليًا على قلوب شعوبه المحكومة بشكل أفضل، والتي ستجعل من القسطنطينية حدود أوروبا التي تدافع عنها أوروبا بدل أن تكون معسكرًا للهمجية، بحسب تعبير السيد بونالد. ثمة شيء يتخطى التنافر بين الأعراق والحنين إلى الماضي واختلاف الأديان: إنه تجاذب الحضارات فيما بينها الذي يتحقق باطراد باتجاه الوحدة العضوية للعرق البشري، تحت شعار النور والحرية.

****

ملاحظات ملحق/حاشية

الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٩

إن ذاكرة الشعوب البدائية لا تنضب كسماء الشرق، فهي تحتفظ طويلاً بآثار الرحّالة الذين سكنوا بين القبئل وتصنع حدثًا مدويًا من رجل عابر وتبدع قصيدة تقليدية من ذكرى الأيام التي عاشها تحت خيامها. ففي بلاد لا تحدث فيه تغيرات سياسية إلا نادرًا ولا يطرأ تبدل في عاداتها وتقاليدها. في بلاد لا منابر فيها ولا صحف وحيث كل شيء يتوالى في حياة شعوبها مكررًا نفسه، هادئًا، رتيبًا، لا يقتضي الأمر أحداثًا عظيمة لكي تستحوذ على الاهتمام بل يكفي حدث طفيف وعابر لإحداث تغيّرات حاسمة. الشرق هو أيضًا بلد الخيال وأرض العجائب والتقاليد، والأخبار التي تتناقلها الألسن تضخّم فيه كل شيء. لا شيء متروكًا لطبيعته بل يحاط بهالة من السحر للتو. كل غريب يجتاز الطريق يصبح حكيمًا أو بطلاً. هذا الشعب الذي انتظر المسيح وانتظر هجرة النبي وانتظر بونابرت، ينتظر دائمًا شيئًا ما، شخصًا ما، حتى لو كان هذا الشخص مجرد رحّالة بائس يجرّ ظله على رمل الصحراء، لا يلوي على شيء، أو ينزّهه إلى جانب الأعمدة المدمرة في بعلبك. هنا يكمن سر الحفاوة التي استقبلت بها بين العرب وخصوصًا في أوساط موارنة جبل لبنان. أشيع في أوروبا، لدى رجوعي من الشرق، أنني أنفقت ثروة طائلة خلال سنتي الترحال اللتين أمضيتهما هناك وأنني أجزلت الهدايا على كل من صادفته في طريقي من ذهب وأقمشة فاخرة وأسلحة ثمينة ولآلئ وماس، وبددت بذلك ثروتي هدرًا ما اضطرني إلى بيع أملاكي العائلية في مسقط رأسي بالذات.

كل تلك الإشاعات فصل من فصول ألف ليلة وليلة الخيالية التي يؤلفها الناس عن هؤلاء الذين يذاع اسمهم بين الحشود. والحقيقة هي أنني سافرت إلى الشرق كما قد نسافر مع عائلتنا ومع بعض الأصدقاء وعدد معين من الخدم وقافلة من الحمير والبغال والجمال والأحصنة العربية. وهذه القافلة ضرورية لا سيما عندما نجتاز مناطق مقفرة ولا نجد منزلاً نأوي إليه إلا خيامنا. الحقيقة هي أنني، بادلت الحفاوة التي استقبلت بها وهدايا العرب التي أغدقوها عليَّ ببعض الهدايا المتواضعة والبخسة الثمن. وفي الواقع، لم تكلفني هذه الرحلة، التي استغرقت سنتين برّاً وبحرًا، إلا مائة ألف فرنك إجمالاً، مائة ألف فرنك اقتطعت منها أيضًا ثمنًا لأسلحة حملتها معي إلى أوروبا وسجاجيد وصهوات وأحصنة يبلغ ثمنها أكثر من عشرين ألف فرنك. ولدى رجوعي إلى فرنسا، دفع لي أحد الناشرين النافذين مبلغ أربعة وعشرين ألف فرنك تقريبًا ثمنًا للملاحظات التي دونتها لي شخصيّاً ولم أكتبها له خصيصًا. ينتج عن ذلك كله أن هذه الرحلة المكلفة والتي يقال إنها تسببت في إفلاسي، لم تكلفني شيئًا وإنني عشت حياة رائعة لسنتين دون أن أحتاج إلى مداخيل الأراضي التي أملكها في فرنسا. يجب البحث إذًا عن سبب آخر لضياع ثروتي الذي يشغلني بكثير من الألم عن استعادة هذه الذكريات الغالية على قلبي ويحول دون التفكير بعودتي المحتملة إلى الشرق، ويجعلني عن طريق العمل الزراعي أحسّن ظروف هؤلاء الذين سيعتاشون مني بعد موتي. الحياة السياسية أغلى ثمنًا بكثير من الحياة المترحلة والشعرية: هذا هو سر تدهور ثروتي.

كانت الليدي استير ستانهوب قد ظنّت أنني بعد أن تورطت لا إراديّاً في الأحداث الكبيرة في البلاد، سأعود إلى الشرق من أجل نشر أفكار أخرى. أكذب لو قلت إن هذه الأفكار تقتصر فقط على أن أغرس شعيرًا أو حنطة أو حريرًا أو قطنًا في الأثلام القديمة لتلك الأرض. لدي أفكار أخرى ولا أخفي ذلك وسأقولها عاليًا حين يحين الأوان. لا أعتقد أن نبوءات وتخمينات الليدي ستانهوب التي انبثقت على أثر حادث جاء

يسلبني كل شيء في نزوة من نزوات السياسة. لا أعتقد أن هذه التخمينات هي التي ستقودني من جديد إلى نشر أفكاري في الشرق. لا، إن النبوءة الحقيقية لمصير إنسان هي ما يوحيه إليه خياله. وسبق لي وقلت ذلك عندما بدأت كتابة هذه الأجزاء، أن المنحى الذي يقودني شعوري إليه يأخذني باتجاه الشرق ومناخاته. إن خيالي ينسجم مع مياه بحره وهواء سمائه وفلسفتي منبعها هذه الأنوار. أرى الله هناك أكثر مما أراه هنا. لذا أرغب في أن أشيخ في أرض الشرق وأموت هناك. هذا لا يعني أبدًا، وكما تشيع الصحف في فرنسا، أنني مزمع على مغادرة بلادي لغضب يعتمل في نفسي ولخيبة أملي في أبناء بلدي وبسبب نكران الجميل الذي لاقيته منهم. لا، بل هذا يعني بكل بساطة أنني سأقتني كوخًا في أحد الحقول تحت شمس آسيا وأبني بيتًا في بلاد غريبة يعتاش أهلها من الموارد الزراعية ويقنعون بالكفاف من العيش. وهذا يعني ايضًا أنني سأبقى في بلادي الأم ما دامت تحتاج لمواطن متفانٍ وأنني سأرجع إليها لدى أول نداء منها ما دمت أستطيع خدمتها مهما تكن صفتي متواضعة. لكن، بعد أن يغرب نهاري، سأذهب لأنشد الراحة في الملجأ الذي لا تضن به الضيافة الشرقية على كل متوحد ومبعد عن وطنه. سأجد أن الصداقات التي عقدتها هناك مع الناس البسطاء وأبطال جبل لبنان ما زالت نضرة وحيّة. وضمانتي التي لا يرقى إليها شك تلك الرسائل التي لم يكفوا عن كتابتها لي رغم المحن التي مروا بها ومنذ أن أنجز السلطان عبد المجيد الإصلاحات الإدارية التي باشر بها والتي ستعيد للموارنة أمنهم فتنتشر في ربوعهم الحرية التي تجري في عروقهم. في هذه المرحلة من الاضطرابات في لبنان التي سببتها طموحات باشا مصر وسياسة فرنسا المغلوطة عام ١٨٤٠، أرسل لي زعماء لبنان إلى باريس، من خلال وفد، سيف شرف سأعيده لهم لو تسنت لي بهجة رؤيتهم من جديد. وامتنانًا لهم، كتبت هذه الرسالة: «أيها المشايخ الموارنة الأعزاء، تلقيت السيف الذي أرسلتموه لي. وسأحتفظ به ما دمت حيّاً وسأوصي أفراد عائلتي بأن يحتفظوا به من بعدي شهادة حية على صداقتكم وصداقة الأمة المارونية لفرنسا.

منذ أن تركت جبالكم ما زالت تحدوني رغبة شديدة للعودة والعيش في ربوعكم. ما إن تسمح لي الشؤون العامة بمغادرة بلادي لبضع سنوات، سأبحر من جديد لكي أذهب لزيارتكم. منحتموني الضيافة وكأنني أخ لكم وأمنحكم أخوّتي. لقد اتسعت رقعة العائلة البشرية بمشيئة الله عندما امتلأ قلب الإنسان بالمحبة. وأتشرف بأن تحسبوني واحدًا من أولادكم.

ما دامت الأمة الفرنسية تتذكر مجدها في مصر وسوريا فستتذكر الأمة المارونية على الدوام وتحميها من أعدائها. أبلغت قادتنا في فرنسا تأكيدكم على أواصر الصداقة بينكم وبينها وسيبادلونكم إياها عبري حين أعود إلى ربوعكم ناقلاً إليكم عربون صداقتهم الأبدية. فليمدّكم الله بأيام طويلة كما أمّد البطاركة الذين حكموا أرضكم وليبارك جبالكم المقدسة مغدقًا عليها أجمل النعم التي أعطاها للإنسان: الدين والحرية».

****

المحتوى

- تصدير، **عبدالعزيز سعود البابطين** ٣

الجـزء الأول :

- مفتتح، د. **جمال شحيّد** ٧
- تنبيه يتعلق بالطبعة الأولى ١١
- ذكريات وانطباعات، أفكار ومشاهد ١٥
- مرسيليا في ٢٠ أيار ١٨٣٢ ...... ١٦
- وداع .. تكريم لأكاديمية مرسيليا ١٨
- في المرسى، مبللاً أمام الخليج الصغير في «مونترودون» ٢٧
- ١١ تموز ١٨٣٢، أثناء الإبحار ٣١
- خليج «سيوتا» ٣٨
- الوصول إلى مالطا ٥٨
- أفكار في السفر ٧٤
- ٦ آب ١٨٣٢ – في عرض البحر ٨٠
- أثينا – ١٨ آب ١٨٣٢ – في عرض البحر ٩٧
- زيارة الباشا ١١٥
- في عرض البحر بعد مغادرتنا جزيرة قبرص ١٢٣

- بيروت ٦ أيلول ١٨٣٢ ..... ١٢٨
- برج فخر الدين، ٢٧ أيلول ١٨٣٢ ..... ١٥٤
- ٢٩ أيلول ١٨٣٢ ..... ١٥٧
- زيارة الليدي استير ستانهوب ١٦٠
- زيارة الأمير بشير ١٧٨
- ملاحظات حول الأمير بشير ١٨٩
- الدروز ٢٠٧
- السفر من بيروت عبر سوريا وفلسطين.. إلى القدس.. ..... ٢١٩
- سورية - الجليل، ١٥ تشرين الأول، ١٨٣٢ ..... ٢٤٧
- القدس ٣٠٢
- ضفاف الأردن خلف سهيل «أريحا» وقبل مصب النهر في البحر الميت ٣٣٠
- أريحا ٣٣٥
- ٢ تشرين الثاني ١٨٣٢ - قرب بركة سليمان ٣٤٦
- جتسماني أو وفاة «جوليا» ٣٩٨
- مناظر وخواطر .. من سورية ٤٠٧
- أطلال بعلبك ٤١٥

الجزء الثاني :

- تمهيد ٤٥٧
- ذكريات وانطباعات ٤٦٥
- العودة إلى بيروت والرحلة إلى أرز سليمان ٤٩٩
- الرحيل عن يافا ٥٣١
- القسطنطينية ٢٠ أيار ١٨٣٣ .... ٥٥٠
- خلاصة سياسية عن رحلة إلى الشرق ٦٦٣
- خاتمة ١٨٤٩ .... ٦٨٤
- ملاحظات، ملحق / حاشية ٦٨٧
- المحتوى ٦٩١

****